١٧١

الجواهر
في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوى جوهرى
المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء العشرون

طبع بمطبعة
مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

وباشر طبعه محمد أمين عمران

رمضان سنة ١٣٤٩ هـ

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الشورى

(هي مكية)

إلا أربع آيات من قوله ـ أم يقولون افترى على الله كذبا فان يشأ الله يختم على قلبك ـ الى قوله ـ والكافرون لهم عذاب شديد ـ مع قوله ـ وهو الذى ينزل الغيث من بعد ماقنطوا و ينشر رحمته وهو الولى الحميد ـ فمدنية

آياتها ٥٣ ـ نزلت بعد فصلت

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حٰمٓ * عٓسٓقٓ * كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *
لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن
فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ
الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم
بِوَكِيلٍ * وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ

الجمع

الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ * وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَلَٰكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ
دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ
مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ
شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ
إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا
وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا
تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ * وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ
مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ
الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ * فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا
أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ
اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا
وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ * وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ
رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ * اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ
وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ * يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ
مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * اللَّهُ لَطِيفٌ
بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي
حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ * أَمْ لَهُمْ
شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ
الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ

الكبير * ذلك الذى يبشر الله عباده الذين ءامنوا وعملوا الصالحات قل لا أسئلكم
عليه أجرا إلا المودة فى القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا إن الله غفور
شكور * أم يقولون افترى على الله كذبا فإن يشإ الله يختم على قلبك ويمح الله
الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور * وهو الذى يقبل التوبة عن
عباده ويعفوا عن السيئات ويعلم ما تفعلون * ويستجيب الذين ءامنوا وعملوا الصالحات
ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد * ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا
فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير * وهو الذى ينزل الغيث
من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد * ومن ءاياته خلق السموات والأرض
وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير * وما أصابكم من مصيبة فبما
كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير * وما أنتم بمعجزين فى الأرض وما لكم من دون
الله من ولى ولا نصير * ومن ءاياته الجوار فى البحر كالأعلام * إن يشأ يسكن الريح
فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور * أو يوبقهن بما
كسبوا ويعف عن كثير * ويعلم الذين يجادلون فى ءاياتنا ما لهم من محيص * فما
أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين ءامنوا وعلى ربهم يتوكلون
* والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون * والذين استجابوا
لربهم وأقاموا الصلوة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون * والذين إذا
أصابهم البغى هم ينتصرون * وجزاؤا سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على
الله إنه لا يحب الظالمين * ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل * إنما
السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم *
ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور * ومن يضلل الله فما له من ولى من بعده
وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل * وتراهم يعرضون عليها
خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى وقال الذين ءامنوا إن الخاسرين الذين خسروا

انفسهم

أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ * وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ * اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ * فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ * لِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ * وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ * وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ .

اعلم أيها الذكى أن هذه السورة تشتمل على قسمين : القسم الأوّل من أوّل السورة الى قوله ـ لهم عذاب شديد ـ وفى هذا القسم :

(١) إن لله ملائكة يقومون بتدبير شئون العالم المادّى من جماد وحيوان وانسان . وأيضا يقومون بإلهام الناس ماينفعهم فى أمورهم الدينية والدنيوية تتميما لقوله ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ـ فان مايعرفه البشر من العلوم والمعارف يكون بالهام ، فاذا استعدّ الانسان لعمل نافع دنيوى أوأخروى أحس فى قلبه بفكرة ، ثم هو نفسه بعد ذلك يتصرّف فيها بعقله ، لأنهم لايلهمون إلا من وجدوا عنده استعدادا للإلهام

(٢) وانه ﷺ أنزل عليه قرآن عربىّ لينذر أهل مكة ومن حولها ، وذلك بالوحى الذى أنزله الله عليه بواسطة الملائكة المذكورين كجبريل ، وليس الوحى لقوم والايمان والكفر لآخرين إلا على مقتضى الاستعداد وهذا العالم لايمكن أن يكون جميع أفراده على حال واحدة ، فهم مختلفون فى جميع الأحوال ، وهذا الاختلاف نجم منه الاستعداد للايمان والاستعداد للكفر ، فعالمنا هذا لايصح إلا على هذا الضرب من الاختلاف

(٣) وكما اختلف الناس فى أحوالهم كالايمان والكفر اختلف كل شىء فى السموات والأرض كالذكر والأنثى والانسان والأنعام ، فأما هو فليس كمثله شىء ، وانما مفاتيح العوالم بيده ، فمن شاء وسع له فى رزقه ومن شاء ضيق عليه ، فاذا اختلف الناس إيمانا وكفرا ، واختلفت المخلوقات ذكورة وأنوثة ، وتنوّعت الخليقة فهكذا اختلفوا فى الأرزاق بحسب الاستعداد والنظام ضيقا وسعة

(٤) ثم رجع القول الى الوحى والدين والنبوّة ، فأفاد أن الوحى الذى أنزله الله على الأنبياء جميعا كنوح

ومحمد ﷺ وابراهيم وموسى وعيسى يدعوالى أمر واحد وهوالايمان بالقلب والطاعة بالعمل وأن لايختلفوا في هذا الأصل ، ثم إن شرائعهم تتفرّع كل بحسب زمانه كما تفرّعت الحيوانات الى أنواع وذكران واناث والأصل واحد وهي الحركة والنموّ ، ثم إن الأمم بعد ماعرفوا أن التفرّق ضلال وأن رسلهم حقّ وقدقرءوا كتبهم وعقلوها تفرّقوا ، وهكذا هؤلاء الذين دعوتهم كبرعليهم ماتدعوهم إليه وكذا أهل الكتاب في زمانك أصبحوا في شكّ مقلق

(٥) فاصدع بأمرك ، وادع للدين ، واستقم على الدعوة ، ولا تتبع أهواءهم ، وكلهم في القوّة العلمية والقوّة العملية ، وحججهم لاتقوم ضد الحقائق الثابتة

(٦) ثم انه سبحانه أبان أن نظامه كامل والعالم كله موزون منظم ، وهذه الكتب الدينية إنما نزلت لاقامة العدل بين الناس بحسب الظاهر ، فمن كان باطنه غير كامل وهو ظلم فأمامه العدل العام في السموات والأرض يتلقاه يوم القيامة ، وهذا برهان إما خطابي واما عقلي على اليوم الآخر كما ستراه بعد ، والناس فريقان : في أمر الساعة ، فريق مستهزئ بها ، وفريق مصدّق خائف . إن الله وسع في ملكه البارّ والفاجر والصالح والطالح ، فلم يهلك المستهزئ ، بل أمهله الى يوم القيامة . وأن أمر الرزق ليس تابعا للعقائد بل هو تبع للمشيئة والمصلحة المعلومة عنده تعالى . وأمر الآخرة يرجع الى ارادة الانسان نفسه . فمن جعل همه العاجلة نالها لاغير . ومن جعل همه الآجلة أعطي النعمتين . وذلك على حسب النظام العام . والعدل أن لايعطى الانسان إلا على مقدار مايستحقه ومايقبله استعداده . ولذلك يكون الظالمون يوم القيامة وجلين خائفين من ذنوبهم والصالحون منعمين . وهذه هي البشارة التي بشرالله بها عباده الصالحين . ثم أمر نبيه ﷺ أنه لا يسألهم على التبليغ أجرا وانما يسألهم أن يودّوا الله ورسوله في تقرّبهم اليه بالطاعة والعمل الصالح وذلك ليكونوا في روضات الجنات

وأما القسم الثاني وهو من قوله تعالى ـ ولو بسط الله الرزق لعباده ـ الى آخر السورة ففيه إن تسخير العباد في جلب الرزق لم يكن عبثا بل هو لتدريبهم على العمل ، ومن فوائد ذلك عدم التكبر والبطر والظلم ولأجل ارتقاء نفوسهم وتدريبهم على الصبر جعلهم بين رجاء وخوف وضيق وسعة ، فلا ينزل الماء عفوا بلا طلب بل يجعل الأرض يابسة ليطلبوا الماء ويشتاقوا الى المطر ، ثم ينزل ليكون ذلك أدعى للتفكر والتدبر والاستبصار والشكر ، واذاركبوا في البحر جرت الرياح جريا غيرمتصل ليحصل لهم الخوف والرجاء كما حصل في المطر على أنه اذا نزل المطر وعمّ الخصب واستقامت السلامة ، فليس كل هذا له معنى في نفسه ان ذلك متاع الحياة الدنيا ، ولكن الفضائل النفسية والأخلاق والعلوم هي الباقية ، فمن تلك الفضائل الشورى بين المسلمين والاحسان ، والجود بالمال على مستحقيه ، والعفو عن المذنب ، وأن لا يكون عقابه إلا على قدر ذنبه ، وخير من هذا العفو ، فهو خير وأبقى

ثم ختم السورة بما يفيد اختصاصه بالملك ، وانه يفعل مايشاء على مقتضى حكمة يعلمها ، وأن الناس مختلفون في الذرية من حيث الذكران والاناث والتعم وعدمه ، وهكذا في القرب منه حتى خصّ الوحي بفريق مستعدّ لذلك ، ومع ذلك فلكلام الله معهم شرائط وأحوال ثلاثة . انتهى إجمال المقال على السورة

﴿ التفسير اللفظي ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(حم . عسق) الثناء والمجد يرجعان للحمد كما تقدّم في السور السابقة ، والحمد يرجع لأمر الدنيا والآخرة فهو ينقسم من معرفة النعم [illegible] العلوم ، وقد جاء الحمد في السورة السابقة في قوله تعالى ـ تنزيل

من حكيم حميد ، وفى هذه السورة فى قوله ــ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ــ والعين فى العزيز والعظيم والعلىّ ، والقاف من قدير فى قوله ــ وهو على جمعهم اذا يشاء قدير ــ ، والسين من الساعة ، فهذه الحروف داخلة فيما تقرّر فى أوّل «آل عمران» وغيرها وتختص بما اختصت به آل حم فى أنها حاضة على الحمد وازدياد العلم والحكمة ، لاسيما بما سيأتى من البرهان على الساعة وقيامها . فان هذا البرهان عقلى أوافناعى ترتاح اليه النفوس وتطمئن القلوب كما ستراه لأنه مستمدّ من علوم الخليقة والنظم الطبيعية . فانه يقرّر فى النفوس قدرة الله على جمع النفوس البشريّة يوم القيامة . وهذا دلالة السين والقاف . أما العين فرجعها جلال الله وعظمته وكبرياؤه وعزته وعلوّه . فههنا محامد وعلوم يراد بها القربى من ذى العزّة والعظمة . وبهذه العلوم تعرف البراهين الدالة على عدله وانه لايدع أمر العالم سدى بل لابد من بعثهم وحسابهم ، وكأن هذه المعانى التى تشير لها هذه الحروف أهمّ مافى السورة فان العلوم جميعها وأخصها ماتعلق بالله وباليوم الآخر ليس بعدها مزيد لمستزيد . قال تعالى (كذلك يوحى اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم) أى مثل مافى هذه السورة من المعانى يوحى اليك الله العزيز فى ملكه فلا يكلم أحدا إلا وحيا ، أومن وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى باذنه مايشاء ، ذلك لعلوّه وعزّته وحكمته ، فلعزته ترفع عن أحوال الحوادث ، ولحكمته كلمهم على مقدار حالهم . ثم أوضح عزّته وعلوّه فقال (له مافى السموات ومافى الأرض وهو العلىّ العظيم) هذه الجمل كلها لتبيان عظمته وعلوه وكبريائه وحكمته (تكاد السموات يتفطرن من فوقهنّ) أى ينفطرن من علوّ شأنه وعظمته أى تكاد كل واحدة تنفطر فوق التى تليها من عظمة الله تعالى . ولذلك ترى هذه العوالم التى نعيش فيها واشتقت منها المادة ماهى إلا أثير أى عوالم لالون لها ولاطعم ولا وزن فهى فى الحقيقة عوالم ذائبة منفطرة بل تكاد تكون حركات مضطربات لامستقرّ لها ومنها كوّنت الشموس . فهذه الشموس السارحات فى عالم الأثير تكاد تنفطر وذلك من عظمته ، انه علىّ ، وانه عظيم ، ولعلوّه لاتتناوله الحواس وهكذا المادة التى خلقها هو ودبرتها الملائكة لاتصيبها الحواس وانما الشموس والأقمار والأرضون هى التى تنالها الحواس . وهذه على شفا جرف هار ، فهى أيضا مستعدّة للانفطار والانشقاق كما ثبت فى علم العصر الحاضر ، فما من كوكب أو شمس أوقمر إلا وهى مستعدّة يوما مّا لأن ترجع أثيرا ، فهى تكاد ترجع للطبيعة كرة أخرى لأنها مغروسة فى العالم الأثيرى اللطيف فتكاد ترجع لأصلها ، وانما الذى يحفظها ويقيم أمرها هم عوالم الملائكة باذن ربهم وهذا قوله (والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض) فهم يحافظون على هذه العوالم خيفة أن يتطرّق اليها الخلل بنواميس سنها لهم ، ويلهمون الناس مايحتاجون اليه ، فما مثل الملائكة إلا كمثل الضوء يعطى الحياة بحرارته ويعطى الهدى بنوره ، هكذا هؤلاء الملائكة يحافظون على الشموس والأرضين بقوّتهم المستمدّة من ربهم ، ويلهمون الخير لمن استعدّ لذلك . فالشموس التى نراها والأرضون لولا الملائكة لذابت فى الأثير والحافظ لها الملائكة . وانما نبه الناس على ذلك ليفكروا فى ذلك ويعلموا أن هذا العالم الذى نعيش فيه كله حياة وحكمة . فعلى الانسان أن يفكر فى أن يكون عضوا نافعا فى جسم هذا العالم الكلى حتى يلحق بالملأ الأعلى . فليكن من المصلحين فى الأرض على قدر طاقته . ولاجرم أن إلهام الملائكة ومحافظتهم على الناس بأمر ربهم مفيدة للناس ، وذلك دلالة على أن الله كثير المغفرة والرحمة إذ سخر الملائكة للاستغفار لمن فى الأرض فغفر لهم ورحمهم وذلك قوله (ألا إن الله هو الغفور الرحيم * والذين اتخذوا من دونه أولياء) شركاء (الله حفيظ عليهم) رقيب على أعمالهم فيجازيهم (وما أنت عليهم) يامحمد (بوكيل) بموكول اليك أمرهم (وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا) أى مثل المعنى الذى فى الآية التى قبل هذه من أن الله رقيب عليهم لا أنت ، بل أنت منذر ، وقد تكرّر فى القرآن فى مواضع كثيرة ، أوحينا اليك قرآنا عربيا (لتنذر أم القرى) أى أهل أم القرى وهى مكة (ومن حولها) من العرب (وتنذر يوم الجمع) يوم

القيامة تجمع الخلائق فيه والأرواح والأشباح والأعمال والعمال ، وقوله (لاريب فيه) جملة اعتراضية وهم بعد جمعهم (فريق فى الجنة وفريق فى السعير * ولوشاء الله لجعلهم أمة واحدة) مهتدين أوضالين (ولكن يدخل من يشاء فى رحمته) بالهداية (والظالمون مالهم من ولى) يدفع عنهم (ولانصير) يمنعهم من العذاب (أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هوالولى) هو وليك يامحمد وولى من اتبعك (وهو يحيي الموتى وهو على كل شىء قدير) وكيف يستحق أحد أن يكون وليا إلا من كان بهذه الصفة (وما اختلفتم) أنتم والكفار (فيه من شىء) من أمر من أمور الدنيا أوالدين (فحكمه إلى الله) مفوّض اليه ، فهو يميز المحق فينصره من المبطل فيخذله (ذلكم الله ربى عليه توكلت) فى مجامع الامور (واليه أنيب) أرجع فى المعضلات (فاطر السموات والأرض) خبر آخر لذلكم (جعل لكم من أنفسكم) من جنسكم (أزواجا) حلائل (ومن الأنعام أزواجا) أصنافا ذكرانا واناثا (يذرؤكم) يخلقكم أويكثركم (فيه) فى الرحم (ليس كمثله شىء) كلمة التشبيه كررت لتأكيد نفى التماثل أى ليس مثله شىء (وهوالسميع) لسائر المسموعات (البصير) لسائر المبصرات (له مقاليد السموات والأرض) مفاتيح الرزق فيهما ، ففى السماء بالامطار وفى الأرض بالانبات ، ولذلك أعقبه بقوله (يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أى يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء ، ذلك لأن مفاتيح الرزق بيده (إنه بكل شىء عليم) من البسط والتضييق (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا اليك وماوصينا به ابراهيم وموسى وعيسى) أى شرع لكم من الدين دين نوح ومحمد ومن بينهما من أرباب الشرائع أى الأصل المشترك بينهم وهوالمبين بقوله (أن أقيموا الدين) الايمان والطاعة (ولاتتفرّقوا فيه) ولاتختلفوا فى هذا الأصل ، فأما فروع الشرائع فهى مختلفة (كبر) عظم (على المشركين ماتدعوهم اليه) من التوحيد (الله يجتبى اليه من يشاء) يجتذب الى الدين (ويهدى اليه) بالارشاد (من ينيب) يقبل عليه (وماتفرّقوا) أى الأمم السابقة (إلا من بعد ماجاءهم العلم) بأن التفرّق ضلال (بغيا بينهم) عداوة وطلبا للدنيا (ولولا كلمة سبقت من ربك) بالإمهال (الى أجل مسمى) هو يوم القيامة (لقضى بينهم) باستئصال المبطلين (وان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم) يعنى أهل الكتاب المشركين فى عهد النبى ﷺ فان هذين القسمين أوتوا القرآن وشكوا فيه بعد ماتفرّق قدماء أهل الكتاب وهم يعلمون أن التفرّق ضلال ، فقوله (لفى شك منه) من الكتاب أى القرآن (مريب) مقلق ، أومدخل فى الريبة (فلذلك) فلأجل ذلك (فادع) الى الاتفاق على الملة الحنيفية (واستقم كما أمرت) واستقم على الدعوة (ولاتتبع أهواءهم) الباطلة (وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب) أى جميع الكتب السماوية (وأمرت لأعدل بينكم) فى الحكم اذا تخاصمتم فتحاكمتم الى (الله ربنا وربكم) أى كلنا عبيده (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم) كقوله « لكم دينكم ولى دين » (لاحجة بيننا وبينكم) لاخصومة لأن الحق قد ظهر والحجة قائمة عليكم (الله يجمع بيننا) يوم القيامة (واليه المصير) المرجع (والذين يحاجون فى الله) يخاصمون فى دينه (من بعد ما استجيب له) من بعد مااستجاب له الناس ودخلوا فى الاسلام ليردّوهم الى الجاهلية (حجتهم داحضة) باطلة (عند ربهم وعليهم غضب) بكفرهم (ولهم عذاب شديد) فى الآخرة (الله الذى أنزل الكتاب بالحق) ملتبسا به بعيدا عن الباطل (والميزان) أى العدل والتسوية والنظام العام ، ولاجرم أن الكتب السماوية من نوع الميزان العام والعدل الشامل الذى ظهر فى عالمنا الأرضى والسماوى ، ولما كانت الأحكام القضائية لاتعتمد إلا على الظواهر وكان هنالك بواطن مخبوءة أرجئت القيام الساعة حتى يكون الميزان الانسانى تاما كالميزان العام ، فكأن سائلا يقول : يارب إنا نرى الناس فى الدنيا يغشون ويكذبون ولاعدل بينهم والقضاة يحكمون بالظاهر ، وأيضا ربما رأينا الصالح حقيرا والشرير حظيا فأين الميزان فى عالمنا ؟ فأجاب (ومايدريك لعل الساعة قريب) أى لعل الساعة قريب منك وأنت لاتدرى (يستعجل بها الذين لايؤمنون بها) استهزاء

(والذين

(والذين آمنوا مشفقون منها) خائفون منها (ويعلمون أنها الحق) الكائن لامحالة (ألا إن الذين يمارون في الساعة) يجادلون فيها (لفي ضلال بعيد) عن الحق (الله لطيف بعباده) في إيصال المنافع وصرف البلاء من وجه يلطف إدراكه (يرزق من يشاء) يوسع رزق من يشاء اذا علم مصلحته ، وفي الحديث : « إن من عبادي المؤمنين من لايصلح إيمانه إلا الغنى ولوأفقرته لأفسده ذلك ، وان من عبادي المؤمنين من لايصلح إيمانه إلا الفقر ولوأغنيته لأفسده ذلك » ثم قال (وهو القوي العزيز) الباهر القدرة المنيع الذي لايغلب (من كان يريد حرث الآخرة) أي كسب الآخرة ، أي من كان يريد بعمله الآخرة (نزد له في حرثه) بالتضعيف (ومن كان يريد حرث الدنيا) أي يريد بعمله الدنيا مؤثرا لها على الآخرة ، سمى مايعمله العامل مما يبتغي به الفائدة حرثا مجازا (نؤته منها) شيئا (وماله في الآخرة من نصيب) إذ الأعمال بالنيات ولكل امرئ مانوى (أم لهم شركاء) أي بل ألهم شركاء (شرعوا لهم) بالتزيين (من الدين مالم يأذن به الله) أي لم يأمر به (ولولا كلمة الفصل) القضاء السابق بتأجيل الجزاء (لقضي بينهم) بين الكافرين والمؤمنين (وان الظالمين لهم عذاب أليم) أي وان المشركين لهم عذاب أليم في الآخرة وان لم يعذبوا في الدنيا (ترى الظالمين) المشركين (مشفقين) خائفين (مما كسبوا) من جزاء كفرهم (وهو واقع بهم) نازل بهم لامحالة (والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات) والروضة أطيب بقعة في الجنة وأنزهها (لهم مايشاءون عند ربهم) أي مايشتهون ثابت لهم عند ربهم (ذلك هو الفضل الكبير) على العمل القليل (ذلك) الفضل الكبير (الذي يبشر الله) به (عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه) على التبليغ (أجرا) نفعا منكم (إلا المودّة في القربى) أي لكن أسألكم التقرّب الى الله والتودّد اليه بالطاعة والعمل الصالح وهذا قول الحسن ويدخل فيه مودة النبيّ ﷺ ومودة قرابته ومودة القرابة من المسلمين ، فمن تقرّب الى الله أحبّ رسوله وأكرم قرابة الرسول وقرابته هو من المسلمين ، وهكذا يكرم أبويه اذا كانا كافرين ، فهذا القول يجمع سائر الأقوال ، ومن اكرام قرابته ﷺ تعليمهم اذا جهلوا ، وتذكيرهم اذا غفلوا ، وأما إكرامهم بمعنى التعظيم وحده فهو قصور معيب وجهل بديننا القويم (ومن يقترف حسنة) ومن يكتسب طاعة ، سيما حب آل الرسول ﷺ (نزد له فيها حسنا) أي في الحسنة بمضاعفة الثواب (إن الله غفور شكور * أم يقولون) بل أيقولون (افترى على الله كذبا) افترى محمد بدعوى النبوّة أو القرآن (فان يشأ الله يختم على قلبك) أي ان يشأ الله خذلانك يختم على قلبك لتجترئ بالافتراء عليه ، ثم استأنف فقال (ويمح الله الباطل) حذفت الواو من يمحو خطا ولفظا وهي مثبتة في مصحف نافع ، فهو فعل مرفوع بضمة مقدّرة على الواو (ويحق الحقّ بكلماته) أي بما أنزل من كتابه على لسان نبيه ، وهذا وعد قد تحقق ، فهو محا باطلهم وأثبت حق الاسلام ، وأيضا لوكان مايقوله محمد ﷺ مفترى لمحقه الله جريا على عادته أنه يمحو كل باطل (إنه عليم بذات الصدور) فهو يعلم المبطل والمحق فيعامل كلا بما هو أهل له (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده) بالتجاوز عما تابوا عنه ، والتوبة صدق العزيمة على ترك الذنوب ، وأن لايجد حلاوة الذنب في القلب عند ذكره (ويعفو عن السيئات) وهي مادون الشرك ، فهو يعفو عمن شاء بلاتوبة (ويعلم ماتفعلون) من التوبة والمعصية (ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله) اذا دعوه استجاب دعاءهم وأعطاهم ماطلبوا وزادهم على مطلوبهم (والكافرون لهم عذاب شديد) في الآخرة (ولو بسط الله الرزق لعباده) أي لوأغناهم جميعا (لبغوا في الأرض) أي لبغى هذا على ذاك ، وذاك على هذا ، فالغنى يبطر أو يتكبر (ولكن ينزّل بقدر) بتقدير (مايشاء) ما اقتضته مشيئته (إنه بعباده خبير بصير) يعلم خفايا أمرهم وظواهر حالهم فيعطي كلا مايناسبه (وهو الذي ينزّل الغيث) المطر الذي يغيثهم من الجدب (من بعدماقنطوا) أيسوا (وينشر رحمته) في كل شيء من مخلوقاته (وهو الوليّ) الذي يتولى عباده باحسانه

ونشر رحمته (الحميد) المستحق للحمد على ذلك (ومن آياته خلق السموات والأرض) مع عظمهما (وما بثّ فيهما من دابة) أى وما فرّق من الدواب فى الأرض وحدها ، والتعبير بهذا كالتعبير فى قوله ـ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ـ مع ان اللؤلؤ والمرجان لايخرجان إلا من البحر الملح كما يقال بنو تميم فيهم شاعر مجيد وانما هو فى فخذ من أفخاذهم . هذا اذا وقفنا عند النظر السطحى . فأما اذا فكرنا فانا نجد هناك من العوالم ما تستحقر أرضنا بالنسبة له . ولقد يظنّ علماء الهيئة الآن أن أقلّ عدد يظنّ من الأرضين لاينقص عن ثلثمائة ألف ألف أرض فيها سكان قياسا على أرضنا التى نحن عليها ، هذا مايقوله علماء الفلك ، فأما علماء الأرواح فانهم لما استنطقوها قالت : « إن هناك عوالم فى هذا الكون مسكونة تستحقر أرضكم بالنسبة لها ، وماأنتم بالنسبة لهم إلا كالنمل بالنسبة لكم »

وهاك جملة من كلام روح غاليلى لما استحضروها قال : « إن الملايين من الشموس المؤلفة منها مجرّتكم يحيط بأكثرها سيارات وعوالم تستمدّ منها النور والحياة ، فمنها مايماثل نجم (سيريوس) الذى يربو حجمه وبهاؤه على شمسكم ألوفا من المرار والسيارات المحيطة به تفوق سيارات الشمس كبرا وسناء ، ومنها شموس مثناة أى نجوم توائم تختلف وظائفها الفلكية عن وظائف شمسكم ، ففى السيارات المحيطة بتلك الشموس المثناة لاتعد السنون والأيام كما فى أرضكم ، وأحوال الحياة فيها يتعذر عليكم تصوّرها ، ومن الشموس مالاسيارات له إنما أحوال سكناها خير الأحوال » انتهى المقصود منه

فهاهودا (غاليلى) لما استحضروا روحه أفادنا أن من السيارات ماهو خير من أرضنا كما ان شمسه أحسن من شمسنا ، ومن السيارات مايسكن نفسه وتكون السكنى فيه والحياة خيرا من سواه ، وأن السيارات التى تتبع الشموس التوائم تكون الحياة فيها كأنها جنة بالنسبة لأرضنا ، وعلى ذلك أصبح ما كان عند الفلكيين ظنا عند علماء الأرواح يقينا ، واذن يكون هذا تفسيرا للقرآن ﴿و بعبارة أخرى﴾ هذا هو سرّ القرآن إذ يقول الله تعالى ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ـ فى السورة السابقة ، وأىّ آيات أبدع من هذه ، يقول الله ـ وما بثّ فيهما من دابة ـ ، ويقول العلم الحديث ظنا تارة واقناعا أخرى ، إن أرضنا لاقيمة لها والحياة فيها حقيرة ، والحياة هناك أجمل ، وسعادتها أتمّ ، بل جاء فى مقال هذه الروح أيضا أن هناك عوالم أقلّ من أرضنا استعدادا وأهلها أكثر شقاء من أهل الأرض ، إن ذلك من معجزات القرآن ، قد أرانا الله آياته فى الأنفس والآفاق ، والمسلمون مقصرون فى البحث والعلم والتفكير ، فليجدّوا فى علوم الفلك والطبيعة والأرواح وقوله تعالى (وهو على جمعهم اذا يشاء قدير) أى فى أىّ وقت يشاء متمكن منه . ثم إن قولنا فى هذا المقام ان اللؤلؤ لايخرج إلا من البحر الملح كذبه العلم الحديث أيضا فسيأتى فى سورة الرحمن أن الماء العذب يخرج منه اللؤلؤ . فهذه معجزة ثانية للقرآن (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) المراد بالمصائب الأحوال المكروهة من الأوجاع والأسقام والقحط والغلاء والغرق والصواعق . والذى كسبته أيدينا هى الذنوب والمعاصى (و يعفوا عن كثير) من الذنوب فلايعاقب عليها . وهذه الآية فى المجرمين . أما غيرهم فان مصائبهم لرفع درجاتهم بالأجر لصبرهم عليها . وفى رواية عن ابن عباس : « انه مامن خدش عود ولا عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب ومايعفوالله عنه أكثر » . وروى عن علىّ كرّم الله وجهه : « ألا أخبركم بأفضل آية فى كتاب الله حدّثنا بها رسول الله ﷺ ـ ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفوا عن كثير ـ وسأفسرها لكم ياعلى : ما أصابكم من مصيبة أى مرض أوعقوبة أو بلاء فى الدنيا فبما كسبت أيديكم والله أكرم من أن يثنى (بتشديد النون) عليكم العقوبة فى الآخرة وماعفا الله عنه فى الدنيا فالله أحلم من أن يعود بعد عفوه » . وروى عن غيره مايفيد أن المصائب إما لرفع درجة أولمغفرة ذنب . هذا ملخص ماعليه جمهور أمتنا الاسلامية . وقالت طائفة تميل الى التناسخ : « لولم يكن للأطفال حال كانوا عليها قبل

هذه الحالة ماتألموا » . وأجاب العلماء بأن الآية مخصوصة بالمكلفين كما هوالسياق . واذا أردت تحقيق المقام عقليا فارجع الى مافى هذا التفسير فى ﴿سورة البقرة﴾ عند قوله تعالى ـ وبشر الصابرين ـ الخ فانك سترى كيف كان القرآن معجزا . وكيف كان الفيلسوف قابس ألف كتابا على هذا المعنى يسمى ﴿لغزقابس﴾ وأماط اللثام عن هـذا المقام . هنالك تعرف سرّ القرآن وأن العلوم كلها له برهان . فوالله ماقلت لك هذا وأنا من المتكلفين وانما أنا من الموقنين . والا فكيف تتحد العلوم الفلسفية والآيات القرآنية . وكيف يقول قابس فى رسالته التى ترجمت الى جميع لغات أوروبا انه لاينال السعادة فى هذه الدنيا إلا الذين عركهم الدهر وطحنهم بكلكله ومرنهم على تحمل المصائب وأذاقهم العذاب الهون حتى صقلهم بصقاله وآذاهم بنباله وقتلهم بسيوف رجاله وحط بساحاتهم ونزل بديارهم وأجلب عليهم بخيله ورجله وشاركهم فى الأموال والأولاد ولم يعبأ بالعلوم وفهمها ولا بالآداب ودرسها ولابالنعم وحوزها ولابالأموال وكنزها . وجعل ذلك كله يصيب البارّ والفاجر والعالم والجاهل كالليل والنهار والحرّ والبرد والحسن والقبح فأىّ علاقة لسعادة الانسان بما يعتريه من الأحوال انه لاسعادة له كاملة إلا بأن تصقله المصائب صقلا وتنزل عليه تفصيلا وجملا حتى يتكامل عقله ويكظم غيظه ويتم احتماله ويظهر جماله . بهذا يظهر جمال القرآن ويعرف الناس سرّ الفرقان . ولكن بعد أن تدرس ما كتب فى سورة البقرة . وكأن الانسان خلق وفيه نقص كثير بطبعه . وهذا النقص لايذهب إلا بأعمال شريفة وعلوم منيفة ومصائب تساعد على ارتقائه . فالكسب ربما كان لما هوأعم مما جبل عليه الانسان من النقص ومافعله بيده من الذنوب والله هوالولىّ الحميد . ثم قال تعالى (وماأنتم بمعجزين فى الأرض) أى فائتين ماقضى عليكم من المصائب (وما لكم من دون الله من ولىّ) يحرسكم منها (ولانصير) يدفعها عنكم (ومن آياته الجوار) السفن الجارية (فى البحر كالأعلام) كالجبال (إن يشأ يسكن الريح) التى تجرى بها السفن (فيظللن رواكد على ظهره) أى فيبقين ثوابت على ظهرالبحر (إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) لكل مؤمن كامل صبر على المصائب وشكر على النعم وحبس نفسه على النظر فى آيات الله والتفكر فى آلائه الذى هونوع من الشكر (أويوبقهنّ) أى أو يهلك أهلهنّ (بما كسبوا) من الذنوب بارسال الريح العاصفة المغرقة ، والمعنى إن يشأ يسكن الريح فيركدن ، أو يعصفها فيغرقن بعصفها (ويعف عن كثير) من الذنوب فلايجازى عليها أى ان يشأ يهلك قوما وينج آخرين على طريق العفو عنهم ، وانما يوبق من يوبقهم بما كسبوا لينتقم منهم (ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا) فى ابطالها (مالهم من محيص) مهرب من العذاب (فما أوتيتم من شىء) من زينة الدنيا (فمتاع الحياة الدنيا) أى ليس هومن زاد المعاد (وماعندالله) من الثواب (خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) وحينئذ يكون المؤمن والكافر مستويين فى متاع الحياة الدنيا فاذا صارا الى الله تعالى كان ماعند الله من الثواب خيرا وأبقى للمؤمن (والذين يجتنبون كبائر الإثم) كالقتل والزنا والسرقة (والفواحش) ماعظم قبحه من الأقوال والأفعال (واذا ماغضبوا هم يغفرون) أى يكظمون الغيظ ويحلمون (والذين استجابوا لربهم) أى أجابوه الى مادعاهم اليه من الطاعة (وأقاموا الصلاة) المفروضة (وأمرهم شورى بينهم) يتشاورون فيما يبدوهم ولا يعجلون ولاينفردون برأى لشدة تيقظهم وحذرهم ، يقال « ماتشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم » (ومما رزقناهم ينفقون) فى سبيل الخير (والذين اذا أصابهم البغى) الظلم والعدوان (هم ينتصرون) ينتقمون من ظالمهم من غير تعدّ ، قال النخعى : كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فاذا قدروا عفوا . فالمؤمنون إذن قسمان : قسم يعفون فبدأ بذكرهم وهوقوله ـ واذا ماغضبوا هم يغفرون ـ . وقسم ينتصرون من الظالم وهوالمذكور فى هـذه الآية . ثم خصهما فقال (وجزاء سيئة سيئة مثلها) سمى الثانية سيئة للازدواج (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) وفى هـذا تعظيم للموعود به (إنه لايحب الظالمين) المبتدئين بالسيئة والمتجاوزين فى الانتقام (ولمن انتصر بعـد ظلمه) بعد ما ظلم (فأولئك

ماعليهم من سبيل) بالمعاتبة والمعاقبة (إنما السبيل على الذين يظلمون الناس) يبتدئون بهم بالإضرار (و يبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم) على ظلمهم (ولمن صبر) أى لم ينتقم (وغفر) تجاوز عن ظالمه (إن ذلك) الصبر والتجاوز (لمن عزم الامور) أى مما ينبغى أن يوجبه العاقل على نفسه ولا يترخص فى تركه ، وحذف الضمير الراجع لأنه مفهم أى ان ذلك منه الخ ، واعلم أن هذه الآيات كلها لايضاح المقام وتبيانه ، ففيها ذم الظلم بالابتداء أو بمجاوزة الحد ، وفيها أنه لاعتاب على من عاقب بمثل ما عوقب به ، وفيها إعظام أمر العفو . فهنا ظلم وانتصار وعفو (ومن يضلل الله فماله من ولىّ من بعده) من ناصر يتولاه من بعد خذلان الله إياه (وترى الظالمين لما رأوا العذاب) يوم القيامة (يقولون هل إلى مردّ من سبيل) أى انهم يسألون الرجعة الى الدنيا (وتراهم يعرضون عليها) على النار (خاشعين من الذل) متذللين خاضعين (ينظرون من طرف خفىّ) يسارقون النظر الى النار خوفا منها وذلة (وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم) بتعريضهم للعذاب المخلد (يوم القيامة) ظرف لخسروا (ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم * وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضلل الله فماله من سبيل) أى وصول الى الحق فى الدنيا والجنة فى العقبى (استجيبوا لربكم) أى أجيبوا داعى الله يعنى محمدا ﷺ (من قبل أن يأتى يوم لامردّ له من الله) لايردّه الله بعد ما حكم به (مالكم من ملجأ) مفرّ (يومئذ ومالكم من نكير) إنكار لما اقترفتموه لأنه مكتوب فى صحائفكم وتشهد به ألسنتكم وجوارحكم (فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا) رقيبا أو محاسبا (إن عليك إلا البلاغ) ليس عليك إلا البلاغ ، وفيه تسلية له ﷺ (وانا اذا أذقنا الانسان منا رحمة) كالغنى والصحة (فرح بها وان تصبهم سيئة) قحط أو مرض (فان الانسان كفور) لنعم الله المترادفة عليه كأنه يقول : إن هذا الجنس موسوم بكفران النعم أى انه اذا مسه الشرّ يكون جزوعا كما اذا مسه الخير فانه يكون منوعا ، ولكن تهذيب نفسه بالعلم والدين يجعله محتملا صابرا . ومن تأمّل النفوس الانسانية وجدها كالمجبولة على اليأس ونكران النعمة وقت هجوم المصائب . ولايخرج الناس من هذا المأزق إلا الدين والعلم والصبر . ومما ابتلى به الناس فيجعلهم يكفرون النعم أمر الذرّية ، فيقول من لا ولد له ياليت لى ولدا ، و يقول من رزق بنات ياليتنى أعطيت ذكرا ، ومن عنده ذكور يقول ياليت لى من البنات ولو واحدة ومن عنده القسمان ربما اعتراه أحد أمرين : إما الاعجاب والطغيان ، واما كفر النعمة من الفقر والنصب فى تغذيتهم وتربيتهم ، فليعلم الناس أن ذلك منهم رعونة ، فليرض كل بما قسم له فانهم انما خلقوا فى الأرض ليتعلموا الصبر والقناعة ، وهم لايطيرون الى العالم الأعلى إلا بقواهم النفسية ، فلاذكر ولاأنثى عند الموت ولامال ولاجند ولاأعوان ، إن الله رب الجميع وهومالك السموات والأرض ويعلم المصلحة ويعطى زيدا ما منع عمرا لحكمة أرادها . ويخص كلا بمزية ، فيعطى من لا ولد له مزية أخرى ، ويحرم من له ولد من بعض المزايا وهكذا (لله ملك السموات والأرض) فله أن يقسم النعم والنقم كيف يشاء (يخلق مايشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور) فلايولد للأوّل ذكر ولا للثانى أنثى (أو يزوّجهم ذكرانا واناثا) يجمع بينهما فيولد له الذكور والاناث (ويجعل من يشاء عقيما) فلايولد له ولد (إنه عليم) بما يخلق (قدير) على مايريد أن يخلق فيفعل مايفعل بحكمة وعلم . هذا فى تقسيم النعم البدنية ، وأعقبها بتقسيم النعم العقلية وأفاد أنها أيضا على مقتضى الحكمة ولااعتراض على القسمة فيها . فالناس محجوبون عن ربهم لأنهم فى عالم المادة وهومنزّه ، ولكن منهم من رقّ حجابه وخلصت نفسه (١) فيحس بمعانى تلقى فى قلبه وهو معنى النفث فى الروع كما روى « نفث فى روعى » أو يرى رؤيا منامية كرؤيا الخليل عليه السلام بذبح ولده (٢) أو يسمع كلاما من وراء حجاب كما سمع موسى عليه السلام من غير أن يبصر السامع من يكلمه . فالعبد هنا سمع كلاما ولم ير المتكلم (٣) أو يرسل الله ملكا فيوحى الملك الى النبىّ باذن الله مايشاء . ومن النوع الأوّل

نبوة النبي ﷺ في ابتدائها فانها كانت فى المنام ستة أشهر . ومن الثالث مابعد ذلك ، فقد كان جبريل ينزل عليه بالوحي ، وأما الثانى فهوماحصل لموسى عليه السلام ، وهذا قوله تعالى (وما كان لبشرأن يكلمه الله إلا وحيا أومن وراء حجاب أويرسل رسولا فيوحى باذنه مايشاء) أى وما صحّ أن يكلم الله أحدا إلا موحيا أومسمعا من وراء حجاب أومرسلا ، وقوله (إنه عليّ) أى عن صفات المخلوقين (حكيم) يفعل ما تقتضيه الحكمة (وكذلك) وكما أوحينا الى سائر الرسل (أوحينا اليك روحا من أمرنا) نبوّة أوقرآنا فهو به حياة الأرواح (ما كنت تدرى) قبل الوحى (ما الكتاب) أى القرآن (ولا الايمان) أى شرائعه (ولكن جعلناه نورا) أى جعلنا القرآن أوالايمان نورا (نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى) أى لتدعو (الى صراط مستقيم) دين الاسلام (صراط الله) دين الله الذى شرعه لعباده (الذى له مافى السموات ومافى الأرض ألا الى الله تصير الامور) أى أمور الخلائق فيضع كلا فى درجته من جحيم ونعيم . انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها

﴿ لطائف هذه السورة ﴾

(١) فى قوله تعالى — تكاد السموات يتفطرن من فوقهنّ والملائكة يسبحون بحمد ربهم و يستغفرون لمن فى الأرض —

(٢) وفى قوله — جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا — مع قوله — يهب لمن يشاء إناثا و يهب لمن يشاء الذكور — الخ وقوله — ومن آياته خلق السموات والأرض ومابث فيهما من دابة وهوعلى جمعهم اذا يشاء قدير —

(٣) وفى قوله — الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان — الخ

(٤) وفى قوله — الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهوالقوىّ العزيز —

(٥) وفى قوله — وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون —

(٦) وفى قوله — وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا — الخ

(٧) وفى قوله — وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير —

﴿ اللطيفة الأولى والسادسة ﴾

(١) فى قوله — تكاد السموات يتفطرن من فوقهنّ — الخ

(٦) وفى قوله — وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا — الخ

لقد جاء فى هذه الآية الثانية وجه آخر غير ماتقدم ، فيقال : لايكلم الله البشر إلا بأحد طرق ثلاث : إما أن يوحى الى الأنبياء بالملائكة ، واما أن يكلم الأمم بواسطة هؤلاء الأنبياء الذين تلقوا عن الملائكة ، واما بأن يكلم الأنبياء من غيرأن يروه كمسألة موسى عليه السلام ، واذن نشرع فى عجائب هاتين الآيتين . فنقول :

اعلم أن الله عزّوجل جعل العالم المادى والعالم الروحى بينهما تشابه كما قال تعالى — ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت — وقال — ووضع الميزان * ألا تطغوا فى الميزان — فالعالم الروحى والعالم الجسمى يختلفان جوهرا و يتحدان فى النظام العام ، فانظر أوّلا فى هذا العالم المشاهد وتأمل ، تجد الناس يعيشون فى وسط الأنوار ، فأما الظلمات فهى قليلة ، إن الشموس لاتكاد تعدّ ولاتحصى ، فأما السيارات حولها فهى مستضيئة بها ، وكذلك التوابع ، فأرضنا وقمرنا يستضيئان بنور الشمس ، وكذلك السيارات ، و يظنّ أن للشموس سيارات ولكن لايستضىء منها إلا ما كان جسمه معتما كأرضنا أى برد سطحه وصارمثلها ، وجميع الأجسام تنقسم الى

ثلاثة أقسام : أجسام مضيئة كالشموس التى هى هذا العالم كله ، حتى ان أرضنا كوكب مضىء لولا قشرتها ، فأما باطنها فانه نار على حاله ، فأكثر أجسام عالمنا مضيئة ، والنادر جدا مالاضوء له وهى أمثال قشرة أرضنا الصغيرة ، وأجسام معتمة كسطح الأرض والقمر والنبات والحيوان والأحجار ، وأجسام شفافة كالهواء . فالأوّل يفيض النور . والثانى يستضىء به . والثالث يقبله ولايحجبه عن المعتم . والأجسام المعتمة منها ماهو صقيل كسطح المرآة فانه يقبل النور ويحجبه عما وراءه ولكنه يعكسه على ما أمامه . هذا هوالعالم المشاهد وأقسامه ، فلننظره نجد أن الشمس تفيض النور والهواء شفاف منفصل وجرم العين شفاف متصل بالأجسام ، فلننظر فى عالم العقل والروح نجد أن فى العالم الانسانى من يقبلون العلم بالتعليم وهم جمهور الأمم ، فهم فى قبولهم العلم أشبه بهم حين يقبلون الصور التى وردت من طريق العين الواردة من الخارج ، ونجد الأنبياء والعلماء فيهم أشبه بالعيون المركبة فيهم ، فكما قبلت العيون الصور بسبب ضوء الشمس وأدّتها الى النفوس هكذا قبل الأنبياء وهم عيون الأمم العلوم ووصلوها الى أممهم . فاذن تبين لنا أن العالم المشاهد أوضح لنا ست مسائل من ثمانية ، وايضاحه اننا نقول : فى العالم الروحى نفس متعلمة وأنبياء معلمون وملائكة موصلون والله مبدأ الفيض ، فنحن لانعلم من هذه الأربعة إلا اثنين : نعلم النفس المتعلمة ، والنفس المعلمة ، ولكن الاثنان الباقيان محجوبان عنا ، وهما الله والملك ، فأرانا الله هذه الأقسام الأربعة فى العالم المادى وقال : انظروا تجدوها واضحة ، أجسام مظلمة تستضىء ، وأجسام شفافة متصلة تقبل ، وأجسام شفافة منفصلة ، وأجسام مفيضة للنور . فهذه القسمة تامة فى العالم المادّى وقد رأيتم اثنين فى العالم الروحى ، فبطريق الاقناع تعرفون أن هناك ملكا ووراء الملك إله كما كان وراء العين هواء ووراء الهواء شمس ، وهذا لمن لم يقرأ علم الأرواح ، فالله تعالى هوالمعلم وهوالذى يكلم الناس بالملك و بالأنبياء كما أن الشمس تضىء على الأرض وتتضح لنا الصور بطريق الهواء الشفاف و بطريق العيون والفضل كله راجع للشمس ، هكذا العلوم الدينية والعلمية والصناعية ، وجميع مافى الأرض من علم مكمل لأهلها مصدره الله تعالى ، غاية الأمر انه تارة يكون بوسط للجمهور و بغير وسط للنفوس الشريفة ، وهذا يوضح لنا قول علمائنا : « إن الله عميم الجود ليس بمانع له عن أحد ، ولكن الفيض يكون على مقدار الاستعداد »

فاذا سمعنا أن زيدا قد ألهم العلم ونشر الحكمة ، فلنعلم أن فى نفسه صفاء استعدّ به أن يتقبل الحكمة العامّة المغروسة فى قلوب نفوس الأرواح الحائمة حولنا وهى مستمدّة من الله كاستمداد الهواء النور من الشمس واذا سمعنا أن عمرا اتبع هواه وأغراه الشيطان فلنعلم أن النفوس التى ألهمته منحرفة وهو يشابهها فى الانحراف كما ترى الزجاجة الملوّنة تلوّن الماء الذى وراءها فتراه أصفر أوأخضر أوأحمر تبعا لها مع ان النور عام والناس مطلعون عليه ولكن لاقدرة لهم على تغيير الطبائع ، فالأرواح الشريفة يرون الشياطين أمامهم أشبه بذلك الزجاج الملوّن ، ويرون الأحياء الذين يشاكلونهم مغرمين بآرائهم عاكفين على الاصغاء اليهم

هذه مجامع الحكمة فى هذه الآيات . اذا عرفت ماذكرته لك . فانظر فى هذه الآيات . ذكر الله السموات والأرض وأن عظمة الله تكاد تنفطر فيها السموات . ثم أتبعه بذكر الملائكة مشيرا الى ماذكرنا كأنه يقول انظروا الى السموات والأرض والى عظمتى فيهما فانكم ترون الظلمات والأنوار الخ فانظروا الى الملائكة انهم يسبحون ويحمدون . فهم يعرفون جلال الله واكرامه أى صفات التقديس وصفات الاكرام فهم يعرفون بعده عن مشابهة المخلوقات ويقدّسونه تقديسا ويقرءون عجائب صنعه وحكمته وقدرته المعبر عنها بالحمد ، فهم يعرفون أن ذاته كاملة تفيض الخير ، فقدم التسبيح لأنه يرجع لكمال الذات وأخر الحمد لأنه يرجع لتكميل الغير وافاضة النور . فالمقدس ذات منزهه كاملة . والمقدس المحمود ذات كاملة مفيضة الخير والكمال على غيرها وبهذه العلوم والمعارف كانت الملائكة أرقى من أهل الأرض لأن أرواحهم لطفت فلم تلائم هذه المادة ولا

تعيش فيها فأصبحت كالهواء من حيث قبول النور العلمي وافاضته . وليس يمنع الناس عن ذلك الكمال إلا الجهل كما قال سقراط : « الناس لايعـذبون إلا لجهلهم ، ولولا سعة علم الملائكة ما ارتفعوا عن المادة وما كانوا مسيطرين عليها ، وعلى مقدار جهل الانسان يكون بعيدا عن العالم الروحي »

فهذا ملخص مايفيده قوله ـ يسبحون بحمد ربهـم ـ . وأما قوله ـ ويستغفرون لمن فى الأرض ـ فهو افاضـة الخير ، فهم من حيث التقديس والتحميد يفاض عليهم من الله ، ومن حيث الاستغفار مفيضون الخير على الناس . ولما كان الانسان لايقدر أن يرى النور إلا بآلة متصلة به وهى العين هكذا لايقدر الجمهور من الناس أن يدركوا العلم إلا بنفس تـكون منهم تشبه العين فى جسم الانسان ، فهى تتصل بالملائكة من وجه وتتصـل بالناس من وجه آخر ، أى ان الأنبياء بروحانيتهم متصلون بالملائكة وبماديتهم يتصلون بالناس كما اتصلت العين بالضوء من جهة الهواء واتصلت بالمخ من الداخل واتجهت الصور منها الى النفس فأدركتها فهى قابلة موصلة والأنبياء قابلون موصلون ، فالله كلم الأنبياء بالملائكة وكلمنا بالأنبياء ، ويشير الى هذا المقام أيضا ماجاء فى ﴿سورة النبأ﴾ ـ رب السموات والأرض ومابينهما الرحمن لايملكون منه خطابا * يوم يقوم الروح والملائكة صفا ـ

وبهذا نفهم الآيتين فى أول السورة وآخرها ، وهـذا المقام من عجائب العلم والحكمة ، إن الناس يرون هذا كله بأعينهم الجهال والعلماء ، ولـكن لايدركه إلا من انفتحت بصيرته اليه . انتهى الكلام على اللطيفة الأولى والسادسة

اللطيفة الثانية والرابعة

(١) فى الكلام على التناسل واختلاف الذكور والاناث فى الحيوان والانسان

(٢) ولطف الله فى تغذيته

فمن الثانى ماجاء فى كتابى جواهر العلوم فى صحيفة ٩١ ومابعدها وهذا نصه

فقال ابراهيم : اعلمى نورك الله بنور العلم أن الخالق جل اسمه جعل تركيب الأسماك مناسبا للمعيشة فى الماء كما جعل للطيور أجنحة تساعدها على الطيران فى الهواء . فقالت : وكيف ذلك ؟ فقال : ان الأسماك تحتاج فى تصرفها فى معاشها وتقلبها فى أطوارها الى أن تعوم فى الماء من جهة الى أخرى أو تنخفض تارة وترتفع أخرى أو تتجه يمينا ويسارا لتبحث عن غذائها أو تهرب من عدوها أو تطلب صيدها فجعـل الله سبحانه وتعالى لها عوّامات كمجاذيف السفينة تشاهد فى الأسماك فى الجوانب وعلى الظهر ومن خلفها وحوصلة تسمى حوصلة العوم وهى عبارة عن كيس مملوء هواء خالصا تضغطه اذا أرادت أن تغوص فى الماء فيصغر حجمها وتمدده اذا أرادت أن تطفو على سطحه فيكبر حجمها وجعل ذنبها مستعدا لأن يديرها يمينا وشمالا فى البحر فـكما أن للسمكة عوّامات تمخر بها الماء كذلك جعل للسفينة مجاذيف وشرعا تسيرها حيثما أراد الانسان وكما أن لها ذنبا يكون موازنا لجسمها عند الانحراف يمينا وشمالا كذلك جعلت الدفة (السكان) للسفينة حتى يسهل التفاتها يمنة ويسرة فلو انقطع ذنب السمكة مثلا ماأمكنها أن تنحرف الى احدى الجهتين بل تتجه دائما جهة الأمام ولو انعدمت عوّاماتها التى فى جوانبها وعلى ظهرها لوقفت فى مكان واحد وتعطلت عن اكتساب معيشتها ومن العجيب أن الأسماك جعل شكلها على هيئة تناسب اختراق الماء فلم يجعل رأسها مفرطحة حتى تقاومها لجج المياه فتعوقها عن السباحة فما أدق صنعته سبحانه وما أعم رحمته وكل حى يغدو ويروح فى بحار نعمه مشمولا بسوابغها قال عز وجـل (وما كنا عن الخلق غافلين) فعجائب الكون ظاهرة والناس عنها غافلون لملذاتهم وشهواتهم . قال عليه الصلاة والسلام : لولا أن الشياطين يحومون حول قلوب بنى آدم لنظروا الى ملكوت

السموات والأرض فالابل مثلا قصرت أذنابها لاستغنائها بطول أعناقها وعكس ذلك فى البقر وكم من حكم ضربنا عن ذكرها صفحا ليراجعها محب الحكمة فى العلوم الطبيعية (والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم)

﴿ فصل فى حكمة خلق الحشرات ﴾

فقالت ياسيدى انى أعتقد أن كل هذه العوالم مؤسسة على حكم تحار فيها العقول ولكن الى الآن لم أصل الى حكمة خلق الحشرات من نحو الزنابير والذباب والبعوض فهل عثرت على ذلك فى كتاب قال نعم ان الله عز وجل يخلق الشئ لحكم كثيرة منها مايعرف ومنها مالايعرف أما هذه الحشرات كالزنابير والذباب وغيرها فان حكمها كثيرة منها أن العفونات الفاسدة التى على وجه الأرض لو بقيت لفسد الهواء وجاء الوباء وانتشر الهلاك وعم الخراب فخلق الله سبحانه وتعالى تلك الحيوانات منها ليصفو لجها ولايعرض لها الفساد الذى هو سبب الوباء وهلاك الحيوان ولذلك ترين الزنابير والديدان والخنافس فى دكان القصاب (الجزار) والدباس [1] أكثر مما يرى فى دكان البزاز (القماش) والحداد فاقتضت الحكمة الالهية صرف العفونات اليها ليصفو الهواء منها ونسلم من الوباء ، ومن الحكم العجيبة والأسرار الطبيعية الالهية انك ترين ان نحو الحيات والعقارب تسكن عادة وتكثر فى الاماكن العتيقة والمحال الفاسدة وهكذا خشاش الأرض من الخنافس والصراصير وغيرها ، وترين (الناموس) لايتولد إلا فى المحال المستنقعة وكذا الذباب يكثر فى المحال القذرة وذلك كله لطف من الله بعباده ورحمة بهم فهذه كلها فضلا عن كونها تحيل الى جسمها المواد الفاسدة وتنقى الهواء فهى من جهة أخرى مؤذية بطبعها ينفر منها الانسان فتحمله على ازالة ذلك السبب فكأن لسان حال الحيات والعقارب يقول ان لم تصلح هذا المكان أو تخرج منه والا لدغتك

ولما كان الهواء الفاسد الحامل للمواد المضرة لايحس الانسان بضرره فيحدث الضرر فى الأجسام أو يميت الانسان وهو لايشعر به جعل الحكيم الخبير تلك الحيوانات وأودع فيها سما يحس بألمه الانسان فيتنبه فيتخذ الاحتياطات اللازمة للابتعاد عنه وهو مع ذلك لم يقصد منه إلا البعد عن تلك الأماكن العفنة فضلا من الله ونعمة

وهكذا نرى أن من على وجهه قذر يعلوه الذباب لينقى ماعليه وخلق فى الانسان كراهية طبيعية لذلك حتى يضطر أن يغسل وجهه فيزيل ذلك القذر فكأن الذباب شرطى (جندى) يلازم أهل القذر و يأمرهم بالنظافة وإلا ضربهم بسوط يؤلمهم وهو الكراهية الشديدة ، فسبحان من أودع فى كل صغير وكبير من الحيوانات من الحكم والغرائب مايجهله أكثر الناس وهو نافع لهم ولذلك ضرب الله بهذه الحيوانات الأمثال حتى قال (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) فأنكره الجاهلون من المشركين فرد عليهم بقوله (ان الله لايستحيي أن يضرب مثلا مابعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا) ثم بين ان الذين يفهمون ذلك هم العالمون فقال فى آية أخرى (وتلك الأمثال نضربها للناس ومايعقلها الا العالمون * خلق الله السموات والأرض بالحق ان فى ذلك لآية للمؤمنين) فأفاد بهذه الآية أنه لايفهم تلك الحكم الا أصحاب النفوس العالية الشريفة الناظرون فى ملكوت السموات والأرض الذين عبر عنهم بالعالمون بكسر اللام هذا ، ومن عجيب الحكم انه عزوجل جعل صغارها مأكولة لكبارها ولولا ذلك لامتلأ وجه الأرض منها فليس فى ملكه ذرة إلا وفيها من الحكم مالايحصى وأعجب من هذا أن كل ماجعل سببا لهلاك حيوان جعل لحمه سببا لدفع ذلك السم فان الأطباء الأقدمين قالوا ان فى لحم الحيوان قوة دافعة لسمه فادخلوا لحمها فى الترياق والتجربة تشهد أن من لدغته عقرب يلطخ الموضع برطوبة لحمها فيسكن ألمها فى الحال . ثم ان هذا النوع من الحيوانات

(١) الدباس هو صانع الدبس وهو مايسيل من الرطب

يختلف

يختلف حالها عند الشتاء فنها مايموت من برد الهواء كالديدان والبق والبراغيث ومنها مايكمن فيه ولايأكل شيئا كالحيات والعقارب ، ومنها مايدخر مايكفيه لشتائها كالنحل والنمل : فتأملي تلك الأفعال العجيبة واعلمي أن هـذا العالم كله حكم ومصالح (ومايعقلها إلا العالمون) فربما ظهر للخاصة من حكمه مالايظهر للعامة وظهر لخاصة الخاصة مالايظهر للخاصة فان من رأى تلك الحشرات الصغيرة لم يدر فى خلده أن لها بعض تلك المنافع والحكم من تلقيح الأشجار وإصفاء الجوّ من العفونات فهى من المعينات على مآكلنا و بقاء حياتنا ، وان من أجلّ الحكم وألطفها وأدقها أكل الحيوانات بعضها بعضا فكم فى الجبال والأودية والسهول والقفار من حيوانات لو بقيت جثثها لفسد الهواء ثم هبت الرياح الى ماجاورها من البلاد وعم الخراب ولذلك قال الشيخ كمال الدين الدميرى فى حياة الحيوان الكبرى ان الذئب يصيد الثعلب فيأكله والثعلب يصيد القنفذ فيأكله والقنفذ يصيد الأفعى فيأكلها والأفعى تصيد العصفور فتأكله والعصفور يصيد الجراد فيأكله والجراد يلتمس فراخ الزنابير فيأكلها والزنبور يصيد النحلة فيأكلها والنحلة تصيد الذبابة فتأكلها والذبابة تصيد البعوضة فتأكلها اهـ على أن فى ذلك فضلا عن تصفية الجوّ تغذية الحيوانات وعدم ضياع ذلك الجسم سدى بلا فائدة فلو ترك بلا أكل لتعطلت حكمته اذ ليس فى الملك ماتضيع حكمته ألبتة ففيه دفع مضار وجلب منافع اهـ

ومن الأوّل ماجاء فى كتاب جواهر العلوم أيضا وهذا نصه :

« ومن عجيب صنائعه كيفيات التناسل التى ليست على نمط واحد ، فان من الحيوانات مايتم جنينه فى داخل جسده ثم يلده كالحيوانات اللبونية ، ومنها ماتخرج بيوضها ، منها ثم يتخلق الجنين فيها مهيأ له داخلها جميع مايلزم من الغذاء وذلك كالطير و بعض الحيات ومن ذلك كيفيات الالقاح وتغذية الجنين فانها كيفيات متباينة تؤدى الى مقصود واحد فبعض الحيوان لايتم تلقيحه ذكره الا اذا وصل المنى فى باطن الأنثى ولو تعرض للهواء لفسد كالانسان وكثير من الحيوان ومنه مايلقى منيه على بيض أنثاه بعد خروجه منها فلا يفسده الهواء ، ومنه ماسفاده فى وقت معين ، ومنه مالاتعيين لوقته ، ومنه مايعلو أنثاه عند السفاد ، ومنه مايدابرها ومنه مايلصق جنبه بجنبها و يحاكها حتى تلقى بيضها وهو يلقى منيه على تلك البيوض فيلقحها وذلك كبعض الأسماك ومنها مايغذى صغاره بلبن أعده الخالق الحكيم الرحمن الرحيم فى ثدييه أو أثديته التى تكون على عدد أولاده فى الغالب ، ومنه مايزق أولاده زقا كالحمام ، ومنه مايسعى بأولاده و يدلها على أقواتها كالدجاج ، ومنه مايشترك فى تربية أولاده الذكر والأنثى وذلك عندمايكون أولاده غير قادرة على السعى من أوّل ولادتها وذلك كالعصافير والحمام والانسان لأن انفراد الواحد بالتربية مع سعيه على رزقه أيضا يكلفه فوق طاقته ، ومنه ماتنفرد أنثاه بالتربية وذلك عند ماتكون أولاده قادرة على السعى وذلك كالدجاج والحجل فاذا تأمل العاقل فى هذه العوالم وجدها تسعى لمقصود واحد خاضعة لارادته متجهة لنظام الكون متعاونة على إكماله فالعلويات والسفليات مرتبطة ارتباطا تاما بقوانين الجذب العام والتثاقل وعقول بنى آدم وادراك الحيوانات ومابينها من المحبة والألفة والشوق فالجذب العام كمحبة عمومية بين جميع أجزاء العلويات والسفليات وحب الحيوانات لبعضها وشوقها روابط جزئية بين أجزاء صغيرة من هذا الكون فكل ماتراه فى الحقيقة انما يسعى للنظام التام وهو يظن أنه يسعى لمصلحته الخاصة ، انتهى ماأردنه من كتابى جواهر العلوم

اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى ـ الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان ـ الخ (١)

اعلم أن هذه الآية قد كنت رأيت فى المنام منذ نحو ٢٧ سنة حينما كنت أؤلف كتاب جواهر العلوم

(١) سيأتى فى اللطائف العامّة دلائل بقاء الأرواح ألقاها خطيب مصرى على سبيل الخطابة وهكذا آراء أفلاطون والمؤلف مع بدائع التفسير هناك

وأنا مقيم بالجيزة أن قائلا قرأ هذه الآية أمامى ، وألقى فى نفسى أن معناها ماتقدم من أن النظام تام فى هذه الدنيا ، وأن الأحكام الشرعية والقضاء تكون على حسب الظاهر ولم يبق إلا الباطن فيرجع الى النظام العام وهو يكون يوم القيامة ، ولذلك لما استيقظت من النوم كتبته ثم أدرجته فى الكتاب ، فأنا اليوم أحمد الله عزّ وجل إذ حييت على هذه الأرض حتى أتيح لى تفسير القرآن ووصلت الى نفس الآية ، وأقول الآن إنى لما استيقظت من النوم إذ ذاك وفكرت فى الآية ، لم أكن لأصدّق أن الآية كما رأيت فى النوم ، بل ظننت انها حصل فيها تغيير ، فلما سألت مدرّس القرآن بالمدرسة قرأها لى كما رأيت ، ونظرت المصحف فوجدتها كما هى طارقلبى فرحا ، وكتبت المعنى فى كتابى « جواهر العلوم » ، وقد كتمته فى نفسى ، وهاأناذا اليوم أكتب لك ما جاء فى « جواهر العلوم » وان لم أذكر فيه من أين جاء وهذا نصه :

﴿ الفصل السادس عشر ﴾

فى الاستدلال على اليوم الآخر وعلى وجود الله بأدلة عقلية قريبة غريبة

ثم قال ابراهيم : قد تكلمنا فى مجالسنا السابقة على كثير من دلائل قدرة الله عزّ وجل ، وهى فى الحقيقة أدلة عقلية ، فهل عندك من دليل غير ما يذكرونه فى كتب علم الكلام بحيث يكون مقنعا للعقول ، فأنا كثيرا ما أسمع قولهم فى كتب التوحيد أن دليل الآخرة سمعى ، أى اننا نأخذه من الأدلة الشرعية لامن العقل . قالت الفتاة : أنا لا يمكننى أن أقول غير ماسطر فى كتب التوحيد . فقال ابراهيم : أنا قد خطر لى دليل لايفهمه إلا أولوا الألباب والراسخون فى العلم ، فأشرق وجه الفتاة وقالت : هات ماعندك :

فقال من نظر بعين البصيرة ، فيما أودع فى هذا العالم من الحكم والعدل والقوانين السارية فى العلويات والسفليات والحيوانات ولغاتها وادراكاتها وعقولها حكم بالبداهة على انها جارية على نواميس حقة وحساب منتظم دقيق لايأتيها الباطل من بين يديها ولامن خلفها هذه الكواكب والشمس والقمر سابحة فى مداراتها على قوانين لاتقبل التغيير والتبديل ثم لننتقل نظرنا الى السفليات نجدها حذت حذو العلويات فى النسق والترتيب والنظام فأى حيوان تعدى طوره وأى نبات تجاوز سنته ثم لننظر العقول البشرية نجدها مفطورة على حب العدل والنظام وحذت حذو ذلك النظام الأعلى فلاترى انسانا على وجه الأرض الا واستحسن العدل واستقبح الجور ولذلك ترى أرباب القوانين المخترعين لها من نوع الانسان بل المستنبطين لها فى الحقيقة من الشرائع الألهية يبحثون على بواطن القضايا كظواهرها هذه الدول الغربية امامنا كم ينفقون الأموال و يرسلون الى الجهات المتباعدة من يبحث على الجانى ولو انفقوا ماأنفقوا وكل ذلك لميل العقول الى العدل ، وأن يجازى المحسن باحسانه والمسيء باساءته وما لنا ولأرباب القوانين والسياسة فلننظر الى سيد العائلة فانه يعاقب على ذنوب أهل منزله ويجازى كلا بمافعل بل أى انسان ولو من أضعف الناس عقلا وأقلهم ادراكا رأى رجلا يضرب آخر فانه لايتمالك نفسه أن يأخذ بناصر الضعيف (فطرة الله التى فطر الناس عليها) دعينا من الانسان وانظرى الحيوانات فانه مركوز فى جبلتها العدل أيضا لماشوهد كثيرا فيها بل كثيرا ماعلم انها تعاقب بالقتل على التهمة بالزنا وغير ذلك مما هو مشاهد فثبت أن هذه الفطرة منبثة فى كل حى على وجه البسيطة بل هى من الموازين التى قامت بها السموات والأرض واستقر بها كل موجود ومن المعلوم لكل من اطلع على علم الهيئة والفلك والنبات والحيوان والانسان وعلوم الأحكام والمنطق وعلوم الأدب كاللغة والنحو والصرف والمعانى والبيان والبديع وغيرها ان هذه العلوم كلها قوانين تدلنا على سريان النظام فى كل شيء من الموجودات وعلى نهجها وضعت قوانين للمجرمين فى هذا العالم وتجرى على يد الانسان ولكنها مهما بالغ العقلاء فيها لاتحكم الا على الظواهر ولايمكن وصولها الى الحقائق بوجهما فهى أشبه شيء بالجمال الظاهرى فانه يدل فى الغالب على الجمال الباطنى ومن غير الغالب قد تختلف القضية فكذلك الأحكام بالقوانين الشرعية أو الوضعية تابعة لأقوال الشهود والقرائن

ودلالتها

ودلالتها ظاهرية فقط وقد قدمنا ان كل شيء فى العالم يسير على نهج الحق والصدق والميزان العدل فلابد أن يكون لباطن هذه القضايا حاكم يحكم فيها فى وقت آخر حتى يكون ميزانها على حسب الموازين الأخرى الصادقة من العلويات والسفليات وأيضا قد تقرر انه لايضيع شيء سدى فى هذا العالم كما هو مقرر فى العلوم الطبيعية فلا تضيع حركة ولا حرارة ولا كهربائية قط بل تنقلب الحركة حرارة والكهربائية تكون حرارة ثم ضوءا فهكذا تنقلب هذه الأعمال فى الآخرة نعيما أو عذابا أليما فتذكروا ياأولى الألباب فلم تضيع أفعال العباد والذين لم يؤخذ بناصرهم أو الذين أحسنوا فى هذه الدنيا ومن تأمل فيما قلناه فهم معنى قول الشاعر:

من يزرع الشر يحصد فى عواقبه * ندامة ولحصد الشر إبان

وقول الآخر:

من يفعل الخير لايعدم جوازيه * لايذهب العرف بين الله والناس

وقول الآخر.

الخير أبقى وان طال الزمان به * والشر أخبث ما أوعيت من زاد

ألاترين ان زارع الورد لايجنى الشوك وزارع النخل لايجنى الذرة . وعلى هذا القياس ترين النفوس تتأثر بأقوالها التى تصدر منها حسنا وقبحا فمن أكثر من ذكر شيء أحبه بل خاطر الانسان يؤثر على أخلاقه شرفا وضعة فعلمنا ان هذه القاعدة مطردة فى المحسوسات والمعقولات وجميع الموجودات ومن فهم ماقدمنا جزم يقينا انه لابد من يوم يقوم الناس فيه لرب العالمين حتى يقوم بين الناس بالقسط لما ثبت أن كل هذا العالم قائم بالعدل وبقيت أفعال الانسان لم توزن الاوزنا ظاهريا فلابد من وزن آخر ليكون فصلا حقا بميزان عدل لايخس شعيرة وكيف ينتقم رئيس الأسرة وسيد العشيرة من المسيء ويحسن الى المحسن ولايفعل ذلك رب الأرباب (أفنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) (أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون) (أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لاترجعون) (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء مايحكمون) ثم ان كل ماصرحت به أولوحت فى هذه المقالة من بحر آية من القرآن وهى قوله تعالى (الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان) قد فسر بالعدل والتسوية كما فى الخازن والنسفى (وما يدريك لعل الساعة قريب) فليتأمل العقلاء وما يدريك لعل الساعة قريب بعد قوله أنزل الكتاب بالحق والميزان وليلاحظوا ماذكرناه فى هذه المقالة يظهر وجه هذا التعقيب العجيب ثم أعقب ذلك بقوله جل شأنه (يستعجل بها الذين لايؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا ان الذين يمارون فى الساعة) يخاصمون فيها أو يشكون (لفى ضلال بعيد) عن الحق لعدم فطنتهم وادراكهم موازين هذا العالم وفطرة حيوانه على الجزاء وعدم تدبرهم ماأنزل فى الكتب السماوية المطابقة تمام المطابقة لمايرى فى العوالم بالعقل والنظر الصحيح على ان لنا وجها آخر فى ذلك وقد عرضته سابقا على أكابر العقلاء والعلماء فاستحسنوه جدا وهو أن كل بنى آدم على أى دين نراهم يحبون تخليد أسمائهم اما نقشا على الأحجار أوفى الكتب المؤلفة أو على ألسنة الناس وأيضا يحبون الخلود وطول الأعمار ولانرى أحدا يحب الفناء الا من شذ شذوذا بينا ثم ذلك الشذوذ لايدوم وأيضا نرى جميع أهل الأرض قاطبة يزورون موتاهم ويتصدقون على أرواحهم واذا نظرنا الى هذه الفطر الثلاث المنغرسة فى نفوس البشر دلتنا دلالة واضحة ان لنا بقاء بعد موتنا اذ جميع فطرنا التى فطرنا عليها صادقة وليس فيها كاذبة ألبتة ولعمرى لايفهم ماقلناه الا من درس جميع العلوم وعرفها حق معرفتها ألا يرى شهوة الغذاء والتناسل والغضب ومافينا من حياء وجبن وكبر وشجاعة وغير ذلك فكل هذه الفطر خلقت فينا لمصالح صحيحة ومنافع عظيمة وكلها فطر صادقة كما يعرفه أهل العلم فكذلك هذه الفطرة حبنا البقاء وتخليدنا أسماءنا دليل على ان لنا بقاء

بعد الموت وزيارة الأحياء للأموات وعموم هذه العادة فى جميع بنى آدم دليل على وجود أرواح الأموات والا فما هذا التهافت على المقابر والتصدق على الأموات ولنا وجه آخر وهو اننا لا نقنع فى هذه الدنيا بمال ولا علم مصداقا لقوله ﷺ (منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال) وكل نفس من النفوس البشرية تستشعر فى نفسها حب لذة أعلى من جميع اللذات فى العالم المشاهد لها بدليل انها لا تقف عند حد محدود بل كلما ارتفعت زهدت فيما وصلت اليه وأحبت أعلى منه وما سمعنا بأن أحدا قال غير هذه العبارة (هل من مزيد) فهذا لاستشعار النفوس جميعها بأن لها لذة أعلى من هذه فلابد أن تكون فى عالم آخر الذى يطابق وصفه ما أحبته النفوس وحنت اليه

وهذه الأدلة كلها لم أرها فى كتاب وانما هى سوانح [1] ويقرب من هنا ان كافة بنى آدم يميلون الى عبادة الخالق فى كل صقع من أصقاع الأرض حتى أهل جزائر المحيط الهادى الذين تباعدت ديارهم عن المتمدينين وانما اختلافهم فى تعيينه فنهم من ظنه شجرا ومنهم من ظنه تمثالا ومنهم ومنهم مما لا يحصى كما هو معلوم مستفيض شائع ولاشك أن هذه الفطرة وحدها كافية للاستدلال على صانع هذا الملك العظيم . فأعجب الفتاة ماقال ابراهيم وقالت ماسمعت أدلة أوضح وأبين من هذه اهـ ماجاء من كتابى جواهر العلوم

فالحمد لله الذى وفقنى الى تأليف هذا التفسير والشكر له على انى عشت حتى وصلت الى تفسير هذه الآية وذكرت ما كان خطرلى منذ ربع قرن فأكثر ، وما كان ليخطرلى إذ ذاك انى سأكتب هذا وأنشره بين الناس فالحمد لله رب العالمين

اللطيفة الخامسة

فى قوله تعالى ــ وأمرهم شورى بينهم ــ

أذكر فى هذا المقام ما اتفق لى أثناء هذا التفسير إذ ألغى الترك دولة الخلافة وأقاموا الجمهورية مقامها وكتب المسلمون فى ذلك ، وطلب منى بعض أصحابى أن أكتب فى هذا الموضوع فكتبت رساله فى جريدة المقطم وقد تقدّمت فى سورة النساء

هذا ولنذكر هنا ماجاء فى جريدة وادى النيل يوم الخميس ٢٩ ربيع أوّل سنة ١٣٤٧ هجرية الموافق ١٣ سبتمبر سنة ١٩٢٨ م فى معنى هذه الآية . وانما ذكرناه هنا لما فيه من الأخبار لزيادة الفائدة ، فقد جاء فيها ما نصه :

الدين والدستور

جاءتنا هذه الرسالة ونحن ننشرها عملا بحرية النشر محتفظين برأينا الذى أبديناه من قبل فى هذا الموضوع ثارت مناقشات عنيفة بين الشيخ محمد شاكر والسيد وحيد الدين الأيوبى فى مرجع الضمير من قوله تعالى ــ وأمرهم شورى بينهم ــ وقوله تعالى ــ وشاورهم فى الأمر ــ فجعله الأوّل خاصا بأولى الرأى المعتد بهم فى الاصلاح . وجعله الثانى عاما لجميع الافراد . ومع كثرة المقالات فى أعداد المقطم واتساع نطاقها خرج الفريقان من الميدان على غير نتيجة للقرّاء

ولما كان البحث دينيا يجب تمحيصه لخلوص العقيدة انتظرنا العودة اليه من غيرهما فلم يكن فكان

---

(١) اطلعت بعد هذا على استدلال أفلاطون بحب البقاء والخوف على الحياة على أن هناك أمرا ثانيا وهى صورنا الدائمة فى عالم آخر ثم اطلعت على بقية هذه الوجوه فى كلام الحكماء بعد تأليف هذا الكتاب بسنتين فحمدت الله حمدا كثيرا اهـ المؤلف

حقا علينا وعلى جريدة وادى النيل بالأخص «لأنها المدافعة عن الدين الاسلامى والشرق» أن نفتح هذا الباب مرة أخرى لفحص علله وضمائره فنقول . ان المشاورة فى الأمر هى المشاركة فى الآراء للحصول على النتائج النافعة لاقتنائها أو الضارة لاتقائها . ولن تكون كذلك إلا من أهل الحكمة والفقه والتقوى والأمانة قال تعالى ـ فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون ـ وروى البخارى عن النبي ﷺ أنه قال «مابعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان أى وزيران بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه و بطانة تأمره بالشر وتحضه عليه فالمعصوم من عصم الله تعالى» قال فى القسطلانى فيؤخذ من هذا الحديث مشروعية أن يكون عند الحاكم أهل مشورة من أهل التقوى والعلم والأمانة اه

وقد استشار رسول الله ﷺ خواص أصحابه فى غزوة بدر ثلاث مرات ولم يستشرهم كلهم . وفى ثالث مرة قال له زعيم الأنصار سعد بن معاذ : يارسول الله كأنك تعرّض بنا ولعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقا عليها ألاتنصرك إلا فى ديارهم . وانى أقول عن الأنصار وأجيب عنهم فاظعن حيث شئت وخذ من أموالنا ماشئت وأعطنا ماشئت ومأأخذت منا كان أحب الينا مما تركت . ومأأمرت فيه من أمر فأمرناتابع لأمرك . فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من عمان لنسيرنّ معك . والله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك .

وقال له المقداد : لانقول لك كما قال قوم موسى لموسى : إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك ومن بين يديك ومن خلفك ففرح رسول الله ﷺ وقال لهم سيروا وأبشروا فان الله قد وعدنى إحدى الطائفتين وإنى قد رأيت مصارع القوم اه

وروى البخارى أن رسول الله ﷺ قال حين أذن له المسلمون فى عتق سبي هوازن وكانوا جاءوه مسلمين وطلبوا منه أن يرد عليهم سبيهم وأموالهم . فمن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول مايفىء الله علينا فليفعل فقال الناس قدطيبنا ذلك فقال ﷺ انى لاأدرى من أذن منكم ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع الينا عرفاؤكم أمركم فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم فرجعوا (أى العرفاء) الى النبي ﷺ فأخبروه أن الناس قد طيبوا وأذنوا له أن يعتق السبي اه من الفتح . وكان هؤلاء العرفاء زعماء المجاهدين وكلمتهم نافذة ولم يرجع العرفاء لكافة المسلمين فى هذا الحكم الدينى بل الى البعض ويشترط فى العريف أن يكون كفوءا عالما فطنا وقوراله رأى بارز لأنه عضو عامل فى المملكة كالعضو العامل فى الجسد ولكل عضو من الجسد خاصية يمتاز بها عن غيره قال رسول الله ﷺ «لقد هممت أن ابعث الى الأمم رجالا يدعونهم الى الاسلام و يرغبونهم فى الدين فابعث ابن أبى كعب وسالم مولى أبى حذيفة ومعاذ بن جبل كما فعل عيسى ابن مريم عليهما السلام فقالوا يارسول الله أفلا تبعث أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ، فقال ﷺ هما لابدلى منهما . هما منى بمنزلة السمع والبصر» اه يعنى أنه يستشيرهما فى الأمر وهما خواص من خواصه فى الشورى ولوكانت عامة لاستغنى عنهما بغيرهما

وقال ﷺ وان الله يرضى لكم ثلاثا : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جيعا ولاتفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله عليكم» رواه مسلم والمناصحة هى المشاورة فى الأمر . والناصح لايكون جاهلا أو مفسدا . وقال ﷺ «العرافة حق ولابد للناس من عريف والعرفاء فى النار» رواه أبوداود . قال فى الفتح (قوله) والعرفاء فى النار يشعر بأن العرافة على خطر . ومن باشرها غير آمن من الوقوع فى المحذور وترك الانصاف المفضى الى الوقوع فى المعصية فلهذا يجب أن يكون من ذوى الأمانة والعلم والتقوى

ولما طعن سيدنا عمر رضى الله عنه قيل له استخلف قال إن هذا الأمر شورى بين ستة رهط من قريس وأرسل اليهم وهم على بن أبى طالب وعثمان بن عفان وطلحة بن عبدالله (وكان غائبا) والزبير بن العوام وسعد ابن أبى وقاص وعبدالرحمن بن عوف وحينما اجتمعوا لديه (ماعدا طلحة) قال يامعشر المهاجرين الأولين : انى نظرت فى أمر الناس فلم أجد فيهم شقاقا ولانفاقا فان يكن بعدى شقاق ونفاق فهو فيكم تشاوروا ثلاثة أيام فان

جاءكم طلحة الى ذلك وإلا فاعزم عليكم بالله لاتتفرقوا من اليوم الثالث حتى تستخلفوا أحدكم فان أشرتم بها الى طلحة فهو لها أهل وليصل بكم صهيب هذه الثلاثة أيام التى تتشاورون فيها فانه رجل من الموالى لاينازعكم أمركم وأحضروا معكم من شيوخ الأنصار وليس لهم من أمركم شئ واحضروا معكم الحسن بن على وعبدالله بن عباس فان لهما قرابة وأرجو البركة لكم من حضورهما وليس لهما من الأمر شئ ويحضر ابنى عبدالله مستشارا وليس له من الأمر شئ . ثم قال : ان الناس لن يعدوكم أيها الثلاثة (يعنى عثمان وعليا وعبدالرحمن) ثم قال فان كنت ياعثمان فى شئ من أمر الناس فاتق الله ولاتحملن بنى أمية و بنى أبى معيط على رقاب الناس . وان كنت ياعلى فاتق الله ولا تحملن بنى هاشم على رقاب الناس وان كنت ياعبدالرحمن فاتق الله ولاتحملن أقاربك على رقاب الناس ومن تأمر من غير امرة فاقتلوه اه

فحصر سيدنا عمر الشورى فى ستة رهط فقط والتمس منهم احضار بعض من يوثق بآرائهم وتلتمس بركاتهم مع أن الأمر فى الخلافة هو أهم مايستشار له ويهتم به كافة المسلمين اه

أمين ابراهيم الازهرى

اللطيفة السابعة

فى قوله تعالى ـ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ـ الخ

لقد عرفت مجمل ما قاله العلماء فى الآلام التى تصيب الأطفال والبهائم والانسان . وأزيد الآن ان بعض علماء الاسلام يقول : « إن الأطفال والبهائم لاتألم » وهـذا القول قال به بعض علماء أوروبا من الفلاسفة وعملوا تجارب على ذلك ومنهم فيلسوف ألمانى عظيم كان يقطع عضوا من أعضاء الكلبة بلاشفقة ولارحمة وهى ترضع ولدها ولم يلهها قطع رجلها عن إرضاعها ولدها ، فكان هذا بعض أدلتهم

ولأذكر لك الآن طرق النوع الانسانى فى حال الانسان ، فان القرآن قد فتح المجال لرقى العقول ، اعلم أن أمم الهند ترى أن الناس بعد الموت يبقون فى حال أشبه بما كانوا عليـه فى الدنيا من الأخلاق فان كانوا أشرارا عاشوا عيشة بطريق التناسخ تكون عقابا لهم ، والأخيار يعيشون فى حال أجل حتى اذا خلصوا من المادة رجعوا الى ربهم

اليك خلاصـة ما أثبته العلامة (جاكوليو) و (ديبوا دى جانسينى) و (هاهدوسيسه) و (برونوف) و (روديه) و (بونسن) وكثير غيرهم ، أثبت هؤلاء أن الهنود تركوا تعاليم عجيبة وفلسفة وحكمة ، ومما كانوا قد اعتادوه انهم كانوا يؤرخون موت ملك أو انتخاب (براهماتما) أى بابا البراهمة ، أن يسطروا على كتاب خاص النقطة التى بلغتها الشمس فى منطقة فلك البروج فى الدرجة والدقيقة والثانية

يقول مؤلف الكتاب : إن معنى هذا انهم كانوا يراعون مبادرة نقطة الاعتدال التى تتقدم كل نحو ألفى سنة برجا واحدا ، وفى نحو (٢٥) ألف سنة (١٢) برجا ، ويقول علماء الهند انها (٣٦) سنة لا (٢٥) سنة ، فلنرجع الى مانحن فيه فنقول :

إن هؤلاء الهنود لهم أربعة أسفار مقدسة عندهم ، يقولون إن الله واحد ، قيوم بذاته ، موجود فى كل الكائنات ، لاتصيبه الحواس المادية ، بل الروح وحدها ، وهو المنزه عن كل مايرى

وقال كولوكا الهندى : « إن المؤمنين الأقدمين مع انهم ألهوا الطبيعة المتعددة لم يعتقدوا إلا إلها واحدا مبدع الكائنات ، أزليا غير مادى ، حاضرا فى كل مكان ، منزها عن كل كدر وهم ، وهو الحق بذاته ومنبع كل عدل وحكمة ، مدبر الكل ، والمرتب نظام العالم ، لاشكل له ولاصورة ، ولاحد ولانسبة »

وكان البراهمة يقولون لمن دخل عندهم فى الدرجة الثانية هكذا : « يابنى انه لايوجد إلا إله واحد فقط

رب الجميع ، وعلة الكائنات ، والواجب على كل برهمى أن يعبده فى الباطن ، وهذا سرّ يجب عليك كتمه عن العامّة والجهال »

ومن تعاليمهم : « إن الكائنات نشأت من الله ، والى الله سوف تعود بواسطة الترقى والنشوء الدائم ، والنفس عند انفصالها من البدن لاتفقد المادة تماما والا لهلكت فى الكون العظيم ، بل يبقى لها جسم مصوغ من النار ، والانسان شرارة أوشعاع من النار الإلهية تبقى مع جسمها اللطف البهىّ ، ثم بعد زمن تتحد بجسد جديد منظور عند مايأتى وقته » اه

فانظر وتعجب كيف وحدوا الله كما نوحد نحن ، وكيف يقولون : « إن الميت تكون روحه فى جسد نارى بهىّ جيل » ولعلّ هذه النفس هى الصالحة وتكون الشقية معذبة بذلك الجسم النارى كما ان حرارة الشمس تنفعنا تارة وتؤذينا تارة أخرى . وانظر كيف يقولون : « انه يرجع بعد زمن جسما منظورا » وهذا هو البعث عندنا فى دين الاسلام إما الى جنة واما الى نار على حسب الأعمال . وكانت لهم عبادة قلبية وأخلاق ذكرها (مانو) المشترع الفيلسوف قبل موسى عليه السلام بآلاف السنين : « الصبر ومقابلة الاساءة بالاحسان ، والقناعة ، والاستقامة ، والطهارة ، وكبح جماح الحواس ، ومعرفة الكتب المقدّسة ، ومعرفة الله ، والصدق ، واجتناب الغضب » . فهذه هى الوصايا العشر عندهم . وبها يخرج الانسان من العذاب بعد الموت

وكان للهنود نساك ينفردون فى الغابات . ويعبدون الله . ويفسرون الكتب الدينية . ويعرفون أسرار الطبيعة . ولهم بقية الآن . وعلى هؤلاء تعلم (خريستا) وهو أوّل مؤسس دين ظهر فى التاريخ سنة ٤٨٠٠ قبل الميلاد المسيحى ، فهاك بعض تعاليمه مما يخص مانحن فيه أومايقرب منه . قال : « إن الجسدفيه النفس وهو زائل وهى باقية ، النفس سرمدية لاوزن لها ، ونصيبها بعد الموت برجع لسرّ التناسخ اذا انحلّ الجسد عن الروح ، فان غلبت الحكمة على النفس طارت الى الأقطارالعلوية ورأت الله ، وان كان الهوى متملكا رجعت الى الذين هم متعلقون بالأرضيات ، والمولود شقيا كان أوسعيدا نتيجة عمل سابق »

وهنا سرّ أعظم من هذا ، وهوانه من رام بلوغ الكمال فليكسب علم الوحدة التى هى أجلّ من الحكمة أى يلزمه أن يتعالى الى الكائن الأسمى الذى هو فوق النفس المستقرّ فى كل منا ، إن فى باطنك صديقا إلهيا لاتعرفه لأن الله مستقرّ فى باطن كل امرئ ، ولكن قلّ من يعرف أن يجده ، فمن يضحى رغباته وأعماله للكائن الأزلى الذى منه نشأت مصادرالأشياء كلها وبه تكوّن العالم ، ينال بهذه التضحية الكمال لأن من يجد فى ذاته سعادته وفرحه ونوره فهو واحد مع الله ، فاعلموا إذن أن النفس التى وجدت الله تعتق من المولد والموت والشيخوخة والألم وتشرب من ماء الخلود »

ثم جاء قبل التاريخ المسيحى ستمائة سنة (بوذا) المسمى (ساكيا مونىسودو دانا) ملك كابيلا فاستو فلما بلغ العشرين من عمره أخذ يتأمل فى حال شعبه ، ومادخل فى الدين من الطقوس والخرافات ، وله وصايا عشر وتعاليم أشبه بما تقدم ، ووصاياه هى :

« لاتقتل . لاتسرق . كن عفيفا . لاتشهد بالزور . لاتكذب . لاتحلف . تجنب كل كلمة نجسة . كن خالى الغرض . لاتأخذ بالثار . لاتعتقد اعتقادات باطلة » اه

لعلك تقول : هانحن أولاء اطلعنا على الدرجات الثلاث لدين البراهمة ، فما فائدة ذكرها هنا ؟ أقول لك ذكرتها لتنظر فى تعاليم الأمم وتفكر فى العقائد والأخلاق ، انظر الى عقيدة التناسخ فان الدين القديم قبل ظهور (خريستا) لانص على التناسخ فيه ، بل قال ان الروح لها جسم نارى بهىّ وتبقى أمدا حتى تلبس جسما منظورا متى قضت بذلك شريعة الله ، ولم يقل جسما بعد جسم ، فلاتناسخ ولاأجسام ، فهذه الشريعة

أشبه بشريعة الاسلام إذ جاء فيها : « اننا نعذب أونتنعم الى يوم البعث ويكون لنا أجسام منظورة »
ثم انظر : لما جاء خريستا ، ماذا فعل ؟ تكلم عن التناسخ . أى ان الانسان بعدالموت اذا كان مذنبا يدخل فى جسم أرضى ويعيش مثل مانعيش نحن ، ويعتبر هذا قضاء لذنوب ارتكبها ، وكل مصيبة تصيبه تكون لأجل ذنب مضى .

انظركيف يتوسع صاحب الدين المتأخر فى المعنى الذى قاله المتقدم . ثم انظر من جهة أخرى الى وصايا (خريستا) والى وصايا (بوذا) ، فوصايا خريستا أرقى لأنها ترجع الى العلم والأخلاق الباطنة ، ووصايا بوذا ظاهرية كالحلف وما أشبهه ، فكأن القوم أيام (خريستا) كانوا أرقى ، وانظرالى أمتنا الاسلامية كيف كان الصحابة والتابعون رضى الله عنهم يراعون البواطن من الاخلاص والصدق ، وكيف تأخرالمسلمون اليوم فلم يعرفوا إلا العبادات الظاهرة وأكثرهم عن البواطن معرضون فلايحاسبون عليها

ثم انظر نظرة إجمالية فى قول الهنود : « ان الله فى باطن كل امرئ » ، وانظركيف يقول الله تعالى ـ وهوالله فى السموات وفى الأرض ـ ويقول ـ وهومعكم أينما كنتم ـ ، وكيف يقولون : « ان الاخلاص لله هوالذى يعتقنا من العذاب » ، وانظرالى القرآن كيف كان كله على هذا النمط

ثم انظر الى علماء الاسلام رحمهم الله تعالى ووازن بين آرائهم وآراء الهنود لتقف على الحقائق ، انظركيف يقول علماء الهنود المتأخرون فيما تقدم : « ان المولود يكون على حسب ما كان له فى التجسد السابق ، إن كان شريرا يكون هنا فى ذلّ ، وان كان صالحا يكون فى حال سعيدة »

وانظرالى علمائنا رحمهم الله تعالى كيف نظروا الآية التى نحن بصددها وهى ـ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ـ الخ . فقال قوم منهم : « إن الاسلام لاتناسخ فيه » وهم جمهور الأمة ، فحصول هذه المصائب ليس بذنب سابق وانما هوامتحان وتكليف لاعقوبة ، ومعنى قوله تعالى ـ فبما كسبت أيديكم ـ أى ان الأصلح عند إتيانكم بذلك الكسب إنزال هذه المصائب عليكم لأن الدنيا ليست دار جزاء بل هى دار تكليف »

وقال أهل التناسخ من أمة الاسلام : « إن هذه الآية تفيد التناسخ ، ألا ترى أن الأطفال والبهائم يحصل لهم الألم فلابد أن يكون لهم وجود سابق ، والألم نتيجة ما كانوا عليه سابقا »

وقال الذين ينفون التناسخ : كلا . فالبهائم والأطفال لا ألم عندها ، والقول بالتناسخ فاسد

وقالت طائفة : « دعونا من هذا كله ، يقول الله ـ فبما كسبت أيديكم ـ هذا الخطاب للعقلاء ، فأى دخل للبهائم والأطفال ؟ »

﴿ رأى المؤلف ﴾

اعلم أن الأمم من هنود ومسلمين وغيرهم إنما يكلمون الناس على قدر عقولهم حتى نفس الأرواح كما سيأتى والا فالنتيجة واحدة ، وايضاحه أنه اذا فرضنا أن الناس كان لهم وجودسابق وأذنبوا فيه ، فماالذنب إلا من النقص فى النفس ، ولوكانت كاملة ماأذنبت ، فلوقيل نقصها نشأ من الذنب السابق نقول يلزم التسلسل وهومستحيل ، فالأصل هوالنقص ، والله سبحانه وتعالى يرقى النفوس بالألم كما يرقيها بالعلم والعمل ، وغاية الأمر ان علماء الأمم لايريدون أن يزيدوا على ماورد فى كتبهم والله أعلم

﴿ آثار هذه الآية فى الأمة ﴾

عن الحسن رحمه الله . قال : دخلنا على عمران بن حصين فى الوجع الشديد فقيل له : إنا لنغتم من بعض مانرى . فقال : لاتفعلوا ، فوالله ان أحبه الى الله أحبه الىّ ، وقرأ ـ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ـ فهذا بما كسبت يداى ، وسيأتينى عفو ربى اهـ

ولعلك تقول : ومارأيك فى هذا المقام ؟ أقول لك : أما رأيى الذى ألقى الله عليه فهوأمر عام واحد لاغير وهو أن النفس الشريرة تلاقى ألما ، والنفس الفاضلة تلاقى خيرا . وهذا هوالمعبر عنه بجهنم والجنة . وجهنم ليست خاصة بالنار بل ورد فيها الزمهرير . وقال بعض الصحابة رضى الله عنهم : « انهم يحرقون بالزمهرير كما يحرقون بالنار » وهوعجيب جدا لأن العلم الطبيعى أثبت هذا وهو أن البرد الشديد يحرق الأجسام كالنار . وهكذا فيها الحيات والعقارب ، وجميع أنواع العذاب الروحى والجسمى ، والجنة بالعكس ، فيها جميع أنواع اللذات ، يقول الله : « فيها ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين » ويقول : « فلاتعلم نفس ماأخفى لهم من قرّة أعين جزاء بما كانوا يعملون »

فالمسلم عليه أن يعتقد الاعتقاد العام ، وهوسهل بسيط ، أن يفعل الخير بقدر الامكان ، ويحترس من الشر ويرتقب رضاء الله

رأى الأرواح

واعلم أن العلماء الذين يحضرون الأرواح يرونهم مختلفين فى هذه المسألة ، فمهم من يقول هناك تناسخ ومنهم من يقول كلا ، وهذا إما انهم حجبوا عن الحقيقة ، واما انهم عرفوا ، ولكن كل يعطى تعاليمه على حسب مايرى من السامع ، ونحن نقول : مالنا ولهذا كله ، لانهتم بالتفصيل ، فلنجدّ لنخلص من المادة ، ونرجع الى الله ، ونخلص نفوسنا من الطمع والغلّ والحسد وما أشبه ذلك : ونملأ القلب بالمعارف والعلوم اهـ

﴿ اعتقاد قدماء المصريين ﴾

إن اعتقاد قدماء المصريين مشتق من اعتقاد الهنود ، وكما رأيت أن (خريستا) صرّح بالتناسخ ولم يكن صريحا فى دينهم القديم لأن الشعب كانت حاله تقضى أن يقال لهم ذلك ، ترى قدماء المصريين لما أخذوا هذه العقيدة ألبسوها لباسا آخر ، فماذا فعلوا ؟ اعتقدوا أن الروح لها جسم ، وهذا الجسم اسمه (خات) وبعد الموت يتحوّل الى جسم روحى (سعحو) وهذا الجسم يعيش مع الملائكة فى السماء . وبالاختصار الانسان عندهم :

(١) جسم فان

(٢) جسم روحى

(٣) قلب

(٤) ازدواج

(٥) نفس

(٦) ظلّ

(٧) روح (أى مادّة أثيرية لطيفة مضيئة غير ملموسة)

(٨) (شكل إلهى)

(٩) اسم

ويقولون : « إن الانسان بعد الموت يأكل موادّ لاتتعفن ، ويشرب خمرا لايفسد » وبالجملة فعقيدتهم أشبه بالقرآن من حيث النعيم

﴿ فتوح الرحمن الرحيم ، ونور الدين الاسلامى ﴾

انظر أيها الذكىّ ، تعجب من أمر الأمم ودين الاسلام ، انظر واصغ لما أقول ، وتعجب من العلم ، وكيف أضاء الله للمسلمين الدنيا ، وأشرقت الأرض بنور ربها

ألا تتعجب معى فيما أقول لك ! أقول لك مافتح الله به الآن فقط ، أنا الآن أقرأ ماسطره علماء أوروبا يوم (٢١) أغسطس سنة ١٩٢٤ ومنه مقالة عن عقيدة قدماء المصريين ، انظركيف جاء فيها أن شريعة التحنيط إنما جاءت سنة ٥٠٠٤ قبل الميلاد ، وانظرالى ما ذكرته لك ، وهوأن (خريستا) جاء قبل المسيح بنحو سنة ٤٨٠٠ وتأمل ماقلته لك ، وأن التناسخ لم يكن مصرحا به فى كتابهم المقدس وصرح به (خريستا) ، وانظرالى قدماء المصريين ، فانهم استعملوا التحنيط خمسة آلاف سنة أى من سنة ٤٥٠٠ قبل الميلاد الى سنة خمسمائة بعد الميلاد ، أفلاترى معى أن عقيدة (خريستا) انتقلت الى مصر فى ثلثمائة سنة واهم فهموها فهما معكوسا فقالوا : « ان الانسان اذا مات يبقى زمنا طويلا فى السماء منعما ، أوفى الجحيم معذبا ، وذلك بما غلب على نفسه من صلاح أوطلاح » مثل ماقال البوذية سواء بسواء ، ولذلك جعلوا هناك ٤٢ قاضيا ولهم ميزان يزنون به قلب الميت وأعماله فتغلب الحسنات أوالسيئات ويكون الجزاء على مقتضى تلك الغلبة كما رأيته فى تعليم الهنود وكما جاء فى القرآن سواء بسواء ، فكأن العالم كله يفهم شريعة متشابهة من حيث الاصول ، ثم انظركيف يقول الهنود قبل المسيح بأربعة آلاف وعمانمائة سنة : « إن الانسان يرجع بعد أمد الى الأجسام ويولد ثانيا ، ويكون فى حال على مقتضى حياته السابقة ، ولايزال يعود مرارا حتى يطهر ، وبعد ذلك يرجع إلى الله مع الملأ الأعلى »

وقدقلنا لك ان هذه جاءت من (خريستا) لاممن قبله أشبه ببدعة دينية ، ثم انظركيف نقلها المصريون بعد ثلثمائة سنة محرفة ، فقالوا : « يرجع الانسان الى جسمه الأصلى »

ياعجبا ! إن الأمم تأخذ العلوم على مقتضى أخلاقها ، قدكان قدماء المصريين يعالجون عظام موتاهم بالقار لأجل حفظها من الفساد ، فلما سمعوا هذه الفكرة عن الهنود قلبوها الى عاداتهم وقالوا : يرجع الانسان لنفس جسمه الأصلى ، فأخذوا يحنطون الأجسام خمسة آلاف سنة

إياك أن يبهرك الفلسفة والعلم والحكمة عند قدماء المصريين . فتقول : لم خرفوا ؟ فاعلم أن فلاسفة كل أمة ينشأون على العقائد التى عندهم ، فاذا رأيت الزخرفة والنقش والحكمة ، وما أذاعته الجرائد عن قبر الملك (توت عنخ أمون) وأن فيه مسرجتين من مرمر لما أوقدوا المصباح فيهما ظهرت صورة الملك والملكة بألوان باهرة ، فلما انطفأ المصباح ظهرت المسرجتان بحالهما تماما لاصورة فيهما ، وقد قيل ان هناك (٣٠) صندوقا مختومة بختم الملك لم تفتح وستفتح فيما بعد ، والسائحون من سائر أقطار العالم يفدون على بلادنا لمشاهدة هذه العجائب

وظهر قبر آخر بجوار الهرم على بعد (٣٠) مترا من سطح الأرض ، ويقال انه كشف عظيم الأهمية . أقول : اذا سمعت ذلك فلاتدهش لأن الأمم كلها أشبه بعمال عند صاحب العقيدة ، فترى الفيلسوف والصانع والأمير والمزارع ، كل هؤلاء ينطقون بفكرة واحدة ، أعنى ان أكبر فيلسوف عندهم لايقدر أن يقول ان هذا خرافة بل يقدسه كما يقدسه القوم ، والمهندس والصانع وأمثالهما ، كل هؤلاء يتقنون الصناعات وهم عند الفكرة الدينية أشبه بحاشية الملك والرعية كلهم يقدسونه ولوكان فاسقا ويطيعونه ، هكذا عقيدة التناسخ التى ظهرت فى الهند وغيرت وجهتها فى مصر الى رجوع النفس الى جسدها نفسه بقيت أمدا طويلا حتى جاء دين المسيح ودين الاسلام فغيرت العقيدة

تعيش الأمم آلاف السنين ولاتتزحزح عن عقائدها ، حتى اذا جاء مصلح غيرها ، فههنا جاء الاسلام ونزل فى القرآن انا بعد الموت نعذب أوننعم ، وانا نحشر على مقتضى سابق حياتنا ، وأن منا من ينظرون ربهم ، ومنا من يحجبون عنه وهكذا ، فلم يذكر رجوع الجسم للولادة مرة أخرى ولارجوعه لجسمه ثانيا ثم انظر الى الأمة الاسلامية كيف احتجبت أنظارها الآن عن أسرار الكون وبدائعه وغاب عنها ذلك

وتشبثت بالوقوف على الظواهر ، وأن الله اليوم يريد رجوعها الى أصل دينها ، وما أصله إلا النظر فى عجائب العلم والحكمة ، ودراسة الكون الذى نسكنه حتى نلاقى ربنا ونحن نعرفه ونحبه ، ونكون فى الدنيا قد قضينا ماعلينا لأمتنا وللأمم حولنا ، فانا نحن — خير أمة أخرجت للناس —

ليكن المسلم خليفة الله ، ليكن العالم كله تحت رعايتنا . لنكن خلفاء الله فندرس نظامه ونكمل عباده لأنهم اخواننا ، فمن دخل فى ديننا فبها ، ومن لم يدخل أعناه ، وراعيناه وأحطناه ، وان اعتدى أدّبناه ، هكذا جاء ديننا ، ولنرجع الى أخلاق السلف الصالح من الشفقة والاخلاص ومراعاة أحوال القلوب ، ذلك هو الذى يرمى اليه الاسلام ، بل هو مستقبل الاسلام والمسلمين

﴿ سؤال ورد على المؤلف ﴾

ولما وصلت الى هذا المقام . قال لى أحد الفضلاء : كيف يعقل أن يحنط المصريون موتاهم بمجرّد ماسمعوا التناسخ عن (خريستا) بالهند. قلت له : إن للقوم قصة خيالية لهذا الغرض قد تقدّم ذكرها فى هذا التفسير ، يزعمون أن (أوزيريس) كان محبا للمصريين ولنوع الانسان كله ، وأخذ معه (توت) وسار بجيوشه وفتح الأرض كلها باللطف لا بالحرب ، فلما رجع الى مصر حسده أخوه (سيت) ، فصنع صندوقا جيلا ، وصنع وليمة ، وقال . من كان هذا الصندوق على قدر جسمه فليأخذه لنفسه ، فكان ذلك على قدر (أوزيريس) فأطبق الصندوق عليه خيانة ورموه فى النيل ، فقامت زوجته ايزيس وجزعت وقصت شعرها و بحثت عن الصندوق فوجدته على شاطئ فينيقية ، فأنزلوه فى سفينة الى آخر ماتقدم ، وانها وضعته عند غابة ، فعثر عليه (سيت) فقطع أخاه أربع عشرة قطعة ودفنها فى مواضع كثيرة ، ثم جمعتها هى وحنطتها . وهنا بيت القصيد ، فكون ايزيس حنطت أوزيريس زوجها هى التى أثارت هذه الثائرة . ولكن الذى أقول ان هذه الخرافة لاتكفى فى هذا العمل الشاق ، فلابد أن تكون العقيدة هندية لاتفاق التاريخين . فأما هذه الخرافة فهى لاتستعبد أمة بتمامها . انتهى والله أعلم

اللطائف العامة للسورة كلها (١)

اللطيفة الأولى

بهجة العلم فى الحكم المودعة فى بسم الله الرحمن الرحيم . حم . عسق

بدائع أسرار التنزيل

(بسم الله الرحمن الرحيم)

فى ليلة الجمعة ٣١ اكتوبر سنة ١٩٣٠ استيقظت قبيل الفجر . ولكنى لم أستطع أن أقوم بعمل ما من عبادة أو علم لعارض جسمى طارئ عليه ، فخيل لى كأنى انسلخت من هذه العوالم المادية . وكأنى أنظر الى المجرّات وشموسها ، والسدم وأحوالها . ولاجرم أن الخيال لكل امرئ لايعدو ماعرفه . ونحن نعرف أن مجرّتنا التى شمسنا فيها قد عرفت الأمم أن شموسها بحسب ماوصل اليهم تبلغ عشرة آلاف مليون شمس وهذه مجرّة واحدة من آلاف الملايين منها . وهكذا خيل لى أيضا أنها كلها دائرات وحولها سياراتها وأراضيها وأقمارها . وكل شمس لها حركة خاصة كما ان كل سيارة له حركة خاصة حول شمسه وكل قمر حول الكوكب السيار فاذا اجتمعت هذه كلها مرة واحدة ولاحظها الانسان خيل له كما خيل لى أن العالم كله موسيقى فوق مايتصوّره المفكرون . ونغمات بهجات فوق مايبتهج به المبتهجون

---

(١) هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ولم يفتح الله بها إلا عند طبع هذه السورة : المؤلف

الله أكبر . هنالك ازددت فى الخيال تعمقا . وتوغلت النفس فى صورها . وابتعدت عن العالم المحسوس الى عالم الخيال المحض ، فهنالك هنالك خيل لى كأن انسانا تراءى لى ، وجسمه من النور ، ولكن له جميع خصائص الانسان الجسمية ، اذا هو يحدّق ببصره الىّ ، فأخذ فكرى يجول فى أمره ، وفى نظراته ، وفيم يتفرّس من أمرى ، وأىّ الامور يريد أن يحدّثنى بشأنه ؟ فابتدرنى قائلا : — وفى ذلك فليتنافس المتنافسون — فقلت : خبرنى ماذا تريد رحمك الله ؟ فقال : أحدّثك فى أمر نفسك وأمر المسلمين فى الأرض ، فقد اتبع خيالك علمك ، وراح يجول فى ساحات واسعات ، وباحات صفت فيها الصور ، وظهرت فيها الحكم ، وبهر النور ، هذا الخيال الذى تبدّى لك اليوم تابع لما قرأت من كشف الحقائق ، ولكن هناك بعد مفارقتك هذا البدن سترى ماهو أعجب وأبدع ، نظرا حقيقيا لاخياليا ، واذا كانت المسرّة التى تحسّ بها نفسك الآن تكاد تكون فوق طاقتها ، فذلك لأنها محبوسة فى المادة ، ولكن اذا انطلقت منها ستحتمل من اللذات مالاحدّ له ويكون ذلك على مقتضى العلم ومقتضى العمل — ولكلّ درجات مما عملوا —

أنت الآن تتخيل الموسيقى فى العالم العام تخيلا وهناك سيكون ذلك حقيقة . فقلت : وكيف تقول ان هذا العالم موسيقى ، وهل هذا المنظر الذى يخيل لى له مناسبة مابالسور التى تطبع الآن فى التفسير ؟ إن الله عزّوجل عوّدنى أثناء طبع هذا التفسير أن لايمرّ بخاطرى فكر قوىّ إلا كان مناسبا أشدّ مناسبة لما أنا بصدده ، فهل هذا الخيال من هذا القبيل ؟ فقال إى وربى . فقلت : وكيف ذلك ؟ قال : إن هذه المناظر سيتجلى بها بعض أسرار « بسم الله الرحمن الرحيم * حم * عسق » ، فارداد عجبى ! وقلت : فلاتتركنى يرحمك الله . فقال : كلا لا أتركك فاستبشر وقرّ عينا ، فانى مرسل من عالم آخر لأقرّ عينك فى هذا التفسير ولكنى لم أحضر فى خيالك إلا الآن . فقلت : كيف أعرف أن هذه المناظر مفسرات لما ذكرتم . فقال لأسألك أوّلا :

(١) ماصفة الموسيقى عند القدماء

(٢) وماهيئتها عند علماء العصر الحاضر

(٣) ثم ماصفة الموسيقى فى العالم كله الذى تخيلته أنت الآن ، وهل هذا النظام البديع تابع لعلم عالم حكيم أم هو مصادفة

(٤) ثم ماتنائج هذه النظم كلها من الرحمات

(٥) ومتى أحسّ العقلاء بالرحمة وعلموها حمدوا مسديها

(٦) وهنالك يتجلى معنى البسملة والرحمة فيها ، ويتجلى معنى الحاء والميم والعين والسين والقاف ، إذن فى المقام ستة فصول ، فهاأنا ذا سائلك فى :

الفصل الأول والثانى

ماصفة الموسيقى عند القدماء ، وماصفتها عند علماء العصر الحاضر

فقلت ياسبحان الله . أنا لست من علماء الموسيقى حتى تسألنى هذا السؤال . قال نعم . أنت لست من علمائها ، ولكن لك إلمام بها إلماما علميا ، فاذكر ماتعرفه . فقلت أنا أتذكر أن (فيثاغورس) الفيلسوف سمع مطارق حدّاد فأطربته رناتها ، وسرّته مناسبتها ، فوزنها فكانت نسبتها هكذا ٦ و٨ و٩ و١٢ فأتى بأوتار أربعة متساويات طولا وسمكا ، وعلق فيها أثقالا على هذه النسبة ، فكانت مطربة مفرحة تشرح صدور البائسين . هذا كان أوّل ماخطر له ووضعه . فقال هذه العبارة بالحرف من كتابك « الموسيقى العربية » ولكن هناك أمر آخر أقرب من هذا . فقلت نعم فى كتاب « اخوان الصفاء » فان أوتار العود لها نسب غير هذه والأوتار عند القدماء أربعة وهى (الزير والمثنى والمثلث والبم) وهى مرتبة من أعلى الى أسفل ، وقد كانوا

يظنون انها مناسبات لكرة الأثير والهواء والماء والأرض بهذا الترتيب ، الأعلى مماثل للأعلى والأدنى مماثل للأدنى ، وقد قالوا :

« إن وتر الزير مركب من (٢٧) طاقة من الحرير ، والمثلث يزيد عليه الثلث فهو (٣٦) طاقة والمثنى يزيد عليه ثلث (٣٦) فهو إذن (٤٨) والبم يزيد على ما قبله ثلثه وهو (١٦) فيكون (٦٤) وبهذا انتظمت النغمات وابتهجت النفوس »

هل هذا هو الذى كنت أريد أن أسمعه منك ، هذا فى القديم ، فهل تذكر نظير ذلك فى الموسيقى الحديثة . فقلت : لا أذكر الآن . فقال عجبا ! تتذكر ما فى كتابك فى الموسيقى وقد مضى على تأليفه سنون ولا تتذكر ما كتبته فى ﴿ سورة مريم ﴾ من الموسيقى الحديثة . فقلت نعم أتذكر الآن انى ذكرته هناك وهو

« ادراك الانسان للأصوات ينحصر فى (١٠) دواوين أى أبعاد كلية موسيقية ، فاذا ورد على الأذن (١٦) موجة فى الثانية ، فهذا أقل الأصوات ثم ٣٢ ثم ٦٤ — ١٢٨ — ٢٥٦ — ٥١٢ — ١٠٢٤ ، ١ ٢٠٤٨ ، ٢ — ٤٠٩٦ — ٨١٩٢ ، ٨ — ١٦٣٨٤ »

ومعنى هذا أن أسماعنا تفرح بنظام الحركات بأى شكل كان ، ففى العود العربى القديم تفرح نفوسنا بالنظام المبنى على ازدياد الطاقات بالثلث ويكون ذلك منتظما . وههنا تفرح النفس بما تحس من نظام المتوالية الهندسية البديعة . فنفوسنا هى هى قديما وحديثا لا تفرح إلا بما هو منظم ، وأقرب شىء لها الأصوات التى يعرفها الجهلاء والعلماء . فقال أحسنت أحسنت ، أتمم القول . فقلت : أما نظام الأفلاك وحركاتها وعجائبها ونظام الطبيعة فليس يدركه إلا الأقلون . فقال هذا هو الذى أريد أن أختبرك فيه

الفصل الثالث

فى النظام العام فى العالم

حدثنى إذن : هل النظام العام على مثال ما رأيت الآن فى الموسيقى القديمة والحديثة . قلت نعم . فقال : فاضرب لى أمثالا . فقلت :

﴿ أولا ﴾ ان أبعاد السيارات تتبع نظاما معلوما ، فاذا أخذنا الأرقام التالية وهى (٣ و ٦ و ١٢ و ٢٤ و ٤٨ و ٩٦) ثم أضفنا (٤) الى كل رقم كانت سلسلة متتابعة تفهمنا نسبة مسافات السيارات وأبعادها عن الشمس وهى (عطارد ، الزهرة ، الأرض ، المريخ ، المشترى ، زحل) فهى على هذا الترتيب فى بعدها عن الشمس أى انها على مقتضى المتوالية الهندسية ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ هى أشبه بالدواوين المتقدم ذكرها فى الموسيقى الحديثة التى يدرسها الفرنجة الآن فى قسم من أقسام العلوم الطبيعية ، فأما الأقدمون فكانوا يدرسونها فى العلوم الرياضية ولكل وجهة صادقة ، فالموسيقى ترجع للصوت أولا وحسابه ثانيا ، فالقدماء جعلوها فى علوم الرياضة لمكان حسابها ، والمتأخرون جعلوها فى العلوم الطبيعية لأن الصوت أمر طبيعى لأنه حركات فى الهواء

﴿ ثانيا ﴾ ان الحجر اذا نزل من أعلى الجبل الى أسفل البئر كان حسابه هكذا : فى الثانية الأولى يقطع (١٦) قدما انجليزيا ، وفى الثانية الثانية نضرب هذا العدد وهو (١٦) فى (٣) ، وفى الثانية الثالثة نضرب هذا العدد فى (٥) وهكذا (٧) و (٩) و (١١) و (١٣) الى ما لا يتناهى

واذا ربعنا الثوانى وضربنا المربع فى (١٦) يكون الحاصل ما قطعه الحجر جميعه ، فاذا مضت ثانيتان ضربنا ٢ فى ٢ يساوى ٤ ونضربها فى ١٦ ، واذا مضت ثلاث ثوان ضربنا ٩ فى ١٦ وهكذا ، فهذه كلها مضاعفات منظمات كما انتظم ما قبلها

ثم توقفت عن القول برهة . فقال : فكرفيما كتبته فى ﴿ سورة الرعد ﴾ عند قوله تعالى ـ وكل شىء عنده بمقدار ـ

﴿ ثالثا ﴾ وذلك فى أمر الصوت والنور والحرارة والجاذبية ، فهذه الأربع تقل بمقدار مايزيد من البعد عن الجسم الحار والجاذب والمنير والذى منه الصوت فتذكرت ذلك ، وهناك أمثلة تبين المقصود فلم أشأ أن أكتبها هنا خيفة الاطالة ، وهنالك نظام وحساب فى سير الأجرام الفلكية أقربه ماتقدّم فى ﴿ سورة يس ﴾ وفى ﴿ سورة الزمر ﴾ وتجد فى ﴿ سورة يس ﴾ أيضا موازنة مابين الشعر والموسيقى وحساب الفلك ، كل ذلك تقدم موضحا

فهذه النظم فى أبعاد الكواكب ، وفى سقوط الأحجار ، وفى سرعة الأصوات والأنوار الخ تحيط بالمادة وكلها منظمة أنظمة جميلة حسابية موسيقية ، فاذا ترقينا قليلا رأينا نفس النور على هذا النمط أى انه جار على حساب باعتبار ألوانه السبعة ، ذلك ان العين لا تتأثر من تموّج الأثير الذى يزيد عدد درجاته فى الثانية عن (٧٩٠) مليون مليون ، أو ينقص ذلك العدد عن (٤٠٠) مليون مليون ، فأقل الألوان وأوّلها الأحمر وأكثرها تموّجات وآخرها البنفسجى و بقية الألوان بينهما ، إذن حاسة السمع آلة لسماع حركات فى الهواء ، وحاسة البصر آلة لالتقاط حركات الأثير فتظهر لها بهيئة نور ، إن هذه العوالم كلها حسابية موسيقية عجيبة ، فما وافقنا سميناه جميلا لذيذا ، ومالم يوافقنا سميناه قبيحا مؤلما فهذه الحركات فى الهواء المحصورة بين النهايتين الكبرى والصغرى فيما تقدّم ، وهكذا عددها المحصور مابين النهايتين فى الضوء كلاهما قد أحدث آثارا فى أسماعنا وفى أبصارنا ، والمسألة ترجع الى نفس الآلة ، وهكذا نقول فى نعومة الحرير وخشونة الخيش ورائحة الورد والروائح الكريهة وطعم التفاح والحنظل ، فهذه منها المكروه ومنها المحبوب ، ولاحب ولا كره إلا على مقتضى الملاءمة والمنافرة ، ولاملاءمة إلا على حسب النظام المحسوب حسابا جاريا على قوانين توافق حواسنا ، ولامنافرة إلا على مقتضى اختلاف القوانين المذكورة ، فما هذا العالم كله إلا حركات ، وغاية الأمر أنها باعتبار الآلات القابلة فينا أصبحت هذه نورا وهذه صوتا وهذه رائحة وهذه ذوقا الخ

ألاترى رعاك الله الى ماقرّرناه سابقا أن كل الجوامد وكل السوائل مثلها كمثل الأنوار فى أنها حركات وتلك الحركات تمثلت لنا أجساما وأنوارا ، ومن الأجسام سوائل وجوامد وغازات ، كل هذا واضح فى مواضع كثيرة من هذا التفسير

فلما سمع ذلك . قال : أحسنت كل الاحسان ، فلنشرع فى الكلام على :

الفصل الرابع ، والخامس ، والسادس

وهو الكلام على نتائج هذا كله وهى الرحمات ، ثم مايترتب عليها من المحامد

ثم معنى الحاء والميم ، والعين والسين والقاف

فقلت : أما هنا فانى أرجو أن تفتح لى الباب حتى أفهم هذا المقام . فقال انظر انظر بالبصيرة ، فنظرت . فقال ماترى ؟ قلت أرى المجرّات والشموس والسيارات كلها كأنهنّ حفلات ذات بهجات ، وكأن النور انقلب أصواتا ونغمات ، بل هذه العجائب ألذ عند عقلى من أن أسمع نغمات العود والمغانى ، فههنا جمال وابداع وحسن وكمال . فقال من الذى يديرهذه الكواكب ؟ فقلت : نفوس عالية وهى الملائكة . فقال : فاذا سألك أهل الأرض وقالوا لك ما البرهان ؟ فقلت : أقول لهم قد تقدم فى سورة حم (السجدة) عند آية ـ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ـ الخ أن النبات على قسمين . قسم يحلل المواد فى الأرض . وقسم يركبها . والمحلل المراد هى (الفطر والبكتريا) وهذه وان جلب بعضها الأمراض فان أكثرها لولاه لم نعش يوما واحدا لأنها تحضر الأغذية فى خبايا الأرض وتجهزها للنبات الذى يقيتنا ، بل أزيد على ذلك أن هذه الفطر (بضم

الفاء والطاء) ونحوها تعيش فى الأمعاء الغلاظ تتربص الأغذية التى تمرّ فى الجهاز الهضمى وقد عجز عن هضمها أنواع الهاضمات من الينابيع الستة التى فى الفم ومن البنكرياس ونحوها ، فتتلقاها تلك الفطر التى لاتراها العيون ، فتحلل مابقى فيكون بذلك تمام أغذيتنا ، ولولا هذا لم يكمل غذاؤنا ، بل نموت جوعا وان كنا آكلين . فاذا كان غذاء النبات وغذاء الحيوان وغذاء الانسان لايتم الانتفاع به إلا بهذه المخلوقات التى لاترى وما كان أحد فى الخلق يظنّ أن ذلك يحتاج لفاعل يفعله فكيف تكون شموس وكواكب وأرضون وأقمار ومجرّات تجرى ولامجرى لها ؟ فاذا كانت الأمراض كالكوليرا والتيفوس والجدرى ، واذا كانت الأغذية كل هذه لفعلها أسباب موجودة ، فكيف يحتاج أحقر المخلوقات الى فاعل ولايحتاج أعظمها الى فاعل ! إن ذلك يخالف العقل والمنطق والصواب

وعليه أقول : ان هناك ملائكة هى التى تدير هذه الكواكب والمجرّات والشموس وبسبب هذا الدوران المختلف حصلت لنفسى مسرات أكثر مما تسرّها نغمات الموسيقار . فقال : حدّثنى ، أهؤلاء ليس لهم قائد . فقلت بلى وهو قاهر فوقهم . فقال إذن أنت فهمت الجواب . فقلت لم أفهم . فقال بل فهمت والله ، ألا تذكر أن الرحمة فى البسملة . قلت أذكرها ، فقال هذه الكواكب والعوالم هى آثار هذا النظام والحساب فهى رحمات والرحمة لاتكون إلا مع علم كما تقدم فى آية ــ ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما ــ ، فالرحيم لاتتم رحمته إلا اذا كان عالما بمواضع الحاجات لمن يرحمهم . قلت إى وربى . قال الحاء والميم فى (حم) تذكرة بالرحمة أوّلا وتذكرة بالحمد ثانيا ، ألاترى أن مبدأ المخلوقات علم الله ، ثم انه على مقتضى العلم خلقها ، ولما أحسسنا بالنعمة وعلمناها حمدناه . فقلت حسن . قال هذا هو ملخص الآيات ، علم الله فرحمة منه فعلمنا فحمدنا ، الرحمة فى البسملة والحمد فى قوله ــ يسبحون بحمد ربهم ــ فالرحمة مبدأ والحمد نهاية ، ولارحمة إلا مع علم ، ولاحمد منا نحن إلا مع علم . ثم ان هؤلاء الملائكة المدبرين لهذه الكواكب مسكنهم فى السموات ، وهم عارفون بجلال الله فهم يسبحون (السين) وبهذا نزل الوحى وهو القرآن (القاف) وملخص هذا انك لما تجليت هذه العوالم :

(١) عرفت الرحمة السابقة والحمد اللاحق ويشير لهما الحاء والميم

(٢) وتفكرت فى أن الملائكة فى السموات يعرفون جلال الله وهم يديرون هذه الكواكب بهذا النظام الموسيقى ، وهذا ظهر فى قوله « السموات والتسبيح » لأن كلا منهما مبدوء بحرف السين

(٣) ولاحظت فى عقلك أن الله فوق الجميع علما وقدرة ، وهذا فى قوله « العزيز . العلىّ . العظيم » كلها مبدوءة بحرف العين

(٤) وهذا الوحى نزل فى القرآن ، وهذا حرف القاف ، وأيضا هذه العوالم كانت فى أزمان سابقة وهى لاتزال كذلك الى الآن ، وهذا فى لفظ من قبلك (القاف)

ولاجرم أن قوله تعالى ــ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ــ أصبح واضحا مما تقدّم ، لأن العوالم حركات لاغير كما أثبته أنت فى التفسير مرارا ، وما الأثير إلا كالخيال فى النفوس البشرية ، والخيال متى تركه صاحبه طاح وذهب ، والأثير أشبه بهذا الخيال لأنه ليس مادّة ، فهو يكاد يتفطر لأنه فى الحقيقة لاشىء والحركات هى التى تتجلى لكم . ثم ان الملائكة لهم (صفتان) صفة معرفة الله ، وصفة تعليم الخلق ، ولالأولى ــ يسبحون بحمد ربهم ــ وللثانية ــ ويستغفرون لمن فى الأرض ــ وفى كليهما السين ، وهذه هى الخصلة التى تجب على كل عالم فى الاسلام علم بجلال الله وجماله . ثم أن يكون مفضالا منبعا للخير فياضا نافعا للناس . هنالك قلت ياليت شعرى . اذا كانت هذه الحروف لم نفهم منها الآن إلا ملخص الآية من حيث انها رمز لها فماذا أفادتنا ؟ فقال انها جمعت العوالم العلوية والسفلية بـ

نظرالنفس وأصبحت كأنها هيئة بهجة تشرح الصدور وتعرّف جلال الله وجماله . وهذه تأنس بها الأرواح والاشارة أبلغ من العبارة ، وهذه لاتدرك إلا بالذوق ، وانما الفرق بين هذه المزايا التى جاءت فى هذا التفسير و بين المزايا التى فهمها المتقدمون أن مزايا هذه الاشارات هنا تحثّ على التعقل والتفكر ، وأما ما جاء عن بعض المتقدمين أن هذه الحروف مقتطفات من اسم الله ، أوانها تشيرالى أعداد خاصة كالجمل (بتشديد الميم) كما زعم اليهود ، أوكأن تكون اشارة الى مافى العوالم العلوية من المنازل كماتقدم فى أوّل ﴿ سورة آل عمران ﴾ فان ماذكر هنا أقرب منه الى رقىّ الأمم الاسلامية . وأىّ بهجة ونعمة أبهج وأكمل من استحضار صور العلوم كلها وكأن الله مشرف عليها والنفس تطالع ذلك وهى مغتبطة أى اغتباط ، وذلك عند النطق بخمسة حروف جمعت العوالم ، ثم فصلت تلك المعانى بعد ذلك فى السورة

منافع الموسيقى العلمية
وضرر الموسيقى العملية

فقلت له : لقد طال المقال فى نظام الموسيقى العالى فى السموات والأرض . وأن المطلعين على هذا التفسير ربما يرون أن الموسيقى فى الأرض عند العامّة والجهلاء كالموسيقى التى أبدعها الله لأنى وازنت مابين العود ونظامه والسموات ونظامها . فقال : حقا ان هذا يتبادر الى الذهن . فبين هذا المقام هنا ؟ فقلت : لقد ذكرت فى أوّل ﴿ سورة الصافات ﴾ مافى التعليم العربى فى الأمم الاسلامية من النقص الفاضح والجهل المريع من حيث الشعر العربى . ولاجرم أن بين الشعر والموسيقى صلة نسب واتقان واتصال . إن الأمم الاسلامية منيت بأشعار العرب قبل الاسلام و بعده وفيها الغثّ والسمين . ولقد سرت هذه الفكرة سريان النار فى الهشيم . وظنوا أن هذه الأشعار على علاتها تعرّف أسرار القرآن . والحقّ الذى لامفرّ منه أن كل ما أخلّ بالأخلاق من الأشعار . وما كان منه فيه مجون أوغرام فهو لغو بل ضارّ . لأن ذلك يعلق فى النفس من صباها فلايتركها ، فيصبح خلقا فيها وتلازم الغرام والصبوة فى الشباب فعلا وفى الشيخوخة قولا وأمانىّ . وانى ليدهشنى والله أن أرى هذه الأمة فى الأندلس وفى الشرق لاتفرق بين الشعر المحرّض على العفاف والشعر المزرى بالمروءة ولم أجد من يحذر من ذلك الخلط ، لافى زماننا ولافى الأزمان السابقة ، وهكذا أجدهم فعلوا ذلك فى الموسيقى وفى الأغانى ، فكل هذه أباحها القوم ولانكير إلا عند الفقهاء ، وأسمعهم يروون جميع الأشعار فى كتبهم وفى سمرهم وفى مجالسهم ، بل أرى الصوفية يرمزون بالغزل الى الذات العلية ، وأجد العلامة الغزالى يبيح السماع بشروط ، والعلامة ابن سينا يجعله هو وطائفة من الصوفية مرقيا للنفس بشرائط خاصة كما هو واضح فى آخر ﴿كتاب الاشارات ﴾

والحق الذى لامحيص عنه أن أكثر الأشعار وأكثر الأغانى وأنواع الموسيقى ضارّات بمجموع هذه الأمة . إن مايقوله الامام الغزالى رحمه الله من جوازها بشرائط ، وهذه الشرائط ترجع الى أمر واحد وهو انها اذا سمعها الانسان لم تتوجه نفسه الى محرم بل تتوجه الى ادراك المعانى وشريف الخصال

أقول : إن مايقوله حق ، ولكن أكثر الناس غير مستعدين لذلك ولاهم يذكرون ، فأكثر الأشعار وأكثر الموسيقى ضارّة بمجموع هذه الأمة ، والقليل منهما هو النافع ، إذن ليست موازنة الموسيقى فى الأرض عند الناس بالموسيقى فى السماء عند الله من حيث الحساب تفيدنا أنهما يستويان فى الكمال . كلا . فهنالك الموسيقى نظام جميع العلوم ، وهنا استعمالها أكثره مزر بنوع الانسان وهكذا الأشعار

ولقد أنحى (سقراط) فى الكتاب العاشر من الجمهورية على طائفة الشعراء ، وأخذ يلوم (هوميروس) الشاعر ويحط من أقدار هذه الطائفة ويقول انهم لاهم فى العير ولافى النفير ، قوم لاحقائق عندهم ولاعلم ،

وماهم إلا مقلدون للحقائق ، وما مثلهم إلا كمثل الرسام الذى رسم لجام الفرس واللجام صنعه صانع وهذا الصانع وضعه بالهيئة التى طلبها راكب الفرس . فراكب الفرس هوالذى يطلبه والصانع يعمل على مقتضى الطلب ولكن الرسام يقلد الصانع ، هكذا الشاعر فما هو إلا راسم للمعقولات ، لامتعقل ولا عالم ، إذن الشعر خيال والخيال غير الحقيقة

عجب أن تكون أكثر الشعراء هذه قيمتها ! والله يقول ــ والشعراء يتبعهم الغاوون ــ . وههنا عجب وألف عجب أن نسمع القرآن يذم الشعر . وقد وافق فى ذلك الفلسفة من قبله . وهذا قوله تعالى ــ بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ــ

ثم إن المسلمين فى الشرق والغرب طاحت دولهم وذهب مجدهم فى الدولة العباسية والدولة الأندلسية بما تركوا مواهبهم ، ولم يكن لهم همّ فى الأكثر إلا فى الشعر ونسوا المعقول وتركوه للأعاجم . لذلك ذهبت ريحهم وأصبحوا أثرا بعد عين

إن « حم . عسق » جاءت رمزا لنظام العالم العلوى والسفلى وهو الموسيقى الجميلة والعلم والحكمة . أما شعر الشعراء فى الأرض وغناء المغنين فضرّهما أكثر من نفعهما ، فليفكر العلماء فى الاسلام بعدنا فى قوانينهم للشعر النافع وللموسيقى ، وليحتاطوا فى ذلك ، وليفرقوا بين النافع والضارّ ، فلاتكون الموسيقى إلا حيث يكون انعاش النفوس للمعالى والعلوم وأشرف الأخلاق ، وكذلك الأشعار . فأما اذا كان كلاهما لتهييج النزوات فليحرم بتاتا . إذن هناك فرق بين مادلت عليه « حم ، عسق » و بين مايغرى بانحطاط النفوس الانسانية

فلما سمع ذلك . قال : أجدت ووفيت المقام حقه . و بعد أن سمعت هذه الجملة منه انصرف الخيال من أمامى ، ونظرت فى نفسى ، فوجدت انى لا أزال فى الفراش ، وعجبت من نفسى كيف كان حوارى مع خيالها النورى تخيلته هى ، ثم أخذت أفكر فى هذه المعانى فوجدتها معقولة ، بل فرحت بها فسطرتها تبصرة وذكرى لى ولأصدقائى قراء هذا التفسير والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الأحد ٢ نوفمبر سنة ١٩٣٠ م

إشراق شمس هذه المقالة

فى سحر ليلة الاثنين ٣ من شهر نوفمبر سنة ١٩٣٠ استبان لى من فحوى هذه المقالة أن (حم عسق) رسمت للحكماء والعلماء فى هذه الأرض أربعة منازل وهى :

(١) انبعاث النفوس من الخلق الى أنوار الحق

(٢) ثم ائتناسها بتلك الأنوار

(٣) ثم يكون الاقتباس بعد الائتناس

(٤) ثم الافاضة على الناس من تلك الأنوار

فالمنزلة الأولى هى الانبعاث ولها (حم) وذلك أن تشاهد أنفس أهل العلم بهجة هذه الكرات السماوية وتطالع أنوارها وحسابها وأعدادها وعظمتها ، فاذا امتلأت بتلك الأنوار وأشرقت بها أيما اشراق تكون المنزلة الثانية ، وهذه المنزلة الأولى تشير اليها الحاء والميم لأن تجليات العوالم وظهورها من العدم سرّ الرحمات والرحمة يسبقها العلم والعلم به النظام وتقدير الحركات والدرجات . و بإدراك ذلك الجمال ترتقى النفس الى المقام الأعلى وهو المنزلة الثانية (ع) الائتناس إذ تتجلى للفكر تلك العزّة والعظمة والعلوّ اللاتى أشرقت بها أنوار العين فى (عسق) ، وهنا ارتقت النفس من المقدمة الى النتيجة ، ومن المخلوق الى الخالق ، ومن الأثر الى

المؤثر ، ومن الرحمة الى الرحيم ، ومن الجمال الى الجميل ، ومن الصنعة الى الصانع ، وهناك تتجلى أعمال الملائكة الحافين حول العرش ، وهم يشاهدون العوالم كلها ، مطلعين على بدائعها ، منظمين لحركات السموات ولم يتم ذلك إلا بعد اشراق نفوسهم بما استمدّوا من علم وما استفادوا من حكمة من العليّ العظيم العليم ، وهذه هى المنزلة الثالثة وهى الاقتباس (السين) من (عسق) فاذا كانت المنزلة الأولى ارتقاء من الصنعة الى الصانع ، والثانية تفكير فى أوصافه ومشاهدة أنوار الآثار ، فالثالثة الاقتباس ، ألاترى أن المؤثرين الذين لم نرهم شاهدنا آثارهم ، وعلى مقدار اختلاف الآثار يكون اختلاف المؤثرين ، وهم الذين سميناهم ملائكة ويضرب لهم المثل فى نظام العوالم بنظام أعضائنا ، فكما أن فى كل عضو قوّات خاصة ، هكذا فى كل عالم ملائكة مختصون به يديرونه ، وكما أن أعضاءنا تطيع القوّات المدبرة لها هكذا العوالم المشاهدة تطيع الملائكة المدبرين وكما أن الانسان منا له نفس واحدة ، وهذه النفس لها قوى كثيرة لانقدر أن نحصيها نحن والله يحصيها هكذا الله واحد وله ملائكة ينفذون أمره وهم كثيرون ، وكما اننا نحسّ فى أنفسنا بأن هناك فى عقولنا قوى مختلفة مثل : « المخيلة ، والمفكرة ، والحافظة ، والذاكرة » وفى أجسامنا قوى أخرى أقلّ منها درجات من القوّة الجاذبة والهاضمة والماسكة والدافعة والغاذية والمنمية والمولدة ، ومثل الغدد المختلفات كغدة الصفراء والبنكرياس وغدد اللعاب اللاتى فى الفم وهى ست ، وهكذا مما تقدّم إيضاحه فى ﴿ سورة فاطر ﴾ هكذا فى العالم :

﴿ أوّلا ﴾ ملائكة سماويون يدبرون العوالم تدبيرا محكما بنظام متقن ، وهم يستمدّون ذلك من المقام الأقدس كما تستمدّ الحافظة والمفكرة ونحوهما من الروح الانسانية معارفها واختراعها ، إذ لولا أرواحنا ما كانت هذه القوى اللاتى تحت سيطرتها ولا كانت معارفها ولاأعمالها

﴿ ثانيا ﴾ ملائكة أرضيون يدبرون الزرع والشجر والبرّ والبحر كما نرى الماسكة والهاضمة الخ والغدد المختلفات تفعل فى أجسامنا أفعالا مختلفات وأطوارا متباينات وهى أقلّ منزلة من قوى الدماغ لأن تلك للعلم والتدبير وهذه للعمل واحداث الآثار

وما هذا الذى ذكرته إلا ضرب مثل ــ ولله المثل الأعلى ــ فاذا ضرب الله لنوره مثلا بالسراج للعموم فما أسهل ، وما أبدع ، وما أجل أن نبين لذوى العقول السليمة والحكماء والعلماء فى الاسلام قاطبة :

(١) ان نفوسنا وأجسامنا وقوانا توضح هذه الآيات إيضاحا شافيا ، وأن وحدة النفس مثال لوحدة الله تعالى وان كان الفرق شاسعا بين المثل والممثل له كالبعد مابين نورالله ونور السراج

(٢) وأن قوانا فى الدماغ ضرب مثل للملائكة السماوية الحافين حول العرش

(٣) وأن قوانا الجسمية من البنكرياس والصفراء وأمثالها ضرب مثل للملائكة الأرضيين

إذن ظهر بضرب المثل معنى قوله ــ وترى الملائكة حافين من حول العرش ــ فى سورة أخرى ، واياك أن تظنّ أن المشبه كالمشبه به ، فقول القائل « وجهه كالقمر » ليس معناه انه هو نفس القمر أوانه مثله من كل وجه ، فهذا أمر واضح هكذا هنا ، فاذا كانت قوانا الجسمية لاعقول لها مستقلة فالملائكة ليسوا كذلك فهم ذوو عقول مستقلة بها يدبرون ، ولكن لهم صلة بربهم صلة القمر بالشمس يستمد منها

هذا معنى كونهم حافين من حول العرش فهمناه فهما إجماليا ، وأما كونهم يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ، فهذا موضع الاقتباس ، فان قوانا المختلفات فى الدماغ اللاتى لها وظائف عامّة من فكر وحفظ وذكر وهكذا لم تتركها أرواحنا سدى بل لها صلة بها ولن تكون أعمالها إلاعلى مقتضى ماوصلت اليه أرواحنا ، فليس حفظ ولافكر ولاتذكر زيد مشابها كل الشبه لهذه الثلاثة عند عمرو ، ومعنى هذا أن هذه القوى مستمدات الاستمداد التام من نفوسنا بدليل انها مناسبة لها لالغيرها ، فهكذا نقول فى

الملائكة ـ ولله المثل الأعلى ـ انهم لم يكن لهم عمل إلا على مقتضى علومهم المستمدة من ربهم ، ولذلك نجد النتائج منتظمات ، فهم إذن عارفون بصفات الجلال وصفات الاكرام أى الصفات السلبية من أنه مخالف للحوادث ، وانه لا أول له الخ و بصفات الاكرام وهى صفات المعانى كالقدرة والعلم الخ والأولى تدخل تحت التسبيح والثانية تدخل تحت الحمد ، فقوله ـ يسبحون بحمد ربهم ـ دخل فيه العلم بالجلال والاكرام ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ صفات التنزيه ، وصفات الافاضة ، والخلق والرحمة

ليس من المعقول أن يكون للسمع عالم الأصوات ، وللبصر عالم الأضواء ، وللذوق عالم الطعوم ، وللشم عالم الروائح ، وللمس عالم الخشن والناعم الخ ثم لا يكون للعقل عالم يناسبه وهو عالم كله عقول ؟

ليس من المعقول أن كل فعل من الأفعال الطبيعية له فاعل من جنسه كما تقدم فى النبات وفى الحيوان من أن هناك (الفطر والبكتريا) التى تحلل المواد الأرضية لغذاء النبات والمواد التى فى الأمعاء الغلاظ لا كمال الهضم كما تقدم قريبا ثم تكون آراؤنا وأفكارنا لم تستمد من عالم عقلى يشبهها ! إذن هنا ملائكة وهؤلاء هم الذين يمدوننا على حسب قوانا ، وسيأتى إيضاح هذا المقام إيضاحا تاما فى كتابى المسمى « مرآة الفلسفة » أذكره عند آية ـ فاعلم أنه لا إله إلا الله ـ وهناك يزول ذلك الاشكال الذى بقى ٢٤ قرنا فى أمر العقول والنفوس والمادة وعلاقتها بصانع العالم ، وقد وصلت بحمد الله لحل هذا الاشكال المعقد ، وسترى هناك مراتب الفلاسفة فى العالم ، وكيف كان أفلاطون يقول بالمثل الأفلاطونية ، وكيف ردّ عليه تلميذه أرسطاطاليس بأن هذه المثل ليست تحل المشكلة ، والصواب عنده أن العلوم مرجعها غير تلك المثل وهى الصورة القائمة بالمادّة . ولما جاء بعدهم قوم آخرون رأوا الخلاف عسيرا والحلّ صعبا ، توقفت العقول عند هذا الحد ، فتركوا الإلهيات واقتصروا على العلوم الأخرى ، وسترى أن (سبنسر) الفيلسوف الانكليزى والاستاذ سنتلانه الفيلسوف التليانى يقولان : « انا بالنسبة لاصول الفلسفة أمثال هذه المسألة لا قدرة لنا على حلها ، ونحن بالنسبة لأمثال سقراط ومن معه كالبقة بالنسبة للفيل »

وأنا أعلن المسلمين خصوصا والعالم الاسلامى عموما أن الله عزّ وجل قد منّ علىّ بالتوفيق فى تلك الرسالة وسترى فيها طريقا غير طريق هذين الحكيمين خاليا مما ورد عليهما من الاشكال ، فقد بينت لك هناك اثبات برهان وجود الملائكة ومعرفة الله بطريقة كطرق الهندسة يفهمها الخاص والعام من أهل العلم ، وهناك ثبت عالم الملائكة ثبوتا هندسيا

وقد تقدّم فى السورة السابقة فى آية ـ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ـ بعض ذلك واضحا وتمامه سيأتى فى الرسالة المذكورة ان شاء الله تعالى

و بناء على ذلك نفهم قوله تعالى ـ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط ـ فالعلم منه وهو يفيضه على الملائكة والملائكة يفيضون على الناس ، فقوله تعالى ـ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ـ راجع ذلك لاستمدادهم منه بالبرهان الذى ستراه فى ﴿ سورة محمد ﴾ عليه الصلاة والسلام والناس يستمدون من الملائكة ، فاستغفارهم لمن فى الأرض لن يتم لهم إلا لما نالوا من العلم بجلال الله واكرامه ، والناس من الملائكة يستمدون ، وهذه هى المنزلة الرابعة من المنازل المتقدمة

فالمنزلة الأولى نظام العوالم ، والثانية إدراك صانعه ، والثالثة إدراك الملائكة ، والرابعة العلماء فى الأرض فهم يعرفون العوالم كلها ثم يفيضونها على الناس ، ولهذا الاشارة بقوله ـ يوحى اليك والى الذين من قبلك ـ فالوحى هو القرآن وهذا هو حرف القاف ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ ـ يسبحون بحمد ربهم و يستغفرون لمن فى الأرض ـ فهم يتبعون الملائكة حذو القذة بالقذة والملائكة يستمدون من الله

هذا ملخص « حم ، عسق » فهى أربعة منازل : هى نظام هذه الدنيا وعقولها وعلومها وهيام القلوب بصانعها ، وهل هذه المنازل الأربعة إلا أشبه بما جاء فى « جمهورية أفلاطون » من المغارة والنار

حم . عسق ، ومغارة أفلاطون

اعلم أن ماقرّرناه من المنازل الأربعة فى (حم ، عسق) هو نفسه الذى قرّره أفلاطون فى جمهوريته كما تقدّم فى هذا التفسير ، ألم تر انه تصوّر جماعة فى مغارة وجوههم متجهة الى مؤخرها ، وأمامهم ضوء نار على ذلك المؤخر وهم مسلسلون بحيث لايرون ماوراءهم من النار التى تضىء وراء سور ، وهناك أناس يسيرون وهم يحملون أنواعا من الحيوان والنبات والنار ترسم تلك الصور فى مقابلة وجوه هؤلاء الذين فى المغارة ، وهؤلاء سموا هذه الصور بأسماء وقالوا انها هى الحقائق بعينها ، ثم إن أحدهم خرج منها وأخذ يتمرّن على نور القمر فى الماء وكذا النجوم ليلا ثم يراها بأنفسها ، يرى صورة الشمس فى الماء ، ثم يراها بنفسها ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ انه أخذ يتدرّج فى النظر فأدرك أن هذه الصور التى على الحائط ماهى إلا آثار صور الحيوانات الحقيقية وأن النار نفسها ماهى إلا أثر من آثار الشمس ، وبه تعرف الفصول والسنون والشهور والأيام ، فاذا جعلنا الشمس بدل النار ، وجعلنا سكان الأرض بدل سكان المغارة ، وجعلنا النبات والحيوان بدل الصور التى على الحائط تمّ لنا المقصود وظهر المثل بأوضح معانيه ، وعليه تكون الشمس ضربت مثلا لله والنبات والحيوان يكونان على مقتضى عالم المثال الذى يقول به أفلاطون ، وسكان أهل الأرض كسكان المغارة ، فهم جهال وليس يدرك الحقائق إلا أناس تركوا آراء الجمهور وبحثوا فعرفوا العلوم ، ثم إن ذلك الذى خرج من من المغارة وعرف الحقائق فى مثال أفلاطون رجع ثانيا الى اخوانه وقاسى الشدائد فى تفهيمهم كما قاسى المشقات فى تمرين عينيه على نظر الأنوار الحقيقية ، إذن هنا صعود من المغارة ثم تعلم ثم رجوع الى من فيها وتعليم لهم

أفليس هذا كله هو عين (حم ، عسق) ، ارتقاء عن المادة ، معرفة بالله والملائكة ، ثم رجوع الى الناس وتعليم لهم على مقتضى ماتعلم

هذا هو معنى قوله ــ والملائكة يسبحون بحمد ربهم و يستغفرون لمن فى الأرض ــ فالحمد لله على نعمه الوافرة ، وآلائه الفاخرة اهـ

جوهرة فى آية : الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان

ومايدريك لعلّ الساعة قريب

إن المتعلمين أكثرهم نبذ الكلام على الآخرة والدين وان ذلك تقدّم فى التفسير . وهذه أوّل مرة قام فيها رجل له همة وله احترام من المتعلمين بهذه الخطبة . وهذه بشارة أزفها بأن الجو فى متعلمى الشرق الأدنى أخذ يتغير الى الأحسن بعد أن كانوا يحتقرون هذه الآراء . وهذا الاحتقار أضاع بلادهم . وهاك نص الخطبة المذكورة

بأى ميزان تزن الحياة ؟

﴿ محاضرة الأستاذ توفيق دياب ﴾

ألقاها فى ألف ومئتى مستمع

أخواتى واخوتى :

ذلك السرّ الغامض الذى يبدأ بالميلاد وينتهى بالوفاة . ذلك السر الغامض الذى نسميه الحياة ، ونرى

أنفسنا فى غماره متدافعين الى الأمام أو متراجعين الى الوراء . ذلك البحر الخضم الذى تلقينا بين أمواجه يوم نولد قوة خفية ، حتى اذا سبحنا فيه شوطا قصر أوطال ، نزعتنا منه تلك القوة الخفية حين يحل الأجل ، هذه المعركة التى نساق اليها غير مختارين ، ونفصل عنها غير مختارين . هذه الحياة ماهى ؟ وما غايتها ؟ ولماذا ولدنا ؟ ولماذا نموت ؟

ليت أحدا يستطيع الجواب عن هذا السؤال فى كلمة أو كلمات . اذن لاستراح الفلاسفة وأصحاب المذاهب المختلفة فى كنه الحياة . فقديما كان ، والى اليوم مازال هذا السر الرهيب موضوع البحث الملح ومثار الجدل العنيف بين العلماء والمفكرين . وليس عجبا أن يفكر الفلاسفة فى مرمى الحياة ، وانما العجب ألا يفكر فى مرمى الحياة جميع الناس .

نولد أجنة وندرج أطفالا وننشأ صبية ونراهق فتيانا ونستوى رجالا ونبلغ الكهولة وتدركنا الشيخوخة إن قدر لنا أن نعمر ، ثم ماذا ؟ ثم تجف الشجرة وتذوى الأزاهير ويتساقط الورق ، وماهو إلا نفس أخير نلفظه فاذا نحن رفات . وذلك دون أن نفكر يوما لماذا ولدنا ولماذا حيينا ولماذا نموت ، ودون أن نفكر من أين جئنا والى أين نعود ، وهل جئنا من عدم لنعود إلى عدم أو جئنا من وجود لنعود إلى وجود ؟

وأنت مع ذلك اذا أخذتك سنة من النوم ، ثم استيقظت فوجدت نفسك فى غرفة لاعهد لك بها ، فلن تستقر على حال من الدهش ، حتى تعرف ماهذا المكان ومن ذا جاء بك اليه وكيف جاء بك ولماذا ؟ ستطل من نوافذ الغرفة لترى على أية حديقة أو فناء تشرف . ستفتح الباب فان كان موصدا عالجته حتى ينفتح أو ينحطم ، فاذا خرجت من الغرفة جعلت تنظر يمنة و يسرة فى ذهول وحيرة . ثم جعلت تطوف بارجاء الدار مسائلا نفسك أين أنا وماهذه الدار ولمن هى وفى أية مدينة . ولن يهدأ لك بال أو يستقر لك حال حتى تلقاك سيدة هى أشبه ماتكون بالممرضات فتنبئك بأن هذه الدار (عافاك الله) مستشفى ، وان اغماءة طارئة غشيتك نخاف عليك والدك فأسرع بك اليه ، حتى اذا بشر الطبيب أباك بأن الأمر هين لاخطر فيه . آثر لك الاقامة هنا أياما إلى أن تستعيد صحتك فترجع إلى دارك سليما معافى

حينئذ تدرك حقيقة المكان ومن جاء بك اليه وما السبب فاذا عرفت أن الغاية هى استشفاؤك مما بك ، لم يزدك علمك بهذه الغاية الا أخذا بأسبابها واستيفاء لشرائطها ، حتى يتم لك منها ماأراده والدك وما أصبحت تريده لنفسك

هذا شأننا من الدهش والتساؤل اذا طوحت بنا الطوائح إلى مكان نجهله . فما بالنا تبعثنا الى هذه الدنيا قوة خفية على غير قصد منا ولااختيار ثم تتوفانا مستضعفين على غير قصد منا ولااختيار ، نظهر ونختفى على سطح هذا المحيط الهائل . كالفقاقيع تنتفخ وتنفجر فى مثل لمح البصر ، دون أن يأخذنا دهش يدعونا الى الحيرة والتساؤل والتفكير

لماذا بعثتنا القوة الخفية القديرة الجبارة الى هذه الدنيا . ألنقضى فى هنائها أو عنائها ، فى صحتها أومرضها فى غناها أو فقرها ، فى عدلها أو ظلمها فى إخائها أولددها ، فى رفقها أو جفائها ، أو فى مزيج من هذا كله ستين أو سبعين عاما إذا طال بنا العمر

وماستون أو سبعون عاما فى امتداد الأزل الذى لا أول له . وفى امتداد الأبد الذى لانهاية له . ان العلماء ليحصون السنين التى سلختها الانسانية على هذا الكوكب بالملايين لابالألوف ، و يقدرون لها البقاء فيه ملايين أخرى تربو على الاحصاء . فما أنا وماأنت ، ومانصيبى ومانصيبك فى هذا السرمد الذى تحار فيه الألباب . ذرة ضئيلة من جبل أشم ، قطرة هينة من محيط مترام

واذن فما حياتك وماحياتى وماحياة هذا الجيل كله وماحياة الأمم الحاضرة كلها ، حتى نجعل موضوع هذه

أن التاريخ المدون أو المكتوب لايعدو ستة آلاف من السنين . وهى التى شغلت أقلام المؤرخين ، وهى التى ظهرت فيها حضارات واختفت حضارات . وارتقت أمم وانحطت أمم ، وهى التى وقع فيها من المظالم والحروب ، وطغى فيها من الرق والاستعباد ، وتقلب فيها من العقائد والأديان ، واختلف فيها من طرائق الخير والشر ، وتعاقب فيها على الجماعات والافراد من السعادة والشقاء . وأظلم فيها من الضلالات والجهالات ، وأضاء فيها من المعارف والعلوم (ماتضيق عن الاحاطة به مئات الألوف من المجلدات ومئات الألوف من العقول . وهذا كله تراث ستة آلاف من السنين . وماهى من ماضى الانسانية المجهولة ومن تاريخها غير المكتوب ، وماهى من مستقبل الانسانية الذى لاتترامى الى حدوده عين الخيال) إلا بمثابة الدقيقة الواحدة من ألوف الأعوام

إذن أليس من الغرور أن أتكلم عن حياتك وحياتى وعن ميزان حياتك وميزان حياتى .

ماحياتك وماحياتى اذاقستها بهذا المقياس المخيف . إنك لونظرت اليها بالميكرسكوب لعز على الميكرسكوب أن يكشفها لمن ينظر اليها من أفق الأزل القديم والأبد الخالد .

ألا تصدق ؟ إذن ألا تعلم أن كوكبك هذا الذى عاش فيه أجدادك من البشر ملايين السنين وسيعيش فيه أحفادك ملايين أخرى لايحصيها العد ، انلم يصطدم به جرم سماوى آخر فاذا أرضك هباء فى مثل قصف الرعد أوخطف البصر (ألاتعلم أن هذه الأرض بماضيها الزاخر ومستقبلها العظيم الباهر إنما هى شظية تطايرت من الشمس كماتتطاير الشرارة من التنور الهائل المستعر ، فجالت شرارتك فى الفضاء حتى أخذت مدارها من نظامنا الشمسى واستحالت حصاة (مستقلة ذات سيادة)

أنا وأنت وهو وهى وهم وهن آحاد فى عداد ملايين الأمة المصرية . والأمة المصرية إحدى العشرات الكثيرة من أمم هذا العصر . وأمم هذا العصر حلقة قصيرة من سلسلة ترجع الى ماض لايدرك الخيال مبتداه وتمتد الى مستقبل لايدرك الخيال منتهاه على هذه الأرض وهذه الأرض شظية كانت ملتهبة تناثرت من الشمس فدارت من نظام الكون حيث تدور فماذا عسى تكون حياتى وماذا عسى تكون حياتك . لاسيما وأنت تعلم أن نظامنا الشمسى ليس إلا واحدا من نظم كثيرة تماثله . لوأطلنا التفكير فى كنهها وفى تلك القوة الخفية التى تسخرها لقضينا أعوامنا الستين أو السبعين فى التفكير ، دون أن نزداد فى تفهمها إلا ذهولا وحيرة

سيداتى وساداتى :

هل تحتملون منى كلمة جريئة . إذن تفضلوا فاسمعوها :

إذا كانت الحياة هى الأعوام الستون أو السبعون التى نعيشها فى هذه الدنيا ، من غير أن نكون مرتبطين قبل قدومنا بقوة هى التى بعثتنا لحكمة ، ومن غير أن نكون مرتبطين بعد رحيلنا بقوة هى التى استدعتنا اليها لحكمة ، اذا كانت الحياة مصدرها العدم ومصيرها العدم ، اذا كان مولدنا فى هذه الأرض مصادفة لم تقصدها قوة مريدة مدبرة ، وكان موتنا مجرد انتهاء لهذه المصادفة ، اذا كان وجودنا مجرد نتيجة آلية عضوية لمجرد تفاعلات آلية عضوية ، وكان زوالنا نتيجة مادية لأسباب مادية لاأقل ولاأكثر ، اذا كانت أيامنا فى هذه الدنيا برزخا تاعسا بين بلقعين : بلقع الماضى قبل أن نولد ، و بلقع المستقبل بعد أن نموت ، اذا كنا فى هذه الدنيا مجرد أحلام زائلة وأشباح حائلة ، اذا كان كل هذا العناء وهذا الكدح وهذه الآلام وهذه الأمراض وهذه الخطوب التى نشاهدها أونحتملها أونكافحها فى سبيل الانسانية ، اذا كانت كل هذه الحضارات وهذه العلوم وهذه الفنون وهذه الآداب التى تسمو اليها الأمم جيلا بعد جيل ، اذا كانت هذه الشرور كلها وهذه الخيرات كلها ليس وراءها إلا مطلب واحد (هو أن يعيش كل فرد من الناس خمسين أوستين عاما محدودة بحدين ، عدم مطلق منذ الأزل وعدم مطلق الى الأبد ماعدا هذه الأعوام الخمسين أو الستين . (اذا كان

الأمر كذلك ، فما أحق الأحياء الذين يؤمنون بهذا العدم من قبل ومن بعد ثم يعيشون . إن الانتحار أولى بهم وأجدر ، أما أنا فلو كنت منهم لانتحرت . إن هذه الأعوام الستين التى يعيشها المرء فى هذه الدنيا لاتساوى فى ذاتها عضة الفقر ولاذلة الحاجة عاما واحدا . انها فى ذاتها لاتساوى برحاء المرض الممض نصف عام . انها فى ذاتها لاتساوى احتمال ظلم الظالمين ولاجبروت المتجبرين . ان المرء ليصادف فى هذه الأعوام الستين أو السبعين من ضروب الأذى مالايحتمله الا لشعور واحد ، هو أن الحياة سرّ قديم خالد . لاحياة الجماعة فحسب بل حياة كل فرد من أفرادها كبر أوصغر ، جلّ فى نفوس الناس أوهان .

اذا سألت بعض علماء المادّة الذين يرون حياة الفرد مسبوقة بعدم منتهية الى عدم ، اذا سألتهم لماذا يعيشون . قالوا نعيش طوعا لغريزتين ، غريزة الحرص على بقائنا ، وغريزة الحرص على بقاء النوع . أما حرصنا على بقاء أنفسنا فواضح حتى فى الطفل يتجنب السقوط من عل ويتجنب النار اللاذعة والحفرة العميقة وأما حرصنا على بقاء النوع فواضح فى الأمّ تسهر على ذراريها ، والأب يعول أبناءه . حتى ولو كانت الأمّ حيوانا أعجم

ونحن نفهم هذا التعليل بقوّة الغريزة من غير السادة العلماء ، فاما وهم من أهل التفكير الذين من شأنهم أن يرجحوا حكم العقل على اندفاع الغرائز ، فقد كان الأولى بهم اذا لم يؤمنوا بأن الحياة الفرد اتصالا وثيقا بالخلود . كان أولى بهم أن يدركوا هذه الأعوام القليلة التى ستسلمهم عما قريب الى فناء لاوجود لهم بعده ، هذه الأعوام لاتستحق منهم عناء البحث والتنقيب فى مظاهر كاذبة وزبارج باطلة ، ولاتستحق منهم هذا العكوف على المعامل والآلات والمنظار المكبر والمنظار المصغر والتعليل والتحليل والكدح بالليل والنهار ، للوصول الى حقائق مهما تكن فى نظرهم جليلة فهى تافهة مادامت هذه الخلائق الانسانية ، والسادة العلماء فى طليعتها . كائنات تافهة تظهر اليوم من ظلام العدم . لتنتهى فى الغد الى ظلام العدم . كان أولى بهم أن يقفوا مبشرين بالفناء ، وأن يقولوا للناس فيم الكد وفيم العناء فى سبيل غاية مقفرة مظلمة . الى العدم العاجل بيدك أنت أيتها الانسانية مختارة طائعة فذلك أكرم وأروح للبال من أن يحلّ بك العدم غير طائعة ولامختارة :

يقولون ان حياة الانسانية شيء وحياة الفرد شيء آخر . حياة الفرد الى العدم فأما حياة الانسانية فالى البقاء . لذلك يخدمون الانسانية بالعلم والفنّ والأدب ، ليجيء الجيل اللاحق خيرا من الجيل السابق ، ولتجيء الحضارة الآتية أعظم وأروع من الحضارة الماضية ، وهذا فى الحق سخف عظيم . لأن معناه أن جميع الأجيال الماضية وجميع الأجيال الآتية كانت وستكون مجرد عتبات ومدارج ، أومطايا وبراذع . يعلوها فى نهاية آخر جيل تتمخض عنه الانسانية ، فاذا استوى الجيل الأخير على قمة المجد لم يكن مجده خالدا ، بل كان مجده زائلا كذلك ، ولو عمر الانسان الأخير بفضل العلم ألف سنة . ثم ينقضى هذا الجيل الأخير بانقضاء صلاح الأرض للحياة . وانتهت الدنيا إلى غايتها . وفنيت حضارة الشمس ، وانطفأ ضياؤها . واستحالت البحار جليدا والشجر والنبات هباء أمست الانسانية عدما مطلقا الى آخر نسمة فيها (ولم يبق للانسان المسكين حتى ولا الذكرى ، اذ من ذا يذكر الانسان وقد انمحى من صفحة هذا الكون آخر إنسان ، وانمحى لاليسموا إلى عالم آخر ، ولكن ليبقى غريقا فى غمرات الفناء ، خالدا فيها أبد الآبدين

هل هذه إذن غاية الانسانية ! ؟ هل غايتها أن تقضى مئات الملايين من السنين لتنضج جيلا واحدا هو الجيل الأخير ، ثم يكون هذا مصير ذلك الجيل الأخير ؟ أتعرف الساحر الذى يخرج علبة من جوف علبة ثم يخرج الثالثة من جوف الثانية ، والرابعة من جوف الثالثة والخامسة من جوف الرابعة وهكذا حتى تعدّ عشرات من العلب يخرج بعضها من جوف بعض ، حتى ينتهى بك الى علبة لاتكاد تراها لضؤولتها ، ثم يوهمك بأن فيها قطرة من سائل هو ماء الحياة ، فاذا تناولها المتناول وأسرع بالقطرة الى فيه ليرزق الخلود خرّ على الأرض فاقد

الروح ـ تلك صورة فكاهية من الحياة الانسانية كما يفهمها أولئك الماديون

سيداتى وسادتى :

هل تريدون منى كلمة جريئة أخرى ؟ هذا الانسان أكبر وأعظم من الأعوام السبعين أو المائة التى تمتد اليها حياته فى الدنيا . لكن هذا الانسان متناقض عجيب ! أتذكرون أيامه الغابرة ؟ أيام كان يأوى الى الكهوف ويأكل الصيد نيئا ، ويضرب فى الغابات عاريا ، ولا تكاد تميزه من سائر الحيوان .

هذا الانسان ما الذى هداه الى ما هو اليوم فيه ؟ ما الذى صعد به الى المستوى الذى بلغه فى القرن العشرين معجزة القرون ؟ فى الدنيا حروب وفيها عدوان وفيها آفات وفيها عيوب ، ولكنها عيوب الصاعد الى المثل الأعلى رويدا رويدا ، ولا سبيل الى أن ينجو من تراث الماضى وغرائز الأنانية الأولى كل النجاة فى ألف عام كلا ولا فى عشرة آلاف . قد يشنّ الحروب ويعتدى على الحقوق ، ولكن لطيفة خفية تنزع به الى السلام والانصاف بعض النزوع . له اليوم قوانين وشرائع ان طغت عليها يد العدوان يوما ، فان الجماعة كفيلة برد الحق الى نصابه وان كره المعتدون . له اليوم علوم قيمة وفنون جميلة وآداب افسحت أمام عقله سبحات المناءة المعنوية . له تعاون على البرّ والاحسان ، يلطف من تعاون الأشقياء على الغدر والاساءة . له أديان مشروعة ومثل من الأخلاق موضوعة ، له طائرات فى الجوّ وغائصات فى البحر وله أسباب ممدودة تراها العين أسلاكا برقية أو تلفونية ، أولا تراها ، لأنها أسباب من الأثير تحمل الأصوات ، وتخفق عن النظرات

وهو مع ذلك متناقض عجيب . ذلك الذى دوخ الأرض وسخر الجوّ والبحر ونفذ فى الصخر وكشف من الأسرار عجائب كانت قبل عشرة أعوام أو عشرين فى عداد المعجزات ، ذلك الذى يقف وراء المدفع الضخم فيطلقه على البرج المشيد أو القرية العامرة فاذا هى أطلال ، ذلك الذى كشف أسرار الأفلاك والكواكب والنجوم ، وعرف مزاج بعضها وتأليف مواده وتركيب عناصره وقاس أبعادها وحذق حسابها حتى ليتنبأ لها بحوادثها وبجرياتها قبل أن تقع بمئات الأعوام ، ذلك الذى اتخذ من الغاز سموما ، ومن الهواء غذاء ، ومن حرارة الشمس وهدير الماء قوّة مستعملة أو مذخورة ، ذلك الذى أضاء الليل بثريات مكهربة فكأنها شموس وأقمار ذلك الذى يطوف الآن حول الأرض على متن الهواء قبل أن يطوف أخوه البدوى مناخ قبيلته على ظهر البعير ، ذلك الذى كشفت له الاشعة مكنون الجسوم واخترقت له حجب الغيب ، فأصبح يرى ما لم تكن تراه العيون

ذلك الانسان تقتله البعوضة وتمرضه نسمة الهواء ، وتشرقه جرعة الماء ، ويصرفه الهوى عن الجادة ، ويريد الأمر المستطاع فيصرفه عنه التخاذل ! ذلك الانسان يعدل ويظلم ، ويقسو ويرحم ويتخذ العلم للشر ويتخذ العلم للخير . فما هذه القوّة وما هذا الضعف ؟ وما هذا النور الساطع وما هذا الحلك الدامس ؟ وكيف يجتمعان ولأيهما الغلب آخر الأمر . وهل نستطيع أن نستخلص من بين هذه الأطوار المتنافرة ، والمظاهر المتناكرة حقيقة الحياة وغاية الحياة وميزان الحياة ! . نعم وأبيك يجب أن نستطيع

سيداتى وسادتى :

هل تريدون منى كلمة جريئة أخرى ؟ نحن تلاميذ القوّة العظيمة التى بعثتنا الى هذه الدنيا يوم ولدنا ، والتى تتوفانا يوم يحل الأجل نحن تلاميذها وهى تعلمنا من حيث لا نراها ، وقد أودعتنا سرا يسميه الفلاسفة عقلا ، وتسميه الأديان روحا ، وأنا لا يهمنى ماذا نسميه . هو قبس من هذه القوّة العظيمة وشعاعة من نورها . وليس يولد انسان إلا وينطوى على هذا القبس أو هذه الشعاعة كامنة ! وانما توقظها تجاريب الحياة من ألم ولذة وحرمان واحراز ومرض وصحة واخفاق ونجاح ! فالألم يوقظ هذا السرّ الكمين ، ويروضه على النظر كيف ينجو من الألم . واللذة تبعث فيه حب الاستزادة فحب الحركة فى سبيل احراز تلك اللذة ، والحرمان يبعث فيه

حب التحصيل والاحراز ، ولذة الاحراز تدفعه الى طلب المزيد . والمرض يعلمه التوقى و يعلمه الصبر والجلد ، والصحة تشعره الهناء ، والاخفاق يغريه بالكدح ومعاودة العلاج ، والنجاح يزيده همة وعزيمة

كان هذا منبت الغرائز فى الانسان الأول ، ثم رأى ذلك التلميذ الناشىء على كر الأجيال ان فى بعض لذاته ايلاما لاخوته ، وان فى بعض سعادته شقاء لسواه ، فازدادت فيه الحساسية ، فوازن قليلا بين سعادته وشقاء الآخرين ، فانصرف قليلا قليلا عن الأنانية المطلقة ، ومازج تقديره شيء من العطف على سواه

السر الدفين يستيقظ ، الشعاعة الكمينة ترسل ضوءها خارج نفسها لأول مرة ، بذرة الانصاف والعطف والغيرية تستحيل نبته مزهرة . التلميذ يتعلم فى مدرسة الحياة درس العدالة . فيحا كى المعلم الأعظم الذى بعثه الى مدرسة الحياة ، التلميذ يدرس منهاج الفضائل فى مدرسة الدنيا مكرمة بعد مكرمة ومحمدة بعد محمدة . أليس المعلم الأعظم كريما جيدا ، وهذا تلميذه أودع فيه قبسه لينقدح بزمام الحوادث والتجاريب . أهى البسالة والاقدام ؟ ان المعلم الأعظم يعلو عن المخاوف فهو القوى المتين ! أهو الدأب والكفاح والعزيمة لا تعرف اليأس ولا القنوط . ان المعلم الأعظم شديد المراس يعلو عن الفترة والوهن ! أهو البر والاحسان ؟ ان المعلم الأعظم هو المحسن البار وهو ينبوع البر والاحسان

وما من فضيلة ولامكرمة الا اشتق أصلها من تلك القوة المهيمنة ومن ذلك المعلم الأعظم. ولكن المعلم الأعظم لايعلمنا الشجاعة ولا قوة العزيمة ولا البر والاحسان الاعن طريق الحوادث والتجاريب . فقبل الشجاعة ساد الجبن حتى استيقظت شعاعة المعلم الأعظم فى التلميذ فاحتقرت الجبن والجبناء ، وقبل الوفاء ساد الغدر ، وقبل البر والاحسان سادت القسوة والجفاء .

وفى هذه المدرسة مازال التلاميذ يدرسون ولن يزالوا . والى جانب الاخلاق التى تروضهم عليها حوادث المدرسة و يقظة السر الكمين ، يتجه ذلك القبس الى محا كاة المعلم الأعظم فى العلم والقدرة والارادة ، فلا تفتأ الأشعة الأزلية الخالدة التى تصل قلو بنا بعظمته ، لاتفتأ تبحث وتنقب فى أسرار هذا الوجود ، فتستكشف اليوم قانونا من قوانين الطبيعة وتستكشف غدا جوهرا من جواهرها الخفية ، حتى استطاع التلميذ بحركة من أصبعه أن يحيل الغرفة المظلمة نورا وهاجا ، لأنه عرف سر الكهرباء ، فما كان بالأمس معجزة يرتاب فى جوازها العقل ، أصبح اليوم حقيقة مألوفة لايدهش لها الأطفال

واستطاع التلميذ أن يشافه صاحبه بكلمات تلوكها الألسن وتسمعها الآذان ، هذا فى جنوب المعمور وذاك فى شماله من غير حاجة الى أسلاك . واستطاع التلميذ أن يشارك الطير فى ارتياد الجو فكأن كل محلق فى الجو سليمان . وغاص مع الأسماك فى مساربها . وتتبعها الى مهاربها

ذلك أن المعلم الأعظم يريد لتلاميذه أن يحاكوا عظمته فى العلم والارادة والقدرة ، كما يريد لهم أن يحاكوه فى المحامد والمكارم ! أليس المعلم الأعظم قديرا على كل شيء ، أليس فعالا لما يريد ! أليس يقول للشيء كن فيكون ! وهاهو ذا تلميذه ، هاهو ذا سره وقبسه فى هذه الدنيا ـ الانسان ـ قد استطاع أن يسخر الهواء والماء والكهرباء ، وكثيرا مما نرى ولانرى من قوى هذه الطبيعة العذراء .

سيداتى وسادتى :

اذن لايروعنكم أن تكونوا ذرات صغيرة الأحجام محدودة الأعمار فى هذه الدنيا ، اذن لاتستهينوا بأنفسكم اذا قستموها بما سبقكم من الأجيال ومايخلفكم منها حتى اذا رجع الماضى الى الأزل وامتد الى الأبد ولايهولنكم أن يكون كوكبكم شظية تناثرت من الشمس ! فكل واحدة منكن سيداتى ، وكل واحد منكم سادتى يحمل بين طواياه سر الوجود . هذه الأرض ستفنى . والشمس التى هى أصل الأرض ستفنى ، والنظم الشمسية على اختلافها قد يجعلها المعلم الأعظم مظاهر أخرى لقدرته وصورا جديدة لارادته . لكن ذلك القبس

الذى هو نفحة من روحه جلت روحه وعلت عن الأرضين والشموس والأقمار ، ذلك القبس الذى يصلكم به صلة أزلية خالدة لاتنفصم ، ذلك القبس هو سر الوجود .

فبأى ميزان تزن الحياة ، أبميزان الطعام والشراب والفقر والغنى والدور والقصور والبذخ والمناعم والوظائف والمناصب ، أم بميزان المحامد والمكارم والعلم والارادة وكبريات الصفات التى نحاكى بها معلمك الأعظم ؟ نحن لانحتقر الطيبات من الرزق ولانبغض اليكم كسب المال وانفاقه فى سبيله الخسيرة ، بل نحض على ذلك ففيه حفز للهمم وعود على النفس وذوى القربى وأهل الخصاصة بالمتاع الحلال . ولكن الأمر كل الامر الذى أريد أن أذكر نفسى به وأذكركم ، هو أن كل مرافق الحياة من متاجر ومزارع وصناعات ، ومن مطاعم ومشارب ومساكن ، هى أدوات ووسائل لابد منها ولكنها ليست غاية الغايات أذكر نفسى بهذه الحقيقة الأولية وأذكر بها حضراتكم لاغضا من الوسائل ولاصرفا لكم عن اتخاذ الأدوات ، ولكن لأنك لو أحصيت فى زماننا هذا أولئك الأيقاظ الذين لم تصرفهم وسائل الحياة عن غاية الحياة ، لألفيتهم نزرا يسيرا لايبلغ عددهم فيما أحسب واحدا فى كل ألف

أولئك يزنون الحياة عامة ، ويزنون حياتهم خاصة بما تحوى جيوبهم من مال ، لابما تحوى نفوسهم من خصال ، وبما يشغلون من مناصب لابما يخدمون من مبادىء

سيداتى وسادانى :

هذه الأرض مدرسة بعثنا اليها بديع السموات والأرضين . وهذه حقيقة الحياة ، حياة الافراد وحياة الأمم . وغاية هذه الحياة هى أن نحاكى صفات المعلم الأعظم ، نحاكى عظمته فى غير صلف ، نحاكى رحمته فى غير ضعف . نحاكى علمه وقدرته فى غير زهو ولافخار . نحاكى ارادته فى غير تجبر ولاغرور

سيداتى وسادتى :

فى هذه المدرسة الربانية الكبرى تلاميذ مختلفة درجاتهم فمنهم المبرز ومنهم المتخلف . فلاتعجبوا اذن لبعد مابين الناس من تفاوت فى الأخلاق والعزائم والعرفان . لكن حين يعلم الناس أنهم هاهنا تلاميذ ، وانهم لم يرسلوا الى الحياة لعبا ولالهوا ، وأن معلمهم هو ينبوع النور والعرفان والفضائل فى كل قلب مضىء ورأس عامر بالعلم ونفس خفاقة بالشعر أو ببدائع الفن الجميل. حين يعلم كل ذى موهبة . وكل ذى فضيلة وكل صاحب اختراع وكل مستكشف لسر من أسرار الطبيعة . أن ملهمه ومرشده هو ذلك القبس المستمد من قوة الله حينئذ يبطل الغرور حياء من الله . وتتضاعف الهمم مرضاة للعلم الاعظم . ويكون ميزان حياتك هو مبلغ محاكات لصفات المصدر لكل عظيمة من عظائم الصفات

***

هذه هى الخطبة التى ألقاها الاستاذ توفيق دياب ونشرت فى الجرائد ، كتبتها لأنها تمت الى الحقائق بسبب ﴿ وبيانه ﴾ أن الناس قسمان : قسم لايعرف من الوجود إلا الظواهر ، وهذا القسم هو أغلب نوع الانسان ، وقسم يبحث عن حقائق الوجود ، وهذه الخطبة تمت الى القسم الثانى ، لسبب ذلك كتبتها فى هذا التفسير . وهل لك أيها الذكى أن أحدثك حديثا عجبا ! إن هذه الخطبة ذكرتنى بجوهرتين : الجوهرة الأولى انها تقرب من كلام أفلاطون فى جمهوريته فى الكتاب الخامس . الجوهرة الثانية : انها تقترب بعض الاقتراب بما خطر لى وملأ قلبى جمالا وبهجة وسرورا وانشراحا صباح يوم السبت ٥ رمضان سنة ١٣٤٩ ه الموافق ٢٤ يناير سنة ١٩٣١ م

الجوهرة الأولى فى موازنة هذه الخطبة بآراء أفلاطون فى جمهوريته

ترجع هذه الخطبة كلها الى أن كثيرا من الناس لايفقهون إلا الحياة الحاضرة ، وهى فى ظاهرها مسبوقة

بعدم

بعدم ويلحقها عدم ، فسواء أكان اجتهاد الناس فى الدنيا موجها لأنفسهم هـم ، أم كان موجها لأبنائهـم وأحفادهم ، أم كان موجها الى مواطنيهم ، أم كان موجها للأمم كلها ، أم كان موجها لأجيـل سيأتون بعد آلاف آلاف السنين ، فهذا كله ماهو إلا وبال وسعى لغير فائدة ، فالوجود الذى يعقبه الفناء وجود خير منه العدم والفناء

هذا ملخص الخطبة ، وعادة هذا الانسان المتدين والملحد نهم لايفكرون على هذا الاسلوب ، وغاية الأمر أن المتدين يقول : « أعمل خيرا ليكون لى ثواب ، فأتمتع باللذات بعد موتى » أما أمثال هذه الآراء فان عادة الانسان فى الأرض عدم خطورها بباله خطورا يبعث على البحث ، واذا خطرت يذرونها بلابحث ويكتفون بديانانهم التى نشأوا عليها وهم لايفهمون منها إلا قشورها ، فهاك ماقاله أفلاطون فى جمهوريته

إن هذا الفيلسوف كما تقدم كثيرا فى هـذا التفسير لايرى أحدا يصلح لحكم الأمم إلا الفلاسفة ، ذلك لأنهم وقفوا على الحقائق فصاروا كأنهـم خلفاء الله فى أرضه ، وبهذه الخلافة يقلدونه فى صنع ماهو كامل ويحفظون الأمم كما يحفظ هوالسكون كله ، وعلى هـذا أخذ يصف هؤلاء الفلاسفة ، ويدور محور كلامه على أمرين اثنين لا ثالث لهما ، وهما أن الموجود ان كان دائما فالقائم به المتحقق به هو الفيلسوف ، وان كان الموجود غير دائم فالمكتفى به ليس فيلسوفا لأن علمه متعلق بما ليس له دوام ، فهو يبنى أساس عقله وعلمه على ماليس بثابت ، فهو أشبه بمن يبنى قصوره على شفا جرف هار ، أوعلى أرض بركانية يثورفيها البركان وقتا بعد وقت ، أوكمثل من يركب الأسد ، فهو فى جميع أحواله خائف يرتقب الهلاك وهكذا مصاحب الكاذب الخائن ، فهو فى جميع أوقاته يترقب غدره وايقاعه فى الهلاك وهكذا

إن ماهو معدوم يكون تصوّره جهلا ، وماهوموجود دائم يكون إدراكه علما ، وما يكون متردّدا بين الوجود والعدم يكون إدراكه تصوّرا ، فهومتردّد بين العلم والجهل

هذا إجمال كلامه وان أردت ياصاح إلاالافصاح ، فدونك الصورالجيلة والأنغام الشجية والقصورالفخمة والأطعمة اللذيذة والثياب الملوّنة والأشربة المفرحة والمزارع النضرة والبساتين الجيلة والممالك الواسعة التى يملكها الملوك ، والأرض الواسعة التى يملكها الأفراد ، وأمثال ذلك مما يعرفه جهور الناس وهوشائع بينهم

هذا كله موجود مشاهد ، والناس فى الشرق والغرب قديما وحديثا لايرون لهم سعادة ولاعزا ولامجدا ولالذة إلا فى التمتع بهذه وأمثالها ، فتجد الانسان مفتونا بمعشوق جيـل ملك قياده كغادة هيفاء أو بنوع من الشراب يفنى فيه أوقات فراغه . أوقصصى يقصّ عليه أخبارا مسلية . أوجوقة تمثل رواية غرامية ، أو السينما (دارالصورالمتحركة) التى تعكس صورا بهجة غريبة

وبالجلة ان هذه كلها هى التى يفرح بها الناس ويظنون أن هذا وجود حقيقى وهذا خطأ . إن كل هذه متردّدات بين الوجود والعدم . فمن وقف نظره عليها خانه عقله وأخطأه جدّه فان هذه كلها لها وقت فيه تتغير ولاتبقى . فالقصور والبساتين والمزارع والغادات الفاتنات والصورالمتحركات فى السينما اذا أخـذناها باعتبارها هى وانها مقصودة لذاتها وأن هذا الجمال الذى فيها لانطلب شيئا وراءه فان عقولنا إذن تكون فى غاية الخطأ . والدليل على ذلك أن حياتنا محدودة . وكذلك وجود كل هذه المشاهدات التى فرحنا بها . إذن وجودها عدم وأى عقل يفرح بماليس بدائم . العقل الذى يفرح بما ليس بدائم عقل مخبول . فهذه الصورة الجيلة التى سلبتنى لبى وأخذت علىّ مشاعرى . وهذه الحديقة الجيلة . وهذا الملك الواسع . وهذه السلطة ، سيحصل أحد أمرين : إما انى أنا أضعف عن التمتع بها بموت أومرض أوغيرهما . واما انها هى تزول أو تفارقنى أوتأتى عوارض تحول بينى وبينها . فترى هذه الغادة الجيلة أغرمت بغيرى أوماتت . وهناك ينقلب العشق مرضا ولهفا وحزنا . وهكذا يقول أفلاطون : كل هذه الأشياء متردّدة بين العدم والوجود . فالفرح بها

والاعتداد بوجودها والوقوف عندها عدم عقل وضعف فى البصيرة ، إذن ماذا يفعل هذا الانسان المسكين الذى كله لايعرف إلاهذا ؟ فقال : يتخذ هذه الصور الجيلة ، وهذه اللذات المختلفة والقصور والدور والممالك والأبهة وسيلة للتوصل بها الى إدراك أن هناك جمالا مطلقا وملكا كبيرا وعدلا تاما ونظاما دائما لايعتريه الفناء ، ومعنى ذلك أن الفيلسوف يبحث بالطرق العلمية ويدرس جميع العلوم وجميع هذا الوجود ، وتقوده تلك الصور الجيلة والنظام البديعة الى ماوراءها من جمال دائم وملك واسع ، وماهذه إلا صور تشف عما وراءها ، ويكون كل مايصبوااليه الجهال من صورجيلة ومال عند الحكيم مذكرا ووسيلة لترقى عقله الى جمال أتم وملك أوسع ولذة أكمل مع الدوام يلحظه عقله ويعيش قريرالعين بحيث اذا غاب ذلك الجيل أوغدر أوزال ذلك الملك أوالمال فان نفس الفيلسوف سعيدة ، ذلك ان محبوبها لم يغب عنها ، فان محبوبها هو الجمال المطلق والملك المطلق ، فأما هذه الصور التى ظهرت له فما هى إلاظواهرمذكرات بما وراءها لاحقائق فأمثال هؤلاء الفلاسفة هم الذين يجب أن يقوموا بنظام الأمم

أنا الآن أعتقد انى قدمت لك أيها الذكى فكرة عامة عما يريده أفلاطون فى جمهوريته ، وهذا القول الوجيز هنا يكفيك الآن

فاذاعرفت هذافهمت ماقاله مترجم الكتاب فى صحيفة ١٢٢ وهذا نصه : «الفيلسوف الحقيقى هو المغرم كل الغرام ، بالحكمة فى كل فروعها . وعلينا أن نميز فى هذا الموقف ، أدق تمييز ، بين الفيلسوف الحقيقى و بين المدعى حب الفلسفة تدجيلا . وتستقر نقطة الفرق بينهما فى أن الدجال يكتفى بدرس الموضوعات الجيلة مثلا . أما الفيلسوف الحقيقى فلا يقف عند ذلك الحد ، بل يتجاوزه إلى ادراك الجمال المطلق . ويمكن وصف حال الأول العقلى بأنه «تصور» ، وحال الثانى أنه «معرفة حقيقية» أو «علم» . فهنالك الوجود الحقيقى الذى يتناوله العلم ، واللاوجود ، أو العدم ، الذى نسبته الى الجهل نسبة الوجود الحقيقى الى العلم . ويتوسط بين العلم و بين الجهل التصور . فنستنتج أن التصور يتناول الوجود الظاهرى . والذين يدرسون الوجود الحقيقى يدعون محبى الحكمة أو «فلاسفة» والذين يدرسون الوجود الظاهرى يدعون محبى التصور ، لافلاسفة »

وفهمت ماجاء فى المتن . وأذكرلك بعضه فى صحيفة ١٤٨ من الجمهورية إذ سأل سقراط غلوكون . فلسقراط (س) ولغلوكون (غ) وهاك نصها :

(س) إن الراغب فى تذوق كل أنواع المعرفة فيكب على دروسه بسرور ورغبة ولا يكف ان انسانا كهذه يحق ندعوه فيلسوفا ، الاندعوه ؟

(غ) ان وصفك هذا يشمل عددا عديدا ، ويضم طائفة مستهجنة . ويحسبه كل عشاق الطلب فلاسفة لأنهم راغبون فى المعرفة ، وكذلك المنصبون على سمع القصص هم طبقة خاصة بين الفلاسفة . أعنى بهم الذين لايشهدون محاورة فلسفية ، ولاغيرها من أنواع المحاورات على انهم سامعون مواظبون لايغيبون عن حفلة ديونيسية [1] فى مدينة اوقرية . فكأنهم آجروا آذانهم للسمع ، لكل جوقة فى وقتها . أفنهب لهؤلاء لقب فلاسفة ، ولامثالهم ممن لاذ بأى نوع من الدروس ، ولأساتذة الفنون الصغرى .

(س) مؤكد لا . بل ندعوهم فلاسفة زائفين

(غ) فمن هم الذين ندعوهم فلاسفة حقيقيين ؟

(س) هم الذين يحبون أن يروا الحقيقة

(غ) لايمكن أن تخطىء فى هذا ولكن هل تريد أن توضح ماتعنيه ؟

(١) أو بختالية . نسبة الى باخس . وهى حفلة شرب ومرح

(س) ليس ذلك سهلا مع غيرك ، اما أنت فتجود عليّ بالتسليم الذى أنشده

(غ) وماهو ذلك التسليم .

(س) هو فيما يأتى : لما كان الجمال ضدّ القبح فهما شيئان

(غ) مؤكد أنهما شيئان

(س) واذا كانا شيئين فكل منهما واحد على حدة

(غ) وهذا أيضا حق

(س) ويمشى هذا الحكم نفسه على العدالة والتعدى ، وعلى كل التصورات العمومية فكل منها شىء واحد ، لكنه يظهر متعددا ، باعتبار علاقاته المتبادلة بالأشياء والأعمال التى بها يتجلى فى كل مكان

(غ) أنت مصيب

(س) واستنادا الى هذا المبدأ أميز بين الذين وصفناهم الآن أنهم عشاق النظر والصناعة ومحبة الفنون ورجال العمل من جهة واحدة ، و بين الذين نحن فى صددهم وهم وحدهم نسميهم فلاسفة فى الجهة الأخرى

(غ) أوضح ماتعنى

(س) أعنى أن محي النظر والسمع يعجبون بالجميل من الأصوات والأشكال والألوان والصور ، وكل مادخلت فى تركيبه هذه الأشياء من منتوجات الفن . ولكن فهمهم يقصر عن ادراك ، كنه الجمال واعتناقه

(غ) نعم أنه كما تقول

(س) أوليس القادرون على التفكر الحرّ فى الجمال المطلق هم قلائل ؟

(غ) حقا انهم قلائل

(س) فاذا أدرك امرؤ وجود الأشياء الجميلة ولكنه جحد الجمال المطلق وعجز عن اتباع من تقدمه الى ادراكه ، أفلما تحسب حياة انسان كهذا أم يقظة . تأمل أليس الحالم ، فى يقظة أو فى منام ، هو الذى يخلط بين الحقائق و بين الصور المنعكسة عنها .

(غ) اعترف أن امرءا كهذا حالم

(س) وماقولك فى من غايره ، ففهم الجمال المطلق ، وامتلك قوة التمييز بين هذا الجوهر و بين الأوساط التى يتجلى بها فلا يخطىء فى حسبان المجالى جوهرا ولا الجوهر مجالى ، أفلما تحسب حياة هذا أم يقظة ؟

(غ) يقظة دون شك

(س) أفلسنا مصيبين إذ ذاك ، فى تسمية فعل الشخص الثانى العقلى معرفة لأنه أدرك الحقيقة ، وفعل سابقه تصوّرا لأنه تصور فقط

(غ) غاية فى الصواب

(س) حسنا . فاذا امتعض من سميناه متصورا لاعارفا ، وغضب علينا مدّعيا أن ماقلناه غير صحيح ، فهل لنا من سبيل لتلطيف غضبه واقناعه برقة ولين . ساترين عنه حقيقة حاله ، وهى أنه ليس فى حال الصحة

(غ) ذلك أمر مرغوب فيه

(س) فانظر فيما يلزم أن نقول له . أنستحسن أن نحادثه مسلمين انه لوعرف شيئا لما حسدناه على علمه أقلّ حسد . بل كنا نسر بأنه كما يدعى . ولكنا نقول له أجب عن هذا السؤال . اذا عرف ذوالحجى فهل عرف شيئا أولاشيئا . أجب عنه ياغلوكون

(غ) أجيب انه عرف شيئا

(س) أموجود ذلك الشئ أولا موجود ؟

(غ) بل موجود . لأنه كيف يمكن غير الموجود أن يعرف

(س) أفتثبتون نحن من هـذه الحقيقة . فى أية صيغة نظرنا فيها : أى أن الموجود حقيقة يعرف معرفة تامة . أما المعدوم فمجهول بتاتا .

(غ) انا متثبتون منها كل التثبت

(س) حسنا . فاذا كان هنالك شيء متردّد فى الوقت نفسه بين الوجود و بين العدم ، أفلايوضع فى رتبة متوسطة بين الموجود يقينا وبين المعدوم بتاتا .

(غ) يلزم أن يوضع

(س) فاذاخصت المعرفة بالموجود ، والجهل بالمعدوم . أفلايلزم أن نجد حالة متوسطة بين العلم والجهل تختص بماهو متردّد بين الوجود والعدم

(غ) يقينا

(س) أنقول أن التصور شيء ،

(غ) بلاشك

(س) أفنحسبه قوة متميزة عن العلم أم نحسبه العلم نفسه .

(غ) هو شيء متميز عن العلم

(س) فنخص العلم بدائرة نفوذ ، والتصوّر بدائرة أخرى . بطبيعة مافى كل منهما من قوة

(غ) تماما

(س) أفليست طبيعة العلم المختص بالموجود هى معرفة كيف وجد أولا . والافهنالك فرق واضح يلزم تحديده

(غ) وماهو .

(س) ان القوى . كمجموع قائم بذاته . هى مانعمل به نحن ، وكل أحد ما يمكن عمله . مثلا : انى أدعو السمع والبصر قوتين . اذا كنت تدرك الفكرة الخاصة التى أروم أن أصورها

(غ) انى أدركها

(س) فاسمع ماأراه فيها . لست أرى فى القوى شكلا ، ولالونا ، ولاغيرهما من الأعراض التى أراهافى مختلف الأشياء . وبها أميز (اى بالأعراض) بين شيء وشيء . أما فى القوة فاعتبر وظيفتها ودائرة نفوذها ، وبذلك توصلت الى تسميتها . فادعوالقوى التى من نوع واحدوتعمل عملاواحدا ، ولها وظيفة واحدة «قوى واحدة» ولكن القوى التى تختلف دوائر نفوذها وتتفرع وظائفها فادعوها «قوى متنوعة» فما قولك .

(غ) هكذا بالتمام

(س) فاخبرنى ياصديقى الفاضل . فى أية رتبة تضع العلم ، أتحسبه قوة .

(غ) نعم أدعوه قوة . وهو أعظم القوى كافة

(س) وهل التصور قوة ، أوندرجه فى سلك آخر .

(غ) لا آخر . لأن مابه نتصور لا يكون إلا تصورا

(س) وقد اتفقنا الساعة ان العلم والتصور غيران

(غ) وهل يجمع العاقل بين الخطأ والصواب .

(س) أحسنت فنتفق فى أن التصور شيء غير العلم

(غ) غيره

(س) فلكلّ منهما بطبيعته ميدان نفوذ خاص ، وتأثير خاص

(غ) الاستنتاج قاطع

(س) فميدان نفوذ العلم هو معرفة طبيعة الموجود

(غ) نعم

(س) وميدان نفوذ التصور هو «الظن»

(غ) نعم

(س) أفيتناول التصور حتما وفعلا مادة العلم . و بعبارة أخرى هل مادة التصور هى نفس مادة العلم ، أو ان ذلك محال .

(غ) انه محال . بناء على ماقرّرناه . أى انه اذاسلمنا انّ للقوى المتنوعة دوائر نفوذ مختلفة . وان العلم والتصور قوتان متميزتان . وقد جزمنا بذلك . فهذه المقدمات تجعل توحيد مادة العلم ومادة التصور محالا

(غ) طبيعى

(س) فاذا كان الموجود مادة العلم فمادة التصور هى حتما شىء آخر غيره

(غ) يلزم أن يكون غيره

(س) فهل يتناول التصور المعدوم ؟ أو أن تصور المعدوم غير ممكن اصالة . افتكر من يتصور الايوجه أفكاره نحو شىء . أفيمكن أن يكون تصور فى اللاشىء .

(غ) غير ممكن

(س) فمن يتصور فقد تصور شيئا .

(غ) نعم

(س) ولكن المعدوم لايدعى شيئا . بل هو لاشىء

(غ) بالتمام

(س) وقد التزمنا أن نخص الجهل بالمعدوم و والمعرفة بالموجود

(غ) وبالصواب فعلنا

(س) فموضوع التصور ليس الموجود ولا المعدوم

(غ) لاهذا ولاذاك

(غ) فليس التصور معرفة ولاجهلا

(س) أفيستقر وراء أحدهما ، فيفوق المعرفة يقينا ، و يفوق الجهل إبهاما .

(غ) يظهر أنه ليس كذلك

(س) فقل . أتحسب التصور أقل وضوحا من المعرفة . وأقلّ خفاء من الجهل ،

(غ) نعم وهو متميز عن الاثنين كثيرا

(س) فهو اذا بين هذين الطرفين

(غ) نعم

(س) فنحسب التصور اذن شيئا بين الاثنين

(غ) بالتمام

(س) أولم نقل الساعة انه اذا بان لنا شىء أنه موجود وغير موجود فى وقت واحد ، فيجب وضعه بين الموجود الحقيقى و بين المعدوم المطلق . فلا يكون اذن مادة علم ولامادة جهل . بل هو مادة قوة ثالثة بين العلم والجهل يجب اكتشافها

(غ) قلناذلك

(س) وقدا كتشفنا الآن قوة بين الاثنين . دعوناها تصورا

(غ) واضح انا ا كتشفناها

(س) بقى أن نكتشف مايشترك فى الموجود والمعدوم ، وليس هو أحدهما بكليته فاذا ظهرت لنا ماهيته دعوناه بحق « مادة التصور » ناسبين للطرفين ماهولهما . وللوسط ماهوله ألست مصيبا .

(غ) انك مصيب

(س) فاذا وضعنا هـذه الفروض ، فانى أسأل ذلك الرجـل المعتبر الذى ينكر وجود شيء كلى ، أو أى صورة من صور الجمال المطلق . التى تظل الى الأبد كما هى غير قابلة التغير . مع أنه يعترف بوجود أشياء عديدة جميلة . ذلك الذى يحب المنظورات ، وهو لايحتمل أن يقال له ان الجمال واحد وأن العدالة واحد وهلم جرا . فأقول له : ياسيدى العزيز . أيوجد بين كل الأشياء الجميلة شيء واحد لاقبح فيـه . و بين كل الأشياء العادلة عادل واحد لاظلم فيه . و بين كل الأشياء الطاهرة طاهر واحد لادنس فيه .

(غ) كلا بل تظهر كلها بلاتخلف ، جميلة وقبيحة ، عادلة ومعتدية ، بارة ودنسة باعتبار ين

(س) وأيضا . الايمكن اعتبار المضاعفات الكثيرة انصافا علاوة على أنها مضاعفات

(غ) تماما كما أنها أيضا مضاعفات

(س) وجريا على الأسلوب نفسه هل للأشياء التى ندعوها كبيرة و وصغيرة ، وخفيفة . وثقيلة ، حق فى أن تدعى كذلك أكثر من اضدادها .

(غ) كلا بل كل منها يمكن أن يدعى بالاسمين على السواء

(س) فنكون أقرب الى الصحة اذا وصفنا كلا من هذه الأشياء بأنه قد يكون وقد لا يكون كما وصف ؟

(غ) انك تذكرنى بأحجية التضاد التى تتلى على موائد الطعام (للتسلية) ولغز [1] الأولاد عن الخصى الذى رمى الخفاش بما رماه به ، هو جاثم على ماهو جاثم عليـه . لأن الأشياء المشار اليها فيها الغموض نفسه فلا يمكن الانسان أن يميز هل هى موجودة ، أوغير موجودة معا

(س) أفيمكنك افادتى ماذا تعمل بها ، أو هل عندك رتبة لها أفضل من الرتبة الوسطى . بين الموجود والمعدوم ، لأنها فى مذهبي ليست أخفى من المعدوم لتكون أكثر عدما منه ، ولا أوضح من الموجود فتكون أثبت منه وجودا

(غ) انك مصيب كل الاصابة

(س) فقد اكتشفنا أن الأفكار الشائعة فى الجمهور فى العدالة والجمال وأخواتهما هى تائهة بين الوجود المطلق و بين العدم المطلق

(غ) اكتشفنا

(س) وقد سلمنا سابقا أنه اذا ظهر شيء من ذلك دعى تصورا لامعرفة . وان مايتراوح بين الأمرين يفهم بقوة متوسطة

(غ) قد سلمنا هذا التسلم

(س) ولذلك حين تقع عين الناس على شتى الأشياء الجميلة ، ولكنهم لايقدرون أن يروا الجمال بالذات ، ولا أن يتبعوا من يقودهم اليه ، وحين يرون أشياء عديدة عادلة ولايرون العدالة بالذات ، وهكذا فى كل مثل ،

---

(١) تقول الأحجية : قيل ان رجلا وليس برجل ، رمى ومارمى ، طائرا وليس طائرا ، جاثما وليس جاثما ، على غصن وليس بغصن . بحجر وليس بحجر ، وهكذا . وقد فسرت هذه الحكاية نوعا فى المتن

فانا

فانا نقول ان لهم فى كل موضوع تصورا ، لامعرفة حقيقية فى الأشياء التى يتصورونها

(غ) الاستنتاج ضرورى

(س) ومن الجهة الأخرى ، ماذا يجب أن نقول فى أولئك الذين يفكرون فى الأشياء على ماهى فى ذاتها ، كائنة دون فناء ولاتغير ؟ أفلانقول انهم عارفون وليسوا متصورين .

(غ) وهذا أيضا استنتاج ضرورى

(س) أفلا نقول ان هؤلاء يعجبون بمواضيع المعرفة ويحبونها وأولئك يعجبون بمواضيع التصور . لا تنا لم ننس أننا قلنا انهم يحبون ويطلبون الأصوات والألوان البديعة ونحوها من الاعراض ، ولكنهم لم يسمعوا بوجود الجمال المطلق

(غ) لم ننس

(س) أفنخطىء اذاسميناهم محبى التصور ، بدلا من تسميتهم «فلاسفة» او يستاءون كثيرا اذا أسميناهم كذلك

(غ) كلا اذا قبلوا رأيى . لأنه من الخطأ أن يسوءنا الحق

(س) فالذين يحبون الموجود الحقيقى . فى كل موضوع لاندعوهم محبى التصور بل فلاسفة

(غ) نعم . من كل بد . انتهى الكلام على الجوهرة الأولى

الجوهرة الثانية

فى ذكر ماخطر بقلبى وملأه جمالا وبهجة وسرورا صباح يوم السبت ٥ رمضان سنة ١٣٤٩

ذلك أنى بينما أنا بين اليقظة والنوم صباحا إذ تجلت لى هذه الدنيا بهيئة جميلة ، وازّينت بزينة بهجة بديعة ، وخيلت لى الأرضون والسموات وما بينهما بهيئة غير ما أراها ببصرى ، وهذه حال يعجز قلمى عن التعبير عنها ، فما أسرع خاطرى للتفكر فيها ، وما أبهج قلبى بمشاهدة مناظرها الخيالية ، فهناك هناك خيل لى كأن قائلا يحدّث عقلى ويقول : « ياعجبا لهذا الجمال المصون عن الجهال ، ايه أيها الانسان ، ايه يا أهل الأرض ، واها لكم ، هذه الشمس ، وهذا القمر ، وهذه النجوم ، وهذه الأنوار مرسلات اليكم وأنتم لاتبصرون . لا لا . أنتم أرواح من الطراز الضئيل ، يظهر أنكم كنتم فى عالم غير هذا ولم تصلحوا لقيادته ولا لسيادته ، فأقصيتم عن المكان الرفيع ، وأنزلتم الى هذا المكان ، أصلكم شريف ، أنتم من عالم أعلى ، أنتم من نور ، أنتم من أصل كريم ، أنتم نور من الله ، ولكنكم ضعفتم عن أن تسيروا على سننه ، فكانت هيئتكم كهيئة ماتعافونه من قمامات المنازل ، وماتسمدون به الأرض من كل مالايصلح لغذائكم ولاانتفاعكم فأنتم تجعلونه سمادا لزرعكم فيكون الحب والخضر والفاكهة . إن السماد من مادّة النبات والجاهل يحقره ، ولكن العالم الدارس يرى المادة واحدة ، ولكن السماد تنزلت مرتبته عن الفاكهة ، فماهى إلاشهورمعدودة فيزول وصفه القديم ويكسب وصفا شريفا يؤهله أن تقبله نفوسكم ، فنفوسكم شريفة من العالم العلوى ، ولما عجزت عن أن تسير على القانون الإلهى أنزلت الى هذه الأرض (وتشير لذلك قصة آدم) والقانون الالهى يرجع الى أمرين اثنين : وهما حب العلم ، وحب الأمم . الله لاحدّ لعلمه ، ولاحدّ لانعامه على المخلوقات ، ولكن أرواحكم لم تقو على السير على سننه فأرسلت الى هذه الأرض . ومن درس هذه النفوس البشرية اعتراه العجب منها . ذلك انه يجد أنها مجبولة على حب ذواتها تريد أن تجعل العالم كله خادما لها . وجميع السحرة فى هذه الأرض وكل رجال السياسة هم والشحاذون على حد سواء كلهم يريدون أخذ مال الغير بسهولة أى يريدون أنفسهم لاغير . فالساحر وقارىء العزيمة ورجل السياسة الذى يحكم الأمم لمجرّد شهوات أمته لا لرقىّ

تلك الأمم . كل هؤلاء قوم شحاذون أولصوص أوقطاع طرق ، بل كل شيوخ الدين ورجال الصوفية (غير الصادقين) أى الذين يحبون الشهرة لاغير أوجمع المال فهؤلاء وهؤلاء كلهم شحاذون وقطاع طرق ولصوص وبالجلة كل من لايريد إلا نفسه فان نفسه لاتزال ضعيفة ، لافرق فى ذلك بين الفرد و بين الأمة و بين السوقة والملوك ، فهؤلاء جميعا لم يخرجوا عن أنهم فى هيئة أطفال ، فشيوخهم وشبانهم وكهولهم كأطفالهم على حدّ سواء

خلقت هذه الصفة فى الانسان فى حال صباه ، وألهم أن يسعى لرزقه ويكدّ ويكدح ، وفى أثناء ذلك قرأ العلوم وعرف الصناعات ، كل ذلك لشهوته الخاصة لأن روحه لم تقدرعلى أكثر من ذلك ، ولكن بعض هذا الانسان فى أثناء بحثه تظهرله أنواع الجمال والعلوم فيتسع نطاق عقله يوما فيوما فيرى شموسا وأقمارا وأراضى ومعارف وأمما ، ويرى دائرة وجدانه تتسع فيرى زوجة وولدا وعشيرة وقرية وأمة ، فيحسّ فى نفسه بحب واتصال بهؤلاء ، فكلما اتسع وجدانه زاد احساسه بهؤلاء ، فلايزال الانسان فى استكمال قواه حتى يصبح فيجد نفسه تحب سعادة جميع نوع الانسان وأن يكونوا أمة واحدة أومايشبه ذلك بقدر الامكان

هذا من حيث العمل ، أما من حيث العلم فانه يرى هذه العوالم كلها جنته وسعادته ، فيكون مغرما بالعوالم كلها فهما و بصيرة لاتمتعا زائلا ، هنالك تصل هذه الأرواح الأرضية الى عالم أرقى من هذه الأرض وتقترب من ربها وتكون رياضتها فى أرضنا مشابهة بعض المشابهة لما يحصل فى القمامات المزدراة فى الأرض من انقلابها تفاحا وموزا وتمرا

وههنا أخذ يقول وأنا أسمعه : « هذه الأرواح الأرضية يحيط بها الجمال وهى لاتعقله ، شموس وأقمار وأرضون وأنوار تحيط بهم أفلايعقلون ! ههنا رحمة لاحدّ لها ، وجمال لانهاية له وعناية تامّة تحيط بكم ، والدليل على رحمة الله التى لاحدّ لها وعلمه وعنايته أن نفوسكم مع قصورها وضعفها واقتصارها على لذة نفسها وما ينفعها فى حياتها وتغاضيها عن منفعة الآخرين أحيطت بكل جمال وكمال من أنوار الكواكب والأقمار والشموس والهواء والماء والعلماء والنعم ، ولما كانت لضعفها لاتقوى على النظر الى وجه ربها ، وهو لشدة رحمته لكم ونعمته عليكم يحب انكم ترونه لتبتهجوا به لأنه كريم أراكم صورا جميلة و بثّ زينته فى كل مكان ، وأودع فى قلوب الآباء والأمّهات رحمة ، وفى قلوب الملوك والحكام غيرة على ممالكهم بالمحافظة عليها ، وفى قلوب المربين والأساتذة والأمهات والمراضع عطفا وشفقة على من يقومون هم بتربيته أوتغذيته ، وعمم الرحمة فى كل حيوان كل ذلك إن هو إلا مظاهر لجماله ولرحمته ولعنايته ولعلمه ، أرسلها لهذه الأرواح من وراء حجاب لما عجزت نفوسكم أن تنظر الى ربها فعلا . ومن الرحمة العظيمة أن الصور الجميلة لاتبقى على حال واحدة وهكذا الأمّهات والآباء وكل ماتملكون ، فهذه كلها تسلب منكم ولاتبقى ، فالله يقول لكم : « ياأهل الأرض . فهمتم عطف الأمهات وعتق الغادات والتمتع باللذات والمناظر السارّات . هاأناذا أريتكموه ولكن أسلبه منكم رحمة بكم لتفكروا ، أهذا المنعم به المسلوب منا هو الذى تقرّ به عيوننا ، أم هنالك ماهودائم ثابت نفرح به بلا انقطاع فبين الاعطاء والمنع يكون التفكر ولاوصول لكم إلا بهذا . أما ساطت بعضكم على بعض وكل يحارب الآخر أفرادا وأمما . وفى أثناء ذلك تحدث المعرفة فيعرف الغربى الشرقى والعكس . ذلك لأن نفوسكم خامدة ولا وسيلة لانعاشها بحسب ضعفها إلا بأن يقال لها حاربى لتغنمى . وهاهى ذه الحروب الصليبية جرت مغنم العلم والمعرفة وبها عرف الصليبيون علوم المسلمين مع انهم جاءوا لابادتهم . هذه الحرب العظمى وضعت لاشباع الشهوات ولكن أعقبتها منافع عامّة ككثرة الكلام فى السلام العام وكارتقاء فن الطيران . و بعض ما استعمل للحرب أصبح نعمة فى السلم مثل الآلات المهلكات المستخرجات من نفس (الاوزوت) الذى هو أحد عنصرى الهواء فان ألمانيا حوّلتها بعد الحرب الى سماد . وللحرب الفضل فى انتشار هذا الاختراع . كل هذا ناتج من

قصور

قصور هذه الأرواح فانها مجبولة على حب النفس وتجهل غيرها ولكن هذه الانانية استخدمت وسيلة للمنفعة العامّة . هذه أخلاق هذه النفوس . فسياسة الأمم العامّة هي بعينها سياسة الله في الأجسام . فالمرء يأكل للذته وازالة جوعه ، ولكن المقصود بقاء حياته . ويقرب الأنثى لمجرّد اللذة ولكن الحكمة العامّة تريد الولد لدوام نوع الانسان

فنتيجة هذا كله أن النفوس الأرضية لما ضعفت عن اللحاق بالأرواح الإلهية من حيث عموم العلم وعموم الرحمة وعموم الجمال ، تجلى الله لها بالجمال في عوالم تناسبها كالأقمار والشموس ، ونسبة جمال هذه العوالم الى جمال مبدعها كنسبة ضوء أنوار الشمع والبترول الى ضوء الشمس ، ونسبة هذه العوالم الى كمال مبدعها كنسبة الساعة التي نعرف بها الوقت الى الشمس العظيمة التي تدور أرضنا حولها وتنظم الأوقات العامّة

الانسان مغمور في الجمال وفي الكمال وفي العلم ، وهو لضعفه قصير النظر والله لعطفه وكرمه يأخذ بيده والانسانية كلها سائرة الى هذا الخير في عالمنا وفي عوالم أخرى إلا ماشاء الله . كتب صباح يوم الأحد (٦) رمضان سنة ١٣٤٩ هـ الموافق ٢٥ يناير سنة ١٩٣١ م

هذا كله سر من أسرار القرآن

مخبوء في حرفين : حاء ، وباء

وما أن كتبت هذا العنوان حتى حضر صديقي العالم الذي اعتاد مناقشتي في هذا التفسير . فقال : ماهذا العنوان ؟ أتريد أن تقول أن ما ذكرته أنت وماذكره الخطيب المصري من أمر النفوس الانسانية وأن الحياة التي لها نهاية لاتستحق العناية وهكذا ماذكر أفلاطون أن كل مالابقاء له من الصور والمتاع لاقيمة له أتقول ان هذا كله في حرفين اثنين في القرآن وهما حاء وباء ، واني أخاف أن أحدا ممن يسمع هذا أو يقرءوه من المسلمين (لا أنا طبعا) يقول إن هذه مجازفة واغراق ، فأيّ حرفين في القرآن يفيدان هذه المعاني ، وأي حاء وباء تريد . ان هذا القول أمره عجب . فقلت : أيها الأخ المفضال ، ماذا جرى ، لعلك اليوم فعلت مايفعله بعض الناس إذ يسمع ـ لاتقربوا الصلاة ـ فيقول الصلاة منهيّ عنها ، أفلاتصبر حتى أخبرك الخبر بعد المبتدأ . فقال : ولكن هذا العنوان نفسه هو الذي حفزني أن أقول هذا القول لأنه عنوان غريب ، وأنا مشفق على التفسير أن يطعن فيه الطاعنون . فقلت : هاأناذا أشرح لك أيها الذكيّ ماتريد ، أتذكر آية ابراهيم في الأنعام . قال نعم . قلت ماذا فيها ؟ فقال انه أيقن بالله ، وهذا الايقان بسبب انه ظنّ أوّلا أن الله هو الكوكب ، ثم لما أفل قال أنا لا أحب الآفلين ، ولما رأى أن القمر أبهى من النجم . قال هو ربي . ولما أفل أظهر الحيرة تعليما لقومه ورجع الى ربه ، ولما رأى الشمس بازغة فعل كما تقدم ، ولما أفلت وجه وجهه لله ، هذا هو ملخصها . فقلت له : ألم تعثر في أثناء هذه القصة التي ذكرتها على هذا السرّ . فقال : وأي سرّ أهو الحاء والباء ؟ فقلت إي وربي . فقال : أي حاء وباء ؟ فقلت : ارجع وفكر في الآيات . فقال : لا أرى شيئا . فقلت : ألم تعلم انه نفي الالوهية عن الكوكب وعن القمر وعن الشمس لأنها متحركات والاله لايتصف بالحركة لأن ذلك فعل الحادث ، ولأنها غابت بعد الظهور ، والاله لايغيب بل معنا أينما كنا ، ومايغيب لا يكون إلها ، فالالوهية يناقضها الحركة ويناقضها غيبوبتها . فقال : هذا حسن ولكنه لم يأت بالفائدة المرجوّة وهي بعيدة عما تريد أن تبرهن عليه ، فأين الحاء والباء ؟ فقلت : أما أتركها لبحثك أنت لأن العلم اذا جاء عفوا لايفيد ، والرزق كذلك ، بل نفس الآية معناها أن معرفة الله اذا جاءت عفوا لاثبات لها ، والا فلماذا نرى ابراهيم يفكر في الكوكب فالقمر فالشمس ؟ أليس هذا معناه البحث ، فأنا أفعل معك مافعله الله مع ابراهيم واذا كان ابراهيم نبيا وعومل هذه المعاملة تعليما لقومه أفلا أعاملك أنا كذلك ؟ فلتبحث أنت عما رمزت لك

به . هنالك أخذ يكرّر الآية مرارا ويقول : « الحاء فى (حنيفا) ولكن أين الباء ، والحاء فى (حاجه) ولكن أين الباء ، والباء فى (ابراهيم) ولكن أين الحاء ؟ ثم رجع ثانيا وقال : أهما مجتمعتان أم مفرّقتان ؟ فقلت فكر بعقلك ولا تسألنى ، وأصاخ زمنا ثم قال : نعم (لا أحبّ الآفلين) . فقلت نعم . فقال : أنا والله الى الآن لا أفهم فى « لا أحب الآفلين » معانى تتضمن كلام أفلاطون وكلامك وكلام الخطيب المصرى ، فاذا تفضلت بشرح هذا المقام كنت لك من الشاكرين ، و يشكرك المسلمون بعدنا أجمعون . فقلت . أيها الصديق : ان ابراهيم لما رأى الكواكب والقمر والشمس كان عند كل واحد منها يقول فى نفسه انه مسخر مقهور لأنه متحرّك وهو يغيب ويحضر والاله لا يكون كذلك . قال نعم . قلت : فكان مقتضى الظاهر أن يقول أنا لا أعبد الآفلين لأن المقام مقام العبادة ، ألا ترى انه قال « هذا ربى » ولما رأى انه لا يستحق الربوبية حصل له شك فيه بل انكار ، فمقتضى الظاهر أن يقول مثلا « هذا ليس ربى » لأنه على خلاف صفات الرب واذا لم يكن ربى فلا أعبده ، فهو قال هذا ربى ، وعند الانكار يقول هو ليس ربى و يلزم من ذلك انه لا يعبد فهو لم يقل هذا ولا ذاك ، ولكنه عبر بعبارة عجيبة وهى انه نفى الحب عمن لا يتصف بصفات الرب ، وهذا هو السرّ ، فقوله « أحب » المنفى بلا مشتمل على أربعة حروف الهمز وهى زائدة والحاء والباء مضاعفة فرجع الأمر الى الحاء والباء . فقال : أنا فهمت الآن ولكن لم أصل للمقصود . فقلت : نعم سأوضحه

اعلم أيها الذكىّ أن العابد إما أن تكون عبادته من أجل الرهبة ، واما أن تكون عبادته من أجل الرغبة ولم يكن عابد فى هذه الأرض يعبد الله إلا لأحد أمرين : إما انه خائف من الله لئلا يدخله جهنم ، واما أن يعبده لأنه طامع فى دخول الجنة ، أولمجرّد الحب . فالعبادة إما لخوف واما لرجاء ، فلا عبادة إلا على هذا النمط وخير الجميع أن يعبده حبا له وغراما به وشوقا إليه وعشقا له ، وهذه العبادة هى المبنية على الحبّ ومستحيل أن يحب الانسان أحدا إلا بعد معرفة أعماله وصفاته فيعشقه . قال نعم هذا التفسير كله على هذا النمط . فقلت فكل عابد فى الأرض لا تكون عبادته إلا عن رغبة أو رهبة ، وعبادة العابد الذى أحبّ ربه أحد قسمى الرغبة . فقال نعم . فقلت : إذن المذكور فى الآية من أحد شقى سبب العبادة وهو الحب ، والعبادة فرع الاعتقاد فى الربوبية . فقال حسن . فقلت : ههنا وصلنا الى المقصود . فانظر رعاك الله الى ما أقول : ألست ترى أن كل ماتقدم من كلامى وكلام أفلاطون وكلام الخطيب المصرى راجع الى أمر واحد وهو أن مالا بقاء له ولا دوام يجب علينا أن نحقره وأن هذه الحياة الدنيا القصيرة ليس من المعقول أن تكون لها قيمة عند العقلاء أصلا اذ لم يكن لها دوام ، وهذا هو قول الخطيب المصرى المتقدم ، واستنتج من هذا أن الحياة تدوم والا كان كل هذا عبثا ولهوا وجهالة . فقال بلى . فقلت : ألم تر أن كلام أفلاطون يرجع برهانه الى أن العقول الصغيرة تقف عند ظواهر الجمال والمال والزينة ، وحقر هذا كله وحكم على أكثر عقول الانسان انها خاوية جاهلة إذ تظن أن هذه الصور الجميلة والأغانى وكل ما فى هذه الأرض من زينة محل للتمتع ومناط المسرّة والسعادة وهى كلها ذاهبة ، وكيف يفرحون بما لا ثبات له ، ثم أفاد أن ماله ثبات وهو الجمال المطلق الثابت الذى لا تدركه الحواس وانما يدركه العقل هو الذى اليه تتجه الهمم والعقول . فقال بلى والله . فقلت إذن الحياة التى لا بقاء لها لا يصح أن تحب ولا يعوّل عليها ، وكل ماهو جميل أونافع مما هو آفل وذاهب لا ينبغى أن يكون محط الرحال ولا هو مناط الآمال . قال نعم . قلت : أليس هذا كله معناه أن المحبوب الحقيقى هو الذى يبقى . فقال بلى . فقلت إذن ثبت أن العلم والحكمة أثبتا اثباتا حقيقيا لا تشوبه شائبة أن كل هذه الحياة الدنيا وكل صورها لا ينبغى أن تكون مقصودة لذاتها بل مقصودة لغيرها ، وذلك الغير هو الذى يحب وتكون هذه المحبوبات الوقتية مذكرات بالمحبوب الدائم ، وهذا المحبوب الدائم يعبد لحبه هو لا لجنة أونار . إذن أصبح هذا النوع الانسانى بعد براهين الفلسفة التى خضعت لها جميع حكماء أوروبا والشرق وهى فلسفة سقراط وأفلاطون وما يوافقها

من كلام غيرهما ، كله إلا قليلا واهما فى أمر المحبة ، فالمحبة التى على غير هذا النمط محبة جاهلة . فقال نعم .
فقلت : إذن قد وصلنا الى المقصود وهو أن التعبير بقوله « لاأحب الآفلين » قد حوى تلك المعانى . فاذا كانت حياة الناس على الأرض ليس لها إلا هذه المدة الوجيزة ثم تنفض فهى حياة لاتستحق الاهتمام فلا يصح الحرص عليها لأنها لاتستحق الحب ، وهذا كلام الخطيب المصرى ، واذا كان كل مافى هذه الدنيا من المال والولد والصور الجميلة ، وماتملك من عقار ومال ومتاع ، ومانسمع من الألحان ، ومانستلذ به من أنواع المشمومات والمذوقات والملموسات والمسموعات والمنظورات ، جميعه متغيرا لابقاء له وما لا بقاء له لاينبغى للعاقل أن يحبه بل يحب سببه الدائم الذى يعرف بالعقل لاهو كما يقوله سقراط . أقول : اذا كان كذلك أفليس هذا هو معنى « لا أحبّ الآفلين » أى ان مايغيب ومالا يبقى لايصح حبه . فقال : الله أكبر . الله أكبر . جلّ العلم وجلت الحكمة . وهنالك اعترته دهشة وقال والله لم يكن ليخطر لى أن هذه المعانى يحويها القرآن ، وهذه أسرار غريبة ، هذه أوروبا وهذه أمريكا وهذه الأمم حولنا يعظمون سقراط وأفلاطون ويتخذون الجمهورية نبراسا لهم ويقرءون منها أبوابا لتربية الجيوش والأسرات ويقدّسونهما ويقولون إن الله لم يخلق مثلهما فى العالم الانسانى . فهذان المقدّسان عندهم المعظمان هما اللذان أتيا بهذه النظرية أى نظرية الحبّ وانه لاينبغى أن يكون لغير الباقى ، وهذه شملت كل ماجاء فى الجمهورية ، وهانحن أولاء وجدناها فى معنى الحب

ثم أخذ يقول : فليحضر علماء البلاغة قديما وحديثا وليقولوا ماشاءوا ، فهذه هى البلاغة ، وهذه هى الحكمة ، وهذا هو العلم . الله الله الله . هذه هى المعجزة التى لا نظير لها

أيها المسلمون : انظروا فلسفة أفلاطون وسقراط . وملخص الكتاب الخامس من جمهورية أفلاطون دخلت فى القرآن بل فى حرفين اثنين

يا اخوانى أبناء العرب أبناء مصر وبلادشمال افريقيا وسوريا والعراق والموصل ونجد واليمن تعالوا انظروا ديننا ، انظروا قد حوى جميع علوم الأمم ، هانحن أولاء نرى حرفين ابتلعا أعظم الفلسفة

لتشمرّوا عن ساعد الجدّ ، ولتدرسوا علوم المشرقين وعلوم المغربين ، ها ها ، هاأناذا عرفت ، عرفت مايشيع على الألسنة أن القرآن فيه علوم الأوّلين والآخرين ، فذلك من هذا الوادى يكون ، فاذا سمع المسلم ــ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ــ علم أن كل العلوم مطلوبة ، واذا بحث وفكر فى عجائب العلوم استخرج جزئياتها من بعض الكلمات أوالجمل ، اللهم إنا نحمدك على العلم والحكمة . فقلت الحمد لله الذى أقرّ عينك ، فعرفت انى ماكتبت عنوان المقالة مجازفة أوغلوّا أواغراقا ، فأنا كنت فى أوّل حياتى أشكّ فى كل شىء ، فكيف أكتب مالا أوقن به أومااليس مبنيا على برهان

هنالك ذرفت عيناه بدموع الفرح . وقال : أريد أن تفيض بعض القول فى عوالم السموات وجمالها فقلت ياسبحان الله ، إن هذا الكتاب أكثره فى عالم السموات . فقال ولكن لماذا نسمع الله يقول فى آية الكرسى (بعد ذكرالسموات والأرض) ــ وهوالعلىّ العظيم ــ . فقلت : حسن . اعلم أن هذه من الأسرار التى تجلت للخليل عليه السلام وهى تتجلى لبعض النفوس الشريفة الاسلامية ، وذلك أن الانسان اذا فكر فى النجوم واستحضرها بخياله (لاسيما ان كان دارسا لعلم الفلك ، وقد درس قبل ذلك العلوم الرياضية التى تعرّفه عجائبها) تحدث فى نفسه روعة واعجابا ويحسّ بجمالها ورفعتها وعلوّها وعظمتها ، فيقول فى نفسه « ان خالقها علىّ عظيم وجميل أيضا » ، فالعلوّ والعظمة ذكرت فى آية الكرسى تذكيرا بما يخطر للمفكرين من العقلاء فضلا عن الأنبياء . فقال : وهذه أيضا من أسرار البلاغة التى لم يعلمها أحد قبل هذا الزمان . ثم قال : ولكن هنا أمر يؤسف له . لماذا لانرى فى النوع الانسانى أثرا عظيما لحبّ الله المذكور فى الآية « يحبهم ويحبونه » و « لا أحبّ الآفلين » فان مقتضاه أن الانسان يحب غيرالآفل وهوالله ، وهذا الحب قليل

أوضئيل ؟ فقلت : أيها الحبيب . أكثر الناس فى هذه الأرض يحبون ربهم ، وهذا الحب غير واضح لهم وعلى قدر اكتناه العجائب يزداد الحب ، إن حب الله مغطى بألف غطاء ، فان الشهوات والآلام والعداوات والأمراض والحسد . كل ذلك قد غطى على هذا الحب ، ولو ظهرت هذه العجائب للناس لتقطعت قلوبهم من العشق والحب ، كيف لا ونفس الجسم الانسانى لاحدّ للكمال الذى فيه ، وهذه النفس الانسانية العجيبة ، هذه التى جعل هذا المخ لها مزرعة تزرع فيه أنواع العلوم والمعارف ، وفى كل منطقة من مناطقه يزرع علم مخصوص من رياضيات وطبيعيات وإلهيات ، حتى أن العلماء عرفوا تلك المناطق بعض المعرفة اليوم ، وفوق هذا علم النفس الذى جاء بطريق التجربة فى عصرنا ، وسترى بعضه فى أوّل ﴿ سورة الجاثية ﴾ عند آية ـ وفى خلقكم ـ الخ

فهذا العلم أظهر أن فى النفس عجائب لاتزال مخبوءة ، وستعجب مما ستقرؤه هناك ، فهذه العجائب فى نفوسنا ، وفى أجسامنا ، وفى العوالم حولنا ، لو انها كشفت لنا ولم تغط بالمرض والحسد والعداوات والحروب لهلك الناس من عشق مبدع هذه العوالم ، ولكن هذه الأغطية من النعم العجيبة التى أنعم الله بها على الناس حتى يقدروا أن يعيشوا فى الأرض وان كانوا معذبين ، فحياة مع هذا العذاب خير من العدم

إن الله مزج الضارّ بالنافع رحمة بنا ليصرف عقولنا عن هذا الكنز المخبوء فى الدنيا وهو الجمال الباهر حتى تتسع عقولنا ، واذ ذاك يسلمه لنا فى عالم الأرواح ، وفى الفاتحة تراه يذكر الرحمة ويتبعها بقوله ـ مالك يوم الدين ـ ، فهنا شدة ولين كما تراه جعل فى النبات قوّة امتصاص الكربون من الجوّ بمساعدة المادّة الملوّنة فى الورق مع ضوء الشمس ، وهذا الكربون يتحد مع الماء فيكون هناك النشاء والسكر ومادّة (السيلولوز) التى منها القطن والكتان ، وهذه المادة تجعل فى الحويصلات التى يتركب منها النبات غطاء يغلف كل خلية من الخلايا التى يتركب منها النبات ، فجميع الخلايا مغلفة بهذه المادة كما تقدم مرارا ، فههنا فى النبات مادّة الحياة داخل كل خلية ، وكل خلية يحيط بها غلاف يحفظها ، فهذا الغلاف فيه معنى الملك والحفظ ـ مالك يوم الدين ـ وداخل الحويصلة مادة وهو معنى ـ الرحمن الرحيم ـ فهكذا كل العالم فيه مايسرّنا وفيه مايؤلمنا ، فالمؤلم أشبه بغطاء حافظ لما يسرّنا ، فهذه الشرور مانعات حياتنا من الاضمحلال ، لأننا لو عرفنا جمال هذا الوجود لم تتحمل نفوسنا هذا الجمال ، فغشى عليها بالمصائب والبلايا والمرض والموت حتى لاتعرف الحقائق دفعة واحدة بل تتلمسها شيئا فشيئا بالتعلم والدرس والرياضة والعبادة ، فالعجائب أشبه بمادّة والحياة فى حويصلات النبات وخلاياه وحوادث الدهر أشبه بما يغلفها من مادة السيليلوز الحافظة للخلية الواحدة ، ومن الخلايا كان كل حيوان وكل نبات ، فهذا هو السبب فى عدم ظهور حب أكثر النوع الانسانى لصانع هذا العالم الحكيم العليم . فقال : الحمد لله الذى بنعمته تتمّ الصالحات . والى هنا تمّ الكلام على اللطيفة الأولى .
كتب يوم الخميس ١٠ رمضان سنة ١٣٤٩ هجرية ، و ٢٩ يناير سنة ١٩٣١ م

اللطيفة الثانية

فى قوله تعالى ـ وهو الذى ينزّل الغيث ـ الخ

جاء فى جريدة الاهرام فى يوم ٦ يناير سنة ١٩٣١ ما يأتى :

أشجار يرجع تاريخها الى قبل ١٥ مليون سنة

« اكتشف فى غربى كندا بقايا أشجار يظنّ انها مما نبت فى أمريكا الشمالية قبل خمسة عشر مليون سنة وقد أحدث اكتشافها ضجة فى المقامات الجيولوجية لأنه يعبث بالنظريات الحالية فيما يتعلق بالأزمنة السابقة

للازمنة

للأزمنة المعروفة فى التاريخ . وهى قد اكتشفت فى السنة الماضية فى بطن الرمال بجهة (فورد مكموراى) فأرسلت الى علماء الجيولوجيا الذين فى خدمة الحكومة . وهم بعد بحث طويل دقيق يقولون الآن : «إن وجودها يعبث بالنظريات المشار اليها» . ويؤخذ من التقارير الأولى انها نبتت ونمت على مايظهر فى العهد الذى كانت فيه طبقة سطح الأرض فى دور التكوين . ويقول الدكتور (بيلاى) وهو عالم كبير معروف : «إن هذه الأشجار هى من نوع الأشجار التى كانت تنمو فى أرض اليابان» وهذا القول يعزز نظرية القائلين ان شمالى أمريكا وآسيا كانا فى غابر الأزمنة قارة واحدة ، وسيقوم العلماء بمباحث جديدة فى المكان الذى اكتشفت فيه بقايا تلك الأشجار» انتهت اللطيفة الثانية

اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى : ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام ان يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور

اعلم أيدك الله بالعلم أن هذه العوالم كلها آيات الله ، ولكن ليس يدرك ذلك إلا أناس امتازوا بأمرين : الصبر والشكر ، والصبر أقسام كثيرة ، صبر على البأساء وهو الفقر ، وعلى الضراء وهو المرض ، وعلى البأس وهو الحرب ، وعلى طلب العلم ، وعلى القناعة والاكتفاء باليسير ، وعلى الصدق فى القول والعمل والعبادة ، وجميع أنواع الطاعات ، وهذا الصبر يتحد مع الشكر فى كثير من مواطنه ، والشكر لايتم إلا بمعرفة النعم ، ولاتعرف النعم إلا بالدراسة ، وكيف تتم الدراسة إلا بالصبر عليها ، فهنا صبر وهنا شكر اتحدا عملا واختلفا تسمية ، فقل لى رعاك الله ، أيعرف نعمة الرياح المجريات للسفن وللسحاب كل انسان وكل حيوان . كلا . فان كل ذى عينين يدرك الحقائق ، وكيف يدرك الانسان الحقائق إلا بالفهم والعمل ، فهاك مسألة جرى الرياح هل تعرف إلا بالصبر عليها ، ومن ذا يصبر إلا القليل من الناس ! هذا بعض السر فى قوله تعالى — لكل صبار شكور —

فانظر رعاك الله الى الهواء الجوّى ، ينظر الجاهل الهواء الجوّى فيراه يهب تارة ويسكن أخرى فلايدرى من أين جاء ، ولكن اذا درس وصبر على الدرس علم أن أسباب الرياح كلها ترجع الى ﴿سببين اثنين﴾ كما قال تعالى — ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ☆ ففروا الى الله —

خيالى يوم الأحد ٢٨ ابريل سنة ١٩٢٩ م

كأنى أسمع رب العزة لما خلق الهواء واليابسة والماء يقول : «أيتها اليابسة ، ويا أيها الماء ، اسمعاء هاأنا ذا أريد أن أخلق نباتا وحيوانا وانسانا ، وهؤلاء لاحياة لهم إلا بسحب ماطرات ، والسحب الماطرات لابد لها من رياح ، والرياح لاتتم إلا بأمرين : حرارة وبرودة . هذان زوجان جعلتهما سبب الرياح والرياح تحمل السحب وتسير السفن . فقالت اليابسة والماء : نحن لك يارب مطيعون . فقال : أما أنت أيها الماء فعليك أن تكون بطىء الحرارة بطىء البرودة . وأما أنت أيتها اليابسة فعليك أن تكونى سريعة البرودة سريعة الحرارة ، ومتى تم ذلك حصل فى الهواء اختلاف كثير فهبت الرياح ، وهنالك يدور الهواء عليكما كما يدور الدولاب وكما تدور السواقى وكما تدور الطواحين ، إن الساقية تدور بحيل صنعها عبادى :

(١) فيدور الثور ، وبدورانه فى مدار الساقية

(٢) يدور (النير) الذى فوق رقبته

(٣) والنير يجر الحبل

(٤) والحبل يجرّ خشبة أخرى متصلة بعمود خشبي

(٥) والعمود الخشبي يدير آلة خشبية مدوّرة كبيرة لها أضراس أفقية الوضع

(٦) وهذه الأضراس تدير آلة مدوّرة أصغر منها رأسية الوضع

(٧) وهذه تدير عمودا أفقي الوضع

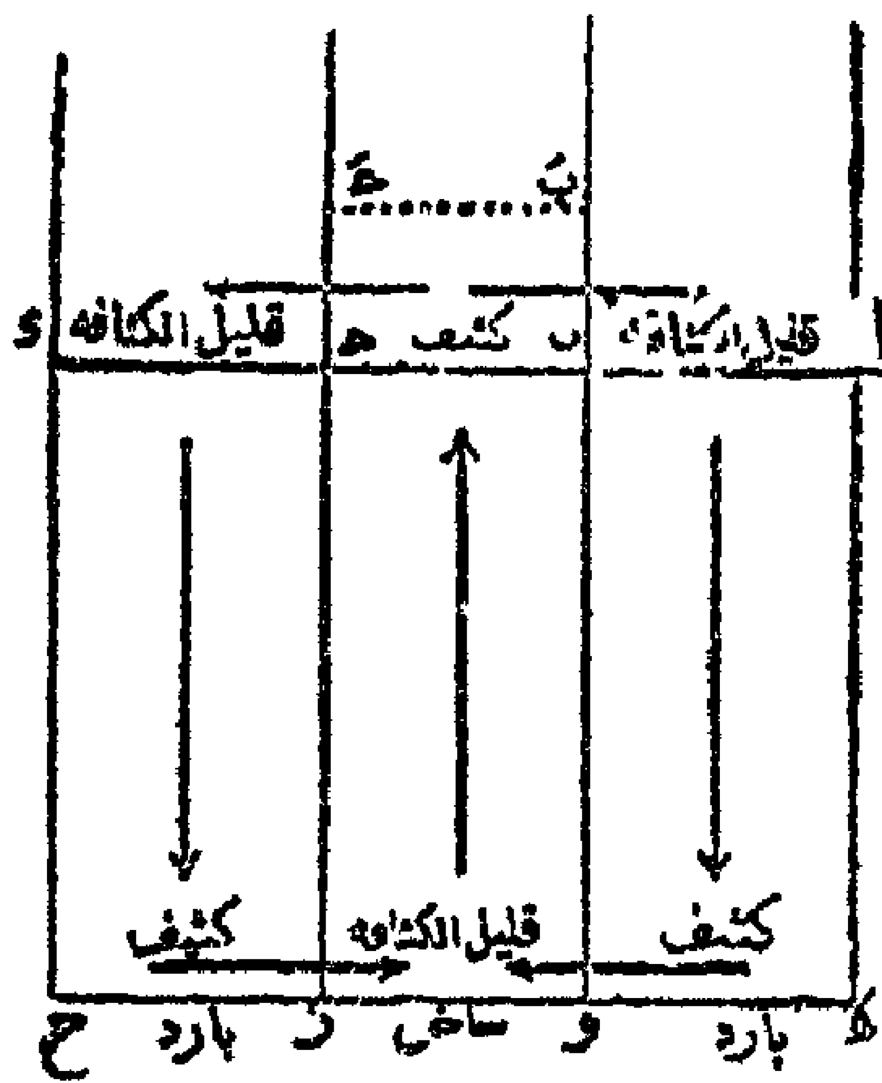
(٨) وهذا العمود يدير دائرة خشبية عليها قواديس رأسية الوضع

(٩) وهذه القواديس تملأ ماء عند نزولها وتفرغه عند طلوعها ، وهناك تسقى الزرع

هـذه حيل العباد فى اخراج الماء ، أما حكمتى أنا فى الهواء فانى حركته فوق الكرة الأرضية وجعلته رياحا بالحرارة والبرودة ، انى لوجعلتك أيها الماء وأيتها اليابسة بطبيعة واحدة فى الحرارة والبرودة لم تكن رياح فلا يكون لى خلق ، لذلك أمرتكما أن تكونا مختلفين حرارة وبرودة ، وباختلافكما كانت هذه النعم وهذه المخلوقات ، إن اختلافكما نعمة ، بل هى أصل النعم فى الأرض » وهاك إيضاح هذا المقام بالرسم من كتاب « الجغرافيا الرشيدة » فقد جاء فيه ما يأتى :

تأثير الحرارة فى الضغط الجوى

أوّل أسباب اختلاف الضغط الجوى توزيع الحرارة على وجه الأرض بدرجات متفاوتة ، ففى شكل (١) مسطح وجه الأرض (هوزح) مقسم الى ثلاث مناطق (هو) و (وز) و (زح) ونظرا لسقوط الأشعة العمودية فى المنطقة (وز) تشتد عليها الحرارة فيسخن الهواء الذى فوقها ويتمدد ويصعد فى اتجاه السهم الى الطبقات العاليـة من الهواء وهى التى فوق الخط الوهمى (ابجد) وبارتفاع هذا الهواء يضغط على الطبقات الفوقية المحصورة بين المستويين (بج) و (بَ جَ)



(شكل ١)
نظرية هبوب الرياح

فتصبح كثيفة ويشتد ضغطها على الأهوية المجاورة لها فوق (اب) و (ج د) لأن هذه الطبقات مازالت قليلة الكثافة ، ويترتب على ذلك هبوب تيارات هوائية فوقيـة الى الجانبين فى اتجاه السهمين المرسومين فى أعلى الشكل

وفى أثناء ذلك يتخلخل الهواء فوق (وز) وتقل كثافته ، على حين أن الهواء لايزال على جانبيه فى (ه و) و (زح) كثيفا فيترتب على ذلك هبوب تيارات هوائية سطحية فى اتجاه السهمين فى أسفل الشكل وباستمرار هبوب هـذين التيارين واستمرار تسخين الهواء فوق منطقة (وز) يستمر طلوع الهواء وهبوب التيارات الفوقية تجاه (اب) و (ج د) ، ويؤول أمر هـذا الهواء الى السقوط فى اتجاه السهمين الجانبيين على (ه و) و (زح) ليسد النقص الحادث من انتقال التيارات السطحية

وهاك توضيحا آخر لهذه المسألة بعينها : كما تراه فى شكل (٢) الآتى فى الصحيفة التالية ففيه رقعة من سطح الأرض (ه و زح) مقسمة الى ثلاث مناطق (ه و) و (وز) و (زح) والمنطقة (وز) مشغولة باليابس ، والمنطقتان (ه و) و (زح) مشغولتان بالماء

ونظرا لاقبال فصل البرد قد برد اليابس قبل الماء فبرد الهواء فوق (وز) وتقلص وتكاثف وهبط

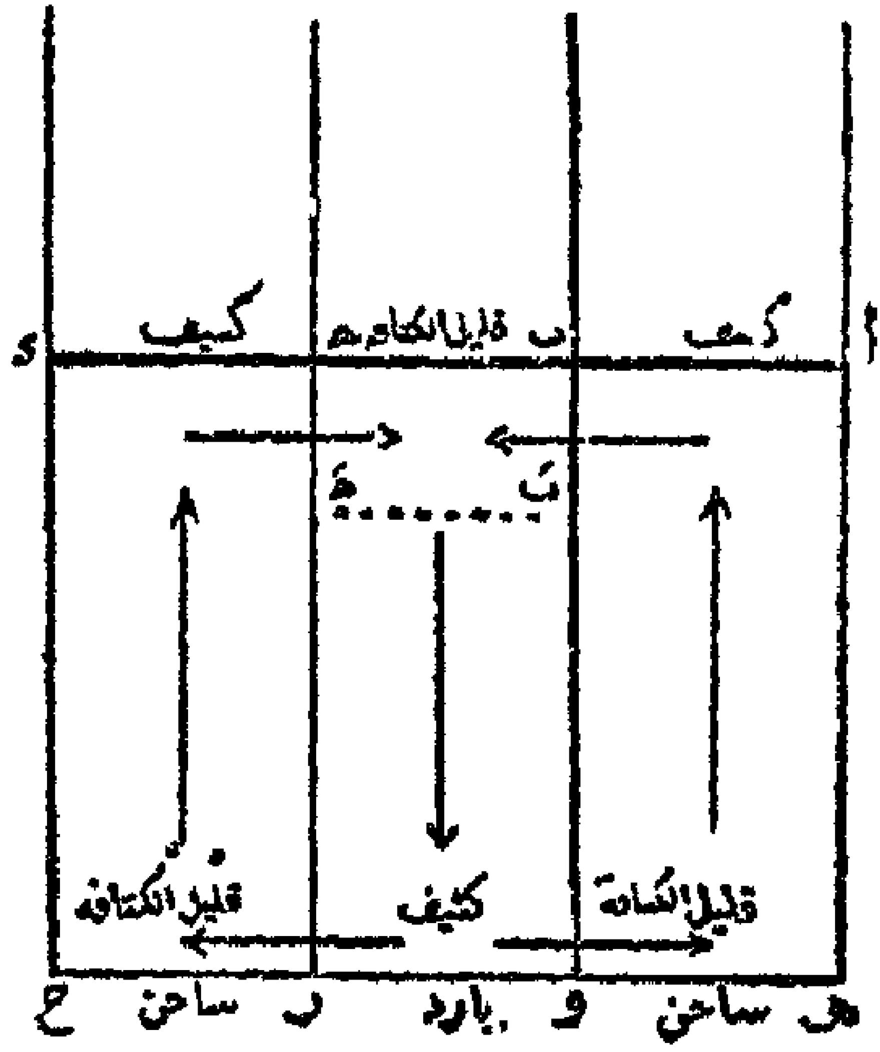
سطحه

سطحه من (ب ج) الى (بَ جَ) على حين أن الهواء لايزال فوق (هـ و) و (ز ح) عاليا كما كان ، فيترتب على ذلك تياران فوقيان فى اتجاه السهمين المرسومين فى أعلى الشكل

وفى أثناء ذلك يزيد الضغط عند (و ز) ويخف عند كل من (هـ و) و (ز ح) فينشأ عن ذلك تياران سطحيان فى اتجاه السهمين المرسومين فى أسفل الشكل (انظر شكل ٢)

فيتضح من المثالين السابقين أن التيارات الهوائية السطحية تنتقل من الجهات الشديدة البرودة الى جميع الجهات المجاورة ، وهذه التيارات السطحية هى التى تؤثر تأثيرا مباشرا فى المناخ وهى التى نخصها بالكلام فيما يلى

وينتج من ذلك نظريا انتقال الرياح من الجهات القطبية الى خط الاستواء ، فيكون اتجاهها من الشمال الى الجنوب فى نصف الكرة الشمالى ، ومن الجنوب الى الشمال فى نصف الكرة الجنوبى



(شكل ٢ نظرية هبوب الرياح)

نسيم البحر ونسيم البر

كأن الله يقول : « أيتها الأرض . اذا طلعت الشمس عليك فلتسرعى بقبول الحرارة ، وأنت أيها الماء عليك أن تكون بطىء الحرارة ، فاذا فعلتما ذلك فان الهواء الذى يكون فوقك أيتها الأرض يكون أسرع سخونة بمجاورتك ، ومتى أسرع اسخانه خفّ وعلا ، ومتى خفّ وعلا أسرع الهواء الذى فوق الماء لجرى فوقك لأن الأثقل يحل محلّ الأخف ، فاذا جاء الليل فلتكونى أيتها الأرض سريعة البرودة ، ولتكن أنت أيها الماء بطىء البرودة فتكون الحرارة فوقك أكثر منها فوقها واذن يجرى الهواء من فوق اليابسة اليك كما كان يجرى منك اليها نهارا ، فهذا هو المسمى نسيم البحر ونسيم البر ، فان النسيم يهبّ من البحر الى البرّ نهارا ومن البرّ الى البحر ليلا ، ولذلك يخرج الصيادون فى القوارب وقت الفجر مع نسيم البرّ وفى الضحى يعودون مع نسيم البحر الى الساحل ومعهم السمك ، فهذان النسيمان يلطفان مناخ السواحل ، ومثلهما :

الرياح الموسمية

وكما يخيل لى خطاب الله للبرّ والبحر يخيل لى خطابه للقارّات والمحيطات ، فالقارّة بدل البرّ والمحيط بدل البحر ، والصيف كالنهار والشتاء كالليل ، فمثلا تشتدّ الحرارة على جبال آسيا الوسطى مثل جبال (هملايا) فتقل كثافة الهواء فوقها ، ولكن المحيط الهندى لا يكون مثلها ، فتهبّ الرياح من المحيط المذكور الى آسيا كل ذلك فى زمن الصيف ، وهذه تسمى الرياح الموسمية ، و بسببها يكون الرى والخصب فى سهول الهندستان وهذه يعيش نصف سكان الأرض فى الهند والصين واليابان ، وذلك بفضل غزارة الأمطار وتولد الأنهار العظيمة ذات الفيضان السنوى ، وتكون هناك سهول (غرينية) خصبة تتوافر فيها المواصلات والرىّ وأسباب العيش والرفاهية ، وهكذا يحصل فى بلاد الحبشة بالرياح الموسمية أيضا إذ ينشأ بسببها فى أوّل الصيف فيضان النيل وهكذا ساحل (ناتال) فى شرقى افريقية ، وساحل الولايات المتحدة الجنوبى الشرقى إذ تسقط عليهما أمطار صيفية بمثل هذه الرياح وهكذا الساحل الشرقى لاستراليا ، فاذا جاء الشتاء تنعكس الحال فتبرد هضبات اليابس ويظلّ البحر دافئا ، فتنشأ رياح تنتقل من البرّ الى البحر وهى جافة لصدورها من الجاف وهو البرّ فاعجب أيها الذكىّ لأمرين اثنين : حرارة وبرودة نشأ عنهما سعادة سائر الناس والحيوان على الأرض

فهذا الهواء فعل الله به مافعلناه نحن فى النواعير والسواقى وآلاتنا ، ولكن هو أدار الهواء بأمرين اثنين : حرارة وبرودة ، وجعل الأمر عدلا ، نسيم من البرّ الى البحر وبالعكس ورياح موسمية بحيث يكون مداها ستة أشهر ، فههنا ليل ونهار لنسيم البر ونسيم البحر . وههنا صيف وشتاء للرياح الموسمية . وههنا عاشت الأمم بهذه الرياح . وهذه الرياح مبناها الحرارة والبرودة

التيارات البحرية

وقبل الدخول فى الكلام على تلك التيارات وخطاب الله عزّوجل لها أقدّم مقدّمة من كتاب الجغرافيا الرشيدة يتضح بها المقام وهاك بيانها :

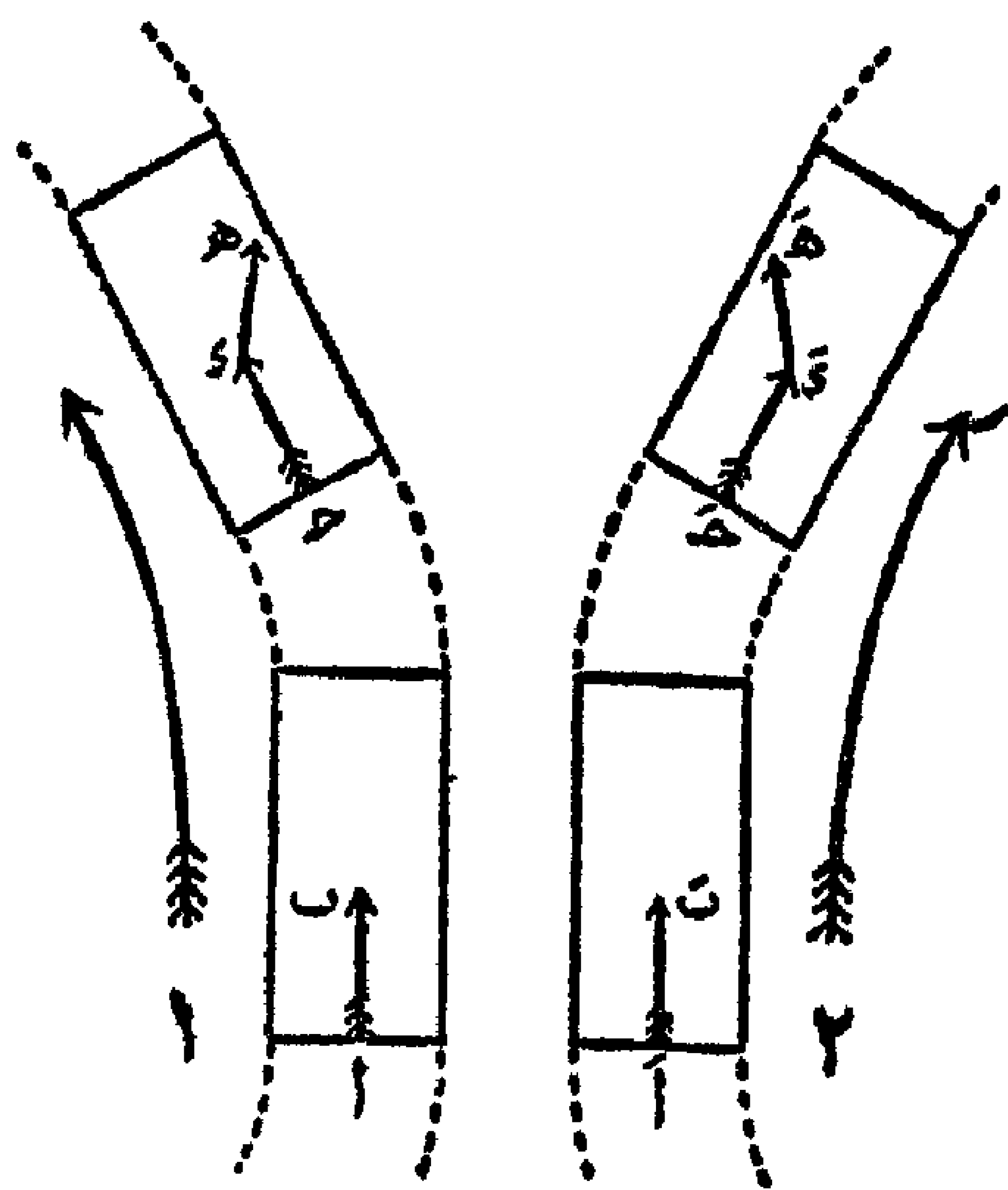
تأثير دورة الأرض على محورها

تنحرف الرياح فى أثناء حركة الأرض على محورها عن اتجاهها الأصلى ، ولتوضيح ذلك نضرب المثل الآتى: فى شكل (٣) (*) ت

راكب ترام ينظر الى التمثال ت أمام الترام وينتقل متجها نحوه فى العربة فى الاتجاه اب ثم ينعطف الترام يسارا كما هو موضح فى القسم الأوّل من الرسم (١) فاذا كان الراكب مصمما على السير تجاه التمثال فانه ينحرف نحو اليمين ويكون جملة سيره فى اتجاه السهمين (جـ د) و (د هـ).

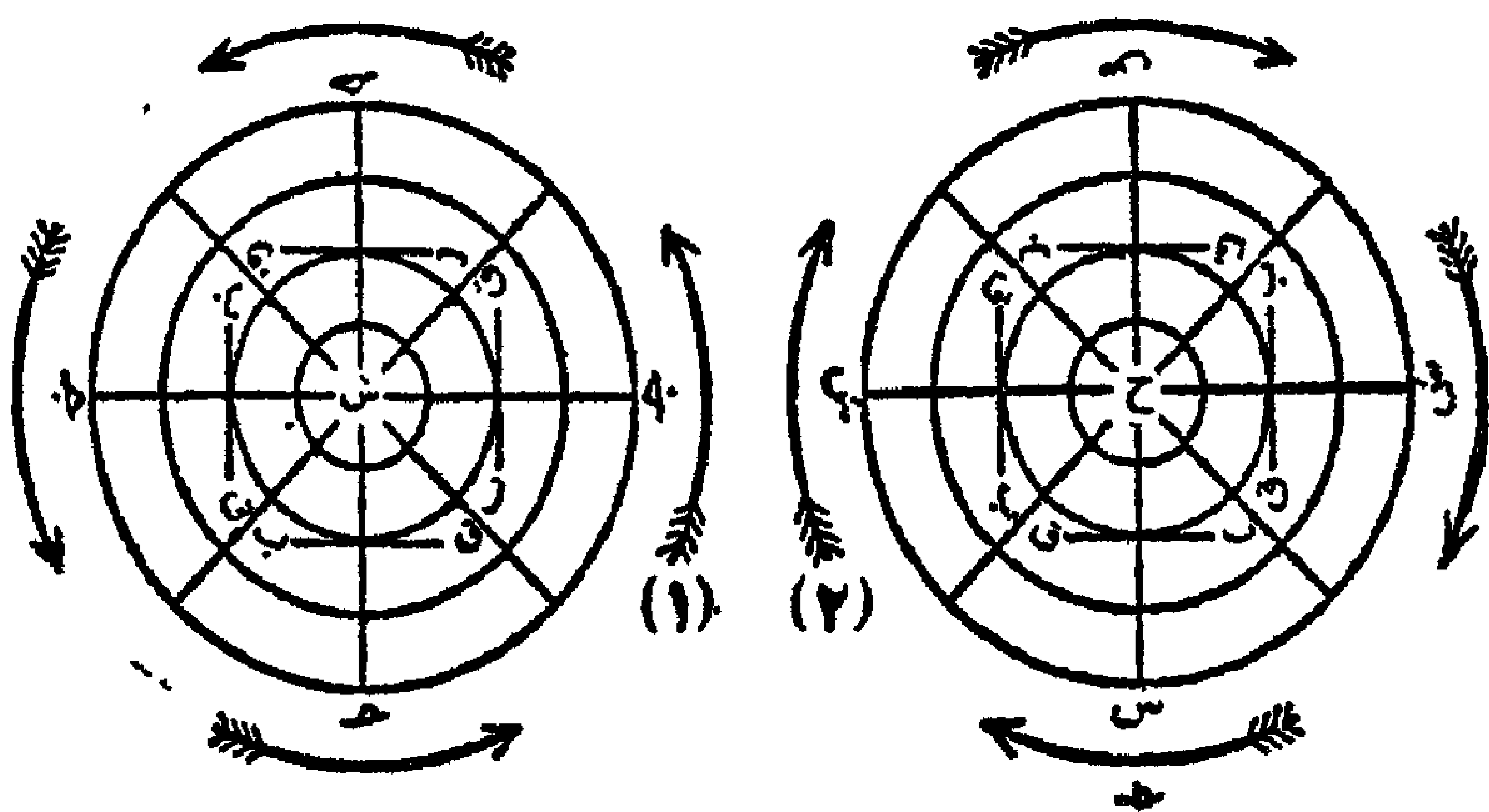
وبالعكس من ذلك اذا انعطف الترام يمينا كما هو موضح فى القسم (٢) من الرسم فان مجموع سيره نحو التمثال يكون فى اتجاه السهمين (جـ د) و (د هـ)

ففى كلتا الحالين يحدث انحراف بعكس انعطاف الترام



(شكل ٣) انعطاف مركبة الترام فى طريق منحن

وكذلك الحال على الأرض : اذ تنحرف الرياح بسبب الدورة اليومية : ففى شكل ٤ شطران : يمثل الأوّل منهما نصف الكرة الشمالى ، ويمثل الثانى النصف الجنوبى .



(شكل ٤ دورة الأرض على محورها)

(١) ففى مركز الدائرة فى الشطر الأوّل القطب الشمالى ، وكل اتجاه يبعدنا عنه جنوب وبتعيين الشمال والجنوب يكون الشرق إلى اليمين والغرب إلى اليسار ، وبذلك تكون دورة الأرض فى اتجاه الأسهم

المحيطة

المحيطة بالدائرة

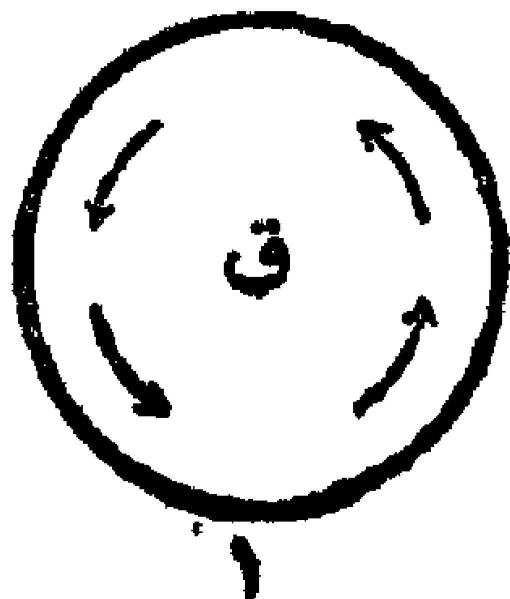
(٢) وفى مركز الدائرة فى الشطر الثانى القطب الجنوبى ، وكل اتجاه يبعدنا عنه شمال . وبذلك تكون دورة الأرض فى اتجاه الأسهم المحيطة بالدائرة .

فاذا وازنت بين شكلى (٣ و ٤) تعرف أن الرياح تنحرف الى اليمين فى نصف الكرة الشمالى ، وتنحرف الى اليسار فى نصف الكرة الجنوبى : وتسمى هذه القاعدة « قانون فرل » وبمقتضاها تصبح الرياح الشمالية فى نصف الكرة الشمالى رياحا شمالية شرقية ، وتصبح الرياح الجنوبية فى نصف الكرة الجنوبى جنوبية شرقية

مناطق الضغط العظيم خلف المدارين

فى الشطر الأول من شكل (٥) وعاء فيه ماء ، فاذا دار الماء فى الوعاء حول القلب (ق) باستمرار، لايلبث أن يهبط سطحه فى الوسط ويرتفع عند الحافة ، فيكون سطح الماء كما ترى فى الشطر الثانى من الشكل عند (ا ق ب)





(شكل ٥ دوران الماء فى الوعاء)

وكذلك حال الهواء على وجه الأرض : اذ تزيحه دورة الأرض على محورها بعيدا عن القطب ، وتعمل على تكثيفه عند خط الاستواء . ولولا الحرارة عند خط الاستواء لأصبح الهواء عنده كثيفا جدا ، وبالعكس من ذلك مخلخلا عند القطبين بسبب دورة الأرض على محورها

لكن هنا عاملان متعاكسان : فالحرارة تعمل على ابعاد منطقة الضغط العظيم عن خط الاستواء ، ودورة الأرض على محورها تعمل على ابعادها عن القطب . ونتيجة منافسة هذين العاملين وجود منطقتى الضغط العظيم حوالى خط عرض ٣٠° شمالا و ٣٠° جنوبا

اما خطا عرض ٦٠° شمالا و ٦٠° جنوبا فيكون الهواء عندهما قليل الكثافة بسبب فعل الدوران فى ابعاد الهواء عن القطبين

الرياح الدورية على وجه الأرض

ينتج مما تقدم ما تراه فى (شكل ٦)

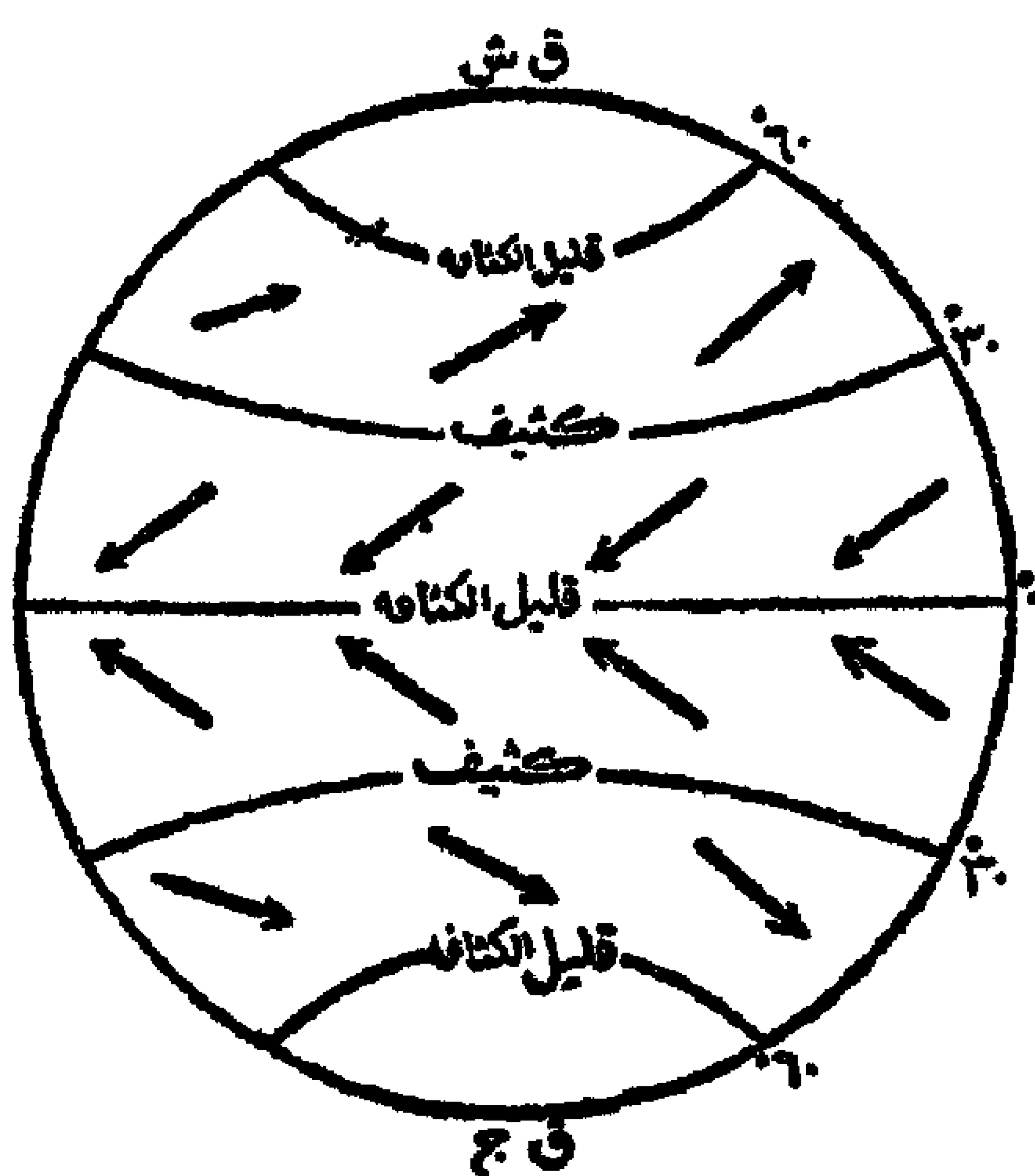
فعند خطى العرض ٣٠° شمالا و ٣٠° جنوبا تزيد كثافة الهواء فتهب الرياح منهما الى خط الاستواء ، وتسمى بالرياح التجارية

وتهب من كل منهما إلى خط عرض ٦٠° الرياح العكسية

وتنحرف الرياح التجارية نحو الغرب بسبب دورة الأرض على محورها وبذلك يكون انحرافها الى اليمين فى نصف الكرة الشمالى والى اليسار فى النصف الجنوبى

وتنحرف العكسية نحو الشرق أيضا لهذا السبب

فتهب الرياح التجارية من الشمال الشرقى



(شكل ٦)
الرياح التجارية والرياح العكسية
مناطق هبوبها واتجاهها

فى نصف الكرة الشمالى ، ومن الجنوب الشرقى فى النصف الجنوبى ، وتهب الرياح العكسية من الجنوب الغربى فى نصف الكرة الشمالى ، ومن الشمال الغربى فى النصف الجنوبى . وحول كل من القطبين منطقة ساكنة

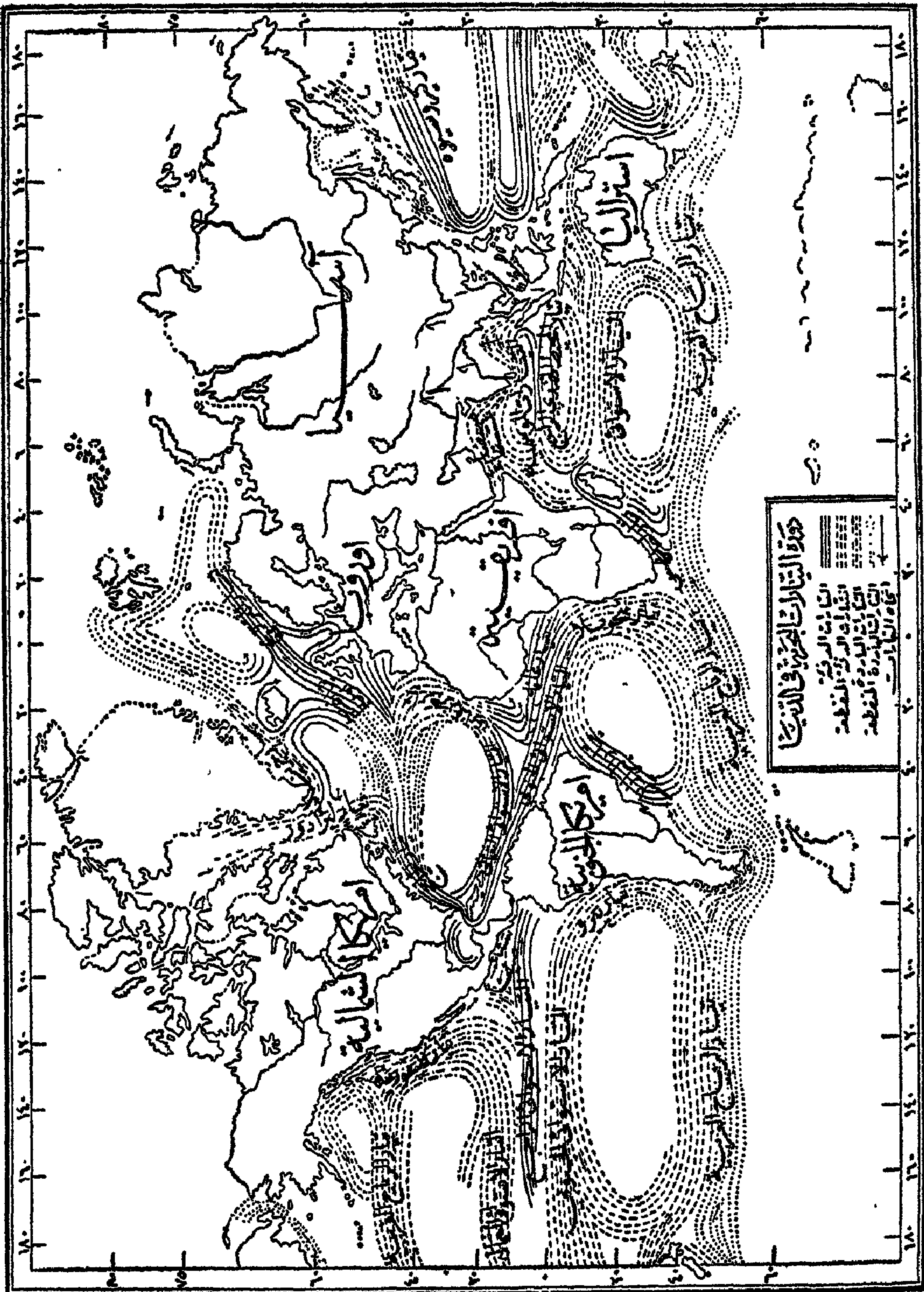
وعند خط الاستواء منطقة سكون يرتفع عندها الهواء بفعل الحرارة الى الطبقات العليا من الجو ، وعند خطى عرض ٣٠° شمالا و ٣٠° جنوبا منطقتان من السكون تسقط عندهما الأهوية من الطبقات العليا انتهى ماأردته من كتاب الجغرافية الرشيدة

تلخيص ماتقدم

ههنا آن أن أذكر مايخيل لى من خطاب الله عزّ وجل للماء كأنه عزّ وجل يقول : « أيتها المياه ، اسمعى ، هاأناذا جعلت الحرارة من الشمس الساقطة على الأرض سببا فى إثارة الهواء ، فباختلاف قبول اليابسة والماء لها أدرت الرياح فكانت نسمات البرّ وكانت نسمات البحر ، فاذا كان الليل هبت النسمات من البرّ الى البحر لأن جوّ اليابسة يكون أبرد وجوّ البحر يكون أقل برودة ، فتجرى الرياح من البارد المتقلص وهو البرّ الى الحارّ المتمدّد وهو البحر ، فاذا كان النهار قلبت الوضع وأجريت الرياح من البحر الذى لم تسرع الحرارة فيه الى البر الذى أسرعت فيه الحرارة ، فهما متعادلان نسيم من البرّ الى البحر ونسيم من البحر الى البر ومثله الرياح الموسمية ، ثم انى أدرت الكرة الأرضية على محورها من الغرب الى الشرق والمحور متجه من الجنوب الى الشمال ، و بسبب هذا الدوران يفرّ الهواء من القطبين الى ناحية خط الاستواء لكن خط الاستواء يطرد الهواء بحرارته ، فلا محيص للهواء إلا أن يلتجئ الى نقطة معينة وهى هنا درجة (٣٠) شمالا ودرجة ثلاثين جنوبا ، وهناك منطقة سكون تتجه منها ريحان : ريح تتجه الى جهة خط الاستواء راجعة وهى المسماة تجارية ، وأخرى تتجه الى ناحية القطبين وتسمى ضدية أو عكسية ، ولابد من انحراف كل من الرياح التجارية والرياح العكسية أو الضدية لأجل تأثير دوران الأرض (انظر شكل ٧ فى صحيفة ٦١)

فههنا يقول الله للرياح التجارية : « أيتها الرياح التجارية الجارية فى المحيط الأطلسى عليك أن تحركى تيارين : أحدهما فى جنوب خط الاستواء ، وثانيهما فى شمال خط الاستواء ، يتجهان معا من سواحل افريقيا الى سواحل أمريكا ، فأما التيار الاستوائى الجنوبى فعلى بلاد البرازيل أن تصدّه ومتى صدّته ينعطف محاذيا للساحل الشرقى لأمريكا الجنوبية . وأنت أيتها الرياح العكسية أرجعيه ثانيا الى مقرّه الأوّل فيرجع الى سواحل افريقية ثانيا ، ويتم دورته حول منطقة ساكنة ، وهكذا ليفعل التيار الاستوائى الشمالى ، فليتوجه من سواحل افريقيا الى خليج المكسيك ، وليسر محاذيا للساحل الشرقى لأمريكا الشمالية ، وأنت أيتها الرياح العكسية وجهيه الى خليج المكسيك (يسمى تيار الخليج) وهناك يجب أن يقطع قطعتين فيكون هناك تيار أوروبا الغربية وتيار آخر للنرويج ، وهكذا ليكن ذلك فى المحيط الهادى ، فلتحرك الرياح التجارية تيارين على جانبى خط الاستواء كهذين ، فأما التيار الاستوائى الذى جهة الجنوب فعليه أن يتوجه من سواحل أمريكا الى سواحل استراليا ، وأنت أيتها الرياح العكسية ردّيه ثانيا الى أمريكا ، وأما التيار الاستوائى الذى جهة الشمال فعليه أن يتجه من أمريكا أيضا الى ساحل آسيا عند اليابان وهو التيار الاسود (كوروسيوه) بالرياح التجارية ، وعليك أيتها الرياح العكسية أن تردّيه الى أمريكا ثانيا ، وهكذا لتفعل الرياح التجارية والرياح العكسية حول استراليا فى المحيط الهندى ، فلتحركى أيتها الرياح التجارية تيارا واحدا جنوبى خط الاستواء فقط لأن نصف الكرة الشمالى مشغول بقارة آسيا ، وليسر التيار من ساحل استراليا الى سواحل افريقيا ، وعلى الرياح العكسية أن تردّه الى استراليا ثانيا »

هذا هو الخطاب الإلهى الذى يخيل الىّ كأنه حقيقة ، وكأن الله عزّ وجل يقول فى منافع هذه التيارات



(شكل ٧)

فياتيارالخليج ، و ياتيارالبرازيل فى المحيط الأطلسى ، وياتيار (كوروسيوه) ، وياتيارشرقى استراليا فى المحيط الهادى ، وياتيارموزنبيق فى شرق افريقيا فى المحيط الهندى . أنا نقلت بعضكن من الجهات الاستوائية الى العروض البعيدة عن خط الاستواء لمقصد سام وحكمة بالغة ـ وماخلقنا السموات والأرض ومابينهما لاعبين ماخلقناهما إلا بالحق ولكنّ أكثرهم لايعلمون * يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم فى أنفسهم غافلون ـ أنا نقلتك من الجهات الحارّة الى الجهات الباردة لأجل تلطيف كل مناخ تمرّين عليه ، اننى بالتيارين اللذين عند غرب أوروبا وعند النرويج أذبت مياه بحر الشمال مع ان بحر البلطيق الذى يساويه فى درجات العرض يكون جامدا خمسة أشهر فى السنة . والرياح العكسية لحرارتها أثرت فى تيارالخليج فأدفأته فوصل الى سواحل أوروبا دافئا فكان المطر الكثير والدفء العظيم

ثم كأنه عزّ وجل خاطب البحار القطبية والبحار المدارية قائلا : « انك أيتها البحار القطبية لم أسلط عليك حرا كثيرا لذلك كان ماؤك محفوظا فلم يكن منك بخار كثير بل زدتك ومددتك بكثير الثلج فزادك ماء وأما البحار المدارية فان الحرارة ترفع ماءها الى الجو بهيئة بخار . فعليك أيتها البحار الشمالية أن ترسلي تيارات مائية الى الأقطار الاستوائية لأنى عدل . فلما سمعت هذا الخطاب البحار القطبية الشمالية أرسلت من لدنها مددا وهو تيارات بحرية الى خط الاستواء

(١) مثل تيار (لبرادو) الذى يحاذى سواحل (جرينلنده) و(لبرادو) و(نيوفنلد) ثم يقابل تيار الخليج وهوداف‌ء فيتلاشى فيه

(٢) وتيار شمالى شرق اليابان الذى يحاذى شبه جزيرة (كمشتكا) وجزيرة (يسو) ومتى قابل تيار (كوروسيوه) يتلاشى فيه

(٣) وهكذا المحيط المتجمد الجنوبى أرسل تياره حول الدنيا من الغرب الى الشرق دائما سائرا مع الرياح العكسية الغربية ، ومتى قابل الأطراف الجنوبية لافريقية واستراليا وأمريكا الجنوبية يتفرع منه تيارات فى المحيط الأطلسى وفى المحيط الهندى وفى المحيط الهادى ، وهذه كلها تقابلها تيارات دافئة لتخفيها وتعدمها ، فأنت أيتها التيارات الباردة لك آثار حسنة ، فانك تؤثرين فى جهات (جويسو) فى اليابان فتكون أبرد من (جوهنشو) وفى مناخ جهات (بيرو) فى غرب أمريكا الجنوبية فان حرارتها تكون ألطف مع قربها من خط الاستواء الموجب لشدة الحرارة ، ولقد جعلتك أيتها التيارات الباردة أشبه بالفعلة والصناع إذ ينقلون التراب والحجارة من مكان الى مكان لاصلاح البقاع والبناء ونحو ذلك ، فأنت تحملين الثلج ومعه صخر ، فتى وصلت بثلجك وصخرك الى شواطئ القارّات تكون هناك مساحات واسعة مرتفعة عند سواحل (نيوفوندلاند) بالمحيط الأطلسى وعند سواحل الشمالى الشرقى لليابان ، وماهى إلا الصخور ذات الثلج الذى كان معها أصبحت هى محال لتربية السمك فيصطاده الناس عند تلك السواحل ، إذن أنت أيها التيارات الباردة تحملين برودة معك لتلطيف الحر وتصنعين صنع البنائين والفعلة ، فانك تبنين أماكن للسمك يصطاده الصيادون

خطاب الله للناس

وكأنى أسمع خطابه للناس إذ يقول : « يابنى آدم ، أين عقولكم ، وأين أحلامكم ، أليست هذه آياتى ، فمن آياتى الرياح فى البحر كالأعلام ، ولوانى أسكنت الريح بسبب اتحاد الحرارة على الماء واليابسة لم تكن رياح ولم تكن تيارات ، انظروا ياعبادى ، فمن أين تكون تيارات حارة تنفذ الى غرب أوروبا وعند الغروج فتذيب بحر الشمال لمنفعة عبادى فى أرضى ، ومن أين تكون تيارات باردة تذهب الى (بيرو) فى غرب أمريكا الجنوبية فتلطف حرارتها ، سياسة أبدعت ، وحكمة نظمت ، وآيات وعجب ! هذه عجائب صنعى ماخلقتها لكم عبثا . أنتم قلدتم الطيور فطرتم فى الجو بطياراتكم ، وقلدتم النمل فى الحرب . والاسود فى الافتراس ، تفرحون وتمرحون وتقولون قد استطينا الطيارات وقتلنا الأمم بالقذائف النارية وتظنون انكم بهذا مفلحون كلا . ثم كلا . وعزّتى وجلالى . ان هذه إلا أساليب الشياطين وأخلاق الحيوان والسباع . فاذا لم يفهم أهل الأرض حكمتى فانى سأهلكهم أجمعين أكتعين أبصعين

أيها الجهلاء . أيها الغافلون : ألم يأتكم نبأ تيارات الماء المذكورة . ألم تروها تجرى من الجهات الباردة الى الحارّة ومن الحارّة الى الباردة لاصلاح أحوال عبادى ، فهاهى ذه التيارات القطبية تجرى الى جهات الاستواء لتلطف الحرارة والتيارات الاستوائية تتجه الى الجهات الباردة فتقلل برودتها ، ألم يكن هذا درسا

لكم

لكم ، ألم يأن لكم يا أهل الشرق ويا أهل الغرب أن تكون سياستكم كسياستي ، هذه سياستي فمن الذي يقلدها ؟ أعوالم السمك أم عوالم الدواب . كلا . بل أنتم المقصودون بتقليدها ، نعم أنتم قلدتم في الامور الشهوية ، فطرتم في الجو لتغيروا على غيركم ، أولتسافروا لأغراضكم الخاصة ، ولكنكم قط لم تدركوا حكمتي ولم تقلدوني في صنعي ، أما بالحرارة واختلافها أجريت الرياح وأجريت التيارات شرقا وغربا ، هكذا فلتكن حرارة العلم متأججة في قلوب الناس شرقا وغربا ، ولتكن منها جاذبية في قلوب الأمم كلها في نظام السياسة والاتحاد كما سرت الجاذبية في التيارات وانتظمت بها تيارات تشبه الأقطاع الناقصة التي تسير فيها الكواكب في السماء فأصبحت التيارات البحرية من افريقيا الى أمريكا ومن أمريكا الى استراليا وآسيا وهكذا كلها متجهات الى تكوين قطع ناقص تشبها بنظام الكواكب في سيرها لأن كل أم يتبعها ولدها ، وكأنها أشارت أن نظام الانسان في المستقبل سيكون أشبه بنظام هذه التيارات والرياح التي يمد الحار منها البلاد الباردة والبارد منه البلاد الحارة ، ألم يأن لكم أيها الناس أن تجعلوا أممكم أمة واحدة فقويها يواسي ضعيفها وتتلطفون في الهداية والسياسة بحيث يكون المتوحشون في كنف المتعلمين من جيرانهم ، ليكن مسلمو افريقيا نورا لمتوحشيها ، وهكذا ليكن الناس بعضهم لبعض معين ومساعد كما ظهر في التيارات البحرية باردة وحارة

ومن عجب أن تكون هذه الآية في سورة الشورى ، فان لم يكن العالم كله أمة واحدة الشورى أفلا يكون المسلمون وحدهم أمة شورية ! والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الجمعة ٣ مايو سنة ١٩٣١

جوهرة في قوله تعالى : ان يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره

نظرة راكب السفينة فيما حوله من الماء والأرض

لراكب السفينة نظرات فيما حوله ، فتارة ينظر في الرياح واتجاهها واختلافها ونتائجها كما تقدم هنا ، وتارة أخرى ينظر في جوهر الماء والبحر والبر وصور المخلوقات البرية والبحرية ، فيرى أشكالا وألوانا وعجائب وهذا تقرؤه في ﴿ سورة الروم ﴾ في قوله تعالى ـ فطرة الله التي فطر الناس عليها ـ وانهم مفطورون على البحث في الأشكال والأحوال والحكم على هذه المادة بأشكالها وبيان مساحاتها ونظمها المختلفات وأن هذه العقول بقوتها العظيمة لم تحتج في مساحة محيطات الدوائر ، ولا في مساحة الدوائر ، ولا في مساحة سطح الكرة ولا في معرفة حجم الكرة إلا أن تمسح نصف القطر ، دلالة على حكمة مبدعها وقدرته وعلمه ونوره الذي ألقاه على هذه النفس فنفذت الى سويداء الأجسام فاخترقتها وحكمتها وحكمت عليها بنصف القطر وحده بحيث تربعه تارة وتكعبه أخرى وتضرب به في أعداد معلومة محفوظة ، كل ذلك تقرؤه في سورة الروم ، ولكن المقام الذي يليق أن يوضح هنا أبهج رونقا وأبهى منظرا وأشرق نورا وأليق بهذا المقام ، لأن ذلك عام في كل ذي شكل في بر أو بحر ، أما ماههنا فانه يختص بالماء والسماء

الماء والسماء

إن راكب السفينة يرى بعينيه نجوم السماء وأمواج الماء ، فهو بين نجوم وماء ، فلاجرم يجب أن يقرأ عجائبهما ، ولتعلم أن هذه العلوم مبينة بالبراهين معروفة بالقوانين فلا يصدنك عنها قول كثير من المتظاهرين بالعلم انها ظنون أو أوهام . كلا . فلا علم إلا وله براهين أقنعت أهله وكل من دخل معهم اعترف بصدق نظرياتهم فاذا قرأت ما سأقصه عليك فلا يخدعنك عنه خادع ، ولا يصدنك عنه مارق ، يقول لجهله ولحسده : ماهذه إلا ظنون ، فلتقرأ ولتدرس ولتعلم أن هذا هو الذي يطلبه الله ودينه ونبيه ﷺ

إن العلماء كما بحثوا الأشكال وعرفوا مساحتها أدركوا أيضا أبعادها ، فعرفوا أبعاد الشمس والقمر والكواكب ووصلوا الى أن عرفوا أن من أبعاد الكواكب ماوصل الى مائة مليون سنة بحيث ان نور تلك

الكواكب لم يصل بعد خروجه من كوكبه الى أرضنا إلا بعد أن قطع فى سيره مائة مليون سنة وهذا واضح فى غير هذا المكان من التفسير ، وهذه المقادير وان كانت تقريبية قام عليها البرهان أى البرهان الهندسى بحيث يستعملون فى ذلك المثلثات التى لها أحوال خاصة ، وعلم الهندسة علم يقينى ، غاية الأمر أن المقادير تزيد وتنقص على حسب آلة الرصد لاغير ، فلا يصدّنك عن ذلك قول القائل : « إن علم الفلك علم يخطئ كثيرا » فان هذا القول صادق فى علم أحكام النجوم وهو العلم الذى يخبر بالحوادث المستقبلة ، فهذا العلم يكذبه العقل ويخطئه النقل ، فأما حساب السنين والشهور وأبعاد الكواكب فذلك قامت عليه البراهين ، إذن فلأشرع فى الكلام على السماء ثم أتبعه بالكلام على الماء

الكلام عَلَى السماء

إن راكب السفينة بعد أن يدرس الرياح المتقدّمة يخطر بباله مايرى فوقه من النجوم ، وهذه النجوم قد تقدم الكلام عليها فى مواطن كثيرة ، ولكن الذى أذكره هنا هو الكلام على مدة دورانها فى الفلك كما أذكر فى الماء القوانين العلمية التى بها غاص فيه أجسام وعام على سطحه أجسام أخرى ، فان ثقل الأجسام وخفتها يؤثران فى صعودها على سطح الماء وسقوطها فى قاع البحار ، كما أن السيارات تختلف مدة دورانها حول الشمس باختلاف أبعادها وأحجامها وقوتها الطاردة والجاذبة ، وسأوضح هذا ليعجب الأذكياء من نجوم باهرات سائرات بقوانين لاتختلف على مدى الأزمان ، ومن ماء جميل يستقبل الأجسام فى أسفله تارة وفى أعلاه تارة أخرى بقوانين بحيث يخرج المطلع على هذا بعد فهم هذا الموضوع وقد تحلت نفسه بحلية العلم وابتهجت بزينة الجمال وعرفت سرا من نبأ قوله تعالى ـ ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين ـ وأدركت قبسة من نور قوله تعالى ـ والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون ـ ومن قوله أيضا ـ والسماء رفعها ووضع الميزان * ألاتطغوا فى الميزان ـ

ينظر راكب السفينة فى السماء فيجد الكواكب تنقسم قسمين : سيارات وثوابت ، فالثوابت هى كل ماتراه فى السماء من الكواكب إلا قليلا والقليل هى السيارات والسيارات تسير حول الشمس ، فمنها :

(١) عطارد يدور حول الشمس فى (٨٨) يوما تقريبا ، ويبعد عن الأرض (٥٧) مليون كيلومترا

(٢) الزهراء تبعد عن الشمس (١٠٧) مليونا كيلومترا ، وأبعادها عن الشمس تقرب من أبعاد الأرض عنها

(٣) المريخ : السيار الذى يلى الزهراء بالنسبة للشمس هو الأرض وهى معروفة فيما تقدّم فى أجزاء هذا التفسير والذى يليها هو المريخ ، و بعده المتوسط عن الشمس قدر بعد الأرض عنها مرّة ونصف مرة ومقداره (٢٢٥) مليون كيلومترا تقريبا ، والقطر الظاهرى من المريخ يساوى (٥٤ر٠) من قطر الأرض تقريبا أعنى (٦٨٠٠) كيلومترا ، وحجم المريخ (١٤٧ر٠) من حجم الأرض ، ودورته السنوية مركبة من (٦٦٩) يوما نجميا للمريخ

(٤) المشترى هو قدر حجم الأرض (١٣٠٠) مرة وقطره يساوى (١٤٠٠٠٠) كيلومترا فهو قدر خط الاستواء الأرضى (١١) مرة ، و بعده المتوسط عن الشمس يساوى (٧٧٠) كيلومتر وسنته (١٢) سنة من السنين الأرضية

(٥) زحل : البعد المتوسط لزحل عن الشمس هو قدر بعد الأرض عنها تسع مرات ونصف أعنى (١٤٠٠) كيلومتر تقريبا و يقطع الفلك فى (١٠٧٥٩) يوما أعنى (٢٩) سنة ونصف تقريبا ، وحجم زحل قدر حجم الأرض (٧١٨) مرة وقطره الاستوائى هو (٢٩٩ر٩)

(٦) أورانوس : مدة دورته حول الشمس (٨٤) سنة تقريبا أو (٣٠٦٨٧ر٧) يوما بالضبط و بعده عن الشمس (٧٠٨) مليون فرسخ ، وحجمه قدر حجم الأرض (٦٩) مرة ، وقطر كرته (٢٥ر٤) بأخذ قطر الأرض وحده

(٧) نبتون : بعده المتوسط عن الشمس (١١٠٧٠٠٠) فرسخ وهو أبعد السيارات و يتم دورته فى ١٢٥ سنة وقطره (٣ر٨٠) بالنسبة لقطر الأرض

هـذه هى السيارات المعروفة التى عرفها الانسان الآن ، اختلفت أحجامها وأبعادها وأصواؤها ومدد دورانها ، والمهم فى هذا المقام انها مع هـذا الاختلاف قد حفظت أبعادها ومدد دورانها فلم تتغير ، فلا فرق بين أرضنا و بين تلك الكواكب فى حفظ مدد دورانها

اللهم أزل العشاوة عن عقولنا ، هذه المعلومات البسيطة التى ذكرتها هنا ليست إلا شيئا يسيرا جدا مما تقدم فى مواضع فى هذا التفسير ، ذكرتها ليتفكر راكب السفينة فى عجائب الكواكب ، تلك الكواكب التى لاتخطئ فى سيرها ولاتتعدى مارسم لها من مداراتها تذكرة لقوله تعالى ــ فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أوكرها قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات فى يومين ــ فهذه سبع سيارات منظمات سوّاهنّ الله عزّوجـل ونظمهن وأحكمهن وقال لهن : « سرن أيتها السيارات فى طرقكن ولاتتعدّين مارسمته لكنّ » سارت هذه السيارات وهى طائعة مختارة ولم تخطئ فى المسير ولم تنقص فى سيرها ولم تزد ثانية واحدة وهذا هو السبب فى بقاء هذا العالم منظما آمادا وآمادا . إذن فلننظر فى

عالم الماء

هانحن أولاء نظرنا عوالم السماء فرأيناها منظمة سائرة بحكمة وعلم تامين ، فلننظر فى عوالم الماء التى تسير السفينة فوقها فهل نجد لها قوانين تشبه تلك القوانين بحيث نفهم به قول الله تعالى ــ فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أوكرها قالتا أتينا طائعين ــ

هانحن أولاء عرفنا من هذا المقام ومن غيره كيف كانت عوالم السماء قد أتت لربها طائعة ، فهل فعلت مثلها عوالم الأرض وأتت طائعة ، نحن لانعرف ذلك إلا بالدراسة فنقول :

إن فى علم الطبيعة تعرف الكثافة والوزن النوعى ، يقولون ان كثافة الجسم هى كتلة وحدة حجومه وهذه الجملة فى ظاهرها غير مفهومة ولكنها لابد من ذكرها وفهمها والسير فى هذه المباحث حتى نعرف أن عوالم الماء كعوالم السماء لها قوانين وقد أطاعت الله كما أطاعته الكواكب . وكل منهما يحتاج الى دراسة تامة . يقولون ان كتلة السنتيمتر المكعب من الحديد تساوى (٧ر٨) من الجرامات ، وكتلة السنتيمتر المكعب من الزئبق تساوى (١٣ر٦) من الجرامات ، وكتلة السنتيمتر المكعب من البلاتين تساوى (٢١ر٥) من الجرامات ، فكثافة هذه الأجسام هكذا بالترتيب (٧ر٨) و (١٣ر٦) و (٢١ر٥) من الجرامات

ومعنى هذا أن الحديد والزئبق والبلاتين اذا أخذنامنها مقادير مساوية لحجم السنتيمتر المكعب من الماء فان أوزانها تزيد عليه بهذه المقادير فيكون الحديد أثقل منه (٧ر٨) والزئبق أثقل منه (١٣ر٦) والبلاتين أثقل منه (٢١ر٥) وهذا هو الوزن النوعى ، لأن الوزن النوعى لجسم هو النسبة بين حجمين متساويين منه ، ومن الماء المقطر وهو فى درجة (٤) فوق الصفر من الميزان المئوى (سنتغراد)

وهنا لابد من ذكر قاعدة (أرشميدس) وهى كل جسم مغمور فى سائل يكون مدفوعا من أسفل الى أعلى بقوّة تساوى وزن مقدار من السائل حجمه يساوى حجم الجسم ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ « وزن السائل الذى يحل محله الجسم » و ينتج من هذه القاعدة مايأتى :

اذا طفا جسم على سطح سائل كان وزنه مساويا وزن السائل الذى يحل محله الجزء المنغمس فيه ، ولهذا السبب يطفو الرخام والحديد على سطح الزئبق ، ويمكن أن تطفو الأجسام الكثيفة جدا على سطح الماء اذا كانت مشكلة بشكل يمكن معه أن يكون وزن السائل الذى يحل محله الجزء المنغمس فيه مساويا لوزن الجسم كله ، فمثلا الكرة المعدنية الجوفاء التى حجمها (١٠٠) سنتيمترا مكعبا ووزنها (٦٠) جراما لاينغمس منها فى الماء إلامقدار يحل محل (٦٠) سنتيمترا مكعبا فقط ، وفى هذه الحالة يكون وزن الماء مساويا وزن (٦٠) جراما وهو وزن الكرة المعدنية ، والسفينة التى تزن (٥٠٠٠) طنولاته لايمكن أن تطفو فوق الماء إلااذا زاد حجمها على (٥٠٠٠) متر مكعب حتى يحل الجزء المنغمس منها محل هذا القدر من الماء ولذلك تطفو السفن التى من الحديد فوق الماء ، مع ان كثافة هذا المعدن أعظم كثيرا من كثافة الماء

ومن العجيب أن العلماء أوجدوا الوزن النوعى للأجسام بطريق الطفو ، فيضعون مثلا من البلوط متوازى مستطيل فى وعاء فيه ماء فيطفو فوق سطحه ، ويحسبون الجزء الطافى والجزء المنغمس فى الماء ويطرحون الطافى من المنغمس ، فالباقى يكون هو الوزن النوعى للبلوط وهو طبعا أخف من الماء بعكس الحديد والزئبق والبلاتين والذهب فانها أثقل من الماء

أليس هذا عجبا ! أن الماء يصبح حكما فى معرفة كثافة الأجسام (وكتلها) المندمجة فى أحجامها ، فالكتل المندمجة فى الأحجام التى تعرف بها كثافة الجسم يظهرها الماء ، فان كانت الأجسام أخف من الماء طفت ، أو أثقل انغمست ، وهنالك درجات معينات لثقل الأجسام وخفتها قد أظهرها نفس الذى جعله الله ميزانا يوزن به ثقل الأجسام وخفتها

ههنا علمت أيها الذكى لماذا ذكرنا هنا كواكب السماء ومقادير أبعادها وأحجامها وعدد حركاتها فان أجسام المعادن والخشب وغيرها ثقلت وخفت بمقادير معينة عينها الماء وأوضحها أيما إيضاح كما تعينت الأبعاد والأحجام فى السيارات ونسبنا أحجامها وسنيها الى حجم الأرض وسنيها ، والنسب الكوكبية فى السيارات لاتتغير والنسب الوزنية فى الأجسام الأرضية ووزنها النوعى لايتغير ، وهذا قوله تعالى — قالتا أتينا طائعين — فهذه هى الطاعة ، طاعة الكواكب وطاعة الأجرام الأرضية ، بل الطاعتان ترجعان لأمر واحد هو الجاذبية فالحديد ثقيل وخشب البلوط المتقدم خفيف ، فغاص الحديد فى الماء وطفا الخشب على الماء ، ذلك لأن الحديد أكثف من الخشب ، فلذلك انجذب الى الأرض على مقدار كثافته ، فكان أسرع نزولا اليها ، فقلنا هذا ثقيل ، فلكل من الخفيف والثقيل حركات تخصه نسميها ثقلا وخفة كما اختلفت حركات الكواكب بالنسبة لاختلاف أوصافها وأحوالها وأبعادها ، ولقد بنوا على قاعدة (أرشميدس) تطبيقات أخرى وهاك بيانها :

(١) منها أن انغماس السفن فى مياه البحار الملحة أقل من انغماسها فى مياه الأنهار العذبة

(٢) ومنها أن السمك يتمكن من الغوص فى الماء اذا ضغط حوصلته ويصعد فيه اذا مددها فانسعت ، فبالضغط والتمدد لحوصلة العوم فيه يضمر جسمه فيغوص فى الماء أو يكبر فيرتفع ، وهذه الحوصلة يراها الانسان وهو يأكل السمك

(٣) ومنها أن السفينة اذا مست قرار البحر أوغاصت فى رماله ، فلنجاتها وانقاذها تربط فى سفينة أخرى عائمة ثقيلة الحمل ، ثم يلقى محمولها فترتفع وترتفع معها السفينة الغائصة الغارقة

(٤) ومنها أن جثث الغرقى تطفو على سطح الماء بعد أيام لأنها تحللت مادتها فتكونت فيها غازات تصيرها أقل كثافة من الماء فتطفو عليه

***

هنالك حضر صاحبى العالم الذى اعتاد أن يسألنى فى مسائل هذا التفسير . فقال : ههنا سمعت كلمات

ربما تكون غامضة على كثير من قراء هذا التفسير ، وأنا رأيت انك تريد أن تجعله سهلا لجميع القراء ، ذكرت السفينة التى تزن (٥٠٠٠) طونولاته ، وذكرت الجرام ، وذكرت السنتيمتر المكعب ، فكل هذه ألفاظ تحتاج الى ايضاح . فقلت : اعلم أن الله عزوجل كما جعل الماء فى الأرض حياة لأجسامنا ونماء لزرعنا وأنعامنا جعله ميزانا لأعمالنا ، والموازين على قسمين : موازين طبيعية ، وموازين صناعية . فالموازين الصناعية هى التى سألتنى عنها. فأما الموازين الطبيعية فهى الوزن النوعى ، ومعنى هذا اننا نعرف تراكم المادة فى الرصاص أكثر من تراكمها فى النحاس ، ونعرف تراكمها فى النحاس أكثر منه فى الحديد وفى الحديد أكثر منه فى الخشب بموازنته بالماء ، فالماء هو الذى يحكم بينها ، ولقد وجد العلماء ما يأتى :

الاردواز : وزنه النوعى ٢ر٧ والبلاتين : وزنه النوعى ٥ر٢١ والحديد ٧ر٨٦ والخارصين ٧ر١ والذهب ١٩ر٣٢ والرخام ٨ر٢ والرصاص ١١ـ٣٧ والعاج ٩ر١ والفضة ٥ر١٠ والفلين ٢٦ر٠ والفولاذ ٩ر٧ والقصدير ٧ر٢٩ والكهرمان ١ر١ واللبخ ٥٨ر٠ والماس ٣ر٥٢ والنحاس المطروق ٨ر٩ والنيكل ٨ر٩

هـذه أشهر الموازين النوعية ، فاذا أتيت بالعاج وعينت منه حجما خاصا فانك تجد وزنه يساوى الحجم الذى يساويه من الماء مرة و ٩ من عشرة من ذلك الوزن ، واذا فعلت مثل ذلك فى الذهب رأيت كتلة الذهب أثقل من نظيرتها من الماء أى المساوية لها فى الحجم ١٩ مرة ونحو ثلث المرة وهكذا

فهذا هو الماء الذى جعل معيارا للوزن النوعى لهذه المخلوقات ، الماء معيار للوزن النوعى ، ولماذا كان كذلك ؟ ذلك لسرّ الربوبية ، سرّ خفىّ ، سرّ يجهله الناس ، الناس يركبون السفن وبهم تسير من قطر الى قطر ، ولايعرفون منها إلا انهم بها يصلون لأغراضهم ، وفاتهم أن حياتهم قصيرة ، وانهم خلقوا فى الأرض للدراسة ، وأن هـذه العقول لم توضع فى أدمغتهـم إلا للدراسة ، يركبون السفن ويغفلون عن السرّ الذى حفظها ، ويغفلون عن قول مجرى السفن فى البحر ـ ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ـ

إذن الآيات على قسمين : آيات فى نفس السفن ، وآيات فى هبوب الرياح . أما آيات الرياح فقد تقدمت قبل هذا المقام مستوفاة . أما آيات نفس السفن فهى التى نحن بصدد الكلام عليها

العقول النائمة لاتعقل أن فى السفن آيات ، ولكن العقول المفكرة تدرس السفن وتعقل الوزن النوعى لها ، وتدرس قوانين صعودها فوق سطح الماء ، وتعرف أن هذا الماء أمره عظيم . إن أمر الماء وبقاءه متناسب الأجزاء محفوظ القوام هو الذى به بقيت السفن وحفظت وجرت ، ولوأن أجزاء الماء اختلّ نظامها لغرقت السفن ، كما ان الكواكب التى تقدم وصفها لابقاء لها فى مداراتها إلا بمسك أمسكها فبقيت فى مداراتها ، إذن هنا ممسك يمسك الكواكب فى مداراتها ويمسك ذرات الماء فتبقى متلاصقة متماسكة ويمسك ذرات الحديد والنحاس والذهب فتبقى متماسكة ثابتة ، ولولا هذا الممسك لم يستقر قرار لهذه الموجودات "

سبحانك اللهم وبحمدك . أنرت السبل بالعلم . وحفظت هـذه الدنيا . وأتقنت نظامها . هذا العالم الذى نعيش فيه كله مركب من مادة فى غاية الصغر وأجزاؤها الدقيقة وهى الجواهر الفردة بينها مسافات فى غاية الصغر ويسمونها المسافات (الجزيئية) ولم ير أحد الجوهر الفرد المذكور ولم يقم دليل على وجوده ولكنهم اقتنعوا به فى تعليل الظواهر ، ولقد أظهر المنظار المعظم أن آلاف الآلاف من المخلوقات الحية تعيش فى قطرة ماء كما ذكرناه كثيرا فى هذا التفسير ، وهذا القول يدرس الآن فى مدارس الشرق والغرب فلاخلاف فيه ولامنكر له ، وهـذه الملايين من الأحياء تنمو وتتكاثر هنالك ، ولايخلو منها مستنقع ، وهى تتغذى بدقائق أصغر منها لاتكاد تدرك لصغرها ، ومع ذلك يعتبر الجوهر الفرد أصغر من هذا كله

إن العلامة الانجليزى (وليم تمسن) توصل بطريق الحساب الى ما يأتى : « اذا تصورنا قطرة ماء تمددت حتى بلغ حجمها حجم الأرض مابلغ حجم الجزىء فيها حجم رملة »

فاذا كانت هذه حال المادة من الصغر والكثرة ومسافتها الصغيرة بين تلك المواد الدقيقة فليس يحفظها متلاصقة مجتمعة إلا أمر آخر هو الذى يسمى « قوة التماسك »

يقول علماء الطبيعة : « إن كل جزءين من نوع واحد يجذب كل منهما الآخر بقوة تتغير تبعا لطبيعة مادتهما وتقوى تبعا لصغر المسافة بينهما ، وخاصة التجاذب هذه المسماة « قوة التماسك » واضحة جدا فى الأجسام الصلبة ، وأقل وضوحا فى السوائل ، ومعدومة فى الغازات . فقوة التماسك المذكورة هى القوة التى بها حفظت دقائق الماء متلاصقة بحال واحدة ، وكرات الكواكب فى السماء فى مداراتها وهو المعبر عنه بقوله تعالى ـ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده ـ

فبهذا عرفنا بعض آيات الله فى السفن الجاريات فى البحر كالأعلام ، فهى جرت فى البحر لأن ذرات الماء الدقيقة جدا ذات المسافات الصغيرة بقيت متماسكة بحال واحدة فى جميع الأزمان فعاش الناس آمنين ، يسافرون عليها ولا يخافون افتراق هذه الأجزاء فتغرق السفن لأن الله لا يخلف وعده « وعده الله لا يخلف الله وعده » فالله لا يخلف وعده فى حفظ الكواكب فى مداراتها وفى سيرها منظمة ، ولا فى انتظام أجزاء المادة وتلاصقها و بقائها محفوظة كما حفظت الكرات السماوية ، فبقى الناس آمنين على انتظام أزمانهم وساعاتهم ، وآمنين من الغرق فلا تتفرق أجزاء الماء الملتصقة ، إذن هنا قوة حافظة لهذه العوالم كلها ، وكذلك الله لا يخلف وعده فى حفظ أجزاء الحديد والنحاس والذهب والفضة والخشب ، فهو يبقيها بالقوة التى تمسكها فتبقى بوزنها النوعى ، فيعيش الناس بها بسلام مطمئنين على ذلك الوزن النوعى وهم سالمون آمنون ، كل ذلك سر قوله تعالى ـ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ـ الخ وبهذا تم الكلام على الموازين الطبيعية

أما الموازين الصناعية التى سألتنى عنها ، فاعلم أيدك الله أن الماء كما كان بثباته سببا لمعرفة الوزن النوعى للاجسام صار أيضا سببا لمعرفة الموازين الصناعية التى اصطلح عليها الناس أجيالا وأجيالا ، وذلك أن المتر وهو المقياس الفرنسى المشهور ينقسم الى مائة جزء كل جزء منها يسمى سنتيمترا ، وهذه المائة اذا ربعت تصير عشرة آلاف ، واذا كعبت تصير ألف ألف من ضرب مائة فى مائة فى مائة ، فهذا هو المليون

فاذا كان لدينا إناء طوله متر وعرضه متر وعمقه متر وملأناه ماء مقطرا درجته أربعة فوق الصفر فان هذا الاناء يكون قد حوى ألف ألف سنتيمتر مكعب ، وكل واحد منها طوله سنتيمتر وعرضه كذلك وعمقه كذلك ، وكل واحد منها سموه جراما . إذن هو يحتوى على ألف ألف جرام أو ألف كيلوجرام ، ولاجرم أن هذه تبلغ فوق (٢٢) قنطارا ، ومعلوم أن الكيلوجرام (٣٢٠) درهما و بضرب الألف فيها تبلغ (٣٢٠) ألف درهم ، والقنطار (٤٥) كيلوجراما

إذن القناطير (٢٢) قنطارا ، و يضاف اليها (١٠) كيلوجرامات ، وهذه أيضا (٨٠٠) أوقة ، وكل ٢٦ أوقة قنطار فيكون الباقى بعد (٢٢) قنطارا (٨) أوقات

إذن الطنلاته تبلغ (٢٢) و (١٠) كيلوجرامات أو (٨) أوقات . إذن الماء بثبات دقائقه وتلاصقها حفظ لنا أوزان الأجسام النوعية أى التى نسب ثقل أحجامها الى ثقل حجم الماء المساوى لها فى الحجم بحيث يكون مضاعفا له مرتين أو عشرة أو عشرين أو مساويا لبعض أجزائه كالثلث والربع كما تقدم . وحفظ لنا موازيننا المعتادة من الجرام ومضاعفاته وما يوازنه من الدراهم والأرطال والقناطير . ذلك كله يدعو اليه فهم قوله تعالى ـ ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ـ

ولقد

ولقد تبين لك من هذا المقام أن هذه المعانى لايمكن أن يعقلها إلا من يصبر عليها صبرا مستمرا . والا فكيف يتسنى للرجل الشهوانى الغرّ الجاهل أن يصبر على ماذكرناه هنا من عالم الكواكب المناسب للمقام وعالم الماء وعوالم المعادن ونحوها ، و يستمرّ فى بحثها و يصبر على دراستها ، ولاجرم انه اذا صبر هذا الصبر أصبح شاكرا لأن الشكر يرجع الى فهم النعمة ، وفهم النعمة لايعقل إلا بالصبر على دراستها وتعقلها ، وكلما كان الصبر على الدراسة أتمّ كان الشكر أوفر ، ولذلك يقول الله ـ لكل صبار شكور ـ وكلاهما صيغة مبالغة ، فمن بالغ فى الصبر كان أكثر شكرا وعلى مقدار الصبر ودراسة النعمة يكون شكرها ، وشكرها أن يحسّ الانسان فى نفسه بحب لمسدى النعمة ، و ينطق لسانه بالثناء فى المدارس والمجامع والمواعظ ، وتنطلق جوارحه بخدمة الأمم التى يعيش الشاكر فيها ، فهو كما يعشق مسدى هذه النعم ويحبه لاتقانه صنعه وابداعه يكون مصدر العلم والخيرات لعباده ، بل يكون خليفته فى الأرض ، وذلك بأن يكون مقتديا بالأنبياء سائرا على نهجهم فى الاصلاح واسعاد الناس ، وهذا الشكر هو الذى ورد وجوبه فى قوله تعالى ـ واشكروا لى ولاتكفرون ـ فعلى مقدار العلم يكون هذا الشكر

ولاجرم اننا مأمورون بازدياد الشكر و بازدياد العلم ، وهذا وجوب عينىّ على كل قادر نص عليه علماء الاصول . فقالوا : « شكر المنعم واجب » وقد علمت معناه

أما إسداء النعم للناس بهذه العلوم فهذه فروض كفايات ، والأمم الاسلامية اليوم قصرت فى ذلك كل التقصير ، فأمثال هذه الموازين النوعية الطبيعية ، والموازين الاصطلاحية لابد لها من رجال مختصين بها ويكون عددهم على حسب احتياج الأمم الاسلامية ، فلتدرس هذه العلوم جميعها ، ولتوزع على جماعات تكفى نظام الأمم الاسلامية وحياتها ، هذا تحقيق المقام والحمد لله رب العالمين ، تمّ هذا الموضوع مساء يوم الأحد ٢٦ مايو سنة ١٩٢٩ م

إيضاح بعض أسرار قوله تعالى : ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام

الى قوله : إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور

مع قوله تعالى : فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها الآية

ههنا جعل الله السفن الجاريات من آياته ، وهذه الآيات لاتظهر إلا لمن صبر وشكر ، فأما الصبر فعلى العمل والتنظيم ، وأما الشكر فلا يكون إلا بعد فهم النعم . وكيف تفهم بالا بالدراسة . ومن عجب أن آية سورة فاطر مثل هذه الآية فى ترتيب نظامها إذ يقول تعالى ـ وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ـ فالابتغاء من الفضل إنما يكون بالعمل ولاعمل إلا بصبر ، فالابتغاء هناك فى مقابلة الصبر هنا والشكر مشترك بينهما ، ولقد بينت هناك بعض تعميم السفن من حيث تسهيل النقل مع وصف البحار وأعماقها ، وذلك كله موجب للشكر ، فانك ترى هناك أن فى البحر عجائب مثل الكاشالوت ذوالأنياب المحدّدة والروكال الذى يبلغ طوله (١٢٠) قدما ، ومثل عمق البحر (٢٧٥٠) قامة مع ان النور لايبعد أكثر من (٢٠٠) قامة ، فهناك فى الظلام حيوانات تعيش بلانور خارجى ، بل ان النور يخرج منها نفسها ، فهو تحت أمر السمكة ، إذن هناك فى (٢٥٥٠) قامة فى الظلام أحياء ، ومنها ما له نور فسفورى ، وفى البحر المرجان يبنى جزائر كثيرة كما بنت الأرضة فى اليابسة مبانى عالية ، إذن الأرضة برا والمرجان بحرا فعلا ماعجز عنه الناس ، فان المرجان أحدث فى البحر آلافا من الجزائر عاش فيها الحيوان والنبات ، ومن العجائب أن قوّة الحصان تجرّ (٣٠٠٠) رطل فى البرّ بسرعة ثلاثة أقدام فى الثانية ، وعلى السكة الحديدية

(٣٠٫٠٠٠) رطل للمسافة نفسها والوقت نفسه ، وفى البحر (٢٠٠٫٠٠٠) رطل ، إذن الماء أكسبنا تسهيلا فوق السير المعتاد (٧٠) مرة ، هذه سرّ آية « وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » إذن المسلمون عليهم أن تكون لهم يد فى البحار عظيمة ، هذا ملخص ما كتبته هنالك

وأزيد هنا ماجاء فى كتاب « الجغرافيا التجارية الاقتصادية » لمؤلفه الاستاذ محمد حمدى بك ناظر مدرسة التجارة العليا ، فقد جاء فيه ما يأتى :

الانسان ومغالبة البحار والمحيطات

فى موضوع ترقى الملاحة

ملاحة الانهار . علاقتها بالسكك الحديدية والقنوات. ملاحة البحار والمحيطات . مراكب التجارة الموانىء وأنواعها وأشهر الموانىء التجارية . الموانىء المصرية تأثير القنوات الملاحية فى تجارة المحيطات . قناة السويس قناة بناما

الملاحة غريزية فى الانسان من القدم اذ كان يدفع بنفسه فى الأنهار والبحيرات لصيد الأسماك وكان ولايزال يأوى للسكنى على سطح البحيرات فى مساكن يقيمها هنالك أمانا من الأخطار التى يمكن أن تحل به من البر فكان دائما فى حاجة شديدة الى أى نوع كان من الزوارق

ولايخفى ماللانهار من الأهمية فى اجتياز الممالك الغابية أو المستنقعات كذلك لايخفى أن قواعد المدنية الأولى كانت راسخة فى وديان الأنهار العظمى وإذن كانت هذه الأنهار سبل التجارة بين أرجاء البلاد مثل مدنية المصريين القدماء على تلك السلخة الأرضية التى يغمرها النيل بخيره ومثلها بابل وآشور فى الوديان السفلى لدجلة والفرات ومما نلاحظ فى نظام تجارة مثل الممالك سابقة الذكر ان تقوم المملكة بسد حاجاتها بنفسها خصوصا فيما يتعلق بمواد الغذاء الرئيسية التى هى موضوع التجارة الدولية فى العالم فى الوقت الحاضر على منوال لم يسبق له مثيل واذا كانت قد قامت حركة تجارية بين تلك الأمم القديمة بواسطة الطرق البرية فانما كان ذلك فى أواخر أدوارها من الرقى وكانت قاصرة على المواد الصغيرة الحجم الغالية الثمن من اللذائذ لا الضروريات التى لامندوحة عنها ولم يسمع فى عهودها بالاتجار فى المواد الأولية والصناعية «بكميات طائلة» لأن طريق البر كانت تستخدم فيها الناس والدواب للنقل فكانت الأحمال على قدر طاقة هؤلاء فضلا عن أن التجارة كانت عرضة فى الزمان القديم الى سطو اللصوص وقطاع الطريق اذا انتقلت الى مسافات بعيدة برًّا أو بحرا

ولقد كان التدرج فى بعض الممالك من ملاحة الأنهار الى ملاحة البحار طبيعيا وفى أمم أخرى كانت ملاحة البحار هى الخطوة الأولى لها كما بين سكان الجزر فى المحيط الهادى أو الاسكيمو فى القطب فترقى الملاحة إذن ليس أمرا قديما فحسب بل هو أمر عام فى أنحاء الأرض ولايقع طبعا فى الأصقاع الجافة الخالية من الأنهار كما يفهم من حال العرب فى بدء مدنيتهم حتى لقد كان يكره سيدنا عمر البحر ويهابه مع أنه كان يرى فضل النقل بالماء اذ أمر بحفر خليج أمير المؤمنين بمصر ـ ولا فى الأصقاع المحوطة بالبحار الخطرة الطالقة الساحة كما فى الجنوب الغربى من افريقية

وترقى صنع الفلك يمكن تقصيه فى التاريخ ابتداء من الخشبة الطافية فالبوص المحزوم مما يتسنى له أن يحمل رجلا وحمله ثم الكتل الخشبية المفرغة فالهيكل السبتى المحوط بالجلد فالقارب المصنوع من الأخشاب المسمرة ثم الى تهيئته «بالدفة» وهكذا

والبوص

والبوص هو أشهر ماصنع منه الفلك قديما فى الممالك الخالية من الأشجار فى مثل أراضى النيل و بحيرات الجم وأول ماظهر من القوارب على شكل الاسبات الملفوفة فى الجلود كان فى نهر الفرات ثم امتد التقليد والترقى فى ذلك تدريجيا

وفى الأدوار الأولى للرقى التجارى تقتصر المملكة على استخدام أنهارها الملاحية وتكون هذه فى غاية الأهمية لأهلها ولكنهم فى أدوارهم الأخيرة يعمدون الى استعمال السكك الحديدية مع الأنهار التى ربما قد يقل استعمالها بترقى هذه السكك ولنضرب لهذه الأدوار أمثلة

ففى حوض «الأمازون» تجرى جميع المواصلات تقريبا بواسطة الأنهار والنهر الرئيسى قابل للملاحة بواسطة البواخر الضخمة المحيطية الى مسافة ٢٣٠٠ ميل لغاية بلدة «ايكويتوس» ثم مافوق هذه مسافة ٥٠٠ ميل قابل للملاحة بواسطة مراكب أقل حجما مما تسحب الواحدة أربع عشرة قدما ثم يصادف النهر شلالات كثيرة مثل «بنجودى ماتزريكى» وغيره وهى من خصائص نهيراته أيضا لاسيما فى كثير من جهاتها العالية وفى أواسطها وأحيانا فى أسفلها فتجرى الملاحة بواسطة الأنهار فى كل جهات البرازيل إلا اذا اعترضتها الشلالات فيلجئون الى نقل البضائع برا وليس بالبرازيل سكك حديدية إلا ماندر منها على الشواطىء ولقد شرعوا حديثا فى مد خط على نهر ماديرا من سان انطون على مقربة من شلالات متوالية (١)

وحوض «الكنغو» من أحسن مايمثل ارتباط التجارة النهرية بالسكك الحديدية اذا تعذر تسيارها بسبب الشلالات تدخل مراكب المحيط من المصب الى «ماتادى» ومن بعدها شلالات هى من خصائص جميع الأنهار العظيمة لافريقية حتى فى مجاريها الواطئة وهى التى كانت سببا مهما فى تباطؤ كشف أفريقية ورقى تجارتها لأنه يتعذر سلوك الأنهار الى الداخل لذلك توجد سكة حديدية طولها ٢٦٠ ميلا من ماتادى الى «ليو بولدفيل» على بركة «ستانلى» فيتجنبون بواسطتها شلالا عظيما اسمه «يلالا» وبعد ذلك يوجد نحو ١٠٠٠ ميل من النهر صالحة للملاحة لغاية شلالات «ستانلى» فتوجد سكة حديدية أخرى تبلغ ٣٠٠ ميل لتحاشى هذه الشلالات أيضا وهى من «ستانلى فيل» الى «بونثيرفيل» ثم يعقب هذه ٣٠٠ ميل من النهر قابلة للملاحة وبعدها سكة حديدية ثالثة من «نيانجوى» يصلون بها الى جزء آخر من النهر قابل للملاحة فى «لوالابا العليا» (٢)

وكذلك هو الحال فى «وادى النيل» إذ ترى مثل هذه الخصائص من عدم وصول السكة الحديدية فيه الى حد الكمال فهى تمتد فى حوضه الواطىء من البحر الأبيض المتوسط الى الشلال الأول على مدى ٧٠٠ ميل تقريبا ثم تنقطع لضيق الوادى وتبتدىء ثانية من وادى حلفا فى حوضه الأعلى الى السودان المصرى الانجليزى فيبقى النهر الوصلة بين الشلال ووادى حلفا وهكذا يجب تتبعها لدراسة سيرها مع النهر

وفى «كلومبيا» بجنوب أمريكا أمثلة كثيرة للسكك الحديدية التى وظيفتها مجرد ايصال بعض المدن الشهيرة على الأنهار بالمدن الواقعة خارجة عنها ويحسن لذلك دراسة حوض «المجدلينا»

وتزداد فوائد الأنهار بشق الترع والقنوات فى أحواضها والقنوات اما أن تشق وتكون حافظة مستوى واحدا على طول مداها فيتبع فى نظام حفرها مستوى سطح الأرض واما أن يكون من نظامها تغيير ارتفاع سطح الماء فتجهز «بالأهوسة» وقد تبنى الأهوسة كذلك على الأنهار نفسها اذا كان تيارها سريعا لاتتيسر معه الملاحة أو اذا اعترضته الشلالات فى مثل قناة «سولت سان مارى»

وبما أن مجارى الأنهار والترع تكون عادة متعرجة فقد يصيب جوانبها اتلاف اذا سارت فيها المراكب بسرعة ودفعت بالمياه يمينا وشمالا فضلا عن أن الأهوسة تكون معطلة قليلا لتوالى سير المراكب لما تقتضيه

(١و٢) يجب تتبع هذه المعلومات فى خريطة طبيعية سياسية

من الانتظار فى رفع الماء وخفضه لذلك ولأسباب أخرى كانت الملاحة بالأنهار والقنوات بطيئة غير مسعفة ولكنها مع ذلك ذات شأن فى نقل الأحمال الثقال كالفحم وغيره من المواد الضخمة نظرا لرخص الحمل على الماء فيكون ذلك أرجح أحيانا من سرعة القطارات الحديدية ولما تجمد «السين» فى سنى الحرب دأبوا على قطع الجليد منه ونسفه بالديناميت ليتسنى استخدامه مع أنه فى سنى السلم كان ملهى انزلاق

ونظام القنوات الملاحية فى وسط أوربا وغربها عجيب جدا ومفيد من الوجهة التجارية الفائدة العظمى إذ يشتبك جميع الأنهار العظمى بعضها ببعض ـ الرين والرون والألب والأودر والفيستولا والطونه والسين واللوار بقنوات فى غاية العظمة والمنفعة و بين المانيا و بلجيكا وهولانده وفرنسا قنوات ملاحية من الدرجة الأولى فى الحركة التجارية وعليها تمر المحمولات العديدة الضخمة

ولبعض الأنهار والقنوات فى شمال أمريكا أهمية عظمى فى التجارة فالمسيسبى ونهيراته عماد حركة تجارية فى طول البلاد وعرضها وقناة هادسن وايرى التى تصل نيويورك بالبحيرات العظمى ـ والبحيرات العظمى نفسها ، العليا وميشيغان وهورون وايرى وانتاريو قطب رحى الحركة التجارية فى كندا والولايات المتحدة وعامل من عوامل رقى التجارة الداخلية لتلك الجهة ولقد أقيمت الأهوسة تحاشيا لشلال سولت سان مارى وتسمى «سو» بين البحيرة العليا وهورون ومن وقت ما أخذت هذه القناة الطبيعية فى الحركة التجارية الى الآن بلغت محمولاتها من البضائع آلاف الآلاف بالنسبة لعهد بدئها ولم يمض عليها الا نصف قرن كذلك يوجد بين ميشيغان والمسيسبى قناة تجارية عظمى وتوجد أخرى بين بحيرة ايرى وأنتاريو تحاشيا لشلال نياغرا ونهر سان لورانس قابل للملاحة من بعد بحيرة انتاريو الى المصب هذا . و يوجد فى كندا قناة ملاحية أخرى من خليج جورجيا فى بحيرة هورون الى بحيرة انتاريو وستشق أخرى بين خليج جورجيا المذكور ونهر أتاوة لتقصير المسافة وعدم ضرورة مرور تجارة هاتين الجهتين فى البحيرات كما يتضح من الخريطة

هنالك يحمل قمح كندا فى المراكب التجارية من فورت وليام و بورت أرثر على البحيرة العليا ويحمل قمح الولايات من موانيه ديلوث وشيكاغو الى بافالو ثم يوزع منها ويحمل الففل من الحديد من بعض الموانى على البحيرة العليا وميشيغان الى جهة بحيرة ايرى ، والحركة التجارية فى الفحم عظيمة جدا وأكبر محمولات المراكب التجارية لهذه البحيرات تبلغ ١٣٠٠٠ طن أو أكثر من الفحم والحديد وماضخم حجمه ومراكب ظهر الحوت للقمح حمولة الواحدة ١٠٠٠٠ طن

وأنهار الملاحة العظمى هى التى يتوافر من شروطها أن تصب فى المحيطات التجارية العظمى لأن الممالك القابضة على زمام التجارة واقعة على المحيطات الأطلسى خصوصا وله ثلث الحركة الخاصة بأنهار العالم التجارية وللهادى سبعها وللهندى ثمنها والباقى للمحيط المنجمد وداخل القارات

مراكب التجارة

كانت التجارة البحرية تترقى تدريجيا متباطئا فلم تظهر مراكب التجارة فى أشكالها وأحجامها الضخمة الامن عهد ليس ببعيد فقد كانت أقصى حمولة المراكب الرومانية فى البحر الأبيض ٥٠٠ طن أو أكثر من ذلك بقليل وفى عهد الاكتشافات وعبر المحيطات بلغت حمولة بعض المراكب المستخدمة ١٠٠٠ طن وعبد كولمب الاطلنطى فى مركب حمولتها ٢٣١ طن لاغير ولما اكتشف البخار أحدث تغييرات عظيمة جدا فى حمولات المراكب فعبرت أول مركب بخارية المحيط الاطلنطى سنة ألف ١٨١٩ ثم اشتهر بعد ذلك صنع المراكب من الحديد وفى سنة ١٨٧٥ صنعت من الصلب وتفوّقت هذه الصناعة على الأولى وازداد عدد المراكب البخارية من هذا الحين حتى تساوت فى انجلترا حموله الشراعيه والبخارية بين سنة ١٨٦٥ ــ ١٨٧٠ وأخذ عدد المراكب

البحارية

البخارية من ذلك الحين يعلو عدد الشراعية ففى خلال سنة ١٨٧٠ - ١٨٧٤ زيد سنويا على الأسطول التجارى الانجليزى ٢٤٠ مركبا شراعية متوسط حمولة الواحدة ٦٥٠ طن ولكن فى خلال سنة ١٩٠٥ - ١٩٠٩ لم يزد سنويا عليه إلا ١٥٠ مركبا فقط بينما ازداد عدد المراكب البخارية سنويا من ٥٠٠ - ٦٠٠ مركب ولا يوجد الآن من المراكب الشراعية الاربع أسطول العالم

ولقد أدخل حديثا فى المراكب الشراعية الكبرى آلات بخارية بغرض اخراجها من الميناء أو تسييرها فى مناطق السكون وزاد عدد المراكب التى من هذا النوع على أنه لاتزال الحاجة الى المراكب الشراعية ماسة فى التجارة فى بعض النواحى فهى تحمل للآن غلال كليفورينا ونترات أمريكا الجنوبية ويتجر بها على ساحل الباسيفيك لأن هذا الساحل لاتوجد على مقربة منه مناجم فحم تمكن للمراكب البخارية أن ترسو عليها ولايزال جزء عظيم من التجارة بين مصر وسوريا والأناضول والبلقان تحمله المراكب الشراعية وغير هذه الجهات كثير

وكان للامبراطورية البريطانية قبل الحرب ½ من مراكب العالم البخارية وقسط كبير من هذه النسبة تابع لبريطانيا نفسها لأن بريطانيا جزيرة فى الاطلنطى كثيرة الموانىء البحرية وهى فى حد ذاتها مملكة شهيرة بالصناعة شهرة فائقة وواقعة بين أسواق أوروبا وأمريكا فهى من كل هذه الوجوه أسعد جهات العالم بصلاحية موقعها للتجارة البحرية وبريطانيا وارلندا كانتا تبنيان ثلثى مراكب العالم وكان للولايات المتحدة أكثر من ⅛ من أسطول العالم التجارى وكان لألمانيا ١/١١ منه وكلتا المملكتين تترقى فى الصناعة ترقيا سريعا ويهمها أن تملك أساطيل تجارية جرارة ومن بعدهما تأتى النرويج وكان لها تقريبا ١/٢٢ وهى نسبة عظيمة بمراعاة عدد السكان فهى ليس لها صناعات عظيمة مثل الممالك الأولى وهى جبلية قفرة ليست غنية بالمزارع الكثيرة ولا بالمعادن الوفيرة ولكن لها شاطئا كثير التعرجات تحميه على مداه جزر عدة خالية من الجليد فى فصل الشتاء بالرغم من وقوعها على خطوط عرض مرتفعة وهى غنية بالأسماك والنرويجيون مشهورون بالملاحة من بدء تاريخهم يساعدهم على ذلك فيوردانهم والطرق بين الجزر المنثورة على شاطئهم وعندهم كثير من الموانىء الطبيعية وهم دائما على أهبة أن يزجوا بأنفسهم فى البحر فلاغرابة اذا كانت مرتبتهم الرابعة فى ملاحة العالم ويأتى بعد النرويج فى حمل تجارة العالم فرنسا وايطاليا واليابان والأراضى المنحطة

وفى نحو سنة ١٨٩٠ كانت المراكب التى حمولتها أكثر من ٨٠٠٠ طن قليلة ولكن سنة ١٩١٠ كان ملك الشركات المختلفة أكثر من ٨٠ مركبا محمول الواحدة منها أكثر من ١٢٠٠٠ طن والمركب الكبيرة ذات الحمل العظيم من البضائع قد تكلف فى الصنع أقل من تكاليف مركبين محمولهما مثلها ولكن يراعى فى الأولى من حيث حجومها الضخمة عمق الموانىء المستخدمة واتساع الأهوسة

خطاب المؤلف ربه شاكرا له نعمه

قبيل صلاة الفجر يوم الخميس (١٠) رمضان سنة ١٣٤٩ هجرية ، و٥ فبراير سنة ١٩٣١ م

رباه فى العيون جمالك ، وفى القلوب حبك ، وفى السماء عظمتك ، أريتنا جمالا فى النجوم والشموس والأقمار ، وأريتنا جمالا فى الوجوه الحسان فى أرضنا ، وظهرت عظمتك فى الشموس الكبيرة ، فشمسنا أكبر من أرضنا نحو مليون وثلث مليون مرة ، ونجمة من نجوم الجوزاء بلغت فى العظم مقدار الشمس (٢٥) مليون مرة ، رباه أنت جميل ، وأنت عظيم ، رباه حرنا بين جمالك وعظمتك ، نهابك لعظمتك ، ونحبك لجمالك ، أنت جميل ، وأنت عظيم ، وصفان عجيبان : وصف الجمال ووصف العظمة ، بالجمال أسرت قلوب الحكماء فتاهت فى حبك ، وأشرقت نفوسهم اشراقا يضاهى اشراق الشموس

أرسلت ضوء شمسك على الأرض فأعان النبات فى تغذيته ، والحيوان فى هدايته لسبله ، وأرسلت الحرارة من لدنك فأثارت الرياح فجرت السفن

يارب ذاتك لانراها لأننا مخلوقون من المادة ، والمادة ماهى إلا حركات فى الأثير ظهرت لنا بهذه الأشكال فقلنا مادة وماهى إلا كلماتك ، والكلمات غير المتكلم ، وأخلاق المتكلم والمؤلف تظهر فى كلامهما ، والعالم كلماتك ، وهو تأليفك وتصنيفك ، ونحن منعنا من النظر لجمال ذاتك ، ولكنك لرحمتك لم تمنعنا من مشاهدة تأليفك وتصنيفك وصنعتك ، ومن هذه الصنعة التى فيها كمنت أسرار آثار جمالك وبهائك ، أنوار الشمس المشرقات على الأرض ، وقد صحبتها الحرارة المنبعثة على الأرض المثيرة للرياح الحاملات للسفن

كلما كان الجمال أدوم كانت نتائجه أغزر وأتم ، وكلما كان أقصر مدى وأسرع زوالا كانت نتائجه أقل عددا ، هذه المشرقات فى السماء دام جمالها فكانت نتائجها هذه المواليد من نبات وحيوان وسفن ماخرات فى البحار ، وهذه الأوانس الحسان من نوع الانسان قصر أمد الجمال فيهن إذ يصبحن عجائز اذا بقين فى هذه الحياة ، لذلك كانت نتائجهن محدودة ضئيلة بنات و بنون

إن نسبة دوام جمال النجوم والشموس المشرقات الى سرعة انقضاء جمال الغوانى الحسان كنسبة ما أنتجت الشمس على الأرض من نبات وحيوان وانسان الى من تلده المرأة من البنات والبنين ، الضوء والحرارة أرسلتهما الشمس الى الأرض وبينهما ارتباط واتصال ، وبالحرارة جرت السفن فى البحار ، فسير السفن بعض آثار الشمس الدائمة الجمال بالنسبة لجمال الفتيات ، فاذا كانت هذه الحرارة والضوء المنبعثان من ذات الجمال البديع التى استمدت جمالها من جمالك وهى الشمس قد كان من آثارها كل حيوان وكل نبات ، فهكذا نجد من آثار الحرارة الرياح الجاريات المزجيات للسفن فى المحيطات المسهلات للحمل بحسب العادة (٧٠) مرة

فهذه نعم دائمة مادام الانسان على وجه الأرض ، انه مادام الانسان فى الدنيا اليوم وغدا أمس يرى نعما مترادفة فى سير السفن فى البحار والأنهار ويكسب راحة فوق ما اعتاده سبعين ضعفا كما تقدم

بهذا يعرف الانسان نعمة ربه وبالتالى يشكره عليها ، وأول الشكر بعد المعرفة هو الحب ، تجرى السفن فى البحار فتحملنا لطلب المعاش أو العلم أو الحرب ونحن غافلون عن منبع الرحمة والجمال ، نحن فى الأرض نجد ونسعى برا وبحرا ، جارين من آسيا الى افريقيا الى أوروبا الى الشرق الى الغرب تحت رعايتك أنت ، نحن فى جوف هذه الكرات الهوائية والأرضية والمائية المغموسات فى الأثير أشبه بالجنين فى بطن أمه ، وأنت تكلؤنا فى أحشاء هذه الكرات والفلك بنا سائرات بحرا والقطرات جاريات برا والغواصات مخترقات بنا لججا والطيارات طائرات بنا فى جو السماء ما يمسكهن إلا لطفك وحنانك ورحمتك ، غرست فينا عقولا وغرائز ، وأطلقتنا فى هذه الأرض وأبحتها لنا ، وقلت لنا : إياكم أن تخرجوا من أقطارها ، إياكم أن ترتفعوا الى كوكب آخر ، الكواكب عليكم محرمة ، أنتم هنا محبوسون كما يحبس الجنين فى بطن أمه ، هو حر له أن يروح ويغدو فى بطن أمه كما يشاء ، ولكنى حظرت عليه أن يغادره إلا اذا بلغ الكتاب أجله ، فهكذا أنتم من شيب وشبان لاتفارقون هذه الأرض إلا فى أجل معلوم ، ثم قلت لنا : « أنا لم أعط لأحد فى هذا العالم حرية غيركم ، فلكل حيوان غريزته ، ولكل كوكب مداره ، ولكل نبات نظامه : أما أنتم فانى متعتكم بنعمة الحرية التى صحبت عقولكم ، فهاأنتم أولاء ياعبادى :

(١) أولا اتخذتم البوص سفنا

(٢) فالكتل الخشبية

(٣) فالهيكل المحوط بالجلد

(٤) فالقارب من الخشب

(٥) ثم ألهمتكم صنع القطار فى البرّ ، فأتمّ لكم أعمالكم التى لم تقم بها سفن البحار لاسيما اذا صدّها الشلال فى وسط الأنهار

وهكذا أخذتم تزيدون سفنكم اتساعا فبعد أن كانت تحمل (٥٠٠) طن فى زمن الرومان ازدادت فصارت تحمل (١٥) ألف طن فضوعف المحمول (٣٠) مرة وتزيد ، وذلك بما ألهمتكم أن تصنعوا السفن من الحديد والصلب وتقوّوها بآلات بخارية ، ومن فضلى عليكم أن سفنكم البخارية على قسمين : قسم منها يجرى فى خطوط معلومة يحمل ركابا و بضائع ، وقسم منها جوّال فى البحار والمحيطات لفوائد غزيرة لايلتزم خطا خاصا ، وقد أعددت أماكن من شواطئ أنهاركم و بحاركم لتكون « موانئ » ولاتصنع السفن إلا مقتضى هذه الموانئ :

(١) فأمثال موانئ (لندن) و (لفربول) و (همبرغ) و (أنفرس) و (روتردام) و (فيلادلفيا) موانئ جاءت عند مصب الأنهار ، فهى بوقوعها على البحر تصدر منها البضاعة الى الممالك الأجنبية و بوقوعها على النهر تصرف البضائع فى الداخل والعكس

(٢) وأمثال موانئ نيويورك وسان فرنسيسكو موانئ طبيعية ، وهكذا موانئ بلاد النروج ، فهذه كلها اتسع داخلها وضاق مدخلها والموانئ الطبيعية جعلتها لكم نموذجا لتتخذوا لكم نظيرها بضاعاتكم ، فكما انكم رأيتم خشبا وورقا يعوم فوق الماء فعرفتم بعقولكم أن هذا الماء يحمل السفن فصنعتموها ، هكذا هذه الموانئ الطبيعية التى صنعتها لكم فتحت لكم بابا للموانئ الصناعية فصنعتم بأنفسكم ميناء الاسكندرية وميناء دوفر ، أن الثلج يعوق سفنكم أن تدخل ميناء ريغا على البلطيق المسماة (أوست دفنسك) فى فصل الشتاء ، وهكذا فى الموانئ الواقعة على سان لورانس فى كندا (كويبك دمنتريال) فهاتان تغلقان من نصف ديسمبر الى ابريل ، فهذه كلها وان صدكم عنها الثلج شهورا فانها موانئ مشهورة ونظامها كنظام الليل والنهار ، فكما انكم بالليل نيام و بالنهار تعملون ، هكذا جعلت هذه الموانئ ذات نوبتين : نوبة للسكون ، ونوبة للعمل ، لأفتح لكم باب النظر والفكر ، ولقد ألهمتكم أن وصلتم البحر الأبيض بالأحمر بحفر قناة السويس فزادت حركة التجارة بين الشرق والغرب ، وفتحتم الطريق البحرى الغربى الى الهند بحفر قناة (بناما) ذات القناطر الست المزدوجة التى تقطعها السفن فى نحو عشر ساعات وتمرّ فيها (٤٠) مركبا فى (٢٤) ساعة وبهذه القناة سهلت تجارة بريطانيا وألمانيا وفرنسا الخ مع بعض الولايات المتحدة وكندا ومع المكسيك وجواتيمالا وزيلانده وشيلى و بيرو وهكذا ، هذه ياعبادى أعمالى ورحمتى لكم الواسعة ، ولكن ليس معنى هذا أن تعيشوا كعيش السمك فى البحر ، أوالطير فى الهواء ، أوالهوام فى التراب ، أوالأنعام فوق الأرض ، هذه كلها لاحرية عندها كحرّيتكم بدليل انها لزمت الخطط التى رسمتها أنا لها ، أما أنتم فانى منحتكم الحرّية وجعلت الأرض والأنهار والبحار مدارسكم فتعيشون الى أمد ثم تموتون ، وقد ظهرت حرّيتكم فى أعمالكم البرّية والبحرية المذكورة وبهرت ، فكما ظهرت آثار حرّيتكم فى الأعمال الحيوية فى الحياة الدنيا فلتظهر ولتبهر فيما هوأبعد مدى وأشرف منزلة من شرف نفوسكم واسعادها وترقيتها ، انى خلقت فى أرضكم فلاسفة وأوحيت الى أنبياء وقلت لهما : أفهموا عبادى أن مايفنى لاقيمة له (كما تقدم فى مقال سقراط قريبا فى آية ـ الله الذى أنزل الكتاب بالحقّ والميزان ـ الخ) لايغرّنكم ماتصنعون وماتملكون ، ألم تقرءوا الآية التى بعد هذه الآية وهى ـ فما أوتيتم من شئ فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ـ ، فهذه السفن الجاريات والمصانع والمتاجر والممالك لابقاء لها ، كلها زينة لكم وجمال ولكنها فانية كما يفنى جمال فتيانكم وفتياتكم ، إذن فليكن حرصكم على الجمال الدائم ، والجمال الدائم ملازم للحياة الدائمة التى منها استمدّت الشموس طول

بقائها واضاءت أرضكم بأنوارها ، إن جمال الانسان وكل ما أوتى من زينة الحياة الدنيا لاقيمة له بالنسبة لجمال الشموس والأقمار والكواكب ذوات الزينة الدائمة نوعا ما ، وهذه المشرقات لانسبة بينها و بين الجمال المقدس وهوجمالى ، هذه البحار ، وهذه السفن ، وهذه الممالك ، وهذه الأرضون ، وهذه الشموس المشرقات كلهن آثار من رحمتى المصحوبة بعلمى وحبى وقدرتى وجمالى ، كل ماهوجميل فهومن آثار جمالى ، سيزول العالم وترونني ، وهنالك تنسون هذا الجمال بما يسبي عقولكم ، فاستعدّوا لذلك المقام »

إن الجمال ﴿ ثلاثة أقسام ﴾ قسم أدنى وهوزينة الأرض من جمال الفتيان والفتيات وكل نبات وحيوان ومعدن ، وقسم أوسط وهوجمال النجوم والشموس ، وجمال أعلى وهوجمال ذاتى ، والأوّل جمال نارى حادّ سريع الزوال ، والثانى جمال نورى بطىء الزوال ، والثالث جمال روحى إلهى لايعتريه الزوال ، و يتبعه العشق فهونارى ونورى وروحى إلهى ، فالأوّل ما اختصّ بالوجوه الجميلة وزينة الأرض ، والثانى ماتعلق بجمال العوالم العلوية وتتبعه الفلسفة ، والثالث ماتعلق بجمال مبدع الكائنات ، والأدنى الخاص بالجمال النارى صاحبه بعد الموت فى جهنم مؤقتا أومؤبدا ، والأوسط فى الجنة والأعلى يرى ربه

هذا ماخطر لى فى معنى آية ـ ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام ـ مع الآية بعدها ـ وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ـ .كتب صباح يوم السبت ٧ فبراير سنة ١٩٣١

اللطيفة الرابعة

مباهج العلم ومناهج الحكمة

فى ملخص سورة الشورى

اللهم انك أريتنا العجب فى مباهج آياتك المصنوعة ، كما أريتنا مناهج الحكمة فى آياتك المقروءة ، هما توءمان . ورضيعا لبان ، وفرسا رهان لايفترقان

بدأت سورة الشورى بأنك

(١) أوحيت قرآنا عربيا ، وأنت عزيز حكيم .

(٢) وأنك مالك السموات والأرض . وأنت علىّ عظيم . فأنت عظيم بما خلقت . علىّ بما أنعمت . وغالب وحكيم فيما أنزلت . وهذه العوالم خاضعات لك مدبرات بعوالمك الروحية العالية وهم الملأ الأعلى بأمرك وأنت خلقت هذه العوالم على صراط مستقيم . ونظام محكم بتدبيرك كما قلت فى آخر السورة ـ صراط الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض ـ كما جاء فى أوّل السورة . هذا مافى أوّل السورة ومافى آخرها فرجع العجز الى الصدر

(٣) وشرحت فى وسط السورة نتائج السموات ونتائج الأرض

(٤) فأبنت لنا أنك لم تبسط لنا الرزق بسطا تاما لحكمة بالغة . ذلك أنك حكمت أن تكون حياتنا كلها مبنية على العمل والحركة المباركة كما نرى الشمس والقمر وجميع الذرات متحركات . فلو أن حركاتنا سكنت وأعمالنا وقفت بما تبسط لنا من الرزق لكان الوبال والخبال . فلذلك جعلت الغيث بعد القنوط . واليسر بعد العسر . والرفعة بعد الخفض كل ذلك تدريب وتعليم وتربية بالحكمة والعزة والعلوّ والعظمة المذكورات فى أوّل السورة

(٥) وذكرت لنا ماأدينا من الحيوان الذى بثثته فى الأرض . وماحبوتنا من الذرية ذكرانا واناثا . ومن البحار والرياح . والسفن الجاريات فى البحار العظيمة

هذا مجمل ماجاء فى عالم الخلق فى هذه السورة . أما مجمل ماجاء فيها من آيات الوحى فذلك أنك :

(١) أنزلت قرآنا عربيا

(٢) وأول من يتعلمه و ينذر به أهل مكة ومن حولها

(٣) وهذا الدين ليس بدعا بل هو كالأديان السابقة . فما نزل دين إلا للاجتماع ، أما الافتراق فانه آت من الأهواء والأغراض والشهوات وحب التملك والاستعباد والترف

(٤) وهو ﷺ مأمور أن يدعو الى هذا الدين . و يستقيم كما أمر . وأن يعدل بين الناس : والعدل على مقدار مايظهر له من الحجج والبينات فى القضايا . فعليه أن يحكم بالظواهر . والله يتولى السرائر

(٥) ان الله أنزل الكتاب المقروء لنعمل به . ونحكم بأحكامه . ونصب ميزانا فى العوالم العلوية والسفلية . وذلك الميزان توزن به هذه العوالم كلها فى الدنيا والآخرة ، وبه توزن أيضا أعمال العباد . فما لم تقم الحجج الظاهرة والبينات أمام القضاء فهناك يكون فصل القضاء فيه يوم القيامة وذلك قوله تعالى ـ الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان ومايدريك لعل الساعة قريب ـ

(٦) والله كما اتصف بصفة العدل اتصف بصفة اللطف . فليس لطفه بمطمع الظالم فى الخروج عن العدل فيجعل كالصالح ـ بل الظالمون مشفقون مما كسبوا ـ والآخرون فى روضات الجنات . فاللطف اذن لاينافى العدل هذه خلاصة مما جاء فى هذه السورة من آيات السموات والأرض ومابينهما وآيات الوحى . فلأجعل الكلام فى بسط هذا المقام على قسمين ﴿القسم الأول﴾ فى نظام السموات وضوء الشمس وآثاره فى النبات والانسان . واتصال عوالم السموات بهذا الانسان . بحيث تدرك أيها الذكى أن هذه العوالم كلها كأنها حيوان واحد أونبات واحد كما تقدم مفصلا فى مواضع من هذا التفسير ﴿القسم الثانى﴾ فى هذا القرآن المنزل بالحكمة . ولماذا أمر ﷺ أن ينذر أم القرى ومن حولها ولماذا ذكرت أم القرى فى هذا المقام . مع أن أهل مكة كانوا أشد الناس انكارا للوحى وللقرآن . وأما الحكمة التى تظهر فى هذا الزمان وهناك نذكر تعداد المسلمين الذين حول أم القرى من الأمم والأجناس ثم نبين الأجر الذى حصر النبى ﷺ سؤاله فيه . وأى أجوله . وأى أجر للمصلحين بعده أهو أجر يجر لهم مغنما دنيويا أم أمرا أدبيا دائما تقر به نفوسهم ويفرحون به عند ربهم فى دنياهم وآخرتهم وبيان قوله تعالى ـ قل ماأسألكم عليه من أجر وماأنا من المتكلفين ـ وقوله أيضا ـ قل ماأسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا ـ وموازنة هذه المعانى بقوله تعالى ـ إلا المودة فى القربى ـ فى هذه السورة فلأبدأ بالقسم الأول وشرحه فأقول

الكلام على السموات وعجائبها

اللهم إنا نحمدك حمدا جزيلا . ونشكرك شكرا كثيرا . على نعمة العلم وبهجة الحكمة . أريتنا يا ربنا جمالا تراه عيوننا . وحكمة تبصرها نفوسنا فى سمواتك . وذلك له علاقة بأجسامنا وعقولنا وزنت حركات الأفلاك . وأنعمت ببيانه فى هذا التفسير فى مواضع كثيرة ، لك الحمد اللهم على نعمة العلم و بهجة الحكمة ، أرسلت الأضواء لأرضنا بالحكمة وقدرتها بالميزان . فهاهوذا عطارد يدور حول الشمس فى ٨٨ يوما إلا قليلا والزهراء تدور فى ٢٢٥ يوما إلاقليلا . والارض فى ٣٠٦٥ يوما ٢٥٦ من الألف من اليوم . والمريخ فى ٦٨٧ يوما إلاقليلا . والمشترى فى ٤٣٣٢ يوما ونصف يوم تقريبا . وزحل فى ١٠٧٥٩ يوما وخمس يوم تقريبا . وأدرانوس فى ٣٠٦٨٧ إلا قليلا . ونبتون فى ٦٠١٢٧ يوما إلاقليلا

هذه هى السيارات المعروفة أبعادها ومنها أرضنا . أنت ياألله نظمتها وفصلت حركاتها . وجعلت بين الأرض والقمر والشمس علاقات أخرى غير الحركات المذكورة وتلك هى حوادث المد والجزر . فان البحر يرتفع وينخفض كل يوم مرتين بل كل ٢٤ س ٥٠ د عن تسوية متوسطة فحينما يرتفع البحر يزحف على الشواطىء ويدفع

بالثانى مياه الأنهر فترتفع حينئذ فى مجاريها وهذا هو المد . ومدة الارتفاع ست ساعات ومتى أخذ البحر نهايته العظمى من الارتفاع يستمر سبع أوثمان دقائق ثم يبتدئ فى الانخفاض زاحفا عن الشواطىء التى كان علاها شيئا فشيئا وهذا هو الجذر و بعد الجذر يحصل مدّ جديد وهكذا

والمسافة بين المدين ٢٥ د و ١٢ س ومدة المد تزيد عن مدة الجذر لأن البحر يستعمل زمنا فى الصعود أكثر من النزول والفرق ليس واحدا بالنسبة لجميع المين فقداره فى هافرو بولونى ٢٨ د ٢ س وفى مينة برست ١٧ د فقط

تغير أوقات المد والجذر التأخير اليومى لحادثة المد والجذر هو ٥٠ دقيقة وهذا المقدار هو مقدار تأخير مرور القمر بمستوى الزوال كل يوم وحيث أن تأخير ٥٠ دقيقة كل يوم يحدث تأخيرا قدره ٢٤ ساعة بعد ٢٩ يوما وثلث أعنى بعد شهر قمرى فيجب حينئذ أن تنقلب أوقات المد والجذر كل نصف شهر قمرى من صباح الى مساء و بالعكس و بعد شهر قمرى كامل يعود المد والجذر الى الأوقات الأولى بعينها وحينئذ فهناك ارتباط بين الأوقات التى يحصل فيها المد والجذر و بين أوقات مرور القمر بمستوى الزوال

تغيير الارتفاع كلما كان ارتفاع المياه فى المد كبيرا كان انخفاضها كثيرا فى الجذر التالى له و بأخذ المتوسط بين جذر ومد متتاليين يتحصل على نتيجة ثابتة تقريبا ولهذه القسوية تنسب الارتفاعات فى عمليات الميزانيات ويسمى مدا كليامتوسط مدّين أحدهما يلى جذرا والآخر يسبقه والمد الكلى فى الوقت الواحد متغير على حسب المين بسبب اختلاف شكل الشواطئ وفى المينة الواحدة يتغير على حسب أوجه أشكال القمر وعلى حسب أبعاد الأرض عن القمر والشمس وعلى حسب ميل هذين الكوكبين ففى وقت الاجتماع والاستقبال يصل المد نهايته العظمى والجذر نهايته الصغرى وأما فى وقت التربيعين فيأخذ المد نهايته الصغرى وليعلم أن أعظم مدّ لايحصل فى نفس لحظة الاجتماع أو الاستقبال بل بعدها بقدر ٣٦ ساعة فالمد الثالث الذى يلى الاجتماع والاستقبال هو الذى يكون أكبر مدّ وكذلك المدّ الثالث الذى يلى التربيع الأوّل والأخير يكون هو أصغر مدّ وهذا التأخير ينسب لاحتكاك العناصر السائلة بعضها على بعض وعلى قاع البحر وينشأ عن هذا الاحتكاك بطء فى حركتها وفى (برست) يصل المد الكلى للاجتماع والاستقبال فى المتوسط ارتفاعا قدره ٢٥و٦ مترا والمد الكلى للتربيعين فيها هو ١٠و٣ مترا فقط

و بعد الأرض عن القمر يحدث تأثيرا على مقدار المد الكلى الذى يزداد باقتراب القمر من الأرض ويتناقص بتباعده عنها وفى مينة (برست) تغير البعد المذكور يحدث تغيرا مقداره ٧٧و١ فى ارتفاع المد الكلى وكذلك تغير بعد الشمس عن الأرض يؤثر على مقدار المد الكلى غير أن ذلك التأثير قليل بالنسبة لتأثير القمر

وكذا ارتفاع المد والجذر يتغير على حسب ميل الشمس والقمر فحينما يكون القمر قريبا من دائرة المعدل فى وقت الاعتدالين يكون المد المقابل للاجتماع والاستقبال هو أكبر مد ، وينتج من جميع ماتقدم أن هناك ارتباطا أصليا بين حادثة المد والجذر وحركات القمر والشمس

وسنبين أن المد والجذر هما نتيجة تأثير جاذبية القمر والشمس على الأرض أعنى نتيجة من قاعدة الجذب العام اهـ

فهذا اجمال الكلام على علاقة الأرض بالشمس من حيث حركاتها حولها مع السيارات الأخرى ومعها ومع القمر باعتبار المد والجذر . وهذا معناه أن هذا العالم كله أشبه بالجسم الواحد (انظر المجموعة الشمسية مرسومة فى سورة الأنعام وفى سورة سبأ وآثار الأضواء فى الأرض)

ان الأضواء تصل الى الأرض منتظمة فكان الصيف والخريف والشتاء والربيع فماذا رأينا ؟ رأينا النباتات

موزعات على أيام السنة ﴿و بعبارة أخرى﴾ ان هذه النباتات قد تبعت فى زرعها وترتيب أوقاته نظام حركات الأرض حول الشمس سبحانك اللهم وبحمدك أنت الحكيم . أنت العلىّ . أنت العظيم . أنت العزيز. فبالعزة قهرت الأرض فدارت . وبالحكمة قدّرت حركاتها . وأنت لاتلابس المادة التى غرقنا فيها بل نحن فيها محبوسون . يار بنا . وأنت منزه عنها . فأنت علىّ وأنت عظيم . فلك العلوم على هذا النظام ولك العظمة اللهم إنا رضينا أن نكون مغمورين فى هذه المادّة تحت عظمتك وعلوك والأرض تجرى بنا حول الشمس بنظام محدود وأوقات لاتتغير ولاتتبدّل . وانما رضينا بهذا لأنا نعلم رحمتك الواسعة التى غمرتنا بها ، فنحن لما شاهدناها رضينا بكل ماتحكم به فينا فى هذه الدنيا وفى الآخرة . فاذن نتوكل عليك . وليس يصح التوكل ولا يتم الا بأن نسير على نهجك ونكون صالحين مصلحين لعبادك جارين على صراطك الذى نصبته فى سمواتك وفى أرضك

ومن هذا الصراط وهذا الميزان أوقات الزراعة . فلكل فصل من فصول السنة بل لكل شهر شمسى أنواع من الزرع تنبت فيه (اقرأ هذا المقام مفصلا فى أوّل سورة الزمر) وهاك بعضه هنا وبقيته هناك

﴿شهر هاتور﴾ فيه يزرع القمح و يطلع البنفسج (١) والمنثور . وأكثر البقول . ويجمع مابقى من الباذنجان ومايجرى مجراه . ويحمل العنب من قوص . وفى ثانيه يبتدئ حصاد الأرز . وفى خامسه أوّل تشرين الثانى من شهور السريان . وفيه يبتدئ برد المياه . وفى سادسه أوّل المطر الوسمى ، وفى سابعه يبتدئ أهل الشام الزرع . وفى ثامنه يبتدئ هبوب الرياح الجنوبية . وفى تاسعه يبتدئ زرع الخشخاش (٢) وفى حادى عشره يبتدئ اختفاء الهوامّ . وفى ثالث عشره يبتدئ غليان البحر ، وفى رابع عشره تعمى الحيات . وفى سادس عشره يجمع الزعفران ، وفى ثامن عشره تكثر الوحوش . وفى الثانى والعشرين منه يغلق البحر الملح وتمتنع السفن من السفر فيه لشدّة الرياح . وفى الثالث والعشرين منه تبتدئ سخونة بطن الأرض : وفى الرابع والعشرين منه أوّل اسفيدارماه من شهور الفرس

﴿شهر كيهك﴾ فيه تدرك الباقلاء وتزرع الحلبة وأكثر الحبوب . ويدرك النرجس والبنفسج . وتتلاحق المحمضات . وفى أوّله ابتداء أربعينيات مصر . وفى ثالثه يبتدئ موت الذباب . وفى خامسه أوّل كانون الأوّل من شهور السريان . وفى سابعه آخر الليالى البلق وأوّل الليالى السود . وفى حادى عشره يبتدئ الشجر فى رمى أوراقه . وفى ثانى عشره تظهر البراغيث . وفى سابع عشره أوّل فصل الشتاء ، وهو أوّل أربعينيات الشام . وفى ثامن عشره يتنفس النهار . وفى الحادى والعشرين منه يكثر الطير الغريب بمصر . وفى الثالث والعشرين منه أوّل مردوماه (٣) من شهور الفرس . وهو نوروزهم وأوّل سنتهم . وفى الخامس والعشرين منه يهيج البلغم . وفى السادس والعشرين منه تلقح الابل . وفى السابع والعشرين منه يكثر شرب الماء فى الليل . وفى الثلاثين منه يبتدئ تقليم الكروم

ياسبحان الله . هذا هو ميزانك الذى شاهدناه فى هذه الدنيا وهذا هو صراطك المستقيم . رأيناه فى الحياة قبل أن نموت . فأنت لم تذر حركة ولاذرة إلا وزنتها . فأما الحركة ففى علم الفلك . وأما الذرة ففى علم الكيمياء

---

(١) بسكون الفاء وفتح بقية الحروف

(٢) بفتح أوله

(٣) سيأتى قريبا أن نيروز الفرس وأوّل سنتهم أفرودين ماه ونظنه الصواب لأنه الذى ورد فى مروج الذهب وغيره ومع ذلك لم يذكر هذا الشهر فى أسماء الشهور الآتية

لك الحمد اللهم على نعمة العلم . علمتنا يارب أنك ذو نظام جميل ففهمناه . وعلمنا أنك لم تقف فى الوزن عند العوالم العظيمة كالكواكب السيارة . كلا . بل نراك راعيت هذا الميزان فى خلق النبات . وأريتنا جذوره مفصلات تفصيلا بديعا بحيث كانت ملائمة كل الملاءمة لما خلقت له بحيث تجتذب الجذور من الأرض بأنابيبها الشعرية ما يوافق الثمرات التى خلق ذلك النبات لها والحبوب والخضر وهكذا . فنراك كما قدرت حركات السيارات ولم يكن فيها خطأ هكذا قدرت ووزنت تلك الأنابيب الشعرية والفتحات التى تعسر مشاهدتها فكانت مناسبات لنتائج النبات من حب وفاكهة وزيت ونشاء وهكذا . وهذه الفتحات لا تجتذب من الأرض إلا الملائم لها . ولو أن نباتا اتسعت فتحاته أوضاقت عما يلائم ما تجتذبه لم يخرج لنا تمر ولا بر ولا خروع بل هناك يختلط الحابل بالنابل ويموت الانسان والحيوان

اللهم أنت اللطيف بنا ـ الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز ـ فأى لطف أعجب من هذا ؟ عجب يارب دقة الحركات فى الشمس ، ودقة فتحات الجذور أمران عجيبان . هذه أعظم رحمة لك . ولكننا لا نفطن لها ولا نفكر فيها . ذلك لأن شهواتنا الصغيرة حبست عقولنا فلم تنتبه الى النظر فى دقة هذا الصنع لأن شهواتنا استحوذت على عقولنا فمنعتها من التغلغل فى هذا الجمال

هذا ولم يقف الأمر عند دقة الحركات ونظام أوقات الزرع على مقتضاها ولا عند نظام الفتحات بل الأمر فوق ذلك . لقد رأيناك أبدعت فى خلق الورقات بأن جعلت لكل ورقة حجرا داخلة فيها ولكل حجرة سقف وحيطان . ووضعت فى كل حجرة سائلا وهذا السائل فيه مادة ذات لون . وهذه المادة باتحادها مع ضوء الشمس (الواصل من بعد عظيم يبلغ بسرعة القطار ٣٥٠ سنة . وبسرعة قلة المدفع ١٢ سنة . وبسرعة الضوء ٨ دقائق و ١٨ ثانية) تكون سببا فى أن النبات يتغذى من الهواء بمادة الكربون (الفحم) وهذه المادة الكربونية تدخل النبات فتكون منه أنواع الخشب والتبن ونحوهما أليس من العجب أننا نراك تحسب حركات الأرض التى لو اختلت لاختل نظام زرعنا

يارب ما أجهلنا أهل الأرض ما أضعف عقولنا يارباه . أنت ربيتنا بانتظام حركات أرضنا وبانتظام الزرع على مقتضى تلك الحركات وبالفتحات الموافقات فى الجذور وبالحجرات المقدرات فى الأوراق . تلك الحجرات التى قد تبلغ فى البوصة المربعة ١٢ حجرة و ٢٤ وفوق ذلك إلى آلاف وآلاف . هذا فى البوصة فما بالنا بالورقة الواحدة . وما بالنا بالورق . وما بالنا بالشجرة كلها . وما بالنا بالحقل كله

بهذه يار بنا عشنا فى الدنيا . هذه هى الحياة المنظمة ونحن جميعا فى الأرض عالمناوجاهلنا لا نفكر فيها . وهذه الأوراق مغذيات للنبات (انظر هذا المقام فى سورة يس وانظر شرحه وصور الورق المذكور) إذن لو أن هذه الورقات لم تكن فيها الفتحات منظمة لم يكن نبات ثم لم يكن حيوان ولا انسان لأن هذه الفتحات التى تعد بالآلاف المؤلفة عليها قوام حياة النبات وحياة الانسان . أليس هذا هو قوله تعالى فى سورة أخرى (يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون) أيس هذا الذى نذكره فى هذا التفسير هو من التفصيل الذى وعد الله به . واذا فصلت الآيات فى نفس الخلق ولكنها لم تفصل فى عقولنا فمن أين يأتى اليقين لنا ؟ هذا هو اليقين. وهذه هى السعادة ، أى السعادة التى أحس أنا بها الآن ويحس بها جميع المغرمين بهذا التفسير وما فيه من عجائب الصنع المفصلات المورثات اليقين

ثم اننا لم نجد الأمر وقف عند هذا الحد فان بين كل ورقة وأخرى حسابا هندسيا ونظاما متقنا . (نرى الأشجار والأوراق عليها متقابلات مثنى وثلاث ورباع وخماس وهكذا . وهذه الورقات قد رسمت شكلا هندسيا من حيث وضعها (انظر هذه الأشكال فى سورة الحجر ، وتعجب مما تقرؤه هناك من ورقتين على الغصن بينهما ١٨٠ درجة من الدائرة على الغصن وثلاث ورقات وخمس ورقات قد رسمن شكلين ـ لمزونيين وهذان

الشكلان

الشكلان يتمان دائرة منتظمة بديعة عجيبة وتكون الدوائر التامة متتابعات والأوراق الخمس منظمات قد اقتسمن تلك الدائرة اقتساما صادقا بحيث ترى بين كل ورقة وأختها ٧٢ درجة من الدائرة البالغة ٣٦٠ درجة من ضرب ٥ فى ٧٢ وتجد كل ورقة من الخمس فى دائرة موازية لنظيرتها فى الدائرة الأخرى . جل الله وجل العلم وجلت الحكمة . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل ان الدوائر المنتظمة فى نبات بينهما و بين الدوائر الأخرى فى نبات آخر مناسبات عجيبات حتى اننا بالبحث نجد أن جميع أوراق النبات بينها علاقات حسابية وهندسية كالعلاقات الحسابية والهندسية فى نظام النجوم الثوابت والسيارات والأرض

وهذا النظام كله نتائجه هو ما يأكله الحيوان والانسان مما ذكرناه قريبا فى السورة السابقة . فانك تجد هناك الجدول المبين لأنواع النشاء والمادة الاوزوتية والمادة الدهنية ، وهذه الأنواع الثلاثة لم تتم إلا بانتظام الأوراق والجذور والأضواء والأيام التابعات حركات الأرض حول الشمس ، و ينتهى الأمر بالجهاز الهضمى الذى شاهدت صورته فى سورة فاطر وفى سورة فصلت قبل هذه السورة فهناك تجد الحساب مفصلا والنظام متصلا ، وأن القوى والعصارات المختلفات الموضوعات فى جهازنا الهضمى موزعات على تلك الأنواع الثلاثة الناجمات من نظام النبات المنتظم الأوراق . الجارى على سنن الأضواء فى وصولها الى الأرض

أليس هذا معناه أن هذه العوالم كلها أشبه بجسم واحد ﴿و بعبارة أخرى﴾ أليس معنى هذا أننا على هذه الأرض ملزومون أن ندرس الكواكب والأرضين والأضواء وحسابها والنبات وحسابه وشرح أجسامنا وتسريحها ثم نفوسنا

خطابى للمسلمين

يامعاشر المسلمين : الحق أحق أن يتبع . نحن نعيش فى الأرض عالة على الأمم فى هذه القرون المتأخرة يامعاشر المسلمين أكتب كتابى هذا . وقريبا أفارق هذه الأرض . وأصعد الى الله وأبرأ من الكتمان ، وأقول يارب قد اجتهدت أن أبلغ المسلمين ماعرفته من صنعك وما فهمته من كتابك وما علىّ إلا أن أبين . وفوق ذلك أقول : انكم ستبلغون شأوا عظيما فى سعادة الحياة وسعادة الممات ، انكم ستدرسون كل ماترونه فى السموات والأرض . وهناك تفهمون لماذا يكرر ذكر العوالم العلوية والسفلية فى كثير من آى القرآن و بهذا تم الكلام على القسم الأوّل فى نظام السموات والأرض

القسم الثانى

فى هذا القرآن المنزل ، ولماذا أمر ﷺ أن ينذر أم القرى ومن حولها ، ولماذا ذكرت أم القرى فى هذا المقام الخ

انجعل هذا القسم فى ﴿ فصلين : الفصل الأوّل ﴾ فى أن القرآن عربىّ ﴿ الفصل الثانى ﴾ فى ذكر أم القرى ومن حولها

الفصل الأول

فى أن القرآن عربى

فأقول : قد تقدم الكلام عليه فى ﴿ سورة فصلت ﴾ وهى السورة السابقة ، و يأتى الكلام بقية فى ﴿ سورة الزخرف ﴾

الفصل الثانى

فى تبيان تخصيص أم القرى ومن حولها

اعلم أيها الذكىّ أن الله عزّ وجل قبيل نزول القرآن قد كان نظم أمّتين وهما فارس والروم ، وهاتان الدولتان قد اقتسمتا الأقطار المحيطة بجزيرة العرب قبيل النبوّة ، فكان للروم البلاد الجنوبية ، قد ملكوها نحو (٦٠٠ سنة) وللفرس البلاد الشمالية ، كان لهم عليها بعض السلطان نحو نيف وثلثمائة سنة ، ولم يبق إلا مكة والبلاد المجاورة لها بنجوة من نفوذ هاتين الأمّتين

وأنت عليم أيها الذكىّ بما كان لهذه الأمّة العربية بسبب القرآن من السطوة والنفوذ ، وكيف أزالت ملك هاتين الدولتين ، ثم كيف بقيت قرونا ، ثم كيف تولاها الخور والضعف حتى أصبحت أمم أوروبا على أبواب مكة ، والمسلمون فى مكة وحول مكة الآن بعد ٣٤٩ سنة قد بلغ تعدادهم ما بينته فى كتابى المسمى « القرآن والعلوم العصرية » وقبل أن أذكر ما كتبته فى ذلك الكتاب وماخاطبت المسلمين به أذكرك أيها الذكىّ بما تقدّم فى أوّل سورة ﴿العنكبوت﴾ من الرسائل التى أرسلها النبى ﷺ الى ملوك وأمراء العرب والعجم ، و بعد أن تقرأ ذلك أكمل القول بحادثتين تاريخيتين لم يذكرا هناك ﴿الحادثة الأولى﴾ هى التى وردت فى (ايلة) أيام النبوّة ﴿الحادثة الثانية﴾ هى التى جاء ذكرها فى قبائل البجه الذين كانوا يسكنون مصر ، وانما نذكر هاتين الحادثتين هنا لأنا فى مقام انذار أم القرى ومن حولها بالقرآن العربى ، وهذا الانذار تبعه رقىّ أم القرى وماحولها حتى تعدّى العرب حدود آسيا وافريقيا واحتلوا ربوع أوروبا ، ولما بلغوا العلم لتلك الأمم ورفعوا شأن الانسانية رجعوا ثانيا الى مايشبه حالهم الأولى ، فاذا ذكرنا الحادثتين فانما نريد بهما كيف كانوا يعاهدون الأمم ، وكيف يحافظون على النفوس والأرواح ، وهم انما خلقوا فى جزيرة قاحلة لاعلم فيها ولاحضارة ولامدنية وأن هذه السيرة سترجع لهذه الأمم كما ابتدأت

الحادثة الأولى هى حادثة العقبة

إن الانسان يصعد اليها بمنحدر من مسافة طويلة من الغرب حتى يصل الى قمتها ، فاذا أردت أن تنزل الى الجهة الشرقية صرت نازلا صاعدا وصاعدا نازلا فى أرض حجرية تارة ، وأخرى رملية ناعمة ، وأخرى خشنة أوزلطية الى أن تمر فى مضيق لايسع إلا جملا جملا ، و يسمى قطع لاظ ، وطريق هذا القطع حلزونى تقريبا أصلحه ابن طولون ، ثم محمد بن قلاوون ، ثم عباس باشا الأوّل ، ومع ذلك فان المسافر فيه لابد أن ينزل عن دابته و يسير على قدمه حتى يقطع العقبة فى ست ساعات نزولا وضعفها صعودا ، ومن دون هذه العقبة قرية العقبة و يسمونها (أيله) وهى بلدة قديمة جدا ، وكانت عامرة من زمن مديد ، وكانت فى مدة سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ميناء كبيرة للمراكب التى كانت تفد الى الشام من اليمن والهند وفارس ، وانقطع بها طريق البرّ من اليمن الى بطره ، ولما مات سليمان رجعت الطريق الأولى الى ما كانت عليه فى نقل التجارة برا ، وكان فيها أسواق كبيرة ، بل كانت مركزا للتجارة بين مصر و بلاد العرب وفارس والعراق ، ولما أتى النبى ﷺ الى غزوة تبوك فى السنة التاسعة للهجرة أتاه ابن رؤبة صاحبها وصالحه وأعطاه الجزية فكتب له عليه الصلاة والسلام عهدا هذه صورته : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا أمنة من الله ومحمد النبى رسوله لتحية ابن رؤبة وأهل أيله أساقفهم وسائرهم فى البرّ والبحر ، لهم ذمة الله وذمة النبى ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثا فانه لايحول ماله دون نفسه وانه طيب لمن

أخذه من الناس وانه لايحل أن يمنعوا مايريدونه ولاطريقا يريدونه من برّ أو بحر » هذا كتاب جهم بن الصلت وشرحبيل بن حسنة باذن رسول الله ﷺ

وفى سنة ٥٦٦ هـ كان الافرنج قد استولوا عليها فى الحروب الصليبية ، فسار اليها من مصر صلاح الدين الأيوبى ، وأخذ معه مراكب مفصلة على الجمال ، حتى اذا وافى مياهها أصلح مراكبه وأنزلها فى البحر ، وحاصر المدينة برا وبحرا ، حتى أخذها عنوة وطرد الافرنج منها ، وهى الآن قرية صغيرة فى أيدى عرب الحويطات ، وفيها قلعة بناها السلطان مراد الرابع فيها بعض الجنود لحراستها ، وعدد سكانها لايزيد عن مائة نفس ، وفى هذه القرية نخيل وأشجار ، وماؤها حلو ، ويزرع فى أرضها الخضراوات ، وبين العقبة ومعان نحو مائتى كيلومترا شرقا ، والطريق فيها صعبة ، وتخترق جبال السراة التى يكسوها الجليد طول الشتاء ، وبينها وبين بيت المقدس شمالا بغرب نحو (٣٠٠) كيلومترا فى صحراء قليلة المياه طريقها وعر ، وبينها وبين السويس نحو (٣٠٠) كيلومترا . وبهذا تمّ الكلام على الحادثة الأولى

الحادثة الثانية فى قبائل البجه

جاء فى كتاب « الرحلة الحجازية » لمؤلفه الاستاذ محمد بك لبيب البتنونى تحت العنوان التالى مانصه :

الطريق القديم والحديث

من مصر الى الحرمين

كانت مصر ولاتزال طريق المسلمين الى حج بيت الله الحرام ، وزيارة نبيه عليه الصلاة والسلام ، فى نصف الكرة الأرضية الغربية باعتبار أن مكة المكرّمة هى قلب العالم أو النقطة المركزية التى تنبعث منها أنصاف أقطار الى محيط جميع دائرة الأقطار ، فالأندلسى الذى كان يسكن فى غرب أوروبا ، والمغربى الذى فى غرب افريقيا ومادونه من مسلمى البربر فالسنغال وبلاد التكرور والسودان الغربى والشرقى كانوا اذا قصدوا الحج الى بيت الله الحرام سافروا من بلادهم الى مصر بحرا أو برّا ، وكذلك كان يقصدها كثير من أهالى الشام والترك والقوقاز وجزائر البحر الأبيض المتوسط ويجتمع الكل بالقاهرة قبل شهر رمضان ، ثم يسيرون منها الى قوص برا أو النيل (٦٤٠ كيلومترا) فى نحو عشرين يوما ، ثم تسافر قوافلهم منها فى صحراء عيذاب مدة ١٥ يوما يقطعون فيها نحو ١٢٠ كيلومترا الى القصير على البحر الأحمر ، وكانت من قديم ميناء مصر الشرقية أى انها كانت من مصر بالأمس مكان ميناء السويس الآن ، وكانت هذه القرية فى أيدى عرب البجاه الذين كانوا يتولون نقل الحجاج على إبلهم فى صحراء عيذاب

وقبائل البجاه أو البجه يقال انهم من البربر وكانوا يسكنون فى صحراء مصر الشرقية من سواكن الى قرية يقال لها الحزيه فى صحراء قوص ، وهذه الصحراء عامرة بمعادن الزمرد والذهب والفضة والحديد وفيها مغائر وآبار قديمة لاستخراجها ، وهى طبعا من عهد قدماء المصريين ، وبعضها من عمل المغفور له محمد على باشا والى مصر ، وكانت العرب تستخرج منها المعادن ، وخصوصا التبر فى القرن الأوّل والثانى للهجره ، وذلك باتفاق مع ملك البجه الذى كان مقرّه اسوان ، وكان ينال المسلمين منه ومن قومه أذى كبير ، فأرسل المأمون اليه عبد الله بن الجهم فكانت له معهم وقائع ، ثم وادعهم وكتب بينه وبين كنون رئيسهم كتابا نذكر لك طرفا منه لتعرف مقدار تسامح الاسلام مع أهل الذمة ، وكيف انه كان لايفرق بينهم وبين المسلمين فى المعاملة : « هذا كتاب كتبه عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين صاحب جيش الغزاة عامل الأمير أبى اسحق بن أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله ، فى شهر ربيع الأوّل سنة ست عشرة ومائتين لكنون بن

عبد العزيز عظيم البجه باسوان ، انك سألتنى وطلبت الىّ أن أؤمنك وأهل بلدك من البجه وأعقد لك ولهم أمانا علىّ وعلى جميع المسلمين ، فأجبتك الى أن عقدت لك وعلى جميع المسلمين أمانا ما استقمت واستقاموا على ما أعطيتنى وشرطت لى فى كتابى هـذا ، وذلك أن يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حدّ اسوان من أرض مصر الى حدّ مابين دهلك وباضع ملكا للمأمون عبد الله بن هرون أمير المؤمنين أعزّه الله تعالى ، وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لأمير المؤمنين إلا انك تكون فى بلدك ملكا على ماأنت عليه فى البجه وعلى أن تؤدّى اليه الخراج فى كل عام على ما كان عليه سلف البجه ، وذلك مائة من الابل أوثلثمائة دينار وازنه داخلة فى بيت المال ، والخيار فى ذلك لأمير المؤمنين وولاته ، وليس لك أن تخرم شيئا عليك من الخراج ، وعلى أن كل أحد منكم ان ذكر محمدا رسول الله ﷺ أوكتاب الله أودينه بما لاينبغى أن يذكره به ، أوقتل أحدا من المسلمين حرا أوعبدا فقد برئت منه الذمة ذمة الله وذمة رسوله ﷺ وذمة أمير المؤمنين أعزّه الله وحلّ دمه كما يحل دم أهل الحرب وذراريهم ، وعلى أن أحدا منكم ان أعان الحاربين على أهل الاسلام بمال أودلّ على عورة من عورات المسلمين أوأثر لغرتهم فقد نقض ذمة عهده وحلّ دمه ، وعلى أن أحدا منكم ان قتل أحدا من المسلمين عمدا أوسهوا أوخطأ حرا أوعبدا أوأحدا من أهل ذمة المسلمين أو أصاب لأحد من المسلمين ، أوأهل ذمتهم ببلد البجه أو ببلاد الاسلام ، أو بلاد النوبة أوفى شىء من البلدان برا أو بحرا ، فعليه فى قتل المسلم عشر ديات ، وفى قتل العبد المسلم عشر قيم ، وفى قتل الذّمى عشر ديات من دياتهم ، وفى كل مال أصبتموه للمسلمين وأهل الذمة عشرة أضعافه ، وان دخل أحد من المسلمين بلاد البجه تاجرا أومقيما أومجتازا أوحاجا فهو آمن فيكم كأحدكم حتى يخرج من بلادكم ، ولاتؤوا أحدا من آبق المسلمين فان أتاكم آت فعليكم أن تردّوه الى المسلمين ، وعلى أن تردّوا أموال المسلمين اذا صارت فى بلادكم بلامؤنة تلزمهم فى ذلك ، وعلى أنكم ان تزلم ريف صعيد مصر لتجارة أومجتازين لاتظهرون سلاحا ، ولاتدخلون المدائن والقرى بحال ، ولاتمنعوا أحدا من المسلمين الدخول فى بلادكم والتجارة فيها برا ولابحرا ، ولاتخيفوا السبيل ، ولا تقطعوا الطريق على أحد من المسلمين ، ولا أهل الذمة ، ولاتسرقوا لمسلم ولاذمى مالا ، وعلى أن لاتهدموا شيئا من المساجد التى ابتناها المسلمون بصيحة وهجر وسائر بلادكم طولا وعرضا ، فان فعلتم ذلك فلاعهد لكم ولاذمة الخ » وباقى الكتاب لايخرج عن هذا المعنى . وبهذا تمّ الكلام على الحادثة الثانية

تعداد المسلمين فى بلاد الاسلام

أذكر فى هـذا المقام ما جاء فى كتابى « القرآن والعلوم العصرية » من تعداد المسلمين فى بلاد الاسلام والخطاب الذى وجهته لهم ، فقد جاء فيه فى صحيفة ١٥ وما بعدها تحت العنوان التالى مانصه :

المسلمون كثير عددهم

أيها المسلمون : ما أكثر عددكم على وجه الأرض

	مليونا
إن منكم فى بلاد الهند الصينى والصين	٧٠
وفى الهند وما جاورها	٧٥
وفى ماليزيا والاقيانوسية	٥٠
وفى ولاية الحجاز واليمن بأقسامها المستقلة وغير المستقلة وعسير	١١

وعدن والنواحي التسع وعمان ومسقط والبحرين وحضرموت ونجد والكويت والربع الخالى

وعنزه

وعنزه وشمر الخ

وفى سوريا وفلسطين والعراق العربى والعراق العجمى	٦و٥
وفى مصر والسودان المصرى	١٨
وفى طرابلس وتونس والجزائر ومراكش	١٨
وفى الصحراء الكبرى والسودان الفرنسى	٢٠
وفى السنغال ومايتصل به والسودان الأوسط ووادای وباكومى وما حواليها	٥
وفى جمهورية ليبريا	٠و٥
الجميع	٢٧٤
وفى السودان الانجليزى والنيجر وماحولهما	٨
وفى مستعمرات الكمرون الألمانية والكونغو والكاب وموزنبيق ومدغشقر وشرق افريقية الألمانى وزنجبار وشرق افريقيا الانجليزى وأوغنده والحبشة وأرتريا وما يتصل بها	١٠و٥
والأتراك فى روملى وجهات الأناضول والبلقان والولايات العثمانية التى معظمها من غير المسلمين	١٥
وفى ولاية روسيا الأوروبية ومنها التتارالذين هم أهم قسم من الاتراك ، وفى قفقاسية وآسيا الوسطى وفرغانه وسيبريا وخيوه وبخارى	٣٥
والترك فى الشمال والشمال الغربى من بلاد الصين	٢٥
وفى بلاد أفغانستان وفى بلاد ايران والعجم	١٠

فيكون جميع المسلمين فى أقطار الأرض ٣٧٧و٥ مليونا والمتأمل فى هذا يجد عشرين مليونا مكررة واذن نقول إن المسلمين ٣٥٠ مليونا تقريبا فسألتكم بالله أيها المسلمون كيف يغلب هذا العدد الكبير والجم الغفير وكيف يصادرون فى حريتهم ويذلون فى عقردارهم و يسامون سوء العذاب ، كل ذلك من الجهل والتفرق وعدم الاتحاد ، وقد آن أوان أن أشرح طرق الاتحاد عسى أن يكون فيه ذكرى لأخوانى المسلمين

طرق الاتحاد

﴿ كيف يتحد المسلمون ﴾

أيها المسلمون هذا المجموع الكبير العظيم الممتد من بكين فى الصين إلى رأس الرجا الصالح ، ومن طنجه إلى المحيط الهندى . هذا المجموع جسم له رأس وأعضاء ، وقد ذكرنا الحديث الشريف اذ جعل المسلمين كالجسد الواحد اذا اشتكى بعضه تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى هذا بعينه مايحصل الآن فى أطراف المعمورة فان المسلم الافريقى يتألم لما يصيب أخاه الصينى و يسره مايسره قال تعالى ـ انما المؤمنون إخوة ـ ولا جرم أن الأخ الأرشد واجب عليه وقاية الأصغر ، والمحافظة عليه وتربيته وترقيته . فعلى العقلاء والعلماء والأمراء والأغنياء من العرب والفرس والترك والهنود والصينيين أن يكونوا جماعة تتخذ لها مركزا خاصا (ولعلها الآن موجودة)

وإذا كان رسول الله ﷺ شبه الأمة كلها بالجسم ، فلننهج منهجه عليه الصلاة السلام ، ولننسج على منواله مبينين بالعقل صحة ماتواخينا والطريق التى ارتضينا ، فنقول :

ان فى الجسم رأسا ، هو مركز الحواس من السمع والبصر والشم والذوق واللمس ومنه تصدر جميع

الأعصاب الحساسة واليه ترد بما نقلت من أخبار السمع والبصر الخ ، فالرأس هو القائم بأعمال الجسم المنظم لحركاته فلو تخلى الرأس عن الجسم لأصبح جثةهامدة لاتغنى ولاتسمن . هكذا العلماء فى هذه الأمة والأغنياء والأمراء والعقلاء المفكرون المستبصرون ؛ هم المسئولون فى الدنيا والآخرة ، وهم وحدهم الذين يقفون بين يدى الله تعالى يسألهم عز وجل عن إهمالهم أمر هذه الأمة و يسأل الله عز وجل المفكر والعالم والأمير والغنى ويقول لهم أنتم رأس هذه الأمة وقوّتها فماذا فعلتم ؟ تركتم هذا المجموع يئن تحت نير العبودية والذلة وهذه الطوائف الاسلامية من أقصى الأرض الى أقصاها جعلتها أمانة عندكم فكيف تشاغلتم عنها حتى أصبحوا أذلاء وأنتم شاركتموهم فى ذلهم وقاسمتوهم ضعفهم وانكسارهم . ألم أنزل عليكم فى كتابى ـ لايكلف الله نفسا الاوسعها ـ فهأناذا لا أكلف الزارع المسكين ولا الجمال ولا البدّال هذا الأمر ، أولئكم عيالكم واخوتكم الصغار وانما أكلف أرباب العقل ورجال الحكمة وأهل المال أولئك هم المسئولون ـ وقفوهم انهم مسئولون ـ ألم أنزل فى كتابى على نبيكم ـ لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون ـ ومعنى هذا أن الله يوبخ علماء أهل الكتاب من الأحبار والرهبان على عدم نهيهم الأمة عن قولها الكذب الذى يأثم به الانسان وعن أكلها السحت أى الحرام ، ثم بالغ فى ذمهم فقال ـ لبئس ما كانوا يصنعون ـ مبتدئا بلام القسم ، وهذا مبالغة فى التوبيخ أفلا تعلمون أنى قصصت عليكم ذلك لتعتبروا ولتتذكروا أيها المسلمون ألم يقل لكم نبي محمد ﷺ «لاتزول قدما ابن آدم من عند ربه يوم القيامة حتى يسأل عن خمس عن شبابه فيم أفناه وعن عمره فيم أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وماذا عمل فيما علم ؟ » ألم يكن فى هذا الحديث دلالة على أن العالم والغنى شريكان فى المسئولية كلاهما مسئول . العالم مسئول ، والغنى مسئول وفى حديث البخارى أن النبى ﷺ قال «لاحسد الا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الخير ، ورجل آتاه الله علما فهو يعمل به و يعلمه الناس»

والمراد بالحسد الغبطة وهى تمنى مثل ماعند الغير ، فالى الأغنياء والى العلماء والمستبصرين من الأمة أوجه قولى فلقد اتضح أنهم هم المسئولون يوم لاينفع مال ولا بنون ، فأقول :

لتكن منكم جماعة خاصة تكون بمنزلة الرأس ، ولتتخذ لها مكانا ، وليكن لها فروع تمتد إلى أقاصى المعمورة ، أشبه بالأعصاب فى الجسم ولتكن أعمال تلك الجمعية مقسمة الى قسمين القسم الأول يأمر بنشر الأخلاق والعبادات والعلوم والصناعات فى سائر أقطار الاسلام وينشر الكتب والرسائل ويعلن فى الجرائد ويوعز الى أهل البلاد باذاعة ذلك كله مع المحافظة التامة على العوائد الاسلامية وليحببوا الى الناس أن يعرفوا ماذرأ الله فى الأرض وما أبدع فى السماء وما أفاد من صناعة ومابث من حكمة حتى يضارعوا أوروبا ويفوقوها اقتصاديا وماديا

والقسم الثانى يكون قصارى أمره ومنتهى رأيه أن يدرس أعمال أوروبا مع الأمم الاسلامية فى أقطار العالم وينشر ذلك فى جميع الأقطار الاسلامية ليعرفوا إخوانهم الساهين من الترك والفرس والعرب والصين والهند تلك الأمم القديمة الشرف العظيمة القدر ، ومتى انتشر ذلك فى الأقطار الاسلامية عرف المسلمون إذ ذاك للجاهل جهله وللفاضل فضله واذ ذاك يقرءون ـ وجزاء سيئة سيئة مثلها ـ فيقاطعون الدولة المسيئة فى التجارة سواء أكانوا فى الصين أم فى افريقيا أم فى تركيا . ذلك شأن هذه الطائفة ، ولعلكم تقولون من أين عرفت ان هذه الجمعية بها يتحد المسلمون وهل هذا دواء شاف ؟

أقول : عرفت من نفس القرآن ، فانظروا الآية المتقدمة ، الحاضة على الاجتماع ، وهى :

ـ واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمة إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ـ هذه

الآية

الآية أمرت المسلمين بالاجتماع وعدم التفرق ، ولكنها لم تبين كيف السبيل إلى ذلك ، ولذلك أردفها بآية أخرى لبيان ذلك فقال ـ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف ـ وهذا هو الفريق الأول الذى ينشر العلوم والمعارف والصناعات ويحض على العبادات الدينية ثم قال ـ وينهون عن المنكر ـ وهذا هو القسم الثانى فالنهى عن المنكر هذا يشمل الذنوب الخاصة بين المسلمين والكفر والمعاصى والمظالم الواقعة عليهم فى مشارق الأرض ومغاربها فأولئك هم الذين يجمعون تلك المظالم ويوصلونها الى الجمعية الكبرى ، وهى بسبب هذا القسم وبعمله تنشر أخبار تلك المنكرات فى أقطار الأرض حتى يفر المسلمون من هذه المظالم ويقاطعوا تجارة الأمة الظالمة واذن يحق لهم وعد الله إذ قال ـ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ـ هذه الآية ذكرناها مرة أخرى فى الكتاب وأعدناها هنا بعد أن بينا طريق الاتحاد بين المسلمين تلك الطريق التى هدانا الله لاستخراجها من الكتاب العزيز لاسبيل الى إسعاد المسلمين بغيرها ولاسبيل لاراحتهم وتمكينهم فى الأرض واستخلافهم فيها وتبديل خوفهم أمنا إلا بهذه السبيل وحدها فليفكر المسلمون ماشاءوا فهم والله لاينجون من شر الفرنجة إلا بهذه السبيل وحدها ، ولنقرأ الآية على وجهها فنقول ـ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون . ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ـ فانظروا يامعاشر المسلمين كيف قال ـ ولتكن فاللام لام الأمر للوجوب فالمسلمون فى أنحاء المعمورة أى الأغنياء والعلماء منهم آثمون مذنبون إن لم يقوموا بهذا الأمر ، وبعد أن بين القسمين وهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر قال ـ وأولئك هم المفلحون اشارة الى ماينالون فى الدنيا من الطمأنينة والسعادة والثناء الحسن عليهم من الأمة الاسلامية وفى الآخرة من علو الدرجات ومنتهى السعادات والقصور والحور والولدان فهذا قوله ـ وأولئك هم المفلحون ـ ولما كانت الآية مبينة كيف يكون اتحاد المسلمين وسهلت الطريق وأبانت حقيقتها الناصعة أردفها بالانذار فقال ـ ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ـ وهذا انذار من الله للمسلمين اذا أغفلوا أمر هذه الجمعية المركزية ذات الفروع إذ قال احذروا أن تكونوا متفرقين كالأمم السابقة التى بينت لها السبيل ومهدت لها الطرق فتفرقوا طرائق وكل حزب بما لديهم فرحون لأنهم تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم الآيات البينات الواضحات

ولقد أبنت لكم يامعشر المسلمين كيف تكونون متحدين وعلمتكم طرق الاتحاد وعدم التفرق فاذا خالفتم وغفلتم بعد هذا البيان كنتم كأولئك الذين عرفوا الطرق فتركوها فتفرقوا فكان لهم من ذلك عذاب عظيم فى الدنيا بالذلة وفى الآخرة بجهنم أما من ساروا على طريق الاتحاد فأولئك هم الفائزون

﴿ فصل فى أن الكعبة المشرفة أيام الحج دار ندوة ﴾

وعلى هاتين الطائفتين المصلحتين فى الاسلام المرسلتين من الجمعية الكبرى التى أشار الله لها فى كتابه العزيز أن يجتمعوا كل سنة عند البيت الحرام بمكة شرفها الله فان للحج أكبر نصيب فى هداية المسلمين النازحين اليه من أطراف البلاد ، ولقد علم الله قبل أن يخلق الاسلام والمسلمين حاجتهم إلى بيت يحجونه ويكون مثابة لهم أى مرجعا وأمنا فقال ـ واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ـ وقال ـ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم مافى السموات ومافى الأرض وأن الله بكل شىء عليم ـ فانظروا وتعجبوا كيف ختم الآية بقوله ـ ذلك لتعلموا أن الله يعلم مافى السموات ومافى الأرض ـ وقد زاد على ذلك فقال : ـ وأن الله بكل شىء عليم ـ

فتأملوا كيف جعل أن علمنا بأن الكعبة قيام للناس يورثنا علم أنه يعلم مافى السموات ومافى الأرض بل يعلم

كل شيء ذلك لأن الأمر اتضح فى هذه الأيام أن المسلمين ينتفعون سياسيا برجوعهم الى هذا المكان وجعله دار ندوة كل عام يتشاورون فيه ويتباحثون وهم فى مأمن فى ذلك الوادى السحيق فضلا عن فريضة الحج ، إن ذلك أمر لم يكن فى علم أحد من الناس بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

ومن ذا الذى يعلم الغيب إذ ذاك فيقول ان الكعبة ستكون مرجعا للمسلمين يعرف بعضهم بعضا ويقضون فى الأمور السياسية العامة و يتعارفون و يتحدون ويكون من وراء ذلك سؤددهم وعزهم ومجدهم وخروجهم من تحت نير ذل العبودية ، لاجرم أن الذى عرف ذلك هو الله الذى فرض الحج ورسم البيت وعرف مستقبل المسلمين ومايؤول اليه أمرهم فهو يعلم مافى السموات ومافى الأرض الخ الا أن لكل شيء سببا فلا يكون الحب بلا زرع ولا الثمر بلا شجر ولا النيل بلا مطر ولا الرى بدون سقى ، هكذا لن يكون اتحاد المسلمين ، الا بالطرق التى رسمناها والبيانات التى أوضحناها ، والله هو الولى الحميد وبهذا تم الكلام على القسمين : قسم السموات والأرض . وقسم انزال القرآن باللغة العربية وانذار أم القرى ومن حولها . وأختم هذا المقال بخطاب أوجهه لجميع المسلمين فأقول :

أيها المسلمون : قد شرحت لكم نظام العوالم إجمالا ، ولاجرم أن أوّلها عالم المجرّة الذى يدور مرة واحدة فى (٣٠٠) مليون سنة ، وهناك دوران الكواكب السيارة فى أوقاتها المعينة والأرض ثم النبات وأوراقه وثمراته واتصال هذا كله بأجسامنا ثم نفوسنا ، ثم بعد ذلك شرحت اتصال الأمم الاسلامية على الأرض فى مكة وما حولها ، وهذه أمة العرب جمعها الاسلام ، وجمعتها اللغة العربية ، وجمعها تقارب الأوطان ، فهى اذا لم تبادر بالاجتماع والاتحاد فهى لامحالة معاقبة على تفريطها ، و بينها و بين الفرس والترك علاقات الدين والجوار ، فليكن اتحاد بين هذه الأمم وعلاقات متينة وهكذا سيكون ، إذن فليعمم التعليم الآن فى بلاد العرب و بلاد الاسلام ، ثم لتدرس العوالم كلها ، وتدرس الكرة الأرضية من حيث الجغرافية ، وليدرس التاريخ دراسة تامة ، وليخصص لكل علم طائفة ، ولتقرءوا علوم كل الأمم ، ثم ليكن منكم حكماء وعلماء بكل علم و بكل فرع ، هناك هناك أيها المسلمون تكونون شهداء على الناس كما أن الرسول شهيد عليكم ، هناك فقط تتبوّؤن مركزكم فى الأرض ، هناك أنتم تعلمون أمم الشرق وأمم الغرب كيف يكون السلام وكيف تكون السعادة المستقبلة ، ولأختم هذا المقال بايضاح أجر المصلحين وأجره ﷺ فوق ماتقدم فى التفسير اللفظى ، فأقول مستعينا بالله :

لامخلصا فى هذه الأرض ، عارفا بصانع العالم ، دارسا لنظام هذه الدنيا إلا وله قلب متقد حرارة وصدقا واخلاصا و بهجة ونورا وحبا لرقىّ هذه الانسانية المسكينة المضطربة المعذبة

هذه حال الدارسين العارفين فى جميع أمم الأرض ، فاذا كانت هذه حال الدارسين المفكرين فكيف تكون حال الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ، إن للأنبياء سعادة فى نفوسهم يحسون بها ، ولقد ضرب لنا الله مثلهم المحسوس بالأم ترضع ولدها والأب الشفيق ، فالأب والأم يربيان ولدهما لايبغيان جزاء ولاشكورا ، بل هما يجعلان حياتهما وقفا على تنمية هذا الطفل . فاذا كانت هذه حال العامة فى الأمم بالنسبة لأبنائهم فكيف بالأنبياء بالنسبة لأممهم . إن للأنبياء لحبا خالصا لربهم . وهذا الحب تؤدهم الى كل قول وفعل جميلين ، وصدورهم منشرحة لما يصنعون . ثم ان الصالحين من أممهم يقول الله لهم ــ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّا ــ فهذا الودّ الذى يلقى فى قلوب الناس لهم ودّ الله ولهم نتيجة مرتبة على الأعمال الصالحة ، إن الأجر لايسأله إلا الرجل المتكلف ، أما الأنبياء فليسوا متكلفين ــ قل ماأسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين * إن هو إلا ذكر للعالمين * ولتعلمنّ نبأه بعد حين ــ

الذى لاتكلف عنده يكون عمله قريبا من السليقة ، فنفس العمل محبوب، ومن نتيجة المودة ، الأنبياء

لا يسألون

لايسألون أجرا على التبليغ والله برأ رسوله من ذلك ، وغاية مايحبه الأنبياء و يكرمون به أن يكون أتباعهم مقرّبين الى ربهم ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ ان الذى يسرّهم هو ارتقاء أممهم فى الصلاح والتقوى ، فلوكان هناك أجر لم يزد على ذلك ، ومعلوم أن هذا ليس أجرا وانما هو نجاح رسالتهم وتمام أمرهم ورغبتهم فى اسعاد الناس وهذا قوله تعالى ـ قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا ـ ، إذن قرّة عينه ﷺ أن يرى أتباعه يتقرّبون الى الله تعالى و يطلبون الزلفى لديه بالايمان والطاعة ، فصوّر ذلك بصورة الاجر من حيث انه مقصود فعله وهوليس بأجر وانما هو حب للاسعاد العام للناس ، وهذا المعنى هو الذى جاء فى الآية فى هذه السورة على قول من أقوال العلماء غير الجمهور ـ قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى ـ أى إلا أن تودوا الله ورسوله فى التقرّب له تعالى بالطاعات والأعمال الصالحات ، وهذا المعنى لاينافى المعنى المشهور ، ان المعنى المشهور داخل فى هذا بطريق التبع لأن المودة للأشراف مقرّبة لله لجميع الأعمال الصالحات ، وهذا المعنى العام هو الذى يطابق آية الفرقان المتقدّمة ـ إلا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا ـ

تحقيق لمقام الود

وتبيان عام لمودّة الأنبياء والمصلحين

اعلم أنه لاسعادة فى دنيا ولافى أخرى أجل من سعادة الحب والودّ ، إن الله هو الغفور الودود ، فاذا وجدنا بعض الكتاب فى عصرنا فى صحيفة « الضياء » يوم ١٩ يناير سنة ١٩٣١ م يصف الحب الخاص والودّ المحدود بأوصاف منطبقة على مانشاهده فى أحوال الناس من التضحية والايثار والفرح بكل مايبتهج به المحبوب فما بالك بالحب العام الذى يسع العوالم كلها ، فانظر كيف ضرب مثلا :

(١) لسعادة المحب بما يبدو من محبوبه وقد شبه ذلك بانعكاس نور الشمس عن القمر

(٢) وبالكاتب الفكاهى الذى يتلمس سعادته من السامعين لكتابته

(٣) وبالمرء يجد لحديثه سامعا جديدا

(٤) وبالرجل يجد امرأته تحبه

(٥) وبالرجل آتى بالمشمش لأطفاله الفقراء فسعادته بفرحهم

(٦) والعاشق مع من عشق فى الفقر وقد أكل المحبوب العنب والمحب فرح به ، وهاك نص المقال المذكور

خواطر فى الحياة

انحصار المرء فى ذاته وتقييد شعوره وفكره بنفسه من دواعى الألم والشقاء وأما سعادته وغبطته فهى فى الخروج بمعونة الخيال عن دائرة نفسه وحدودها ، والسعادة وان كان ينبوعها كائنا فى نفوسنا الاأننا لانعرفها ولا نتذوقها الااذا انعكست علينا من شىء خارج عن أنفسنا كنور الشمس المنعكس عن صفحة القمر ، وهذا العنصر الأجنبى الذى يمتزج بالسعادة يكسبها فى شعورنا حلاوة وغرابة مثلما تفعل عناصر القمر بنور الشمس انظر الى الكاتب الفكاهى مؤلف الكوميديا ، انه يجهز ملحه وطرائفه فى الخلوة فهل يتذوّق حلاوتها إذ ذاك ؟ كلا ، انما يتذوّق لذاتها ، و يجنى ثمراتها من بريق السرور فى أعين الجماهير الشاهدة تمثيلها ، ومن هتاف الطرب فى أصواتهم المتصاعدة ، ألاترى الى الحديث المملول من طول الاعادة كيف يخلع ملالته و يكتسى رونقا ورواء اذا صادف سامعا جديدا ؟ وأنت قد تكون مثريا من المحامد والمناقب حامل الجم من المحاسن والمزايا ولكنك لاتشعر بهذه تمام الشعور ولا تغتبط بها حق الاغتباط ولاترقص طربا لها وجذلا حتى ترى لألاءها منعكسا عليك من وجه غادة ألوف . وتبصر جمالها يتألق فى ألحاظها الضاحكة . [illegible]

حقا وتعرف حلاوة مذاقها ، والرجل الفقير يعود الى داره بقرطاس المشمش أوالبرتقال ، فاذا دخل على أولاده فأيقظهم فاستووا جالسين على فرشهم الرثه المهلهلة وتناولوا منـه الفاكهة يلتهمونها التهاما والعصير يتحلب من أفواههم المنهومة الظمئة ، والفرح يتوقد فى عيونهم المحرومة المتشوّقة ، عاد لشدّة الفرح والجذل كأنه قد ملك حدائق يافا و بساتين دمشق وجاه ، فهل يجدن مثل هذه اللذة فى أكلة برتقالة ؟ وأنت اذا كنت مع حبيبة لك فى قفار وفياف وقد آذاك السغب والصدى ثم رزقت عنقودا من العنب فأى الخطتين أحب اليك أن تقسمه على السواء بينكما أو تؤثرها به (الاعنبة واحدة تطفىء بها نار ظمئك) وتظل ترنو اليها وهي تلتقطه حبة حبة كما تفعل العصفورة بالقرطم ، وفى هذا المنظر الجيل والمشهد البديع مايشبعك ويرويك ويملأ بطنك ويكظ أضلاعك وأى طعام (عمرك الله) أشبع من الجمال وأروى ، وأى شراب أمتع من الحب وأشهى ؟ والحق انه لاسعادة فى الدنيا الا ما كان مزاجها الحب ، وما الحب الا استكشافنا أنفسنا فى خلاننا وأصفيائنا . وسرورنا بهذا الاستكشاف ، والانسان منفردا عن الجماعة لا يستطيع أن يدرك السعادة كالذى يعيش بعيـدا عن المرآة لا يستطيع أن يعرف صورة وجهه قيمة المرء مايحسنه وآثاره عنوان مايكمن فيه من الفضل ، وهي السراج الذى به نستطيع أن نسبر غور شخصيته ونقيس أعماقها وابعادها ولا جدال فى أن كل امرئ يخرج الى الدنيا منطويا على قدر معلوم من القوة أو الكفاية لايزال متناميا مع مقدارا نتاجه . وكذلك نرى أن كل كلمة أو فعلة تصدر عن امرىء تكون مطبوعة بطابع شخصيته بل تكون حلقة فى سلسلة حياته ، ولقد كذب من حسب الانسان متناقضا متباينا انما هو متجانس متناسق متشابه الاقوال متماثل الافعال . وما صدق من قال عن رجال الأدب انهم عقلاء أذكياء على الورق . أما فى ميدان الحياة فحمق أغبياء «يغرقون فى شبر من الماء» هذا كذب وبهتان . ولا يعقل أن ترى الرجل الواحد فيلسوفا على مكتبه وحمارا فى الشارع . ولا أن يكون فردا بعينه أعرج فى الطرقات ثم أبرع رقاص فى الحفلات الساهرة . أجل انه على قدر قوة المرء و بحسب حذقه ومهارته فى استخدام هذه القوة تكون قيمة عمله . كما أنه على قدر قوة الدفع يكون مرمى قذيفة المدفع وعلى قدر قوة الباس وامتداد الأنفاس تكون سرعة العداء والمشاء واذا رأيت شعرا خاليا من حسن النسق والانسجام فاعلم ان ذلك لاختلال النسق وقلة الانسجام فى روح الشاعر . وكذلك اذا عثرت على الكلمة أو الفعلة لرجل مادلتك عليه وساقتك اليه كما يرجع بك شعاع الشمس الى الشمس .

معظم الناس لاشخصية لهم . أولئك لاوزن لهم ولا قيمة . وأهميتهم فى كثرة عددهم . ومن أجلهم يشتغل العدادون وكتاب الاحصاء . ومنهم تتألف الجماعات والجماهير والأغلبيات الساحقات . وهم الذين يجمعون الأموال ويؤدون العادى المعروف من أعمال هذه الدنيا ولن تكون لهم قيمة الا تحت اشراف القادة الزعماء فهم كالعجينة يشكلها الصانع الحاذق كما يشاء ، ويشيد بهم البناء كما يشيد باللبنات ، وهم فى الجملة يكونون الرأى العام وان كنا نعرف أن الرأى العام فى كل عصر وجيل انما هو زبدة أفكار ستة أو سبعة من الرجال يتوسدون صفائح قبورهم فى طمأنينة وسلام ، والجماهير تحتفظ بأفكار أولئك الموتى كما يحتفظ هواء الجو بحرارة الشمس ونورها بعد الغروب ،

ولامشاحة فى أن الشخصية البارزة أو التفرد أو قوة الخلق أو الرجولة الشاذة المتينة أوماشئت أن تسمى تلك الميزة التى اصطلحنا على تلقيبها (العبقرية) هى أفضل هبات الطبيعة للانسان وأجزل آلتها وليس مقدم الرجل القوى الى هذه الدنيا الاحسن البشارة بسعادة المستقبل ، فهو نبوءة خير ، وبشرى فلاح مثله فى ذلك كالريح تهب الآن ههنا ولكن الموجة التى هى من فعلها وأثر هبوبها لن تلبث بعد ركودها أن تفيض وتطغى على الساحل الأقصى الواقع على مسافة ألف ميل ،

ان الرجل الشاذ ليعد نعمة عظيمة فى مثل دنيانا هذه السخيفة السمجة الاعتيادية ، وكفى أرباب الشذوذ

والانحراف

والانحراف وأهل المجون والهزل وذوى الخلاعة والتهتك نخارا انهم يذهبون من وحشة الحياة الاجتماعية وينفون من سامتها وملها بتنويعهم من تماثل هيئتها وصورتها وبتكسيرهم من استواء أديمها الجامد الميت وجدير بالانسان أن يصبح معروفا بين الملأ بشىء خلاف اسمه ولقبه ،

وهذه الثمرة الشخصية والطابع الذاتى أو (الماركة) الذاتية تكون فى عالم التأليف جليلة القيمة ، من حيث ان عظمة المؤلف لاتتوقف على مايشركه فيه غيره بل على ماينفرد فيه بنفسه ويستأثر به وحده ، والرجل العظيم هو المبتكر الذى يصنع الشىء لأول مرة ، لقد كان استكشاف القارة الأمريكية من أصعب المشاق ، فلما استكشفت أصبحت الرحلة اليها من أسهل الأمور ، وتلك الميزة الخاصة المنفردة التى تمتاز بها القطعة الفنية من شعر أو نثر أو نقش أو غناء هى الأساس الذى يقوم فوقه الحكم النهائى عليها وتسجل كلمة التاريخ وعلى آية حال فالعمل الفنى المشتمل على هذه الميزة الخاصة الفردية يكون حائزا لعناصر الخلود ،

أنظر الى الطبيعة تنبعث الحياة من جميع انحائها وأرجائها ، وتجيش الحياة فى جميع جزئياتها وذراتها وكأنها بلورة صافية شفافة تتجلى من ورائها الروح الأبدية السرمدية فى مليون شكل وهيئة ويلوح من دونها السر المقدس الالهى ، الظاهر الخفى ، فى آلاف الآلاف من الصبغ والألوان ، والنغم والألحان ، والصور والأشباح والأجراس والنبرات ، والروائح والنفحات ، . وكل شىء فى الطبيعة تنبجس منه الحياة وتتفجر حتى الصخر الأصم ان هو فى كنهه وحقيقته الاحياة تجسمت وروح تجسدت . كتلة من الروح الكلى وثوب تنسجه الحضرة القدسية الألهية ، . فى تلك اللحظة انعدمت المادة فى نظرى وتلاشت . والواقع انه لامادة فى الكون للعين الشاعرية الملائكية ، النافذة الثاقبة الجلية .

وكما أن الريح الجوالة على البحر تستل من كل موجة جزأ خفيا فتحمل منه الى أهل الساحل روح المحيط الأثيرية فكذلك النسيم الخطار على العشب والكلأ ، والشجر والنجم والدوح ، والنهر والجدول والغدير يسرق من الزمان ، صيفا كان أم خريفا ، جزئياته وذراته إذ يستلب من الافنان والاغصان ومن الورق والاكمام والأزهار ، ومن سائر النبت والاغراس ، ذرات ضوء الشمس فيحملها الينا ويمزجها مع الانفاس بنفوسنا ، وكذلك يروح تيار الهواء بعد انغماسه فى كؤوس النوار والازهار تحت موسيقى النحل والاطيار : تدب فيه الروح وتجيش الحياة ، فماهو بالجماد ، ولكنه كائن حى يترنم بذكر الله ويسبح بحمد المانح الوهاب

فى هذا الوادى المقدس أمام ذلك المشهد الرائع ، بين أكناف الطبيعة البديعة وقفت احتسى كأس الخلود وقد تفتح صدرى وانفسح جنانى لأبعد أغوار الخريف واسحق أعماقه ، حتى وسع قلبى ماامتد أمامى من ذلك المنظر الفتان الى الأفق المديد القصى . الى أدنى حشرة فى الثرى . الى اسمى طائر فى الجو

وكذلك بهرنى مشهد الطبيعة الرائع . وسحرنى وملك على مشاعرى فاندفعت على ضفاف النهر تجذبنى وشائج الاغصان ولفائف الأفنان وتحدونى أعجميات الألحان . على عذبات الايك والبان ، وذوات الاطواق على منابر الأوراق ، وأحس حميا الحياة تتدفق من ضياء الشمس ومن نسمات الشمال فى كيانى ووجدانى وكان العشب والكلأ المنبسط امامى بلانهاية . والدوح الباسق المنتشر القوى ومطارب البلابل والقمارى . كأن هذه كلها تنصب فى روحى ، وتمتزج بأجزاء نفسى . وتلك الأزهار التى تلقت لثمات الصباح على الآلاف المؤلفة من وجناتها ، رأيتنى اشاطرها حياتها وسرورها وفرحها

وأبصرت الجمال ينبثق من كل ورقة وزهرة والحسن ينسكب من كل موجة وقطرة وعجائب صنع الله تتجلى فى كل هباءة وذرة . ووجه الأرض صحيفة كتبت عليها سورة الجلال ، ولوحة نقشت بها صورة الفتنة والجمال

ولتعلمن «علمت الخبير» أن الساعات التى تظل فيها الروح مستغرقة فى الجمال لهى وحدها الساعات التى

نعيشها والجديرة ان تحسب من العمر ، وكل برهــة تقضيها بين الجيل والجليل والرائع والبديع انما هى فرصة تختلس من الدهر ، وغنيمة تنتهب من مخالب الزمن . هــذه الساعات التى تستغرق الروح وتفعمها جمالا هى الخليقة حقا بأن يقال انها لم تذهب ضياعا ولم تطح جبارا ، هذه هى الحياة المحضة الصريحة وكل ماعداها خدع واضاليل، وأكاذيب وأباطيل

بين أرجاء هذا المشهد الرائع الذى كله روح تجيش وحياة تتفزز محال ان يذكر الانسان الموت وتمر بباله فكرة الفناء ، وكيف يتأتى له الجمع بين الضدين والنقيضين ، صورة الحياة فى أكمل معانيها وأنصع مجاليها وصورة الموت . لقــد جعلت أقول لنفسى وأنا أنظر الى الطبيعة كأنها عروس قد تبرجت لزفاف وتزينت ، وأرنو الى الوادى العشيب يهتز نغمة وريا

وريا ض من مخايل الأرض فيها * خيــلاء الفتاة فى الأبراد

لقــد جعلت أقول فى نفسى وأنا أتأمل ذلك المنظر الحى المتالق الخفاق ، ولكأن الموت لم يهتد قط الى هــذه البقعة البهجة ولم يدر السبيل اليها . وأكبر ظنى أن عالمنا الأرضى قد كان هكذا قبــل هبوط آدم وحواء على أديمه النقى بذنو بهما وخطاياهما وذريتهما الباغية الطاغية المجرمة الآثمة بشرورها وآفاتها ومصائبها ونكباتها وحاشيتها و بطانتها من الأبالسة والشياطين على رأسهم ابليس ، وزبانيتها من العلل والأمراض والاوبئة على رأسها الجلاد الأكبر عزرائيل .

أجل لقد كانت هــذه البقعة البديعة قبل ظهور ألأم صنوف الحيوان أعنى الانسان . وتالله ان الناظر الى هــذا الوادى الأنيق لايكاد يتصور أن رسول المنية قد جاس قط خلاله ، وخاض ظــلاله ، ولاأن الأرض الطويلة العريضة تحتوى قبرا واحــدا أو تنطوى على رمة ، ولاأن الكون بأسره قد تصعدت قط فيه زفرة أو تحيرت عبرة ، أوعلت أنة اودوت رنة أوقام فيه حداد . ولبس سواد ، أوشقت جيوب وابراد .

الحب وحــده هو الذى يشفى غلة النفس الصادية ويشبع نهمة الروح الجائعة . الحب وحده هو الدواء وهو السعادة وهو البغية والغاية والمراد ، وليس فى سواه من ملذات الحياة ما يســد مسده أو يقوم مقامه . وماذا ترى فى مسرات العيش يغنى غناءه ؟.

اللهو ؟ اللهو لايشبع روح ذى الروح السامية ولايطرب نفس ذى النفس الشريفة العفة العالية ولاترضيه اذهان ذوى الاذهان الثاقبة النيرة . اذن فماذا يقوم مقام الحب ! السوامر والحفلات والأندية . هذا كتاب سرعان ماتقرؤه وتحفظه حتى تمله وتسأمه . العــلم أو الفن . هــذا أوذاك لايمكنه أن يملأ من عواطفنا الاجزاء معينا .

القراءة أوالثقافة ؟ هذه لاترد لهفة ولاتبرد غليلا . ولكن هنالك شيئا واحدا هو الكفيل أن يخلع على الحياة ذلك النور الذى لم يشاهد قط فى أرض ولاسماء ولم يرقط فوق بر ولابحر وذلك هو الحب

الحب أبعد غاية من أن يقاس وأعمق من أن يسبر وأكثر من أن يحصى و يحصر . وأعمق الحب وأشده ماتغاضى عن معايب المحبوب ومعايره مهما عظمت

والصداقة قد تحتاج الى أن تدعم على أساس من الاحترام المتبادل . ولكن الحب لايحتاج الى أى أساس أوسد أودعامة . الحب يكتفى بنفسه وحدها ويعيش على نفسه دون سواها

وشرارة الحب تقدح من نظرة أولمسة أوهمسة . اما الاحترام فليس فى طاقته أن يوجــد الحب كما أن قلة الاحترام لاتستطيع أن تمحو الحب ، ولاجرم ان العاشق ليظل وهذه الملايين التى تملأ الأرض أموات فى عينه ولم يبق حيا على ظهر الأرض الاعينان مشرقتان تنظران فى روحه وتحرقانها فتتركانها رمادا . أتفهم ماأقول ؟. كلا ؟ . أذن أنت لاتفهم الحب أتقول الاحترام أساس للحب ؟ .

تزعم أيها القارىء انك لن تحب المرأة الااذا كان لها من الصفات مايستدعى احترامك ؟ . كأن الحب قرش فى جيبك لن تخرجه الالمن أعجبك من الشحاذين وراقتك طباعه ؟ ان كان هذا رأيك فانت أجهل الناس بالحب وأولى لك ان فتح موضوعه أن تسكت أوتنسحب

والواقع ان العاشق لايحيا إلابروح معشوقته . ولايجد فى العالم الاشخصية واحدة ، هى وحدها المحبوبة وهى الجيلة وهى الضرورية وهى البغية والغرض والأمنية — شخصية واحدة من بين الملايين التى تملأ الدنيا وهذه الشخصية مهما هفت واخطأت ومهما جنت وأجرمت ومهما أسفت وسفلت ، ومهما لقيت من تحقير الناس وأصغارهم وسخريتهم وازدرائهم لتبقين فى عين عاشقها كما هى لايؤثر فيها ذاك شعرة ولاينقصها مثقال ذرة . هذا لايستطيع أن يغير الحب ، بل كلما زيد الأذى على تلك الشخصية وضوعف البلاء تبين لعاشقها أنها أحوج ماتكون الى الحب ، ومن ثم مانراه كثيرا من العشاق من مكافأة خيانة حبائبهم بالأمانة وغدرهن بالوفاء . ماأعجب الحب وما أعجب حاله ! نرى مليون وجه . ونسمع مليون صوت ونلقى مليون أنثى حاليات الثغور بالآلىء والعيون باللالاء ، ولكنهن لايمسسن أرواحنا ، ولايحركن شعورنا ، ثم نصادف من بينهن واحدة فاذا هى تحمل لنا الحياة أوالممات فى يدها ، وتلعب بهما كمايلعب الطفل بلعبه ، ياللعجب ، بماذا تمتاز هذه الواحدة عن تلك الملايين ؟ بلا شيء ؟ . وماهى أفضل ولاأجمل ولاأنبل ولاأكمل ممن شاهدنا قبلها . ومع ذلك تجدنا نرى الدنيا من غيرها صحراء مجدبة انتهى . وفى هذا المقال الجميل بعض المعانى السقيمة الساقطة

هاأناذا أيها الذكى كتبت المقالة جميعها وفيها وصف الحب ، وهذا الحب هو الحب الأدنى الذى لايعرف الشبان إلاإياه وقيمته ضئيلة ، ولقد ذكرت فى هذا التفسير كثيرا أن الحب ثلاثة أقسام : أدنى ، وأوسط ، وأعلى ، فاذكر هنا هو الأدنى لأنه معروف ، والأوسط عشق العلوم ، والأعلى حب الله تعالى وعشقه وهذا لايتصوره كثير من الناس ، وقليل جدا من النوع الانسانى من يفهم حب الله تعالى الذى يشير له أكثر القرآن ، وترى الحمد فى الفاتحة يشير له إذ الحمد والمدح لا يكونان إلا بعد نعمة عرفها الحامد ، وهذه المعرفة أولا تحدث فى قلب الحامد حبا للمنعم فينطلق لسانه بالثناء وأعماله للخدمة ، والخدمة هنا بالجوارح للأمم الأرضية الذين هم تحت رعاية المحبوب الممدوح ، ولاجرم أن الله عز وجل منبع كل جمال وعلم ورحمة وشجاعة ، فحصر الكاتب الحب فى المرأة راجع الى الطبقة المعروفة والحكماء يرتقون طبقات ويفرحون فرحا لاحد له بمحبوبهم ، ويذكرهم بذلك المحبوب كل شمس وقمر ونجم ونهر وبحر وشجر وحجر وحبيب متبسم ، وتصبح حياة هذه الطائفة سعادة دائمة ولايحس بسعادتهم أحد إلا هم أنفسهم ولاقدرة لهم على التعبير عنها

هذا هو الود الذى ورد به القرآن انه للصالحين ، فهؤلاء هذه حالهم ، وهذا هو نموذج الود المذكور فى قوله تعالى فى آيتنا هنا — قل لاأسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى — أى اذا كان لى أجر فهل هو إلا أن تودوا الله ورسوله بالتقرب بالطاعات

فهذا هو التفسير الذى تؤيده آية الفرقان كما تقدم ، هذا هو الذى جاش بخاطرى ووافق تفسير بعض علماء الاسلام ، وفسر بمنطوق آية الفرقان ، وذلك ليلة الخميس ثالث يوم من رمضان الأغر سنة ١٣٤٩ هـ بعد نصف الليل

يامعاشر المسلمين : كفى غفلة وجهلا ، لم ينزل هذا الدين إلا لانعاش الأمم وايقاظها واحداث حركة فكرية جدية ، أما اذا ظن المترفون المنعمون وهم على فرشهم أن الأنبياء يبتغون من النبوة أن يقال فى أبنائهم ما قاله النصارى فى المسيح ، فيقول الباطنية فى كرام آل البيت انهم آلهة (كما تقدم فى سورة الكهف عند آية — وماكنت متخذ المضلين عضدا — وعند آية ابراهيم فى آخر سورة ابراهيم وهكذا) فذلك جهالة تؤدى الى بطالة . اكرام آل البيت مطلوب مرغوب ، ولكن مما لاسبيل الى قبوله أن يتخذ ذلك ذريعة الى أن

تناط أمور المسلمين بمن لاوسيلة عنده إلا النسب . كلا . ثم كلا . ديننا يراعى الكفاءة للأعمال ، إن نبينا ﷺ خاتم الأنبياء فلايوسد عملا الا الى أهله

أيها المسلمون : أيها الأذكياء . لاسعادة إلا بالحب ، والحبّ الدائم حب الحيّ الذى لايموت ، وهذا دونه خرط القتاد لأكثر نوع الانسان ، ولن يصل اليه إلا الأقلون . انتهى ليلة الخميس الموافق ٣ رمضان سنة ١٣٤٩ هجرية

جمال الحكمة والبهجة

فى هذا المقال

يا ألله أنت أريتنا جمال وضعك ، وحسن صنعك ، وآنستنا بنور وجهك ، وأشرقت علينا بهجات نورك وأنوار شموسك وأقمارك ، ورأينا يار بنا علاقات تامّة بين أرضك وشمسك ، مدا وجزرا ، وكذلك مع قمرك ، ورأينا الحركات منتظمات ، ورأينا أجسامنا وتربيتنا منوطين بالحرارة والضوء الساريين فى النبات الموصل لنا الصحة والقوّة من عالمك الأعلى ، وهانحن أولاء رأينا علاقتنا بالأمم حولنا كعلاقتنا بالشمس والقمر وكل معدن ونبات وحيوان

نظام خلق الانسان

هانحن أولاء يار بنافهمنا وضعك ، وشرح صدورنا فعلك ، وقد بهرنا مارأيناه فى خلق أجسامنا ، يار بنا هانحن أولاء نرى أجسامنا مصنوعة بشكل يخالف كل حيوان فى برّ أو بحر أو هواء ، إن هذا الجسم كتاب مفتوح هورقّ منشور ، هو حكمة ، هو علم ، هو رمز ، ومتى ملكنا هذا الرمز عشنا فى الأرض سعداء ، ر باه رأيناك جعلت الحيوانات مقسمة أقساما ، فمنها الفقرية ، ومنها الحلقية ، ومنها المفصلية ، ومنها الرخوة ، ومنها النباتية

(١) إن الحيوانات النباتية هى التى نراها تعيش فى البحار كأنها نبات ، إذن فيها حياة كحياتنا ولكنها لم تعط قوّة كقوّتنا وعقولا كعقولنا (انظر صورتها فى آخر سورة الحج ، فبعضها ذات خمسة أشعة منتظمة جميلة ، وهى عند آية الذباب)

(٢) والحيوانات الرخوة مثل المحار والصدف الذى فيه اللؤلؤ ، وأم الخلول (وقد شرح بعضها فى سورة مريم فى أوّلها شرحا وافيا فانظره) فهذه مع ماقبلها لما قابلنا صنعك فيها بصنعك فى أجسامنا دهشنا أشدّ الدهش من اتقان واحكام فينا وارتقاء مرتفع عن تلك المخلوقات اللاصقات بالأرض المحبوسات فى البحار ، ولم تعط يدين بهما تصنع ماتشاء كما نصنع نحن من جميل الأعمال

(٣) ولم تكن الحيوانات المفصلية (مثل العنكبوت والعقرب والسرطان ، ونحوأم أربعة وأربعين رجلا ، وذوات مائة الأرجل ، وأمهات ذوات ألف رجل المتقدم ذكرها فى سورة النور) بمتمتعات بقوّة الانسان وعقله ويديه القويتين المفصلتين تفصيلا بديعا تصنع أعمالا لاقبل للعنكبوت بها ولا السرطان ، فأوّلهما أعطى حرفة النسيج وهو يعيش فى البرّ ، والثانى يعيش فى البحر مقيدا بقيود خاصة ، فأنى له بقوّة الانسان

(٤) وهل الحيوانات الحلقية (ومنها دود السباخ ، ودود العلق ، وحيوان البلهارسيا ، والانكلستوما ، والدود الكلوى) إلا عاجزات عجز ماقبلها من المفصلية ، فكل منها لاصقات بالأرض ، لاحول ولاقوّة لها إلا غرائزبها تعيش ثم تفنى من الوجود

(٥) وليست جميع الحيوانات الفقرية (التى شاركت الانسان فى فقراته ولها هيكل عظمية و بعضها له دم أحمر كدمه) الا أقلّ من الانسان تفصيلا فى أشكالها ، ونظاما فى أفعالها

وهل السمك فى البحار قامت شوكاته التى يعوم بها مقام يدى الانسان فى شىء اللهم إلا انها تعينه على السباحة وان شارك السمك الانسان فى الفقرات والهيكل العظمى ، وهل السلاحف بدرقاتها والورل والثعابين بسمومها بجانب الانسان إلا عواطل من القوى الشريفة والأعمال المنيفة ، ولعمرك مايغنى جناح (الدجاج والطاووس والحجل والبط وأبى قردان والنعامة والبلبل والببغاء والنسر والحدأة والعقاب) فتيلا ولاقطميرا ، وهل لذلك الجناح إلا انه يحمل الطير فى جوّ السماء ، وهل للجناح إلا عمل واحد هو حمل الطائر ليصل الى أعماله ، وفرق عظيم بين الأجنحة وأيدى الانسان القائمات بأعمال غير محصورات ، وما القيطس العائش فى البحار الذى يستخرج منه الانسان الزيت ، ولا الدلفين الذى ينفع الانسان بحفظه من الغرق ولا الكشلو الذى يستخرج منه الناس العبر السنجابى ، ولا الحيوانات المجترة (المشروحة فى سورة النحل بصور لبعضها) ولاذوات الظلف الواحد (كالفرس ، ولاذوات الأرجل المشقوقة مثل الخنزير وجاموس البحر ، ولاذوات الخرطوم كالفيل ، ولاالحيوانات الشديبة آكلة الحشرات مثل القنفد والفار الفيطى . ولا الحيوانات آكلات اللحوم كالاسود والنمور . ولاالقردة) لها ماللانسان من قوّة اليدين والعقل العظيم

يار بنا هانحن أولاء نظرنا فوجدنا اليدين اللتين وهبتهما لنا أعطتانا مالم يعطه الأسد فى عرينه ولاالقيطس فى مائه . ولاالنسر فى جوّه . ولاالفيل بقوّته . ولا الفرس بسرعته

نظرنا هذه المخلوقات فألفيناها مقيدات مقلدات لما غرست فيها من الغريزة . وأحطتها بالطبيعة . كلهنّ مقيدات ناقصات . فهنّ أقلّ من هذا الانسان قوّة معنوية وقوّة مادّية

رباه : نحن بنظرنا فى هذا الوجود ألفيناك وضعتنا فى مركز هام عجيب . فان نظرنا للشموس والأقمار وعالم النبات والحيوان والبحار والهواء . وجدناها كلها كأنها جسم واحد ونحن فى داخله ولنا به اتصال عجيب بل يكاد كل جسم من أجسامنا يكون أشبه بعضو فى الجسم العام فى السموات والأرض . وان نظرنا الى مافيه الحياة مثلنا من كل حيوان . وجدناك قيدتهنّ جميعا . فقيدت ذا الظلف . وذا الجناح . وصاحب نصف الجناح وقيدت الزاحف والماشى . وكل مافى هواء . أو على الأرض . أو فى لجج البحار . فكلهنّ مقيدات . ولم يفك من العقال إلا هذا الانسان ، فان أيدينا وعقولنا تفعل مالايقدر عليه الجناح . ولايسمو له الخرطوم فى الفيل ولاالقوّة الأسدية . والافتراس النمرى

إذن أنت يا ألله فضلتنا بعقل وبيدين فضلا عن سواهما . إذن أنت يار بنا جعلت أجسامنا مفصلات تفصيلا كأنها كتاب نقرؤه . وهذا الكتاب مفصل أبدع تفصيل . إذن يارب أنت أنعمت علينا بما وهبتنامن الحرّية العقلية ، وباليدين اللتين بهما نقدر على الاختراع والاحكام والتدبير وادارة كل عمل فى أرضنا من زراعة وصناعة وتجارة وعلم وابداع واختراع . كل ذلك ابتكرته عقولنا وصنعته أيدينا . إذن هذا الكتاب الذى قرأناه فى أنفسنا وتفصيلها وفى الحيوانات حولنا وفى العوالم العلوية والسفلية يوجب علينا أن نكون خلفاء لك فى أرضك . ولن تحقق هذه الخلافة إلا بالعلم والعمل . وأنا الآن يارب أكتب هذا القول للمسلمين تلك الأمة التى برزت فى الوجود منذ (١٣) قرنا وغيرت معالم الكرة الأرضية . و بسببها ظهرت أمم وأمم فى الشرق والغرب . فأنا أكتب هذا لهم وللأمم . وأسألك يارب يارحيم أن يقوم فيهم مجدّدون يقومون للنوع الانسانى بما قام به أسلافهم كل بحسب زمانه . وأخاطبهم قائلا :

« أيتها الأمم الاسلامية . ويا أيتها الأمم العربية : طال نومكم . ألم تسمعوا قول ربكم ـ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ـ . فأين خيريتكم الآن . ألستم لما نمتم عن وظيفتكم نولى بعضها غيركم من الأمم . أنتم خلفاء الله بنص الآية وبما يفهم من تفصيل الجسم الانسانى . أتريدون أن تكونوا فى الأمم أشبه بالعناكب والذباب وهم يكونون أشبه بالانسان . أتريدون أن تتجاهلوا مالكم

من العقول والأيدى فيجعل بعضنا نفسه كذى الجناح أوذى الحافر (حاشا لله أن يكون ذلك)
وهل يرضى أبناء العرب الذين هم أصل هذه الأمم الاسلامية أن يكونوا فى مؤخر الأمم و يتنزّلوا عن مجدهم الرفيع وشرفهم الكبير. ويذروا عقولهم بلاتفكير وأيديهم بلاعمل . ويجهلوا ماعرفت الأمم حولهم من العلوم والصناعات . لا لا . ياأمة الاسلام هاأناذا وصلت لكم القول ليعلم المفكرون منكم قوله تعالى ـ وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها ـ والله كما فصل القرآن فصل آيات هذا الوجود . ومن هذا التفصيل تفصيل جسم الانسان . فهو مفصل تفصيلا عجيبا . فهاهوذا القرآن وهاهوذا جسم الانسان يقضيان بحرمان الجاهلين الكاسلين الذين يذرون مواهب العقول وابتداع الأيدى عجائب الصناعات وابتكارها غرائب المنافع فى الدنيا والدين . كتب فى ٣ رمضان سنة ١٣٤٩ هـ و٢٢ يناير سنة ١٩٣١

نظرتى أمس (٣ رمضان أيضا) فى بلدة البركة

امرأة تطحن على رحاها

ياسبحان الله : مررت على هذه البلدة كعادتى لأنها فى طريقى الى مزرعتنا بتلك الجهة قرب القاهرة فما رأيت المرأة تدير رحاها تطحن بها برا تصنعه لأهل منزلها (وقد كان هذا الموضوع أى موضوع السموات والأرض وانتظام هذا المجموع واتصاله بجسم الانسان وأمم الأرض مرتسما فى ذهنى محضرا فى عقلى لاأقدر على التملص منه) حتى كانت هذه الرحى اتماما للموضوع وشرحا وتطبيقا على ذلك كله

الله أكبر : دارت الأرض حول نفسها فكان الليل والنهار . الأرض دائرة فى يد صانعها مجذوبة حول الشمس فكانت لها نتائج لاعدد لها ولاحصر . و بدورانها كان الصيف والشتاء والخريف والربيع وهناك مالاحصر له من المخلوقات . فهى رحى كبيرة . إن رحى المرأة التى رأيتها أمس مدورة والأرض كرة . إن رحى المرأة دائرة بيد المرأة والأرض دائرة بيد الصانع الحكيم . ولكن فرق مابين الدورتين . فدورة الأولى لغذاء بيت واحد . ودورة الثانية لغذاء أمم وأمم

ايه أيها المسلمون . كلما كانت الأمم فى صناعاتها أقرب الى صنع ربها كانت أسعد بالا وأنعم حالا وكلما ابتعدت عن صنعه كانت أقل وأذل . أفلاترون الآلات الطاحنة ذوات العجلات المنتظمات الدائرات دوران هذه الرحى عملتها أيدى أناس مثلكم فقامت مقام آلاف رحى كرحى المرأة التى رأيتها فى بلدة البركة

أفلاترون الآلات الخابزات والحارثات والجاريات فى البرّ والبحر فقد عملتها أيد كأيديكم بارشاد عقول كعقولكم فأغنت أمما وأمما

كلما كانت صناعات الأمم أقرب الى البساطة كانت الأمم أقرب الى التفرّق فيكون الانحلال ثم الفناء . وكانت بالنسبة للأمم ذات الصناعات العظيمة أشبه بالحيوانات الرخوة بالنسبة للانسان . وكلما كانت صناعاتها أقرب الى صنع الصانع الحكيم مبدع الكون كانت أقرب الى الاجتماع والاتحاد والكمال فى الانسانية . والانسان اليوم سائر الى هذه الحال شاء الجهال من المسلمين أم أبوا . وسيكون هذا النوع الانسانى أشبه بأمة واحدة تعمل لغاية واحدة ومنفعة للجميع وتكون سعادة الانسانية بتلك الأيدى والعقول فوق ماهو عليه الآن آلاف آلاف مرة ، وتكون نسبة سعادتهم اليوم الى سعادتهم فى المستقبل كنسبة الحيوانات المفصلية والحلقية كالعلق والعقرب الى نوع الانسان ، أوكنسبة هذه الرحى التى تديرها المرأة التى شاهدتها فى بلدة البركة وغيرها الى آلة بخارية عظيمة تطحن لآلاف من الأسرات فى القرى والأمصار . هذا وانى أحمدك اللهم على نعمة التوفيق والعرفان والحكمة والتبيان . كتب يوم الجمعة ٤ رمضان سنة ١٣٤٩ هـ

والى هنا تمّ الكلام على اللطيفة الرابعة والحمد لله رب العالمين

اللطيفة الخامسة .

في قوله تعالى — وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أومن وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه مايشاء انه عليّ حكيم —

حضرأخي العالم الذى اعتاد مناقشتي فى هذا التفسير . فقال : لقد جاء ذكرالشيخ الدباغ ذلك الأمي في آية — سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم — الخ ولكن للقول هناك بقية . ولقدأذكرني بها هذه الآية لأن البشرليس لهم أن يكلمهم الله إلا بالوحي أومن وراء حجاب أوارسال رسول الخ فياليت شعري أأمثال هذا الأمي من هؤلاء حتى يأتي لنا بعلوم عجيبة بعضها نعقله و بعضها لاندركه . فقلت : أيها الأخ . الشيخ الدباغ وأمثال الشيخ الدباغ لانأخذ العلم عنهم وانما هؤلاء مذكرون لنا بالوحي . فاذا سمعنا من هؤلاء حكما لم ندركها نحن و بحثنا فوجدناها موافقة للوحي المنزل على نبينا ﷺ قبلناه وان رأينا ما يخالفه نبذناه . فلنا عقول ولنا دين . ولكن ليس معنى ذلك أننا نترك هذه الينابيع النابعة من فيض الله كما لاندع الينابيع الظاهرة من الأرض بلاعمل منا . إن المسلم فى مستقبل الزمان غير المسلم الماضي في القرون المتأخرة . انه انسان غيرجامد . انسان فيه حقيقة الانسانية . لايدع نعمة تصل اليه ولاحكمة يسمعها إلا بحث فيها . فاذا كان الماء النابع من العيون لاينبغي للمسلم ترك الاستفادة منه . هكذا لايليق به أن يذرحكما تصدرعلى لسان انسان بدون أن ينقدها و يفكرفيها . بل فوق ذلك يعلم أن الله هونفسه الذى ساقها اليه اختبارا له لينظر أيشكر بقبولها و بحثها والاستفادة منها أم يكفر بتركها واحتقارها فيقول لا لا أنا لم أقرأ نص هذا القول في الدين . بل أقول فوق ذلك كل قول يسمعه المسلم من أى عالم فى أقطار الأرض فى جميع العلوم الرياضية والطبيعية والسياسية والتاريخية انما هو نعمة من الله ساقها اليه فنبذها انما هونبذ للنعمة المرسلة من الله اليه . وعليه أقول : ان المسلمين بعد انتشار هذا التفسير (وقد انتشرفعلا) سيكونون نورا للأمم لايذرون قوة فى الأرض وماعليها . ولاحكمة صادرة من رجل فتح عليه وهولم يتعلم كالشيخ الدباغ . ولاعلما جدّ فيه عالم صيني أو ياباني أوألماني أوفرنسي الخ بعقله ونصبه وآلاته الرصدية أوالكيمائية أوغيرها إلا سارعوا اليها ودرسوها ومحصوها . واصطفوا ماهونافع . وتركوا ماهوضارّ

هذا هوالحق الذى لامحيص عنه . أليس هذاهوقوله تعالى — فبشرعبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب —

فالآية عامة وتخصيصها لامعنى له . والأرض أرض الله والناس عباده . واذا انتفعنا بماء الأرض الذى هو من صنع الله وفيضه فان الانتفاع بما تنتجه العقول أولى لأن العقول أفضل من الموادّ والماء مادّة والعلم ينتج من العقول . إذن ترك ذلك كله أو بعضه جهالة وقلة دين وعقل

لك الحمد اللهم على نعمك ، ولك الشكر ، ولك الفضل العظيم علينا وعلى الناس أجمعين ، أنت الذى خلقت الانسان وجعلت جسمه فى هذه الأرض محوطا بالخير والشرّ وحجبته عن المعارف والعلوم بما سلطت عليه من شهوة وغضب ، فأخذت الأمم يموج بعضها فى بعض ، و يلعن بعضهم بعضا ، فجعلتهم معذّبين فى صورة منعمين ، وجهلاء فى صورة علماء ، وأريتهم بصيصا من العلم ، و بصيصا من الجمال ، وهيأت أرواحهم لقبوله بدرجات مختلفات بحيث لايتفق اثنان من الناس فى درجة واحدة ، فهم فى معارفهم مختلفون اختلافهم فى ألوانهم ولغاتهم ، واختلافهم فى خطوط أيديهم التى ظهر سرّها فيما تقدم فى السورة السابقة ، واختلاف استعدادهم الفطرى

(١) فهانحن أولاء نجد القرآن نزل على رسول الله ﷺ ولقد بهره الصحابة رضي الله عنهم والتابعون

فنشروه فى الكرة الأرضية ، وكان لهم فيه فهم غير ما نفهم ، وآراء غير ما نعرف ، والدليل على ذلك نتائج أعمالهم فى الأمم التى حكموها والممالك التى أحكموها والمظالم التى منعوها وأنواع العدل التى سلكوها والمبرات التى أظهروها والسعادات التى نشروها

(٢) ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وبغوا فى الأرض الفساد وقطعوا الأرحام فحق عليهم قول الله — فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم — فلذلك استرد الله منهم ممالكه وأورثها قوما آخرين قرونا وقرونا وهم يتدلون فى حضيض الجهالة والمذلة ، وكلما نبغ نابغ ذموه وحقروه ، وكلما ظهر عالم ازدروه ، واكتفوا من العلم بقشوره ، ومن القرآن بلفظه ، ومن العبادة بظاهرها ، ومن الدين باسمه ، واستحلوا الجهل واستعذبوه ، واستبشعوا العلم ونبذوه ، لذلك حرقوا كتب الامام الغزالى فى بعض بلاد الغرب فى القرن الخامس ، وذموا ابن رشد وكفروه أيام دولة الموحدين ، فلم تقم فى أمم العرب خصوصا وأمم الاسلام عموما للعلم قائمة بعد ذلك كما ذكرته سابقا فى هذا التفسير فى مواضع كثيرة وأوضحته أيما إيضاح

ولما تم ذلك قيض الله للخلف قوما آخرين ليسوا علماء كالذين نعهدهم ، بل خلقهم على شاكلة تلك الأمم لم يتعلموا علما ولم يحفظوا دينا ولم يقرءوا القرآن وأنطقهم بعلوم فوق طاقة نوع الانسان ، وانما فعل ذلك رحمة بهم ، ذلك لأن رحمة الله عامة ، فاننا نراه لم يذر حشرة ولا طيرا ولا حيوانا ذريا لا تراه العيون إلا أحاطه بالنعم وملأه بالحكم ، وأنت أيها الذكى تعرف ذلك من العجائب المتقدمة فى هذا التفسير ، فان العلوم التى ملأ الله بها أرضنا والمسلمون كانوا محرومين منها وقد كتبت ثمراتها فى هذا التفسير ، تملأ القلب روعة وحبا لله تعالى وايقانا بأنه لم يذر ذرة إلا ملأها بالحكم ولا حيوانا دقيقا أوعظيما إلا أحاطه برحمته فهو كذلك سبحانه أحاط آباءنا الذين جهلوا القرآن وكرهوا العلوم برحمته ولم يذرهم يتخبطون فى دياجير الظلام بلا مرشدين بل بث فيما بينهم هؤلاء الأقوام وهم أرباب القلوب والصالحون ، وكانوا كلما أوغلوا فى الجهل زادهم الله من هذه الطائفة ، ومن هؤلاء من ذكرته سابقا فى هذا التفسير وهو الشيخ الدباغ الذى ظهر فى بلاد مراكش منذ نحو قرنين اثنين ، فانه كان فى القرن الثانى عشر الهجرى ، فهل لك أيها الذكى أن أحدثك عما جرى بينى وبين بعض علماء مراكش فى عصرنا الحاضر فى أمر هذا الشيخ ، وذلك ان هذا التفسير أثناء طبعه أخذ أفاضل العلماء فى مدينة فاس وغيرها يقرءونه لتلاميذهم ، فأنا حمدت الله عز وجل وزدت ايقانا بما سيكون لهذه الأمة من السعادة والفضل العظيم

والحديث الذى جرى بينى وبين هذا العالم الفاضل هو ما يأتى . قال : «انا لما اطلعنا على تفسير الجواهر انشرحت صدورنا وازدادت مسرتنا ووالله لقد سرت روح هذا التفسير أثناء طبعه فى البلاد من أقصاها الى أقصاها ، وأصبح العلماء والطلاب والعامة الذين يتعلمون منهم يفكرون فى منافع أرضهم ومعادن جبالهم ومصادر أنهارهم ومواردها ، وفى الصناعات والعلوم على اختلاف درجاتها ، وقد انفتحت بصائرهم وانشرحت صدورهم بسبب ما يلقيه العلماء من الحكمة التى أودعها الله فى هذه الدنيا ، فأصبحوا يرون حكم الله فى الحجر والشجر والنهر والبحر والجبل مع أن تفسير القرآن كان العلماء يحرمونه قديما على التلاميذ باعتبار انه فوق طاقة المخلوقات ، وهذا القول سمعته من كثير من علماء تلك البلاد»

ثم قال : ووالله لقد أحسنت وأجدت وشرحت الصدر ، وهذا موافق لأقوال أكابر علماء الاسلام الذين لا يعولون فى أقوال أهل الكشف إلا على ما وافق الدين وأنت صرحت بذلك ، إذن هذا يشجعنى أن أسأل فى بعض كلام الشيخ الدباغ [illegible] حتى [illegible] . فقلت : سل ما بدا لك . فقال إن الشيخ عبد العزيز [illegible] لأنى [illegible] فى أول السور بأمور عجيبة جدا تفوق طاقة الانسان

ولما

ولما اطلعنا على تفسير الجواهر وجدنا بصيصا من نور كلامه فيه وبقية معناه فوق متناول العقول فى زماننا ، فأريد منك إيضاح هذا المقام حتى أبثه بين اخوانى العلماء اذا رجعنا الى تلك الأقطار . فقلت : اذا تفضلت بإيضاح السؤال فانى أرجو من الله أن أوفق للاجابة . فقال : انه يقول فى معنى (ص) انها تشير الى الفراغ الذى يتأول على ماتقتضيه أفعال كل ذات من الذوات ، فتراه على كافرعذابا وعلى مؤمن الى جنبه رحمة من الرحمات وعلى كافر آخر واقف الى جنب هذا المؤمن عذابا ولكن لامن جنس العذاب الذى للكافر الأول بل من جنس آخر ، وعلى مؤمن آخر واقف الى جنب هذا المؤمن رحمة ولكن لامن جنس الرحمة التى للمؤمن الأول بل من جنس آخر اقتضته أفعاله وهكذا حتى تأتى على جميع من فى المحشر ولاتجد فيه حيزا يشبه حيزا أبدا مع انه فراغ واحد فى رأى العين وعلى ماتقتضيه طبيعة الدنيا ، والمفتوح عليه يرى هذا عيانا ، فيرى زيدا فى فراغه على ماكتب له ، ويرى عمرا فى فراغه على ماكتب له ، وكأنهم الآن واقفون فيه بين يدى الله عزوجل ، فلهذا قلنا : لوعلم الناس ما أريد بص وما أشير اليه به ما اجترأ واحد على مخالفة أمر الله عزّوجل ، فانه لوفتح للناس على مكانتهم فى ذلك الفراغ لاغتبط المطيع ولمات المخالف أسى ، ولا يخفى أنه يكون فى ذلك الفراغ الكفار والمؤمنون والأنبياء والملائكة والجنّ والشياطين ، وقد أشار الى الكفار فى صدرالسورة بذكر طوائف منهم ، والى الأنبياء بذكرطوائف منهم ، والى المؤمنين بذكرهم خلال ذكر الأنبياء ، والى الملائكة بذكر الملأ الأعلى آخر السورة ، والى الجنّ والشياطين بالاشارة اليهم فى آخر السورة وذكر أحوالهم فى الدنيا وان لم تكن لهم فى المحشر لأنها هى السبب فى اختلاف أحوالهم فى ذلك الفراغ الذى يحشرون فيه وبقيت أسرار أخر تتعلق بما فى السورة لايحلّ افشاؤها والله تعالى أعلم

ثم أخذ بعد ذلك يتكلم على معنى «كهيعص» وغيرها فلاأطيل به ، ثم قال : «وقد رأيت نفس هذا الشيخ لما سأله الشيخ أحمد بن المبارك فى سبب كون تكبير العيد سبعا فى الركعة الأولى وستا فى الثانية أجابه مسرعا قائلا : «إن التكبيرة الأولى يشاهد فيها العبدالمكبر ولاسيما سيد الوجود ﷺ المكوّنات التى فى الأرض الأولى والتى فى السماء الأولى ويشاهد المكوّن سبحانه وتعالى ، والتكبيرة الثانية يشاهدفيها المكوّنات التى فى الأرض الثانية والتى فى السماء الثانية ، ويشاهد المكوّن سبحانه وتعالى لأنها أفعاله تبارك وتعالى ، والتكبيرة الثالثة يشاهد فيها المكوّنات التى فى الأرض الثالثة والتى فى السماء الثالثة ويشاهد المكوّن سبحانه لأنها أفعاله تبارك وتعالى ، والتكبيرة الرابعة يشاهد فيها المكونات التى فى الأرض الرابعة والتى فى السماء الرابعة ويشاهد فيها المكون سبحانه لأنها أفعاله تبارك وتعالى ، والتكبيرة الخامسة يشاهد فيها المكونات التى فى الأرض الخامسة والتى فى السماء الخامسة ويشاهد فيها المكون سبحانه لأنها أفعاله تبارك وتعالى ، والتكبيرة السادسة يشاهد فيها المكونات التى فى الأرض السادسة والتى فى السماء السادسة ويشاهد فيها المكون سبحانه لأنها أفعاله تبارك وتعالى ، والتكبيرة السابعة يشاهد فيها المكونات التى فى الأرض السابعة والتى فى السماء السابعة ويشاهد فيها المكون سبحانه وتعالى لأنها أفعاله تبارك وتعالى

هذا فى الركعة الأولى ، وأما الركعة الثانية فان التكبيرة الأولى منها يشاهد فيها ماخلق فى اليوم الأوّل وهو يوم الأحد ويشاهد المكوّن سبحانه وتعالى ، والتكبيرة الثانية يشاهد فيها ماخلق فى اليوم الثانى وهو يوم الاثنين ويشاهد المكوّن سبحانه ، والتكبيرة الثالثة يشاهد فيها ماخلق فى اليوم الثالث وهو يوم الثلاثاء ويشاهد المكون سبحانه ، والتكبيرة الرابعة يشاهد فيها ماخلق فى اليوم الرابع وهو يوم الأربعاء ويشاهد المكون سبحانه وتعالى ، والتكبيرة الخامسة يشاهد فيها ماخلق فى اليوم الخامس وهو يوم الخميس ويشاهد المكون سبحانه وتعالى ، والتكبيرة السادسة يشاهد فيها ماخلق فى اليوم السادس وهو يوم الجمعة ويشاهد المكون سبحانه وتعالى . فقلت : وهذه المخلوقات فى هذه الأيام الستة هى التى فى السموات السبع وفى الأرضين

السبع . فقال رضى الله عنه يشاهد عند رؤيته الى الأيام أصول المخلوقات التى كانت فى بدء الخلق ، وأما عند نظره الى السموات والأرضين فيشاهد المخلوقات الموجودات على ظهرهما . فقلت : فتكبير العيد سبعا وستا شرع فى حق كل مكلف وأين كل مكلف من هذه المشاهدة ؟ فقال رضى الله عنه من فتح الله عليه فلا كلام فيه ومن لم يفتح عليه فينبغى له أن يستعمل هذه المشاهدة ويستحضرها ولو على سبيل الاجمال والله تعالى جواد كريم ، فان استحضر العبد ما ذكرت فى هذا العيد وفى العيد الذى بعده وهكذا وفرح بربه ودام على ذلك فان الله تعالى لايخيبه ولاتخرج روحه من جسده حتى يريه تعالى هذه المشاهدات تفصيلا لأن الله على كل شىء قدير ، والبعد والانقطاع إنما حصل من ناحية العبد لامن ناحية الرب سبحانه وتعالى « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين »

ثم لما أجابه عن ذلك سأله عن سر التكبير ثلاثا اثر خمس عشرة فريضة من ظهر يوم النحر الى صبح اليوم الرابع . فقال : التكبيرة الأولى يستحضر فيها ويشاهد تصوير الذات نطفة ثم علقة ثم مضغة ، والتكبيرة الثانية يستحضر فيها ويشاهد تمام التصوير وكماله وحسن خلقه ونفخ الروح فيه وصيرورته خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ، والتكبيرة الثالثة يستحضر فيها ويشاهد فساد الصورة ورجوعها ترابا حين تكون فى القبر ، فان هذه الامور الثلاثة من عجائب قدرته تبارك وتعالى ، ومن غرائب ما أبدعه فى مصنوعاته سبحانه وتعالى لاإله إلاهو ، وهذا التكبير لايختص عند الصوفية بما ذكره الفقهاء بل يستعملونه دبر كل صلاة ولكن قبل السلام منها . قال رضى الله عنه : والمفتوح عليه يشاهد هذه الأحوال عيانا ويراها جهارا ، فيشاهد من باهر قدرته تعالى مالا يكيف ، وكم من عجائب لله تعالى فى مخلوقاته ، فاذا حصل للمفتوح عليه ما أوجب تغييره أوقبضه أونحو ذلك نظر اليها فيحصل له من التوحيد والاعتبار ومحو مانزل به مالا يكيف ، فغير المفتوح عليه يدفعه بالرؤية والعيان (كذا) . قال رضى الله عنه : وعلى وجه الأرض عجائب لوشاهدها أرباب الأدلة والبراهين ما احتاجوا الى دليل ، من تلك العجائب ما اذا شاهده العبد علم بوحدانية الله تعالى من غير دليل وتكفيه مشاهدة ذلك الأمر ، ومنها ما اذا شاهده العبد علم بوجود الجنة ، ولايحتاج الى اقامة الدليل على وجودها ، ومنها ما اذا شاهده العبد علم بوجود جهنم ولايحتاج الى دليل ، الى غير ذلك من عجائب مخلوقات الله تعالى والله أعلم . انتهى من كتاب الابريز

هذا هو الذى أسألك عنه . ثم قل : ولست أقول انك تجيبنى من ذلك المقام الواسع فانه فوق طاقة أهل الأرض ولكنى أسألك لتجيبنى بما يفتح الله به عليك أنت مما يناسب زماننا الذى خلقنا نحن فيه . فقلت اعلم أيها الأخ الفاضل أن الله عز وجل خلق أرباب القلوب وجعل بعضهم كالشيخ الدباغ من الطبقة التى لم تتعلم ، والسبب فى ذلك رحمته بالعباد ، فان المسلمين لما كرهوا العلوم وحرموها وطردوا أهل العلم فذهبوا الى أوروبا وهو سبحانه وعد ووعده حق إذ قال ـ ورحمتى وسعت كل شىء ـ فلم يشأ أن يذرهم بلاعلم لأن الانسان هو الحيوان الناطق . فقال لهم : « ياعبادى أنتم كرهتم المفكرين والعقلاء الذين يجتهدون بعقولهم ، فأنا أرسلت لكم من ينطقون بالعلم بلا كلفة ولكنى عدل ولم أخلقكم فى الأرض ليكون علمكم بلامشقة ، إن العلم الذى يعطى للانسان بلامشقة لافضل فيه له ، وكل ما كسبه الانسان بنصبه وتعبه كان كمالاله ، وكل ما أعطى له بلامشقة ولانصب كان أشبه بالمال الذى يرثه الولد عن أبيه ، فهو لايعرف له قيمة ولا وزنا

فهؤلاء الصالحون نفعهم الله فيهم ، فمنهم الصادقون وهم قليل جدا وأكثرهم يعيشون ممتعين بالراحة على نفقة هؤلاء الجهلاء ، وقد جعلوا الدين شبكة يصطادون بها حطام الدنيا ، وهم هم الذين يساعدون الفرنجة فى إذلال الشعوب ومثلهم بعض أمراء الاسلام ، فههنا ثلاث طوائف : بعض رجال العلم والتصوف وبعض الأمراء والمستعمرون ، فهؤلاء هم الذين يحبون أن يبقى المسلمون فى الذل والجهل ليعيشوا معا على حسابهم

ومن

ومن كدّ أيديهم ، وهذه الطوائف الثلاث كالعنكبوت تصطاد الذباب بالشبكات ، فالذباب هم جهال المسلمين والعنكبوت الصائد هم المستعمرون و بعض أمراء الاسلام وأكثر رجال التصوّف وأهل العلم الذين يعملون لارضاء المستعمرين

فاذا خلق الله أمثال الشيخ عبد العزيز الدباغ وأنطقه بالحكمة التى فوق متناول عقول أهل الأرض فذلك لحكم :

﴿ أوّلا ﴾ ان هذا الشيخ لم يقرأ مثلهم ، وليس فيلسوفا ولا حكيما حتى يكفروه ، فهذا به يأتنسون وهذه رحمة بهم

﴿ ثانيا ﴾ هو ينطق بالعلوم المدهشة التى يقف أكبر حكيم أمامها حائرا لعلوّها ، وهذا يجعل أولئك الجهلاء مصدّقين بالدين الاسلامى فيكون أرباب القلوب إذ ذاك أشبه بأوتاد وجبال ، فكما أن الأوتاد تحفظ الخيام من أن تزعزعها الرياح ، والجبال تحفظ الأرض من أن تميد ، هكذا أمثال الشيخ الدباغ والشيخ الخواص ومن على شاكلتهم بثهم الله فى الأرض كما بثّ الجبال الرواسى فثبتوا قلوب آبائنا علماء وجهلاء وثبتت العقائد وآمن الناس واستماتوا فى الدين استماتة حفظته من الضياع حتى سلموه الينا

ولا دين فى الأرض يبقى بلا دعاة ، وهذه النصرانية لولا جمعيات المبشرين (الذين يملكون من المال مئات الملايين ويجمعونه من سائر الأقطار ، وبهم زلزلوا عقائد بعض المسلمين) لم يبق لها وجود ، والدين الاسلامى لا جمعيات له والله يريد بقاءه كما وعد ، فخلق هؤلاء الذين هم أرباب القلوب فنطقوا بالحكمة التى تجرى على ألسنتهم كما ينطق المنوّمون (بالفتح) تنويما مغناطيسيا ، وهؤلاء وهؤلاء يشاهدون عوالم لم نشاهدها نحن فى أجسامنا هذه ، غاية الأمر أن أرباب القلوب من المسلمين وصلوا لذلك بأنوار بصائرهم والمنوّمون (بالفتح) وصلوا لذلك بطرق صناعية ، والأوّلون أرقى منهم ، والعوالم كلها فى يد الله وهو الذى فعل ذلك رحمة بآبائنا لحفظ هذا الدين ثم وصل الينا فنظرنا فيه وفرحنا بنعمة الله

حكم أرباب القلوب

(كالشيخ عبد العزيز الدباغ) وتفسير الجواهر

كلاهما من مصداق قوله تعالى — وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب — الخ وقوله أيضا فى السورة السابقة — سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد —

فقال الاستاذ : إن فى الأمر لغموضا ، فأرجو ايضاحه حتى أفهمه ، فقلت له : ماذا قال الشيخ عبد العزيز الدباغ ، ألم يقل ان كون تكبير الركعة الأولى فى العيد سبعا وفى الثانية ستا يرجع الى مشاهدة عجائب السموات السبع والأرضين السبع فى كل تكبيرة سماء وأرض من تلك الأرضين والسموات . قال بلى . قلت : ألم يرجع هو رحمه الله تكبيرات الركعة الثانية الست الى مشاهدة المخلوقات التى خلقت فوق الأرض فى كل يوم عالم من العوالم كالذى تقدم فى علم طبقات الأرض إجمالا موضحا بالصور الفوتوغرافية فى السورة السابقة . قال بلى والله . قلت رجع كلامه فى تكبير الركعتين الى عجائب السموات والأرضين فى الركعة الأولى والى ما كان عليهما فى مبدأ الخلق فى الثانية ، ولما كانت الأمم تعرف السبع والست ، وأن الأولى سموات وأرضون ، والثانية أيام ، أنزل هو التكبيرات على ذلك بالهام من الله تعالى

ومعلوم أن عوالم الأثير الذى لا وزن له قد قرّر علماء عصرنا انه عالم أثقل من الذهب والحديد بما لا حدّ

له كما تقدم فى أول ﴿ سورة الصافات ﴾ وان لم يكن مادة ، واذا كان الذهب أثقل من مقدار حجمه من الماء نحو ١٩ مرة فان المليم الواحد من هذا الجو أثقل من ألف طن كما تقدم فى أول ﴿ سورة الصافات ﴾ نقلا ماديا ، فاقرأه هناك مفصلا ، فالسموات السبع والأرضون السبع اقتصر عليها لأن الناس لم يسمعوا إلا بها ولكن فى زماننا ظهر أن المجرة فيها عشرة آلاف مليون أرض ؛ وكم فى الكون من ملايين المجرات ، إذن هذا ماهو إلا قول على مقدار مايفهم السامعون

ثم قلت : انظر زادك الله علما ، وشرح صدورنا وصدور العلماء فى الاسلام لانقاذ هذه الأمة المسكينة من الجهالة ، أفلست تراه لما سئل فى التكبير ثلاثا أثر خمس عشرة فريضة من ظهر يوم النحر الى صبح اليوم الرابع ، قسم أطوار خلق الانسان الى ثلاثة أقسام : فجعل أطوار النطفة والعلقة والمضغة قسما ، ثم تمام التصوير والحسن والجمال والكمال وانتشار الروح فيه وحياته قسما ، وهلاكه وفساد صورته ورجوعه ترابا قسما . وجعل كل قسم لتكبيرة من التكبيرات الثلاث . قال بلى . قلت : ثم انه لما أتم ذلك أتى بالمقصود الحقيقى ، وأبان أن ذلك ليس هو كل شىء وانما هو ضرب أمثال . فقال : « إن المفتوح عليه يشاهد من باهر قدرته تعالى مالا يكيف ، وكم من عجائب لله تعالى فى مخلوقاته ، فاذا حصل للمفتوح عليه ما أوجب تغييره أو قبضه أو نحو ذلك نظر اليها فيحصل له من التوحيد والاعتبار ومحو مانزل به مالا يكيف »

ثم قال : « وعلى وجه الأرض عجائب لو شاهدها أرباب الأدلة والبراهين ما احتاجوا الى دليل من تلك العجائب الخ »

أفلا تعجب معى من هذا المقال ؟ أليس هذا هو عين ما قلته فى هذا التفسير مرارا : « إن العبادات يقصد بها فتح باب العلوم »

ومن أعجب العجب أن يقول فى التكبير « إنه يقصد به التفكر فى السموات والأرض وماخلق عليها » وهذا هو تفسير قول المصلى « ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء مابينهما وملء ماشئت من شىء بعد الخ » وعين اذكاره فى ركوعه وسجوده إذ يذكر السمع والبصر الخ إذن هذا سر أظهره الله فى أيامنا هذه ، بل ألا تعجب من انك أنت سألت هذا السؤال أيها الذكى ! فقال وكيف ذلك ؟ فقلت : إن هذا المقال كله تفسير لآية ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ـ فأما الآفاق فهو ماذكره الشيخ الدباغ من السموات والأرض فى تكبيرات العيد ، وأما الأنفس فهو ماذكره رحمه الله فى تكبيرات أيام التشريق فى (١٥) فريضة . إذن هذا كله تفسير لآية ـ سنريهم آياتنا ـ الخ فى السورة السابقة

وانما أبرزه الله على ألسنة هؤلاء الذين يخلقون فى زمن اضمحلال العلم وشيوع الجهل ليكون ذخيرة للمسلمين يقرءونه وهم محجوبون فيؤمنون كما تقدم ، ولكنهم لطردهم العلماء وفرحهم بالجهل يعكف الصالحون منهم على العبادة ويذرون عقولهم تتخبط فى ديجور الظلام

اذا مالم تكن ابل فمعزى * كأن قرون جلتها العصى

ويكتفون بأنوار الصلاح مع حرمانهم من أنوار العلوم . وغاية الأمر أن أناسا منهم يفتح عليهم وهؤلاء قليل نفعهم للأمة ونحن جئنا فى الأرض ليكون بيننا رابطة ودية ، ولن تتم تلك الرابطة بيننا إلا بأن نعرف العلوم التى بثها الله فى أرضنا بعقولنا ، وهذا هو مقصود القرآن ، أما الفتوح فأمر آخر يختص بالانسان نفسه والسعادة الحقيقية فى اسعاد الأمة ولاسعادة لها إلا بتعميم التعليم ، ولن يكون ذلك إلا بالعقل والفهم والجرى على سنة الله فى أرضنا ، إذن أرباب القلوب :

(١) نفعوا القدماء بالايمان بسبب مشاهدتهم ، ولكن هؤلاء الأتباع لاعلم عندهم وعقولهم تقف عند حد خاص لأنهم يرون جميع علماء الاسلام جهلاء ، فالفقه والاصول ونحوها كلها لافائدة منها

وهكذا التفسير إذ تفسير هذه الطائفة فوق طاقة المفسرين

(٢) ونفعوا الذين فى زماننا وهم قرّاء أمثال هـذا التفسـير ، ذلك ان قرّاءه فى أقطار الاسلام سيكونون جميعا على مشرب واحد لأنهم يحبون معرفة العوالم العلوية والسفلية ، ويرون حكم الله فى كل ماجلّ ودقّ ، ويفرحون فرحا لاحدّ له ، ويرقون رقيا لاأعرف لنا منتهاه الآن ، فيكون الشافعى والحنفى والحنبلى والزيدى والمالكى والجعفرى وكل شيعى على سنن واحد فى حب ربهم وحب الأمة الاسلامية وحب العلوم ، ويرون هذا الخلاف البسيط فى عدد الركعات أوالتكبيرات أونحو ذلك أمرا سهلا عمليا ويتجلى لهم الجمال فى كل هذه الدنيا ، ويزدرون تلك العداوات فى القرون المتأخرة الناشئة من الجهـل بنظام الله تعالى فى العوالم كلها ، فهؤلاء سيذيعون مافى هذا التفسير من العلوم بين أمم الاسلام قاطبة . وهناك يقابلهم طوائف من العباد والنساك وتلاميذ صغار مشايخ الطرق ، فيقولون لهم إن هذه العلوم التى فى هذا التفسير ماهى إلا بدعة ولم ترد عن المتقدمين فيقولون لهـم : أرأيتم ان أعظم أمرها أمثال الشيخ الدباغ والشيخ الخوّاص فماذا تصنعون ؟ فهنالك يخضعون ويكون ماتقدم من كلام الشيخ الدباغ حجة عليهم ، ومتى سمعوه يقرّون بأنهم جهلاء وانهم يجب عليهم أن يتعلموا ، وغاية الأمر أن الأغبياء منهم يقولون هذا أمر لا يصح إلا بالفتح ، فيردّ عليهم بماتقدّم فى سورة الحج بمانقلته أنا فى هذا التفسير عنه نفسه وهوأن الفتح ليس مقصودا بل الحجاب لأكثر الناس خير منه . فقال الاستاذ : حقيقة أنا قرأت هـذا فى تلك السورة منقولا عنه »

فقلت : إذن ملخص كلام الشيخ الدباغ تفسير لهذه الآية وهومقدمة جعلها الله مخزونة فى الكتب حتى ظهرتفسيرالجواهر وأمثاله فى زماننا فوافق شرحه طبقته . ذلك ليأنس بهذا الكتاب جميع أفرادالأمة وأكثرهم أتباع مشايخ الصوفية . وهؤلاء متى عرفوا أن ذلك أهم مقصود الصوفية فرحوا به وأحبوه وتعلموا العلوم بعقولهم . واذن لا يكون هناك تعطيل لعقول المسلمين كما كان فى القرون المتأخرة . إذن لم يبق إلا أن أذكر معنى (ص) فى كلام الشيخ الدباغ

ثم ان ما قاله فى معنى (ص) وغيرها فكله على هـذا النمط . فهو للأمم الاسلامية الجاهـلة فى القرون المتأخرة إيمان وثبات عقيدة وللأمم الاسلامية المستقبلة المستنيرة بصائر ونور إذ يعرفون أن كلامهم هو إجمال لعلوم الأنفس والآفاق . وأمثال هـذا التفسير تفصيل يدركه العقل . وترى الأمم الاسلامية المستقبلة والحاضرة التى قرأت هذا الكتاب وهو « تفسير الجواهر » أن هذا ليس بدعا بل أرباب القلوب قد ألمعوا الى مافيه وأتوا برموز واشارات . فهم فى المسلمين أشبه بحروف أوّل السور فى القرآن . فكما أن حروف أوّل السور مفاتيح لعلوم تلك السور . وقد فتح الله فى هذا التفسير فى معانى هذه الحروف بما أراده على مقدار طاقة المؤلف وطاقة الأمم الاسلامية . هكذا جاء أولئك الصالحون وكأنهم رموز وكلامهم رموز فقد حفظها المسلمون ولم يدركوا مقصودهم . فجاء أهل عصرنا وقرءوا أمثال « كتاب الجواهر » فأدركوا التفصيل وهذا معناه أن تتصل الأمة سلفها وخلفها . فالسلف الأوّل وهم الصحابة والتابعون ومن بعدهم بالشريعة والعلوم الاسلامية وخلفهم الجهلاء فى القرون المتأخرة بالرموز والاشارات وكلام أرباب القلوب والمسلمون بعدنا بالعلم والحكمة وظهورهم فى الأمم المستقبلة وسعادتهم أوّلا واسعادهم لأهل الأرض ثانيا . وكل ذلك مع حبهم لربهم وخدمتهم للانسانية العامة

ولاجرم أن المعانى التى ذكرها الشيخ الدباغ فى معنى (ص) لم تخرج عن آيات الله فى الأنفس . واذا رأيناه فى التكبير وراء الصلوات أيام التشريق الثلاثة من أوّل ظهر يوم النحر يرجعها هو الى أحوال الأنفس

من حيث حياتها الجسمية فى الرحم وفى الدنيا وفى حال الموت وجعلها من العجائب والغرائب . فهاهوذا فى معنى (ص) يقول : « انها تشير الى الخلاء الخ »

ومعنى هـذا اننا نحن فى الأرض اليوم متفقون بحسب الظاهر فى الحيوانيـة والناطقية ، واننا نأ كل ونشرب ونلبس ، والحقيقة اننا الآن أشبـه بقوم فى أحلام ، فذا رأيت جماعة فى مجلس وهـم يتحدّثون فظاهرهـم واحد ، ولـكن الحقيقة أن أحدهم بين جنبيه نار ، والآخر بين جنبيه نار أخرى ، وثالث فى قلبه مسرة ، ورابع فى قلبه مسرة أخرى وهكذا ؛ فهـم إذن أشبه بالنائمين ، فهذا يحلم حلما مفزعا والآخر بجانبه يرى انه لابس تاج ملك ، أوان عروسا تزفّ اليـه . فاذا تشابه النائمان أجساما واختلفا نفوسا من حيث المسرة والمساءة ، فهكذا هؤلاء الجالسون المتشابهون فى مجلس واحد أكثرهم فى نصب وتعب وشقاء فى الحياة الدنيا والآخرة ، ولاشقاء هناك إلا من الشقاء هنا ، لأن من يملك قنطارا من الذهب فى غاية الحزن لأنه لايملك قنطارين ، وهـذا ظاهر واضح ، إذن هذه الحياة أشبه بنارجهنم ولـكن الناس لايعلمون أنهم فى تلك النار الجهنمية ، فهى وان لم تـكن نارا ظاهرة فهى عذاب شديد ونحن لانحسّ به ولا نظن انه عذاب

هذا معنى كلامه ، ومثل ماقلنا فى الشقاوة نقول فى السعادة ، فالسعيد أقوام تخلت نفوسهم عن الطمع والحسد والغلّ ، وهؤلاء يعيشون بيننا ولـكن الناس حولهم لايعرفون سعادتهم وصفاءهم وهم بين ظهرانينا إذن هذه الأنفس فيها عذابها الآن ونعيمها الآن ، ويتبوع العذاب والنعيم هذه الأنفس الانسانية فى الأرض والله هو المتجلى على الجميع ، وكأن الناس اليوم واقفون أمام ربهم والله سبحانه يعذب ويرحم كل نفس بما أودعه فيها ، والوقوف يوم القيامة تابع للوقوف فى الدنيا

هذا معنى كلامه وقد جعل جميع مافى السورة راجعا الى هذا الأصل كما تقدم ، فهذه المعانى التى يقولها الشيخ الدباغ راجعة كما قلت لك الآن الى عجائب الأنفس كما ان عجائب تقلب الانسان فى أطواره راجعة الى عجائب جسم الانسان

إذن معنى (ص) الذى ذكره مؤيد لما ذكرناه من أن هؤلاء القوم وان كانت علومهـم ليست من المستوى الذى نسير عليه فى أمثال هذا التفسير بل ترجع الى مقام آخر فانها ترجع الى عجائب الأنفس والآفاق وإذن سؤالك أيها الذكىّ جمعت فيه ما يتناول الآفاق فى السموات والأرض وما يتناول الأجسام الانسانيـة وعجائب النفوس الانسانية .

وبهذا ظهر أن الأمة الاسلامية متحدة المشارب سائرة على نمط واحد أوّلها وآخرها . فقال : ماشاء الله كان ، لقد شرحت صـدرى وأبنت الحقيقة وتجلت ، فلله الحمد والمنة ، وله الشكر على هذه النعمة . ولـكن عندى سؤال واحـد ، فهل لك أن تأذن لى به ؟ فقلت سل مابدا لك . فقال : لقد سمعت فى أثناء الاجابة على ماسألك عنه تقول : « إن هؤلاء الصالحين وأرباب القلوب يخلقون فى أيام اضمحلال العلم وشيوع الجهل » فكيف يكون ذلك ؟ فقلت إن الله عزّوجل قال ــ والله أنبتكم من الأرض نباتا ــ ولاجرم أن الانسان نبات مقلوب ، فرأسه فى الهواء والنبات رأسه فى الطين ويداه ورجلاه كفروع الشجرة وأغصانها وصدره وظهره كجذع الشجرة ولذلك يسمونه فى علم التشريح الجذع . قال نعم فهمت ، هذا واضح . فقلت إن النبات على قسـمين : نبات يخرج بلا زرع زارع ولاحرث حارث كما نرى فى الغابات والأودية والبرك والمستنقعات والأنهار وفوق الجبال ، ولقد مرّ عليك فى هذا التفسير أنواع المرجان التى تظهر بهيئة نبات وان كانت حيوانات كثيرة اجتمعت بصورة نبات . وبالجملة هذه الأرض ينبت فيها نبات نافع بلازارع له وتخرج منه ثمار بهجة بهية يانعة ، فاذا سكن تلك الأرض الانسان فانه يزيل تلك الغابات ويبيد الحشائش ويقتلعها فينتفع بالخشب والاعشاب ، ثم يستعمل الأرض لما يزرعه هو على حسب حاجته فلايخضع للطبيعة بل شرفه

هو

هو أن يخضعها هو بعقله الذى هو أشرف من الطبيعة

هذا هو المثل الذى أردت ضربه ، فلننظر الى المسلمين فانهم لما تركوا عقولهم ومواهبهم كانت نفوسهم أشبه بالأرض التى ظهرت فيها أنواع الطحلب والحشائش والشوك والحسك والأشجار المثمرة وغير المثمرة . فأما الطحلب والشوك والحسك فهم أولئك الدجالون من الشيوخ الذين يجتمع الناس حولهم وهم لاعلم عندهم ولادين ، وما أكثرهم فى بلاد الاسلام ، وعلامتهم انهم يأخذون المال إما من الحكومات الأجنبية المستعمرة ، واما من أهل البلاد ثمنا لولايتهم وصلاحهم

وأما الأشجار المثمرة ونحوها فنظيرها فى المسلمين أمثال الشيخ الدباغ والشيخ الخوّاص وهؤلاء قليل . فاذا ما ازدهرت البلاد الاسلامية بالعلم وعمرت العقول بالحكمة وترعرعت العلوم وارتقت ، فهنالك تقل هذه الطوائف إذ لاحاجة اليها كما يقل الحسك والشوك والأعشاب الضارّة بالزرع والبرك والمستنقعات الضارّات بنوع الانسان اذا انتظمت البلاد وعمّ الأمن وحفظت الأنهار والقنوات ، هنالك يحلّ زرع الزارعين من الناس محل مزارع الطبيعة ، ونرى النخل والزيتون والرمان والعنب والقمح بدل الشوك والحسك والحشائش الضارّة . هذا هو المثل الذى ضربه الله فى أرضه لهؤلاء الصالحين بقسميهم ، فانه اذا ارتقى التعليم فى بلاد الاسلام يقلّ هذا الفريق صادقهم وكاذبهم . فقال : لقد تمّ ما أردت أن أعرفه وانشرح صدرى . فقلت الحمد لله رب العالمين . كتب ليلة الجمعة ٧ نوفبر سنة ١٩٣٠ م

جمال العلم وبهجة الحكمة

ههنا قال صديقى : هل تأذن لى أن أسأل سؤالين يلذ لى وللمسلمين الاجابة عليهما ، فهذا المقام وان طال فان القول فيه جميل والحكمة بهجة والسعادة ترفرف بأجنحتها على هذه الأمة الاسلامية باظهار هذه الحكم التى كانت خافية على العقول ولم تكن إلا رموزا ، والدين يسر والقرآن شفاء ، والله يقول ــ ثم إن علينا بيانه ــ ويقول ــ ويريكم آياته ــ ويقول ــ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ــ واذا كان تبيان أن القرآن حق لا يكون إلا باليقين . فاذن أنا أطلب منك الاجابة على السؤالين الآتيين فما طلبت إلا اليقين الذى وعد الله أن ينشره فى المسلمين ، وقد صدق الله وعده فى زماننا وجاء اليقين لاسيما فى هذا التفسير ، فلعلى بعد هذا البيان أحظى بأن تأذن لى بايراد هذين السؤالين . فقلت حبا وكرامة . فقال :

(١) أوّلا إن ما أوردتموه فى تفسير كلام الشيخ الدباغ من حيث ان العجائب الكونية وأنواع الجمال تعرّف الناس أن هناك جنة وأن هناك نارا يحتاج الى إيضاح أوفى وعلم أوسع ، فلقد ذكرتم أمثال الذباب والقاذورات وأمثال الصقور والرمم وأمثال البهائم والمزارع من حيث اختلاف الأغذية باختلاف المغتذيات . وفى المقام طول . والاستنتاج يعوزه العقول الممتازة . فنحن فى حاجة الى برهان يسهل على كل قراء هذا التفسير

(٢) ثانيا إن الكلام فى العفونات والرطوبات وما يقابلها من الشهوات يعوزها زيادة إيضاح وبيان أتمّ من حيث الحكمة بحيث يكون بانضمامه الى ماتقدم كافيا وافيا لاشباع هذه النفوس المشرئبة للحكمة فى بلاد الاسلام

فقلت نعم أبين هنا عجبا آخر وهو اختلاف النبات ورقا وزهرا وثمرا . إن فى اختلاف النبات ثمارا وروائح وطعوما وجمالا وصغرا وكبرا لعبرا تفتح لنا باب المعقولات على مصراعيه . ألم تر أن معلوماتنا وعلومنا وعقولنا وعواطفنا تتربى فى معاهد ومدارس مخلوقات فى داخل أجسامنا . وتلك المدارس والمعاهد الداخلات فى

نفوسنا تشبه من وجه المصانع والمعامل التى وزعت على قناتنا الهضمية واختلفت باختلاف مناطقها . ففى الفم ترى ستة أنهرجعات لهضم المواد النشوية ، وهناك ترى غدة البنكرياس وغدة الصفراء وعصارات المعدة والأمعاء وحركات القبض والبسط لأعضاء الهضم ، فهذه فى هـذه الأغذية المادية التى يتعاطاها الانسان التى يمكنك أيها الذكى الرجوع الى دراستها كرة أخرى فى ﴿ سورة فاطر ﴾ عند قوله تعالى ـ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا ـ الخ وترى أشكالها مرسومة تسر قلبك بالتعقل وروحك بالفهم وجليسك بالأنس . فهذه هى التى شبهنا بها المدارس والمعاهد الموزعات فى مناطق عقولنا المرسومات فى مخنا فهـذه اذا وردت لها علوم إما بواسطة الحواس كالبصر والشم والذوق ، واما بواسطة كلام محمول فى الهواء داخل فى الصماخ دال على نفس تلك المعانى المنقولة بتلك الحواس مباشرة ، فان تلك المعاهد التى شبهناها بمناطق القناة الهضمية تتلقاها ، وكل معهـد من معاهد المخ يعمل فى تلك المعانى عمله ، فمعمل يجمع تلك المعلومات جمعا كأنه مخزن لرسومه وهوالحس المشترك ، ومعمل للتحليل والتركيب كالمعامل الكيمائية فى المدارس وهى القوة المخيلة ، ومعمل لاصدار الأحكام وهى القوة المفكرة ، ومعمل جعل لمجرد الحفظ ، وهناك آخر جعل للتذكير وهى « الذاكرة » . وهناك معمل جعل لابراز آثارما كمن فى تلك المعاهد كلها بهيئة ظاهرة غير خافية . فهو يصور ماتحويه تلك المعاهد كلها ويظهر للعالم الخارجى بحيث يستبين للناس أن وراء هذا المعهد معاهد جمعت صورا لكل ماهوظاهر للناس فى أقطار الأرض ، وهذا المعهد الأخير هو اللسان ، فهو يعبرعن تلك القوى كلها ويبرزها بهيئة حروف ، فهو يعبرعن كل مافى خزانة الخيال والحس المشترك والقوة المفكرة الى آخره ، فهذه هى المعاهد أوالمعامل التى فى نفوسنا الموزعات على مناطق أدمغتنا المطابقات للعوالم الخارجية المشابهة كل المشابهة لمعامل المناطق الهضمية المشروحة سابقا

اذا صح هـذا نقول : إذن هنا تربية للعلومات فى نفوسنا تربية حقيقية كما ربينا الغـذاء فى القناة الهضمية فخرجت ثمرة الغـذاء بعد الهضم على مقتضى القناة الهضمية من ضعف وقوة واجادة واهمال ، وأى فرق بين نتيجة الغذاء من حيث الصحة والمرض ، والقوة والضعف ، والجمال والقبح ، والذكاء والبلادة ، التى ترتبت جميعها على هيئة الغذاء الذى ربيناه وهذبناه بآلاتنا فى معاملنا الموزعات على مناطق قناتنا الهضمية وبين علومنا ومعارفنا التى ربيناها فى مناطق مخنا وترعرعت وشبت وبلغت أشدها وصارت فتية قوية ، كل ذلك بما لنا من معاهد قائمة فى مناطق أدمغتنا ، فمنها معهد لجمعها ، ومعهد لتحليلها وتركيبها ، ومعهد لاصطفاء ماهو أجل ، ومعهـد هوخزانة لما ينبغى بقاؤه ، ومعهد هودار لذكرى مانحن فى حاجة اليه ، ومعهد لنشر ما فى الخارج ؛ إن فى الدماغ لأماكن لعلوم اللغات ومناطق للعلوم الرياضية وأخرى للطبيعية وهكذا ، ولوأن منطقة من هذه أصابها العطب ، وحل بها الوصب ، ونزلت بها الكوارث ، وانتابتها الخطوب ، لتعطلت تلك المنافع المترتبة عليها ورسب فى الامتحان تلاميذ معاهدها ، فلاترى ذلك الانسان يحسن أن يعد الآحاد فضلا عن العشرات ، فضلا عن الطرح والقسمة والضرب اذا اضمحلت مناطق علوم الرياضة من الدماغ كما تكون الأمة الأمية لاعلم لها بالحساب اذا لم يكن فيها علماء به ، وعلى هذا فقس ، فالنتيجة أن المعارف تربى فى نفوسنا تربية منتظمة ونتائجها تكون على مقتضى مناطق تربيتنا لها فى عقولنا كما كانت نتائج الأغذية تابعة لمناطق القناة الهضمية سواء بسواء

هذا ولاجرم أن هـذا عين مايكون فى النبات ، فزهره وورقه وأثماره تابعات لتلك المعامل الكامنة فى باطنه ، فالنبات معامل فى داخله تتربى فيهاجراثيم الأزهار والأنوار والأوراق والثمار وتكون الثمار الناتجات تابعات لمزاج ذلك النبات فى الداخل ، فيكون حلوا ومرا وعفصا وحريفا ومسهلا وقابضا وعذبا ومنعشا ورديئا وحسنا وذا رائحة جميلة ورائحة غيرجميلة وساما وشافيا ومسكنا ومخدرا وهكذا من الصفات والأحوال

المختلفات

المختلفات ، إذن عندنا ﴿ ثلاثة أنواع ﴾ من المناطق ﴿ النوع الأول ﴾ القناة الهضمية فى كل حيوان ﴿ النوع الثانى ﴾ المناطق التى فى النبات ، ولاجرم أن هذين النوعين من واد واحد ، لأن النبات والحيوان فى هذا المعنى متشابهان ، لأن فى كل منهما مناطق هضم واختلفت ظواهرها واتحدت وجهتها ﴿ النوع الثالث ﴾ مناطق الفهم فى الدماغ اللاتى فيها تربى العلوم ، وهذه تحذو حذو القدمين الأولين فى أن النتائج لاتعدو المقدمات . وههنا آن أن نظهر نتيجة هذا كله فنقول :

المعارف والآراء والعواطف التى رزقها الانسان فى هذه الحياة تكون نتائجها تابعات لما أدته مصانع عقله ومعامل ذهنه كما تعمل قناته الهضمية وكما يكون ثمر النبات . أليس هذا هو البرهان اليقينى على الجنة والنار؟ وماهى الجنة ، وماهى النار؟ ألم تقدم أنهما يرجعان لكل محبوب ولكل مكروه مهما كانت هيئته ، ألم تر أن ثمرات النبات تختلف سموما وأغذية . قال صاحبى بلى ، وحلاوة وحموضة ، قال بلى ورنى . قلت : وأحدهما محبوب والثانى مكروه . قال بلى . قلت فأحدهما يمثل الجنة وثانيهما يمثل النار . ومعنى هذا أن جهاد النبات فى معامله الداخلية أنتج ماهو محبوب لنا وماهومكروه على حسب المصانع التى تربت فيها الثمرات هكذا جهاد الانسان فى معامله الداخلة أنتج ماهو محبوب له ومكروه على حسب تلك المصانع ، ان خيرا فخير وان شرا فشر ، واذا كانت علومنا ومعارفنا ماهى إلا نتائج معاملنا الداخلية مادمنا فى هذا الجسم ، واذا نبذناه وألقيناه شاهدنا النتائج عالقة بأرواحنا ظاهرة فى نفوسنا ، نراها رأى العين ، فهذا نظير ما اذا درسنا القمح وذريناه وغربلناه فألفيناه حبا لاتبن معه ولاطين ، ويكون الحب نتيجة لذلك الزرع شرفا وضعة ، كما ان عواطفنا وعلومنا نتائج مصانعنا شرفا وضعة وصحة ومرضا

واذا كان لكل نبات ثمرات لها مصالح تتبعها ، فمن الجهل والغباوة أن نقول ان هذا الانسان وعقله وعواطفه التى رباها فى نفسه لانتيجة لها ، أليس من الغفلة أن نعرف أن الانسان والحيوان والنبات كلها أجسام نامية ، ثم اننا نعلم علم اليقين أن لثمرات النبات نتائج تختلف باختلاف مزاجه وننكر ذلك فى نوع آخر من أنواع الناميات وهوالانسان ، واذا كان حب النبات يبقى متميزا بعد تمام تربيته وهلاك زرعه ، فكيف لايبقى نظيره فى الانسان بعد فناء جسمه ، فاذا رأينا حبا اختلف غذاء ودواء وسما بعد تحليل ماربى فيه وهلاكه هكذا نحكم بأن هناك علوما ومعارف وعواطف وأخلاقا تبقى بعد فناء الجسم وتفرق عناصره وتبدده فى العراء

أفلا يكفيك هذا أيها الذكى فى شرح ما قاله الشيخ الدباغ بقدر الامكان ، فى أن العجائب فى هذه الدنيا تعرفنا الجنة والنار؟ فقال والله لا أقدر أن أقول كفتنى فى هذا فحسب ، ولكنى أقول انها كفتنى وحدها فى قوله تعالى ـ ثم إن علينا بيانه ـ وفى قوله ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ـ ولولم يكن بيان سوى ماقلتموه الآن لكفى ، ولقد تجلت لنفسى الآن معان فى هذا المقام ، ذلك ان هذا الذى ذكرتموه هوعينه تفسيرلآية ـ اليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولاتضع إلا بعلمه ـ فهذه الآية أثناء شرحك المسهب الجزل كانت ترد على خاطرى وأراه شرحا لها ، فقلت : هذا إلهام ألقاه الله على قلبك وأنا أقرك عليه لأن ذكر خروج الثمرات من الأكمام بعد ذكرعلم الساعة أشبه بذكر الدليل بعد المدلول أوالحجة بعد الدعوى . فقال : إذن أرجو الاجابة على السؤال الثانى . فقلت : اعلم أن الحكمة عامة فى المقام المتقدم والذى سنذكره ، فكما أن نتائج الزروع وحبوبها مختلفات اختلاف أصولها بحيث لايستوى الشجر المر مذاقته والشجرالحلوطعم ثمرته كالحنظل والنخل ، ولم نرمن العقلاء من نفرمن هذا النظام ، بل جميع نوع الانسان مقر بفضله معترف بكماله فرح ببهجته ، لافرق بين جاهلهم وعالمهم ، وتابعهم وخاملهم ، فكل هؤلاء وهؤلاء يرون أن نتائج الزروع والأشجاركالا من حيث المتناقضات ، فمنها المغذى والمسهل والمخدر

والمنعش والسام ّ المهلك الخ

فاذا صحّ ذلك فيما نراه ، فهكذا يسوغ فيما لانراه من نتائج العقول الانسانية ، فاذا تجرّدت أرواحنا وآنست نفوسا اختلفت أوصافها اختلاف ثمر الزرع ، فكان منها من هوأحقّ بأن يكون مع الملأ الأعلى ومن هوأحرى بأن يكون مع الشياطين فى جهنم تبعا لخواص نفوسهم وأمزجة عواطفهم ، فلها تأنس بذلك الاختلاف ولاتفرق بينه و بين اختلاف الحنظل والتمر من حيث انه نظام حسن

أقول : فاذا صحّ هذا فى نتائج الزروع والعقول به مطمئنة فى ثمرات النبات فى الدنيا وفى ثمرات النفوس فى الآخرة ، هكذا فلنقل فى شهوات النفوس وأخلاقها الغضبية ، إن هذه القوى الكامنة فى نفوسنا اللاصقة بها المهيجة للأعمال الحيوانية والبهيمية والسبعية اذا تجرّدت الروح من الجسم بعد الموت وجب هناك أن لاتكون معطلة ، واذا كنا نشاهد العفونات والجرائيم التى تجلل وجه بعض الأرض ، وكذلك الرم الملقاة فيها لم تعطل بل كان لها من المخلوقات الحية ماقام بأكلها فتغذى بها رحمة :

(١) بالأحياء من الحيوانات لئلا يهلكها الهواء الفاسد

(٢) ورحمة بالحشرات لأنها تتغذى به

(٣) واظهارا للحكمة القائلة : « انه لامعطل فى الوجود »

فهذه العفونات وهذه الرم بعد أن كانت مصدرالوباء أومعطلة لافائدة منها أصبحت رحمة للحشرات التى تأكلها ، فهكذا نحكم على خصال الشرّ الشهوية الباقية فى نفوس الناس بعد الموت ومثلها خصال الشرالغضبية كالبغى والسرقة ونحوهما ، فهذه تعيش بها تلك النفوس التى أشربت حبها ، فهى على وزان نظائرها من قاذورات الأرض تعيش بها أرواح ألفتها بعد الموت كما عاشت بنظائرها فى الأرض أشباح لازمتها فيحصل هنا

(١) انه لامعطل فى الوجود

(٢) وأن الشرّ يشتق منه الخير

وما الخير هنا إلا بقاء تلك النفوس بسبب بقاء تلك الشهوات ممثلة فى أفكارها ، ولوأزيلت تلك الأفكار الناقصة من تلك الأرواح لم يكن وجود ، ولا وجود لروح إلا بما يقوتها من الآراء والعواطف كما لا تعيش الأجسام إلا بما يقوتها من أغذيتها ، وهذه ليس لديها من الآراء الشريفة مابه تعيش ، وليس لديها إلا تلك الآراء الرديئة التى اعتادتها فى الحياة الدنيا ، فبهذه الآراء تعيش تلك النفوس ولامقرّ لها إلا فى جهنم ، فهم معذبون بتلك الحال ، فهنارحمة عامّة « ورحمتى وسعت كل شىء » وههنا أيضا عذاب ، فالعذاب هنا رافقته الحكمة والرحمة ، فحياتها فى نفسها رحمة

(١) بدليل أننا اذا قلنا لتلك النفوس فى جهنم أترضين بالموت فانها تقول لا

(٢) وهى حكمة لأنها أنتجت من شرور النفوس حياة لها كما يعيش الدود فى القاذورات والفيران فى المراحيض

(٣) وذلك من عجائب النظام المفيد أنه لامعطل فى الوجود

فكما أن الله لم يعطل القاذورات فى الأرض ولاالرم بل اشتقّ من شرّها خيرا ، هكذا لم يعطل الشهوات المغروسات فى النفوس بل جعلها غذاء لها بعد الموت لأنها لاتعيش بغيرها كما لايعيش الذباب بغير القاذورات

هذه هى الحكمة البديعة ، والآية الطريفة ، والحكمة العالية ، اللهم إنا نحمدك حمدا جزيلا ، ونشكرك شكرا كثيرا ، لقد أريتنا ونحن فى هذه الدنيا محبوسون ممنوعون من الاطلاع على الحقائق أن فى مزارعنا وحيواننا من العلم مابه نعرف أن هناك نارا وأن هناك جنة ، وأن تلك النيران وتلك الجنان لوازم لما زاولته تلك الأرواح فى هذه الحياة من الأعمال مع حكم أخرى شرحناها ، وعجائب كبرى بيناها ، فالحمد لك فى

الأولى والآخرة ، ولك الشكر والفضل العظيم . كتب بعد صلاة يوم الجمعة ١٤ نوفبر سنة ١٩٣٠ م والى هنا تمّ الكلام على اللطيفة الخامسة من اللطائف العامّة والحمد لله رب العالمين

فذلكة فى قوله تعالى : وأمرهم شورى بينهم

آثار القرآن لاسيما سورة الشورى فى أمم الأرض

أوّلا انظر أيها الذكىّ ماتقدم فى ﴿ سورة البقرة ﴾ عند الكلام على قوله تعالى ـ لايكلف الله نفسا إلا وسعها ـ لترى النظام العام فى العلوم الواجبة على أمة الاسلام ، وفى ﴿ سورة النساء ﴾ عند آية ـ إن الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ـ فهذه الآية ونحوها من آيات الشهادة ـ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولوعلى أنفسكم ـ الخ وهكذا فيهاذكر الخلافة الاسلامية والعدل ، وكيف كان قائما ، وكيف عدل قوم وظلم آخرون ، وهكذا فى ﴿ سورة المائدة ﴾ ذكر العلوم الواجبة أيضا ، وفى ﴿ سورة التوبة ﴾ بيان أن قوله تعالى ـ يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ـ الخ كان ايقاظا للسلمين أن يكونوا سببا فى اظهارأحكام الاسلام للأمم ليقوم العدل فى بلادهم ، وهناك ترى شهادة سيدة أوروبية أسلمت تقول : « ان فولتير وروسو اللذين كانا سبب الثورة الفرنسية لم يتعلما ما كتباه إلا من آراء ابن رشد وعلماء الاسلام » وهناك تقرأ مظالم رجال الدين المسيحى فى أوروبا وأصحة مهينة للشعوب ، وفى ﴿ سورة النحل ﴾ تقرأ نظام الدولة فى آية ـ إن الله يأمر بالعدل والاحسان ـ وفى ﴿ سورة الاسراء ﴾ تقرأ فى أوائلها كيف حاد بعض ملوك الدولة الاسلامية فى الأندلس ونحوها عن جادة الصراط السوىّ فذلوا ، وفى ﴿ سورة الكهف ﴾ تقرأ عند آية ـ وما كنت متخذ المضلين عضدا ـ كيف ظهرت فى الاسلام طوائف حرمت انتشارالتعليم ، وكيف ظهر قوم من الفرس آلمهم ظهور مجد العرب بالاسلام ، فكادوا للسلمين كيدا عظيما ، وكيف حرّم حسن بن الصباح على أتباعه حرّية الفكر والتعليم ، وكيف كان كثيرمن رجال الصوفية يفعلون فعل ابن الصباح ، وأوروبا اليوم تنهج مع المسلمين هذا المنهج عينه ، وتقرأ فى ﴿ سورة النمل ﴾ بمناسبة آية ـ إن الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها ـ الخ مع آية ـ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ـ فذلكة عن ظلم الأمم المتأخرة الاسلامية ، وكيف كان ذلك سببا لهلاكهم ، وتقرأ فى ﴿ سورة القصص ﴾ عند آية ـ ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ـ كيف هلك الظالمون ونصرالضعفاء ، وفى ﴿ سورة سبأ ﴾ عند آية المحاورة بين الضعفاء والذين استكبروا قصة (محمد بن تومرت المهدى) وكيف أقام ملكا ولكن لم يدم أكثرمن مائة سنة ، وبيان منافع الذين ادّعوا المهدوية وضررهم ، وهناك تبيان القول الفصل فى هذا المقام واظهارالحقائق لأمم الاسلام بعدنا حتى لايقعوا فيما وقع فيه أسلافهم ، وهكذا فى ﴿ سورة المؤمن ﴾ نماذج علمية وعملية تتخلل السورة ، وقبلها فى ﴿ سورة الزمر ﴾ عند آية ـ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ـ الخ نماذج التربية التى أثبتها الاستاذ (كانت) الألمانى فى كتابه ، وبيان أن الأمراء والملوك وحدهم لايرقون الشعوب ، بل يجب على المفكرين أن يجدّوا فى ذلك كما حصل فى ألمانيا

فاذا اطلعت على ذلك أوأكثر ، فانظرالآن فى أمرأمم الأرض نظرة إجمالية فانك لاتجد الشورى ظهرت فى أمم الأرض إلابعد ظهورالاسلام ، فانظرأوّلا فى أمرالأمم الانجليزية ، فهؤلاء كانوا أوّل من فكرفى التخلص من ظلم ملوكهم ، وتبعتهم فرنسا ثم بقية الأمم ، وامتدّت الحركة الى أهل آسيا وأمريكا ، وزلزلت الأرض زلزالها ، ومادت عروش ، وهلكت جيوش ، وقامت جمهوريات ، وحامت الحرب العظمى من سنة ١٩١٤

الى سنة ١٩١٨ م وظهر هذا التفسير ليوقظ الله المسلمين من سباتهم به و بأمثاله

فانظر ماذا جرى أوّلا فى انكلترا تلك الأمة التى لم تكن فى أوّل أمرها إلا أقواما من الجنس (الكلتى) من سكان مقاطعة (برطنيه) شمالى غربى فرنسا ، جاءوا الى الجزيرة المواجهة لهم وسموها (بريطانيا) باسم بلادهم الأصلية ، ومنها انتقلوا الى (ايرلنده) و بقى هؤلاء القوم أصحاب الشأن فى تلك البلاد الى أن دخلوا فى (الأمبراطورية الرومانية) بعد حروب طويلة بها خضعوا خضوعا تاما حتى اضمحلت الدولة الرومانية وتركت البلاد لأهلها ، هنالك أغارت عليهم قبائل الانجليز والسكسون والجوت ، وهم كانوا فى شمالى ألمانيا ، وكان ذلك فى أثناء القرنين الخامس والسادس المسيحى أى قبيل ظهور الدين الاسلامى بقليل ، فتغلب الفاتحون على أهل البلاد وسموها (انجلند) أى أرض الانجليز ، فصارت هناك ممالك متنافرة

وفى سنة ١٠٦٦ م أغار على بلادهم (دوق نورمنديه) وهزمهم فى موقعة هاستنجس ، وتوّج ملكا على انكلترا ، وهنالك امتزج النورمنديون بالسكان الأصليين فكان هذا الشعب الانجليزى الحديث الذى يعتبر من ابتداء الفتح (النورمندى) وظهر إذ ذاك لملوك انجلترا شأن فى فرنسا بطريق المصاهرة ، ثم كانت حرب المائة سنة التى تمت سنة ١٤٥٣ وبه خرجت انكلترا من فرنسا ، وفى مدة النورمنديين المذكورين ظهر الدستور الانجليزى الذى سقنا الكلام هنا لأجله ، ولم يكن ذلك إلا با ثار الاسلام كما تقدم ، ووليم الفاتح المتقدم ذكره وان دخل البلاد فاتحا قد خضد من شوكته بعض قوانين للنظام الاقطاعى الذى كان عاما فى أوروبا إذ ذاك ، ولما حكم (هنرى الثانى) فى القرن الثالث عشر المسيحى نشأ النظام المعروف بنظام المحلفين وهو أشبه بمبدأ لرقىّ الشورى فى البلاد ، ولما تولى جون ابنه قاوم الأشراف ورجال الكنيسة الملك المذكور وحاربوه فاحترم حقوقهم ، وهكذا أخذ البرلمان يقوى و يشتد وقتا بعد وقت ، وأخذ يراقب المالية و يحاسب الملوك .

وفى عهد أسرة (لنكستر) زاد نفوذ البرلمان الى أن ضعف الملك وقامت حرب سميت (حرب الوردتين) (١٤٥٥ — ١٤٨٥) إشارة الى الوردة الحمراء التى كانت شارة بيت لنكستر ، والوردة البيضاء التى كانت شارة بيت (يورك) فمات أكثر الأشراف وانتصرت أسرة لنكستر ، وتوّج هنرى تيودور (دوق تشمند) ملكا على انجلترا باسم (هنرى السابع) وبقيت هذه الأسرة من سنة ١٤٨٥ الى سنة ١٦٠٣ وفى أثناء هذه المدة ظهرت حركة إحياء العلوم وذلك فى زمن (هنرى الثامن) فى القرن السادس عشر الذى أخذ يقطع العلائق الدينية مع رومه ، وفى هذا القرن ظهر الاصلاح الدينى ، هناك أخذ (الدوق سمرست) الذى لقب نفسه (حامى المملكة) إذ كان رئيسا لمجلس الوصاية على (ادورد السادس) يهدم التماثيل والصور من الكنائس ، وألغى الصلاة اللاتينية ، وأخذوا يصلون بالانجليزية ، وصودرت الأديرة وأملاكها ، وكل ذلك اتباع لمذهب (لوثر) وهو المذهب البروتستنتى ، ذلك المذهب الاصلاحى الذى امتدّ الى أوروبا من آثار دين الاسلام كما تقدم

وارتقى البرلمان والشورى فى أيام اليصابات ، تلك الملكة التى كسر جيشها جيش الأسبان وقهرهم ، وفى أيامها أيضا ظهر (شكسبير و بنسون) و (فرنسيس بيكون)

وقامت بعدها أسرة (استيورت) ومنها شارل الأوّل سنة ١٦٢٥ الى سنة ١٦٤٩ وثار البرلمان عليه ففرّ منهم الى الشمال ، وأخذ يحاربهم بجنود وهم قابلوه بالمثل ، ثم أخضعوه وحبسوه ، واتهم البرلمان الملك بالخيانة وحاكمه ، وأعدموه سنة ١٦٤٩ ، وكان المطاع فى البرلمان أقوى رجل فيهم وهو (أولفر كرمول) وأصبحت انكلترا جمهورية ، وهذه هى الحادثة الأولى فى العالم الجديد التى بها عرف الناس أن الملوك لاحق لهم فى اضطهاد الشعوب ، وأن الشورى هى الحق والعدل ، وهذا صدى صوت هذا الدين الحنيف « وأمرهم شورى بينهم »

اللهم

اللهم انك أنت تخفض وترفع ، أنت رفعت العرب الأولين بالشورى ، ولما قصروا فيها بعثتها الى أوروبا فانتهت الحال بقتل (شارل الأول) ملكهم أى ملك الانجليز . كل ذلك سر ﴿ سورة الشورى ﴾

وبقيت البلاد جمهورية من سنة ١٦٤٩ الى سنة ١٦٦٠ ثم عينوا شارل الثانى سنة ١٦٦٠ الى سنة ١٦٨٥ فرجعت ملوكية ولكنهم قيدوها الى الآن

وجيمس الثانى من سنة ١٦٨٥ الى سنة ١٦٨٨ ولكن البرلمان كان يكره هذا الملك فعزله وولى (ماريه) وزوجها (وليم) وفر جيمس الى فرنسا وههنا لم يسفك دم وساد البرلمان فى انكلترا الى الآن ، وبعد ذلك أصدر البرلمان ﴿ قانون الحقوق ﴾ وهذا القانون بنيت عليه الحرية الانجليزية وذلك سنة ١٦٨٩ وأعلنوا فيه أن حق الملك فى العرش مستمد من ارادة الشعب الممثل فى البرلمان ، وأن البرلمان له حق نقل التاج حسب المصلحة ، وبهذا قضوا قضاء مبرما على فكرة « الحق المقدس للملك » وبهذا منع الملك من التداخل فى السلطة القضائية ، ومن جمع الجيوش وقت السلم ، ومن جمع الضرائب بدون إذن البرلمان ، هذا كله سر هذه السورة ﴿ الشورى ﴾

فرنسا بعد انكلترا

قلنا إن سبب الثورة الفرنسية إنما هو ما كتبه فلتير وروسو ، وقلنا ان هذا كما قلنا فى سورة التوبة إنما كان بسبب ماقرءوه فى كتب المسلمين لاسيما كتب ابن رشد . وأنضج الفكرة عند الفرنسيين ماسبقهم به الانجليز من قتل ملكهم (شارل الأول) وطرد ملك آخر وهو جيمس . كل ذلك على مرأى ومسمع من فرنسا جارتهم ، فكانت الثورة الفرنسية أشد وأنكى ، فهى على قاعدة ان كل مجتمع سياسى له حق الدفاع عن نفسه ، فهو يقاوم كل مجتمع يريده بسوء . وهذا الحق انما يستمده من نفسه لامن حاكمه « وأمرهم شورى بينهم »

ولقد بدأت حركة الدين فالسياسة فى الشعب الفرنسى فى النهضة الاوروبية الحديثة التى بها نالوا الحرية الدينية وتبعتها الحرية السياسية . وأشهر الكتاب (فلتير) المتقدم ذكره و (روسو) . أما فلتير فكان من سنة ١٦٩٤ الى سنة ١٧٧٨ فتهكم بأسلوبه العجيب بنظام عصره السياسى والدينى مناديا بابادة القديم الذى لايصلح ، وحارب الكنيسة وامتياز الأشراف وسوء تصرف الملوك وفساد القوانين الجنائية ، فجاء (جان جاك روسو) من سنة ١٧١٢ الى سنة ١٧٧٨ وهو متشبع بروح فلتير ، فألف لهم كتاب ﴿ العقد الاجتماعى ﴾ الذى أبان فيه طريق الانتخاب وأن تنيب الأمة عنها رجالا منها يتولون شؤنها ، وهذا معناه « وأمرهم شورى بينهم » . وأساس نظريته أن الشعب هو صاحب السلطة الحقيقية ، وأن الحكومة منه تستمد قوتها وسلطتها والتشريع يجب أن يكون بيد الشعب ، وآراء (روسو) صارت كأنها انجيل وكتاب مقدس يسير على مقتضاه زعماء الثورة الفرنسية . وهكذا كتب (روسو) فى التربية والموسيقى . وهو يميل للرجوع للحال الطبيعيه

وجاء بعده الفيلسوف (منتسكيو) فكتب موضحا الدستور الانجليزى ومزاياه ففتح أذهان الشعب الفرنسى وعرف مزايا الحرية التى يتمتع بها الانجليز . ثم فصل السلطات الثلاث بعضها من بعض وهى التشريعية والتنفيذية والقضائية . فالأولى بيد البرلمان . والثانية بيد الوزراء . والثالثة بيد القضاة . وهؤلاء مستقلون عن السلطتين السابقتين . فعرفوا بذلك فساد حكومتهم إذ كانت هذه السلطات الثلاث فى يد فرد واحد وهو الملك . وظهرت حركة اصلاح أخرى فى الاقتصاد . فقام أمثال (كسناى) و (ترجوب) وأمثالهما ينقدون طريقة توزيع الضرائب فى فرنسا وارهاق الشعب بها فسدت التجارة وبرت الصناعة وماتت روح الاختراع ووقفت الجماعات المحلية . وقد كانت فرنسا ثلاث طبقات : الأشراف . ورجال الدين . والشعب . وكانت

الحكومة تخص الطبقتين الأوليين بامتيازات لا نصيب للشعب فيها . فكانوا يعفونهم من ضريبة الخراج ومن المكوس ، وكان كل شريف من الأشراف له حق أخذ جزء من محصول الفلاح والزامه بطحن غلته فى طاحونه وعصر نبيذه فى معصرته بأجر عظيم ، وله حق الصيد فى حقول الفلاحين وان لحق الضرر بزرعه ، ووظائف الحكومة خاصة بالأشراف فهم السفراء والقوّاد والضباط فى الجيش ، وللكنيسة خمس أرض الدولة ولاتدفع عنها ضرائب ، ويجمعون الأعشار من الشعب ، وأكثر ما يجمعونه يدخل جيوب الأساقفة ورؤساء الأديرة . أما الشعب وهو الطبقة الثالثة فكان (٢٥) مليونا ، والطبقتان الممتازتان كانتا (١٧٥) ألفا

إن الملك يتصرّف كما يشاء ويهوى لاقيد له فيحبس من يشاء ويطلق سراح من يشاء ويقتل ويعطى ويمنع ؛ وكان معه برلمان صورى

ولقد كانت فرنسا عند موت لويس الخامس عشر فى سنة ١٧٧٤ على شفا جرف هار من الافلاس بسبب ماخسرته من المال والمستعمرات فى الحروب التى أدخلهم فيها لويس المذكور ، فلما تقلد الحكم لويس السادس عشر أراد تخليص فرنسا من الضيق المالى ولكن حاشيته لم تساعده على ذلك مخالفين رأى العالم الاقتصادى (ترجوت) الذى أشار بتقليل تلك الحاشية الملكية التى تأخذ كثيرا من مال الدولة . ولما نشر (نكار) العالم الاقتصادى الذى حلّ محل (ترجوت) تقريرا عن حال المالية المرتبكة بسبب القروض التى اقترضتها الحكومة لمساعدة الولايات المتحدة للتخلص من حكم انكلترا ، وبسبب مايصرفه الملك على نفسه وعلى حاشيته عزل الملك (نكار) وولى (كالون) مكانه فقال للملك : يجب أن يرغم الأشراف ورجال الدين على دفع الضرائب وأن تلغى الجمارك الداخلية ، فلم يقبل ذلك منه رجال الدولة ، فعزله الملك وتولى هو تقرير الضرائب بنفسه ، فلم يوافق البرلمان على تلك الضرائب ، وأكرهوا الملك على عقد الجمعية العمومية سنة ١٧٨٩ فرفض النوّاب من الطبقتين الممتازتين أن يجتمعوا معهم ، وقد كان لكل طبقة (٣٠٠) نائب فصاروا جميعا (٦٠٠) نائب وأربعمائة من الأشراف ، ورجال الدين هم الذين استكبروا أن يجتمعوا مع هؤلاء العامّة ، اللهم إلا بعض أفراد تسللوا لواذا وحضروا مع نوّاب الشعب فى مكان آخر غير قاعة الاجتماع وهوملعب (التنس) وهناك أعلنوا أنهم هم (الجمعية الوطنية)

ولما اجتمع جميع النوّاب لسماع خطبة العرش ، وانصرف بعض الأشراف ورجال الدين شدّد أمين الملك فى طلب انصراف نوّاب الشعب فقال له (ميرابو) وهو أقوى النوّاب : نحن هنا بأمر الأمة ، ولن نفارق مكاننا إلا بأطراف الأسنة » . وهنالك أمر الملك أن تكون الجمعية الوطنية مشكلة من الجميع بحيث يجتمعون معا ، ولكن العامة أوجسوا شرّا من الملك باشاعات تخيلوها ، فانقضوا على (حصن الباستيل) وهدموه وأطلقوا المسجونين فيه ، وكان ذلك فى (١٤) يوليه ، وقد أصبح ذلك عيدا تاريخيا ، وهذا اليوم هو أحسن أعياد فرنسا . وازداد الجوع فى فرنسا فدخل الشعب لاسيما النساء فى شهر اكتوبر على قصر (فرساى) يطلبون الخبز من الملك ، ولولا الحرس لدخلوا على الملك والملكة . فانتقل الملك الى باريس وهكذا الجمعية الوطنية أيضا . وأصلحت الجمعية الوطنية القوانين . ونظمت كل شىء . وأزالت كل ظلم . ولكن العامّة بعد ذلك تطرفوا وتعالوا وفقدوا رشدهم . فهرب الملك . فكشفوا أمره عند بلدة (فرن) فى يونيه سنة ١٧٩١ فقاده العامة الى باريس ووافق على النظام الجديد الذى أسسته الجمعية الوطنية وأعلنت انحلالها . ولكن فى أثناء ذلك هاجر الأشراف خارج فرنسا واتفقوا مع النمسا و بروسيا على محاربة الثورة الفرنسية وارجاع حقوق الملك اليه . ودعا الأمبراطور (ليوبولد الثانى) وهوأخو الملكة ملوك أوروبا لاخماد هذه الثورة . وهذا الأمبراطور وملك بروسيا أصدرا منشورا للملوك فحواه « انهما مستعدّان أن يكسرا ثورة فرنسا مع من ينضم اليهما »

وقهرت

وقهرت الأمة الملك على أن يعلن الحرب على النمسا ولكن جيوش فرنسا تقهقرت أمام المغيرين فاتهموا الملك بالخيانة ، وكلما قربت بروسيا من فرنسا ازداد غضب الفرنسيين على الملك ، هنالك أعلن القائد البروسى « ان كل من مس شعرة من رأس الملك يقتل » فزاد ظنهم السوء به ، نهجموا عليه ، فهرب الى الجمعية الوطنية سنة ١٧٩٢ والحرس قاوموا ولكن الملك أمرهم أن يسلموا ، وهنالك كثرت المذابح ، ذلك أنهم قد اتهموا كثيرا بالخيانة كما اتهموا الملك وقتلوا نحو (١٥٠٠) نفس ، وفى هذه الفترة أصلحوا الجيش فقاوم البروسيين وأعلنوا الجمهورية فى ٢٠ سبتمبر سنة ١٧٩٢ وألغوا الملكية ، وأخطر العامة المؤتمر أن يحاكم الملك بتهمة الخيانة فحاكموه وأثبتوها وحكموا عليه بالقتل ، ونفذ الحكم فى (٢١) يناير سنة ١٧٩٣ م وهذه الجمهورية لم تطل إذ تولى العرش نابليون سنة ١٨٠٤ وجعل نفسه أمبراطورا

خطاب المؤلف لله عز وجل

اللهم إنك أنت الحكيم العليم العدل ، آنسنا عدلك ونظامك فى نجومك وشموسك وأقمارك ، نظام بديع ، لايخس شعيرة ، حركات منتظمات ، وعجائب واضحات ، اتحدت أضواء الشمس السبعة وهى الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق والبنفسجى والبرتقالى والنيلى ، اتحدت فكان اللون الأبيض ، وباتحادها سعدنا فى الحياة ، وشاهدنا سبلنا ، وتغذى نباتنا بمواد الكربون الطائر فى الهواء (انظره مشروحا مرسوما فى سورة يس) وهذه الألوان هى التى ظهرت بها أفانين الألوان فى الأزهار والأشجار وبدائع الجمال فى عوالمنا الأرضية ، انتظمت النجوم فى سيرها واتحدت فى أنها لاخلل فى حسابها ، فماذا كان ؟ ظهرت بها سعادتنا على الأرض ، أما فى البر فمعلوم ، فأما فى البحر فان ربان السفينة العظيمة لن يفتأ ليلا ونهارا وهو فوق متن الماء ، ينظر الكواكب السيارة ويحسب حسابا دقيقا معقدا لايعرفه سواه ، ولو أنه توانى لحظة لضل الطريق ولم يعرف أين هو ، فوق سطح البحر نجوم منظمة وأحوال كاملة ، هذا عملك ، وأنت على صراط مستقيم ، لقد خلقتنا فى وسط هذا النظام الجميل العجيب : وأعطيتنا عقولا وقلت لنا « وأمرهم شورى بينهم »

فيارباه هاهوذا نوع الانسان آخذ فى التقليد لنظامك ، نظامك العجيب البديع ، نظامك الذى لاخلل فيه ، هذه هى النجوم رأيناها فى أماكنها دائرات منظمات ، لاتصادم لاتهافت لاخلل

أما نظام أممنا وجماعاتنا فهو جاهل غير مبنى على التجارب المتعاقبة لأننا لاغريزة لنا نتبعها كغريزة النحل وغريزة النمل وغريزة الأرضة ، غرائز صافيات كاملات بها عاشت تلك الجمهوريات بغاية النظام . أما جماعاتنا وجمهورياتنا فانك جعلتها مبنية على تجارب بنا نحن ، فهاهوذا القرآن يأمرنا بالشورى فقام بها أسلافنا ثم تركها آباؤنا وأجدادنا فتولاها قوم آخرون وكان رائدهم التجارب ، انك أردت بذلك أن تكون سعادتنا ورقينا مبنيين على جدنا واجتهادنا ، وأنت تعين المجتهدين فى أى أمر كان دينى أو دنيوى ، وهاهى ذى فرنسا وانكلترا لهما مجالس شورية (البرلمانات) وهكذا أمريكا وبقية أوروبا ، وقد لحق بهؤلاء أهل الصين والفرس والترك

اللهم إن عبادك لايزالون ضعافا فان فرنسا التى أعلنت الحرية فى بلادها وهدمت حصن الباستيل وقتلت لويس السادس عشر وانكلترا التى قتلت (شارل الأول) لأجل ظلمهما هاهما معا قد اتفقتا على بلاد الاسلام وترى فرنسا تريد تغيير دين البربر فى مراكش وتذل المسلمين فى شمال افريقيا ، وانكلترا تعبث بحقوق مصر وبعض بلاد العرب

اللهم إن الانسان لظلوم كفار ، قتل الانسان ما أكفره ، إنه كان ظلوما جهولا ، إن الأمم التى تحل ملوكها المقتولين فى ظلمهم ، فهم يفعلون مع الأمم فى الظلم مافعله معهم ملوكهم ، وقد جهلوا أن هذه الأمم

المظلومة ستفعل معهم لظلمهم مافعلوه هم مع ملوكهم عاجلا أوآجلا

اللهم انك أنت حكيم ، ان النوع الانسانى قد جبل على أنه لايعرف قيمة شيء إلا اذا تعب فى تحصيله فهذه الأمم الشرقية سلطت أنت عليها دول الغرب لاذلالها ليكون ذلك باعثا لهم أن يتخلصوا بقوّتهم هم ويخرجوا من قبضة الظالمين كما تخلصت تلك الأمم من ظلم ملوكهم الذين جعل الله ظلمهم وسيلة لجهاد شعوبهم وارتقائها ونيل حرّيتها

خطاب المؤلف لأمم الاسلام وأمرائهم

يا أمم الاسلام : اسمعوا . هاهوذا كتاب الله ينادى بالشورى . وهاهم أسلافكم كانوا قدوة الأمم . وهاهوذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : « من رأى منكم فىّ اعوجاجا فليقوّمنى » وهاهو أحد آبائكم يقول له : « والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقوّمناك بحدّ سيوفنا »

فهل فعلت انكلترا وفرنسا مع (شارل الأوّل) ومع (لويس السادس عشر) غير ذلك . عمر بن الخطاب الذى كان يلبس ثوبا مرقعا بضع عشرة رقعة بعضها من ليف . عمر بن الخطاب الذى منع ابنته من أن تضمخ ازارها بالروائح العطرية من بيت المال . هذا هوالذى فهم الدين وعرفه . وفهم معنى الشورى فدانت له المشارق والمغارب هو والخلفاء الراشدون . وأنتم يا أصدقائى قرّاء هذا التفسير لاتتوانوا فى إرشاد هذه الأمة ، فوالله انى لأعتقد فى نفسى بأن أى خاطر يخطرلى فلا أكتبه للمسلمين يجرّ على جسمى وعلى عقلى أذى كبيرا فى الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر

إياكم أن تتوانوا فى بثّ فكرة الاصلاح العام الذى فى هذا التفسيروفى غيره الذى يكون على شاكلته . على كل منكم أن يكون أمة بنفسه لايتكل على غيره ، إن المصلى منا يقول فى افتتاح الصلاة « وأنا أوّل المسلمين » . فلتكن أوّل مسلمى قرينك فى أمثال هذا الاصلاح واعلانه ، أومصلحى أمتك . إن الانسانية آخذة فى الارتقاء والاتحاد على منوال مافعله الله فى السموات والأرض ، وذلك لايتم إلا بالجهاد ، وليس الجهاد خاصا بقتل الأعداء ، بل محاربة العدوّ جهاد أصغر ، أما الجهاد الأكبر فهو ماترونه فى أمثال هذا التفسير فان نشر هذه الآراء يصلح جميع مرافق الحياة ومنها نظام الجيوش الذى لايتم إلا باصلاح جميع أحوال المملكة ، وأن مداد العلماء أفضل من دم الشهداء ، والعلم أعظم النعم فى الاسلام ، ليأخذ المسلمون عموما وأبناء العرب خصوصا مكانتهم العلمية ، وليقودوا هذه الأمم المتخبطة الآن فى ديجور الحياة ، ولتكوننّ وجهة المسلمين اليوم أنهم يكونون أقوى من جميع الأمم ، ليقودوهم الى معنى قوله تعالى « حتى تضع الحرب أوزارها » وذلك بالسلام العام ، وهل يعم السلام إلا اذا ساويتم الأمم فى جميع أعمالها

وأنتم يا أمراء الاسلام اسمعوا منى نصيحة أنا ملزم أن أعلنها : « من كان من بيت الملك منكم فليفكر فى أمبراطور اليابان جدّ الأمبراطور الحالى ، ذلك الذى لما عرف أن أوروبا تحاول إذلال مملكته تنزّل عن تلك العظمة التى جعلته هو وآباءه لايرى الشعب لأنهم فوق الناس ، بل هم من نسل الآلهة (فى خرافاتهم) فسار فى الطرق وقال للناس : « هاأناذا الأمبراطور ، أنا مثلكم وأعلن التعليم العام » فعلم الشعب وارتقت بلاده . وهووأبناؤه لايزالون ملوكا بعظمتهم وملكهم ، والشعب هوالذى يتولى ادارة الشئون ، ولهم كما لملك الانجليز حقوق لاتضرّ الشعب والشعب راض بهذه الحقوق »

هذا هوما أوصيكم به ، إن جهل الشعوب كان غير ضارّ بالملوك قديما ، أما الآن فان الأمم بالمرصاد فهى لاتذر أمة ضعيفة إلا استعبدتها . وهذا هوالعدل الإلهى فاذا كان قوم يعطلون نعم الله التى خلقها لعباده . وهناك قوم يقدرون على استخراجها . فمن عدل الله فى نظامه أن يرسل الآخرين ليسيطروا على هؤلاء الجهال

الذين

الذين لم يستخرجوا نعمه لمنفعة عباده بصناعة أوزراعة أوتجارة . هذا قولى وأستغفر الله لى ولكم . كتب قبل فجر وفى ضحى يوم الاثنين ٢١ فبراير سنة ١٩٣١

موازنة بين سيرة عمر وجمهورية سقراط
وتطبيق نظام الأمم العربية والتركية والفرنجية عليها

أيها المسلمون : قد ظهر الحق وانفلق عمود الصباح . أيها المسلمون : بهذا يفهم النوع الانسانى معنى « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر »

أيها المسلمون : عمر وأمثال عمر هم الذين فهموا معنى قوله تعالى « إن الله بالناس لرءوف رحيم » ومعنى « الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم » . عمر رضى الله عنه رحيم بالعبد والحر والذمى والمسلم . قرأت فى بعض كتب الزيدية المطبوعة حديثا عن آل البيت انه ﷺ رأى رجلا وامرأة فى السبى منكسى الرأس ذليلين ، فسأل عنهما ، فقيل انا بعنا ابنهما لأجل طعام السبى ، فأمر برده اليهما

قد تقدم فى ﴿سورة النحل﴾ عند آية « إن الله يأمر بالعدل والاحسان الخ » آراء (سقراط) فى الحكومة ، وانه رتبها خمسة أقسام ، وأن كل نام فانه يذبل ، ونظام الحكومات والأفراد كنظام كل ماله حياة فهو شاب فكهل فشيخ فهرم وهكذا

وهاأناذا أوضحه هنا بعض الايضاح ، وأعجب والله كل العجب من سياسة عمر رضى الله عنه ومن فراسته الحكومة خمسة أقسام : اروستقراطية ، وتيموكراسية ، واليغاركية ، وديموقراطية ، واستبدادية . ومعلوم أن الأمة كالفرد ثلاث طبقات : طبقة الفلاسفة وأولى العلم ، وطبقة الجند ، وطبقة بقية الشعب . وهو يقول : « إن هؤلاء الحكماء هم الذين يحكمون القسمين الأخيرين كما ان قوة العقل فى الانسان تحكم قوة الغضب المقابلة للجند فى الأمة وتحكم قوة الشهوة المقابلة لبقية الرعية . ثم إن كل قسم من الثلاثة فى الأمة وفى الفرد يجب أن يقوم بعمله ، فالجند تطيع الحكام ، والعامة يطيعون القسمين كما تطيع قوة الغضب عقولنا والشهوة تطيع العقل وقوة الغضب ، ولامعنى للعدل إلا هذا . فهذا معنى الحكمه والشجاعة والعفة والعدل . فاذا تولى حكم الأمة الحكماء فهذا معنى (اروستقراطية) واذا مضى الجيل الأول فترت همة الجيل الثانى عن الفلسفة والعلم واكتفوا بقوة الجند وحكموا الأمة بمجرد القوة التى لاتصحبها الحكمة المستمدة من الله تعالى ، فهنالك تسمى الحكومة (تيموكراسيه) والثانية أقل من الأولى درجة ، ولكن اذا تمادى الجند فى الحكم رأوا أنفسهم هم والأمراء الذين لاعلم عندهم ولاحكمة مغرمين بالمال إذ يقتسمون مال الطائفة الثالثة ، وهنالك يتنزل الأبناء عن منزلة آبائهم ، وتكون الحكومة إذ ذاك (اليغاركيه) وهى حكومة الثروة ، فالحكمة فى الأولى تنزلت الى حماسة فى الثانية ، وهذه تنزلت الى مطامع الشهوة وجمع المال ، وهنالك تزيد غلات فريق الحكام ويصبح الناس طبقتين اثنتين لاغير : أغنياء يملكون أكثر مافى الدولة وهم قليل جدا وفقراء وهو جميع الشعب فلامناص من قيام الشعب على طبقة الحكام واذلالهم والاستحواذ على أموال الدولة وهذه تسمى (ديموقراطيه) وهى دولة التهتك والخلاعة وعدم الحياء والصيانة فيصبح الأمر فى يد العامة والجهلاء ولايحترم الابن أبويه ولاالمحكوم الحاكم وهكذا ، ونظير هذا فى الفرد الواحد التهتك والخلاعة وعدم الحياء والمجاهرة بكل موبقة وعدم الاكتراث بالعار والشنار . والأمة اذا وصلت لهذه الدرجة فلابد من ظهور واحد فيها يستبد بها ويذلها ويقهرها وهذه هى الحكومة الخامسة وهى الاستبدادية ، وخير هذه الخمس أولها وشرها آخرها ، والثلاثة التى بينهما مرتبات ترتيبا تنازليا

ههنا فلننظر . أليس ماقاله أفلاطون فى الجمهورية (التى ألقاها الله على قلبه وعلى قلب سقراط أستاذه قبل

ظهور النبوّة المحمدية بمدة تزيد على تسعة قرون) أصبح نموذجا لنا نفهم به قيمة الحكومات ونمتحنها ونبحث فيها بجد

سبحانك اللهم وبحمدك ، علمت قلة علومنا ، وعلمت انقطاع سند العلم بيننا ، فأطلعتنا على آراء سقراط ففهمنا انها أشبه بمقدمة لهذا الدين الحنيف

أقول هذا وأنا موقن به ، ان عقلاء أمم الأرض وحكماءهم فى عصرنا وبعده كلهم يقدّسون سقراط وأفلاطون من حيث التفكر ، ومتى عرفوا أن هناك تلاؤما وتوافقا بين المدنية التى اختطها عمر رضى الله عنه وبين مارسمه هذا الفيلسوف أيقنوا بمعنى «كنتم خير أمة أخرجت للناس»

إن الذى يأمر جنده أن لايأخذوا أرضا ليزرعوها من فلاحى الأمة التى دخلوها ويقول أنتم أيها الجند عليكم حفظ البلاد ولكم أرزاقكم على بيت المال وكفاكم ماتأخذون منه ، ويقول : أنتم اذا ملكتم الأرض تنازعتم وفشلتم وتذلون عباد الله وبزول ملككم ، ولما خالف بعض رجاله هذه الأوامر بمصر أرسله عمرو ابن العاص الى عمر فهابه هيبة شديدة كما تقدم ، ولما أظهر التوبة عفا عنه

أقول : إن الذى يفعل هذا فى ذلك الزمان الذى كان الفرس والروم قد انتهوا فى الحكم الى الدرجة الخامسة وهى الاستبدادية وهى أدنى الدرجات ، ثم تراه يحكم الناس بالطريقة التى مدحها (سقراط) فى الجمهورية وهى ان الجند لايجوز لهم أن يكون لهم ملك لئلا يميلوا الى جمع المال وكفاهم رزقهم الذى يفرض لهم من الخراج الذى تدفعه الرعية

أقول : إن الذى يفعل هذا كله وهو لم يقرأ تلك الجمهورية ولاغيرها بل هو فى أمة كلهم أميون وليس عنده من العلم إلا أعماله ﷺ والقرآن الذى جاء فيه ـ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ـ وجاء فيه ـ إن الله يأمر بالعدل والاحسان ـ الخ

أقول : أمثال هذا إنما جعله الله نموذجا لأمم الأرض قاطبة فى الشرق والغرب ، والانسانية العامة لابد يوما ما صائرة اليه ، إن الله عزّ وجل أبى جمهورية أفلاطون فى الأمم وهى مترجمة لجميع اللغات وفيها هذه المراتب ولم يظهر لاعلى يد أفلاطون ، ولاعلى يد أستاذه سقراط ، ولاعلى يد دولة اليونان ولاالرومان حكومة تكون مثلا أعلى لأمم الأرض وانما ظهرت فى (٣٠) سنة وهى مدة الخلافة وبقيت فى التواريخ ، وهذا مصداق حديث «الخلافة بعدى ثلاثون» واذن نفهم معنى «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» فهذه هى الرحمة العامة ، أليس من العجب أن الأمم الاسلامية بعد عصر الخلافة اعتراها ما اعترى الزرع وكل حىّ من أنه آيل للتفرّق والانحلال . ألم تحصل هذه المراتب الخمسة التى رتبها (سقراط) فى الحكومات وقال انها أمور طبيعية لايمكن اجتنابها ولاتلافيها ، ورأينا أبناء العظماء بعد تلك الخلافة وبعد الصحابة (الذين كانوا مجتهدين) قد نزلوا الى الحكومة (التيموكراسيه) ونرى ذلك فى أوائل حكم بنى أمية وبنى العباس وهى حكومة الجند لاحكومة العلماء الذين يسيرون بالحق التام . ألم تر أن بعض أواخر دولة بنى أمية قد تنزلوا عن أخلاق آبائهم الى درجة (الاوليغاركيه) كما تنزل ملوك بنى العباس بعد المأمون والمعتصم ونحوهما الى تلك الدرجة وعكفوا على المغانى والشرب واللذات ، هكذا نرى الفرس الذين استعان بهم بنو العباس لكسر شوكة العرب قد تغلغلوا فى الدولة الاسلامية ، وأخذ الملك يرجع القهقرى ، وأذلوا الرعية كما أذلوا الملوك وهكذا الأتراك ، أليس ذلك قريبا من الرتبة الرابعة وهى (الديموقراطية) وهى التى يثور فيها المحكومون على الحاكمين ولايبقى للحكومة هيبة ، ثم ظهر فى الأمة مستبدّون من القوّاد فحكموا الأمة بيد من حديد ، ويمثل الديموقراطية ... (قيام طائفة الانكشاريه) فى الترك على ملوك بنى عثمان ، وكم سمل الجند أعين الخلفاء العباسيين كما نعرف أنه لهم من الانكشاريه مع ملوك بنى عثمان ولتعجب مما تقدم قبل هذا من أمر ملوك فرنسا أيام

لويس السادس عشر ومن قبـل لويس ، وكيف رأيت فيا تقدم هنا أن الأشراف ورجال الدين ما كانوا يدفعون الضرائب ، وكانت الرعيـة أذلة للطائفتين ، أليست هذه هي الحكومة الثالثة وهي (الاوليغاركيه) وهي حكومة الثروة وجمع المال ، وهي أدنى من الحكومة الارستقراطيه ومن الحكومة التيموكراسيه أي حكومة الفلاسفة وحكومة الجنـد ، وانظر كيف اضطربت الأمة كلها على بكرة أبيها وقامت فقتلت (١٥٠٠) من محبي الملك وقتلوه على مرأى ومسمع من أوروبا كلها والملوك كلهم بالمرصاد ، وقد اتحد الروس وأهـل بروسيا على قتال فرنسا ، أليست هـذه هي الحكومة الديموقراطية التي هي أسفل وأدنى منزلة من الثلاثة قبلها وهي الحكومة التي تكون بيد الأمة كلها ، ثم انظر بعد ذلك ، ألست ترى أن نابليون ذلك الضابط الصغير لما ضرب الثائرين بالمدافع خضعت الأمة إذ أمسكها بيد من حديد ، أليست هذه هي الطبقة الخامسة وهي أدنى الحكومة باعتبار عمومها لأنها هي حكومة المستبد وان كان نابليون له مزايا لطفت الاستبداد

اللهم انى أحمدك وأشكرك على نعمة العلم ونعمة الحكمة ، اللهم إن العلم الذى لا تطبق عليه أحوال الأمم لا يفيد الفائدة التامة المرجوّة

اللهم إنى أحمـدك إذ كشفت لى حقيقة أممنا الاسلامية ، وعرّفتنى طرق اصلاحها . وكيف غشت الجهالة على أقوام وأقوام من أسلافنا ، فابتدعوا أحاديث ، واختلقوا لها أسانيد ، وجعلوا حكم الأمم منشؤه الأنساب فى حدّ ذاتها . كلا والله . كذب والله

اللهم انك شرحت صدرى للعلم وأنا أكتبه لأمتنا الاسلامية ، فأنا أحمدك حمدا كثيرا وأشكرك ، أحمدك أن وفقتنى ، وجعلت لى أصـدقاء فى جميع أقطار الاسلام ، وهم هم الذين سيبطلون الباطل ويحقون الحق ، أنت يارب أردت ذلك ، هم سيشرحون هذه المسائل العلمية ويبينونها للناس ، هـم الذين سيدرسون علوم الأمم وعلوم الاسلام وعلوم النبوّة (التى نحن معاشر المسلمين أكثر الأمم جهلا بحقائقها) وذلك بما انتشر بيننا من الدعايات لأهل الأنساب بحيث يرث الابن أباه فى حكم الأمة وان كان جاهلا غبيا ، عاكفا على الخمر والمغانى فيهلك وتهلك أمته معا ، لاسيما فى زماننا

هـذا وقد يتخذ أمثال هـذا الأمير الدول الاوروبية وسيلة لاستعباد الأمم الاسلامية ويذلونها باسمه ، وليعلم الملوك والأمراء الاسلاميون أنى لست أقول أعطوا الملك لغير أبنائكم فان ذلك ليس فى الامكان ولكنى أقول : « يجب أن يتعلم الشعب كله لأن الملك وحده لا يقوم مقام الأمة ، واذا كان ولىّ العهـد صالحا للملك فهو أحقّ من غيره ، ولكن لسنا على يقين من أن الأعقاب يكونون على منوال الآباء بدليـل ماتقدم من حوادث التاريخ ومن نفس طبيعة النوع الانسانى »

فلينظر علماء الاسلام الذين يقرءون هـذا التفسير وملوك وأمراء الاسلام ، فاذا أنسوا من بيت الامارة والملك علما وكمالا وسياسة وحكمة فهم أولى بالحكم ، ولكن لما كان عالمنا الذى نعيش فيه يسير على طريقة تنازلية بحيث يكون كل جيل أضعف مما قبله وهكذا وجب (لأجل الاحتراس) أن يجعل الأمر بيد مجلس الأمة ، وهؤلاء الملوك ينفذون مايقرّره المجلس وللملك مزايا خاصة تقرّر بينهم و بينه ، فهنالك يحصل الغرض المطلوب ، فالأمة كلها تجدّ فى التحصيل وتحسّ بالتبعة الملقاة على عاتقها ويخف الحمـل عن الملك وأعوانه ، ويبقى الأمير أو الملك موضع الاعزاز والاعظام والاجلال ، وذلك كما فى بلاد اليابان و بلاد الانجليز ، حتى اذا كان أحد الأبناء منحرفا عن الجادّة فان الأمة والوزراء هم المسئولون وكفى

وقد ذكرت هذا من قبل وأكرره فى كل مناسبة . هذه طريقة سهلة . فاذا لم توفق أمة من أمم الاسلام الى ذلك فلتجعل الامارة بالانتخاب والشورى كما فعل سيدنا عمر رضى الله تعالى عنـه وكما تفعل الولايات المتحدة ، ومتى انتظمت امارات الاسلام وجب على الأمراء أن يجتمعوا و ينتخبوا واحدا منهم يكون خليفة

للمسلمين كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، ويكون انتخابه لمدة معينة نحو خمس سنين ، وذلك خيفة أن تتغير أطواره فتحصل الفتنة . هذا ما فتح الله به في معنى « وأمرهم شورى بينهم »

أما أن نسمع أن أمم الاسلام تتخذ رجلا لأجل نسبه وتقول انه (إله) أو الإله حل فيه ويجعل له أنداداً يشيدون باسمه ، أو تتخذ آخر لأجل صلاحه وقد اجتمع حوله تلاميذه فجعلوه فوق جميع الأولياء والصالحين وذكروا له كرامات ، ثم يحكم الناس بهذه الوسيلة فيقولون هو المهدي (اقرأ ما في أول سورة الحج من الكلام على المهدي) أو نحو ذلك فهذه أشبه بأمواج في بحر السياسة تموج فيه ثم تضمحل عند الشاطئ اقرأ ذلك في أخبار المهدي محمد بن تومرت في سورة سبأ وفي سورة الكهف عند آية « وما كنت متخذ المضلين عضدا » . اللهم إني كتبت ما فتحت به علي اليوم ولك الحمد على نعمة العلم

إن الرجال الذين اشتهروا بالصلاح وهم حريصون على المال لهم منافع ومضار ، وضرهم أكثر من نفعهم ، أما الذين وصفناهم وقررناهم فهم الذين يجب أن يتولوا الملك لأن نفعهم أكثر من ضرهم

***

ولأختم هذا المقام بحديث دار بيني وبين أحد مشايخ الطرق بمصر ، ذلك اني كنت أسكن بجهة طولون عند قلعة الكبش ، وكان بيتي بالقرب من شيخ طريقة معظم في بلاد الصعيد ، وهذا الشيخ له مريدون وأكثرهم من البرابرة ، وكان اذا نزل الصعيد وعلم مريدوه قابله ٥٠٠ خيال احتراما له واتخذوا يوم حلوله عيداً لهم ، وهنالك يكسو الرجل زوجته وأبناءه وبناته ، ويكون الفرح والهناء بمقام الشيخ ، والبلاد التي يعظمه أهلها تقل فيها السرقات ، وقد شرح ذلك شرحا بينا فقال : أنا اذا قدمت القرية يحضر زيد فيقول لي يا أستاذي أنا أخطأت لا تغضب علي فيقول له من كان معك ؟ فيقص القصص انه هو وفلان وفلان سرقوا بقرة أو نقبوا حائطا أو قتلوا رجلا ، فهنالك يقطب الشيخ وجهه وقد حفظ أسماء الشركاء ، فتى حضر أحدهم يأمر الشيخ بعدم دخوله عليه ، فهنالك يزيد الاعتقاد في الشيخ

فهذه هي منافع هؤلاء الشيوخ ، فأما مضارهم فان هذا النفع لا قيمة له لأنه لم يكن من نفس الفرد بل انه خائف من الشيخ ، والشيخ لا ينال هذا إلا بجهل أتباعه ، وأمة هذا شأنها تكون عالة على المجتمع الانساني ، وبعض هؤلاء الشيوخ يمثلون عجل السامري ، وهذا العجل يجب أن يحرق ويذرى في الهواء كما فعل موسى فان التقوى المبنية على الرعب من نفس الشيخ تقوى لا بقاء لها وهذا هو الانتكاس وضياع الأمم بل لابد من الارشاد والتعليم

وهذه المسألة الجزئية تفسر لنا الطريق التي سنها حسن بن الصباح في قلعة الموت (هي مذكورة في سورة الكهف) فلا يظهر لأتباعه وقد حرم عليهم دراسة العلوم وحكمهم بمثل هذه الطريقة ثم انقرضت تلك الدولة ، فمهما كانت نية القائم بالأمر من الاصلاح فهي مخالفة لدين الاسلام وضارة بالأمم وفساد للمجموع

***

وهاك حديثا آخر . حدثني هذا الشيخ وأنا معه في منزله وأتباعه يذكرون الله والمنشد يغني . قال : إن أحد أتباعي بالصعيد (لكن أعمى) أخذ يجد في العبادة والذكر على حسب طريقتي ، فأخذ الناس يذكرون له كرامات وسمع هو بذلك فصار يتظاهر بما يدل على ذلك حتى أشاعوا أنه ارتقى فوق مرتبتي أنا ، وانه نال فوق ما نلت . فلما نزلت ببلدتهم وكان الجمع محتشدا وهو بينهم وقفوا جميعا أما هو فانه بقي جالسا ليحقق قولهم وانه أعلى من شيخه في الولاية ، فسلمت عليهم جميعا ، ولما لم يقم لم أسلم عليه مع انه لو كان غيره من الناس لضربوه وأهانوه . ولكنهم احترموه لأنه أصبح أعلى في مقام الولاية مني ، فأوعزت سرا الى أحد أتباعي أن يسرق حذاءه . فلما أخذنا ننتقل من ذلك المكان وقام معي هذا الجمع المحتشد لم يجد حذاءه .

وظهر

وظهر للناس انه لاعلم له بمن سرق نعله . إذن هوليس بولى فتركوه فمشى حافيا . ثم أتى ليذكر مع الذاكرين فأخرجه أتباعى بأمرى ، فشكاهم الى ، فقلت له : إن الولاية لى أنا فكيف تتكبر على بها ، وأخذ يوبخه على فعلته ، ثم عفا عنه ، فرجع فردا من الأفراد والتلاميذ المعتادين

وانما ذكرت هـذا لأنه معهود فى أكثر ديار الاسلام والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الخميس ٢٤ رمضان سنة ١٣٤٩ هجرية و١٢ يناير سنة ١٩٣١ م

بيان العدل العام فى السموات والأرض

وأن الشورى مفتاح العدل ، وأن العدل والجمال يرجعان لأمر واحد ، فيكون جمالا فى المحسوسات أوموسيقى ، وغريزة فى الحيوان ، وعدلا عندالانسان ، ثم ذكر أنباء الشورى فى زمن النبوّة والخلافة وبقاء الملك ، ثم بيان تركها وذهاب الملك ، وتبيان أن المسلمين بسبب ما ذاقوا من حلاوة الشورى فى زمان أبى بكر وعمر قتلوا عثمان غيلة لما ظنوا انه يفضل بنى أمية ولم يلم بهم من الظلم عشر معشار ما ألم بالانجليز حين قتلوا (شارل الأوّل) فى القرن السابع عشر ، ولا ما ألم بالفرنسيين إذ قتلوا (لويس السادس عشر) فى القرن الثامن عشر ، ولا بالألمان إذ ثاروا على أمرائهم فى القرن التاسع عشر

بعد ما كتبت ماتقدم من أمر الشورى فى بلاد فرنسا وانكلترا (تطبيقا على آية ــ وأمرهم شورى بينهم ــ) وبيان أن هذه الثورة السياسية فى الأقطار الأوروبية لم تكن لديهم إلا من آثار النهضة الاسلامية الأولى ، جاشت النفس بخواطر فى أمر الشورى فى مدة الخلافة الاسلامية وهى (٣٠ سنة) وكيف كانت إذ ذاك ، وأن النبى ﷺ هوالذى بين الشريعة للناس ، فالصلاة والزكاة والصيام والحج لولا فعله ﷺ وفعل أصحابه ماعرفنا شيئا منها ، فآية الشورى آية مجملة والاجمال لايغنى عن التفصيل والله يقول « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم » ونحن اذا اكتفينا فى تفسير هـذه الآية بما تقدم نكون قد خالفنا منهج الحق ، وهذا الكتاب اليوم بين يدى المسلمين ، فحق على أن أذكر جملة صالحة توضح أمر الشورى فى عصر النبوّة وفى عصر الخلافة حتى يعرف الناس السبب فى هذا الملك العظيم الذى امتدّ شرقا وغربا ولماذا أزال الله ذلك الملك ومزق أبناء الذين قاموا بهذا الأمر تدريجا بعد العصور الأولى ، وأقدم قبل ذلك مقدمة فى النظام العام فى السموات والأرض . فأقول :

اعلم أن العدل والجمال يرجعان معا الى النظام العام ، فكل ما كان منظما فهو مرغوب فيه محبوب ، ومافقد النظام فهو منفور منه ، إن النظام حليف الدوام ، والاختلال يتبعه التفرق والانحلال ، إن من اطلع على هـذا التفسير أو أكثره فانه يوقن أن نظام الكواكب والشموس والأقمار نظام تام عجيب لاخلل فيه فكانت نتائجه لاحصر لها ، إن التناسب وحسن النظام اذا فارق الأجسام الحيوانية والنباتية لم تكن لها حياة ، واذا لم يكن تناسب بين الخدين والعينين والمنخرين والفم فى الوجه فقد الجمال ، فالجمال يتبع التناسب والقبح يلازم عدم التناسب ، هكذا كل عضو من أعضاء الانسان والحيوان ، وكل غصن أو ورقة من نبات لها نسب خاصة ، وبغير تلك النسب لاتكون حياة للنبات ولا للحيوان

تقدم فى هذا التفسير فى غير ما موضع أن شبر الانسان مقياس لأعضائه ، فهو ثمانية أشبار بشبره ربعها من الركبتين الى القدمين ، وربعها من الركبتين الى الحقوين ، وربعها من حقويه الى رأس فؤاده ، وربعها من رأس فؤاده الى مفرق رأسه ، واذا مد يديه يمنة ويسرة كان امتدادهما (٨) أشبار أيضا ، واذا مد يديه

الى فوق رأسه فانه يجد أن المسافة من السرّة الى أطراف أصابعه (٥) أشبار كالمسافة التى بين السرّة والقدمين ، أنا لا أطيل فى هذا لأنه تقدم ولكنه تذكير بجمال الوضع فى العالم المشاهد والكمال فيه ، وهذا فى المشاهد المحسوس بحاسة البصر ، ومثله المحسوس بحاسة السمع كما تقدم كثيرا فى غير ماموضع فان الموسيقى القديمة المبنية على نسب (البم والمثنى والمثلث والزير) والموسيقى الحديثة المبنية على قاعدة المتوالية الهندسية (١٦ — ٣٢ — ٦٤) وهكذا لم تخرج عما تحبه النفوس من النظام والجمال

الله أكبر . اللهم انك أنت الجليل الحكيم العليم . أنت الذى أحكمت ملكك . ونظمت خلقك . عجبنا يارب من ابداعك . أنت واحد ونظامك واحد ، ولكن اختلفت مظاهره . أنت سريع الحساب فان كان ذلك الحساب فى المشاهدات بحاسة البصر كبهجة الأشجار وجمال الأزهار والزروع وجمال الوجوه سميناه جمالا (وان هو إلا تناسب بين الألوان والأغصان والأوراق والأعضاء بحساب لاخطأ فيه البتة كحساب سير الكواكب ، انظر بعضه فى سورة الحجر عند آية « وأنبتنا فيها من كل شيء موزون » فهناك تعرف أيها الذكىّ لم فرح الناس بالأشجار وعدّوها جميلة ، وهناك تشاهد رسم الأوراق والهندسة فى الدوائر التى تكوّنت على الأغصان وأكثر أهل العلم عنها غافلون) وان كان فى المسموعات سميناه موسيقى واستلذت النفس به وان كان ذلك الاتقان فى جماعة الحيوان كما تقدم فى جمهورية النحل وجمهورية النمل وجمهورية الأرضة (المذكورات المصوّرات فى سورة النحل والنمل وسبأ) سميناه غريزة . وان كان ذلك الاتقان فى سياسة الانسان العامّة وحفظ الجماعة سميناه عدلا

عجبا يار بنا ! أينما قلبنا الطرف وأدرنا وجوهنا يمينا ويسارا وفوق وتحت لانجد إلا نظاما واحدا ، وهذا النظام له مظاهر مختلفات ، فهو جمال ونغمات وغريزة وعدل ، وأقرب المخلوقات الينا هذه الحيوانات التى نظمت ممالكها نظاما أدهشنا ، عجز الانسان والله عجزا ظاهرا أن يجارى النمل فى جمهوريته ، أو يساوى النحل فى مملكته ، أو يجارى الأرضة العمياء التى تحكم مئات الالوف من تلك الحشرات التى هى عمياء مثلها فهذه يارباه حكومات منظمات على منوال مانظمت أنت من جمال وجوهنا و بدائع أشجارنا وأزهارها والأثمار

نعم الانسان لم يقدر أن يجارى هذه الحشرات ولاغيرها ، فان عدل يوما ظلم سنين ، وان علم شيئا جهل أشياء ، أنت أعطيته الحرّية ، ووهبته معها عقلا ، وقلت له : دونك التجربة ، ولم تذره ونفسه ، بل أرسلت له أنبياء فعلموه ، وخلقت قوما حكماء ففهموه ، ومع ذلك لاتزال الشقوة تحيط به ، والذل يغشاه ، وآخر من أرسلته من الأنبياء نبينا ﷺ وجاء فى وحيك « وأمرهم شورى بينهم » . فها نحن أولاء نبحث فى سيرته ﷺ وسيرة الخلفاء الخاصة بالشورى فنجد انه روى أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء ثانى عشر شوّال سنة ثلاث من الهجرة ، فاستشار الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه ودعا عبدالله بن أبى ابن سلول ولم يدعه من قبل ، فاستشاره فقال عبد الله ابن أبى ابن سلول : « كثر الأنصار يارسول الله ، أقم بالمدينة ولا تخرج اليهم فوالله ماخرجنا منها الى عدوّ قط إلا أصاب منا ولادخلها علينا إلا أصبنا منه فكيف وأنت فينا ؟ فدعهم يارسول الله فان أقاموا بشر محبس وان دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وان رجعوا رجعوا خائبين » وكان ﷺ أميل الى هذا الرأى . وقال بعض أصحابه « أخرج بنا الى هذه الاكلب لئلا يروا انا جبنا عنهم وضعفنا وخفناهم » . فقال رسول الله ﷺ « إنى قد رأيت فى منامى بقرا فأوّلتها خيرا ، ورأيت فى ذباب سيفى ثلما فأوّلتها هزيمة ، ورأيت أنى أدخلت يدى فى درع حصينة فأوّلتها المدينة . فان رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم » فقال رجال فاتتهم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد : « أخرج بنا الى أعدائنا » و بالغوا حتى دخل فلبس لامته . فلما رأوا ذلك ندموا على مبالغتهم . وقالوا : اصنع يارسول الله مارأيت . فقال : لاينبغى لنبىّ أن يلبس لامته فيضعها حتى يقاتل اه

(اقرأ

(اقرأ بقية الكلام على هذا المقام فى ﴿سورة آل عمران﴾ فى المجلد الثانى من هذا التفسير) . إذن هاهن ؤلاء رأيناه ﷺ كان يميل لى أن يبقى فى المدينة لأنها تأويل الدرع الحصينة التى رآها فى المنام . ولكن لما أشاروا عليه لبس لأمته ولم يرجع عما أشاروا به وان كانوا هم ندموا على مبالغتهم فى طلب الخروج للقاء . وهكذا نجد عمر رضى الله عنه وهو من خلفائه يجدّ فى العدل والعفة . ولايبرم أمرا إلا بمشورة أصحابه حتى مايختص بأمر نفسه . أومايقوم بأمر معاشه

﴿أوّلا﴾ ـ ذلك أنه جمع الناس بالمدينة حين انتهى اليه فتح القادسية ودمشق فقال انى كنت امرءا تاجرا وقد شغلتمونى بأمركم هذا فماذا ترون أنه يحلّ لى من هذا المال فأ كثر القوم وعلىّ رضى الله عنه ساكت : فقال ياعلىّ : ماتقول قال مايصلحك و يصلح عيالك بالمعروف ليس لك من هذا الأمر غيره : فقال القول ماقال علىّ بن أبى طالب

واخرجا عن أسلم قال : قام رجل الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال مايحل لك من هذا المال : فقال ماأصلحنى وأصلح عيالى بالمعروف وحلة للشتاء وحلة للصيف وراحلة عمر للحج والعمرة ودابة لحوائجه وجهاده

وروى الطبرى ان هذا العطاء الذى رضيه عمر لنفسه وفرضه له المسلمون لم يكفه واشتدت به الحاجة فاجتمع نفر من المهاجرين منهم عثمان وعلى وطلحة والزبير وتشاوروا فى زيادة يزيدونها لعمر فى رزقه من بيت المال فهابوا مقابلته بذلك فأتوا بينته حفصة وأمروها أن تخبره بالخبر وترى رأيه فيه ولاتذكر له أسماءهم فلما أخبرته بذلك عرفت الغضب فى وجهه وقال لها : من هؤلاء قالت لاسبيل الى علمهم حتى أعلم رأيك فقال لوعلمت من هم لسوّءت وجوههم أنت بينى و بينهم أنشدك بالله ماأفضل مااقتنى رسول الله ﷺ فى بيتك من الملبس (وكانت زوجته) قالت ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد و يخطب فيهما للجمع قال فأىّ الطعام ناله عندك أرفع : قالت خبزنا خبزة شعير فصببنا عليها وهى حارة أسفل عكة [(١)] فجعلناها هشة [(٢)] دسمة فأكل منها وتطعم استطابة لها : قال فأى مبسط كان يبسطه عندك كان أوطأ [(٣)] قالت كساء لنا ثخين كنا نربعه فى الصيف فنجعله تحتنا فاذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه قال ياحفصة فأبلغيهم عنى أن رسول الله ﷺ قدّر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية وانى قدرت فوالله لأضعنّ الفضول مواضعها ولأتبلغنّ بالترجية [(٤)] وانما مثلى ومثل صاحبىّ كثلاثة سلكوا طريقا فمضى الأوّل وقد تزوّد زادا فبلغ ثم اتبعه الآخر فسلك طريقه فأفضى اليه ثم اتبعه الثالث فان لزم طريقهما ورضى بزادهما لحق بهما وكان معهما وان سلك غير طريقهما لم يجامعهما

هكذا كان شأن عمر رضى الله عنه فى العفة والقناعة والرضى بالكفاف ممايسد الجوع و يستر العرى ، وروى فى المناقب عن الحسن قال خطب عمر الناس وهو خليفة وعليه ازار فيه اثنتا عشرة رقعة وفى المناقب أيضا عن أبى عثمان النهدى قال رأيت عمر بن الخطاب يطوف بالبيت وعليه ازار فيه اثنتا عشرة رقعة احداهن بادم (جلد) أحمر : رفيها عن قتادة أنّ عمر بن الخطاب أبطأ على الناس يوم الجمعة ثم خرج فاعتذر اليهم فى احتباسه وقال : انما حبسنى غسل ثوبى هذا ولم يكن لى ثوب غيره

وفيها عن مصعب بن سعد بن أبى وقاص قال : قالت حفصة بنت عمر بن الخطاب لعمر ياأمير المؤمنين لو لبست ثوبا هو ألين من ثوبك هذا وأكلت طعاما هو ألين وأطيب من طعامك فقد وسع الله من الرزق وأكثر من الخير . فقال انى سأخاصمك الى نفسك أماتذكرين ما كان رسول الله ﷺ يلقى من العيش : فمازال يذكرها حتى أبكاها

---

(١) قربة السمن الصغيرة (٢) طرية (٣) ألين (٤) قال فى القاموس تبلغ كذا اكتفى به والترجية والرجاء بمعنى واحد وهو ضد اليأس

﴿ثانيا﴾ — جاء فى كنز العمال عن النعمان بن بشير أنّ عمر بن الخطاب قال فى مجلس وحوله المهاجرون والأنصار : أرأيتم لو ترخصت فى بعض الأمور ما كنتم فاعلين فسكتوا فقال ذلك مرتين أو ثلاثا . فقال بشير ابن سعد لو فعلت ذلك قومناك تقويم القدح (وهو السهم المعوج قبل أن يراش وينصل) فقال عمر : أنتم اذن أنتم اذن (استحسانا لقولهم) . وفى المناقب عن عبد الجبار بن عبد الواحد التنوخى قال : قال عمر رضى الله عنه وهو على المنبر أنشدكم الله لا يعلم رجل منى عيبا إلا عابه فقال رجل نعم يا أمير المؤمنين تديل بين البردين وتجمع بين الأدمين ولا يسع ذلك الناس قال فما أدال بين بردين ولا جمع بين أدمين حتى لقى الله . وقوله يديل بين بردين أى يلبس قميصا ويخليه ويلبس غيره . وذكر بعض المؤرخين أنه خطب يوما فقال : أيها الناس من رأى منكم فىّ اعوجاجا فليقومه ، فقام رجل فقال : والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا . فقال عمر : الحمد لله الذى أوجد فى المسلمين من يقوّم اعوجاج عمر بسيفه

﴿ثالثا﴾ — قال الأحنف بن قيس : كنت مع عمر بن الخطاب فلقيه رجل فقال يا أمير المؤمنين انطلق معى فاعدنى على فلان فانه قد ظلمنى فرفع عمر الدرة فخفق بها رأسه . فقال . تدعون أمير المؤمنين وهو معرض لكم حتى اذا شغل فى أمر من أمور المسلمين أتيتموه اعدنى اعدنى . قال فانصرف الرجل وهو يتذمر قال «أى عمر» علىّ الرجل «أى ردوه علىّ» فألقى اليه المخفقة . وقال امتثل «أى اقتص بمثل الضربة» فقال لا والله ولكن أدعها لله ولك : قال ليس هكذا اما أن تدعها لله ارادة ما عنده أو تدعها لى فاعلم ذلك : قال أدعها لله قال «اى الأحنف» فانصرف ثم جاء يمشى حتى دخل منزله ونحن معه فصلى ركعتين وجلس فقال «يخاطب نفسه» يا ابن الخطاب كنت وضيعا فرفعك الله وكنت ضالا فهداك الله وكنت ذليلا فأعزك الله ثم حملك على رقاب الناس فجاءك رجل يستعديك فضربته ما تقول لربك غدا اذا أتيته . قال فجعل يعاتب نفسه فى ذلك معاتبة حتى ظننا أنه خير أهل الأرض

﴿رابعا﴾ — من انصافه للرعية ما روى انه أتى رجل من أهل مصر الى عمر بن الخطاب فقال يا أمير المؤمنين عائذ بك من الظلم . قال عذت معاذا . قال سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته فجعل يضربنى بالسوط ويقول : أنا ابن الأكرمين ، فكتب عمر الى عمرو يأمره بالقدوم عليه ويقدم بابنه عليه فقدم ، فقال عمر أين المصرىّ خذ السوط فاضرب فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر اضرب ابن الأكرمين ثم قال للمصرىّ ضعه على صلعة عمرو : قال يا أمير المؤمنين انما ابنه الذى ضربنى وقد اشتفيت منه فقال عمر لعمرو : مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا : قال يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتنى (يعنى) المصرى

﴿خامسا﴾ — ومن معاملته لأهل الذمة وشفقته عليهم ما جاء فى نفس هذا الكتاب وهذا نصه : «ومن جيل سياسته اهتمامه بأهل الذمة الذين دخلوا فى عهد المسلمين وسلطانهم من الشعوب غير المسلمين ووصاياه للعمال بالحرص على راحتهم وتجنب ظلمهم وأذاهم وبلغ اهتمامه بهم ان كان اذا غابت عنه أخبارهم أو بلغه أقل شىء عنهم يستدعى ذوى أمانة من المسلمين الذين أقاموا فى بلادهم ويسألهم عن أحوالهم ويستقصى سيرة العمال معهم ومن ذلك ما رواه الطبرى فى تاريخه ان عمر رضى الله عنه كتب الى أمير البصرة أن يبعث له جماعة من ذوى الرأى والبصيرة فأرسل اليه وفدا فيهم الأحنف بن قيس فسألهم عن أهل الذمة وهل يشكون ظلما أو حيفا فأجابوه بالسلب وليطمئن لقولهم حتى استوثق من الأحنف وكان يثق بصدقه ثم صرفهم

ومن أجل ما يؤثر عنه من الرفق بأهل الذمة ما جاء فى كنز العمال ان عمر مرّ بشيخ من أهل الذمة يسئل على أبواب المساجد فقال ما أنصفناك كنا أخذنا منك الجزية فى شبيبتك ثم ضيعناك فى كبرك ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه

(سادسا) — ومن حسن سياسته تقدمه الى قواده بأن لايمسكوا الجند فى الغزو أكثر من أربعة أشهر وسببه أنه كان يطوف ليلة بالمدينة على عادته فسمع امرأة من وراء بابها تقول :

تطاول هذا الليل واسودّ جانبه ☆ وأرّقنى أن لا خليل ألاعبه

فلولا حذار الله لاشىء مثله ☆ لزحزح من هذا السرير جوانبه

فكتب عمر الى عماله أن لايغيب أحد بالغزو : ونعم الرأى

ومن سياسته توقيفه الحدود عند الضرورة الداعية لذلك فقد أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عن حكيم بن عمير قال : كتب عمر بن الخطاب ألا لايجلدنّ أمير جيش ولا سرية أحدا الحد حتى يطلع الدرب لئلا تحمله حمية الشيطان ان يلحق بالكفار

ومن سياسته أنه كان يحبس عن العمل كثيرا من كبار الصحابة منهم من كان لايستعمله خوفا على دينه من أن يدنسه بالولاية فقد أخرج ابن سعد عن عمران بن عبدالله قال : قال أبىّ بن كعب لعمر بن الخطاب مالك لاتستعملنى : قال اكره أن تدنس دينك

ومنهم من لايستعمله خشية أن يحمله على رقاب الناس أوخشية أن تحدثه نفسه بالأمارة اذا بعد عن مراقبته وهؤلاء هم بنوهاشم لما كان يتفرسه فيهم من التطلع الى الامارة ففى مروج الذهب للسعودى عن عبدالله بن عباس أن عمر أرسل اليه فقال ياابن عباس : انّ عامل حمص هلك وكان من أهل الخير وأهل الخير قليل وقد رجوت أن تكون منهم وفى نفسى منك شىء لم أره منك وأعيانى ذلك فما رأيك فى العمل قال لن أعمل حتى تخبرنى بالذى فى نفسك . قال وماتريد الى ذلك . قال أريده فان كان شىء أخافه على نفسى خشيت منه عليها الذى خشيت وان كنت بريئا من مثله علمت انى لست من أهله فقبلت عملك هنالك فانى قلما رأيت أو ظننت شيئا إلا عاينته . فقال يا ابن عباس انى خشيت أن يأتى علىّ الذى هو آت وأنت فى عملك فتقول هلمّ الينا ولاهلمّ اليكم دون غيركم . انى رأيت رسول الله ﷺ استعمل الناس وتركـكم : قال (اى ابن عباس) والله قد رأيت من ذلك فلم تراه فعل ذلك : قال (أى عمر) والله ماأدرى أضنّ بكم عن العمل فأهل ذلك أنتم أم خشى أن تبايعوا بمنزلتكم منه فيقع العقاب ولابدّ من عتاب فقد فرغت لك فما رأيك قال : (أى ابن عباس) أرانى لاأعمل لك : قال ولم : قال ان عملت لك وفى نفسك مافيها لم أبرح قذى فى عينك قال : فأشر علىّ . قال انى أرى أن تستعمل صحيحا منك صحيحا لك

(سابعا) — جاء فى كنز العمال عن عاصم بن أبى النجود أن عمر بن الخطاب كان اذا بعث عماله شرط عليهم أن لاتركبوا برذونا ولاتأكلوا نقيا ولاتلبسوا رقيقا ولاتغلقوا أبوابكم دون حوائج الناس إن فعلتم شيئا من ذلك فقد حلت بكم العقوبة . ثم يشيعهم فاذا أراد أن يرجع قال انى لم أسلطكم على دماء المسلمين ولا على أعشارهم ولا على أبشارهم (١) ولا على اعراضهم ولا على أموالهم ولكنى بعثتكم لتقيموا بهم الصلاة وتقسموا فيهم فيئهم وتحكموا بينهم بالعدل فان أشكل عليكم شىء فارفعوه الىّ . ألا فلاتضربوا العرب فتذلوها ولاتجمروها (٢) فتفتنوها ولاتعتلوا عليها فتحرموها : جوّدوا القرآن . (وفى رواية) وأقلوا من الرواية

وكان اذا بلغه عن أحد من عماله أمر يخل بالمروءة عزله فى الحال ففى المناقب لأبى الفرج بن الجوزى عن ابن سعد قال : كان عمر بن الخطاب استعمل النعمان ابن نضلة على ميسان وكان يقول الشعر فقال

ألا هل أتى الحسناء انّ حليلها ☆ بميسان يسقى فى زجاج وحنتم

فى أبيات يقول فى ختامها

(١) كناية عن أجسامهم وأموالهم (٢) قال فى القاموس جمره تجميرا جمعه والقوم على الأرض تجمعوا الى أن قال والجيش حبسهم فى أرض العدو ولعله هوالمراد

لعـلّ أمير المؤمنين يسوءه * تنادمنا بالجوسق المتهـدّم

فلما بلغ عمر قوله قال . نعم والله انه ليسؤنى من لقيه فليخبره انى قد عزلته . فقدم عليه رجل من قومه فاخبره بعزله فقدم على عمر فقال والله ماأحبّ شيئا مما قلت ولـكن كنت امرءا شاعرا وجدت فضلا من قول فقلت فيه الشعر فقال عمر والله لاتعمل لى على عمل مابقيت . وفى رواية عن عثمان الحزامى عن أبيه قال لما بلغ عمر بن الخطاب هذا الشعر كتب الى النعمان بن نضلة (بسم الله الرحمن الرحيم) حم تنزيل الـكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو اليه المصير ــ أما بعـد فقد بلغنى قولك

لعـلّ أمير المؤمنين يسوءه * تنادمنا بالجوسق المتهـدّم

وايم الله انه ليسوءنى وعزله

ومن عجيب سياسته مع العمال أنه كان يحصى أموالهم قبل العمل ومازاد بعده يصادرهم على كله أو بعضه ومن هذا مارواه الطبرى أن عمر استعمل عتبة بن أبى سفيان على كنانة فقدم المدينة بمال فقال له ماهذا ياعتبة قال مال خرجت به معى وتجرت فيه . قال ومالك تخرج المال معك فى هذا الوجه فصيره فى بيت المال

وروى أن خالدا لما أدرب هو وعياض الى بلاد الروم انتجعه من العراق رجال منهم الاشعث بن قيس فوصله بعشرة آلاف درهم فبلغ ذلك عمر فكتب الى أبى عبيدة أن يحصى مال خالد و يصادره على النصف فدعاه وتلا عليه أمر أمير المؤمنين وصادره على نصف ماله حتى الخفين أخذ منهما واحدا وترك له الآخر

﴿ ثامنا ﴾ ــ شاطر عمر سعد بن أبى وقاص على ماله وشاطر أباهريرة ولما أبى أن يشاطره ضربه وصادر غيرهم أيضا وردّ أموالهم لبيت المال

﴿تاسعا﴾ ــ واخرج عن حبيب بن أبى وائل قال . قال عمر بن الخطاب لواستقبلت من أمرى مااستدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين

﴿عاشرا﴾ ــ ومن أخباره فى التأديب التى تدلّ على عظيم رحمته وحنانه وشـدة عقوبته لغلاظ القلوب ماجاء فى كنز العمال عن أبى عثمان النهدى قال : استعمل عمر بن الخطاب رجلا من بنى أسد على عمل فجاء يأخذ عهده فأتى عمر ببعض ولده فقبله ، فقال الأسدىّ . أتقبل هذا ياأمير المؤمنين والله ماقبلت ولدا قط . قال عمر فأنت والله بالناس أقل رحمة هات عهدنا لاتعمل لى عملا أبدا

﴿حادى عشر﴾ ــ تظلم رجل من بعض عمال عمر وادّعى أنه ضربه وتعدّى عليه فقال . اللهم انى لاأحلّ لهم اعشارهم ولا أبشارهم (أموالهم وأجسامهم) كلّ من ظلمه أميره فلا أمير عليه دونى ثم اقاده منه (أى أخذله القود)

وقال المغيرة بن شعبة وذكر عمر فقال كان والله له فضل يمنعه أن يخدع وعقل يمنعه أن ينخدع

فى كنز العمال عن طاوس أنّ عمر قال أرأيتم ان استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل أقضيت ماعلىّ ؟ قالوانعم . قال لاحتى أنظر فى عمله أعمل بما أمرته أم لا

وفيه عن عمر قال . الرعية مؤدية الى الامام ماأدّى الامام الى الله فاذارفع الامام رفعوا (أخرجه بن سعد)

﴿ ثانى عشر ﴾ ــ ﴿ حكاية عمر مع جبلة بن الأيهم ملك غسان ﴾ فانه لما أسلم ووفد على عمر بن الخطاب بأبهة الملك وحشمه تلقاه عمر بالترحيب ر بينما هو يطوف يوما وطئ على إزاره أعرابىّ من بنى فزارة فضربه على وجهه فشـكاه الاعرابى الى أمير المؤمنين فاستدعى عمر جبلة وقال له اما أن ترضيه واما أن يضربك كما ضربته فكبر ذلك على جبلة وقال : ألا تفرقون بين الملك والسوقة . قال لاقد جمع بينـكما الاسلام ، فاستمهله الى الغد ثم أخذ قومه وفرّ بهم ليلا ولحق بالامبراطور هرقل بالقسطنطينية فأرسل عمر من يسترضيه فأبى الرجوع

﴿ثالث عشر﴾ — ماذكره الطبرى فى تاريخه عند الخبر عن إرسال الجيوش الى نهاوند فى أخبار سنة (٢١)
قال ونزل بسعد (أى ابن أبى وقاص) أقوام وألبوا عليه فما بين تراسل القوم واجتماعهم الى نهاوند ولم يشغلهم ما دهم المسلمين من ذلك وكان ممن نهض الجراح بن سنان الأسدى فى نفر فقال عمر ان الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم فى هذا الأمر وقد استعد لكم من استعد وأيم الله لايمنعنى ذلك من النظر فيما لديكم وان نزلوا (يعنى الفرس) بكم فبعث عمر محمد بن مسلمة والناس فى الاستعداد للأعاجم والأعاجم فى الاجتماع وكان محمد بن مسلمة هو صاحب العمال الذى يقتص آثار من شكى زمان عمر [1] فقدم محمد على سعد ليطوف به على أهل الكوفة والبعوث تضرب على أهل الامصار الى نهاوند فطوف به على مساجد أهل الكوفة لايتعرض للمسألة عنه فى السر وليست المسألة فى السر من شأنهم اذ ذاك . وكان لايقف على مسجد فيسئلهم عن سعد الا قالوا الانعلم الاخيرا ولانشتهى به بدلا ولانقول فيه ولانعين عليه . إلا من مالأ الجراح بن سنان وأصحابه فانهم كانوا يسكتون ولايقولون سوءا الى أن قال الطبرى وخرج محمد به (أى بسعد) وبهم الى عمر حتى قدموا عليه فأخبره الخبر فسأله عمر عن أوجه الشكوى فأنكرها ولم يسعهم إثباتها فردهم عمر وخشى اذا أبقى سعدا على الكوفة أن يكون بينهم و بينه أمر فعزله احتياطا وسأله من خليفتك على الكوفة فقال له عبدالله بن عبدالله ابن عتبان فأقره

ومنه تعلم كيف كان رضى الله عنه مراقبا اعماله كثير التحقيق عن أخبارهم لايتعجل فى أمرهم اذا جاءته شكاية على أحدهم بل يتثبت الخبر بنفسه ويحققه بمواجهته فان ثبت عليه شىء مما يدعيه الشاكى عزله

﴿رابع عشر﴾ — كان رضى الله عنه لايحب أن يفرق عماله فى المعاملة بين الحر والعبد ولا بين القوى والضعيف أخرج بن جرير الطبرى عن الأسود بن يزيد قال كان الوفد اذا قدموا على عمر رضى الله عنه سألهم عن أميرهم فيقولون خيرا فيقول هل يعود مرضاكم فيقولون نعم فيقول هل يعود العبد فيقولون نعم فيقول كيف صنيعه بالضعيف وهل يجلس على بابه فان قالوا لا عزله

﴿خامس عشر﴾ — لما وفد عليه الأحنف بن قيس وسأله عن حال الذمة فى ولاية البصرة وصرفه كتب معه كتابا الى عتبة بن غزوان أمير البصرة يوصيه فيه بأهل الذمة هذه صورته (عن تاريخ الطبرى)

اعزب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغى فانكم انما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه وقد تقدم اليكم فيما أخذ عليكم فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عونا وناصرا

و بلغه مرة أن حرقوصا عامله على الأهواز نزل جبل الاهواز والناس يختلفون اليه والجبل كؤود يشق على من رامه فكتب اليه ماصورته نقلا عن تاريخ الطبرى فى حوادث سنة (١٧)

(أما بعد) بلغنى أنك نزلت منزلا كؤودا لاتؤتى فيه الاعلى مشقة فأسهل ولاتشق على مسلم ولا على معاهد وقم فى أمرك على رجل تدرك الآخرة وتصف لك الدنيا ولا تدركنك فترة ولاعجلة فتكدر دنياك وتذهب آخرتك

﴿سادس عشر﴾ — وأخرج عن أبى فراس قال خطب عمر بن الخطاب فقال : يا أيها الناس انى والله ما أرسل عمالا اليكم ليضربوا أبشاركم ولاليأخذوا أموالكم ولكنى أرسلهم اليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم (وفى رواية و يقضوا بينكم بالحق و يحكموا بينكم بالعدل) فمن فعل به شىء سوى ذلك فليرفعه الى فوالذى نفس عمر بيده لأقصنه منه [2] فوثب عمرو بن العاص فقال ياأمير المؤمنين أرأيت ان كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته انك لتقصه منه . قال إى والذى نفس عمر بيده اذن لأقصنه منه وكيف لا أقصه

(١) وظيفة محمد بن مسلمة هذه تشبه وظيفة المفتشين لهذا العهد

(٢) يعنى يمكن خصمه من الاقتصاص منه أو يقتص له منه

منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه . ألا لاتضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجمروهم فتفتنوهم ولاتمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولاتنزلوهم الغياض فتضيعوهم

وعن أبي رواحة قال كتب عمر بن الخطاب الى العمال . اجعلوا الناس عندكم فى الحق سواء قريبهم كبعيدهم و بعيدهم كقريبهم إياكم والرشا والحكم بالهوى وان تأخذوا الناس عند الغضب فقوموا بالحق ولوساعة من نهار

وروى الطبرى أن عمر كان يقول فى عماله . اللهم انى لم أبعثهم ليضربوا أبشارهم من ظلمه أميره فلا إمرة عليه دونى . ومع كل هذا التشديد على العمال فانه رضى الله عنه كان دائما قلقا على الرعية خائفا من أن يجار عليهم بأمر لايصله خبره لهذا عزم قبيل قتله أن يسافر ويطوف على العمال جميعهم ليبحث عن أمور الرعية ويقضى حاجاتهم . فقد أخرج الطبرى عن الحسن قال . قال عمر بن الخطاب لئن عشت ان شاء الله لأسيرنّ فى الرعية حولا فانى أعلم انّ للناس حوائج تقطع دونى أما عمالهم فلايرفعونها الىّ وأماهم فلايصلون الىّ فأسير الى الشام فأقيم بها شهرين ثم أسير الى الجزيرة فأقيم بها شهرين ثم أسير الى مصر فأقيم بها شهرين ثم أسير الى البحرين فأقيم بها شهرين ثم أسير الى الكوفة فأقيم بها شهرين ثم أسير الى البصرة فأقيم بها شهرين والله نعم الحول

﴿ سابع عشر ﴾ — كان من عماله سلمان الفارسى وكان عامله على المدائن وكان على جانب من الزهد والتقى والصلاح عظيم فكان يلبس الصوف ويركب الحمار ببردعته بغير إكاف ويأكل خبز الشعير فلما احتضر بالمدائن قال له سعد بن أبى وقاص ياأباعبدالله أذكرك الله (١) عندهمك اذاهممت وعند لسانك اذاحكمت وعند يدك اذا قسمت . فجعل سلمان يبكى فقال له ياأباعبدالله مايبكيك : قال سمعت رسول الله ﷺ يقول انّ فى الآخرة عقبة لايقطعها إلا المخفون وأرى هذه الأساودة (جمع سواد وهو المال الكثير) حولى فنظروا فلم يجدوا فى البيت إلا اداوة وركوة ومطهرة

وكان عامله على الشام أباعبيدة بن الجراح وكان يظهر للناس وعليه الصوف الجافى فعذل على ذلك وقيل له انك بالشام وأمير المؤمنين وحولنا الأعداء فغير من زيك واصلح من شارتك فقال ما كنت بالذى أترك ما كنت عليه فى عصر رسول الله ﷺ

وكان عامله على حمص سعيد بن عامر بن حذيم فشكاه أهل حمص اليه وسألوه عزله . فقال عمر اللهم لاتفل فراستى فيهم . ماذا تشكون منه . قالوا لايخرج الينا حتى يرتفع النهار ولايجيب أحدا بليل وله يوم فى الشهر لايخرج الينا . فقال عمر علىّ به فلما جمع بينه و بينهم فقال ماتنقمون منه . قالوا لايخرج الينا حتى يرتفع النهار فقال ماتقول ياسعيد . فقال ياأمير المؤمنين انه ليس لأهلى خادم فأعجن عجينى ثم أجلس حتى يختمر ثم أخبز خبزى ثم أتوضا واخرج اليهم . قل وماذا تنقمون منه . قالوالايجيب بليل . قال قد كنت أكره أن أذكر هذا انى جعلت الليل كله لربى وجعلت النهار لهم . قال وماذا تنقمون منه . قالوا له يوم فى الشهر لايخرج الينا . قال نعم ليس لى خادم فاغسل ثوبى ثم أجففه فأمسى . فقال عمر الحمد لله الذى لم يفلّ فراستى فيكم يا أهل حمص فاستوصوا بواليكم خيرا . ثم ان عمر بعث اليه بألف دينار وقال استعن بها . فقالت له امرأته قد أغنانا الله عن خدمتك فقال لها ألاندفعها الى من يأتينا وأحوج ما كنا اليه قالت بلى فصرها صررا ثم دفعها الى من يثق به وقال انطلق بهذه الى فلان و بهذه الى يتيم بنى فلان ومسكين آل فلان حتى بقى منها شىء يسير فدفعه الى امرأته وقل أنفقى هذه ثم عاد الى خدمته فقالت له امرأته ألاتبعث بذلك المال فتشترى لنا منه خادما فقال سيأتيك أحوج ماتكونين اليه . انتهى من كتاب أشهر مشاهير الاسلام

(١) لعل الصواب قد كنت تذكرالله

هانحن أولاء اللهم شاهدنا جميل صنعك وبديع اتقانك فى عوالمك المشاهدة والمسموعة والتى أوحيت بها للحيوان وماعلمت به الانسان. وهانحن أولاء نقرأ آثار ﴿ سورة الشورى ﴾ فى آخر الأديان المنزلات الى الأرض . كل جمال فى كوكب أوزهر أو وجوه حسان فى نوع الانسان . وكل نظام فى جماعة الحيوان أوعدل على يد نبيّ أوخليفة أوصالح داخل تحت آية « وانك لتهدى الى صراط مستقيم ✽ صراط الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض »

أما صراطك الذى فى السموات والأرض فهذا التفسير قد ألمّ بصوركثيرة منه . وأما الصراط المستقيم الذى يدعو اليه رسولك ، فبعضه ماجاء فى هيئة الشورى المتقدّمة أيام النبوّة والخلافة

اللهم إن هذه الأعمال الشريفة ، والمعانى المنيفة ، لم يبق عند كثير من أمم الاسلام إلا أخبارها ، اللهم إنى بينت باعانتك وأنت الحكيم العليم ، فاشرح صدور المسلمين لدرس تلك الأعمال الشريفة ليرجعوا مجدهم ويقوموا بنظام أممهم ويساعدوا الأمم على النظام العام

هاهم أولاء المسلمون بعد (٣٠ سنة) وهى التى كانت فيها الخلافة أخذوا يرجعون القهقرى تدريجا فما كاد عثمان رضى الله عنه يقتل حتى قرعت القارعة واشتدّ الخصام والنزاع على الخلافة ، نعم كان ذلك باجتهاد من أصحاب نبيك ﷺ فأما بعد ذلك فان الأمر كله راجع للملك وحده ، وأخذ بنوأمية وبنوالعباس يتنافسون على الخلافة ، وأدخل الآخرون الفرس معهم لاذلال العرب فذهبت ريحهم على ممرّ الأيام ، ولازالت الأمة تتقهقر بالتدريج حتى يومنا هذا

لاملاذ ولاملجأ للمسلمين إلا أن يرجعوا لنفس النبوّة ونفس الخلافة فيدرسوهما درسا تاما مفصلا . هانحن أولاء لم نجد فى أممنا الاسلامية حولنا ولافى أمم أوروبا حكومات تشا كل حكومات الخلفاء الراشدين

تبين من كلام عمر مع ابن عباس أنه يضن بالمسلمين أن يكونوا تحت إمرة من يتولى الخلافة بحق النسب خيفة أن تترك الشورى ويحلّ النسب محلها وذلك الذى خاف منه عمر رضى الله عنه قد حصل عند الأمويين وعند العباسيين ، فالنسب صار أصلا للخلافة ، وعمر يقول : كلا . انما يكون بالشورى ، شاطر عمر بعض العمال فى أموالهم وكره من آخر كما تقدم ما أعطى من المال للناس وذم ذلك سواء أكان من ماله هوأم من مال الأمة ، وعدّه على الأوّل اسرافا وعلى الثانى خيانة ، نهاهوذا تاريخ ملوك الاسلام قديما وحديثا انهم جميعا إلا قليلا منهم مسرفون فى مال الأمة اسرافا فاحشا ، وكان الشعراء لايعيشون إلا من عطاء الأمراء والملوك وكل هذا مال الأمة ولانكير عليهم ولارقيب

قتل المسلمون عثمان رضى الله عنه بما ظنوا من ميله لقومه بنى أمية ، وبما اتهم به مروان بن الحكم من تزوير كتاب فيه اراقة دم لمسلم ، وهذه لاتبلغ معشار عشر ما ابتليت به أمم الفرنسيين والانجليز والألمان فعصوا ملوكهم ، فلقد علمت كيف ظلم الانجليز ملوكهم ظلما فاحشا ، وكيف ظلم رجال الكنيسة والأشراف الأمة الفرنسية ، فكان لايدفع الضرائب إلا الطبقة الثالثة وهى أيضا لاحقّ لها فى أن تمنع الطائفتين الغالبتين عن افساد الزرع بصيد الأشراف فيه كما تقدم

أيها المسلمون : هاهوذا كتاب الله ، وهاهى ذه سنة رسوله والخلفاء من بعده ، فوالله لاحجة لكم بعد هذا ، قامت حجة الله على أمراء المسلمين وعلى العلماء وعلى العامة ، أما العلماء فبنشر العبارة بحيث تصبح كالعقيدة الجوهرية فى الاسلام ، فوالله إن خطاب المسلم لربه فى الصلاة إذ يقول « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم » يتضمن ماتقدم عن الخلفاء ، إذن هذا الصراط وهوالعدل والشورى هوصراط الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض المذكورين فى أوّل هذه السورة « حم عسق » الى قوله « له مافى السموات ومافى الأرض الخ » . عدل الخلفاء الراشدون لاشراق نور النبوّة عليهم . ولكن ذلك النور

أخـذ اشراقه يتضاءل على من بعدهـم ، وخير لعلماء الاسلام وملوك الاسلام أن يدرسوا مع السيرة النبوية والخلافة نظام العالم أيضا (كالذى نشرناه فى هذا التفسير، فذلك مفتاح لمعرفة نورالنبوّة فى مستقبل الزمان)

وأما الملوك فعليهم الاجتهاد فى اتباع سيرة الخلفاء ، وأما العامة فعليهم الانقياد للوالى النافع ونبذ الظالم ، وذلك لا يكون إلا بتعميم التعليم ، وأنتم يا أمم الأرض المحيطين بالاسلام ، هاهوذا نظام السموات والأرض الذى أبدعه الله وهوالذى ألهم الحشرات (وكل حيوان يعيش بهيئة جهورية) كيف تنظم الجماعات وتعطى كل ذى حق حقه ، فأنتم محاسبون جميعا على ماترون من هـذا النظام ، أنتم جميعا بعد الموت سترون النقص فى نفوسكم وهـذا النقص نفسه عذاب لـكم ولابدّ لـكم من قطع عقبات فى عوالم أخرى حتى تصلوا الى تمام النظام ، وذلك بأمرين : علم تام بهذه الكائنات ، واخلاص تام للجماعات بحيث تصبح نفس الانسان فى المساعدة لأخوانها بعد التروّى والتفكر أشبه بما طبعت عليه النحل فى جماعتها والنمل فى قريتها وهناك يكون الوصول الى الله والنظر الى وجهه الكريم وتكون السعادة التامّة ، أما قبل ذلك فلا ، هذا ماعنّ لى اليوم كتبته فى تاريخه والحمد لله رب العالمين . الأربعاء ١١ فبراير سنة ١٩٣١ م — ٢٣ رمضان سنة ١٣٤٩ هـ

عدل عمر وانصافه

جاء فى «كنز العمال» فى كتاب «أشهر مشاهير الاسلام» مانصه :

كان بين عمر وبين أبىّ بن كعب خصومة . فقال عمر : اجعل بينى وبينك رجلا ، فجعلا زيد بن ثابت فأتياه ، فقال عمر : أتيناك لتحكم بيننا وفى بيته يؤتى الحكم ، فلما دخلا عليه وسع له زيد عن صدر فراشه فقال ههنا يا أمير المؤمنين ، فقال له عمر : هـذا أوّل جورجرت فى حكمك ، ولـكن أجلس مع خصمى ، فجلس بين يديه ، فادّعى أبىّ وأنكر عمر . فقال زيد لأبىّ : أعف لأمير المؤمنين من اليمين وما كنت لأسألها لأحد غيره ، فحلف عمر ثم أقسم لايدرك زيد القضاء حتى يكون عمر ورجل من عرض الناس عنده سواء ، وفيه عن عبد الله بن حكيم . قال قال عمر بن الخطاب : «انه لاحلم أحبّ الى الله تعالى من حلم امام ورفقه ولاجهل أبغض الى الله تعالى من جهل امام وخرقه» اهـ

جمال الحكمة والعلم

فى آية «وأمرهم شورى بينهم» وآية «قل لاأسألكم عليه أجرا إلا المودّة فى القربى»

اللهم إنك أنت الحكيم العليم ، أنت الرب الشهيد ، يا ألله ما أجمل صنعك فى السموات والأرض ، وما أبدع نظامك فى العقول الانسانيـة ، حارت الأمم الاسلامية ياربنا فى دين الاسلام ، هذا الدين الذى أنزلته منذ (١٣) قرنا ونصفا ، المسلمون يرون فى هـذه السورة أنك تحب اليهم الشورى ، ثم هم يجدون الأمم الاسلامية أكثر حكوماتها جاهلة غافلة . فيقرءون سيرة عمر فيعلمون الى أىّ حدّ وصل العمل بها فى الدين أيام سنى الخلافة فيفكرون فى السير على منواله ، ويرون فى هذه السورة «قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودّة فى القربى» ويرون المفسرين مختلفين فى تفسيرها كما قدّمناه ، ويجدون آية أخرى تؤيد أن القربى هى التقرّب لله كما قدّمناه إذ يقول : «قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا» والقرآن يفسر بعضه بعضا ، ولـكنهم يجدون تفسير الجمهور وهو أن المراد بالقربى قرابة النبى ﷺ هو المشهور بين الناس . ثم يرون لآل البيت مقابر جعلت محل الاعظام والاجلال ، وأخذ الناس يقدّمون لها فى بعض أقطار الاسلام النذور ، يريدون بذلك قضاء الحوائج ، وفى ذلك يرون كثيرا من العلماء فى الاسلام ينفرون ذلك ، فهم فى شدّة الحيرة من ذلك ! فهذه الحيرة أقضت مضاجعهم ، وفرّقت وحدتهم . ولـكن رحمتك التى

وسعت

وسعت كل شيء تداركت الأمة بمثل ماجاء هنا فى محاورة ابن عباس مع عمر فى سبب عدم اسناد العمل الى آل البيت ، وقول الثانى للأول كما تقدم : « انى خشيت أن يأتى علىّ الذى هو آت وأنت فى عملك فتقول هلمّ الىّ ولاهلم اليكم دون غيركم ، انى رأيت رسول الله ﷺ استعمل الناس وترككم » ثم أشار عمر الى أن سبب ذلك خشية أن يبايع الناس آل البيت بمنزلتهم فيقع العقاب ، ولابد من عتاب . ثم قال : فقد فرغت لك فما رأيك ؟ الى آخر ماتقدم

اللهم انك أنت الحكم العدل . وأنت الرحيم . ظهر السرّ الذى كان مخبوءا . ظهر فى ثنايا الكتب المتروكة . أنت أمرت بالشورى ولكن الناس يتأثرون بذوى البيوتات والمجد والشرف ولا يراعون العلم والقوّة . وكثيرا ماولوا طفلا صغيرا لمنزلة والده الراحل الى ربه . فاذا صح أن رسول الله ﷺ ترك ولاية بعض بنى هاشم خيفة أن يبايعوا الناس بمنزلتهم . واذا صحّ أن عمر فعل ذلك أيضا وقد ظهر صدق فراسته إذ تقلد ابن عباس ولاية لعلىّ رضى الله عنه وأخذ مافى بيت المال لنفسه فأحزن أمير المؤمنين عليا بذلك فضلا عما يلقاه من معاداة معاوية بالشام . أقول : اذا صحّ هذا فقد ظهر الحق واستبان السبيل

اللهم لاحجة للمسلمين فى مخالفة الحقائق « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . فههنا أمران : أوّلا الامارة لايجوز أن تكون إلا بالكفاءة . وهذه يعرفها أهل الحلّ والعقد . والعبرة بالأغلبية ﴿ ثانيا ﴾ اكرام آل البيت رضى الله عنهم ، إن هذا الاكرام لايختلف فيه اثنان من المسلمين ، ولكن هذا الاكرام ليس معناه ﴿ أوّلا ﴾ أن نولى أحدهم ولاية وفى الأمة من هو أجدر منه ونضيع المسلمين ونطمع فيهم الكفار بهذا السبب ولعمرى لأن تحفظ بلاد الاسلام من عدوان الأعداء وآل البيت محترمون فيها خير من أن يأخذها العدوّ فيعم الذّل آل البيت وغيرهم ﴿ ثانيا ﴾ أن ننذر لهم النذور فنقول : « ان شفى مريضى أوجاء غائبى فانى أضع فى صندوق السيدة زينب رضى الله عنها أوفى صندوق سيدنا الحسين رضى الله عنه كذا كذا من النقود » فان هذا من أوضاع الجاهلين من أمم الاسلام

اللهم ان قرّاء هذا التفسير المغرمين به لايعوزهم ايضاح هذا المقام ، ولكن سأنقل لهم ماجاء من أقوال الشيخ الدباغ لأنه من كبار الأولياء والصالحين وبقوله يحتجون على كل من ادّعى الولاية من المسلمين ، أولئك الذين يقولون : « إن الشريعة شيء والحقيقة شيء آخر » فهذه خديعة كاذبة خاطئة ، فانظر ماقاله وهذا نصه

قال ابن المبارك : « وسألته رضى الله عنه ؟ لم كان الناس يستغيثون بذكر الصالحين دون الله عزّ وجل فترى الواحد اذا جهد فى يمينه يقول : وحق سيدى فلان كسيدى عبد القادر الجيلانى أوسيدى يعزى أوسيدى بن العباس السبتى وغيرهم نفعنا الله بهم . واذا أراد أن يحلف أحدا ويؤكد عليه فى يمينه يقول : احلف لى بسيدى فلان ، واذا أصابه ضرّ وأراد أن يسأل كالعامة الذين يتكففون الناس صرح باسم سيدى فلان يهم فى ذاتهم منقطعون عن الله عزّ وجل ، واذا قيل لهم توسلوا بالله أو احلفوا به أو نحو ذلك لايقع ذلك الكلام منهم موقعا ، فما السبب فى ذلك ؟ فقال رضى الله عنه : أهل الديوان من أولياء الله فعلوا ذلك عمدا لقوّة الظلام فى الذوات وكثرة المنقطعين عن الله عزّ وجل فصارت ذواتهم خبيثة ، وأولياء الله تعالى يحبون الذين يذكرون سادتهم خالقهم سبحانه أن تكون ذاته طاهرة لأنه تعالى يجيب من دعاه اذا انقطع اليه باطنا وقت الدعاء ، واجابته تكون بأحد أمرين : إما أن يعطيه مسأله ، واما أن يبين له سرّ القدر فى المنع اذا منعه وهذا لا يكون إلا للأولياء ، ولا يكون للبعداء المحجوبين ، فلو توجهت الذات الظلمانية اليه تعالى بجميع عروقها وبكل جواهرها وسألته أمرا ومنعها ولم يطلعها على سرّ القدر فى المنع لربما وقع لها وسواس فى وجود الحق سبحانه فتقع فيما هو أدهى وأمرّ من عدم قضاء حاجتها ، فكان من [illegible] أهل الديوان من رباط يعلقون الناس بعباد الله الصالحين لأنها ان وقع لهم وسواس [illegible] فان ذلك لايضرهم .

قال رضى الله عنه : ومما يدلك على كثرة المنقطعين وزيادة الظلام فى ذواتهم أنك ترى الواحد يخرج من داره بعشرين موزونة مثلا ويذهب بها الى ضريح ولىّ من أولياء الله تعالى فيطرحها عنده ليقضى له حاجته وكم من فقير محتاج يلقاه فى الطريق ويطلب منه متاع الله فى سبيل الله لوجه الله فلا يعطيه درهما واحدا حتى يبلغ للولىّ فيطرحها عند رأسه ، وهذا من أقبح ما يكون ، وسببه أن الصدقة لم تخرج لله عزّوجل وعظمته وكبريائه ووجهه الكريم ووجوده العظيم إذ لو خرجت لذلك لدفعها صاحبها لكل محتاج لقيه ، لكن لما كان الحامل عليها والداعى الى اخراجها هو قصد النفع لنفسه واستكمال أغراضه وحظوظه خصّ بها موضعا دون موضع لظنه أن النفع يتبع ذلك الموضع وجودا وعدما . قال رضى الله عنه : وقد رأيت فى هذا اليوم ما أهدى للصالحين من باب تلمسان الى الساقية الحمراء فاذا هو من الدنانير ثمانون دينارا ومن الغنم ثلثمائة وستون شاة ، ومن البقر اثنان وسبعون ثورا ، أخرج هذا كله فى يوم واحد للصالحين وما أخرج لله تعالى فى ذلك اليوم عشرة دراهم . قال رضى الله عنه : وهذا سبب من الأسباب الموجبة للانقطاع عن الله عزّوجل الطارئة على هذه الأمة من غير شعور لأكثرهم بها وهى منحصرة فى ثلثمائة وستة وستين سببا كلها موجبة لانقطاع العبد عن ربه عزّوجل . فقلت : وهل حضركم الآن منها شىء ؟ فقال رضى الله عنه اكتب : ﴿ الأوّل ﴾ الهدية للصالحين على الوجه السابق دون وجه الله عزّوجل ﴿ الثانى ﴾ التوسل الى الصالحين بالله عزّوجل ليقضوا الحاجة ، فيقول الزائر : « قدّمت لك رجاء الله ياسيدى فلان إلا ماقضيت لى حاجتى » وانما كان سببا للانقطاع لأن الزائر قاب الواجب وعكس القضية ، فانه كان من حقه أن يتوسل لله عزّوجل بأوليائه لا أن يعكس ﴿ الثالث ﴾ زيارة الصالحين وعلى الزائر دين فرض كعدد صلوات وجب قضاؤها عليه فترك قضاءها الذى هو حق الله وفيه نور الله وسرّه تعالى الذى يرجه به وذهب الى زيارة صالح ، ولا يخفى مافيه من الانقطاع والظلام ﴿ الرابع ﴾ الخوف من الظالم على العمر والرزق وغيرهما فيقول فى نفسه : « لا أعصى هذا الظالم لأنى ان عصيته قتلنى أو منع رزقى » أو غير ذلك مما يوجب الخوف منه ولو تحقق بوجود الحق تعالى معه وتصرّفه فيه وفى ذلك الظالم لعلم أنه هو الفاعل وحده ، لا يشاركه ذلك الظالم ولا غيره فى فعل من الأفعال ، وحينئذ فلا يخاف إلا منه تعالى ، وبقدر مايقوى هذا النظر فى العبد يقوى قربه من ربه تعالى ، وبقدر مايقلّ أو ينعدم يكون بعده من الله عزوجل وانقطاعه ﴿ الخامس ﴾ الطمع فى الظالم فيتقرّب اليه لينال منه رزقه ، ولو تحقق بأن الله سبحانه هو الرزاق لم يصدر منه ذلك ﴿ السادس ﴾ النصرة للكافرين فيا لهم مصالحهم فى دنياهم بأن يرى لهم طريقا ونحوه فانه من أسباب الانقطاع عن الله عزوجل . قلت : وما رأينا من نصح ظالما إلا وكانت عاقبة أمره خسرا ، ونذكر ههنا قصة سفيان الثورى رضى الله عنه مع الذى أراد أن يوقظ حرسيا للصلاة . فقال له سفيان : لاتوقظه دعه هذه الساعة نسترح منه ومن شرّه فيها ﴿ السابع ﴾ عدم النصيحة للمسلمين ، فيرى مايضرهم ولا يأمرهم بالتحرز منه ، ويرى ماينفعهم ولا يأمرهم بالتأهب له ﴿ الثامن ﴾ استحلاء التعب والمشقة فى طلب الدنيا على عبادة الله عزّوجل ، فمن أحسّ بذلك من نفسه فليعلم أنه مرتكب سببا من أسباب الانقطاع ﴿ التاسع ﴾ طلب الدنيا بما هو أهون منها وأذلّ وأحقر . وقد كان السلف الصالح رضى الله عنهم يطلبونها بما هو أعلى منها وأعز كالجهاد والتجارة والزراعة وغير ذلك من أسباب الحلال ، وأما من طلب الدنيا بالزور والكذب والفجور والأيمان الحانثة فقد طلبها بمعاص هى أخسّ منها أى من الدنيا ، فمن أحسّ بذلك من نفسه فليقب الى الله عزّوجل فان الدنيا لاتدرك إلا بما هو أعزّ منها ﴿ العاشر ﴾ أن تكون أعمال العبد وطاعاته بقصد أن يرحمه الله بها وبقصد نفع نفسه وتحصيل أغراضه وحظوظه لا بقصد وجه الله الكريم ووجوده العظيم ، وهذا سبب قد عمّ أكثر الناس إلا من رحمه الله عزوجل جعلنا الله منهم بمنه وفضله . قال رضى الله عنه : ولو لم يخلق الله جنة ولا نارا لتبين من

يعبده من لايعبده ولكانت عبادة الذى يعبده خالصة لوجهه الكريم ، وحينئذ تحصل المعرفة به تعالى على وجهها الكامل لمن عبده ، ولكن الناس لما سمعوا بذكر الجنة والنار تفرقت أغراضهم نحوهما فضلوا عن السبيل ﴿ الحادى عشر ﴾ المعاصى فى حرمات الله تعالى كالمساجد ونحوها فان العبد لوتحقق باضافة البيت الى ربه وقال فى قلبه « هذا بيت الله » لم تصدر منه فيها معصية ﴿ الثانى عشر ﴾ اللواط وستأتى مفسدته وانه لامزيد عليها ﴿ الثالث عشر ﴾ ضرب الرجل امرأته من غير ذنب فلذلك الضرب سبب فى الانقطاع لما لها عليه من الحقوق ﴿ الرابع عشر ﴾ المنة على العيال والأهل بالنفقة فيقول : « أنفقت عليكم كذا وكذا» بقصد المنة ﴿ الخامس عشر ﴾ الحسد . وسيأتى ان شاء الله تعالى ما فيه من المفاسد وأن غالب المعاصى منه ﴿ السادس عشر ﴾ الاقدام على المعصية مع معرفتها ، وسيأتى ان شاء الله بيان ذلك عند الكلام على أشد الناس عذابا يوم القيامة ﴿ السابع عشر ﴾ جمع الدنيا من الحرام . قلت : ولايتكرر مع الوجه التاسع كما لايخفى ﴿ الثامن عشر ﴾ عقوق الوالدين : فسمعته رضى الله عنه يحكى عن شيخه سيدى عمر بن محمد الهوّارى ، وذكر أنه كان جالسا معه عند السدرة المحرّرة التى هى خارج روضة سيدى على بن حرزهم فجاءه ولده يودّعه وأراد الذهاب الى الحج فأبى عليه أبوه سيدى عمر . قال : وكان عاقا لأبيه ، فذهب وأبوه غير راض عنه . فقال لى سيدى عمر : نتيجة عقوق الوالدين أربعة أمور : أحدها أن الدنيا تذهب عنه وتبغضه كما يبغض المؤمن جهنم . ثانيها أنه اذا جلس فى موضع من المواضع وجعل يتكلم مع الحاضرين فى شىء من الأشياء صرف الله قلوبهم عن الاستماع لكلامه ، وينزع الله تعالى البركة والنور من كلامه ويصير ممقوتا بينهم . ثالثها ان أولياء الله تعالى من أهل الديوان والتصرّف لاينظرون اليه نظر رحمة ولايرقون له أبدا . رابعها أن نور ايمانه لايزال ينقص شيئا فشيئا ، فمن أراد الله به الشقاوة والعياذ بالله لم يزل كذلك الى أن يذهب نور ايمانه ويضمحل بالكلية فيموت كافرا ، نسأل الله السلامة ، ومن لم يرد به ذلك مات ناقص الايمان أعاذنا الله من ذلك . قال : ونتيجة رضاهم أربعة أمور هى أضداد هذه الامور : تحبه الدنيا كما يحب المؤمن الجنة ، ويحلو كلامه بين الناس ، ويحن عليه أولياء الله تعالى ، ولايزال ايمانه يزيد شيئا شيئا والله الموفق

فانظر يا أخى هذه المفاسد الأربعة التى فى عقوق الوالدين ، والمحاسن الأربعة التى فى برّ الوالدين ﴿ التاسع عشر ﴾ مخالطة المحجوبين كذوى الرياسات فان فى ذات العبد المؤمن خيطا من نور يخرج من ثقبة من ذاته يتصل ذلك النور بعطية الحق سبحانه يزيد بمخالطة أوليائه تعالى ويقلّ بعدمها ويخاف عليه من الانقطاع أصلا ، وانسداد الثقبة بمخالطة أرباب الرياسات ، فانهم برياستهم وأموالهم وجاههم يستولون على ذاته فتكون تحت أسرهم وفى حكم قبضتهم ، فلايزال يصغى اليهم بقلبه وقالبه ، ويبقى على ذلك المدة الطويلة ولايقع الحق سبحانه فى فكره ولافى خاطره ، فلايزال كذلك مسترسلا فى أغراضه وانقطاعه حتى تنسد الثقبة أصلا والعياذ بالله ، وهذه آفة حاصلة من ذوى الرياسات . نسأل الله السلامة ﴿ العشرون ﴾ التفريق بين الخلفاء الأربعة : أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ رضى الله عنهم أجمعين

هذا ما قاله الشيخ الدباغ رحمه الله تعالى ، ومن عجب ماذكره الشيخ الشعرانى فى كتابه المسمى « درر الغوّاص فى هذا الموضوع ، فقد سأل شيخه الشيخ الخوّاص . فقال مانصه :

وسألته رضى الله عنه : هل أقرأ أوأصوم وأجعل ثواب ذلك لآدم عليه الصلاة والسلام ليكون ذلك وصلة بينى وبينه فى المعرفة فى الآخرة لسبب أعلمته به ؟ فقال : لاتجعل بينك وبين الله واسطة أبدا من نبىّ أوغيره . فقلت له : كيف ؟ فقال لأن الرسول انما هو واسطة بين العبد وبين الرب فى الدعوى الى الله لا الى نفسه فاذا وقع الايمان الذى هو مراد الله تعالى من عباده ارتفعت واسطة الرسول عن القلب إذ ذاك وصار الحق تعالى أقرب الى العبد من نفسه ومن رسوله ولم يبق للرسول إلا حكم الافاضة على العبد من جانب

التشريع والاتباع كما فى حال المناجاة فى السجود سواء ، فنفس الرسول يغار من أمته أن يقفوا معه دون الله تعالى ذاته يعلم أن مقصود التشريع حصل بالتبليغ كما حصل له الأجر على ذلك كما أشار اليه قوله ﷺ « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها » الحديث ، وانظر ياأخى الى غيرة الحق تعالى على عباده لقوله لمحمد ﷺ « واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان » فأعلمنا تعالى بأنه أقرب الينا من أنفسنا ومن رسولنا الذى جعله الله تعالى واسطة لنا فى كل خير مع انه تعالى بالغ فى مدحه ﷺ حتى كاد أن يصرح بأنه هو لكثرة ماوصفه بالكمال فى نحو قوله تعالى « من يطع الرسول فقد أطاع الله » وبقوله « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله » ومع ذلك قال له « ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون » فأخرجه عن حال الخلق ونفاه عنهم وأثبته معه فى البراءة عن المثلية وعن مشاركة أحد منهم له فى كماله أو رتبته ﷺ منهم والله أعلم . انتهى كلامه

درة يتيمة

حضر صاحبى الذى اعتاد أن يحادثنى فى هذا التفسير. فقال : هل تسمح لى أن أنقد هذه المقالات . فقلت حبا وكرامة . فقال : أين الثريا وأين الثرى ؟ ذكرت سيرة عمر رضى الله عنه لمناسبة آية الشورى وأتبعتها بأقوال الشيخ الدباغ ، فأين المناسبة بينهما ؟ فقلت ياصاح الأمر سهل ، إن فى السورة آيتين وهما آية الشورى وآية المودة فى القربى وبينهما صلة مّا . ألاترى أن المسلمين أبوا أن يسيروا بالشورى بعد سنى الخلافة وهى (٣٠) سنة كما تقدم ، وقد ظن الناس أن الانتساب لعظيم أو لملك كاف ، وهذا فى الحقيقة انحراف عن الجادة فى الخلافة ، فآية المودة فى القربى باعتبار لتفسير المشهور جعلت سببا فى ابطال الشورى فى زمان مّا من أزمان التاريخ الاسلامى ، ولقد تعالى الناس فى التدلى والتنزل والتغاضى عن الحقائق الاسلامية حتى نذروا النذور لمن مات من الأولياء شرفاء أوغير شرفاء ، فلذلك ذكرنا أقوال الشيخ الدباغ ليظهر للمسلمين الحقائق التى يقول بها علماء الاسلام وظهرت على لسان صالح من صلحاء الاسلام

ولو انهم أدركوا الحقائق لرجعوا الى ربهم فى صغيرات الامور وكبيراتها والله يقضى بالحق ، إن الذى أضل كثيرا من المسلمين هو الجهل الفاضح ، ولعلك تذكر ماقدمته من حديث عمر مع ابن عباس . فقال : أذكره ولكن أريد ماهو أوضح . فقلت اسمع ماجاء فى كتاب « أشهر مشاهير الاسلام » وهذا نصه :

« ومن عجيب فراسته التى كان كأنه ينظر منها بعين الغيب ماذكره ابن عبد ربه فى العقد . قال : قال أبو بكر بن أبى شيبة ، كان عبد الله بن عباس من أحب الناس الى عمر بن الخطاب ، وكان يقدمه على الأكابر من أصحاب محمد ﷺ ولم يستعمله قط ، فقال له يوما كدت أستعملك ولكن أخشى أن تستحل الفىء على التأويل ، فلما صار الأمر الى على استعمله على البصرة فاستحل الفىء على تأويل قول الله تعالى « واعلموا أن ماغنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى » واستحله من قرابته من رسول الله ﷺ كما تفرس فيه ذلك عمر من قبل . هكذا كان مبلغ فراسة عمر رضى الله عنه خصوصا فى بنى هاشم وقد كان يتفرس فيهم القيام يوما لطلب الخلافة واثارة غبار الفتن والاستحواذ على ذلك المنصب الذى كانوا يرون أنفسهم أحق الناس به على خلاف ما كان يراه جلة المهاجرين الذين يعلمون أن رسول الله ﷺ منعهم من أن يعملوا له عملا كى لايحدثوا أنفسهم بشىء من الامارة لأنها غير النبوة ، ومن ذلك ماذكره فى العقد أن العباس رضى الله عنه عم النبى ﷺ طلب منه ولاية فقال له : « ياعم نفس تحييها خير من ولاية لاتحصيها »

وكان عمر لتفرسه فيهم التطلع الى الامارة لايستعمل أحدا منهم كما لم يستعملهم رسول الله ﷺ ويجاهر

بظنه هذا فيهم ، وقد جاهر به لعبد الله بن عباس مرارا ، ومنه ماتقدم ذكره فى باب سياسته إذ قال له : « ياابن عباس إنى خشيت أن يأتى علىّ الذى هوآت وأنت فى عملك فتقول هلمّ الينا ولاهلمّ اليكم دون غيركم »

ولقد تحققت فراسته فى بنى هاشم بعد إذ قضوا عصورا طويلة فى مكافحة الملوك ومزاحمة الخلفاء على الخلافة وأسسوا عدّة دول أضخمها العباسية فى بغداد والفاطمية فى افريقيا وأهرقوا سيولا من دماء أشياعهم وأشياع غيرهم فى سبيل نيل هذه البغية ، وتأتى عن هذه المزاحمة من التشويش فى أمور الدول الاسلامية والاضطراب فى المسلمين ما الله به عليم ، على أنهم لواتعظوا بعمل رسول الله ﷺ إذ صرف أسلافهم عن الامارة وصرفها عنهم لما أقدموا على شىء من ذلك بل لكانوا اذا استمرّ فى نفوسهم شىء من التطلع الى الخلافة سلكوا اليها سبيلا غير ذلك السبيل وجعلوا الأمة بأجمعها طامحة الأنظار اليهم ساعية بنفسها لاسناد منصب الخلافة لأهل الجدارة منهم وحسبهم موعظة وذكرى أن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه على صلاحه وتقواه وسابقته فى الاسلام وقرابته من رسول الله ﷺ وشهرته بالعدل والورع والزهد (ومن كعلىّ بعده) لم يوفق الى جمع كلمة الأمة على الرضا بخلافته لا لقصور فيه معاذ الله وانما هو لما وقر فى نفوس الأمة يومئذ من أن أهله مبين بسبب قرابتهم من رسول الله ﷺ لاينفكون عن الادلال على الناس وحب الاستعلاء على الكافة والناس يومئذ فى إبان نشأة الاسلام وعزّ الحرّية وحظيرة المساواة والاخاء التى حشرهم اليها الاسلام بقوله تعالى « إنما المؤمنون اخوة » وبقول النبىّ ﷺ « لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » فبتوهم أن يسلبهم بنو هاشم شيئا من هذه النعمة بالاستعلاء عليهم ، كانوا غير ميالين لاستخلاف أحد منهم ، يدلك على صدق هذا القول ماذكره فى العقد عن عبد الله بن عباس . قال : « ماشيت عمر بن الخطاب يوما فقال لى : يا ابن عباس مامنع قومكم منكم وأنتم أهل البيت خاصة ؟ قلت لا أدرى . قال لكننى أدرى أنكم فضلتموهم بالنبوّة . فقالوا ان فضلوا بالخلافة مع النبوّة لم يبقوا لنا شيئا وان أفضل النصيبين بأيديكم بل ما أخالها إلا مجتمعة لكم وان نزلت على رغم أنف قريش (يريد الخلافة) » انتهى ما أردته من كتاب « أشهر مشاهير الاسلام » والحمد لله رب العالمين

فقال صاحبى : لقد وضح المقام وضوحا تاما فالحمد لله ، فماذا تقول فى الأمم الاسلامية الحاضرة ؟ هل ظهرت فى بعضها بوادر الشورى . فقلت : إن هذا هو الزمان الذى سيظهر فيه نور النبوّة وتظهر سيرة النبىّ ﷺ وسيرة عمر وغيرهما ، وهناك تبدّل الأرض غير الأرض ، والمسلمون مقبلون على هذه الحال طوعا أوكرها ، والذى منعهم من ذلك هو الجهل ، أما اليوم فان الله قد أذن بانتشار العلم فى الاسلام . وستكون الحكومات كلها شورية ، فهل لك أن تسمع ماجاء فى جريدة الاهرام يوم الاثنين ٥ نوفمبر سنة ١٩٣٠ وهذا نصه :

الحياة النيابية فى افغانستان

جلالة الملك نادرشاه يمنح البلاد مجلسا نيابيا

حفلة الافتتاح وخطاب العرش

نشرنا فى الاهرام الغراء منذ أسبوع كلمة عن جلالة الملك نادرشاه ملك افغانستان الحالى بمناسبة تتويجه والیوم جاءنا البريد الافغانى حاملا وصف حفلة افتتاح المجلس النيابى الجديد الذى أنعم به جلالة الملك نادرشاه على بلاده التى تعشق الحرية وتتفانى فى الذود عن حياضها من قديم الزمان رغبة فى أن تسود العدالة والرفاهية فى تلك البلاد

وقد ألقى جلالته خطابا ضافيا تحدث فيه عن حالة المسلمين وقارن بين تاريخهم الماضى وبين حالهم الحاضر

بشيء من الايجاز وخرج من بحثه بنتيجة هامة هي منح بلاده الحياة النيابية الصحيحة لتتمكن فى صراحة وإيمان من ادارة شؤونها بنفسها . وقدقدمت الأمة الافغانية المجيدة على بكرة أبيها تهلل وتكبر لهذا الحادث السعيد . واننا لانرى مندوحة من أن نقتبس للقراء الكرام وصف حفلة الافتتاح كما شرحته الجرائد الافغانية وترجمة خطاب العرش الكريم . قالت جريدة « اصلاح » التى تصدر فى كابل « كان يوم ١٦ ربيع الثانى سنة ١٣٤٩ يوما مشهودا فى كابل تطاولت اليه أعناق الافغانيين وتطلعت اليه أبصار الشاهدين منهم والغائبين لانه فاتحة عهد جديد وغرة عصر سعيد وهل هناك أعظم من نعمتى الحرية والشورى الملية فجدير بهذا اليوم أن يحتفل به الأفغانيون احتفالا جديرا بهم وهم الأبطال الأماجد

ففى هذا اليوم غصت ردهة قصر جهلستون (الاربعين عمودا) بجموع وكلاء الأمة وعظمائها والكثيرين من العلماء والموظفين العسكريين منهم والملكيين وذلك لمشاهدة الاحتفال بافتتاح المجلس النيابى الافغانى الذى يعدأكبر حادثة تاريخية فى افغانستان فى العصر الحاضر لأن افغانستان التى نشأت من القديم على حب الحرية كانت محرومة من نعمة الشورى بطريقة رسمية تخضع لها الحكومة المركزية وتكون رهن اشارتها ، وقديما كان القول الفصل فيها هو للحاكم الأعلى لارقيب عليه ولا حسيب ، وكثيرا مانتج عن ذلك مضار لاتحصى وأخطار كبدت الأمة ضحايا كثيرة وخسائر جسيمة وفى الوقت نفسه يجدر بالحاكم العظيم خصوصا فى بلد كافغانستان أن يعوّل على عضد شعبه ورضاه بدلا من أن يستقل برأيه الشخصى ويتبع هواه ويسخر من مواطنيه ولو تصفحنا تاريخ افغانستان لوجدنا أن الحكام الذين ساروا وفق رغبة الأمة كانوا فى مركز أعظم ضمانة وأكثر حرية وأكبر كرامة وأبعد نفوذا وبالعكس فان الذين فسقوا عن أمر الأمة واستهانوا بكرامتها طردوا ولم يجدوا لهم عونا ولانصيرا

وهاهو جلالة الملك نادرشاه الذى نفخ فى بلاده تلك الروح العالية التى نشلتها من الكارثة التى كادت تؤدى بها الى الهلاك وتحمل فى سبيل ذلك كل مايتحمله المخلصون مستعينا فى ذلك بما وهبه الله من قوة الذهن وسعة العقل وحسن البصيرة يفتتح عهده السعيد باعطاء البلاد حريتها التامة وحقوقها الكاملة فأنشأ المجلس النيابى (لويه جركه) رغبة فى جمع كلمة الأمة وتوحيد الوجهة الوطنية توحيدا صادقا لخدمة الصالح العام كما يتضح من خطاب العرش وهذا ترجمته :

أعزائى المحترمين : أحمد الله الذى أتاح لنا هذا الاجتماع الأخوى بعد أن قاسينا ماقاسينا فى سبيل تبديد تلك الشدائد والمخاوف التى كانت تحيط بنا وبالبلاد من كل جانب فاجتماعكم أيها النواب فى هذا المجلس المقدس وأنتم على أتم ماتكونون اتحادا وأخوة اسلامية عملا بقول الله تعالى : «انما المؤمنون اخوة» انما هو لمقصد شريف وهو ترقية أفغانستان والعمل على اسعادها ورفاهيتها وتقوية أركانها وفقا للأمر الالهى القائل «وشاورهم فى الأمر » « وأمرهم شورى بينهم » لهذا اجتمعتم فى مكان واحد وفقا لرغباتنا الصادقة . وانى أشكر الله تعالى على ذلك شكرا عظيما وأحييكم من صميم قلبى وأتمنى أن تكونوا أنتم وكافة أفراد الأمة بخير وعافية ، وبعد فانكم تعلمون أن النجاح والسعادة فى الحياة هما فى الاتفاق كما أن الخراب والعبودية فى النفاق . وقد شاهدنا ذلك بعيوننا فى مدة لاتتجاوز السنة فتأكدنا أن النفاق عذاب إلهى كما أن الاتفاق رحمة سماوية وتفصيل هاتين الحقيقتين واضح فى التاريخ فى كل زمان ومكان ، وأثرهما يعرفه كل انسان

وانكم تفهمون لماذا وكيف انتشر الاسلام وعم الآفاق ونشر ألوية الامن والسعادة البشرية والترقيات العصرية خفاقة فى عهد النبى ﷺ والخلفاء الراشدين رضى الله عنهم ومن سلك مسلكهم ؟ لم يكن ذلك بقوة السيف وحده وانما بالأصول الصحيحة والقواعد السليمة التى جذبت الجماعات المختلفة والأقوام المتباينة الى حظيرة الدين الحنيف الذى انتشر بقوة البرق الخاطف أينما حل وسار . ومن أكبر دواعى نجاحه انعدام

الفوارق الجنسية والاجتماعية بينهم ، فالمسلمون اخوة مهما اختلف لونهم وتعددت أجناسهم وتباينت أوضاعهم فلا فضل لأحد على الآخر الا بالتقوى فهل تراهم تمسكوا بأهداب المساواة وحافظوا على الشورى فى أمورهم وأعمالهم ، ان رقيّ المسلمين فى الماضي لم يكن له من سبب الا بمحافظتهم على هذه الصفات الكريمة والمزايا الجيدة فلما انحرفوا عنها وهي فى الحقيقة أساس الرقيّ والتقدم سقطوا الى الحضيض ، لقد عرفت الدول المتمدينة بعد طول التجارب ان الأصول الاسلامية كالحرية والمساواة والشورى أفضل الأصول وأرقاها ولذا اتخذتها أساساً لحكوماتها بعد أن أراقت فى سبيلها الدماء الغزيرة ولم يكن قبل الاسلام حرية بمعنى الكلمة حتى يمكن أن يشير اليها

ومن أحسن أنواع المساواة فى الاسلام مسئلة ترتيب الصفوف فى الصلاة فالخادم يقف بجانب الملك فى حضرة الاله يؤدي الفرض بلا كلفة ولا حرج ، ونفس صلاة الجماعة أعظم مثل فى المساواة الاسلامية . ولكن لسوء الحظ فان الحكومات الاسلاميه مالت الى الاستبداد وعكفت على الافساد والتفرقة فتأخرت وانحطت حتى أصبح يضرب بها المثل فى الذلة والمسكنة

فما سبب هذا التدني وذلك الترقي ؟ ياترى الدنيا عالم أسباب : فاذا كانت الأسس التى تبنى عليها الأعمال والاصلاحات مبنية على التجارب الصحيحة والقواعد الثابتة كانت النتيجة فى أيّ زمان ومكان لاشك مفيدة منتجة

واذا كانت الأسس غير صالحة والتجارب غير ناضجة جاءت العاقبة وبالا بلامراء ، هذا هو القانون الاساسي الذى لايتبدل ولايتحول الى قيام الساعة «ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم» ففي الزمن الأوّل كان المسلمون أهل استقامة وعلم بالسياسة وحزم وشجاعة عملا بقانونهم الالهي القويم فوصلوا بذلك الى ماوصلوا اليه من الرفاهية والسؤدد . فلما ابتليت الأمة الاسلامية بالملوك الانانيين والعلماء المفسدين وساءت سيرة الحاكمين مع انقباذ قانونهم المبين وصلت الى ماهي فيه الآن من العجز والانحطاط

ومن دواعي الأسف أنه كلما ظهر فى هذا العصر رجل بصير حازم غيور على دينه و بلاده سواء أكان من الحكام أو العلماء قام فى وجهه المعارضون فلايهدأ لهم بال إلا اذا نكسوا رأسه فيخلو الجو لذوي الأغراض والمصالح الشخصية وهذا مايتباهى به المسلمون والتاريخ شاهد عدل على ذلك

ولما كان لابدّ من قوة تنظم وتؤيد المعاملات والأحكام أعني حكومة عادلة تسير على منهاج الشرع الالهي يكون فيها الحاكم هو المسئول الأوّل فى تنفيذ القوانين التى شرعتها الجماعة التشريعية ويكون مسلكه قدوة للرعية اذ « الناس على دين ملوكهم » كان من الواجب أن زمام أمر كل أمة دائما أبدا بيد شخص عاقل صادق يسهر على مصالح الأمة و يعمل على محو الفوضى والخراب وجلب السعادة والرفاهية

هذه هي نظريتي التى توصلت اليها أعرضها عليكم أيها الأعزاء

وفيما يختص بوطننا العزيز ، فاني لآسف أن الانقلاب الذي وقع أخيرا لم يكن وحده هو سبب خراب افغانستان بل أيضا عدم وجود أساس حكومي ثابت كان أكبر عامل فى ضعف وتأخر البلاد

فاذا لم نتخذ بالرغم من كل شيء الاحتياطات اللازمة والوقايات الضرورية ازاء أمثال هذه الصدمات المزعجة والسكتات المحطمة فانا نعتبر مقصرين فى خدمة الوطن الخدمة الحقة اللائقة به اذا لم نعتبر خائنين له

واني كما تعلمون حقا أحب بلادي من صميم فؤادي ولست أرغب فى شيء أكثر من أن أعتبر خادما من خدام الدين والوطن ، ولهذا وبالرغم من انشاكل المالية التى وقعت عقب الانقلاب الأخير أرغب فى أن تكون حكومة افغانستان على أساس صحيح وذلك رغبة فى تقدم البلاد وانهاضها الى معارج الفلاح . ولكن [illegible] فى هذا المقصد السبيل لاشك [illegible] المقدس واحراز السعادة الأبدية الخالدة

وهذا المقصد عينه الذى اعتبره منهاج السعادة طالبتكم أيها الوكلاء لأعرض عليكم رغبتي الخالصة وهي أنا

منحنا رعيتنا الحرية الكاملة التي لم يحصل عليها أكثر الأمم رغم إراقة الدماء وأمرنا بالمجلس النيابي رغبة في أن تسود العدالة والرفاهية في هذه البلاد ؛ ولتعلموا أنكم اذا أحسنتم استعمال حقكم المخوّل لكم أمكنكم الحصول على فوائد جمة لخير وطنكم وحكومة بلادكم

واني لأرجو أن تقوم في أفغانستان الشورى الملية التي هي دواء المرض ومفتاح السعادة على خير الأسس وتحور كافة الصفات والعناصر التي هي في الاسلام

واني أحمد الله الذي وفقني الى تحقيق ما وعدت به وها هو المجلس النيابي ينعقد لهذا المقصد السامي وبذلك أشكر الله شكرا كثيرا على ما هداني الى احياء سنة كانت متروكة الى هذا اليوم

وسيباحث معكم في هذا الباب الصدر الأعظم ومجلس الوزراء في حق وديّ للوصول الى طريقة الانتخاب وعدد الوكلاء وفقكم الله وسدد خطاكم حتى يكون عملكم هذا موضع اعجاب ورضا العالم أجمع آمين »

وانا نبتهل الى الله بالدعاء بأن يجعل هذا العمل محمود النتيجة مبارك الأثر على البلاد وأن يفيء به عليها ظلال الامن والرفاهية وان يحفظ للبلاد ذات جلالته الكريمة وهو من شهد له التاريخ بعمله الموفق في انقاذ البلاد من الفوضى ومن عرفت البلاد مآثره الكريمة في نشر ألوية الحرية مؤيدة بتوفيق الله : انتهى ما جاء في الجريدة المذكورة

فلما أتممت هذا المقال قال صاحبي : لقد شرحت صدري فأحمد الله عزّ وجل ولكن ماذا تقول في بقية بلاد الاسلام . فقلت : هي الى هذه سائرة . فأهل مصر والادي وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، وكذا أهل الشام والعراق وغيرهم . كل هؤلاء ستكون حكوماتهم شورية صادقة ، وستزول الأمم الاوروبية من بلادهم فلا تبقى انكلترا في بلاد مصر وفلسطين والعراق ، ولا ايطاليا في طرابلس ، ولا فرنسا في الجزائر ومراكش وتونس والشام ، ولا اسبانيا في مراكش . بل هذه الدول سترحل من تلك البلاد لأن الذي أدخلها فيها هو جهل المسلمين وغفلتهم . والقوم اليوم استيقظوا ، وستكون الحكومات محلية صادقة بعيدة عن الترف والزخرف والشهوات القاتلة

إن الذي جر المسلمين الى الدمار الأول ظنهم أن الحاكم هو الذي يفعل ما يشتهي ويتمتع ويأكل كما تأكل الأنعام في هذه الحياة . [illegible] المرض جهل ، [illegible] المسلمون [illegible] وليعلموا أن ذلك كله مرض [illegible] الأمر [illegible] يجب أن يكونوا ازهد الناس في مال الدولة [illegible] سورة الشورى

تفسير سورة الزخرف

(هي مكية)

إلا قوله تعالى : فاستخف قومه فأطاعوه انهم كانوا قوما فاسقين مدنية

آياتها ٨٩ — نزلت بعد الشورى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ * أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ * وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ * وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ * وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ * أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ * وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ * وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ * بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِمْ

مُقْتَدُونَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ
كَافِرُونَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ
لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً
بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ
مُبِينٌ * وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ
عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ
رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ
لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ *
وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ * وَمَنْ يَعْشُ
عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ
وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ * حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ
الْقَرِينُ * وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ * أَفَأَنْتَ
تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ
مُنْتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ * فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي
أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ *
وَاسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ * وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ
بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ * وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ
بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا
لَمُهْتَدُونَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ * وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ
قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا

خَيْرٌ مِنْ هٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ
مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ * فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا
ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ * وَلَمَّا
ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا ءَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ
إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي
إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ * وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ
فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ
مُبِينٌ * وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي
تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هٰذَا صِرَاطٌ
مُسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ * هَلْ
يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ
عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ * يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ * الَّذِينَ ءَامَنُوا
بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ * ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ
بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *
وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا
تَأْكُلُونَ * إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ *
وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلٰكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ * وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ
إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ * لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ * أَمْ
أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ * أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا
لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ * قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ * سُبْحَانَ رَبِّ السَّمٰوَاتِ
وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي
يُوعَدُونَ * وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ * وَتَبَارَكَ

الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ * وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هٰؤُلاَءِ قَوْمٌ لاَ يُؤْمِنُونَ * فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلاَمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ *

﴿ تفسير البسملة ﴾

لك الحمد اللهم على نعمة العلم والحكمة وعلى ما أوليتنا من الجميل ، وشرحت صدورنا لنبيان بعض أسرار كتابك الكريم . هذا ولما كتبت هذه الكلمات حضر صديق الذى اعتاد مناقشتى فى هذا التفسير . فقال ما الذى تريد أن تكتب فى البسملة بعد ماتقدم فى بضع عشرة سورة ، وكيف تعيد القول فيها ، وهذا الى التكرار أقرب ، والتكرار فى التأليف غير محمود ! فقلت أيها الصديق : لقد تعجلت علىّ وما كان لك أن تحكم حكما قطعا من طريق الظنّ . فقال : ليس بالظنّ . إن البسملة معروفة المعنى يفهمها الخاص والعام ؛ فاعادة القول فيها جار على المثل « توضيح الواضحات من المشكلات » . فقلت تسمح لى أن أبدى رأيى ؟ فقال وهل تجاسرت على الاسراع فى الاعتراض إلا لأسمع مقالك ، وأفهم بيانك ، إيضاحا للأمر ، وتبيينا للحق

فقلت : إن هذا النوع الانسانى ما أوقعه فى الأمم وأضاع منه معظم سعادته فأصبحوا فى الأرض متقاطعين متدابرين إلا اغترارهم بعقولهم وظنهم انهم يعلمون كل شئ ، فهم يرون الجمال فى الوجوه الانسانية والصور الحيوانية والنبتية والكواكب المشرقة ، ولكن أكثرهم عن الجمال مسحورون وفى ذنوبهم وهمومهم الوهمية محبوسون مغمورون . ومايدرك حقائق الجمال إلا أولوا الألباب

ومثل الجمال فى شيوعه وعدم تعقله المآكل والمشارب ، فالناس جميعا يأكلون ويشربون ويعيشون ويموتون ولاهم يذكرون حقائق ما يأكلون ، فهم عن معرفة حقائق المآكل مسحورون كما أنهم عن بدائع الجمال والفرح بها مبعدون

وعلى هذا القياس تسمع المسلمين من نوع الانسان يقرءون الفاتحة فى الصلاة ويسبحون ويحمدون ويظنون انهم يفهمون حقائق الرحمة التى يقرءونها فى البسملة ، وهذا الظنّ استوى فيه علماؤهم وجهلاؤهم وشيوخهم وصبيانهم ، وهم جميعا إلا قليلا منهم مغرورون لأنهم لايعلمون

ان الانسان اعتاد أن يظنّ أن ما ألفه عنده معروف ، ألا لافرق بين الشمس والقمر والنجوم التى اعتدنا رؤيتها وألفنا منظرها وبين البسملة والمآكل والمشارب والجمال العام ، فهذه جميعها يظن الجاهل بسبب ألفتها انه بها عليم وما هو بعليم . لايعقل الجمال من نوع الانسان إلا القليل وهم الحكماء وما أندرهم فى هذا الانسان ، وقد مرّ الكلام فى هذه وحدها فى ﴿ سورة السجدة ﴾ عند آية ـ الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الانسان من طين ـ الخ فارجع اليها إن شئت ، وبقى الكلام فى الطعام والشراب والبسملة . فقال صديقى : أما البسملة فنعم ولماذا تذكر عجائب الطعام والشراب ؟ فقلت ايضاحا لسؤالك ، ألم نسوّ بين هذه الثلاثة فى أن أكثر الناس يجهلونها وماهم بعالمين . قال بلى . قلت : ألم أقل ان أمر الجمال تقدم فى ﴿ سورة السجدة ﴾ . قال بلى . قلت إذن نشرح القسمين الباقيين ، فأما أحدهما فمن باب التنظير ، وأما ثانيهما وهى البسملة فهى المقصود . وهذا الأسلوب الذى سلكته فى هذا التفسير وان كان فيه اطناب سيكون من بواعث انهاض الأمم ، وبعث العزائم ، وشرح الصدور ، وابرازهم كانت خامدة . وعقول كانت

نائمة ، قل لى رعاك الله : أيهما أقرب الى ايقاظ الهمم ، و بعث تلك النفوس الشريفة التى أودع الله فيها قوى يعوزها الايقاظ والتنبيه ؟ أ أعراب البسملة الذى كان كثير من المؤلفين يكررونه فى أول كل كتاب وتطبيقها على العلوم الاثنى عشر المشهورة عند المتأخرين من أمم الاسلام وموت النفوس فى قشور العلوم فيكون الجهل التام والموت الزؤام ، أم الغوص على الدرر والجواهر فى بحار العلوم واستخراج خلاصاتها فى أول كل سورة بمناسبة مافى نفس السورة كالذى نفعله الآن ؟ إن تفسير البسملة فى هذه السورة لاتكرار فيه ألبتة ، هى فوائد مستخرجات من نفس القرآن بل من نفس السورة التى فيها البسملة ، وسترى فى هذه السورة عجبا فان لرحمة مكررة فى سورة ﴿الزخرف﴾ هنا ثمان مرات اثنتان على هيئة المصدر وهم يقسمون رحمة ربك الخ ورحمة ربك الخ و(٦) بهيئة الصفة المشبهة

(١) واذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا الخ

(٢) وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا

(٣) وقالوا لوشاء الرحمن الخ

(٤) ومن يعش عن ذكر الرحمن الخ

(٥) أجعلنا من دون الرحمن آلهة الخ

(٦) قل ان كان للرحمن ولد الخ

فالرحمة وما اشتق منها كررت فى السورة وذكرت فى البسملة ، والحاء والميم فى أول السورة حرفان من الرحمة ، وهذه الآيات التى بها الرحمة فيها أسرار لابد من اظهارها ، وسترى هنا من عجائب العلم و بدائع الحكمة مما فتح الله به فى ليلة الجمعة الفائتة وفى ليلة السبت بعدها قبل الفجر أى فى ليلتى (١٤) و (١٥) نوفبر سنة ١٩٣٠ م ماتقر به أعين أرباب البصائر و يبرز علم مخزون تفتح به أقفال كانت موصدة قبل ألفى سنة على كنوز خبأها سقراط وأفلاطون فى كتاب الجمهورية عند الكلام على المثل الأفلاطونية وما اعترض به عليها أرسطاطاليس بعدهما ، وما قاله الفلاسفة بعد تلك القرون وأغلق الأمر عليهم ، فأرجو أن أوفق فى هذا المقام لتحقيق هذا المقام وذلك بطريق العقل تفسيرا لهذه الآيات وتطبيقا عليها . فقال : إن هذا القول الذى سمعته منك الآن غريب . وكيف يدخل مايقوله سقراط زمن بعثه فى هذا المقام . وكيف ترجو أن تحل مشكلة عسر فهمها على فلاسفة اليونان والرومان والأمم بعدهم . فقلت : أما قلت لك أرجو وستكون معى وقت المباحثة فى هذا الموضوع والله يقول «وأمرهم شورى بينهم» ، أنا إذ ذاك سأعرض فى المناقشة آيات السورة التى فيها الرحمة وسنحاول بطريق مبادلة الفهم والمناقشة معنى «ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا الخ» وقوله تعالى فى سورة أخرى «ألا بذكر الله تطمئن القلوب» وندرس هذا الموضوع ، وننظر هذا المقام فى قول سقراط سيد فلاسفة أوروبا الخاليين والباحثين بآثارهم وماذا قال فى هذا أعنى قبل نزول القرآن ثم نذكر الشبهات التى وردت عليه وهكذا ، ثم نبين ماعن لنا فى ذلك فان زالت الشبهة فقدنصرنا الله وفتح علينا وان لم تزل فقد نلنا نعمة الاجتهاد وقمنا بالواجب علينا . فقال والله لقد أقنعتنى وشفيت صدرى ، فأنا الآن أوافقك على البحث فى هذا الموضوع ، ولقد انشرح صدرى فيه لاسيما أن هذه الآيات لاتخطر فى بال علماء الاسلام فضلا عن الجهال . إن الأمم السالفة خطر لهم الكلام فى معانيها قبل نزولها ، فالكلام فى ذلك يكون من أعجب الأعاجيب . فقلت الآن اتفقنا على أننا سنبحث فى البسملة من هذه الوجهة . قال نعم . قلت إذن لنبحث فى المسألة التى كنا أخذنا نشرع فيها قبل البسملة بعد الكلام على عموم الجمال و فى مسألة المآكل والمشارب من حيث ان الناس لما كانوا معتاديها لم يتنبهوا لها كما لم يتفطن أكثر المسلمين منهم للبسملة من أجل شيوع ذكرها فى كل أمر ذى بال . قال : أنا موافق على ذلك . فقلت :

المآكل والمشارب

قدمت لك أيها الصديق فى هذا المقام أن أكثر الناس يتوهمون أنهم يعرفون ما يأكلون ومايشربون وهم فى ذلك مغرورون ، فاذا سألت صبيا أو رجلا جاهلا وقت هل تعرف الماء ؟ استهزأ بهذا السؤال وظن السائل غبيا . هـذا معنى ما قلته . قل نعم . فقلت : ألست تظن أن هذا الوهم خطأ ، وكيف لا يكون خطأ ونحن نعلم أن هذا الماء الذى نشربه وهو من السوائل مركب من عنصرين كل منهما يشبه الهواء ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ ان هذا الماء الذى فى النهر والبئر والبحر اذا وضعناه فى زجاجة وسلطنا عليه الكهرباء وجدناه انحل حالا لم يبق أمامنا ماء وانما نرى عنـدنا جسمين يشبهان الهواء وكل منهما له صفة تخالف الآخر ، فأحدهما اذا أدخلنا فيـه قطعة خشب طرفها فيه آثار النار فانها تشتعل حالا ، والآخر جسم خفيف جدا يصلح لارتفاع الطيارات فى الجو ، وأولهما الاكسوجين ، والثانى الادروجين ، والاكسوجين ٨ على ٩ من الماء . إذن معظم الماء اكسوجيـن والاكسوجين يكون غازا كالهواء ويكون مع الادروجين ماء وهو داخل فى الدبش الذى نبنى به مساكننا وفى الحجارة ، فلو أننا وزنا الحجارة بعد تحليلها لوجدنا أن فى كل مائة أقة منها (٤٨) أوقة من الاكسوجين كما أننا اذا وزنا الماء بعد تحليله وجدنا فى كل تسع أوقات منه ثمانية أوقات . فهو مكون لأكثر الماء ولما يقرب من نصف الحجارة ، وهو داخـل فى الهواء مع الاوزوت ، وهذا الاوزوت لايخلو منه جسم انسان ولاحيوان بل هو ثلاثة أرباع وزن جسم الحيوان (اقرأ كتاب تنوير الأذهان فى تغذية الأجسام) لأستاذنا على باشا مبارك ، إذن الماء الذى نشربه (ويظن الصبيان والجهال منا أنهم يعرفونه كما يظن المسلم أنه يعرف معنى البسملة) يعوزه درس وتفصيل . إذن المعرفة يعوزها التفصيل والايضاح أما الاجمال فالوقوف عنده غرور

أوليس من العجب أن نرى أكثر من ٨ على ٩ من الماء مادة تكون فى نحو نصف الأحجار وثلاثة أرباع الحيوان ، ونراها فى الماء شرابا ، وفى الأحجار بيوتا صلابا ، وقلاعا حصينة ، وفى الحيوان عظاما ولحما ودما ، نشرب الماء ونغسل به البلاط وهو فى الوقت نفسه نصف نفس البلاط المغسول ، إذن هو غاسل وهو مغسول وهو شارب وهو مشروب . فاذا كان ثلاثة أرباع الانسان أكسوجينا فالاكسوجين المتجمد شرب الاكسوجين السائل . ومعلوم أن الهواء فيه أكسوجين . فاذن الانسان أيضا يأخذ بالتنفس الاكسوجين الذى فى الهواء ويجلس فى أى مكان شئت . فالبلاط تحت الجالس نصفه اكسوجين ، والهواء فيه أكسوجين ، ونفس الانسان فيه اكسوجين . والماء أكثره اكسوجين ، إذن هـذه مسائل أعجب وأبدع من سحر السحرة ، هذا الانسان يمتطى العلم ويركب القارب والسفين فى اليم والقطار فى الأرض ويسير الى القطبين ويرصد النجوم ليعرف العجائب

يا أيها الانسان : أنت عجب ، وشرابك عجب ، وجسمك عجب ، ونفسك عجب ، ومجلسك عجب ، أنت مغمور فى بحر لجى من النور

سبحان الله الجميل البديع . عجب ألف عجب ! اكسوجين يصير حجرا وعظما ودما وهواء ، فهو جامد وغاز وسائل وهو هو نفسه يطهر نفسه ، فهو من حيث انه ماء يطهر نفسه من حيث انه انسان أو بلاط أوغيرهما كما انه هو يدخل فى الرئة فيظهر هو من الهواء فيطهر الدم فى أجسامنا . جل الله وجل العلم وجلت الحكمة وجلت نعمة العلم

ما الناس سوى قدم عرفوا ❊ وسواهـم همج الهمج

ولا تنس أيها الصديق من الكلام على المشارب ما ذكرناه فى الاكسوجين ، ولنذكر مقالا وجيزا فى

المآكل ، وانى ليسرّنى اذا كنت على ذكر مما تقدم فى هذا التفسير ، فأجابنى قائلا : نعم لقد جاء فى سورة فاطر عند آية « والله خلقكم من تراب » ماملخصه ان فى الفم ستة مجار تفرز موادّا تهضم المواد النشوية ، فاذا وصل مابقى منها وهو الذى لم تؤثر فيه تلك القنوات الست الى المعدة تلقاه العصير المعدى فأذابه ، وجملة مايتعاطاه الانسان إما مواد عضوية ولكنها ليس فيها مواد زلالية وذلك كالنشاء والسكر وكالزيت والشحم والسمن فهذه يدخلها الفحم ولايدخلها الزلال كزلال البيض ، واما مواد عضوية وفيها المادة الزلالية كزلال البيض والمواد المستخرجة من العظام المغلية ومادّة الجبن ومادة أخرى من نوع ذلك فى اللحم وفى بذور البقول كالفول والعدس والبسلة وفى الحبوب كالقمح والذرة ، وبهذا عرفنا المواد العضوية بقسميها

وهناك مواد غير عضوية مثل كربونات الجير ، وذلك فى العظام والأسنان ، وفوسفات الجير فى العظام أيضا وهى نصف وزنها تقريبا ، وهذان يدخلان فى الأغذية النباتية والحيوانية ، وملح الطعام وأملاح أخرى هذا هو مايتعاطاه الانسان . فقلت : إذن طعامنا مفرّق على البرّ والبحر ومافيهما ، فهذا الملح مستخرج من البحار ومن الجبال والمواد الدهنية تستخرج من الحيوان ومن الأشجار كالزيتون ، والمواد النشوية مستخرجات من النبات كقصب السكر والحبوب أمثال القمح ونحوه ، والمواد الزلالية تستخرج من الحيوان ومن الحبوب أيضا ، ولعلك تذكر المواد الفحمية الطائرة فى الهواء التى هى المخزن العظيم الذى اليه ترجع المواد الفحمية الخارجات من أجسامنا مع الزفير الذاهبات الى النبات لتغذيته الراجعات الينا ثانيا بطريق تعاطيه من أوراق النبات وثماره ، فهناك تبادل بين الحيوان والنبات فى ذلك ، فبينما النبات يتنفس مادة الاكسوجين فى الهواء ويرسله الى المخزن العظيم فى الهواء اذا الحيوان يقبل ذلك الاكسوجين ويعطى الجوّ بدله مادة فحمية تصل الى ذلك المخزن الطائر فى الجوّ وهو يوصله الى النبات . فقال أتذكره فهو مذكور فى ﴿ سورة يس ﴾ كما ان القناة الهضمية وجميع رسومها ومايوضحها مذكورة فى ﴿ سورة فاطر ﴾ وهناك أن الفحم الصافى فى الجوّ نحو ١٣٨ ألف مليون ونصف مليون طن ، والطن معلوم أنه نحو ٢٢ قنطارا والقنطار ٣٦ أوقة . فقلت نعم إذن نحن بنى آدم فى الأرض أكثرنا فى غرور عظيم إذ نظن اننا نفهم الطعام والشراب ، فها نحن أولاء ذهبنا كل مذهب فى طعامنا وشرابنا ، لقد فرّق على الكرة الأرضية وطار فى الجوّ وغاص فى البحر ، وأدهشنا أن نرى أسناننا قد ركبت من الجير الداخل فى بناء منازلنا وهو الذى التقطه النبات من الأرض فأكلناه ومن (الفسفور) تلك المادة البيضاء ذات الرائحة المشبهة رائحة الثوم ، وهى تباع فى مربعات من البلور مملوءة بالماء للوقاية من إيذاء تلك المادة لأنها تلتهب سريعا بمجرد ملامسة الهواء ، فاذا لامست الأصابع التهبت حالا ويعسر اطفاؤها وتحدث حروحا خطرة ، وهذه المادة اذا كتب بها على حائط فى محل مظلم لانور فيه ظهرت الكتابة كأنها نار تفزع منها الأطفال والشيوخ والنساء ، فعجب أن يكون الجير فى منازلنا وتلك المادة النارية التى نراها فى أعواد الكبريت التى نوقد بها النار داخلين فى أسناننا بأنواعها الثلاثة لتمزيق أغذيتنا وقطعها وطحنها « إن ربى لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم »

فهذه الأسنان تهرس الطعام ، والعيون الست النابعات فى الفم تتخلله لتهضمه ، ثم يمرّ فيصل الى الاثناعشرى هل تتذكره أيها الصديق . فقال أتذكره مرسوما فى ﴿ سورة فاطر ﴾ . فهناك تقابله عصارتان إحداهما آتية من الصفراء والأخرى من البنكرياس المرسومين هناك ، وهاتان العصارتان يتقابلان فيغيران تلك المادة تغييرا عجيبا ليحصل لها اقتراب من أن تكون من جملة الدم

ولنرجع الى الفحم الذى يخرج مع الزفير . قال أنا أتذكره جيدا من هذا المقال ومن سابق التفسير . فقلت : أزيدك فيه علما انه فى السكر وفى الورق وفى يبس الدليو وفى العظم واللحم والجلد والشمع والدهن والزيت فان الفحم يظهر فى آثار مايوقد منها وهو تلك المادة السوداء الظاهرة للعيان بكل شىء لايخلو من

الفحم وهو فى الحجر الذى فى المبانى وفى الرخام والمرمر إذن هو فى كل ماتضعه على المائدة إلا الملح فهو لافحم فيه ، ولقد قالوا « إن الفحم أمير والاكسوجين المتقدم شرحه سلطان » ولاجرم أن الهواء مركب من الاكسوجين والاوزوت ، وهذا الاوزوت هو نفسه المواد الزلالية المتقدم شرحها الداخلة فى الحبوب واللحم والبيض وقد تقدم شرح ذلك ، فأجسامنا مركبات من أكسوجين فى الهواء وفى الماء ومن فحم فيه وفى غيره ومن مادة الزلال السابحة فيه ومن شحم الحيوان ولحمه والزيت ونشاء الحبوب وغير ذلك ، وهذه كلها يحملها الدم وهو يجرى فى الشرايين ، والشرايين تصل بدقتها المتناهية فى كل جزء من أجزاء الجسم وتعطيه مايستحقه من تلك المواد بعدل وانصاف ، فاذا وصل الدم الى الأسنان مثلا أخذت حقها وهو المواد الجيرية والفسفور كما تقدم ، واذا وصل الى العين أخذت المواد التى تليق لها بحيث تصلح للابصار وهكذا الأذن والجلد والأعصاب إذن هذه حكومة عجيبة مدهشة . وانى ليحزننى أن أرى أكثر هذا النوع الانسانى يعيش جاهلا بهذه الكرة الأرضية ، ويعيش جاهلا بنفسه وهو مغرور جهول « قتل الانسان ما أكفره »

فياليت شعرى متى يرتقى هذا الانسان وينظم أممه على مقتضى نظام جسمه البديع الجميل المتقن ، يجرى الدم فى الشرايين فتتلقاه الأعضاء فيأخذ كل عضو حقه ولايتعداه ، ويترك ماليس له بحق ، كأن هذه الأعضاء قرأت « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » أوكأنها قرأت جمهورية أفلاطون ، أو أنها قرأت « إن الله يأمر بالعدل والاحسان »

الله أكبر . أجسامنا بديعة التركيب ، حسنة الوضع ، ونحن نعيش فيها ، ونحن بها جاهلون ، نتعاطى الطعام ومثلنا معه كمثل ما قال الله تعالى فيهم « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » ، واذا جهلنا الطعام والشراب فاننا أعرق فى الجهل بمعنى البسملة التى كلامنا فيها ، ومتى أخذ كل عضو حظه من مواد الغذاء الذائبة فى الدم نما وكبر على مقتضى قوانين مجهولة لنوع الانسان فى الأرض ، ثم يكون هناك عالم آخر وهو عالم الأعصاب المتصلات بالنخاع الشوكى المرسومات المشروحات فى ﴿ سورة فاطر ﴾ والنخاع الشوكى يوصل الأخبار الى المخ وهناك عالم التعقل والتفكر . إذن طعامنا فى القناة الهضمية كيموس وكيلوس ، وفى الدورة الدموية دم ، وفى أعضائنا المختلفات أعصاب وعظام وعضل ودهن الخ . وآثاره فى أعصابنا ونخاعنا الشوكى ومخنا علوم ومعارف وفكر وذكر وحكمة ، فكيف تقول اننا بما نأكل عارفون أولما نشرب دارسون ، وهذا من أسرار قوله تعالى « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » وهذا الجهل كما تقدم يصارعه جهلنا معنى « بسم الله الرحمن الرحيم » . إذن فلنفض الكلام على معنى الرحمة الذى هو المقصود فى هذا المقام فنقول :

الرحمة

لقد تقدمت لك أيها الذكى فى أوّل هذا المقام أن الرحمة فى هذه السورة قد ذكرت (٨) مرات فوق ماجاء فى البسملة وفى البسملة (٢) فالجميع (١٠) والحاء والميم تشيران الى الرحمة أيضا فلابدّ لنا إذن من فهم الآيات المذكور فيها الرحمة مثل « واذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا الخ » ومثل « ومن يعش عن ذكر الرحمن الخ » ومثل آية « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة الخ » ولكن لابد لنا قبل فهم معانى هذه الآيات من تحقيق معنى الرحمة فوق ماتقدم

فقل لى أيها الذكى : أيهما أحق باسم الرحمة ؟ أهذه النعم المتغيرة المتبدلة التى لاثبات لها ، أم النعم الثابتة ، قال بل الثابتة . قلت حسن . قلت : ثم ان النعم المتغيرة أيها أحق باسم الرحمة أعلاها أم أدناها ؟ قال : كل ما كان أعلى كانت الرحمة فيه أوفر ، وكل ما كان أدنى كانت الرحمة فيه أقل . قلت إذن وجب

الآن أن نشرح أنواع النعم ونبتدى من أدناها الى أعلاها حتى نفهم الرحمة ونبين أنواع الرحمات المذكورة فى هذه السورة إذ ذاك . فقال : ياللعجب ! وهل النعم لها نهاية حتى تبين عددها ودرجاتها ، انها يعوزها علوم الأمم وأعمار جميع العلماء فى الأرض . فقلت : اننا لانعرف من جميع النعم إلا ما أدركته حواسنا وعقولنا ، إذن فلندرس درجاتها باعتبار ادراكنا لها ، وحواسنا معروفة محصورة عندنا والنعم مقسمة عليها ، فالبحث فى النعم سيكون فى تفصيل مايدركها لافى تفصيل المحسوسات والمعلومات . قال : أما هذا فهو حسن فأريد أن تذكر لى أدنى درجات النعم . فقلت : هى كل ما كانت تستلذه حاسة اللمس كنعومة الحرير فان لابس الحرير والنائم على الفراش الوثير يحس كل منهما بلذة اللمس ، وهذه اللذة سببها النعومة الحاصلة فى اللباس والفراش ، قال ولماذا كان هذا أدنى الرحمات ؟ قلت لأن حاسة اللمس عامة فى كل حيوان حتى الدودة فى الماء وفى الطين لها حاسة اللمس ، وهذه الحاسة لاتعرف إلا مايلاصقها فهى كالأعمى لايدرك إلا باللمس . قال ثم ماذا ؟ قلت : اللذة التى هى من هذه المحسوسات بحاسة الذوق كالأطعمة والأشربة ، فاذا رأينا أقواما يفخرون بالطعام ولذته ، والشراب وسورته ، عرفنا أن هؤلاء فى درجة اللذة الثانية . فقال ولم جعلتها ثانية ؟ قلت لأن المذوق من المطعومات أشرف من بقية الملموسات ، فحاسة اللمس عامة ولكن الطعم خاص بمواد مخصوصة ، فنحس نحن بكل مايمس جلدنا ، ولكن حاسة الذوق اصطفت خلاصات المادة كالفواكه والحب ، وليس لها علم بالحجر والمدر والطين والتراب وهكذا . قال : ما الذى فوق هذه ؟ قلت حاسة الشم ، ذلك لأنها لاتتقيد بشم مالاصقها بل تشم المادة عن بعد ، وليست مضطرة الى ملاقتها وملاقاتها وانما تلاقى ذرات لطيفات لاتراها العيون يرسلها المشموم كالورد والمسك تسير فى الهواء وتصل الى الخيشوم فتؤثر فى الأعصاب فالشرف هنا من حيث أن الحاسة لم تلاق نفس المادة ، بل لاصقت ذراتها اللطيفات والواسطة فى ذلك الهواء

وأرفع من هذه حاسة السمع لأنها ليست فى حاجة الى ملاقاة المسموع بل الهواء هو الواسطة بينها و بين الجسم الذى خرج منه الصوت وليست الأصوات كالشمومات التى هى عبارة عن ذرات مادية . كلا . وانما هذه حركات فى الهواء ، ولاجرم أن الحركات ألطف من الذرات فى حاسة اللمس

وفوق ذلك يكون البصر وهو أرقى ، فهو كما لم يكن فى حاجة الى ملاصقة الجسم المنظور ، ولا الى ذرات منه هكذا لم يكن فى حاجة الى حركات فى الهواء كالسمع بل يحتاج الى صور تسير فى النور والنور حركات فى الأثير وهذا عالم أعلى مما سبقه ، فهل فهمت فى هذا الترتيب حكمة أيها الذكى ؟ قال نعم . قلت اذا تفضلت بذلك أكون شاكرا لك . فقال : قد ظهر لى هنا قاعدتان : القاعدة الأولى ان الحاسة التى هى أشرف يكون تركيبها أتم ، القاعدة الثانية انه كلما كانت النعمة أتم كانت أبعد عن المادة وأقرب الى التجرد منها . فقلت ما برهان ذلك ؟ فقال : أما كون الحاسة تكون اتقن كلما كانت أعلى فان ماتقدم فى ﴿ سورة آل عمران ﴾ يحدثنا عن ذلك فان تركيب الأذن هناك أتم من تركيب مادونها من الحواس ، فهناك فى تركيبها ١٤ عجيبة من عجائب الاتقان ، وذلك مذكور فى أول السورة عند قوله تعالى « هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء » فهناك الأذن الظاهرة والأذن المتوسطة والأذن الداخلة ، وهناك عجائب لاعد لها مثل السائل الذى فى داخل الأذن وفيه خيوط دقيقة شعرية وهكذا ثلاثة آلاف جسم صغير ظنوها آلات البرق (التلغراف) بحيث يتلقى كل واحد منها نوعا من الأصوات يناسبه ويرسل ذلك الى المخ ، وبالجملة ففى الاذن : الصيوان والصماخ والطبلة والعظمات الثلاث والدهليز والقنوات الهلالية والقوقعية والسائل المتقدم ذكره والرمل الحافظ للصوت وعصى كورتى والشعرات القوقعية والأعصاب السمعية ، فهذه هى الأربعة عشر جهازا فى الأذن وتفصيلها هناك ، وهذا الاتقان لم يكن فى نعم اللسان ولا الجلد ولا الخيشوم

واذا ترقينا الى تركيب العين وجدنا وصفها هناك أتم من تركيب الأذن ، كيف لا وقد عدت الحكم

هناك فوجدت ٢٦ حكمة ، فهاك :

(١) القرنية
(٢) والعنبية
(٣) والعنكبوتية
(٤) والشبكية
(٥) والمشيمة
(٦) والصلبة
(٧) والملتحمة
(٨) والجسم الزجاجي فى وسط الشبكية
(٩) والرطوبة الجليدية وتسمى العدسية
(١٠) والرطوبة البيضية

فالسبع الاول طبقات والثلاث الأخيرة رطوبات ، وهناك تفصيل لامحلّ لذكره ، والمقصود هنا أن الحاسة التى هى أشرف يكون تركيبها أتمّ ، وأما كون النعمة أتم كلما كانت أبعد عن المادة فبرهانه واضح ، ذلك اننا نرى نوع الانسان يفارق النوم على الدمقس والحرير والفراش الأثير (ومعلوم أن هـذه لذة الملامسة) ويركب القطار لرؤية الأقطار ، وجوب البحار ، وتجشم الأخطار ، ويركب متن الهواء ، ويخترق بغواصاته لجج البحار ليشاهـد أنواع السمك والنبات وصنوف المخلوقات التى فى قاع البحار، ونرى الجهلاء والعلماء يغادرون حدائقهم وفيها الروائح اللطيفة وأنواع الفواكه و يتوجهون الى دور الصور المتحركة مع انهم فى تلك الحديقة قادرون أن يضربوا العود ويتمتعوا بأصناف الطرب وصنوف اللذات المختلفات ، فدلّ ذلك على أن المبصرات عند الانسان أرقى من جميع المحسوسات ، لذلك كان البصر أدقّ وهكذا ، ولم نرحاسة غير البصر لها قدرة على مشاهدة الشمس ، فأما البصر فهو الذى اختصّ بها . قلت والله لقد نطقت بفهم وأجبت . ثم قلت أيها الصديق انا نريد أن نتوغل فى البحث . فقال حبا وكرامة . فقلت : اذا كانت الشمس أعظم مايشاهـد بحواسنا ، وأشرف حواسنا هى العـين وتركيبها أتمّ ، والواسطة بينهما هوالنور فهذا آخر لذة يعرفها الحيوان والانسان نوع منه ، وأريد أن أسألك أيها الصديق : ما أقصى سعادة عنـد الانسان من هذه المحسوسات . فقال : المسرات واللذات . فقلت : اللذات أقصى ما يسعى اليه الناس . قال نعم . فقلت تذكر قليـلا فى عاشق مات معشوقه وفرح بماله ففقده ، ومغرم بجميل فذبل الجمال

لعلك نسيت أيها الصـديق ما قرّرناه أوّلا فى أوّل هذا المقام وهو أن الثابت أتم نعمة والمتغير نعمته أقلّ فالسعادة به تكون أنقص . قال حقا كان ذلك ولكن المسرات الجزئية بالعوالم المتغيـرة لاينكرها العقلاء قلت : ولكننا الآن فى مقام الفلسفة والحكمة وفى تفسير القرآن ، ونريد أن نصل للحكمة فى ذكر الرحمة فى قوله تعالى « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة الخ » فهذه نعم متغيرة والقرآن والحكمة يطلبان النعم الثابتة ولا ثبات للمادة . فقال إذن كأنك تريد أن أسعد ماينال المرء فى الحياة الدنيا هى البصائر . فقلت : حسن ولكن هذا المقام يعوزه إيضاح وافصاح . فقال يسرّنى أن أسمعه منك فقلت : إن ههنا عينا وضوءا وشمسا فالعين أرقى حاسة والشمس أرقى محسوس والضوء أجزء واسطة . قال : هذا صار مبرهنا عليه . قلت : ولما رأى حكماء الأمم قبل الاسلام أن هذه المرتبة يشاركنا فيها البهائم فكروا فقالوا : إن الشمس بالنسبة لعوالم المولدات الثـلاث على الأرض أشبه بنار متقدة والناس فى الأرض أشبه بقوم فى مغارة ظهورهـم نحو الشمس ووجوههم متجهة الى الضوء الذى على جـدار المغارة أمامهم ، وهذه

المواليد الثلاثة أشبه بالصور المرسومة على حائط المغارة بواسطة ضوء النار ، وهذا المثال تقدم غير مرة ولكن ذكرناه هنا لنوضح به المقام . إذن وراء هذه الشمس الله الذى برأها ، ولهذه المواليد الثلاثة عوالم سماها أفلاطون عالم المثال وهو عالم ثابت ، وعالم المواليد عالم متغير كما ان الله ثابت دائم والشمس متغيرة ، فالله بالنسبة لعقولنا كالشمس بالنسبة لعيوننا ، وكما أن للشمس ضوءا يصل الى العين هكذا عالم المثال ينير على بصائرنا ، فاذا لم تضىء الشمس فان عيوننا لاترى المبصر وان كان أمامها هكذا عالم المثال الثابت يرسل أشعته الى عقولنا ولولاه لم نعقل ولم نعلم ، والى هذا المقام انتهت عقول الحكماء فى الامم قبل الاسلام

ولما ترجمت الكتب الى الأمم الاسلامية حصل عندهم القول بالاتحاد والحلول . هل تتذكر فى أى مقام أوضحنا هذا أيها الصديق ؟ فقال : قد تقدم فى ﴿ سورة فاطر ﴾ نقلا عن الامام الغزالى إذ ذكرت هناك فى تفسير البسملة البراهين التى ذكرها موضحة وبان بها وظهر أن مايقوله متأخرو الصوفية من الاتحاد والحلول عار عن البرهان العقلى بل هو أشبه بكلام الصبيان . قلت : ولكن أريد هنا أن أبينه بطريق أوضح مما نقلته فيما تقدم لأن الأدلة هناك مطوّلة وفيها بعض الصعوبة . فقال : أحبّ أن أسمع ذلك . فقلت أى حاسة فى الجسم أشرف . فقال : طبعا العين . قلت : هل يمكن أن يقول أحد أن العين هى الشمس . فقال وهل تخطر بعقل عاقل . قلت : اسمع ياصاح رعاك الله . إن العين فى الحقيقة مضيئة لأجسامنا والشمس تضىء العالم . إذن العين شمس صغرى . ألم تر أن تركيبها كما قلنا سابقا أتمّ ، ولماذا هذا ؟ لأجل أن تكون أقرب كمالا من الشمس ، ولولم تكن على هذا النمط لم تر النور ، فالعين مخلوق بديع عجيب والشمس كذلك والعين فى أجسامنا أقرب شىء الى الشمس فلذلك تقبلت منها النور ، ثم ان العين والجسم والأجسام كلها فى الأرض مخلوقات لم تكن لولا الشمس ، فبالشمس ثار السحاب من البحار وهبت الرياح بالحرارة ، فاذا لم تكن شمس لم تكن رياح ولاسحاب فلاانسان ولاحيوان ، وبالتالى لاعيون ولاأبصار . قال نعم هو ذلك . فقلت : إذن الشمس سبب فى العين ، والعين أقرب عضو فى أجسامنا الى الكمال والكامل هى الشمس . قال حسن ذلك . فقلت : إذن يتوجه السؤال : هل العين هى الشمس ؟ قال . كلا . لأن إحداهما سبب والأخرى مسبب غاية الأمر أن العين أقرب الى الشمس لأنها عنها أخذت وتركيبها ساعدها على ذلك . قلت : حسن جدا . ثم قلت هكذا نقول لجميع علماء الصوفية السابقين واللاحقين ونعلن الحقيقة واضحة للعالم قاطبة . فنقول : « أيها الناس ان ماسمعتموه من أقاويل الصوفية من وحدة الوجود وما جاء فى كتاب الاستاذ الكبير محيى الدين فى الفتوحات المكية ، كلّ ذلك عبارات موهمة يجب الاقلاع عنها حالا لأنه ثبت بالبرهان اليقينى اليوم أن النفوس الانسانية كالعيون والله « ولله المثل الأعلى » كالشمس والعوالم الروحية كالضوء ، وعالم المثال كعوالم المواليد الثلاثة ، ولن تبصر العين مالم يكن النور : وكما اننا لانقول إن العين هى الشمس وان كانت أقرب اليها وهى تتلقى عنها الصور والأشكال بواسطة ضوئها ، هكذا لايعقل أن يكون الأنبياء أو الحكماء أو الأولياء مهما علت درجاتهم وبلغوا أقصاها أن يكونوا هم نفس الله تعالى مع انهم بالنسبة للناس كالعين والناس من ورائهم كالحواس الأخرى أدنى منزلة وهم يستضيئون بالنور الإلهى فيلهمهم الملائكة ويوحون اليهم المعلومات الثابتات فى العالم الروحى . فقال : ما أجل هذا البرهان ، انه لقريب سهل المنال ، يعقله كل متوسط الذكاء ، فقلت : اذا عرفنا هذا وقد امتحنا آراء أسلافنا وقد وضحت الحقيقة فلنتجاوز ذلك الى ماوراءه وهى آراء سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس ، فنذكر أوّلا ما قالوه ، وما آثار كلامهم فى الأمم التى بعدهم ، ثم نتبعه بما نراه مما فتح الله به ليلة الجمعة كما قدّمته قريبا . فقال ما أشوقنى الى ذلك . فقلت : إن أفلاطون بعد أن ذكر مثال الشمس المتقدم . قال : « على الانسان أن يترقى من الأخص الى الأعم ، ثم يترقى من المحسوسات الى المعقولات حتى يرجعها كلها الى ذات الله وهو الكمال المطلق والخير المحض ، وجميع المعانى هى صفاته وهى حكمته »

وهنالك أعلن للملأ أن هناك عالم المثال وهو ثابت . عالمنا هو المتغير ، ولقد عارض هذا المذهب أرسطاطاليس تلميذ أفلاطون . فقال : أنا أسلم أن الكليات هي أصل العلم ، ولكن لا أسلم انها مفارقة للمادة ، وهل هناك كليات إلا في أذهاننا ، فالذهن مخزن الكليات ، أما ان هناك عالما نسميه عالم المثال وهو أصل لعالمنا فهذا لا أسلم به ، وكيف أسلم به وهو اذا كان ثابتا لا يتحرك فكيف صدر عنه هذا العالم المتحرك ، ثم انه اذا كان مفارقا فكيف نؤثر فيما فارقه ، وكيف يكون جوهرا مفارقا له وان كان متصلا بالعالم فقد دخله التغير بتغير ما اتصل به ، وكيف ينطبق الجوهر الواحد على الأفراد المختلفة مع انه لا يقبل الانقسام » وأطال في ذلك

ثم قال : « إن العالم مكون من مادة وصورة (وكيفية معينة من الوجود) والمادة لا تحقق لها إلا بهذه المعينات وهي في نفسها امكان محض أي قوة واستعداد لقبول الصورة ، والصورة كل مابه يتعين وجود المادة من شكل ووضع وبعد وكيفية كاللون والطعم والرائحة والثقل والخفة ، وهذان لا يكونان متميزين إلا بالعقل أما في الخارج فلا ، وما الحركات إلا شوق المادة الى الاستكمال ، فهي أبدا مجدة للكمال وذلك بالحركات في المقادير (الكم) كالنمو والزيادة والنقصان والذبول وبالحركات في الكيف كالاستحالة من صفة الى أخرى وبالحركات في الاين وهي النقلة من مكان الى مكان

وقول أرسطاطاليس المذكور فيه لبس ، فقد رد عليه حكماء اليونان بعده فقالوا : ﴿أولا﴾ ان المادة عندك أمر سلبي وعدم محض ، واذا كانت عدما فكيف تشتاق الى الاستكمال بالحركات ، واذا لم نقل ذلك بل قلنا انها امكان محض) فهل يعقل أن للامكان وجودا . إن وجود المادة يناقض ماية له هو انها سالبة الوجود ، واذا علمنا بوجودها بعد هذا كله فقد صح للوجود أصلان معا وهو مناقض لأصل مذهبه ، ثم هو يقول : « ان الطبيعة ماهي إلا المادة والصورة والحركة ، المجتمع من هذا كله يسمى طبيعة » ولم يبين هذه الطبيعة ، ماهي ؟ هل هي ذات موجودة ، أم هي معنى موجود باعتبار العقل »

فلما مات أرسطاطاليس ترك تلاميذه هذه المباحث وأخذوا يفكرون في علم الطبيعة والأخلاق وجدوا في هذه العلوم ، وهنالك نبغ (أبيقورس) المولود سنة ٣٤١ ق م المتوفى سنة ٢٧٠ ق.م ورجع الى مذهب (ديموقراطس) القائل بالجزء الذي لا يتجزأ وهو يقول : « أجل المقصود من الحياة ادراك الحقائق ذلك الفلسفة واللذة الناتجة عنها أهم مقاصد هذه الحياة » ثم نبغت فرقة الرواقيين ويسمون أصحاب الاسطوانة وأصحاب المظال (وهو اسم لمحل اجتماعهم بأثينا) وهم شيعة (زينون) المتوفى سنة ٢٦٤ ق.م وهؤلاء يقولون : « ان العالم جوهر واحد ، فهو من جهة قوة عاقلة ، ومن جهة أخرى مادة » ومن أصحابه (كريزيبس) المتوفى سنة ق ٢٠٩ م وعلم الطبيعيات هو المهمات عند هذه الطائفة

ملخص هذا المقام

هنالك قال صاحبي : لقد طال المقال فأرجو تلخيصه ثم كيفية ارتباطه بالرحلة أولا ، ثم كيف تفسر الآيات التي فيها الرحلة في سورة الحروف بهذه العلوم المذكورة هنا . فقلت : الآن أذكر لك أصل المقام :

(١) انك قلت ان البسملة معروفة وتفسيرها هنا تكرار

(٢) فأخبرتك أن الجمال المذكور الموضح في سورة السجدة أكثر الناس يزعمون أنهم يعرفونه وماهم بعارفين ولا يعقله إلا الحكماء

(٣) وأن الطعام والشراب ظن الصبيان العامة أنهما معلومان وهم جميعا لا يدركون بانفصيل عجائب توزيع المواد المشوبة والمواد الزلالية والمواد المعدنية والماء كالاز والطاطس وكاللحم والسمك وكالملح وكماء الأنهار

فهذه موزعات على مناطق الأرض فى أنواع النبات والحيوان والمحار ، وهكذا تقتسمها أجزاء القناة الهضمية فتهضمها وتخالط الدم فيأخذ كل عضو حظه من الحياة وهكذا

ثم يكون الفكر والعقل ، فهذا اجمال الكلام على الطعام والشراب . وبقى الكلام على الرحمة المذكورة فى البسملة التى كررت (٨) مرات فى سورة الزخرف . فلما أخذنا نفصلها وجدنا أمرا عجبا ! وجدنا أن حواسنا كلما كانت أقرب الى محسوسها كان ذلك المحسوس أخس وكانت نفس الحاسة أقل درجة وكنا نحن بذاك المحسوس أقل اهتماما . ذلك ان المحسوس الناعم كالحرير لانعرفه إلا اذا لاصق أجسامنا وذلك يعطينا لذة ضئيلة اذا قسناها بلذة المشموم والمشموم يبعد عن حاسة الشم ويرسل من لدنه ذرات لطيفة فهو ألطف من المطعوم كالحلو الذى يلامس حاسة الذوق التى هى أرقى من حاسة اللمس . فاذا ارتفعنا الى السمع وجدنا الحاسة أتم تركيبا والمحسوس ألطف يكاد يفارق المادة ولانحتاج فى تعرفه الى الملاصقة . أما المبصرات فانها أبدع وأعجب ورسولها الأمين أشف من الهواء وهو الضوء والضوء فى عالم لا أثير جل الله ، جل الله الذى أعطى الانسان درسا لم ينس . فهاهوذا يقول له : « أيها الانسان : ألست تعقل . لم كن أشرف حاسة عندك هى البصر . أليس المبصر بها يبعد عنها لايلاقى حاستك إلا النور . إذن هذه الحياة الجسمية نفسها كشفت لك الغطاء عن السعادة . تقول لك بلسان الحق : أيها الانسان : أما تخجل وكيف تجهل نفسك تلمس السعادة فى جوانب المادة وأنا رسمت لك الخطة : إن المادة ماهى إلا مبدأ كالذى رأيت فى عالم الملموسات ولكن لابد من ارتقائك فى المعانى كارتقاء العين فى محسوسها عن حاسة اللمس فى ملموساتها . ألا ان الفرق مابين الخشن والناعم من حيث ملاصقة الجسم وبين الشمس والعين من حيث شدة البعد التى تصل الى مسافة (٣٥٠) سنة يجرى القطار لسريع الا ونهارا . يجرى فيها النور بين عينك والشمس وكأن الله يخاطب العالمين فى الأرض قائلا : « المادة مبدؤكم لابد من دراستها وإتقانها كما درست حاسة لمسكم ملموسكم وإياكم أن تقفوا عندها لئلا تذلوا بل ارتقوا فى دراستها طبعا عن طريق لحكموها وأنتم فيها كما ارتقت حواسكم طبقة عن طبقة فحكمت الأذن على الأشياء البعيدة فأخذت شملها بطريق الحركات فى الأصوات . وكما حكمت العين على الكواكب البعيدة فاقتنصت صورها من الجو وهى جارية فى الضوء السارى فى الطف موجود وهو الأثير ثم انه عز وجل يقول : « أيها المسلمون : هاهم أولاء الأمم قبلكم الذين لم تسبقوهم ولا فكروا فى هذه العوالم وارتقوا فى الأسباب وقالوا : اذا كانت السعادة تتبع الارتقاء عن المادة وكل من ارتقى عنها خضعت له وكل من خضع لها أذلته . فهاهم أولاء من قبلكم بحثوا بآرائهم وعقولهم وقالوا ان هناك صورا معنوية هى أصل هذه المواليد على الأرض ونكم شمس نوره على تلك العوالم الثابتة التى هى مثال لخلقاتكم ومسكم وهناك تجلى الله على عقولكم بالالهام كما تنجلى الشمس على عوالمكم بالصور . وكما أن الضوء أتى لأعينكم بصور المخلوقات الأرضية . هكذا أتى أنا على عالم المثل شمس قوى على قلوبكم بالعلم الذى لديكم »

هذا ثم جاء آخرون بعد هؤلاء فأنكروا عالم المثال وقالوا : « إن الكائنات العامة هذه المحسوسات كالانسان والحيوان لن تكون الا فى الذهن » . إذن ليس هناك عالم مثال . هذا قول أرسطاطاليس : « إن العلم انما يتعلق بمحقق ، والمحقق هى المادة وصورتها المعينة المادية » . وجاء بعده الذين يقولون الرواقيون وهم أصحاب المظال . فقالوا : « إن كلامه فى المادة غير منتظم » . وأدركوا أن هذه الأقوال غير مجدية ، فتركوا هذه الأرتال كلها ورجعوا الى دراسة علم الطبيعة وعلم الأخلاق

هذا أيها الصديق ملخص ماتقدم ، وأنا أحمد الله حمدا كثيرا على التبيان وعلى البيان ، ولم يبق إلا أن ألخص المقام كله فى كلمتين اثنتين : هما أن دراسة هذه المخلوقات التى هى آثار الرحمة عرفتنا أمرين : أحدهما محقق . والثانى تعوزه الفكر . أما المحقق فهو أن سعادة أهل هذه الأرض لا تكون بالانغماس فى

للمادة بل فى التجافى عنها والترقى فى اخضاعها لاتركها فيكون الناس فى هذه الأرض بالنسبة للمادة كالعين بالنسبة للشمس

فهذه قضية محققة أظهرتها دراسة رحمة الله المذكورة فى البسملة فى حواسنا وفى المخلوقات حولنا ، فكلما كان الناس مغمورين فيها ذلوا ، وكلما ارتقوا فأخضعوها اخضاعا معنويا سعدوا ، والدليل على ذلك أن استعمال الكهرباء التى هى ألطف من الأجسام الأرضية أسعد الناس سعادة مّا ، وذلك أقرب الى استعمال العين للشعاع الواصل من الشمس فان بين الكهرباء والنور مشاكلة ، ففرق مابين استعمال غارب البغل والحمار والفرس التى هى أجسام كثيفة و بين استعمال الكهرباء التى هى عوالم لطيفة شريفة فالثمرات على مقتضى المقدمات كثافة ولطافة ، وهذه بعينها دروس يعطيها لنا ترتيب أجسامنا . هذه هى الكلمة الأولى المحققة . أما الكلمة الثانية التى يعوزها التفكير فهو مايقوله أرسطاطاليس وأبيقوروزينون مما تقدم فهذا راجع لأصل العالم ومنشئه

وسترى إن شاء الله فى ﴿سورة محمد﴾ ﷺ تحقيق المقام فى رسالة سميتها ﴿مرآة الفلسفة﴾ التى وعدت بذكرها سابقا مرارا فى هذا التفسير ، ولكنى أقول قولا اجماليا الآن تذكرة لك أيها الصديق وللاذكياء من قرّاء هذا الكتاب

اعلم اننا نحن على هذه الأرض لن نصل الى غاية العلم ، وغاية الأمر اننا نتلمس الممكن منه ، فهاهوذا البرهان اليقينى الذى عرفناه من دراسة جسمنا أثبت لنا أن سعادتنا فى اللطائف لا الكثائف ، وأن هذا الانسان عليه أن يجدّ فى المعنويات فى هذه الحياة حتى يتمرّن عليها ويرتقى فيها كما ارتقت عينه عن لسانه ، فهذه ترى الشمس فى الأقطار البعيدة ، وهذا يلامس الثمرة فتكون قيدا له وسجنا ، فاذا تلمسنا علم ما وراء ذلك ونظرنا نظر سقراط الذى اعترض على العالم المثالى الذى قرّره فانا نقول اذا كان علماء الطبيعة لما عجزوا عن اثبات مادة تحمل الضوء السارى فى الجوّ من الكواكب وتحمل قوّة الجاذبية التى بين الكواكب و بين الشمس والأرض والقمر

أقول لما عجزوا عن ذلك قالوا نفرض أن هنا عالما خفيا نسميه (أثيرا) ولقد تقدم شرح عالم الأثير فى أول سورة ﴿الصافات﴾ وتحقيق الكلام فيه ، فهذا الفرض قد اضطروا اليه اضطرارا ليتمكنوا به حلّ النظريات الطبيعية وفهم القوانين ، فاذا جاز هذا فى علم الطبيعة التى هى أقرب الى عقولنا ، أفلايجوز نظيره فى علم ماوراء الطبيعة ونقول : اذا كان الضوء لايصل الى عيوننا إلا بعالم سميناه أثيرا ونحن لم نتحققه ، أفليس من حقنا أن نقول ان العلم لا يكون له ثبات الا بامور ثابتة ، والامور الثابتة هنا نسميها عالم المثال وهو نموذج لعالمنا هذا وعلى مقتضى عالم المثال الذى صوّرت فيه جميع القضايا الكلية التى نحسّ بها فى أذهاننا خلقت العوالم المشاهدة فأما كل ماورد من كلام علماء اليونان على عالم المثال فانه يرد نظيره على عالم الأثير فاذا كان معدوما فكيف يحمل المعدوم الموجود ؟ فالقول هناك كالقول هنا

امتحان آراء علماء الاسلام

وآراء علماء اليونان

إذن نحن الآن امتحنا آراء علماء الصوفية من حيث وحدة الوجود فظهر لنا أن دراسة أجسامنا تحلّ المشكلة كما تقدم فى العين والشمس ، وامتحنا آراء فلاسفة اليونان فرأينا أن عالم الأثير المقول عند علماء الطبيعة يرد عليه ماورد على عالم المثال ومع ذلك اضطرله العلماء فى زماننا اضطرارا وقنعوا باثباته لحل النظريات لتسهيل حل النظريات العامية . وهذا الذى قلته الآن برهان اقناعى ، ولكن البرهان اليقينى ستراه فى سورة محمد ﷺ كما أنبأتك

تفسير الآيات

لاجرم انك بعد هذا أيها الصديق تفهم حق الفهم قوله تعالى « واذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا » الى آخره إذ يرى الانسان انه محصور الفكر فى أن الولد ذكرا وأنثى وهـذا انغماس فى المادة ، والانغماس فيها عذاب أليم فى الحياة الدنيا والله منزّه عن المادة فكيف يجعله متصفا بما كان عـذابا له ؛ وهناك يظهر سرّ « ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهـم بها فى الحياة الدنيا » ودراسة علم الحواس المتقدم يظهر لنا أن الخضوع للمادة صغار ، وهذا قوله « وجعلوا الملائكة الذين هـم عباد الرحمن اناثا » فالذكورة والانوثة صفات أهل المادة الذين هـم أقرب الى العذاب فى الحياة ببرهان دراسة الحواس المتقدم والملائكة مبرءون من المادة وهم مختصون بالعلم ، وقوله « وقالوا لوشاء الرحمن ماعبدناهم » فهؤلاء جهلاء ولكن الله لسعة رحمته لهـم لم يهلكهم ، فهو وسعهم كما وسع البهائم فى الأرض وكما عاش الانسان بين عين تنظر الشمس ولمس يلمس الحجر فالله يرحم الأدنى والأعلى كل فى مركزه الخاص به . وأما قوله « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهوله قرين » فهو المقصود من هذا المبحث كله . ذلك ان السعادة كما قدّمنا ترجع الى ادراك ماهو ثابت ولا ثبات للمادة . والثابت الحق هو الله عزّ وجل . وكل مال وولد وسلطان وجمال وأرض وسماء لاثبات لها . فالفرح بالمتغير غرور . ولا فرح ولا سرور إلا بما هو ثابت . ويظهر هذا فى قوله تعالى « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن الخ » فالقصور المزخرفات والذهب والفضة والسرر راجعات كلها الى المادة العليظة وقد برهنا برهانا يقينيا أن السعادة فى الابتعاد عنها والرحمة الحقيقية فى ادراك ماهو ثابت ولاثبات إلا لصانع العالم ، فهل لك أن أسمعك ماقاله نفس أفلاطون عن (سقراط) لتعجب من أن القرآن قد جاء تفسيره على ألسنة الفلاسفة ، بل على لسان أكبر فيلسوف تخر له فلاسفة أوروبا الحاليين باعترافهم سجدا ، فانظر ماذا يقول ؟ يقول معنى نفس هذه الآيات ، فهو يقول فى الكتاب السادس مخاطبا (اديمنتس)

« أولست من رأيى أيضا أن سبب استياء الجمهور من الفلسفة راجع الى تصرف الذين كالسكارى يقتحمون مالا يعنيهم ويسيء بعضهـم بعضا ، ويسرّون ببثّ الفتن والاغتياب ، وبالاجمال الأشخاص الذين لاتتفق تصرّفاتهـم مع الفلسفة » ثم قال : « وحقا يا اديمنتس ان من وجـه أفكاره نحو الأشياء الموجودة حقيقة ليس له متسع من الوقت للاشتباك بمصالح الآخرين ومنازعتهم فتتسرّب اليه عدوى أذاهم بل على الضد من ذلك يقف أوقاته على التفكر بأشياء صحيحة ثابتة واذ يرى انها لاتضرّ إحداها الأخرى ولا تنى خاضعة للنظام وهى على أتمّ وفاق مع العقل يجتهد فى درسها والتشبه بها ، أوتظن أن الانسان يستطيع ألا يتمثل بما يلازمه ويحترمه . فأجابه : غير ممكن . فقال سقراط : فالفيلسوف الذى يلازم ماهو إلهى متزن يصير إلهيا متزنا مع انه هنا كما فى كل موقف آخر مجال واسع للتزييف »

وقال فى صحيفة ١٨٨ مانصه : « إن بحثنا أرانا أن فى كل منا آلة تساعده فى تحصيل العلم كما انه لا يمكن تحويل العين من النور الى الظلام بدون أن يتحوّل الجسم كله ، هكذا أمر هذه القوّة مع النفس فيلزم تحوّل النفس كلها عن العالم الفانى ليمكنها التفكر فى عالم الحقيقة وفى أبهى قسم منه وهو ماندعوه صورة الخير » انتهى

يقول طنطاوى : أفليس مما يدهش المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها أن آيات هذه السورة التى ذكرت فيها الرحمة كالتى تصف الكافرين بأنهم لوكانت لهـم قصور مزخرفة وسرر الخ لم يكن ذلك نافعا لهم وكالتى تبين أن من أعرض عن ذكر الله تسلمه الشيطان وأضله وهكذا

أقول : إن هذه الآيات قد جاء تفسيرها قبل أزمان النبوّة بنحو ثمان قرون على ألسنة الفلاسفة . إذن

هذا القرآن كما وصفه الله آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم . إذن المفكرون فى جلال الله المتعلمون الحكمة هم أرقى الناس وهم أولى بإدارة الأمم لأنهم يزهدون فى المال وفى أعراض الدنيا وليسوا كبعض الزهاد يعتزلون الناس ويكونون عالة عليهم . وبهذا يعرف المسلمون أن الزهد فى الدنيا ليس معناه تركها ، بل أن يكون الانسان عالما بالجمال الأقدس مرفقا أن السعادة فى المعرفة والعلم أى العلم بالله والملأ الأعلى وهذا لن يمكن بمجرّد قراءة القرآن ولا تفسيره ولكن بدراسة علوم هذه الدنيا وينتقل من الخلق الى الخالق ثم يكون خليفة له على عباده ، ولم أجد من سار على منواله سوى رسول الله ﷺ ومن جرى على طريقه فهو الذى ينطبق عليه الآيات المذكورة من احتقار المادة والقيام بخدمة الأمة وتنظيم الدولة ، ذلك هو الحق الصراح ، فأجلّ أنواع الرحمة فى الحقيقة يرجع الى ادراك جمال الله عزّ وجل وصفاته وفهم الوجود تبعا لذلك ، ثم أن يكون الانسان زاهدا فى المادة متحليا بالأخلاق الجميلة ، خليفة على عباد الله ، منظما لأممهم ، نافعا لدولهم ، فهو فى العالم ولكنه غير مغرم به بل بالعلم بالله وبالسعى لمساعدة المجموع منظم للحكومات وللأمم بقدر طاقته . هذا هو الحق الصراح والحمد لله رب العالمين . انتهى صباح يوم الاثنين ١٨ نوفمبر سنة ١٩٣٠

مقاصد السورة

(١) تأييد النبوّة الى قوله ــ ومضى مثل الأوّلين ــ

(٢) واثبات الالوهية بالأدلة الطبيعية الى ــ وانا الى ربنا لمنقلبون ــ

(٣) بعض سيئات كفر القوم الى قوله .. فهم به مستمسكون ــ

(٤) سبب كفرهم الى قوله .. وانا على آثارهم مقتدون ــ

(٥) شدّة جهلهم وجمود عقولهم الى قوله ــ بما أرسلتم به كافرون ــ

(٦) الانتقام منهم الى ــ عاقبة المكذبين ــ

(٧) تسلية النبى ﷺ بذكر قصة ابراهيم الى قوله ــ وانا به كافرون ــ

(٨) ليست المظاهر المادّية من أسباب الدرجات العلمية والدينية الى قوله ــ عند ربك للمتقين ــ

(٩) من ترك عقله فلم يشغله بالحكمة تولاه الشيطان

أعطيت ملكا فلم أحسن سياسته ٭ كذاك من لا يسوس الملك يخلعه

الى قوله ــ مهتدون ــ

(١٠) « من تصادقا على المعصية تعاديا عند القضاء » الى قوله ــ انكم فى العذاب مشتركون ــ

(١١) انما تنفع الذكرى من استعدّ للفهم الى قوله ــ ومن كان فى ضلال مبين ــ

(١٢) عدة الله نبيه بالنصر وعلوّ أمره وانه مسئول عن الدين والقرآن هو وقومه الى قوله ــ وسوف تسألون ــ

(١٣) قصص موسى لتأييد أن المظاهر المادية ليست سببا للمعارف العقلية الى قوله ــ ومثلا للآخرين ــ

(١٤) شؤم الحرص على الجدال وعدم جدواه فى ابطال الحقائق الى قوله ــ إنه لكم عدوّ مبين ــ

(١٥) ذكر عيسى عليه السلام واختلاف أتباعه ووعيدهم الى قوله ــ وهم لا يشعرون ــ

(١٦) معاداة قرناء السوء يوم القيامة وعذابهم ونعمة الصالحين الى قوله ــ فأنا أوّل العابدين ــ

(١٧) تنزيه الله تعالى ووصفه بسعة الملك والقدرة والحكمة وشهادة الفطرة بذلك ، وبالاختصار وصفه بصفات الجلال والاكرام وهو المقصود الى قوله ــ لا يؤمنون ــ

(١٨) سعة الصدر والصفح والمسالمة خير الأخلاق اهـ

مجمل تفسير الألفاظ

فى المقاصد الأربعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

(حم) تقدم الكلام عليها فى السورة السابقة (والكتاب المبين) القرآن ، أقسم به من حيث نظمه وإعجازه ، ان الله صيره كذلك ، فالقسم كالاستشهاد على المقسم به (لعلكم تعقلون) لكى تفهموا معانيه (وانه) عطف على - إنا - (فى أم الكتاب) فى اللوح المحفوظ (لدينا) عندنا (لعلى) رفيع الشأن فى الكتب لكونه معجزا (حكيم) ذوحكمة بالغة ، أومحكم لاينسخه غيره (أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين) أفنذود الذكر ونبعده عنكم صافحين فلانأمركم ولا ننهاكم من أجل انكم أسرفتم فى كفركم وتركتم الايمان (وكم أرسلنا من نبىّ فى الأوّلين) الى قوله (يستهزؤن) أى كاستهزاء قومك بك (ولئن سألتهم) أى المشركين (من خلق السموات والأرض ليقولنّ خلقهنّ العزيز العليم) أى انهم أقرّوا بأن الله خلقهما ، وانه ذوعزّة وعلم ، ومع ذلك جمعوا بين النقيضين إذ عبدوا غيره وأنكروا قدرته على البعث (الذى جعل لكم الأرض مهدا) قارّة يمكن الانتفاع بها ، والمهد موضع راحة الصبى ، والخلق كلهم يتربون على الأرض وهى موضع راحتهم فلذلك جعلت مهادا لعدد العباد (وجعل لكم فيها سبلا) طرقا (لعلكم تهتدون) الى مقاصدكم فى أسفاركم ، فلم تكن تلك المهاد رمية من غير رام (والذى أنزل من السماء ماء بقدر) بقدر حاجاتكم اليه ، فلم يكن كثيرا حتى يهلككم (فأنشرنا به) بالمطر (بلدة ميتا كذلك) كما أحيينا بلدة ميتا (تخرجون) من قبوركم أحياء (والذى خلق الأزواج كلها) أى الأصناف والأنواع أوالذكران والاناث ، أما هو فهو فرد لاثانى له (وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون) فى البحر والبرّ (لتستووا على ظهوره) على ظهور الفلك والأنعام (ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه) أى بتسخير ماركبتموه فى البحر والبرّ (وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا) ذلله (وما كنا له مقرنين) مطيقين أوحافظين (وانا الى ربنا لمنقلبون) لمنصرفون فى المعاد (وجعلوا له من عباده جزءا) أى بعد الاعتراف بأن الله هوالذى اتصف بالخلق والعزّة والعلم الخ جعلوا له من عباده ولدا وهم الملائكة ، والولد جزء الوالد و بعضه لأنه بضعة من الوالد (إنّ الانسان لكفورمبين) ظاهر الكفران ومنه ، نسبة الولد اليه تعالى (أم اتخذ مما يخلق بنات) هذا استفهام انكار وتوبيخ وتعجب ! يقول : اتخذ ربكم لنفسه البنات (وأصفاكم) أى أخلصكم (بالبنين) فاختارلنفسه المنزلة الدنيا ولكم المنزلة العليا (واذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا) أى بالجنس الذى جعله له مثلا إذ الولد لابد أن يماثل الوالد (ظلّ وجهه مسودّا) صار وجهه أسود فى الغاية لما يعتريه من الكآبة (وهوكظيم) مملوء قلبه من الكرب (أومن ينشأ فى الحلية) أوجعلوا له من يتربى فى الزينة يعنى البنات (وهو فى الخصام) فى المجادلة (غيرمبين) مقرر لما يدعيه من نقصان العقل وضعف الرأى (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا) أى حكموا بهذا وأثبتوهم اناثا ، وقد جمعوا بهذه الفرية بين الضدين : العبادة والولادة (أشهدوا خلقهم) أى أحضروا خلق الله إياهم فشاهدوهم اناثا (ستكتب شهادتهم) التى شهدوا بها على الملائكة (ويسألون) عنها يوم القيامة (وقالوا لوشاء الرحمن ماعبدناهم) أى لوشاء عدم عبادة الملائكة ماعبدناهم (مالهم بذلك من علم إن هم إلايخرصون) أى وقال بنومليح بوجه غير ماتقدم : لونها نا الرحمن وصرفنا ماعبدناهم استهزاء ولكن أمرنا بعبادتهم ولم ينهنا عنها ، مالهم بما يقولون من حجة ، ماهم إلا يكذبون على الله (أم

آتيناهم كتابا من قبله) من قبل القرآن (فهم به مستمسكون) بذلك الكتاب .

ذكر سبب كفرهم

ولما بطلت جميع الحجج رجعوا الى التقليد (بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة) أى دين ، وهى من الأم وهو القصد ، فالأمة الطريقة التى تؤم أى تقصد (وانا على آثارهم مهتدون) أى انهم مهتدون باتباع آبائهم وتقليدهم من غير حجة ، وهذه فى الحقيقة حجة الغافلين من الأمم الحاضرة والقائتة . ومن ذلك قوله تعالى (وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) وهذا تسلية لرسول الله ﷺ ودلالة على أن التقليد فى ذلك ضلال قديم والأمم فى ذلك متشابهة والعلة فى ذلك التنعم والكسل والبطالة ، ولذلك أكثر الله فى نوع الانسان من الحروب والأمراض والعداوات ليستحثهم على العمل ولتنشط العقول وليفكروا حتى يقل الترف الجالب للتقليد والنوم فى ظل الجهالة العمياء

(٥) — شدة جهلهم وجمود عقولهم

قال تعالى (قل) أتتبعون آباءكم (أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم) أى بدين أهدى من دين آبائكم ، وقرأ ابن عامر وحفص — قال — أى النذير ، فقل حكاية أمر ماض أوحى الى النذير وحينئذ يقال فماذا أجاب أهل القرية ؟ فأجاب (قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون) وان كان أهدى ، وذلك ليقنطوا نذيرهم من انهم يفكرون

من المقصد السادس الى المقصد التاسع الى قوله — مهتدون —

قال تعالى (فانتقمنا منهم) بالاستئصال (فانظر كيف كان عاقبة المكذبين) ولا تكترث بتكذيبهم (واذ قال ابراهيم لأبيه وقومه إننى براء) أى برىء (مما تعبدون ✲ إلا الذى فطرنى) أى إننى أتبرأ مما تعبدون إلا من الله الذى خلقنى (فانه سيهدين) أى يرشدنى الى دينه (وجعلها) أى وجعل ابراهيم كلمة التوحيد التى تكلم بها وهى لا إله إلا الله (كلمة باقية فى عقبه) فى ذريته فيكون فيهم أبدا من يوحد الله ويدعو الى توحيده (لعلهم يرجعون) أى يرجع من أشرك منهم بدعاء من وحده (بل متعت هؤلاء وآباءهم) يعنى أهل مكة وهم من عقب ابراهيم ، فمددت أعمارهم ، وأكثرت نعمهم ، فشغلتهم النعم والترف بالشهوات وأطاعوا الشيطان ونسوا كلمة التوحيد ، وجريت على عادتى أن أجعل فى بنى ابراهيم من يوحد الله ويدعو من كفر منهم لعله يرجع ، فاخترت محمدا ليدعو هؤلاء فقالوا هذا سحر الخ وهذا قوله تعالى (حتى جاءهم الحق) أى القرآن (ورسول مبين) الرسول محمد ﷺ وقوله — مبين — أى واضح الرسالة بما معه من الآيات (ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وانا به كافرون ✲ وقالوا) فيه متحكمين بالباطل (لولا نزل هذا القرآن) العبارة تفيد الاستهانة (على رجل من القريتين عظيم) أى رجل عظيم من إحدى القريتين كقوله « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » وانما يخرجان من الملح وحده على قول بعض القدماء ، ولكن ظهر فى العلم الحديث أن اللؤلؤ يخرج من الماء العذب كما ستراه فى ﴿سورة الرحمن﴾ وهذا من معجزات القرآن ، والقريتان مكة والطائف ، والرجلان الوليد بن المغيرة عظيم مكة ، وعروة بن مسعود الثقفى عظيم الطائف ، وكان كل منهما ذا مال وذا جاه مع أن العظيم فى العقل والعلم والدين غير العظيم فى اصطلاحهم (أهم يقسمون رحمة ربك) أى النبوة والاستفهام للانكار والتجهيل والتعجيب كأنه يقول : أيها القوم : عجبا لكم ! كيف جهلتم قدر أنفسكم ، أو بلغ من شأنكم أن تصطفوا من تشاءون للنبوة التى لا يصلح لها إلا من له رتبة علمية روحانية تستدعى عظم النفس ، فتكون ذات فضائل قدسية ، وكمالات خلقية ، وتكون مستهينة بالزخارف الدنيوية

التى

التي انغمستم فيها ، فلستم أهلا لأن تفاض عليكم فضـلا عن أن تهبوها لمن تشاءون » (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا) يقول تعالى : نحن فاوتنا بينهم فى الرزق ، فنهم الغنىّ ، ومنهم الفقير ، ومنهم السيد ومنهم العبد ، ومنهم الملوك ، ومنهم السوقة ، ومنهم الأقوياء ، ومنهم الضعفاء ، ومنهم ذووالجمال ، ومنهم ذوو الدمامة ، ولم يقدرأحد من عبادنا أن يغيرما حكمنا به فى أحوال دنياهم مع قلتها وذلتها ، فكيف يقدرون على الاعتراض على حكمنا فيما هو أرفع درجـة ، وأعظم منصبا ، وأشرف غاية ، وهوالنبوّة ، فنحن رفعنا بعضهم على بعض بمشيئتنا وخصصنا من نشاء للنبوّة كما أردنا ، فكما لم يغيروا ماهوأدنى هكذا هم أعجز عن التغيير فيما هو أعلى . ثم أتمّ وصف حال تفاوتهـم فى الدنيا فقال (ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) أى أوقعنا بينهم التفاوت فى الرزق (ليتخذ بعضهم بعضا سخريا) ليصرف بعضهم بعضا فى حوائجهم و يستخدموهم فى مهنهم ، و يسخروهم فى أشغالهم ، حتى يعيش بعضهم مع بعض ، و ينفع بعضهم بعضا ، فهذا بماله وهـذا بأعماله ، لأنا حكمنا أن هذه النفوس تعيش فى الأرض لتتعاون ونحن قادرون أن نطعمهم وهم قاعدون كما أطعمنا النبات والدود ، ولـكن هى الحـكمة أن الأعمـال التـكليفية التى يتعاطاها الناس سواء أكانت طبيعية أم شرعية تصـير فيما بعـد الموت معينة للنفوس فيسهل عليها التعارف والتعاون فى عالم الأرواح ، وعلى قدر تهذيبها ومحبتها لبعضها يكون ارتقاؤها ، وكيف تتعارف فى الدنيا إلا باللقاء والاختلاط ، فأحوجناهم الى القوت وأغنينا وأفقرنا ، وجعلنا ذكرا وأنثى . كل ذلك ليتعارفوا و يتعاونوا ، وأنزلنا العبادات وفرضـناها ليتحدوا فى الصلوات ، و يتعاونوا فى الصدقات ، وأنزلنا القرآن والعلم لتجمعهم جامعة الحـكمة والأخلاق وهى أقوى الجامعات وأمتن الروابط وهذا قوله تعالى (ورحمة ربك) بالنبوّة ومايتبعها (خير مما يجمعون) أى مما يجمع الـكفار من الأموال ، فالدنيا على شفا جرف هار ، إن المـادة والمظاهر الفانية لاقيمة لهـا فى حضرتنا ، فنحن أغدقنا النعم على الدواب والأنعام وكثير من جهلة بنى الانسان ، ولولا أن تتطلع أعين المؤمنـين الى زهرة الدنيا وزينتها اذا غمرنا الـكافرين بها وأوسعناها عليهـم سعة مطلقة وأن تهلع قلوبهـم وتنخلع حينما يرون الـكافرين فى أنعم حال وهم فى شظف العيش لجعلنا كل كافر فى أرغد عيش وأنعم حال ، ولـكننا لم نفعل ذلك رحمة بالمؤمنين وهـذا قوله تعالى (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة) أى ولولا أن يصـيروا كلهم كفارا فيجتمعون على الـكفر ويرغبون فيه اذا رأوا سعة الرزق عند الـكفار (لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهـم سقفا من فضـة ومعارج) ومصاعد الى العـلالى جمع معرج (عليها يظهرون) يعلون السطوح لحقارة الدنيا وقوله ـ لبيوتهم ـ بدل اشتمال (ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتـكئون) أى أبوابا وسررا من فضة . يقول لجعلنا للـكفار سقفا من فضة ومصاعد وأبوابا وسررا من فضة (و) جعلنا لهم (زخرفا) أى زينة من كل شىء ويقال الذهب أيضا فيكون عطفا على محل من فضة أى سقفا من فضة وذهب أى بعضها من فضة و بعضها من ذهب . واذا كانت المعارج والأبواب والسرر كالسقف كما تقدم يكون بعضها من فضة و بعضها من ذهب على هذا التقدير أيضا (وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا) أى ما كل ذلك إلا متاعها القصير الفانى وليس مما تقدر به قيم النفوس الانسانيـة فـكيف يقولون لولا أنزل هذا القرآن على رجـل الخ والعظمة المـادية لاعلاقة لهـا بالمناصب النبوية (والآخرة عند ربك للمتقين) الـكفر والمعاصى . ولاجرم أن هذه النعم والسرر والأبواب المصنوعة من الذهب والفضة لوأعطيت للمؤمنين حتى يصبح الناس كلهـم مؤمنين لأخلت بالمقصود من الايمان لأن الترف والنعيم يحجب أكثر العقول عن عالم الروحانيات والرقىّ العقلى . وقلّ من يتخلص من شرك هـذه الآفات ، فالشهوات والزينة والزخارف للعقول أشبه بالقاذورات بالنسبة للأجسام . وكما أن الأجسام القذرة يحوم حولها الذباب فيلقى فيها بيوضه لتفرخ فى القروح والعيون ويخرج ذباب يعيش من تلك القاذورات فتـكون آلام وآلام هكذا تلك النفوس الضـعيفة تعشعش فيها النفوس المماثلة لها من عالم

الشياطين وتلقى اليها بذور الفساد فتزرع فى تلك العقول وتحصدها النفوس خزيا وعارا فى الدنيا والآخرة ، ولذلك أعقبه بقوله (ومن يعش عن ذكر الرحمن) يتعام و يعرض عنه بانهماكه فى المحسوسات واشتغاله باللذات (نقيض له شيطانا فهوله قرين) أى نسبب ونضم له شيطانا ونسلطه عليه . وذلك على مقتضى سنننا الكونية كما سلطنا الذباب على الأجسام القذرة وخلقنا الحيات والعقارب والحشرات فى المحال العفنة تلطيفا للهواء ورحمة بالناس والحيوان هكذا النفوس . فاذاقتلت الحيات أحدا ، أوأصاب الحيوان الذرىّ الذى لا يرى المسمى بالمكروبات أحدا ، أوعمّ الوباء من ذلك ، فمن مات فقد كان هكذا استعداده ، ومن عاش فانه يكون أقدرعلى الحياة لقوّة تحمله فلم يؤثر فيه الوباء ، هكذا هذه النفوس الموسوسة للضعفاء توقعهم فى الذنوب لاستعدادهم فينالون جزاءهم من عقاب الحكومات ، أواحتقارالناس ، أوالأمراض فى الدنيا فيكون ذلك عبرة لهم وزجرا لغيرهم ، وتكون نتيجة ذلك الرحمة ، و يشير لذلك قوله تعالى « يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن » . فالعذاب بالأمراض الفتاكة والموت والشياطين المضلة . كل ذلك إيقاظ من الله للانسان ، واياك أن تدخل فى هذا عذاب الكافر ، فوالله إن فيه سرّا يحرم افشاؤه تحريما قاطعا ، فاذا عرفته فلاتقله بل ليدفن معك لأن الأمم اليوم لاتستعد لفهمه ، واعلم أن هذا المقام هونتيجة العلوم كلها دينا وحكمة وتصوّفا فمن عرف الحقيقة فى هذا المقام فقد وصل لله ونال غاية الحكمة ، فاذا عرفت فالزم قال تعالى (وانهم) أى الشياطين (ليصدّونهم) ليمنعون العاشين (عن السبيل) عن سبيل الهدى (ويحسبون) أى العاشون (انهم مهتدون) لأنهم تلقوا من الشياطين مايلائم أمزجتهم ويوافق أخلاقهم وألفوه فلم ينكروه اه

الكلام على المقاصد من العاشر الى الثالث عشر

الى قوله : ومثلا للآخرين

يحسب كفار بنى آدم أنهم على هدى وقد أغواهم الشيطان (حتى اذا جاءنا) الكافر منهم (قال) لقرينه الشيطان (ياليت بينى و بينك بعد المشرقين) أى بعد المشرق والمغرب ففيه تغليب أحدهما ثم التثنية (فبئس القرين) أنت (ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم) أشركتم (أنكم فى العذاب مشتركون) أى لاينفعكم الاشتراك فى العذاب ولايخفف عنكم شيئا ، إن الكافر يتمنى هنا شدة البعد بينهما ، وجاء فى آية أخرى « ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجنّ والانس نجعلهما تحت أقدامنا الخ » فأجيبوا بأن الاشتراك فى العذاب لايخفف عنكم شيئا (أفأنت تسمع الصم أوتهدى العمى) فقومك كالصم البكم فلايقبلون الهداية ، فمن عجب أنك تقدرعلى هدايتهم ، وعطف على العمى قوله (ومن كان فى ضلال مبين) فى ضلال لايخفى ، فهؤلاء لايقبلون الهداية (فاما نذهبنّ بك) بأن نميتك قبل أن نعذبهم (فانا منهم منتقمون) بالقتل بعدك (أونرينك) فى حياتك (الذى وعدناهم) من العذاب (فانا عليهم مقتدرون) قادرون على ذلك متى شئنا عذبناهم وقد انتقم منهم يوم بدر ، وهذا فيه تسلية له ﷺ لأنه وعده الانتقام منهم على كل حال (فاستمسك بالذى أوحى اليك) من الآيات والشرائع (انك على صراط مستقيم) لاعوج فيه (وانه) أى القرآن (لذكر) لشرف عظيم (لك ولقومك وسوف تسألون) عن حقه وأداء شكره ومعنى هذا أن القرآن نزل بلغة العرب ودين الاسلام وعد الله بنشره فى الأرض وأبناء العرب هم العارفون باللغة ، فعلى هذا هم الملزمون بالقيام بنشر اللغة العربية ودراسة هذا الدين للأمم الاخرى ، فالأمة العربية متى قصرت فيما ألزمها الله به أذلها الله فى الدنيا وأدخل المقصرين منها النار يوم القيامة ، ولذلك لما قصرت فى واجبها انطمست معالمها ودخلت فى حوزة الأمم الاوروبية ، وعسى أن يقرأ هذا أبناء العرب

من

من اخواننا و يفهموا مركزهم فى الأرض أنهم هم المعلمون للامم ، فلينشروا هذا القرآن وليتعلموا هم لغات الأمم وليكتبوا المصاحف بالعربية ويكون على الهامش تفاسير بلغات مختلفة كالانجليزية والروسية والألمانية وهكذا حتى تعرف الأمم هذا الدين . هذه الآية توجب على أبناء مصر والشام واليمن والحجاز والعراق أن يكونوا ناشرى هذا الدين ، ولكن هم اليوم فى الجهالة تائهون ، وسيقوم مجدهم كرة أخرى وترجع أيام عزّهم ، واذا ورد فى حديث البخارى ومسلم أن الخلافة فى قريش ، وفى البخارى أيضا حديث « ان هذا الأمر فى قريش لايعاديهم أحد إلا أكبه الله تعالى على وجهه ما أقاموا الدين » وأيضا يقول بعض المفسرين « القوم هم العرب ، والقرآن لهم شرف »

اذا عرفت هذا فتأمل قوله ﷺ « ما أقاموا الدين » فكأن الخلافة جعلت لهم ليحافظوا على الدين فكأن المحافظة على الدين هى المقصودة من خلافتهم ، فالمحافظة أصل والخلافة فرع ، وهذا يشير لمعنى الآية (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا) أى واسأل أممهم وعلماء دينهم (أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) هل حكمنا بعبادة الأوثان ، والمراد تقرير أن جميع الأنبياء على التوحيد فليس ببدع ماجاء به محمد ﷺ حتى يعارض (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا الى فرعون وملئه فقال انى رسول رب العالمين) أتى بهذا القصص ذاكرا فيه مايناسب المقام من تفاخر فرعون بعظمة ملكه ، ومن اتهامه لموسى عليه السلام بالسحر كما فعل القوم بما هو مذكور فى هذه السورة إذ تمنوا أن تكون النبوّة لرجل من القريتين عظيم وجعلوا النبوّة سحرا (فلما جاءهم بآياتنا اذاهم منها يضحكون) يسخرون (وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها) من قرينتها (وأخذناهم بالعذاب) كنقص الثمرات وارسال الطوفان الخ (لعلهم يرجعون) عن الكفر (وقالوا ياأيها الساحر) سموه ساحرا أى عالما ماهرا باهرا انكارا للنبوة (ادع لنا ربك) فيكشف عنا العذاب (بما عهد عندك) أى بما أخبرتنا عن عهده اليك ، انا ان آمنا كشف عنا العذاب فاسأله أن يكشفه عنا (اننا لمهتدون) لمؤمنون ، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا (فلما كشفنا عنهم العذاب اذاهم ينكثون) ينقضون عهدهم (ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى) أنهار النيل تجرى من تحت قصرى و بين يدىّ فى جنانى (أم أنا) بل أأنا (خير من هذا الذى هو مهين) ضعيف حقير فكيف تكون له رئاسة مع المهانة (ولايكاد يبين) الكلام لما به من الرقة فكيف يصلح للرئاسة (فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب) جمع أسوار ، وقرئ أساورة جمع أسورة ، وقرئ أساوير جمع أسوار ، أى هلا ألقى مقاليد الملك اليه . ذلك انهم كانوا اذا أرادوا تسويد رجل سوّروه بسوار وطوّقوه بطوق من ذهب (أوجاء معه الملائكة مقترنين) مقرونين به يعينونه أو يصدّقونه (فاستخف قومه) أى فاستخف أحلامهم بما يبديه من عظمة الملك والرئاسة وجعلها مناط العلم . ولوكان هناك نبوّة لكان هو أولى بها كما قال أهل مكة فى رجل من القريتين (فأطاعوه) فيما أمرهم به (انهم كانوا قوما فاسقين) إذ أطاعوا الفاسق . هكذا أنتم يا أهل مكة اذا اتبعتم من يجعل النبوّة موقوفة على العظمة والجاه وتصبحون كقوم فرعون إذ انتقمنا منهم لما أغضبونا (فلما آسفونا) أغضبونا بالعناد (انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين) فى اليم (فجعلناهم سلفا) قدوة لمن بعدهم من الكفار يقتدون بهم فى استحقاق مثل عقابهم (ومثلا للآخرين) حديثا عجيب الشأن سائرا سير المثل يضرب بهم الأمثال فيقول الناس مثلكم مثل قوم فرعون



ذكر المقاصد من ١٤ الى ١٨ وهى الأخيرة

وهى شؤم الحرص على الجدال، وعدم جدواه فى إبطال الحقائق . وذكر عيسى عليه السلام واختلاف أتباعه ، وذكر معاداة قرناء السوء يوم القيامة وعذابهم وسعادة الصالحين . وذكر تنزيه الله تعالى . ووصفه بسعة الملك والقدرة والحكمة وشهادة الفطرة بذلك . وبالاختصار وصفه تعالى بصفات الجلال والاكرام . وذكر سعة الصدر والصفح والمسالمة وانها خير الأخلاق

اعلم أن رسول الله ﷺ لما قرأ على قريش « انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » غضبوا فقال ابن الزبعرى : يامحمد أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال عليه السلام : هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم . فقال : ألست تزعم أن عيسى ابن مريم نبيّ وتثنى عليه وعلى أمه خيرا . وقد علمت أن النصارى يعبدونهما وعزير يعبد والملائكة يعبدون فان كان هؤلاء فى النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ففرحوا وضحكوا وسكت النبيّ ﷺ فأنزل الله تعالى « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون » ونزلت هذه الآية (ولما ضرب ابن مريم مثلا) أى ولما ضرب ابن الزبعرى عيسى ابن مريم مثلا لآلهتهم وجادل رسول الله ﷺ بعبادة النصارى إياه (اذا قومك) قريش (منه) من هذا المثل (يصدّون) ترتفع لهم جلبة وضجيج فرحا وضحكا بما سمعوا منه من اسكات النبيّ ﷺ بجدله (وقالوا أآلهتنا خيرأم هو) أآلهتنا خيرعندك أم عيسى فان كان فى النار فلتكن آلهتنا معه ومع عزير والملائكة (ماضربوه لك إلا جدلا) أى ماذكروا لك عيسى ابن مريم إلا للجدل والخصومة (بل هم قوم خصمون) جدلون بالباطل ، ولما ذكر عيسى وانه معبود عند النصارى أخذ يبين حاله فقال (إن هو) أى ان عيسى (إلا عبد أنعمنا عليه) بالنبوّة (وجعلناه مثلا) وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر (لبنى اسرائيل) فليس معبودا كما يزعم قوم من النصارى ، وانما العبرة فيه انه ولد من غير أب فيفتح للناس باب التفكر والتذكر والفهم والعلم وليست مخالفة العادة فى شيء موجبة لعبادته بل هى مذكرة بعبادة الخالق الحكيم (ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون) على أننا لو نشاء لجعلنا ذرّيتكم ملائكة يخلفونكم فى الأرض كما يخلفكم أولادكم كما خلقنا عيسى من أنثى بلا ذكر وجعلناه رجلا أى لو نشاء لجعلنا فى الأرض عجبا كأمر عيسى بحيث يلد الرجل ملكا فيخلفه ، فباب العجائب والنظم المدهشة لاحدّ له عندنا ، فكم من نواميس خافية عليكم بيدنا تصريفها (وانه) أى القرآن (لعلم للساعة) لأن فيه إعلاما بها ودلالة عليها (فلاتمترنّ بها) فلاتشكنّ فيها (واتبعون) هذا قول الرسول ﷺ أمر أن يقوله (هذا) الذى أدعوكم اليه (صراط مستقيم) لايضلّ سالكه (ولايصدّنكم الشيطان) عن المتابعة (إنه لكم عدوّ مبين) ثابت عداوته لأنه وسوس لأبيكم ولكم (ولما جاء عيسى بالبينات) بالمعجزات الواضحات (قال قد جئتكم بالحكمة) بالانجيل والشريعة (ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه) من أمور الدين وحدها (فاتقوا الله وأطيعون) فيما أبلغه عنه (إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه) وهذا ملخص جميع الديانات اعتقاد الوحدانية والتعبد بالشرائع أى العلم والعمل ، انظره فى سورة ﴿ آل عمران ﴾ فهناك ملخص الديانات فى الأرض مصداقا لهذه الآية (هذا صراط مستقيم) هو من كلام عيسى عليه السلام ، فالصراط المستقيم علم بحقائق ، وعمل بشرائع (فاختلف الأحزاب) الفرق المتحزبة (من بينهم) من بين النصارى (فويل للذين ظلموا) من المتحزبين (من عذاب يوم أليم) يوم القيامة (هل ينظرون إلا الساعة) والمعنى هل ينتظرون إلا الساعة (أن تأتيهم بغتة) فجأة والمقصود انها تأتيهم لامحالة (وهم لايشعرون) أى غافلون عنها لاشتغالهم بامور الدنيا وانكارهم لها (الأخلاء) الأحباء (يومئذ بعضهم

لبعض

لبعض عدوّ) فالخلة التى مبناها الباطل تبطل متى ظهرت حقيقتها ، وهؤلاء يظهر باطلهم يوم القيامة (إلا المتقين) لأن المودّة أسست على حقيقة لاتفنى ، واذن ينادى الله المؤمنين المتحابين فى جلاله فيقول (ياعباد لاخوف عليكم اليوم) مما تلاقونه بعد الموت كما يخاف غيركم (ولاأنتم تحزنون) على ماخلفتم لاعتقادكم انى وكيل حكيم أتصرّف فى ملكى بالحكمة والعدل ، ولكن الحزن لغيركم ، ثم وصف العباد بقوله (الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين) أى مخلصين (ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون) تسرّون وتنعمون (يطاف عليهم بصحاف من ذهب) جمع صحفة وهى القصعة الواسعة (وأكواب) جمع كوب وهو كوز لاعروة له (وفيها) فى الجنة (ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون) بخلاف النعيم الذى هو زائل وهو نعيم الدنيا (وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون) شبهت الجنة فى بقائها على أهلها بالميراث الباقى على الورثة ، وتلك اشارة الى الجنة المذكورة والجنة خبر وقوله (لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون) فيه إيماء الى انهم يأكلون بعض الثمار والباقى مزين لشجره . وفى الحديث «لاينزع أحد فى الجنة من ثمرها إلا نبت مكانها مثلها» (إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون) خبر بعد خبر (لايفتر عنهم) لايخفف ولاينقص (وهم فيه) فى العذاب (مبلسون) آيسون من الفرج متحيرون (وماظلمناهم) بالعذاب لأننا نضع كل مخلوق فى مرتبته (ولكن كانوا هم الظالمين) هم ضمير فصل . يقول : إن العذاب راجع الى الاستعداد الفطرى لنقص فى قابليتهم ولم يخرج ذلك عن ترتيب الدرجات على مقتضى الاستعداد ، وهذا ليس من الظلم فى شىء . فالفاعل يعطى والقابل ليس بأهل لما يفاض عليه (ونادوا) لما يئسوا من فتور العذاب (يامالك) وهو خازن النار . قيل لابن عباس : ان ابن مسعود قرأ « يامال » فقال : ما أشغل أهل النار عن الترخيم (ليقض علينا ربك) ليمتنا . يقال قضى عليه أماته أى سل ربك أن يقضى علينا (قال إنكم ماكثون) لابثون فى العذاب لاتتلخصون منه بموت ولافتور (لقد جئناكم بالحق) أى لقد جئناكم معاشر الملائكة بالحق حينما أوحى الله الى الأنبياء بواسطتنا (ولكن أكثركم للحق كارهون) لاتقبلونه وتنفرون منه ، لأن الحق يوجب التعب والباطل يوجب الكسل (أم أبرموا أمرا) أى بل أأحكم مشركو مكة أمرا من كيدهم ومكرهم بمحمد ﷺ (فانا مبرمون) كيدنا كما أبرموا كيدهم ، وكانوا يتنادون ويتناجون فى أمر رسول الله ﷺ فى دار الندوة (أم يحسبون أنا لانسمع سرّهم) حديث أنفسهم (ونجواهم) مايتحدّثون فيما بينهم ويخفونه عن غيرهم (بلى) نسمعهما (ورسلنا) والحفظة مع ذلك (لديهم) ملازمة لهم (يكتبون) ذلك (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أوّل العابدين) منكم أى لو صحّ وثبت ببرهان صحيح توردونه وحجة واضحة تدلون بها أن للرحمن ولدا لكنت أسبقكم الى طاعته كما تعظمون أنتم أبناء ملوككم فانى أوّل العابدين وهذا وارد على سبيل المبالغة فى نفى الولد ، يقول : واذا كنت أنا لم أعترف بولد بدليل انى لم أعبده مع إنى أقرب الناس الى الله ، فالولد منفى حتما أى فانتفاء الولد مرتب على انتفاء عبادته ضرورة انتفاء الملزوم بانتفاء لازمه ثم نزّه نفسه فقال (سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون) أى عما يقولون من كونه ذا ولد . ألاترى أن الكواكب والشموس والأحجار والمعادن كلها لاتلد المثل كما يلد الانسان والحيوان . وذلك لأن هذه العناصر المركبة منها تلك العوالم موضوعة للتحليل والتركيب فهى جعلت أصولا للأحياء تبرأت عما يتصف به الحيوان من توليد المثل ، فالحجر لايلد حجرا ، والأرض لاتلد أرضا مثلها ، وكذا السماء والهواء والماء ، فاذا كانت هذه التى جعلت أصول الأشياء تبرأت عن الولد فكيف يلد مبدعها ! (فذرهم يخوضوا) فى باطلهم (ويلعبوا) فى دنياهم (حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون) وهو القيامة (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله) أى وهو الذى هو فى السماء معبود وفى الأرض معبود لاإله إلا هو وانما قلنا هو فى السماء لأجل صناعة الاعراب ، وقلنا معبود بدل إله ليكون مشتقا يتعلق الظرف به (وهو الحكيم)

فى إبداعه وصنعه فى السموات والأرض (العليم) بجميع النتائج والمقدمات ، والأسباب والمسببات ، بحيث تخللت الحكمة التى قرنت بالعلم كل رطب ويابس ، وجليل وحقير، وهذا هو الذى يبرهن أنه المستحق للعبادة فى السموات وفى الأرض لأن من يشاهد اتقان الحكمة فيهما يجد نظاما واحدا وحكمة متسقة . هذا معنى الآية . ولما كان الناظر فى علم الطبيعة والفلك وقد درس علوم الرياضيات ونظر فى هذا النظام يدهش لما يجد من العجائب والاتقان والصنع البديع ، ويحار لبه من تلك الحكم التى لانهاية لها فى أصغره كما يراه فى جلائل المخلوقات أردفه بقوله (وتبارك الذى له ملك السموات والأرض ومابينهما) والتعبير بتبارك لايقوم مقامه تعبير فى اللغة حتى يؤدى مايشور فى نفوس الحكماء والعلماء من مدهشات هذه الدنيا وغرائبها بحيث يرى العاقل فى أدق الأشياء بدائع تحير العقول ، مثلا ترى الملح الذى نأكله مم ركب ؟ ركب من عنصرين أحدهما عبارة عن مادة اذا وضعت فى الماء التهب الماء فصار نارا ، والعنصر الآخر سم مهلك قاتل ، فياعجبا ! عنصران : أحدهما نار والآخر سم ، لانعيش فى الدنيا إلا بتعاطى المركب منهما صباحا ومساء ، ولو نظر الحكيم الدارس علم الحيوان فى قطعة صغيرة من جناح الناموسة لاطلع على تفاصيل ودقائق وأوردة وشرايين ولرأى فى إطارها مايشبه الريش محيطا به ، وهكذا قد كشف العلماء بما نظروا بالمناظير المعظمة غرائب ينطق عندها العاقل قائلا « وتبارك الذى له ملك السموات والأرض ومابينهما »

حيوان ذرّى يدير دولابا

قد اطلعت بواسطة المنظار المعظم عند الاستاذ شوقى بك بكير المدرّس بمدرسة الزراعة بحلوان على بركة ماء يبلغ عمقها فى النظر عشرة أمتار وفيها حيوانات كثيرة أصف واحدا منها بأنه يحمل عجلة وهو يديرها فى لجج الماء الغزير لتحصيل رزقه ، ولعلك تقول : وماهذه البركة ؟ أقول لك انه قد بل الزجاجة برطوبة من بركة هناك عنده ، فهذه الرطوبة لما وضعت تحت المنظار ظهرت هكذا وفيها تلك الحيوانات والنباتات والآلة الدائرة لتحصيل الرزق مع ان هذا الحيوان ودولابه الدائر لو اجتمع هو وآلاف مثله لم تره أعيننا فضلا عن عجلته أودولابه . هذه المعانى وأمثالها هى التى يحملها قوله تعالى « وتبارك الذى له ملك السموات والأرض ومابينهما » فهذا مما بينهما ، واعلم أن العقول الانسانية تبقى راكدة حتى تحركها أمثال تلك العلوم وانهاض القلوب على قسمين : قسم بما قلناه من أمثال تلك العلوم اذا قرئ على الوجه الذى قرّرناه . وقسم بظهور أصحاب العقول الكبيرة الذين يحملون الشعوب على انتهاج خطة الكمال ، وقد آن أوان ظهور الأمرين معا فى أمة الاسلام فسيظهر أهل العقول الكبيرة ومعهم تلك الحكم العالية ، وهذا هو الذى يديم الأمم ورقيها ، ولما كانت هذه العجائب لايعلمها إلا الله وحده ، والناس لايعلمون إلاقليلا مع انها بين أيديهم كانت الساعة أولى أن يجهلوها فأعقبه بما يدل على ذلك فقال (وعنده علم الساعة) التى تقوم القيامة فيها (واليه ترجعون) للجزاء ، ولما كان ذلك اليوم يكون فيه الحساب والشفاعة قال (ولايملك الذين يدعون من دونه الشفاعة) من معبوداتهم كالأصنام والملائكة والمسيح (إلا من شهد بالحق) بكلمة التوحيد (وهم يعلمون) أن الله ربهم حقا ويعتقدون ذلك ، فهؤلاء هم الذين يملكون الشفاعة كالملائكة والمسيح لأن الشفاعة على مقدار وصول الآثار العلمية والدينية وكل من وصله علم المسيح قبل النسخ وهكذا المؤمنون من جميع الأمم الذين لم تنسخ دياناتهم يشفع لهم أنبياؤهم وعلماؤهم وشهداؤهم كما فى الحديث والملائكة من باب أولى لأنهم الواسطة (ولئن سألتهم) أى المشركين (من خلقهم ليقولنّ الله) لا الأصنام (فأنى يؤفكون) فكيف أومن أين يصرفون عن التوحيد وهذا اقرارهم ، ثم عطف لفظ قيله من (وقيله يارب إن هؤلاء قوم لايؤمنون) على الساعة أى وعند الله علم الساعة وعلم قول الرسول محمد ﷺ « يارب الخ » وقرئ مجرورا ومنه وبا وهو

فى

فى الثانى عطف على محل الساعة لأن اضافة العلم للساعة من اضافة المصدر لمفعوله فحلها نصب ، فلما شكا ﷺ الى ربه عدم إيمانهم أجابه الله قائلا (فاصفح عنهم) فأعرض عن دعوتهم وأنت آيس من إيمانهم (وقل) لهم (سلام) أى متاركة فلاتدع عليهم بالعذاب ولاتدعهم للدين (فسوف يعلمون) عاقبة كفرهم وتنصر عليهم . انتهى التفسير اللفظى

فى هذه السورة سبع لطائف

(١) فى قوله تعالى ـ إنا جعلناه قرآنا عربيا ـ مع قوله ـ وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ـ وقوله ـ وانه فى أم الكتاب لدينا ـ الخ

(٢) وفى قوله تعالى ـ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ـ الى قوله ـ وانا الى ربنا لمنقلبون ـ مع قوله ـ سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون ـ الى قوله ـ فأنى يؤفكون ـ

(٣) وفى قوله ـ بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة ـ الخ

(٤) وفى قوله ـ قالوا هذا سحر وإنا به كافرون ـ مع قوله ـ وقالوا ياأيها الساحر ادع لنا ربك ـ الخ وفى قوله ـ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ـ مع قوله ـ فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب ـ وقوله ـ أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلاتبصرون ـ

(٥) وفى قوله ـ حتى اذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين ـ مع قوله ـ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ إلا المتقين ـ

(٦) وفى قوله ـ وانه لعلم للساعة فلاتمترن بها ـ

(٧) وفى قوله ـ فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا ـ

اللطيفة الأولى والثانية

قد علمت فيما مضى من السور أن « حم » تشير فى هذه السور الى الحمد ، وأن الحمد هومناط العلوم كلها والحكمة ، فأوّل هذه الأمة الاسلامية حمد ، وآخرها حمد ، وفى صلاتها حمد ، وفى أكلها حمد ، وفى لبسها حمد ، وفى سفرها حمد ، وفى جنتها حمد ، يقولون : « الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن » وأيضا على لسان الملائكة حمد لأنهم يسبحون بحمد ربهم والحمد يكون على النعم ، والنعم لايحمد عليها إلا اذا عرفت ، فرجع الأمر الى العلوم وعجائب الصنع والحكمة فى السموات والأرض . أما علوم اللغة من النحو والصرف والمعانى وأمثالها فما هى إلا آلات . وأما علوم الفقه ومقدماتها كالاصول ومايلحقها من علوم الجدل فانما هى للقضاء وحفظ نظام الدولة الظاهرى . أما امتلاء العقول بالحكمة واظهار رجال عظماء فى أمة الاسلام وحفظ البلاد من تألب الأمم عليها ورفدها بالخيرات والثمرات والنعم ، فذلك لن يكون إلابعلم السموات والأرض وبعلم الكيمياء والنبات والحيوان والتشريح وطبقات الأرض والهواء والبحار . ألاتراه ابتدأ السورة قائلا « حم » مشيرا للحمد ، ثم أعقبه بذكر القرآن العربى لأنه الدليل على مايجب على الناس ، ثم أبان منزلته فى علوّه عنده تعالى وحكمته فهى أعلى المنزلة وهو موسوم بالحكمة ، ومن الحكمة ما ذكره فى اللطيفة الثانية من شهادة الفطر بأن الله خالق السموات والأرض صاحب العزّة والعلم الذى مهد الأرض وجعل فيها السبل وأنزل الماء من السماء فأخرج به النبات والأنعام وجعل السفن وأيضا ذكر انه معبود فى السموات والأرض ورب السموات والأرض ورب العرش . كل ذلك مناط الحمد المرموز له بلفظ « حم » فالحمد لله رب العالمين

والتربية هنا أضيفت الى السموات والأرض وأضيفت الى العرش ، فيرجع مدار اسعاد أمة الاسلام الى معرفة العوالم كلها وتربية الله لها ، وهذا هوالذى بيناه فى ﴿سورة الفاتحة﴾ فارجع اليه فانها أشارت لمجامع العلوم ، وكأن سور آل حم جاءت مفصلات للحمد المذكور فى الفاتحة ، وقد جعلت آل حم رياض القرآن ومعلوم عند أكابر الحكماء من أمتنا الاسلامية أن رياض الجنة العلوم ، فالفاتحة بها تفتح أبواب الجنات وهى العلوم عند الحكماء فى الاسلام وتفتح أبواب الجنات الحسية عند العامة ، فليس يعقل جنات العلوم إلا الذين أدركوها فى هذه الدنيا ، فهؤلاء يتمنون جنات العلوم ولاتهمهم الجنات المحسوسة ، والعامة وصغار العلماء لاينظرون إلا الى الجنة المحسوسة ، ففى هذه السورة أشير الى مجامع الحمد بالآيات التى ذكر فيها السموات والأرض وأضيف الرب الى العرش تارة واليهما تارة أخرى ، وكذلك شهدت الفطر بأن الله خالق ذلك كله ، وهذا القول منزل للأمة الاسلامية كلها عربيها وعجميها ، انما الذى يدهش العقول ويحير الألباب أن أبناء العرب اليوم مسؤلون أمام الله وهم نائمون

يا أبناء العرب : يامن أنتم اليوم فى شمال افريقيا فى تونس والجزائر ومراكش ومصر والشام والعراق واليمن والحجاز وغيرها ، أأنتم نيام ، ألاتنظرون ، ألاتفكرون ، اسمعوا كلام ربكم ، يقول : « إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » ووصف هذا القرآن بأنه علىّ المنزلة ، حكيم النظم والمعنى ، ثم فى نفس هذه السورة قال : « وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » وهذا أمر عظيم ، فأبناء العرب اليوم مسؤلون عن هذا القرآن وحقه ونشره بين الأمم ، انكم يا أبناء العرب لاتقدرون أن تنشروا هذا القرآن إلا اذا كنتم أنتم للعلوم دارسين ، وللحكمة عاقلين ، حتى اذا نشرتموها نشرتم مايشير اليه من العلوم ، وليس معنى هذا أنكم تدرسون كل علم وكل فنّ . كلا . بل أقول ان من اطلع على ماكتبته فى هذا التفسير وقرأ بعضه بنظام فى جميع القرآن فقد أدرك كيف يدعو الى القرآن ، إن الله يا أبناء العرب سائلكم فشمروا عن ساعد الجدّ ، يا أبناء العرب نمتم عن هذا القرآن بما كان لكم من الصولة والدولة وقام بنصره فريق من أمة العجم جزاهم الله خيرا ، ولكن أنتم أصل اللغة ، فاذا نشرتم القرآن وكنتم عالمين بالحكمة انقادت لكم الأمم انقيادا أدبيا والأمم اليوم لاتعرف إلا الحجة ، فلتكن لكم جمعيات منظمة تدرس نظام هذه الدنيا ومقاصد القرآن مع الالمام ببعض اللغات

يا أبناء العرب : إن أهل أوروبا يريدون منكم نشر دينكم . يا أبناء العرب : أقول لكم ذلك عن علم فانى سمعت (اللورد هدلى) الانجليزى لما حضر الى الجامع الأزهر وهو يخطب يقول : « إن ثلاثة أرباع الامة الانجليزية اليوم يريدون أن يسلموا ، ومامنعهم إلا أنهم لايجدون قوّة علمية مع هذا اللورد ومن معه تقوم بنشر حقائق دين الاسلام ويكونون قوّة يحتج بها من أراد اعتناق الدين أمام آبائه واخوته وأصحابه » فأينما ولى الاوروبى وجهه لايجد عربيا واحدا ينصر هذا الدين ويقيم الحجة ويعلم الدين هناك

يا أبناء العرب : هذا زمان مجدكم . يا أبناء العرب : ان ربكم يقول « وسوف تسألون » . أما نبينا ﷺ الآن فليس بمسؤل لأنه بلغ ونحن الآن المسؤلون ، نسأل بين يدى الله تعالى ، ان الأمم سئمت تلك الديانات الباردة والتى فترت ، ودينكم هو الذى يليق بالعصر الحاضر

فاذا أعرضتم عن نشره فاعلموا أن الله لكم بالمرصاد ، فالنار تحت الأرجل فى باطن الأرض ، والنار قد ظهرت فى الأعمال الحربية فى أوروبا ، وأصبحت الأمم المقصرة فى العلوم الواجبات تحت رحمة أصحاب النار الذين يرسلونها من طياراتهم ، فهبوا من رقدتكم واقرءوا العلوم كما أوضحته فى هذا التفسير . ثم لتكونوا شهداء على الناس ، ولتكونوا حزب الله لتكونوا ناصرى العلم والحكمة ، لتقوموا بتمدين النوع الانسانى بعد أن ترتقوا ، ليس فى الأرض اليوم شعب يقدر أن يقوم بهذا غير العرب ، العرب قاموا بدورهم أيام

القرون الأولى ولكن دورهم الحالى أهمّ وأعظم ، دورهم الحالى قراءة العلوم كلها ونشر القرآن بحكمته هو الذى يفهم الأمم أن العلوم المنتشرة فى الدنيا يطلبها القرآن

قولوا يا أبناء العرب للامم : هذا القرآن نزل بلغتنا ونحن نحفظه وتركنا العلوم وربنا الذى هو ربكم ورب كل شيء ألهمكم أن تستخرجوا العلوم من كنوزها فى الأرض وفى السموات ، فاذن هو أنزل الينا لفظه وألهمكم ما يتضمنه من المعانى ، إن ربنا عدل حتى لا نقول نحن سادات العالم بالعلم والدين ، وحتى لا تقولوا أنتم نحن سادات العالم بالأمرين ، فأعطانا دينا حقا ، وأعطاكم سرّه ، فعندنا لفظه وعندكم معناه ، ونحن اليوم نقرؤه عليكم ونبين مواضع علومكم منه وهى تتخلل كل سورة وكل آية ، بل الحروف الهجائية فى أوائله تشير الى مجامع علومكم ، فلسنا نفتخر عليكم ولستم تفتخرون علينا ، فاذا قلنا هو ديننا نزل بلساننا تقولون أنتم ولكن الله أظهر أسراره على أيدينا وقوله تعالى « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » يشير الى الآيات التى ظهرت على أيدينا . وقوله « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » كذلك ، فاذن أنتم حملتم لفظه وبعض معانيه ، ونحن قرأنا ما هو مقصوده ومغزاه ، والله هو الذى أحوج أهل الشرق لأهل الغرب كما أحوج أهل الغرب لأهل الشرق ، فهؤلاء بدينهم وهؤلاء بعلمهم ، وهذا مما يشير له الحديث « ليبلغ الشاهد منكم الغائب فربّ مبلغ أوعى من سامع » فنحن المبلغون وأنتم المبلغون ، والله أراد أن نتعارف وبمثل هذا يتمّ التعارف ، فنحن معاشر الاوروباويين أخذ آباؤنا العلم عن آبائكم ، وآباؤكم أخذوا العلم عن أمم أخرى ونحن دخلنا العلوم من أبوابها وأظهرناها فقرأتموها ، فلنا الفضل فى حفظها وارتقائها ولكم الفضل فى حفظها سابقا وفى حفظ الدين الاسلامى سابقا ولاحقا . هذا هو الزمان الذى يقال فيه هذه المحاورات والله هو الولىّ الحميد

واعلم أن هذا الاسلوب من الدعوة هو الذى سينتشر فى مستقبل الزمان وهو بعض الذى يقصد من قوله تعالى « ليظهره على الدين كله » وهذا ظهور حجة وبيان ، وقد ظهر كثير من ذلك أيام الحروب الصليبية ، فان أهل أوروبا كانوا كالوحوش جهلة قبل التاريخ ، ثم أخذوا فى الرقىّ شيئا فشيئا ، ولما جاءت الحروب الصليبية خلعوا لباس الجهالة ولبسوا لباس الحكمة ، وأذكر لك من ذلك :

(١) إن البابا كان معتبرا عندهم كالقطب عند المسلمين ، وكان له الملك السياسى فى الأرض التى تحت سلطته ، وقدملك أهل إيطاليا سنة ٧٢٦ ميلادية الموافقة سنة ١٠٨ هجرية البابا عليهم فجعلوه رئيس الجمهورية ، ثم توسع أتباعه فى ذلك قرنا بعد قرن حتى صاروا يولون من يشاءون ويعزلون من يشاءون من ملوك أوروبا

(٢) وكان لكل ملك تاج ولهم ثلاثة تيجان

(٣) وكانوا اذا ركبوا يمسك لهم الركاب ملوكهم

(٤) واذا أمروا بمحاربة أمة لا يخالفهم أحد

(٥) ويحرقون من خالفهم بالنار وهو حىّ

(٦) وكان البابا مرة ألزم أمبراطور ألمانيا أن يقف حافيا ثلاثة أيام فى فصل الشتاء أمام باب قصره ليطلب منه الغفران

(٧) ورفس البابا مرة برجله تاج ملك جرمانيا حيث كان جاثيا أمامه يطلب الغفران

وبهذه الأفعال أخذت سطوة البابا تنحط شيئا فشيئا الى سنة ١٢٨٨ هجرية فدخل الايطاليون عاصمة مملكة البابا وأخذوها منه وأبقوه رئيسا على الكاثوليك ومقرّه فى الكنيسة الرومية . والى هنا تمّ الكلام على اللطيفة الأولى والثانية والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون

هذه الآية وأمثالها كثير في القرآن قد تقدم القول عليها في غيرما موضع فان النوع الانساني لكونه في هذه الأرض التي تعتبرأنها في الطبقة المتأخرة من العوالم ليس كاملا كل الكمال فهو في عالم متأخر يعاشر الحيوان الذي لارأى له بل يسير بما فطره الله عليه ، فأدنى الانسان قريب من الحيوان ، قلّ فيه المفكرون الذين يجتازون تلك الأسوار المنيعة ، والحصون الشاهقة ، والأشواك الشائكة ، والطرق الوعرة ، والبحار الواسعة ، والجبال الشاهقة الفاصلة بينه وبين التفكير ، إن الناس خلقوا بين أوهام وآراء تقف أمامهم سدا وحائلا أشد مما ذكرناه ، فاذا ما أنارالله بصائر الناس هدموا تلك الحصون ، وأزالوا تلك الجبال ، وكسروا تلك الحوائل ، وعبروا الأنهار ، ووصلوا الى الحقائق سالمين ، وكثيرمنهم يهلكون في أثناء الطريق لعدم قدرتهم على تلك المشاق العظيمة

هذا كله من التقليد الذي ملك مشاعر هذا الانسان الذي يعيش بالتقليد ويموت على التقليد بل جميع الديانات تقليد ، فالمسلم والوثنيّ والنصراني كلهم مقلدون ، متبعون لامبتدعون ، والله أظهر قهره للانسان بهذه الأحوال ليفكر المفكرون ، ويعتبر المعتبرون ، ويخرج في كل أمة مجتهدون عاقلون ، وقوله تعالى في هذا المقام « قال أولوجئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم » فتح باب للنظر والعلم ، ان الأمة الاسلامية في الأعصر الأخيرة غفلت عن هذا النور ، فهم أمروا بهذه الآية أن يتبعوا ماهوأهدى وماهوأحسن كما في آية أخرى « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » فنحن مأمورون باتباع الأحسن وباتباع الأهدى في كل زمان ، هذه فتح باب للنظرفي كل صناعة وكل علم ، فلندرس طرق البحاروالهواء والحرب والسلم والسياسة ونتبع ماهوأسلم لنا . هذا هوالدين . وهذا هوالقرآن . وماسواه ضلال . تمّ الكلام على اللطيفة الثالثة

اللطيفة الرابعة

في قوله تعالى « قالوا هذا سحر وانا به كافرون » مع قوله « وقالوا يا أيه الساحر ادع لنا ربك » وقوله « لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » مع قوله « فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب الخ »

الناظر في هذه السورة يرى أمر القصص واضحا فان نبأ موسى عليه السلام فيه مسائل كثيرة نذكر هنا مايناسب المقام . انه تعالى ذكر قول مشركي مكة هذا سحر ، وأتى من قصص موسى عليه السلام بما يناسبه فقال « وقالوا يا أيها الساحر » . وأيضا هزم الله فرعون ونصر موسى ، فهكذا محمد ﷺ يكون مثله وقد تمّ ذلك فانهم قالوا ساحر كما قال قوم فرعون لموسى ، ثم نصر النبي ﷺ كما نصر موسى . وأيضا قال مشركو مكة : إن الأولى بالنبوّة الرجل العظيم في المال والجاه ، فهكذا قال فرعون « أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتي » وقال أيضا « فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب » الخ أي ان النبوّة انما تكون لمن أعطى الملك وعزّة الحياة الدنيا ، وكانت نتيجة ذلك أن نصر موسى هكذا يامحمد سيكون شأنك وقد تمّ ذلك ، واعلم أن هذا المقام يفتح لك باب التفكر في قصص القرآن . ويدلنا أن هذا القصص غير مقصود لذاته فيؤتى منه بالشواهد التي تكون تسلية للنبي وللمؤمنين وحكمة ، وهذا يدلنا أن التواريخ ليست مقصودة لذاتها بل يراد بها الحكمة والعلم وانتهاج الخطة المثلى . فلنرجع الى قصص القرآن ولنفكر في المقصود منه لافي أصل القصة وحقائقها فان ذلك ليس مقامه بل مقامه الاعتبار والحكمة والنتائج وهذا من غرائب الحكمة والعلم

فالحكمة

فالحكمة فى ذلك أن لايدرس التاريخ إلا للنتائج ولايترك سهلا ، بل تنظم دروسه ، وتتخذ نتائجه منارا تهتدى به الأمم الاسلامية ، فليقرأ المسلمون تاريخهم ، وليأتوا بمقاصده الحكمية ، والله حكيم عليم . انتهت اللطيفة الرابعة

اللطيفة الخامسة

فى قوله تعالى « حتى اذا جاءنا قال ياليت بينى و بينك بعد المشرقين فبئس القرين » وقوله « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ إلا المتقين »

فى هذه الآيات أصول المحبات والعداوات ، إن المحبة لاتكون إلا بأسباب ، ولامحبة بلاسبب ، فمن قال « أنا أحب فلانا لله » ظانا انه لاسبب له فهو جاهل ، بل الحب حبان : حب فى الله ، وحب فى غيرالله . فأما الحب الذى هو لله فهو المبنى على العلم والطاعات والحكمة ، ولذلك ترى الذين استووا فى أخلاق واحدة وعلوم متحدة وعقائد صادقة تكون بينهم المودّة والمحبة على مقدار تكامل هذه الصفات فيهم ، وكلما تباعدت الصفات تقاصرت المحبة حتى اذا ماتنافرت أغلبها حصل التنافر العظيم ، فمن كانت مودّاتهم ترجع الى الطاعات فحبهم فى الله ، ومن كانت مودّاتهم على الشرور كالقتلة والفسقة فهى لغيرالله ، ومستحيل أن تكون محبة بلاسبب . فاذا قال امرؤ أنا أحبك لله وظنّ أنه لاسبب له فهو مخطئ ، وعلى ذلك اذا أحب الانسان أباه وأستاذه وتلميذه والصانع الذى صنع له حذاءه فكل هذا الحب فى الله لأن الأسباب التى أوجبت الحب لامعصية فيها لأنها إما مباحة ، وإما واجبة ، أومندوبة

نتائج تلك المحبات

وتكون نتائج تلك المحبات بقاء ما كان أصله الطاعة وانحلال ما كان أصله المعصية ، و بيانه أنك ترى القتلة والفسقة والذين يشربون الخمور وأمثالهم يجتمعون ويتحابون ، فاذا وقفوا أمام القضاء أقرّ كل منهم على صاحبه بقتل أو بسرقة ، فذهبت تلك المودّات ، وضاعت تلك الصداقات ، فهذا الذى نراه فى الدنيا هو بعينه مايرى يوم القيامة و بعد الموت ، فان من أضلّ جاهل يعرف بعد الموت أن ضلاله من اضلال قرينه فيكرهه يوم لاينفع ذلك ولاالندم على ماحصل . فأما المتقون الذين كانوا على الصلاح وعلم الحقائق فانهم بعد الموت لم يروا ماينافض أسباب مودّتهم ومحبتهم ، فتزيد الألفة الجامعة كما تهدّمت الألفة الفاسدة . هذا معنى قوله تعالى « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ إلا المتقين » انتهت اللطيفة الخامسة

اللطيفة السادسة

فى قوله تعالى : وانه لعلم للساعة

تقدم أنك قرأت أن الضمير يرجع للقرآن لأنه مشتمل على بيانها فهو مبين لأمر الساعة ، وهذا الرأى على غيرما قال به جمهور المفسرين فانهم قالوا إن الضمير يرجع لعيسى عليه السلام ، وفى هذا الاحتمال وجهان : الأوّل أن عيسى عليه السلام ينزل فى آخر الزمان ونزوله يعلم به قرب الساعة ، وقرئ علم كقمر أى علامة على قرب الساعة . الثانى : ان إحياءه الموتى باذن الله دليل على أن الله قادر أن يحيى الموتى يوم القيامة . فههنا يكون الوجه الأوّل والوجه الأخير لادليل فيهما على نزول عيسى آخر الزمان . والوجه الثانى هو الذى يدل . ولذلك ترى التفتازانى و بعض العلماء لم يجعلوا فى الآية دليلا على نزول عيسى عليه السلام .

اذا عرفت ماذكره العلماء فى القرآن فهل لك أن تسمع الأحاديث الواردة فى الصحيحين فى أمر عيسى عليه السلام

(١) فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ليوشكنّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عادلا ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لايقبله أحد »

وفى رواية أبى داود . قال : « ليس بينى وبين عيسى نبىّ وانه نازل فيكم الخ » . وفى حديث الشيخين قال رسول الله ﷺ : « كيف أنتم اذا نزل ابن مريم وإمامكم منكم »

وهناك روايات أخرى ليست فى الصحيحين مثل انه يقتل الدجال ، وانه يأتى بيت المقدس والناس فى صلاة العصر فيتأخر الامام فيقدّمه عيسى ويصلى خلفه على شريعة محمد ﷺ ويخرب البيع والكنائس ويقتل النصارى إلا من آمن

هذا ماجاء فى الروايات ، وقد علمت ماصحّ منها ، فأما أعداها فليست عن الشيخين . ومحصل الكلام فى أمر عيسى عليه السلام أن القرآن لم ينص عليه فان فى الدليل احتمالا ، وأتى فى الصحيحين ماسمعته ومازاد فليس فيهما

الكلام على المهدى

واعلم أن الكلام على المسيح يستدعى الكلام على المهدى ، وخير من كتب فى أمره هو العلامة ابن خلدون ، لقد عقد فصلا لهذا الموضوع . هكذا « فصل فى أمر الفاطمى ومايذهب اليه الناس فى شأنه وكشف الغطاء عن ذلك » وقد ذكر فى هذا الفصل الأحاديث الواردة فى المهدى ونزوله فى آخر الزمان وآراء المتصوفة وكبار الشيوخ ومحص الموضوع تمحيصا

الأحاديث المروية

ذكر الأحاديث التى رواها الترمذى وأبوداود والبزار وابن ماجه والحاكم والطبرانى وأبو يعلى الموصلى ، وذكر أنهم أسندوا تلك الأحاديث الى الصحابة رضى الله عنهم . مثل علىّ وابن عباس وابن عمر وطلحة وابن مسعود وأبى هريرة وأنس وأبى سعيد الخدرىّ وأم حبيبة وأم سلمة وقرة بن إياس وعلىّ الهلالى وعبدالله ابن الحرث . وقال ان تلك الأسانيد عارضها قوم بالانكار . والمعروف عند أهل الحديث أن الجرح مقدّم على التعديل . ومن جملة الأحاديث مارواه أبو بكر الاسكاف : « من كذب بالمهدى فقد كفر ، ومن كذب بالدجال فقد كفر » وقال فى طلوع الشمس من مغربها مثل ذلك . ويقولون ان أبا بكر الاسكاف عندهم متهم وضاع للأحاديث . وهناك ذكر الأحاديث الكثيرة مثل ان المهدى يكون اسمه على اسم النبى ﷺ واسم أبيه على اسم أبيه ﷺ وقد أطال فى ذلك واستوفى المقام ، وكنت أودّ الاطالة بذكره ولكن المقام لايحتمل ذلك فى مثل هذا التفسير . ثم قال : فهذه جملة الأحاديث التى خرجها الأئمة فى شأن المهدى وخروجه آخر الزمان ، وهى كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلا القليل والأقلّ منه . واقد تقدم الكلام فى هذا الموضوع مطوّلا فى أوّل سورة الحج فارجع اليه إن شئت

آراء الصوفية وكلامهم فى أمر المهدى

ذكر العلامة ابن خلدون فى هذا المقام أن السلف الصالح من الصوفية ما كانوا يتعرّضون لمثل هذه الامور ، فلايذكرون المهدى ولاخروجه وكانوا يحرصون على المجاهدة ونتائجها ، وكان الامامية والرافضة من الشيعة يرجع كلامهم الى التبرّى من الشيخين أوّلا ثم حدث فيهم القول بالامام المعصوم وألفوا كثيرا فى ذلك . وجاء الاسماعيلية منهم فادّعوا ألوهية الامام بنوع من الحلول . وآخرون يدّعون رجعة من مات من الأئمة على طريق التناسخ . وآخرون ينتظرون مجىء من يقطع بموته منهم . وآخرون منتظرون عود الأمر فى أهل البيت مستدلين بتلك الأحاديث المطعون فى أسانيدها . ثم ظهر عند المتأخرين منهم الكلام فى الكشف

ومعرفة

ومعرفة ماوراء الحس والقول بالحلول والوحدة فشاركوا الامامية والرافضة القائلين بألوهية الأئمة وحلول الإله فيهم ، وهكذا القول بالقطب والابدال وهو يحاكي مذهب الرافضة في الامام والنقباء ، وأشربوا أقوال الشيعة وظهر في كتب الاسماعيلية من الرافضة وكتب المتأخرين من المتصوفة مثل ذلك في الفاطمي المنتظر . كل ذلك مبني على أصول واهية ، ومن هؤلاء ابن سبعين

وقال ابن عربي فيما نقل ابن أبي واطيل عنه : « وهذا الامام المنتظر من أهل البيت من ولد فاطمة ، وظهوره يكون بعد مضي ستمائة وثلاث وثمانين سنة ، ولما انصرم هذا العصر ولم يظهر أخذوا يؤوّلون ولم يتم شيء . قال : وزعموا أن خروج الدجال يكون سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة من اليوم المحمدي الذي ابتداؤه وفاته ﷺ ونهايته ألف سنة »

وذكر الكندي أن هذا الولي يجدّد الاسلام ، ويظهر العدل ، ويفتح الأندلس ، ويصل الى رومية فيفتحها ، ويسير الى المشرق فيفتحه ، ويفتح القسطنطينية ، ويصير له ملك الأرض ، فيقوى المسلمون ، ويعلو الاسلام ، وحدّد لذلك سنة سبعمائة وثلاث وأربعين ، ثم يعقب ذلك سبع سنين للدجال ، ثم ينزل عيسى في وقت صلاة العصر ، فيصلح الدنيا ، وتمشي الشاة مع الذئب . وأطال في ذلك رحمه الله وأنار قبره وأنعم عليه بالنظر الى وجهه الكريم

إني حينما أقرأ أمثال هذا في كتب أسلافنا يأخذني الأسف على هذه الأمة المسكينة التي كثر فيها الخلط والخبط والتحريف ، حتى ان أكبر العلماء يضلّ في مثل هذه الامور . ومن العجيب أنه ينقل عن متصوّفة عصره مانسمعه من متصوّفة عصرنا ، وكل له خبط وخلط وأمانيّ وأضاليل . وقال انه سمع في عصره عن المسمى أبا يعقوب البادسي كبير الأولياء بالمغرب في أوّل المائة الثامنة ان ظهور المهدي قريب ، فالأوّلون والآخرون يقولون وينتظرون وتذهب الأعمار ولايحصلون على طائل

رأى العلامة ابن خلدون

يقول : ان الملك لايقوم إلا بشوكة وعصبية . يقول : وعصبية الفاطميين في زمانه قد تلاشت وهكذا قريش أجمع . وظهرت أمم غلبت عصبيتها عصبية قريش . ثم قال : إن بالحجاز في مكة وينبع بالمدينة بني حسن وبني حسين وبني جعفر . قال : فاذا صحّ ظهور مهدي فليكن منهم . وملخص كلامه أنه لايظهر إلا في عصبية . وأما مجرّد النسبة الى آل البيت فلا يكفي

وقد ذكر جماعة ممن قاموا بدعوة المهدوية ولاعصبية لهم فقتلوا ﴿ مثال ذلك ﴾ انه قام رجل ينتحل التصوّف وادّعى المهدوية برباط ماسة لأوّل المائة الثامنة فاتبعه خلق كثير من السوس ، فدسّ عليه رؤساء المصامدة من قتله بياتا وانحلّ أمره ، وكذلك ظهر قبله بسنين قليلة رجل يسمى العباس وادّعى انه الفاطمي واتبعه قوم ، ودخل مدينة فاس عنوة وأحرق أسواقها ، ودخل غيرها فقتل في المزمة غيلة وانحلّ أمره

فكرة عامة في مسألة عيسى عليه السلام والمهدي

قد رأيت أن المهدي أحاديثه مطعون فيها وليس له في القرآن ذكر ، وقد ظهر بعد أيام العلامة ابن خلدون الشيخ السنوسي ، ويقول أتباعه انه المهدي المنتظر ، وهكذا ظهر في السودان المهدي السوداني وهو الذي تركته دولة انكلترا حتى استفحل أمر التعايش بعده ، وانقضت عليه بعساكر بلادنا وعساكرها وهي تحكم بلادنا المصرية ، فأزالت الملك وانتهى أمر المهدي أحمد . وقد ظهر في الاسلام بعد ابن خلدون أيضا من قال انه هو عيسى وهو بهاء الله في بلاد الفرس وأتباعه يسمون البهائية ولهم انتشار في أوروبا وأمريكا وظهر في زماننا رجل في الهند جعل نفسه عيسى المنتظر . ويقال انه نسخ الجهاد وأقرّ لانكلترا بأن

تحكم المسلمين وهو بذلك مستبشر فرح وهو الملقب بالقباداني

فياليت شعرى ماذا ينقذ الاسلام من هــذه المصائب التى حلت به . خرج المهديون وقد كثروا فنهم من قتل ومنهم من بقى ملـكه سنين ومئات السنين ثم ذهبت دولهم وخرج الذين يقولون انهم هم نفس عيسى الموعود به فى القرآن احتمالا وفى الحديث صريحا والأمة فى ذلك لا نعرف كيف يكون الخروج ، واذا كان فى الاسلام الآن « عيسيان » ولـكل عيسى منهم أتباع وربما جاء بعدهــم غيرهم وهكذا ، إن هذا تفريق لدين الاسلام واضعاف له ، فالعامّة يخرّفون بالمهدى قديما وحديثا ، ويرون من يقول أنا عيسى فيحار أمر الناس فى ذلك « والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم »

رأى المؤلف

اعلم أن الأمة الاسلامية لا مخرج لها من الجهالة العمياء والذلة إلا بدراسة العلوم والوقوف على الحقائق ليكن فيها اختصاصيون فى العلوم الطبيعية والرياضية والتاريخ والحديث والتصوّف وهكذا حتى يقف الخواص على حقائق هذه الدنيا ، واذن يسهل عليهم معرفة الحقائق ، أما رأيى فى المهـدى فواضح ، فقد قام بالأمر العلامة ابن خلدون وأظهر الحقيقة ناصعة ، وأما الـكلام فى عيسى عليه السلام فاعلم انه أقوى من المهدى لأنه جاء فى الصحيحين ، وجاء انه يجعل الدنيا دار سلام ويكون على دين الاسلام الخ وملخص ذلك أن هذه الأرض التى نسكنها تتبدّل حالها وتـكون حالها أجل مما نحن فيه ، واذا نظرنا نظرة صادقة لهـذا الموضوع أيقنا أن ذلك لا يتم فى يوم أوسنة أوقرن لأن انقلاب الانسانية من هذه الحال الى تلك الحال يحتاج لقرون فاذا عاش عليه السلام فى الأرض سبع سنين أوأكثر أوأقل كما فى الروايات الواردة فهذه المدة لا تقلب الأمم لأن هذه ليست سنة الله وهوعليه السلام نزل الى الأرض قديما فرجع الناس لحالهم بل أرادوا صلبه فشبه لهم ، وجاء النبى ﷺ الى الأرض وأمر الدنيا بعــده معلوم ، فاذن نزول المسيح مرة أخرى لا يكون إلا بعد انتقال الأمم من هذه الحال تدريجا الى حال تصبح الأرض فيها أشبه بالفردوس ولعـلّ العقول إذ ذاك يكون لها شبه علم بنزوله عليه السلام ، فاذا نزل تقبلته بالقبول ، هذا ما يمكن أن يقال والله أعلم

فائدة هذا الموضوع كله

هاأنت ذا قرأت الأحاديث الواردة فى المسيح عليه السلام وقد دخل فى جملة الامور الاعتقادية فى الأمة وان لم يكن صريحا نصــه فى القرآن ولـكن أحاديث الشيخين لهما منزلة القبول فى الأمة . واذن نريد أن نعرف فائدة هذا الاعتقاد فنقول :

لقد علمت مما أسلفنا فى هــذا التفسير أن الأمة الاسلامية عليها أن تقوم بما عليها للانسانية فهم خير أمة أخرجت للناس ، وهم شهداء الله على الناس كما ان الرسول شهيد علينا ، وهــذا الدين وعد الله بظهوره على جميع الأديان ، فهذه وأمثالها نرجع اليها لأنها ظاهرة واضحة ، واذا ضممنا اليها أن النبىّ ﷺ رحمة للعالمين ونحن معاشر أمة الاسلام اليوم فى الأرض قائمون بشريعته فنحن إذن يجب أن نـكون رحمة للعالمين وعلى هــذا يكون المسلمون يوما مّا يقودون الانسانية الى السلام العام والانسانية الخالصــة ، وتـكون الأمم بسبب نشر المعارف والعلوم قد اقتربت من السلام العام ، وتـكون أمة الاسلام قد أصبحت صاحبة الفضـل الأكبر فى ذلك ، إذن تسرى الروح العيسوية فى العالم بسبب الاسلام وظهور حقائقه الموعود بها بمثـل قوله تعالى « سأريكم آياتى فلا تستعجلون » ومثل « سيريكم آياته فتعرفونها » ومتى سرت الروح العيسوية فى الأرض بسبب دين الاسلام فهنالك حين يظهر المسيح يجد الأمة مستعدة للسلام العام ، وسواء أنزل هو بنفسه أم كانت النفوس قد أشربت السلام فيكون ذلك رمزا ، فمثل هــذا لا نتعرّض له ، فهو خاص بعلم الله تعالى

والذى فى قدرتنا أن نقوله : على المسلمين اليوم أن يأخذوا دورهم فى الرقىّ ، وأن يكونوا دعاة الانسانية والسلام والمودّة وأن ينشروا العلوم ، ويكون الاسلام ممزوجا بما كشفه الناس فى العصر الحاضر ، وتكون دعوته قائمة بنفس العلوم كما سطرناه فى هذا التفسير ، أما أن يقوم فى كل قرية رجل ويجعل له أتباعا ويقول أنا المسيح ، فهذا مالايطيقه الاسلام ، واذا كان هؤلاء الذين ظهروا كل واحد منهم هو المسيح فأين السلام فى الأرض ، وماهذا التعدّد ؟ مع ان عيسى واحد لااثنان ، وكيف نرجح أحدهما على الآخر ، وأين السلام فى الأرض

فالقول العدل أن الأمة الاسلامية التابعة للمذاهب المختلفة يجب على رؤسائها أن يوجهوا هممهم الى تعميم التعليم واكثار المدارس ونشر فكرة العلوم ممزوجة بالدين كما أوضحناه ، ومتى تنوّرت الأذهان وضحت الطرق طاحت تلك الدعاوى من النفوس أى اننا لانشغل أنفسنا بتكذيب أحد من مشايخ الطرق ولا العيسويين ولاالمهدويين ، ولكن نقول : ليقرأ أتباع هؤلاء الشيوخ العلوم فيعلمون الحقائق ، وربما كان أساتذتهم هم الذين يمنعونهم العلم خيفة اطلاعهم على الحقائق فيستصغرون شأنهم ، فأنا أوصى قرّاء هذا التفسير أن يذيعوا بين الأمة العلم والحكمة ، وبذلك وحده يظهر المسلمون ويكونون خير أمة أخرجت للناس ويستعدّون للروح العيسوية حتى اذا جاء أوانه فهموه فنزل فيهم ، وأما مادام المسلمون على هذا المنوال فكيف ينزل المسيح فى قوم جاهلين ربهم ونظامه وجماله وحكمته

ولتنصح أيها الذكىّ الأمة أن تقلع عن انتظار من يأتى اليهم من المهديين ، فوالله لاسعادة لأمة إلا بجدّها واجتهادها ، ان نفس الأنبياء لم يرسلوا إلا فى أوساط تناسبهم ، فليرق الشعب نفسه بالعلم والعمل والحب العام وينتظر بعد ذلك نعم الله عليه ، فليس يقلب المسيح طبائعهم بل يأتى اليهم وهم مستعدون للسلام العام . تمّ الكلام على اللطيفة السادسة والحمد لله رب العالمين

اللطيفة السابعة

فى قوله تعالى : فاختلف الأحزاب من بينهم

اعلم أن النصارى بعد رفع المسيح عليه السلام كانوا مقرّين بالوحدانية ولعيسى بالرسالة ، ثم بعد رفعه دخلت شبه فانقسموا ثلاث طوائف : ملكانية ، ونسطورية ، ويعقوبية . فالملكانية مصرّحة بالتثليث فهم يقولون : « الآلهة ثلاثة : المسيح ، وأمه ، والله » . ويقولون : « إن المسيح ناسوت كلى قديم ، ومريم ولدت ولدا أزليا ، والله هو الأب ، وعيسى هو الابن » اطلاقا حقيقيا عندهم . وأما النسطورية فانهم يقولون « إن الكلمة أشرقت على جسد عيسى كاشراق الشمس على كوة أو بلور » . وأما اليعقوبية فيقولون : « انقلبت الكلمة لحما ودما فصار الإله هو نفس المسيح » والى الملكانية الاشارة بقوله تعالى « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة » والى اليعقوبية الاشارة بقوله تعالى « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » . ثم ان الملكانية هم المسمون الآن (كاثوليكية) . فأما اليعقوبية والنسطورية فهؤلاء ليسوا فى أوروبا ، وربما يكونون فى الشام ومصر والعراق والحبشة . وأنما الذى حدث فى أوروبا هو مذهب البروتستانت والكاثوليكية ، والبروتستانت يقرّون بالبعث ، والبعث إما بالأرواح والأجساد واما بالأرواح فقط خلاف بينهم . ثم ان لفظ كاثوليكية كلمة مدح لأنها كأهل السنة عندنا ، ورئيس المذهب الكاثوليكى هو البابا برومه فى دولة ايطاليا ، فله اليوم الرئاسة الباطنية كالقطب عند المسلمين وكمشايخ الطرق ، وتقدم قريبا ظلم البابا لأهل أوروبا وملوكها فانحطوا وذهبت رئاستهم . ثم ان الكاثوليكية بقوا على مذهبهم الى القرن التاسع الهجرى ، وظهر منكرون للبابا برومه فصاروا يسمون المنكرين (بروتستانت) وهى كلمة أشبه بكلمة

الخوارج أو المعتزلة عند المسلمين

وملخص ذلك أن الخلاف بين الكاتوليك والبروتستانت هو البابا ، فمن اعترف ببابا رومه فهو كاتوليكى ومن لم يعترف به سموه بروتستانتى فيأنف و يقول أنا كاتوليكى وان كان لايعترف برئاسة البابا ، والبابا من جملة الأساقفة ، ورئاسة الأساقفة ليست خاصة به ، بل هى له ولأسقف الاسكندرية وأسقف القسطنطينية فأما الكاتوليك فلا يعترفون إلا ببابا رومه ، و بعض البروتستانت أيضا لايقرّ بالتثليث ، لأنهم نظروا فى كتب الاسلام فاعترفوا بالوحدانية ، ويجعلون عيسى عبد الله ورسوله ، وهم مع الكاتوليك فيما بقى من العقائد

وهناك فريق من البروتستانت باق على التثليث ، ويكون الفرق بينهم و بين الكاتوليك عدم الاعتراف بالبابا وحده ، ثم ان الصوم يقول البروتستانت انه سنة ، و يقول الكاتوليك انه فرض وهو مدة (٤٠) يوما يتركون الطعام والشراب من طلوع الشمس الى غروبها

وأما البروتستانت و بعض الكاتوليك الذين ضعفت عقيدتهم ، فهم يجوّزون تناول الطعام والشراب ، لكن يمنعون اللحم كله وماتولد منه كاللبن والسمن إلا الحوت فانهم يأكلونه فى حال الصيام و يأكلون الخبز والحلوى ، وعندهم فرقة يسمونها اللاتينية ، وفرقة يسمونها أهل الديانة الروسية (أورثودكس) وذلك لأنهم لا يعترفون بالبابا رئيسا ، وهم موافقون للكاتوليك فى كل شىء ، وهؤلاء جميعا يفتخرون بأنهم كاتوليك فيكذبهم أخصامهم قائلين لهم : أنتم فرقة لاتينية أو أورثودكس

واعلم أن الفرنسيين دخلوا دين النصارى سنة ٤٩٦ ميلادية وهم كاتوليك و بروتستانت ، ومنهم من لايقرّ بالله فى باطنه ، وكان ابتداء ملكهم سنة ٤٢٠ ميلادية وأصل ملكهم قبل الميلاد بنحو خمسمائة سنة ولم يتم الاستقلال فيما بين التاريخين ، فحكمهم اليونان فالرومان فاستقلوا ، وكانوا يعبدون الأصنام التى على صور الكواكب كالهنود

ودولة الانجليز التى ابتدأ ملكها قبل الميلاد بنحو خمس وخمسين سنة لم يستقلوا إلا سنة ٢٤٣ هجرية وهى سنة ٨٢٧ ميلادية ، ودخلوا النصرانية سنة ٥٩٦ مسيحية ، وذلك قبل الهجرة بست وعشرين سنة وفيهم الكاتوليك والبروتستانت والدهرية وحصل بينهم و بين الفرنسيس حرب من سنة ١٣٣٧ م الموافق سنة ٧٣٨ هجرية الى سنة ١٤٥٣ م الموافق سنة ٨٥٧ هجرية ويسمى حرب المائة سنة

﴿ دولة النمسا أوستوريا ﴾ أكثرهم من التتار ، ابتدأ الملك سنة ٣٣ ميلادية ، والاستقلال سنة ٩٨٢ ميلادية الموافق سنة ٢٤٨ هجرية ، ودخولهم النصرانية كالذين تقدموهم

﴿ الدولة الجرمانية ﴾ ابتداء الملك سنة ٥٤ ميلادية ، والاستقلال سنة ١٣١٥ ميلادية الموافق سنة ٨١٨ هجرية

﴿ دولة المسكوف ﴾ استقلالهم التام سنة ٨٦٢ ميلادية الموافق سنة ٢٤٨ هجرية ، وكانوا يعبدون الأوثان ، ودخلوا النصرانية سنة ثلثمائة وخمس وسبعين هجرية ، فهم الأمة الوحيدة التى تأخرت فى دخول النصرانية الى ذلك الزمن ، وأما بقية دول أوروبا فان دخولها فى النصرانية فى أواخر القرن الخامس الميلادى فتكون النصرانية فى أوروبا الآن نحو ألف وأربعمائة سنة ، ومذاهبهم الكاتوليك والبروتستانت واللاتين والاورثودكس ، ثم الكاتوليك هى عين الملكانية ، وأما النسطورية واليعقوبية فقد حذفتا من الغرب وربما كانت فى الشرق والله أعلم ، وقد تقدم ملخص هذا فى ﴿ سورة آل عمران ﴾ والى هنا تم الكلام على اللطيفة السابعة من اللطائف الخاصة والحمد لله رب العالمين

اللطائف العامة للسورة كلها (١)

اللطيفة الأولى

في قوله تعالى « إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » مع قوله « وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون »

لأجعل الكلام على الآيتين في مقامين : المقام الأوّل في غريب اللغة العربية في القرآن . المقام الثاني في نفس الأمة العربية ، وهاك بيانهما

الكلام على المقام الأول في غريب اللغة العربية في القرآن

تقدم في أوّل سورة « حم فصلت » الكلام على الألفاظ التي دخلت في القرآن من القبائل المختلفة ومن اللغات التي ليست عربية كالفارسية والهندية الخ . وأريد هنا أن أذكر نبذة يسيرة في الكلام على معرفة غريبه ، فقد جاء في كتاب « الاتقان . في علوم القرآن » تحت العنوان التالي مانصه :

النوع السادس والثلاثون في معرفة غريبه

أفرده بالتصنيف خلائق لايحصون منهم أبوعبيدة وأبو عمر الزاهد وابن دريد ، ومن أشهرها كتاب العزيزي فقد أقام في تأليفه خمس عشرة سنه يحرّره هو وشيخه أبو بكر بن الانباري ومن أحسنها المفردات للراغب ، ولأبي حيان في ذلك تأليف مختصر في كراسين . قال ابن الصلاح وحيث رأيت في كتب التفسير قال أهل المعاني فالمراد به مصنفو الكتب في معنى القرآن كالزجاج والفراء والأخفش وابن الانباري انتهى وينبغي الاعتناء به فقد أخرج البيهقي من حديث أبي هريرة مرفوعا « أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه » وأخرج مثله عن عمرو بن عمرو بن مسعود موقوفا ، وأخرج من حديث ابن عمر مرفوعا : « من قرأ القرآن فأعربه كان له بكل حرف عشرون حسنة ، ومن قرأه بغير اعراب كان له بكل حرف عشر حسنات » المراد باعرابه معرفة معاني ألفاظه ، وليس المراد به الاعراب المصطلح عليه عند النحاة وهو مايقابل اللحن لأن القراءة مع فقده ليست قراءة ولا ثواب فيها ، وعلى الخائض في ذلك التثبت والرجوع الى كتب أهل الفن وعدم الخوض بالظنّ ، فهذه الصحابة وهم العرب العرباء وأصحاب اللغة الفصحى ومن نزل القرآن عليهم وبلغتهم توقفوا في ألفاظ لم يعرفوا معناها فلم يقولوا فيها شيئا ، فأخرج أبوعبيده في الفضائل عن ابراهيم التيمي أن أبا بكر الصدّيق سئل عن قوله « وفاكهة وأبا » فقال أي سماء تظلني ، أوأي أرض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله مالا أعلم ، وأخرج عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر « وفاكهة وأبا » فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب ؟ ثم رجع الى نفسه فقال : إن هذا لهو الكلف ياعمر ، وأخرج من طريق مجاهد عن ابن عباس . قال : كنت لاأدرى مافاطر السموات حتى أتاني اعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما أنافطرتها يقول أنا ابتدأتها ، وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير انه سئل عن قوله « وحنانا من لدنا » فقال سألت عنها ابن عباس فلم يجب فيها شيئا ، وأخرج من طريق عكرمة عن ابن عباس . قال : لاوالله لا أدرى ماحنانا . وأخرج الفريابي : حدّثنا اسرائيل حدّثنا سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس . قال : كل القرآن أعلمه إلا أربعا : غسلين ، وحنانا ، وأوّاه ، والرقيم * وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة . قال قال ابن عباس : ماكنت أدرى ما قوله « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق »

(١) هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ولم يفتح الله بها إلا عند طبع هذه السورة : المؤلف

حتى سمعت قول بنت ذى يزن ﴿ تعال أفاتحك ﴾ تقول أخاصمك . وأخرج من طريق مجاهد عن ابن عباس . قال : ما أدرى ما الغسلين ولكنى أظنه الزقوم

فصل : معرفة هذا الفن للمفسر ضرورية كما سيأتى فى شروط المفسر

قال فى البرهان : ويحتاج الكاشف عن ذلك الى معرفة علم اللغة أسماء وأفعالا وحروفا ، فالحروف لقلتها تكلم النحاة على معانيها ، فيؤخذ ذلك من كتبهم ، وأما الأسماء والأفعال فتؤخذ من كتب علم اللغة ، وأكبرها كتاب ابن السيد ، ومنها التهذيب للأزهرى ، والمحكم لابن سيده ، والجامع للقزاز ، والصحاح للجوهرى ، والبارع للفارابى ، ومجمع البحرين للصاغانى . ومن الموضوعات فى الأفعال كتاب ابن القوطية ، وابن الظريف والسرقسطى ، ومن أجمعها كتاب ابن القطاع . قلت : وأولى مايرجع اليه فى ذلك ماثبت عن ابن عباس وأصحابه الآخذين عنه ، فانه ورد عنهم مايستوعب تفسير غريب القرآن بالأسانيد الثابتة الصحيحة ، وهاأنا أسوق هنا ماورد من ذلك عن ابن عباس من طريق ابن أبى طلحة خاصة فانها من أصحّ الطرق عنه وعليها اعتمد البخارى فى صحيحه مرتبا على السور . قال ابن أبى حاتم حدّثنا أبى (ح) وقال ابن جرير حدّثنا المثنى قالا حدثنا أبوصالح عبدالله بن صالح حدّثنى معاوية بن صالح عن علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى (يؤمنون) قال يصدّقون (يعمهون) يتمادون (مطهرة) من القذر والأذى (الخاشعين) المصدّقين بما أنزل الله (وفى ذلكم بلاء) نعمة (وفومها) الحنطة (إلا أمانى) أحاديث (قلوبنا غلف) فى غطاء (ماننسخ) نبدل (أوننسها) نتركها فلا نبدلها (مثابة) يثوبون اليه ويرجعون (حنيفا) حاجا (شطره) نحوه (فلاجناح) فلاحرج (خطوات الشيطان) عمله (أهلّ به لغيرالله) ذبح للطواغيت (ابن السبيل) الضيف الذى ينزل بالمسلمين (إن ترك خيرا) مالا (جنفا) إثما (حدود الله) طاعة الله (لاتكون فتنة) شرك (فرض) أحرم (قل العفو) مالا يتبين فى أموالكم (لأعنتكم) لأحرجكم وضيق عليكم (مالم تمسوهنّ أوتفرضوا) المس الجماع والفريضة الصداق (فيه سكينة) رحمة (سنة) نعاس (ولايؤده) يثقل عليه (صفوان) حجرصلد ليس عليه شىء (متوفيك) مميتك (ربيون) جموع (حوبا كبيرا) إثما عظيما (نحلة) مهرا (وابتلوا) اختبروا (آنستم) عرفتم (رشدا) صلاحا (كلالة) من لم يترك والدا ولاولدا (ولاتعضلوهنّ) تقهروهنّ (والمحصنات) كل ذات زوج (طولا) سعة (محصنات غير مسافحات) عفائف غيرزوان فى السرّ والعلانية (ولا متخذات أخدان) أخلاء (فاذا أحصنّ) تزوّجن (العنت) الزنى (موالى) عصبة (قوّامون) أمراء (قانتات) مطيعات (والجار ذى القربى) الذى بينك وبينه قرابة (والجارالجنب) الذى ليس بينك وبينه قرابة (والصاحب بالجنب) الرفيق (فتيلا) الذى فى الشق الذى فى بطن النواة (الجبت) الشرك (نقيرا) النقطة التى فى ظهرالنواة (وأولى الأمر) أهل الفقه والدين (ثبات) عصبا (سرايا) متفرّقين (مقيتا) حفيظا (أركسهم) أوقعهم (حصرت) ضاقت (أولى الضرر) العذر مراغما التحول من الأرض الى الأرض وسعة الرزق (موقوتا) مفروضا (تألمون) توجعون (خلق الله) دين الله (نشوزا) بغضا (كالمعلقة) لاهى أيّم ولاهى ذات زوج (وان تلووا) ألسنتكم بالشهادة (أوتعرضوا) عنها (وقولهم على مريم بهتانا) يعنى رموها بالزنا (أوفوا بالعقود) ما أحلّ الله وماحرم ومافرض وماحدّ فى القرآن كله (يجرمنكم) يحملنكم (شنآن) عداوة (البر) ما أمرت به (والتقوى) مانهيت عنه (المنخنقة) التى تختنق فتموت (والموقوذة) التى تضرب بالخشب فتموت (والمتردية) التى تتردّى من الجبل (والنطيحة) الشاة التى تنطحها الشاة (وماأكل السبع) ما أخذ (إلا ما ذكيتم) ذبحتم وبه روح (الأزلام) القداح (غير متجانف) متعد (لاثم . الجوارح) الكلاب والفهود والصقور وأشباهها (مكلبين) ضوارى (وطعام الذين

أوتوا الكتاب) ذبائحهم (فافرق) افصل (ومن يرد الله فتنته) ضلالته (ومهيمنا) أمينا ، القرآن أمين على كل كتاب قبله (شرعة ومنهاجا) سبيلا وسنة (أذلة على المؤمنين) رحماء (مغلولة) يعنون بخيل أمسك ماعنده تعالى الله عن ذلك (بحيرة) هي الناقة اذا أنتجت خمسة أبطن نظروا الى الخامس فان كان ذكرا ذبحوه فأكله الرجال دون النساء ، وان كان أنثى جدعوا أذنيها (وأما السائبة) فكانوا يسيبون أنعامهم لآلهتهم لايركبون لها ظهرا ، ولايحلبون لها لبنا ، ولايجزون لها وبرا ، ولايحملون عليها شيئا . (وأما الوصيلة) فالشاة اذا أنتجت سبعة أبطن نظروا للسابع فان كان ذكرا أوأنثى وهوميت اشترك فيه الرجال والنساء ، وان كان أنثى وذكرا فى بطن استحيوها وقالوا وصلته أخته فحرمته علينا . وأما الحام فالفحل من الابل اذا ولد لولده قالوا حمى هذا ظهره فلايحملون عليه شيئا ، ولايجزون له وبرا ، ولايمنعونه من حمى رعى ، ولامن حوض يشرب منه وان كان الحوض لغير صاحبه (مدرارا) بعضها يتبع بعضا (وينأون عنه) يتباعدون (فلما نسوا) تركوا (مبلسون) آيسون (يصدفون) يعدلون (يدعون) يعبدون (جرحتم) كسبتم من الاثم (يفرطون) يضيعون (شيعا) أهواء مختلفة (لكل نبأ مستقر) حقيقة (تبسل) تفضح (باسطوا أيديهم) البسط الضرب (فالق الاصباح) ضوء الشمس بالنهار وضوء القمر بالليل (حسبانا) عدد الأيام والشهور والسنين (قنوان دانية) قصارالنخل اللاصقة عروقها بالأرض (وخرقوا) تخرصوا (قبلا) معاينة (ميتا فأحييناه) ضالا فهديناه (مكانتكم) ناحيتكم (حجر) حرام (حمولة) الابل والخيل والبغال والحمير وكل شيء يحمل عليه (وفرشا) الغنم (مسفوحا) مهراقا (ماحملت ظهورهما) ماعلق بها من الشحم (الحوايا) المبعر (املاق) الفقر (دراستهم) تلاوتهم (صدف) أعرض (مذؤما) ملوما (ريشا) مالا (حثيثا) سريعا (رجس) سخط (صراط) الطريق (افتح) اقض (آسى) أحزن (عفوا) كثروا (ويذرك وآلهتك) يترك عبادتك (الطوفان) المطر (متبر) خسران (أسفا) هوالحزين (إن هي إلافتنتك) إن هو إلا عذابك (عزروه) حموه ووقروه (ذرأنا) خلقنا (فانبجست) انفجرت (نتقنا الجبل) رفعناه (كأنك حفي عنها) لطيف بها (الطائف) اللمة (لولا اجتبيتها) لولا تلقتها (بنان) الأطراف (جاءكم الفتح) المدد (فرقانا) المخرج (ليثبتوك) ليوثقوك (يوم الفرقان) يوم بدرفرق الله فيه بين الحق والباطل (فشرد بهم من خلفهم) نكل بهم من بعدهم (من ولايتهم) ميراثهم (يضاهؤن) يشبهون (كافة) جميعا (ليواطؤا) يشبهوا (إحدى الحسنيين) فتح أوشهادة (مغارات) الغيران فى الجبل (مدخلا) السرب (اذن) يسمع من كل أحد (واغلظ عليهم) اذهب الرفق عنهم (وصلوات الرسول) استغفاره (سكن لهم) رحمة (ريبة) الشك (إلا أن تقطع قلوبهم) يعنى الموت (الأواه) المؤمن التواب (طائفة) عصبة (قدم صدق) لهم السعادة فى الذكر الأول (ولا أدراكم) أعلمكم (ترهقهم) تغشاهم (عاصم) مانع (تفيضون) تفعلون (يعزب) يغيب (يثنون) يكنون (يستغشون ثيابهم) يغطون رءوسهم (لاجرم) بلى (أخبتوا) خافوا (فارالتنور) نبع (أقلعي) أسكنى (كأن لم يغنوا) يعيشوا (حنيذ) نضيج (سيء بهم) ساء ظنا بقومه (وضاق ذرعا) بأضيافه (عصيب) شديد (يهرعون) يسرعون (بقطع) سواد (مسومة) معلمة (أليم) موجع (زفير) صوت شديد (وشهيق) صوت ضعيف (غيرمجذوذ) غيرمنقطع (ولاتركنوا) تذهبوا (شغفها) غلبها (متكأ) مجلسا (أكبرنه) أعظمنه (فاستعصم) امتنع (بعد أمة) حين (تحصنون) تخزنون (يعصرون) الأعناب والدهن (حصحص) تبين (زعيم) كفيل (ضلالك القديم) خطئك (صنوان) مجتمع (هاد) داع (معقبات) الملائكة (يحفظونه من أمر الله) باذنه (بقدرها) على قدرطاقتها (سوء الدار) العاقبة (طوبى) فرح وقرة عين (ييأس) يعلم (مهطعين) ناظرين (فى الأصفاد) فى وثاق (قطران) النحاس المذاب (يود) يتمنى (مسلمين) موحدين (شيع) أمم (موزون) معلوم (حمأ مسنون) طين رطب (أغويتني) أضللتني

هذا واذا أردت بقية هذا الموضوع فراجعه فى كتاب الاتقان المذكور تجد جميع الغريب فيه الى آخره وهو نحو ٧ صفحات فاقرأه هناك ان شئت

ويتبع ذلك ماورد عن ابن عباس أيضا إذ اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن . فقال نافع ابن الأزرق لنجدة بن عويمر قم بنا الى هذا الذى يجترئ على تفسير القرآن بمالاعلم له به ، فقاما اليه ، فقالا إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا وتأتينا بمصادقته من كلام العرب فان الله تعالى انما أنزل القرآن بلسان عربىّ مبين ؟ فقال ابن عباس : سلانى عما بدا لكما . فقال نافع : أخبرنى عن قول الله تعالى « عن اليمين وعن الشمال عزين » . قال العزون حلق الرفاق . قال وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول :

فجاءوا يهرعون اليه حتى ✻ يكونوا حول منبره عزينا

قال أخبرنى عن قوله تعالى « وابتغوا اليه الوسيلة » قال الوسيلة الحاجة . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم أما سمعت عنترة وهو يقول :

إنّ الرجال لهم اليك وسيلة ✻ ان يأخذوك تكحلى وتخضبى

وهكذا استمرّ يسأله وهو يجيب على هذا النمط ، ونحن الآن نجتزئ هنا ببعض الكلمات وشواهدها اختصارا واستبصارا :

الكلمة	الشاهد
(١) (منهاجا) طريقا	(١) لقد نطق المأمون بالصدق والهدى ✻ وبين للاسلام دينا ومنهجا
(٢) (ينعه) نضجه	(٢) اذا مامشت وسط النساء تأوّدت ✻ كما اهتزّ غصن ناعم النبت يانع
(٣) (ريشا) مالا	(٣) فرشنى بخير طال ماقد بريتنى ✻ وخير الموالى من يريش ولايبرى
(٤) (كبد) اعتدال	(٤) ياعين هلا بكيت اربد إذ ✻ قمنا وقام الخصوم فى كبد
(٥) (السنا) الضوء	(٥) يدعو الى الحق لايبغى به بدلا ✻ يجلو بضوء سناه داجى الظلم
(٦) (حنانا من لدنا) رحمة	(٦) أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا ✻ حنانيك بعض الشرّ أهون من بعض
(٧) (أفلم ييأس الذين آمنوا) أفلم يعلم بلغة بنى مالك	(٧) لقد يئس الأقوام انى أنا ابنه ✻ وان كنت عن أرض العشيرة نائيا
(٨) (فأجاءها المخاض) ألجأها	(٨) إذ شددنا شدة صادقة ✻ فأجأناكم الى سفح الجبل
(٩) (لاتنيا فى ذكرى) لا تضعفا عن أمرى	(٩) إنى وجدك ماونيت ولم أزل ✻ أبغى الفكاك له بكل سبيل
(١٠) (القانع والمعتر) فالقانع الذى يقنع بما أعطى والمعتر الذى يعترض الأبواب	(١٠) على مكثريهم حق معتر بابهم ✻ وعند المقلين السماحة والبذل

ولاكتف

ولأكتف بهذا فى النظم ومن أراد استيفاءه فليقرأه فى كتاب الاتقان . والشواهد تبلغ نحو (١٥٠) شاهداً فلانطيل بذكرها . والى هنا تمّ الكلام على المقام الأوّل

المقام الثانى

فى الكلام على نفس الأمة العربية

اعلم أيها الذكىّ أن الأمة العربية بقدرماذاقت من العزّ والاتحاد والسعادة ومانالت من الارتقاء أصابها الذل والانحلال والشقاء والانحدار ، أمة بلغت بعلمها المشرقين والمغربين ، ثم رجعت بعد ذلك بخفى حنين رفعها العلم وخفضها الجهل ، أمة عريقة فى المجد ، رفيعة القدر ، قوية الشكيمة ، هى وحدها التى اختارها الله لارتقاء النوع البشرى ، لذلك خلقها وتمت كلمة ربك ، خلقها فى البادية وأصح عقولها ، وهذّب نفوسها تهذيبا نسبيا ، ومرّنها على شظف العيش ، والبأس وعزّة النفس والقناعة ، أعطاها مثالب مع هذه الفضائل فصاركل أهل بيت وقبيلة يرون أنهم سادات الأمم وعظماء أهل الأرض ، فأورثهم ذلك التخاذل والتطاحن والأضغان والأحقاد ، وماذلك كله إلا من ازدياد سموّ النفس والشهامة وحب العزة وازدياد تلك القوّة عن المقدار الوسط والنهج القويم ، فأصبح ما كان ممدوحا تلحقه المذمة ، وبينما هى على هذه الحال إذ جاءهم الرسول ﷺ ونزل القرآن فجمعهم بعدالفرقة ، ولم شملهم ، فنالوا مالم تحلم به الأكاسرة ولاالقياصرة ، وتضامّت تلك القوى المتفرّقة المنتشرة فى الصحارى والقفار فصارت قوّة واحدة فهزّت أمم الأرض هزا ، وماذلك إلا لما فهموا « إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون * وانه فى أمّ الكتاب لدينا لعلىّ حكيم » . ثم استبدلوا الكسل بالعمل ، والترف والتنعم بشظف العيش ، والقناعة وفتح البلاد لنزوات النفوس والشهوات ، والطمع والجشع وجمع المال الوفير المورث للاستكانة ، والصغار والذل بالجهاد لاعلاء كلمة الله واعزاز دينه مع حفظ الدولة واسعاد الانسانية كلها بلاتفرقة بين الأمم والشعوب بالمحافظة عليها مع تأدية تلك الأمم مايجب عليها لهم ، فحقّ عليهم ماورد فى الصحيح « إن أخوف ما أخاف عليكم مايفتح عليكم من زينة الدنيا الخ » وهذا الحديث بنصه فى أوّل ﴿ سورة الأنفال ﴾ وهومن صحاح الأحاديث

ثم إن هذه الأمة بعد أن أدّت وظيفتها فى الأرض ونشرت الدين وتفرّقت فى أقطارها خدت ريحها وأصبح الأبناء على نقيض الآباء ونسوا مجدهم القديم وعزّهم الشامخ وفضلهم العظيم ، فأبناء العرب اليوم فى شمال افريقيا مراكش والجزائر وتونس وطرابلس ومصر والسودان واليمن ونجد والحجاز والعسير والعراق والموصل ودير الزور . فكل هؤلاء بلادهم متلاصقة ودينهم واحد وعقولهم متقاربة ولغتهم واحدة

فياسبحان الله ، أنا لم أر أمة بلغت مابلغت هذه الأمة فى مجدها أيام رفعتها ، ولم أر أمة سقطت سقوطها أيام ذلها كأن الغنم بالغرم ، وبرد الشتاء على مقدار حرارة الصيف ، وطول الليل فى الشتاء بمقدار قصره فى الصيف . هاأناذا من أبناء العرب ولدت بالبلاد المصرية فى قرية من قرى الشرقية ، حفظت القرآن صغيرا ودخلت الأزهر بالغا ، ثم اعترتنى فكرة هيجت بلبالى زمن الشباب ، فأخذت استغيث وبمن أستغيث ؟ لا استغاثة إلا بمن خلقنى ، فكنت أدعوه وهوسميع الدعاء ، ولكم سألته أن يوقفنى على حقائق هذه الدنيا ونظام الكون وبؤس المسلمين وذلهم وعزّ غيرهم ، ولماذا أرى الجهالة والنقص فاشيين حتى فى التعاليم الدينية . وأنت أيها الذكىّ تعرف مما ذكرته كثيرا فى التفسير أن اتصالى بمدرسة دار العلوم ونظرى فى كتب الأمم المحيطة بنابه وقفت على كثير من أحوال هذا العالم وهذه الأمم . ومما اتفق لى حادثة لابد من ذكرها ذلك انها أشبه بتعريف لمفتاح به تفتح أبواب الخيرات لسائر الأمم العربية

محاورة بيني وبين المرحوم لطيف باشا سليم

فى أمر ارتقاء العرب فى المستقبل القريب

قد كنت فى أطوار حياتى الى السكون والخمول والانزواء أقرب لما قرأت ما يأتى :

لقاء الناس ليس يفيد شيئا * سوى الهذيان من قيل وقال
فاقلل من لقاء الناس إلا * لأخذ العلم أو اصلاح حال

ولكن كنت أقول فى نفسى : « لو اننى عرفت الحقائق وكنت مجهولا فى الناس لا يفكر فىّ أحد لكان ذلك أقصى أملى » ولكن حب البحث والعلم كانا سببا فى علاقاتى بجميع أمم الاسلام ومنهم الطبقة الراقية فى مصر ، ولما أخذت آلاف الكتب عرضتها على أهل العلم وذوى العقول الراجحة لأستوثق مما أنشر برأيهم ، وكان منهم المرحوم الشيخ محمد عسكر والمرحوم لطيف باشا سليم ، فأما الأول فانى قابلته فى منزل المرحوم ابراهيم بك أباظه بجوار قريتنا ولم يكن رآنى ولا رأيته من قبل ولكن عرف كل منا الآخر وأنا شاب وهو قد بلغ نحو مائة سنة ، وله قدم صدق فى الحادثة العرابية ، وأخذ يسألنى عن تاريخ حياتى العلمية التى عرف مجملها من قبل أن ألقاه فأجبته ، هنالك قال لى : أنتم أحسن منا ، نحن أيام عرابى باشا لم نبن ثورتنا على أساس ، أما أنتم فبناؤكم على أساس ، لأنكم تريدون أن تجعلوا العلوم التى بها ارتقت أمم الأرض متصلة بالدين وأنتم ناجحون ، وأن ماسمعته منك من حيث أن بعض رجال المعارف يضطهد ذلك ، فهذا زادنى يقينا لأن الرجل لا يكون عظيم الشأن حتى يحقد عليه نظراؤه . وسيكون نشر آرائك على أيدى تلاميذك ، والمستقبل لهذه الأمة عظيم . وأما المرحوم لطيف باشا . فهاك مادار بينى و بينه ، وهو الذى سقت الكلام لأجله ، لم تكن لى سابقة معرفة بالمرحوم لطيف باشا سليم ، وهو كان من أكابر الأمة ومن أكابر الوطنيين ، والذى عرّفنى به انى نشرت بعض كتبى وأردت أن أعرف آراء أكابر العلماء فى مصر ، فأعطيته كتابى ﴿ نظام العالم والأمم ﴾ فأثنى عليه ، وصارت لى به صلة وثيقة ، وهذه صورة المحادثة التى سقت الكلام هنا لأجلها :

قال رحمه الله : إن جلد الحمار الميت أرفع شأنا من الأمة المصرية (أقول : وذلك من شدة غيرته على البلاد) . فقلت : ما برهانك ياباشا . فقال : إن جلد الحمار يمكن العلماء بالصناعة و بالكيمياء يلوّنونه بالحمرة أو بالصفرة الخ وهذه الأمة حلّ بساحتها الآشوريون والفرس والرومان والفرنسيون والانجليز ، ومع ذلك لا تزال نائمة خامدة جامدة ، إذن جلد الحمار أمكن تلوينه والأمة المصرية لم تلوّن . هذه الأمة جامدة . فقلت : إن لى ردا على ماذكرتموه . فقال : فماذا تقول ؟ فقلت : إن الأمة المصرية أمة عربية لأن الأصل القبطى فيها قليل ، وهانحن أولاء نجد عاداتنا وأخلاقنا وآدابنا كلها عربية ، والأمة العربية بعد مابلغت الصين شرقا وجنوب فرنسا غربا وأزالت ملك فارس والروم أصابها داء الترف ، وأرداها الكسل ، وأنهكها الطمع ، وجندلها الجهل ، وأصماها التخاذل والتنابذ والكبرياء والادخار والاتكال على الأمم المحكومة بهم فسلط الله عليهم من كانوا لهم مسخرين ومستعبدين من الفرس والترك والممالك البرية والبحرية ، وآذاهم الاسبانيون فى الجزيرة ، وحلّ الترك بساحة مصر فأزالوا نخوتها ومظاهر جمالها وكمالها ، وأقفلوا مدارسها وتركوها قاعا صفصفا ، ومحوا منها الصناعات والعلوم ، و بقيت البلاد ترتع فى معاهد الجهل ، ومراتع الذل ، حتى اذا قيض الله لها المغفور له محمد على باشا فقد أخذ يعلمها ، ولكن تعليمه لم يكن مصحوبا بحرّية ، فبقيت الأمة مقيدة وعمومها جاهل بحقوقه ، حتى اذا جاء المرحوم مصطفى كامل باشا فى هذه السنين ونشر فى جريدة اللواء مقالات وقرأها الشبان وأنا ملاحظ ذلك انفتحت بصائرهم وعرفوا الحرّية فى هذه السنوات

القلاقل . ولقد كنت قبل ظهور جريدة اللواء أشاهد من تلاميذ المدارس احتقارا لكل ماهو وطنى حتى اذا ظهرت جريدة اللواء أحبوا الوطن واستبدلوا حبه بحب الأساتذة الانجليز ، وكان مدرس اللغة العربية كأنه أمر ثانوى عندهم ، فانقلبت الحال وعدوه لهم أبا . كل ذلك بتأثير جريدة اللواء التى طلعت بهيئة عرفت الشبان ما معنى المحافظة على الوطن وعلى الحرية . إن أهل مصر أكثرهم من أصل عربى ، والذى أخرهم وأضناهم هو الجهل الذى غمرهم به الترك مدة مئات السنين ، ومامثلهم فى مصر إلا كمثل آبائهم قبل النبوة فانهم كانوا قوما جاهلين ، فما كاد ﷺ يدعوهم الى الدين ومضت ٢٣ سنة حتى كانوا أهل ملك عظيم ودين كبير هكذا (وان كان الفرق كبيرا) أبناؤهم وهم أهل مصر ومن حولهم من أهل الشام وفلسطين والمغرب والعراق والموصل فكفى هذه الأمم أن يظهر فيهم نابغة كظهور مصطفى باشا كامل حتى يعلموا حقوقهم وينفضوا عن رءوسهم غبار الذل وينهضوا ببلادهم ، ودليلى على ذلك حال التلاميذ بمدارسنا و نقلابها فى زمن قليل جدا ، فهذا دلنى على أن هذا الشبل من ذاك الأسد . فقال رحمه الله : أنا قلت لك لامانع أن يحصل أمر غير عادى . فقلت : لكن أنا لا أقول ذلك ، بل أقول هو أمر عادى ، فان المسألة علم وجهل فالعرب متى عرفوا نهضوا ورجع لهم مجدهم . انتهى الحديث

مصداق هذا الحديث

حديثى مع نجله فؤاد باشا سليم

و بعد سنين قليلة توفى المرحوم لطيف باشا فذهبت الى منزله بالعباسية لأعزى نجله فؤاد باشا سليم ، فلما رآنى بكى لعلمه بمودة أبيه لى ، وحكى لى مايأتى . قال :

« إن مصطفى باشا كامل لما أسس الحزب الوطنى وأصبح هو رئيسه وأنا ناموسه (سكرتيره) ، كان والدى إذ ذاك فى مرض موته ، فدخلت عليه ، وسألنى ماذا فعلتم ؟ فقلت : هانحن أولاء أسسنا الحزب الوطنى فقال : يافؤاد اجتمع المصريون ؟ فقلت نعم يا والدى وأنا سكرتير الحزب الوطنى . فقال : لوقالها غيرك لم أصدقه ، أنا أموت وأنا مستريح الضمير إذ رأيت المصريين اجتمعوا فى حياتى » اهـ

فقلت له الحمد لله إذ صح ما استنتجته قبلا فى حديثى معه وظهر له صدق فراستى فى أمة العرب والأمة المصرية . أكتب هذا الآن وفى بلادنا الأحزاب الآتية : الوفد . الحزب الوطنى . حزب الاتحاد . حزب الشعب حزب الأحرار الدستوريين . إذن أصبح ما كان فراسة أولا يقينا الآن ، وعليه أقول حقا وصدقا إن الأمة العربية على بكرة أبيها لاينقصها إلا التعليم ، والذى قتلها هو الجهل ، فهى أمة متروكة مهملة وقد أقبلت أيام سعادتها وهاهى ذه أخذت تقوم من رقدتها . وههنا أذكر بعض ما كان لها من المجد فى العلوم الطبية فى الشرق والغرب والآثار العمرانية ، وأخص بالذكر بلاد الأندلس ، وأقفى بذكر ماحاق بها من الذل والهوان فى القرون الأولى بسبب تفرق وحدتها ، ثم أتبعه بنتائج ذلك اليوم فى البلاد الاسلامية ، وأخص بالذكر تونس ومراكش ، ثم أقفى بما ساقه الله من الدلائل على مستقبل باهر للأمة العربية والأمم الاسلامية ، وذلك بذكر مسألة الوطن القومى لليهود فى فلسطين ، وكيف كانت هذه أول أساس أخذ المسلمون يبنون عليه اتحادهم ، فالعرب جميعا اتحدوا مع أهل فلسطين فى ذلك ، ثم إن دفن المجاهد الكبير المولى محمد على الهندى فى فلسطين وتوطيد المودة بين العرب والهنود المسلمين أمر لم يسبق له فى التاريخ نظير ، ثم أبين أن هذه الحوادث ترجع لآيتين إحداهما آية « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس » فى سورة حم غافر ، والثانية هنا وهى « وانه لذكر لك ولقومك » وإيضاح المسيح الدجال هنا والعلم العيسوى ، فهذه سأوضحها فى ﴿ سبعة فصول ۞ الفصل الأول ﴾ فى أثر الطب العربى فى تطور الطب الفرنسى ﴿ الفصل الثانى ﴾

فيما قاله الأمير شكيب أرسلان فى رحلته الى بلاد الأندلس للدلالة على عظمة آثار العرب ﴿الفصل الثالث﴾ فيما جاء له أيضا فى كوكب الشرق من تخالف الأمم العربية قديما وتضافر الأمم عليهم فذهبت دولهم ﴿الفصل الرابع﴾ فى نتائج ذلك التفرّق القديم الذى حلّ بالمسلمين اليوم فى تونس ومراكش ﴿الفصل الخامس﴾ فى حادث الوطن القومى لليهود ، وكيف كان سببا لوضع أساس للاجتماع بعد التفرّق ﴿الفصل السادس﴾ فى حادث لم يسبق له نظير من اتحاد العرب والهند بعد ذلك ومن دفن المجاهد الكبير (محمد على) بالقدس وتصريحات أخيه المولى شوكت ﴿الفصل السابع﴾ فى أن هذه الحوادث ترجع لآيتين من كتاب الله تعالى الأولى « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس » وقد تقدم بيانها فى سورة حم غافر ، وفيها شرح أمر الدجال ، والثانية هنا وهى « وانه لذكر لك ولقومك »

الفصل الأول

فيما ذكرت به أمة الاسلام عموما والعرب خصوصا فى علم الطب

وذلك فى مقالين : المقال الأوّل وهوما جاء فى مجلة « الجامعة الاسلامية » المقال الثانى وهو ما جاء فى جريدة الاهرام تحت عنوان « أثر الطب العربى فى تطوّر الطب الفرنسى » وذلك كله إيضاح لقوله تعالى هنا « وانه لذكر لك ولقومك » وهاك نصهما :

البحث عن تاريخ العلوم

أو

تأثير المدنية العربية الاسلامية فى نهضة الغرب

فى أوروبا اليوم حركة عظيمة للبحث عن منشأ العلوم الحاضرة وعن كيفية تطوّرها ، ولقد كان من أكبر العوامل على هذه الفكرة أحد العلماء الطبيعيين الافرنسيين الكماوى (مارسلين برتسلو) ولهذا العلامة فضل كبير فى جلب أفكار الاوروبيين الى مسألة هامّة وهى تاريخ العلوم ، لقد أدرك (برتسلو) انه لابد من دراسة تطوّر الفكر البشرى فقال لابد أن ندرس كيفية تطوّر العلوم فى الأزمان المختلفة ، فألف لذلك كتابا سماه تاريخ العلوم ومنذ ذلك الحين عمت فى أوروبا فكرة جديدة وهى أنه لايجوز أن ينظر الى مافكر فيه السالفون كأنه أساطير الأوّلين لأن الرقىّ لا يكون إلا بالتدريج أى كل عصر من العصور مدين للعصر الذى قبله ، ولايمكننا أن نتصوّر أمة تنشأ فجأة كما نرى ذلك فى كثير من كلامهم ، وترى الاوروبيين يهتمون الاهتمام العظيم فى هذا الشأن وينفقون له كثيرا من القوى المادية والمعنوية ، ففى كل قطر من الأقطار عدة معاهد لهذا الشأن بعضها للبحث عن تاريخ الطب ، وبعضها للبحث عن تاريخ العلوم الطبيعية ، أما تاريخ الفلسفة فقد اشتغل فيه كما لايخفى أناس كثيرون منذ أجيال عديدة ، ولايمكننا أن نتصوّر أن شخصا درس الفلسفة إلا واهتمّ بتاريخها قبل كل شىء ، ففى ألمانيا اليوم عدّة أساتذة وقفوا كل حياتهم لهذا الغرض ، وقد عثروا فى طريقهم على نقط هامة ، وليس غرضهم هنا معرفة المنشأ ولمن الفضل فى نشر العلوم فحسب ، بل يودّون أن يعلموا الى أى جهة تتجه معارفنا (أى معرفة الماضى والحاضر للتفكير فى المستقبل) كما اتضح لبعضهم ان العلوم المادية برقىّ عظيم والمعنوية بانحطاط مستمر فثابروا على إحيائها ، وبذلك قطعوا خطوات واسعة ، وتهتم الحكومات الاوروبية لهذا الشأن اهتماما كثيرا فساعدت علماءها على نشر ما كشفوه من الامور وعلى عقد مؤتمرات يحضرها العلماء من أقطار مختلفة ليتبادلوا الآراء وليعرفوا صوابهم وخطأهم بالبحث مجتمعين ، وقد عقد فى منتصف شهر أيار الماضى من السنة الحالية مؤتمر بن المللى (كذا) فى باريس حضره علماء من أصقاع مختلفة ، هل تعلم

ماذا

ماذا كان أهم شيء تداوله المؤتمر ؟ وجوب تعلم تاريخ الأمة العربية ، وأن أكبر عثرة واقفة أمام طريقهم هي معرفتهم تاريخ الأمة العربية حق المعرفة ، وما دامت الحالة على هذه لايمكنهم أن يداوموا البحث بصورة جدية ، ولقد سمعت هذا من أستاذين كبيرين : الاستاذ سيغريست المتخصص بالطب عند العرب فى لبزيغ ، والاستاذ روسكا رئيس معهد البحث عن تاريخ العلوم الطبيعية فى برلين . وهناك كتب خطية عديدة ولاأظنها إلا بيعت بثمن بخس هى اليوم فى مكتبات أمهات مدن أوروبا محفوظة فى أعز موقع لايسمح لنا برؤيتها إلا بكل صعوبة ، تفتخر كل أمة من الأمم بأنها بين خزائن كتبها . ولايمكننا أن ننالها ولوأنفقنا فى سبيل ذلك ما أنفقنا من الأموال الطائلة ، هكذا كانت تلك الكتب القيمة ذليلة بيننا ، عزيزة عند من يعرف قيمتها ولقد أحرز اثنان من بنى وطننا وهما السيدان : كامل عياد ومحمد أبوغنيمة ، لقب دكتوراه فى جامعة برلين ، الأوّل فى الفلسفة ، والثانى فى الطب ، لاشتغال الاول فى ابن خلدون ، والثانى بالطبيب العربى الجرّاح أبى القاسم الزهراوى ، فأهمية ابن خلدون كما قال عنه كبار الغرب انه هو أوّل من وضع التاريخ ضمن علم ، وجاء بنقد التاريخ ، وتقبع الحوادث التاريخية ليحصل الانسان على نتائج لابد منها لمعرفة الشعوب ومزاياها وتطوّرها وحسناتها وسيئاتها ، أما أبوالقاسم فقد ذكر عنه الدكتور أبوغنيمة بأنه سلك طريقا فى التداوى بالكىّ يشبه تمام الشبه الجراح الشهير الاستاذ المستشار (ببر) وقد ذكر قاموس المحيط الألمانى عن أبى القاسم هذه الكلمات :

« ولد أبوالقاسم فى الزهراء من مدينة قرطبة وتوفى سنة ١١٠٦ — ١١٠٧ ج وقد كان شهيرا فى الجراحة ، وأهميته لاتزال حتى هذا اليوم فى التاريخ ، وله كتاب فى الطب الذى ألفه وترجم الى اللاتينية للمرّة الأولى من غريم سنة ١٥٣٢ م »

أما القسم التشريحى وهو خيرما ورث من الطب العربى ، فقد ترجمه الى اللاتينى فى أوكسفورد سنة ١٧٧٨ العالم الانكليزى شانينغ . فنجد أهمية البحث عن تاريخ العلوم هنا وكيف كانت تدرس العلوم من منابع عربية ، وقال السيد الدكتور محمد شرف فى المقدمة من معجمه الانكليزى العربى مانصه : « بقيت جامعات أوروبا أكثر من خمسة قرون تعتمد فى مادّتها العلمية على الكتب العربية ، وفى نهاية القرن الخامس عشر كانت الكتب العربية المستعملة فى جامعة توبنجين أضعاف الكتب اليونانية ، وكانت مؤلفات الرازى وابن سينا أساس التعليم الطبى فى (جامعة لوقان) فى القرن السابع عشر ، واستمرّت مؤلفات ابن سينا تدرس فى جامعة الطب الكبرى فى (مونبيليه) حتى القرن الثامن عشر »

ولقد ألقى الاستاذ المتخصص فى تاريخ الطب (سيغريست) محاضرة فى الحفلة التى اقيمت على مضى ألف سنة على الطب العربى فى المعهد الطبى الألمانى التابع لجامعة برلين هذه خلاصتها : « نحن مدينون للعرب بجزيل الشكر لهذه المدنية الزاهرة التى ننعم بها . أهمية المدنية العربية كبيرة لأننا اذا وصلنا الى آخر حلقة من حلقاتها نجدها متصلة بنا ، فاذا أخذنا مثلا اكتشاف ميزان الحرارة من قبل (غاليلة) نجد كتب طب ابن سينا الأساس الذى نمشى عليه فى ذلك العهد ، عندنا اليوم كثير من التعابير اليونانية لايمكننا فهمها إلا اذا ترجمناها للعربى ، تاريخ الأمة العربية قبل الاسلام لايهمنا كثيرا حيث لاصلة له بنا ، ولكن الذى يهمنا منذ نشأة محمد ﷺ ذلك الرجل الذى عرف توحيد القبائل وغرس الفضيلة فى قلوب الناس . وما مضى على ظهور هذا الرجل قرن واحد إلا رأينا مدنية زاهرة وحكومة عظيمة عادلة ، فنجد أولاد الصحراء القاحلة يفتحون العالم وينشرون العلوم والفنون فى أرجائه المختلفة

وقد ازدهرت العلوم فى عهد العباسيين وترجموا كثيرا من آثار اليونان وقد كانوا مترجمين فأصبحوا بحاثة وانا نعجب حتى يومنا هذا كل العجب بتلك القابلية العظيمة التى كانت عندهم ، فنجد شخصا واحدا تجتمع

فيه ميول عديدة مثل الفخرالرازى الذى ألف ألف مجلد ، وكان رئيس مستشفى وفيلسوفا وموسيقيا ومن محبى الفنون الجيلة ، ولايزال العجب يأخذ منا من ابن سينا الذى أراد أن يستخرج قانون الطب على حسب المنطق فنجده سياسيا دينيا حقوقيا طبيبا منطقيا ، ومن يذهب اليوم الى قرطبة يرى غابة من المرمر الجميل ويرى الآثار التى تنبئ عن وجود (٥٠) مستشفى ، ويرى المكتبة التى تحتوى على (٤٠٠) ألف مجلد ، ويرى الجامع القديم هناك يدرك ولاشك أهمية تلك المدينة ، ثم اذا مر بعد ذلك على قصر الزهراء يكون فى القصر الذى ولد فيه الطبيب العربى الجراح (أبوالقاسم)

ولقد كان لظهور هذا العالم أهمية عظيمة فى الجراحة حيث كانت العرب قبله تخاف من الموسى ، وأهميته على قسمين : نظرية وعملية . أما الأولى ففى تغيرأفكار الناس من وجهة الجراحة والنظر للمريض بعين الشفقة أما العملية فهى ترقى أسباب الطب الجراحى الى أن صار بالصورة التى نراها اليوم

الآن لقد انعكس الأمر (مخاطبا طلبة العرب) فنحن يجب أن نؤدى ماعلينا نحوكم من الواجب ، وهذه العلوم التى ترونها اليوم عندنا قدورثناها عن أجدادكم ، عندكم واجب كبير ولكم مجد عريق وسلف صالح ، يجب عليكم أن تفهموا تاريخكم ومدنيتكم ، وكم من الكنوزالعربية الثمينة أصبحت اليوم مدفونة للاهمال ، ومؤتمرالعلوم فى باريس أفهمنا جهلنا بتاريخ العرب ، وقد ساعدونا على درس تاريخكم وحضارتكم

وعليكم واجب ثان ياطلاب العرب ، الشرق اليوم يتحين النهضة وأنتم ستنقلون المدنية وتعلمون الناس كما فعل ذلك حنين بن اسحق وستكونون بادئ ذى بدء مترجمين فتصبحون بحاثة . ولايبعد أن يكون بيننا رجل يحتفل فيه أيضا بعد ألف سنة كما نحتفل اليوم فى هذا المكان بأبى القاسم ، ولقد قال المستشار الاستاذ (هيس) مديرجامعة برلين هذه الكلمات : « نحن نهتم بتاريخ الطب العربى لامورثلاثة :

﴿أولا﴾ الجد والاجتهاد الذى لايعرف الملل الذى كان عندهم

﴿ثانيا﴾ حب الاطلاع وأداء الواجب المجرد عن أى شخصية

﴿ثالثا﴾ تحمسهم للمعرفة وشرف الصنعة عندهم

فلذلك لاعجب أن نرى ممن اجتمعت فيهم هذه الصفات أن يكونوا من أحسن البحاثة »

ليتنا قدرنا هذه الحقيقة كما يقدرها الاوروبى الذى لايريد من ذلك إلا أن يزيدمداركه ومعارفه ليتقدم الى الأمام ، وقد بحثوا أيضا فى العلوم الطبيعية التى كانت عند العرب مباحث كافية . ونشروا كذلك كتبا عديدة كمصنفات فى الكيمياء لجابر بن حيان نشره هولمبارد الانكليزى وطبع فى باريس ولقد اطلعت على هذا الكتاب فوجدت نظريات جة فى العلوم الطبيعية الموجودة فى ذلك الزمن و بين الآراء الطبيعية اليوم . وأكبر فضل وجدته فى جابر هو تقديره للعمل والتجربة إذ يقول : « وملاك كمال هذه الصنعة العمل والتجربة ، فمن لم يعمل ولم يجرب لم يظفر بشىء أبدا »

ثم قوله أيضا : «كل شىء طبيعى فاعتمد عليه » ويوجد أيضا كثير من التعقيدات التى وضعها قصدا لكى لايبوح بسر الصنعة

ونشرأيضا فى فن المستعدنات تأليف (التيفاش) طبع فى روما . وكتاب الأحجار لأرسطاطاليس ترجمه (لوقا بن اسرافيون جعه) وترجمه الى الألمانية الاستاذ (روسكا) . وقد قال فى مقدمة الكتاب الكلمات الآتية : « ليست الأسفار اليدوية ولا الأدب الذى جاء بعد الاسلام هوالذى رفع اسم العرب فى الغرب فقط اذا أردنا أن نعرف تأثير المدنية الاسلامية فى المسيحية الغربية فلنتفكر فى الرياضيات والفلك والكيمياء والطب كيف كان علماء الاسلام يشتغلون بها بعدأن فقدت علوم اليونان الى يومنا هذا ففيهانرى الأسماء الفنية المشتقة من العربى وكيف كانت العلوم زاهرة تحت راية الاسلام وكيف تعلق الغرب المسيحى بالشرق الاسلامى»

هكذا

هكذا يشتغل الاوروبيون فى البحث والتنقيب عن تاريخنا ومدنيتنا وينشرون بذلك كتبا قيمة ويقيمون حفلات عظيمة لكل عالم خدم البشرية خدمة صادقة ، ونحن ننظر اليهم كأساطير الأوّلين ، أيطربنا هذا الاهمال ؟ أيطربنا تفرّقنا شيعا وأحزابا بين قديم وحديث ، ونحن اليوم بأشد الحاجة أن نمدّ يد الاخاء الى بعضنا للجد والاجتهاد ؟

وقد قال لى أحد الاخوان أثناء احتفال ألف سنة على الطب العربى ، وفى نفس الوقت نقيم مأتما على خروج المدنية من أيدينا ، ولاينفعنا الحزن واليأس بل السعى والجدّ ، النوم كان طويلا فكل شىء أمامنا صعب جدا ، وكلما تقاعسنا عن العمل ازدادت الصعوبة ، هكذا كان أجدادنا فى غابر الأزمان واليوم فقدنا كل شىء من أثر الأجداد ، ولم يبق لنا غير ذكريات الماضى نسمعها من العلماء الغربيين

إن كنا حقا نحب ذلك السلف الصالح رحمهم الله فلنسترجع همم الخلف لنعيد لنا ذلك الشرف فانا بهم مقتدون ، وانا على آثارهم لمهتدون

برلين　　　　　　محمد يحيي الهاشمى

***

ومما يناسب ذلك أيضا ماجاء فى جريدة الاهرام يوم ١٥ مايو سنة ١٩٣٠ تحت العنوان التالى وهذا نصه :

أثر الطب العربى

ألقى الدكتور البارع يوسف أفندى حريز الحائز لشهادة الامتياز من كلية باريز محاضرة فى نادى مدرسة الطب عن أثر الطب العربى فى تطوّر علم الطب فى فرنسا ، ولأهمية هذا الموضوع رأينا نشر خلاصة تلك المحاضرة القيمة . قال المحاضر :

« من المتعارف أن الاغريق كانوا منذ ألفى عام حملة الطب القديم ، أكان ذلك بعض ماخلفه الاسكندر الأكبر عقيب غاراته المشهورة على الشرق ، أم ان هنالك بقايا معلومات طبية يونانية الينبوع ، قد يكون الصواب بين هذين . على أن العرب لم يتصل بهم فن الشفاء إلا بعد قيام الدولة الأموية ، ولئن كان العهد الجاهلى فيه بعض من مارس الطبابة إلا ان خالد بن يزيد بن معاوية كان أوّل من نقل العلوم الطبية والنجوم والكيمياء الى العربية ، وكذلك فعل جابر بن حيان . على أن الحركة العلمية التى بدىء بها فى صدر الدولة الأموية لم يتح لها أن تبلغ شأوا بعيدا إلا فى صدر الدولة العباسية ، وعلى الأخص فى عهد المأمون سابع الخلفاء العباسيين الذى حمل رأسه أرفع عمامة فى الشرق والاسلام . ولما انتهت هذه البذور الجديدة الى ذلك المستنبت العربى العجيب ظهرت قرائح طبية من الطراز الأوّل فى القرن العاشر للميلاد أعدّ منها الرازى أبا بكر محمد بن زكريا فى آسيا وابن الجزار فى افريقيا بالقيروان وأبا القاسم عباس بن خلف الزهراوى فى الأندلس . أما الرازى فقد ترجمت مؤلفاته الى اللاتينية فى الجيل الثانى عشر للميلاد وكانت عمدة التدريس فى أوروبا جميعها وعلى الخصوص فى مدرستى مونبليه وباريس بفرنسا كما تشير اليه بكل تفصيل أطروحتى فى جامعة باريس الموسومة « حظ الطب العربى فى تطوّر الطب الافرنسى »

وللرازى مؤلفات عديدة أوصلها كتاب « عيون الأنباء » الى المئة ، ومما يدهش فيها تعدّد مواضيعها وبحوثها ، فقد كتب الرجل فى الفلك ، وقال بدورة الأرض ، وكتب فى الطب والتفسير والكيمياء والالهيات الى آخر ماهنالك من شتى المذاهب والأبحاث . وبمناسبة عيده الألفى أنشأت عنه محاضرة فى المجمع العلمى فى دمشق الشام فى شهر اكتوبر المنصرم ، وله بيتان مشهوران من الشعر لابأس من ايرادهما قالهما حين حضرته الوفاة بعد أن عمر مئة من الأعوام وتزيد :

لعمرى لا أدرى وقد آذن البلى ✲ بعاجل ترحال الى أين ترحالى
وأين مقرّ الروح بعد خروجه ✲ من الهيكل المنحل والجسد البالى

ومنه يستدل على شكه العلمى . وأما ابن الجزار فهو تلميذ سليمان الاسرائيلى ومن أكبر مؤلفى العرب فى الجيل العاشر للميلاد . وضع فى القيروان كتابه الموسوم بزاد المسافر ونقله الى اللاتينية فى الجيل الحادى عشر (لاون) الافريقى كبير النقلة من العربية الى اللاتينية فى الجيل الحادى عشر كما كان جيرار الكرمانى كبيرهم فى الجيل الذى يليه ، وفى ابن الجزار وكتابه زاد المسافر يقول كشاجم :

أبا خالد أبقيت حيا وميتا ✲ مكارم ذاعت فى البلاد عظاما
رأيت على زاد المسافر عندنا ✲ من الناظرين العارفين زحاما
سأذكر أفعالا لأجد لم تزل ✲ مواقعها عند الكرام كراما

وأما أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى فقد كان بلاشك جرّاح عصره وأستاذ القرون الوسطى فى ذلك الفن ، ولقد نشرت له مجلة ﴿ المعهد العلمى ﴾ بدمشق الشام منذ عامين رسوم أدوات جراحية وجدت فى إحدى منسوخات كتبه وكلها تشير اشارة لاتقبل الاعتراض الى معارفه التشريحية وطول باعه فى هذه الصناعة

الجيل الحادى عشر

كان من أكبر كواكبه الشيخ الرئيس ابن سينا ، وقد كان اهتمام أوروبا به بالغا حدّ الاعجاز فقد نقلت الى اللاتينية وشرحت كتبه وذيلت مايقارب الأربعين من المرات . على أن أكبر مؤلفاته الطبية وهو القانون موجود اليوم بالعربية فى قاعة المطبوعات فى المكتبة الأهلية بباريس وهو طبع روما ، ويرجع تاريخ طبعه الى الجيل السادس عشر أى فى أوائل عهد الطباعة كما هو معلوم ، ولابن سينا فى قاعة المطبوعات بباريس كثير من كتبه أذكر منها كتابا لبقراط فى الطب العام ، وقد كتب على الصفحة الأولى منه : « هذا الكتاب ملك أبى الحسين على بن سينا المتطبب »

وعلى الجدار الامامى للبهو الكبير فى كلية الطب بباريس رسم أطباء الانسانية من عهد أبى الطب بقراط الى يومنا ومن جلتهم الرازى وابن سينا والزهراوى

الجيل الثانى عشر

وانتقل مصباح العلم من الشرق الى الغرب وكان بنو زهر على رأس الحركة العلمية لذلك العهد وحفيدهم أبو العلاء وهو أشدّهم صداقة متينة وصلة بابن رشد فيلسوف الأندلس وطبيبها ، و بينما كان ابن زهر يظهر عدم اكتراث بمؤلفات الرئيس ابن سينا كان ابن رشد يشرح أرجوزة الرئيس ، وكتب هؤلاء المؤلفين الكبار نقلت الى اللاتينية فى القرن الثالث عشر والرابع عشر وكانت موضوع التدريس فى أوروبا جيعها مئات من الأعوام . أما ابن رشد فقد ظلّ لمذهبه الفلسفى أثر جديد ، وآخر من اهتمّ به الفيلسوف الكاتب (أرست رينان) فقيد فرنسا ، ولما كان الرازى أوّل من وصف الجدرى وكتب فى أمراض الأطفال وفى واجبات الطبيب ، كان ابن زهر أوّل من تكلم عن الشعور فى العظام ، ووصف عالم الجرب ودعاه بالصواب ، وأسهب فى وصف الكسر والوشاء ، وكذلك كان الزهراوى أوّل من أشار بالكىّ واستعمل حجر جهنم الى آخر ماهناك من ضروب العلاج

وأختم كلمتى هذه بأن أرى من طلاب للدارس الطبية فى الشرق أمثال الأعلام من سبق ذكرهم فنعيد

للشرق رونقه الغابر ونسير مع أبناء المعمور فى سبيل رفاهية الانسانية ، وما على المجتهد أمر عسير . والى هنا تمّ الكلام على الفصل الأوّل والحمد لله رب العالمين

الفصل الثانى

فى بعض أسرار قوله تعالى « وسوف تسألون » وأن هذه الأمة عوقبت فى الحياة الدنيا فضلا عمـا تعاقب به فى الآخرة وذلك فى ثلاث مقالات ، وهاك نصها

المقالة الأولى

جاء فى جريدة « المؤيد » بتاريخ يوم الأربعاء ٣ ربيع الثانى سنة ١٣٤٩ هجرية تحت عنوان « الرحلة الى الأندلس » وفى مدريد وطليطلة للأمير شكيب أرسلان مانصه :

وصلت أمس الى مدريد آتيا من سرقسطه التى كان العرب يسمونها بالثغر الأعلى كما يسمون طليطله بالثغر الأدنى ، وقد استغرقت معنا الطريق من سرقسطه الى مدريد نحوا من ست ساعات بالسكة بالسير السريع مررنا فيها على قرى ومدن معروفة من زمان العرب مثل قلعة أيوب والحمة وغيرهما ، والحمة حمام سخن كما يفهم من اسمها ، وجميع هـذه القرى والمدن الصغار التى شاهـدناها فى أثناء اجتيازنا الى مدريد مبنية على أنهر وجداول ومحاطة بالجنان والبساتين وهيئتها شامية فى تربتها وأشجارها وزروعها حتى فى جبالها ووهادها فلاعجب ان رغب أهل الشام أكثر من كل العرب فى سكنى الأندلس ، فانهم ما انتقلوا من شام إلا الى شام ومن لم يشاهد اسبانيا لم يعلم سبب الجاذبية التى بينها و بين سورية ، ولكن متى شاهد هذه الديار فهم السبب فالأندلس فى الحقيقة قطعة شرقيـة فى الغرب ، أوقطعة غربية من الشرق ، ولقد ذكرت لقرّاء رسائلى انى سأخرج إن شاء الله كتابا مستقلا عن رحلتى الى الأندلس ، فلاينتظر القرّاء منى هنا إلا اشارات بسيطة ولمحات دالة ، وقد كان يخفق فؤادى طول هذه الطريق من مشاهدة المآذن التى كنا نراها فى كل قرية من القرى التى كانت السكة تشقها أوتمرّ حذاءها ، فهى باقية على حالها بطرزها المعمارى العربى وشراريفها وطاقاتها ومحاربها وكلها مربعـة الشكل على نمط مآذن المغرب وما تغير فيها إلا وضع الأجراس فى أعلاها وتحويل المساجد الى كنائس فى أدناها ، وجميع البشر يريدون الله ، وكثيرا ما كنا نرى منارتين أوأكثر حول مسجد واحد مما يدل على أن المساجد كانت لعهد العرب أوسع مما هى الآن وهى كنائس وأن القرى التى هى اليوم قرى متوسطة الحال كانت فى دور الاسلام قصبات كبارا وأن القصاب التى لاترتفع اليوم الى درجات مدن كانت مدائن حافلة فان المساجد التى تبنى من فوقها منارتان وثلاث وأربع لاتكون إلا فى المدن الزاخرة العمران ، وقد صادف وجودى فى القطار بعض نبهاء من الفرنسيس لحظوا هم أيضا مالحظته أنا

أما مدريد فهى عاصـمة من أجل العواصم الغربية لاينقصها شىء عن عواصم الممالك الأخرى من سـعة شوارع ، ونظافة أزقة ، وضخامة شأن ، وفخامة بنيان ، وعظمة ساحات ، وتراخى مساحات ، واشتباك أدواح جنائن ، ونضارة أزهار وحدائق ، وانتظام شامل كل معانى المدنيـة مع مزية فيها هى ارتفاع الصقع واشراف يشعر معه الغريب بانشراح الصدر

ليس لمدريد ماينقصها إلا حداثة تاريخها إن كان هذا يعدّ نقصا ، فانها ليست كبرشلونه التى يرجع تاريخها الى دور الفينيقيين الذين لم يحبوها إلا لشبه سواحل هـذه البلاد بسواحل سورية ، ولا كسرقسطه التى كانت كرسيا لمملكة أراغون بعد أن أخذها الاسبانيون من بنى هود الجذاميين ، وقد كان لها دور مجيد فى زمن الرومان واشتق اسمها سرقسطه من (سيزراوغسطا) أى القيصر أوغسطس الذى كان له مزيد العناية بها ،

ولم تكن مدريد كطليطلة عاصمة القوط يوم دخل العرب الأندلس ، ولا كقرطبة كرسي الخلافة الأموية لعهد اكتمال عظمتها في الغرب واشتمالها على الممالك من جنوبي فرنسه الى السودان ، ومن البحر المحيط الى طرابلس الغرب . كلا . فمدريد كانت في أيام العرب قرية غير ذات شأن بني العرب فيها حصنا في وجه بوارقشتالة اسمه مجريط وذلك في القرن العاشر

ثم لما أخذ الاسبانيول يسترجعون البلاد مستفيدين من قتال العرب بعضهم لبعض (هذا المرض العربي الذي كان ولايبرح رأس كل بلاء هذه الأمة) استرجع الاذفونش السادس ملك قشتالة حصن مجريط بعد نحو ١٥٠ سنة من بناء العرب إياه ، والقصر الملوكي الحالي مبني في محل جامع كان مسجدا لقرية مجريط التي تحوّل اسمها الى مدريد لقرب مخرج الجيم من الدال وقرب مخرج الدال من التاء أوالطاء ، ولكن الذي جعل مدريد مدريد هوفيليب الثاني ابن شرلكان ، وانما اختارها برغم خقولة باديتها وجدب ضاحيتها لأجل توسطها من بلاد اسبانيا ، فسرقسطة ضاربة الى الشمال الشرقي و برشلونة مرمى إواقع في طرف قرطبة مائلة الى الجنوب واشبيلية ممعنة في التغرب وهلمّ جرا ، فبهذا عمرت مدريد وهي أحدث أسبانية تاريخا وارتفعت وانخفض ما كان مرتفعا قبلها والله يرث الأرض ومن عليها

ثالث يوم وصولي الى مجريط أومدريد قصدت الى طليطلة التي لاتبعد عنها بسكة الحديد أكثر من ساعة ونصف فزرت تلك المدينة الشهيرة عاصمة الأندلس يوم فتحها العرب ، وشاهدت كل مايشاهده السائح بها و بقيت بطليطلة نحو ثماني ساعات أبحث على آثار العرب وأحدّق في هذا القصر وهذا الجسر وتلك المنارة وهاتيك المأذنة وأقبل ذا الجدار وأتمسح بذلك الركن حتى شفيت غليلي من طليطلة ، فقد كان في نفسي منها ما كان في نفس اقراء حتى كنت منذ عهد الحداثة أحفظ قول القائل :

زادت طليطلة على ماحدثوا ✻ بلد عليه نضرة ونعيم
الله زينه فوشح خصره ✻ نهرالمجرّة والغصون نجوم

فرأيتها كما قيل بلدة عالية مشرفة على نهركبير هونهر (تاجه) الذي ينتهي الى البحرالمحيط عندأشبونة (ليزبون) وقد انخفض النهرالمذكورعن طليطلة وأحاط بها من الجهات الثلاث فهي لاتساوي البرّ إلا من جهتها الشمالية ، وعلى النهر بساتين وأشجار ، وفي ضفافه غياض وجنان ، ومنظر هذا النهر ومايليه من بسائط طليطلة من أبدع المناظر التي سرحت فيها طرف طرفي على رأي الكتاب ، وكذلك حصانتها ظاهرة للعيان وقد قلت لما دخلتها : انه لا يمكن أن تؤخذ إلا بجوع أوبخيانة ، ولاسيما في الأعصر التي أخذت فيها ، وكنت أعلم من تاريخ الأندلس أن بني ذي النون أساءوا التصرّف فيها حتى آل الأمرالى استرداد الاسبانيول إياها قبل جميع حواضر الأندلس حاشا برشلونه ، فلما رجعت الى مدريد راجعت التواريخ بالتدقيق ، فأيدت المراجعة حدسي ، وقرّرت ماجال في نفسي ، وتحريرالخبر أن القادر بن ذي النون كان ضعيف التدبيرفائل الرأي فطمع فيه جيرانه من أمراء المسلمين وطفقوا يعتدون عليه و يتجاوزون ، فذهب الى الفونس السادس ملك قسطيلية أوعلى حسب قول العرب الاذفنش طاغية قشتالة وطلب حمايته ، وجاء الاذفنش بجيش ومعه القادر بن ذي النون ليفتح له بلدته التي كانت هي أيضا تمرّدت عليه ووعده الاذفنس بأنه يفتحها و يقرّه فيها ، فلما دخلها بسبب تفرّق كلمة أهلها قلب له ظهرالمجن وأقطعه بلادا أخرى ؛ واستولى الاذفنش على طليطلة وأعادها لحاضرة الملك كما كانت يوم دخل العرب الأندلس

وكم في العالم الاسلامي من أمثال القادربن ذي النون قديما وحديثا ينخدعون بأقاويل الأعداء و يستسلمون اليهم ويثقون بعهودهم حتى اذا ماتمكن هؤلاء بواسطتهم من مرادهم قلبوا لهم ظهرالمجن وأرسلوهم يقرعون سن الندم على ثقتهم بهم ولكن حين لاينفع قرع السن على حسن الظن ، فكان استرداد

الاسبانيول

الاسبانيول لطليطلة مبدأ مصيبة الأندلس لأنه بأخذها أخذ الاذفنش اقليما طويلا عريضا فيه ثمانون منبرا ، ودخل فى وسط بلاد الاسلام منها ، فحال بين قرطبة وغرناطة من الغرب ، وسرقسطه ولاردة وقلعة أيوب من الشرق حتى قال الشاعر :

الثوب ينسل من أطرافه وأرى ✲ ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

والى هنا تمت المقالة الأولى

المقالة الثانية

ثم انه لما استوثق لصاحب قشتالة أمر طليطلة وتمكن بها طمع فى قرطبة ومازال حتى أخذها ، ثم فى أشبيلية ومازال حتى أخذها ، وانهار بعد ذلك ملك الاسلام بالأندلس ، ولولا نجدة المرابطين ثم الموحدين من أفريقية لسقطت الأندلس قبل أن سقطت بنحو (٣٥٠ سنة) فأبناء تاشفين ثم من بعدهم أبناء عبدالمؤمن هم الذين شاء الله أن ينسأوا أجل الاسلام فى اسبانيا تلك المدة ، وأما السبب فى ملك ابن ذى النون لطليطلة وجلبه الاذفنش اليها فهو انصداع الخلافة فى قرطبة وتشظى عصاها بتوالى الفتن ، حتى انه لما رأى أمراء الأطراف أن أمر الخلافة لم يعد جيعا استقل كل أمير منهم بما بيده ، فابن ذى النون بطليطلة وابن هود بسرقسطه ، وابن عباد بأشبيلية ، وابن صمادح بالمرية ، وابن الأفطس ببطليوس وهلم جرا

وهؤلاء هم الذين يقال لهم ملوك الطوائف ، لم يكن لهم شغل إلا مقاتلة بعضهم بعضا بينما العدو يلتهم منهم جيعا كل يوم قطرا : وهم مع ذلك عن غيهم لاينتهون

ولذلك ولشدة ماعانى مسلمو الأندلس من ملوك الطوائف عند مانصرهم يوسف بن تاشفين رحمه الله فى وقعة الزلاقة وأراد القفول الى افريقية فزع اليه الفقهاء وقالوا : انك بمجرد ماترجع يرجع هؤلاء الى الظلم والعسف ومقاتلة بعضهم بعضا واستنجاد الطاغية على المسلمين فنرجو منك أن تريحنا منهم وتقوم بما أخذه الله عليك وهكذا أقنعوه بأن يبسط يده على الأندلس كلها ويقضى على ملوك الطوائف ، وجاءت الفتاوى بمثل ذلك الى ابن تاشفين من الشرق حتى قيل ان الامام الغزالى أفتاه بالاستيلاء على الأندلس إزالة لمعرة ملوك الطوائف ، وليس لى أدنى اعتراض على ما فعل ولوكان ابن عباد صاحب أشبيلية لخيا وكنا نحن ننتهى الى ارومة واحدة وكان ابن هود الجذامى جدا لصديقى خالد بك القرقنى من عيون أعيان طرابلس الغرب ، وهذا عدا أن لخما وجذاما كانتا قبيلة واحدة تقريبا

وقصارى ما أعترض أنا فيه على يوسف بن تاشفين فى نفيه المعتمد الى اغمات التقصير معه فى أمر معيشته فقد كان يمكنه أن يرفه عيشه ، أو يسد خلته ، ولوكان منفيا

ولم تنجم دويلات الطوائف هذه إلا بسبب سقوط الخلافة فى قرطبة ، ولما كان حبل الخلافة مستحصفا كانت الوحدة تامة ، وكان الاسلام مهيبا ، وكان المسلمون فى اسبانيا نحو ١٥ مليونا ، وكانت قرطبة وحدها ذات مليون ومائتى ألف نسمة ، وكان وكان

فلما انتكث حبل الخلافة ، وانصدعت الوحدة ساءت الحال ، وتفرق الناس ، وزالت الهيبة ، وذلت العرب ، و بعد أن كان الناس لهم خولا صاروا هم خولا للناس

هذه هى الخلافة التى يقول بعض الناس اليوم انها لم تفد الاسلام بشىء ، بل يقولون انها كانت و بالا على المسلمين ، وما كان و بالا على المسلمين إلا ابتلاؤهم بالشقاق والتقاطع ، ولاسيما العرب الذين هم كما قال النعمان ابن المنذر لكسرى : « تراهم كلهم ملوكا »

وكل أمة يريد جميع أفرادها أن يكونوا ملوكا ينتهى أمرها بأن يملك أمرها الأجانب ولايبقى لها ملوك

وأعود الى طليطلة فأقول : عند ما كنت أقرأ :

طليطلة أدال الله منها * سواها ، إن ذا نبأ كبير
فليس نظيرها ايوان كسرى * ولامنها الخورنق والسدير

كنت أقول : ماذا عساها أن تكون هذه التي لايحاكيها ايوان كسرى ولايرتفع الى مستواها الخورنق والسدير ؟ فلما رأيتها وجدت من حصانة موقعها ، ومنعة أسوارها القديمة المبنية طبقا على طبق ما أكد لى قول هذا الشاعر وعلمت أن سقوط طليطلة هو بالفعل نبأ كبير ، لأن العرب لما أخذوا طليطلة ملكوا جميع ديار الأندلس ، ولأن صاحب قشتالة لما دخل طليطلة بدأ الانهيار فى جدار العرب ، ثم لما تذكرت قوله :

جوامعها كنائس أى قلب * على هـذا يقرّ ولايطير

لحظت أن ناظم هذه القصيدة انما نظمها ثانى سنة فتح الاذفونش لها لأنه بحسب شروط تسليم طليطلة له كان تقرر بقاء المسجد الجامع للمسلمين ووعد الاذفونش بمراعاة حقوقهم وأحسن معاملتهم فى البداية ووزع مائة ألف دينار على صعفائهم حتى يعملوا ويحرثوا ، وهذا كله حتى يخدر أعصابهم ويغرى غيرهم بالاستسلام ، وقد أفلح فى سياسته هذه ، وخدع منهم خلقا كثيرا ، ولكنه بعد ذلك نقض كل عهد عاهد به وأعاد المسجد الجامع وغيره كنائس وشاهدت تلك الكنيسة العظيمة وهى مبنية بمكان المسجد ولم يبق من المسجد الأصلى إلا قسم قليل

والبيوت فى طليطلة لم يبق منها إلا قليل من القديم ، ولكن صفة البلدة فى ضيق شوارعها ودخول بعضها فى بعض لاتزال كما كانت كأنما العرب لم يخرجوا منها إلا من خمسين سنة ، وقدبقيت اللغة العربية لغة أهل طليطلة حتى بعدرجوعها للاسبانيول نحو خمسمائة سنة يتكلم ، ويكتب بها المسلمون والمسيحيون معا ، ثم خلت طليطلة من المسلمين ، فبقى المسيحيون وحدهم ، وكذلك بقى اليهود ، ولبثت لغتهم هى العربية ، وبقى طرز بنائهم ، وأساوب معيشتهم غربيين ، واستمرّ ذلك الى سنة ١٥٨٠ مع ان ارتجاع الاسبانيول إياها كان سنة ١٠٨٥

وكان لنصارى طليطلة طقوس دينية خاصة بهم يقال انهم أخذوها عن القوط القدماء ، وليست بالتمام مطابقة للطقس اللاتينى ، ولما كانت طليطلة تحت حكم خلفاء بنى أمية أى تبعا لقرطبة كان للنصارى المستعربين فيها أساقفة كما لنصارى قرطبة ، وقدكان لمطران طليطلة فى زمان الخليفة عبدالرحمن الناصر أسقف يقال له عبـد الله بن قاسم ، وقد أطلعنى الاستاذ آسين بالاسيوس أعظم مستشرقى الاسبانيول على أربعة مجلدات مطبوعة حديثا تتضمن الوثائق والصكوك العربية الباقية كانت فى خزانة الكنيسة بطليطلة يستدل منها على أن اللغة العربية كانت هى اللغة السائدة فى تلك البلدة وما جاورها الى نحو سنة ١٦٠٠

ولقد نسخت بعض أنموذجات من هـذه الوثائق وهذا كاف من خبر طليطلة ، بل هـذا زائد على القدر اللازم لأن جميع هذه المباحث يجب ادّخارها (للحلة السندسية ، فى الرحلة الأندلسية) وماجاء منها هنا هو محض اعتداء على (الحلة) وابتسار من ثمرات الرحلة ، فمن شاء فليراجع الأخبار فى آنها ومكانها . انتهت المقالة الثانية

المقالة الثالثة

الجامعة الاسلامية لم تكن يوما من الأيام بالمعنى الذى شاع فى أوروبا تسميتها به لافى العصور الأخيرة ولافى العصور الأولى من الاسلام ، طبعا ان القرآن يوصى المؤمن أن يكون دائما الى جانب أخيه ، وأن لايفرق قضيته عن قضيته ، غير انه يأمره أيضا بأن لايؤيد إلا قضية عادلة ، وأن يقيم العدل الصحيح تجاه

كل

كل الناس دون ماتفريق فلايمكن والحالة هذه أن يكون فى الاسلام مسألة مناصرة مؤمن لغير مؤمن لمجرد كونه مسلما ، جاء فى القرآن الكريم « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولايجرمنكم شنآن قوم على أن لاتعدلوا اعدلوا هوأقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون »

إن القرآن وسنة الرسول مليئان بالمواعظ الحاثة على اقامة العدل دون ماتفريق ، الحق والحقيقة هما لله ولقد قال النبيّ ﷺ مرة « انصرأخاك ظالما أومظلوما » فسئل : كيف يعين أخاه ظالما ؟ فأجاب عليه الصلاة والسلام : اذا كففت أخاك عن الظلم فقد نصرته . ولكن اذا كان المؤمن مظلوما أينما كان وكيفما كان فان القرآن يجعل معونته فرضا مقدّسا إلا انه ينبغى ذكر أن امكان هذه المساعدة بين المسلمين يجب أن يكون ثابتا ، ويجب أن تكون درجة هذه المساعدة موضع الدرس ، فلايمكن مطلقا أن يطلب من المؤمن مالا يستطيع ، فالأقربون أولى بالمعروف والقرآن صريح فى هذه النقطة ، واليك الشروط التعاونية التى أمر بها الدين الاسلامى

فالمسلمون تعاونوا بعضهم مع بعض غالبا أدبيا وعقليا وسياسيا واقتصاديا ومادّيا ، والاسلام يقدّم الأمثلة الناصعة على هذا التضامن ، بيد انه لم يتخذ فى زمن من الأزمان شكلا عاما عالميا ، فالخلافة الموحدة فى الاسلام لم تدم إلا مدة حكم الخلفاء الأربعة الاول ، حتى ان خلافة علىّ كانت منشأ انشقاق هائل وحرب دامية بين المؤمنين ، حرب أولدت الانقسام بين السنة والشيعة ، فمنذ عهد الأمويين فى الشام ووحدة الخلافة تعرّضت لصدمة عظيمة من قبل ثورة ابن الزبير الذى انتزع منهم الحجاز مدة خمس عشرة سنة . لكن فى الاجمال ظلت الأمبراطورية الاسلامية موحدة ، وهذه الحال استمرّت زهاء قرن حتى سقوط الأمويين وقيام العباسيين الذين نقلوا قاعدة الخلافة من دمشق الى بغداد ، وفى ذلك الحين استطاع أحد الهاربين من بنى أمية أن ينجومن سيف العباسيين فقصد اسبانيا التى كان الاستيلاء عليها حديث العهد ، لكى يقيم فيها دولة مستقلة عن خصومه ، ثم ان عبد الرحمن الأوّل وهوالمسمى بصقرقريش لم يجرؤ وهو مستقل على اتخاذ لقب الخلافة لنفسه ، وظلت الأدعية العامة فى الأندلس تدعى أمامه باسم خلفاء بغداد ، وانما عبد الرحمن الثالث الفاتح الشهير الذى أخضع كل اسبانيا وجنوبى فرنسا وكل شمالى افريقيا والذى كان أبرز حاكم فى زمانه (القرن الثالث للهجرة) هو الذى تجرأ على أن يتخذ لقب خليفة بالرغم من وجود الخلفاء العباسيين فى بغداد ، وعندئذقامت عدة دول اسلامية مستقلة بعضها عن بعض ، فالعباسيون فى بغداد والأمويون فى قرطبة ، وفى حين من الدهر كان الادريسيون فى المغرب ، ثم قامت أسرة ملكية أخرى تحدث انقساما جديدا وهى أسرة الفاطميين خلفاء القاهرة (القرن الخامس للهجرة استطال حكمها حتى القرن الحادى عشر) ومن ذلك الحين فقدت الوحدة الاسلامية كقوّة سياسية ، ولم يعد التضامن الى تلك الممالك المتحدة ، وكان معترفا للعباسيين بشىء من التفوّق الأدبى ليس غير ، وكان يبدو أحيانامظهرالتضامن الأدبى حتى والمادى فى البلاد الاسلامية لكنه لم يتجاوز حدود التضامن الذى كان ممارسا فى البلاد المسيحية

وقد قدّمت الدول المسيحية فى القرون الوسطى تجاه الاسلام مثالا للوحدة التى كانت مفقودة عند الدول الاسلامية ، وذلك بتضافر الفرنسيين والألمان والفلمنك والانكليز والطليان الخ ، كتلة واحدة لحرب المسلمين فى الشرق ، فقاموا باحدى عشرة حملة صليبية ، ومن جهة ثانية رأينا أن المسلمين لما أرادوا صدّ تلك الحملات لم يتحدوا إلا فيما بين المصريين والسوريين وسكان مابين النهرين ، وهؤلاء جميعا ليسوا إلا جزءا من المسلمين وعبثا نادى صلاح الدين ودعا مسلمى المغرب لتؤازره حكوماتهم بأساطيلها القوية ، ولوأنهم لبوا دعوته لاستطاعوا أن يحولوا دون نزول الحملات الصليبية

ولئن كان بين مسلمى افريقيا ومسلمى الأندلس تضامن تجلى بتقدم الجيوش فقد كان ازاء ذلك أكثرية

منهم بجانب الشعوب المسيحية ، ولكن بين الشرق الاسلامى والغرب الاسلامى لم يسطر التاريخ أعمالا عسكرية تبودلت بشكل عام ، وقد وقع فقط أن أهل تونس والجزائر وطرابلس الذين كانوا أقلية تجاه الدول المسيحية دعوا لنجدتهم الدولة العثمانية ، وقد سارع السلطان سليمان القانونى لوضع هذه البلادتحت سيطرته إما رغبة فى الفتح ، واما فى التضامن الاسلامى ، واما لاقامة التوازن بين قوّته وقوّة شارلكان

وقد مرّ حين من الدهر لم يكن فى البحر المتوسط سوى أسطولين : أحدهما اسلامى تحت قيادة خيرالدين برباروس ، والآخر مسيحى . انتهت المقالة الثالثة

الفصل الثالث

فى أن القرآن ذكر للمسلمين عموما وللعرب خصوصا فى النهضة الحالية

ولأقدم مقدمة فأقول : اعلم أيها الذكىّ انى كما ذكرت سابقا مولود بقرية من قرى مديرية الشرقية تسمى (كفرعوض الله حجازى) وقدكان ذلك أيام الظلم والاعتساف ، والجور والقسوة ، فكان الحكام أظلم خلق الله ، وكانت الرعية جارية على سنن الرعاة ، فالأقوى كان يظلم الأضعف ، وكنتأرى أن الأقوياء والأغنياء يتحكمون فى الضعفاء ، فيرسلونهم الىأعمال الحفرفى الجسور والترع التى لاأجرعليها من الحكومة بل هى مجرّد ظلم واسترقاق وارهاق ، ولكن كانت الحكومة المصرية تنتقل من حسن الى أحسن سنة فسنة حتى استتب الامن فى البلاد وعرف كل ذى حقّ حقه ، وفى أثناء تلك المدة دخلت الأزهر فدرسة دارالعلوم فصرت مدرّسا ، وهنالك أخذت أؤلف الكتب لنشرها بين المسلمين قياما بما عاهدت الله عليه انى اذا عرفت الحقائق العلمية جعلت حياتى وقفا على تعليم ورقىّ المسلمين كى لايستسلموا للشك الذى آذانى وأقلق بالى ، وأخذت أعرض الكتب على ذوى الرأى فى البلاد حتى اذا وجد أحدهم عيبا دلنى عليه وكان حديثى المتقدم مع المرحوم لطيف باشاسليم وتوالت الجمعيات فى مصر كحزب الوفد المصرى وحزب الأحرارالدستوريين وغيرهما وهذا كله مصداق لما رأيته من قبل ، وقد ظهرت فى هذه الأيام جمعية الشبان المسلمين ولها فروع فى الجزائر وتونس والشام والعراق وأمريكا ، وهكذا جمعيات أخرى كجمعية المواساة والجمعية الجغرافية وغيرهما ، وكم فى الأقطار العربية من جمعيات أدّت أعمالا عظيمة وأكثرها ظهرت بعد الحرب الكبرى ، وجميع البلاد الناطقة بالضاد اليوم تطلب الاستقلال ، فانظر ما جاء فى جريدة الاهرام بتاريخ ٢٧ اكتوبر سنة ١٩٢٩ وهذا نصه :

الانتداب فى البلدان العربية

بقلم الكبتن غوردون كانتج

المقال الأوّل

كان من أعظم أسباب سقوط الأمبراطوريات القديمة اسراف القوة الرئيسية تدريجا بالتوسع المطرد فى الممتلكات ، ونرى فى عصرنا هذا أن الأمبراطورية البريطانية والأمبراطورية الفرنسوية فى خطر الانحلال لهذا السبب نفسه ، إن مستشارى الأمبراطوريتين ويلوح انهم من طراز قديم (سابق لتاريخ البشر) ممن لهم خبرة بفنون الحرب يصرّحون أن الضرورة تقضى بصيانة الممتلكات الموجودة بضم ممتلكات أخرى .

معلوم أن زيت البترول باب من أهمّ مطالب العالم فى هذه الأيام فأصبحت موارده من الضرورات الأوّلية لكيان الدول العالمية ، فالبترول اذن كان من العوامل التى اجتذبت انكلترا الى العراق وفلسطين وايران التى اضطرت بحكم أحوال خصوصية الى الانسحاب منها ، ومتى كانت انكلترا موطدة فى العراق وفلسطين

ففرنسا

ففرنسا لايمكنها أن تتخلى عن بقعة مجاورة ترتكز اليها وتتخذها قاعدة لحماية مصالحها ، وهذا مابعث على عقداتفاق (سيكس ــ بيكو) وتنفيذ هذا الاتفاق كان مضرا بالاتفاق الذى عقد بين الملك حسين والحكومة البريطانية مع انه كان فى تاريخ سابق لاتفاق (سيكس ــ بيكو) ومما يدل على أن انكلترا قدسلمت بأنها حنثت عهدها مع الملك حسين أنها أوجدت عرش العراق للملك فيصل بعد ماطردته السلطات الفرنسوية من سورية ، وقد أثر ذلك تأثيرا سيئا فى سمعة انكلترا وهيبتها فى الشرق الأدنى والشرق الأوسط لأن العناصر العربية أدركت انهاسعت لشار أقوى وأقدر ، فقد كانت مقتضيات مواصلة الحرب أهم من كل شيء وفوق كل شيء ، حتى ان الشرف البريطانى ترك جانبا وعدّ من سقط المتاع ، وكانت هذه الاتفاقات الحربية المختلفة هى السبب الأكبر التى جعلت معاهدة فرساى وغيرها من المعاهدات شؤما وهولا وأسباب القلق الحالى وعدم الارتياح بين ملايين من الناس ، والغاية من مقالتى هذه أن أقترح علاجا لمسألة بلدان الانتداب فى الشرق الأدنى والشرق الأوسط التى عانت هول تلك المعاهدات وفى أى علاج يتناول مصالح عدة أمم لايمكن لأية أمة منها أن تكون راضية كل الرضاء ، ولابد من مراعاة مبدأ الأخذ والعطاء من كل جانب

وللبحث فى هذه المسألة لا أرى من الضرورة الدخول فى تفاصيل ادارة شئون بلدان الانتداب خلال الثمان سنوات الأخيرة لأن هذه الوجهة من المسألة كانت موضوع البحث فى عدة جرائد ومؤلفات ، فالغلطات التعيسة والأخطاء المحزنة التى ارتكبتها فرنسا وانكلترا قد اعترف بها ، وليست المصاعب التى جابهتها كلاهما مما يستحق العطف لأنها من المصاعب التى أوجدتها انكلترا وفرنسا ، وقد أصلحت انكلترا جانبا عظيما من اخطائها ولاسيما علاقاتها مع العراق ، وأخذت فرنسا بارشاد المسيو بونسو تحاول اصلاح عواقب ادارتها الوضيعة فى سورية ، إن الغلطة الرئيسية التى ارتكبتها كل من انكلترا وفرنسا هى عدم العمل بمقتضى البند الثامن والعشرين من عهد جمعية الأمم ، وقد قالت المس (هويت) فى كتابها عن الانتدابات مايلى :

« أما اذا كانت هذه الرغائب قد نفذت فأمر مبهم غامض ، وأما اذا كان هناك لأولئك الناس رغائب جلية فأمر أغمض وأكثر ابهاما . وبالحقيقة وواقع الأمر أن أهل بلدان الانتداب لم يستشاروا » والأسلوب الذى أتبع فى هذه البلدان فى تقسيمها الى دويلات أوجد على سطح الكرة الأرضية بلقان أخرى وهو أسلوب سقيم من الوجهة الاقتصادية نظرا للتعريفات الجركية بين تلك الدويلات وعرقلتها لحركة التجارة .

وبلدان الانتداب المعرفة بحرف (ا) هى كما يلى :

(١) ــ ﴿العراق﴾ وضع انتدابه فى شهر ابريل سنة ١٩٢٠ ووافقت عليه جمعية الأمم فى سبتمبر سنة ١٩٢٤ ويبلغ عدد سكانه ثلاثة ملايين

(٢) ــ ﴿سورية﴾ وضع انتدابها فى شهر ابريل سنة ١٩٢٠ ووافقت عليه جمعية الأمم فى يوليو سنة ١٩٢٢ ويبلغ عدد سكانها ٢٢٥٠٠٠٠ من المسلمين و٤٠٠٠٠ من الدروز و٤٠٠٠٠٠ من المسيحيين منهم ١٥٠٠٠٠ مارونى

(٣) ــ ﴿فلسطين﴾ وضع انتدابها فى شهرابريل سنة ١٩٢٠ ووافقت عليه جمعية الأمم فى شهر يوليوسنة ١٩٢٢ ويبلغ عدد سكانها ٧٥٠٠٠٠ نفس ٨٧ فى المئة منهم عرب

(٤) ــ ﴿شرقى الأردن﴾ ويبلغ عدد سكانه ٢٠٠٠٠٠ نفس

وفى شبه جزيرة العرب بلدان تحت الحماية البريطانية وهى : عدن ، وعمان ، والكويت ، وبلدان مستقلة وهى : نجد والحجاز والعسير واليمن وحضرموت ، ومجموع عدد سكان هذه البلدان كلها يتراوح بين خمسة عشر مليونا وعشرين مليون نسمة . أما اذا كان اصطلاح الانتداب قد وضع على قاعدة المثل الأعلى أوابتكر كمرادف للضم والتملك فليس من موضوع البحث فى مقالتى هذه ، ولكن الأرجح أن جانبا عظيما

من عدد السكان المبين آنفا متحد فى مطالبه ورغبتـه فى التخلص من الوصاية الأجنبية وان كان مختلف الأحزاب غير متفقة على شكل الحكومة التى يجب أن تحل محل حكومة الانتداب أو دولة الحماية

فهل مقتضيات الأمبراطورية البريطانية تتطلب أن تكون انكلترا فى فلسطين والعراق وشرق الأردن وهل من الضرورى أن تكون فرنسا فى سورية ؟ إن جواب البلدين هو (نعم) فاذا كانت إحدى الدولتين فى سورية لابد أن تكون الأخرى فى فلسطين والعكس بالعكس ، وتقول انكلترا : نعم لا دافع عن قناة السويس ضد مهاجميها من الشرق ، ولادافع عن مصالح بريطانيا فى بترول الموصل والمحمرة . وتقول فرنسا : نعم لادافع عن خط أنابيب البترول وسكة الحديد المزمع مدّها الى الموصل و بغداد ومن كل منهما الى حيفا ، وهذه الفكرة الثانية لتنمية التجارة ومصالح الصناعات ، ويتبعها ويترتب عليها الحماية العسكرية ، وهكذا تظلّ الدول الاوروبية الادارية تثير كتلة متجمعة من الرأى العدائى فى تلك البلاد الذى قد يصبح بقوّة الاتحاد قوّة خطرة خطيرة ، فالأفضل والحالة هذه الاعتماد على عقل سكان البلاد وعلى عهد صداقة يقوم على قاعدة التعاون التجارى والكسب المتبادل

والسبب الأوّل يمكن درأه باتفاق متبادل يعقد بين انكلترا وفرنسا للانسحاب فى وقت واحد من سورية وفلسطين وشرقى الأردن ، ولكن فرنسا تقول : «محال علىّ أن لاأحمى الأقلية المسيحية» ولكننا نرى اليوم أن هذه الأقلية المسيحية هى أيضا تطلب جلاء فرنسا عن البلاد ، وتقول انكلترا : «إن ذلك مستحيل لايمكننا أن ننسحب وندع الاسرائيليين تحت رحمة العرب» ومع هـذا فان اليهود والعرب كانوا فى عهد تركيا عائشين معا فى وفاق تام ، إن تصريح بلفور هو سبب الاضطراب الحالى بين العرب واليهود ، إن تأسيس هذا الوطن القومى لليهود لم يلق تعضيدا حقيقيا من زعماء اليهود ، فقد أيدوا الفكرة عن غير طيبة خاطر ماليا وأدبيا ولم يوافقوا قط على فكرة مغادرة محل اقامتهم للاقامة بذلك الوطن القومى ، وقد كان معظم المهاجرين من اليهود القاطنين فى شرقى أوروبا الذين ذاقوا الذل والهوان ، وعانوا الشىء الكثير من الاضطهاد والظلم ، وقد برهنت الأيام على أن الصهيونية صناعة خائبة عقيمة وجناية سياسية ، فالصهيونيون المقيمون الآن بفلسطين قد وجدوا هناك بمساعى انكلترا وجهودها ولابد من الاعتراف بهم وحمايتهم ومساعدتهم

نعم يجب الوصول الى اتفاق متبادل بين فرنسا وانكلترا تتفقان فيـه على سحب كل شىء فيه شبهة العسكرية من سورية وفلسطين وشرقى الأردن وأن يقدما للبلاد خبراء لتنمية فن الادارة الحكومية والفنون والصناعات عنـد مايطلب منهم العرب ذلك بأنفسهم ، والحامية البريطانيـة التى تسحب من مصر وفلسطين يمكن أن تعسكر لمدة ١٥ سنة فى جوار بورت فؤاد بعد استئذان الحكومة المصرية فتكون منها قوّة مركزية متأهبـة فى أية لحظة للدفاع عن مصالح بريطانيا العظمى فى شرقى البحر الأبيض المتوسط وللتعاون مع الحكومة المصرية على حماية القناة ودرء الاعتداء على حرية الشعب المصرى ، ولكن قبلما يتسنى نقل هذا الاقتراح الى حيز الفعل يجب على العرب أن يمدّوا أيديهـم للعمل ويقدّموا برهانا حاسما على استطاعتهم ايجاد مشروع ابتكارى يتسنى به ملافاة حدوث الفوضى عند ماتنسحب القوّات البريطانية والفرنسوية من البلاد ، فعلى نوّاب العرب أن يقدّموا مشروعا يبينون به مايلى :

(١) انهم أهل لادارة شئون بلادهم بأنفسهم وأن الانتداب صار غير لازم

(٢) إن جميع المشروعات التجارية مثل سكك حديد بغداد وحيفا ومنابع البترول فى الموصل والمحمرة تقدم لها التسهيلات اللازمة لترقيتها وانمائها ، وأن يسمح للمشروعات الاوروبية بالاشتراك مع المشروعات العربية أن ترقى مؤهلات البلاد التجارية والصناعية تحت شروط عادلة مرضية للجميع

(٣) أن تستطيع الحكومات العربية تقديم الضمان الوافى لتأمين معاملة الأقليات المسيحية فى سورية

والاقلية

والأقلية اليهودية فى فلسطين وتنفذه ، وأن تمنح الوطن القومى اليهودى قسطا معينا من الحكم الذاتى ، وهذا الوطن القومى يجب أن يكون مثالا مصغرا لمركز روحى تثقيفى فقط

(٤) أن يستطيع زعماء نواب العرب أن يقدموا برهانا حاسما على موافقتهم على انشاء إيجاد دول عربية تحت سيطرة ابن السعود اذا كان ذلك ممكنا . وبهذا تمّ الكلام على المقال الأوّل

***

المقال الثانى

يعتقد معظم الناس أن العرب يعجزون عن اظهار مقدرتهم بتقديم خطة انشائية ، أما أنا فأعتقد أنهم قادرون ليس بناء على تاريخ عنصرهم الماضى فقط بل لما يحرزه أبناء العرب المهاجرون من النجاح الباهر فى المراكز الصناعية والتجاريه العصرية فى بوتس ايرس ونيويورك وغيرها من أنحاء العالم المتمدن ، وليس من الضرورى الرجوع بالقارئ الى الحكومات العربية السديدة الخطوات فى العهود الغابرة ، وحسبي أن أقول انه فى القرن الثامن بعد الميلاد فى عهد الخلفاء الراشدين ببغداد كان فى وسع التاجر المتجوّل أن يسافر من البصرة الى دمشق مثقلا بالسلع بغير أن يعتدى عليه أحد ، وفى عام ٩٨٠ ميلادية كان المسافر يقطع الشقة بين المهدية والقاهرة بلاخوف ولاوجل من قطاع الطرق ، فاذا كان العرب قد استطاعوا فى تلك الأيام تأمين الطرق بهذه الكيفية ، فمن الأكيد المحقق أنهم قادرون على ذلك فى هذه الأيام ، ولابد لنا من التسليم أنهم يحرزون هذه المقدرة بالارث ، ولكن هل يحرزون الارادة والعزيمة على اظهار هذه المقدرة ؟ ان على العرب أن يبرهنوا على ذلك الآن ، ولا يكفى أنهم شديدو الرغبة فى طرد المعلم من بلادهم ، فهذا لايعدو سياسة الهدم . ولكن يجب عليهم أن يظهروا مقدرتهم على التعمير والانشاء . أما فيما يتعلق بالمخاوف التى قد تتطرق الى قلوب الانكليز بأن الأقليات المسيحية واليهودية لاتطيق الأغلبية الاسلامية فلابد من قول شيء فى ذلك .

إن الأقليات المسيحية واليهودية كانت تعامل على الدوام خير معاملة فى البلدان الاسلامية الى أن تأتى دولة أوروبية وتستخدم تلك الأقليات لقلب الحالة كما حدث فى مسألة الأرمن والأتراك . نعم انه فى الأنحاء البعيدة المنعزلة عن العالم الاسلامى قد لايخلو الأمر من تعصب ضد المذاهب الأخرى ، ولكن هذا كان كذلك بين مختلف الطوائف المسيحية . على أن زعماء العرب فى هذا العصر وفى العصور السابقة كانوا دائما يعملون على تلافى هذا التنافر واصلاح ذات البين ، فاذا كان التعصب الدينى قد أخذ مجراه فى زمن من الأزمنة فقد كان المسلمون من غير مذهب الحاكم ينالهم من الاضطهاد ماينال المسيحيين ، ومن الواجب أن تتحد مبادئ نجرن كالمثل الأعلى للزعيم المسلم ، وكلمة الامام علىّ رضى الله عنه : « إن دم الذمى كدم المسلم » هى أيضا خير مثال

واليوم نرى الموازنة فى لبنان والمسيحيين العرب فى فلسطين ومسلمى الشام وفلسطين والعراق قد أخذوا يعرضون عن الفوارق فى المذاهب والعقائد ويجنحون الى المثل الأعلى والمذهب العميم وهو أننا جميعا اخوان فى الانسانية ، وأوّل خطوة فى هذا السبيل هى السعى الى توحيد بلاد العرب ، وقد أخذ أبناء العرب المثقفون المتنوّرون فى هذه الأيام يتطلعون الى هذه الغاية ويبثون الدعوة اليها فى عدة أنحاء وزعماء العرب أدرى منى بالمنهج الذى يجب أن ينتهجوه للحصول على الوحدة العربية والتخلص من وصاية الأجنبى والتقدم الحثيث فى التعاون مع خير الطبقات الاوروبية ، وانى أقترح مايلى على سبيل التجربة :

﴿ أوّلا ﴾ المبادرة الى عقد مؤتمر فى القاهرة يدعى اليه مندوبون من جميع البلدان العربية

﴿ ثانيا ﴾ ينتخب هذا المؤتمر مجلسا دائما يكون مقرّه فى القاهرة أوجدّه أوالشام (ولما كانت القاهرة مركزا حسنا تتوفرفيها أسباب المواصلات مع جميع بقاع الأرض العربية قد تكون لائقة لأن تصبح بمثابة جنيف للعرب)

﴿ ثالثا ﴾ على هذا المجلس الدائم أن يظلّ على اتصال وثيق بالبلدان العربية وأن يعمل على عقد مؤتمر كل سنة أوسنتين

﴿ رابعا ﴾ على هذا المؤتمرالسنوى أن يتخذالاجراءات اللازمة لايجاد اتحاد عربى وأن ينتخب زعماءه ويتفق على زعيمه الأكبر

﴿خامسا﴾ تكون مهمته توحيد الأمّة العربية ببثّ دعوة مبنية على الفطنة والحصافة

﴿ سادسا ﴾ يجب وضع خطة للتعليم يمكن كل دولة فى خلال الخمس عشرة سنة المقبلة من الحصول على سيل مطرد من الشبان المتدرّبين على فن الادارة الحكومية والعلوم والفنون والشئون الصحية وما الى ذلك

فاذا استطاع العرب أن يصلوا الى هذا التوحيد فيحتمل أن تتمكن انكلترا من رفع حمايتها عن جميع البلدان العربية عدا عدن ، وأن تعقد معاهدة صداقة ومحالفة بين سلطات الاتحاد العربى والأمبراطورية البريطانية ، وانى أعتقد أن حلا كهذا يكون ضمانا أفضل لسلامة المواصلات الامبراطورية وبتوطيد أركان القوّة فى هذه البلدان من الشرق الأوسط وتوحيدها تتخلص الامبراطورية البريطانية من انفاق عدة ملايين من الجنيهات كل عام

ويغلب على ظنى أن العرب يجب أن لايتصوّروا وهم لايتصوّرون أنه يتسنى لهم الوصول الى هذه الغاية بغير مساعدة من الغرب ، ويجب أن لايعزب عن بال انكلترا وفرنسا أن أمة تحت التدرّب والتعليم لايمكن أن تحرز المسؤلية اللازمة إلا بالممارسة والاختبار ، وبهما دون سواهما تتعلم هذه الأمة اجتناب الأخطار والوصول الى مستوى مرض من الحكم الذاتى ، وزعامة الدعوة الى الوحدة العربية يجب أن تخرج من دمشق ، وربما قبل مضى وقت طويل يعود العالم العربى الى ازدهاره وينعته ، ويدهش العالم بثقافته وعلمه كما كان فى سالف الأحقاب

وماهوتأثير هذا كله فى انكلترا فيما يتعلق بالأمبراطورية البريطانية ؟ الجواب عن ذلك من الوجهة السلبية أنه يوجد القوّة العسكرية فى مركز واحد ويقلل من تبعة التورط ويؤدى الى اقتصاد المال ، ومن الوجهة الايجابية الابتكارية يضم جميع العنصرالعربى الى دائرة الصداقة الخالصة ، ويوجد زبائن أقوياء أغنياء بالتقدم فى المعيشة العصرية وبالتعاون التجارى الوثيق مع الغرب ، وحيث كان زبون واحدفى الماضى يقوم اثنا عشر زبونا جديدا محله

إن مشروعا كهذا يتطلب وقتا للنضوج ، ولكن الوقت لايجدى ولايغنى فتيلا اذا كان زعماء العرب فى هذا العصرلايعدّون التربة ويتعهدونها بسماد العقل والفطنة وينثرون فيها بذورالاتحاد والوئام ، ولانعاش هذا المشروع وابلاغه طور الازدهار والاينناع يجب أيضا أن تنقى أرضه من الأعشاب البرّية ، وأن يروى ويسقى ليس بمساعى زعماء العرب الشجعان فحسب ، بل بمساعى الاوروبيين أيضا ولاسيما الرجال الانكليز ذوى البصيرة النيرة والنية الحسنة

ولكى ينتج هذا المشروع خير النتائج من الضرورى الحصول على تعضيد انكلترا ومعاونتها ، فللعرب أن يقتبسوا العلوم عن الألمان والفنون عن الفرنسويين ، ولكن العلوم السياسية وفن معاملة المذاهب المختلفة ، وتحمل الفوارق الدينية ، وواجبات الشرف والنزاهة يجب أن يتعلموها من انكلترا ومن الرجال

الانكليز

الانكليز ، وقد يطول العمر على ثقافة انكلترا وتبقى مكرمة محترمة مرغوبا فيها خلال أجيال كثيرة مقبلة ويكون مثلها مثل ثقافة الرومان والعرب فى هذا العصر

وأختم مقالى هذا بكلمات أونامونو : « إنى أقصد الحث واذكاء وطيس الحماسة والاقتراح لا الارشاد والتعليم » والى هنا تم الكلام على المقالين للكاتب النزيه غوردون كانتج

الفصل الرابع

فى تأكيد الفصل الثالث وذلك بمقالين

المقال الأول

التنافس الدولى ونصيب العرب منه

جاء فى إحدى جرائدنا المصرية فى يوم الأربعاء ١٤ جمادى الثانية سنة ١٣٤٩ هجرية ما يأتى :

إن القاعدة التى بنيت عليها مدنية القرن العشرين «الحق للقوة» وعلى هذا الأساس أصبح التنافس عظيما بين الدول العظمى فى بناء الأساطيل ، وتدريب الجيوش ، والتفنن فى ابتكار الآلات الجهنمية القاتلة لحيازة السيادة والتفرد بالنفوذ فى هذا العالم مما أدى الى نشوب الحرب العظمى التى كان من نتائجها انهيار الأمبراطورية الألمانية وسقوط أكبر دولة حربية على وجه الأرض

اذا كانت الضغائن موجودة فى الأفراد عند انتصار أحدهم على الآخر ومنعه من نيل ما يبتغيه والاستئثار به دون رفيقه ، فأحر بها أن تكون عند الدول الكبيرة وهكذا فان ألمانيا التى كانت تطمح لفتح العالم أصبحت اليوم لاحول لها ولا طول لاترى بعين الرضا ما يتمتع به دول الحلفاء من ثمرات الانتصار وتفردهم بالاستيلاء على بلاد العرب ، واذا كانت عاجزة عن إثارة حرب ثانية تقضى بها على ما يتمتع به غرماؤها ، فلا تعدم غيرها من الوسائل خصوصا وهى تلك الدولة التى دفعت سفينة العالم فى اليم وجعلتها تائهة بين أمواجه المتلاطمة مدة أربع سنوات حتى رست على الشاطىء وهى محطمة

إن الشعب العربى يقطن أقطارا شاسعة ، وأغلبها واقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط من خليج الاسكندرونه الى مضيق جبل طارق ، وهذا الشعب خاضع جميعه لنفوذ وسيطرة ثلاث دول كبيرة (الحلفاء) الأولى بريطانيا العظمى ولها الشطر الأهم كمصر والسودان وجزء من سوريا الجنوبية والعراق وأغلب سواحل الجزيرة العربية ، والثانية فرنسا وفى يدها سوريا واقليم المغرب أوافريقيا الشمالية كتونس والجزائر ومراكش والثالثة ايطاليا وهى مستولية على طرابلس الغرب

فمن هذا ترى أن بلاد العرب محصورة فى يد هذه الدول الثلاث التى لم تزل تسعى وتجتهد لتفكيك عرى هذا الشعب وبث روح التنافر فيه بمختلف الوسائط ، فهذا مصرى وذاك سورى ، وهؤلاء عراقيون ، وأولئك مغاربة ، وبث سموم فكرة اللغات العامية والسعى للتشويق الى العدول عن اللغة الفصحى التى هى الرباط الوحيد الذى يربط سبعين مليونا من العرب

ولما كان لهذه الدول من ينافسها فى السيادة ولا يروق له أن تتحكم فى هذه الشعوب جعل يناصبها العداء بمختلف الوسائط التى تقضى على نفوذها وسلطتها من حيث لاتشعر

إن التنافس بين انكلترا وروسيا هو سبب بقاء الاستانة بيد الترك أو بقاء الدولة العثمانية الى زمن الحرب العظمى وكذلك بقاء الدولة الايرانية . وها نحن الآن للمرة الثانية نرى التنافس بين ألمانيا ودول الحلفاء سيكون سببا لايجاد شىء من لاشىء وخلق كيان من العدم

إن الشعب العربى الذى قرّر المفكرون بأنه صائر الى الانقراض بدا يتحرّك ويحسّ بوجوده فى هذا العالم بعد تلك الغيبة الطويلة ، وماهذا إلا بفضل ذلك الطبيب النطاسى الحاذق الذى أخذ على عاتقه إحياء هذا المريض ليحرم أعداءه من تراثه

إن الاجتماع العربى الكبير فى (برلين) تحت اشراف لجنة الدفاع عن المغرب العربى وحضور مندوبين من جميع الأقطار العربية للاحتجاج على مرور مائة عام على احتلال فرنسا للجزائر أوّل قطر عربى احتله الأجنبى وإلقاء الخطب النارية التى ترمى جميعها الى وحدة العرب الكبرى ماهو إلا أثر من آثار التنافس الدولى بين ألمانيا والحلفاء

وهكذا سوف نرى أن هذه المنافسة الخطيرة ستفضى الى خلق دولة ﴿ الاتحاد العربى العام ﴾ ومن يعش يره ، أوكما قال شاعر العرب القديم

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا * ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد
ويأتيك بالأخبار من لم تبع له * بتاتا ولم تضرب له وقت موعد

(البصرة ــ العراق) أبوالوليد

المقال الثانى

جاء فى جريدة الاهرام يوم الجمعة ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٩ م ماياتى :

فى المجمع النسائى العربى

قرّر المجمع النسائى العربى فى بيروت وكذلك فروعه فى البلدان العربية فى الجلسة القانونية المنعقدة فى أوّل نوفمبر سنة ١٩٢٩ م بعد الوقوف على آراء الأكثرية الساحقة من مفكرات وجمعيات الأقطار كافة المسائل التالية :

﴿ أوّلا ﴾ المبادرة الى عقد المؤتمر الشرقى العربى الأوّل فى مدينة دمشق قلب العرب النابض فى أواخر الربيع القادم لتعود المرأة العربية الى ازدهارها ومناعتها ، ويدهش بثقافتها وعلمها كما كان فى سالف الأحقاب ، وتنضم جميع العناصر النسائية الى دائرة الصداقة الخالصة

﴿ ثانيا ﴾ ينتخب لهذا المؤتمر مجلس أعلى من مفكرات هذه الأقطار ويكون له مركزان رئيسيان فى دمشق والقاهرة

﴿ ثالثا ﴾ على هذا المجلس الدائم أن يظلّ على اتصال وثيق بالبلدان العربية وأن يعمل على عقد مؤتمر فى كل سنة مناوبة فى أقطار الشرق العربى

﴿ رابعا ﴾ على هذا المؤتمر السنوى أن يتخذ الاجراءات اللازمة لايجاد اتحاد نسائى شرقى عربى تكون مهمته توحيد الأمة العربية ببث دعوة مبنية على الفطنة والحصافة

﴿ خامسا ﴾ أن يكون هذا البيان كاعلان رسمى لجمعيات وأفراد المفكرات فى الأقطار الآتى ذكرها وهى : مصر . تونس . طرابلس . الجزائر . برقة . مراكش . السودان . جنوبى افريقيا . فلسطين ، شرقى الأردن . العراق . الحجاز . اليمن . نجد . حوران . بلاد العلويين . سوريا لبنان . وبصورة خصوصية يطلب المجمع آراء أخواتنا فى المهجر ليشتركن معنا روحيا

﴿ سادسا ﴾ ان المسائل الخمس الرئيسية التى ذكرت فى برنامج المؤتمر وأضيفت اليها مسألة رعاية الطفل باقتراح النابغة (مى) سيتفرّع منها مواد شتى

﴿ سابعا ﴾ إن هذا المؤتمر العام لايزاحم المؤتمرات المحلية بل يحترمها ويؤيد مقرّرتها . انتهى المقال الثانى

الفصل الخامس

فى أن الوطن اليهودى فى فلسطين مما قرر ارتفاع ذكر الأمم العربية

جاء فى إحدى المجلات العلمية وهى « السياسة الاسبوعية » فى يوم السبت ٩ أغسطس سنة ١٩٣٠ تحت العنوان الآتى مانصه :

حديث للأستاذ محمد على باشا

عن رحلته فى فلسطين ودفاعه عن البراق ورأيه فى الرابطة العربية

عاد الاستاذ الكبير محمد على باشا من الديار الفلسطينية بعد أن قضى فى بيت المقدس زهاء عشرين يوما أبلى فيها أحسن البلاء فى الدفاع عن حقوق المسلمين والعرب فى البراق الشريف أمام لجنة التحقيق الدولية ، وكان لدفاعه المجيد أثر خالد فى الأوساط السياسية العربية وضجة عنيفة فى الدوائر الصهيونية وقد رأى أحرار الجالية السورية بمصر أن يحفوا لزيارته ويهنئوه بسلامة الأوبة ويشكروه على ماتحمله من المشاق ، وماقام به من جلائل الأعمال فى تأييد حقوق العرب وتشجيب مزاعم الصهيونية ، فتألف وفد من هيئة ادارة جمعية الدفاع عن فلسطين وأعضاء حزب الشعب السورى برئاسة الاستاذ الزعيم الدكتور شهبندر وزاروا الاستاذ محمد على باشا فى منزله للقيام بواجب التهنئة والشكر ، وقد رأى كاتب هذه السطور أن يغتنم هذه السانحة فطرح على الباشا أسئلة عدة حول البراق والمسألة الفلسطينية والرابطة العربية فتفضل معاليه وأجاب عليها بما يلى :

(س) لقد رفعتم رأس مصر والشرق عاليا بما ناضلتم به عن حقوق العرب وتفنيد المزاعم اليهودية الصهيونية فى قضية البراق الشريف (جدار المبكى) فهل لكم أن تتفضلوا بتلخيص الأسس التى بنيتم عليها دفاعكم المجيد ؟

(ج) حينما اتصل بى نبأ ابحار اللجنة الدولية الى فلسطين للتحقيق فى قضية البراق والنظر فى شكاوى الفريقين المتنازعين والحجج التى يتذرّع كل منهما بها ، تحركت فى نفسى عاطفة الغيرة على هذا المكان المقدّس الذى تتجه نحوه أنظار ثلاثمائة مليون مسلم ونيف فى جميع أقطار العالم ، ورأيت أن الواجب الدينى والقومى يقضى علىّ بأن أقبل دعوة اخوانى الفلسطينيين ، وأقوم بقسطى فى الدفاع عن ذلك الجدار الشريف فبرغم الأزمة الوزارية التى قامت فى مصر ، وبرغم ماكنت أشعر به من الانحراف فى صحتى لبيت نداء الواجب ووليت وجهى شطر بيت المقدس ، وبعد أن تعرّفت هناك الى أحرار البلاد ودرست الموضوع من جميع أطرافه رأيت بالاتفاق مع سعادة الاستاذ أحمد زكى باشا ، وهيئة الدفاع أن نقسم أعمالنا الى ثلاثة أقسام :

(١) القسم التاريخى : ويتولى القيام به الاستاذ أحمد زكى باشا

(٢) قسم التحقيق ومناقشة الشهود : ويتولاه الاستاذ عونى بك عبد الهادى

(٣) القسم القانونى والسياسى : وقد عهد الىّ بالقيام به

وسار التحقيق سيره المعلوم ، وأدلى كل من الفريقين بحججه وبراهينه ، وبسط الاستاذ أحمد زكى باشا موضوع النزاع من الوجهة التاريخية الثابتة والوثائق القطعية التى لاترد مؤيدا بها حقوق المسلمين ، ومن ثم جاء دورى فرأيت أن أستهلّ دفاعى بابداء الاحتياطين الآتيين :

﴿ الأوّل ﴾ ان الأمة الفلسطينية أعلنت رسميا وفى كل الظروف عدم اعترافها بالانتداب البريطانى وهى لذلك لاتريد أن تتقيد بأى نظام مستمد من هذا الانتداب ولا الاقرار بأية نتيجة ترجع الى مايسمى بوطن قومى لليهود ، فدفاعى فى هذا النزاع لايغير شيئا مما احتفظت به فلسطين نفسها لنفسها لأنها هى وحدها

صاحبة الحق فى تقريره

﴿ الثانى ﴾ يقرّر المسلمون أن النزاع على مالكية أماكن العبادة أوعلى حقوق مدّعى بها على هـذه الأماكن يجب أن ترفع الى الهيئة المختصـة دون غيرها بالفصل فى أمر الوقف والأماكن المقدّسة الاسلامية وماعداها فهوغير مختص أصلا لعدم وجود حقّ له فى ولاية الحكم على هذه الأماكن

ثم دخلت بعـد ذلك فى الموضوع من الوجهة السياسية وكشفت القناع عن حقيقة هذا النزاع وأسبابه الصحيحة ، و بسطت مالقيه اليهود من العنت والارهاق فى أكثر بقاع الأرض وانهم لم يجدوا ملاذا يفزعون اليه إلا البلاد الاسلامية والعربية لما كان يظهر أهلها من التسامح والرعاية نحوهـم وأمطت اللثام عن المطامع الصهيونية فى السعى للاستيلاء على المسجد الأقصى وعلى قبة الصخرة وجعل مكانيهما هيكلا لليهود ، وسردت طائفة كبيرة من الأدلة تؤكـد نياتهـم وهى مستمدّة من كتبهم وتصريحات مفكريهم وزعمائهم ، ثم ألمعت الى الخطر المقبـل فما اذا أصرّ اليهود على التمسك بمزاعمهم فتكون النتيجة أن هـذه الصهيونية ستحمل العرب والمسلمين كافـة على أن يعتنقوا الانتيسمتسم (مطاردة اليهود) ولوتحت سـتار (الانيسيونيسم) مطاردة الصهيونية فيتلطخ تاريخ الانسانية مرة أخرى بمثل تلك المآسى التى وقعت فى أوروبا من قبل ، ولـكن بطريقة أشدّ وأنكى ، ثم تـكلمت عن الجدار والرصيف فى نظر المسلمين وأسباب تقديسهم إياهما وماورد بشأنهما من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية . ثم قارنت بين ذلك و بين أسباب قدسية الجدار عند اليهود . وختمت دفاعى بالبحث من الوجهة الشرعية ، وتطرقت الى ذكر الوقائع والتطبيق القانونى

(س) هـل تعتقدون أن لجنة التحقيق تراعى فى وضع قرارها تلك الاعتبارات الخطيرة التى وردت فى دفاعكم ؟

(ج) لانستطيع الجزم الآن فى كيفية القرار الذى ستصدره لجنة التحقيق الدولية فى هـذا الموضوع ، ومهما كان شأن هـذا القرار فنحن غير مقيدين به بوجه من الوجوه كما مهدت فى دفاعى أمام اللجنة لأن هذا الجدار لايخص فلسطين وحـدها بل هوملك لثلاثمائة مليون مسلم منتشرين فى أنحاء المعمورة ، ولابد من القول اننا لم نشأ أن نـكتفى بابراز وثائقنا وأدلتنا أمام اللجنة ، بل قدمنا لها البراهين العملية المحسوسة التى لاتدفع والتى تنـذر بشر و بيل فيما اذا فـكر أحد بالاعتداء على الأماكن الاسلامية المقدسة ، وذلك بأن دعونا أعضاء اللجنة الى زيارة بعض الـكنائس المسيحية مثل كـنيسة القيامة و بيت لحم وغيرهـما وشاهدوا بأعينهم نتيجة الخلاف بين الطوائف المسيحية نفسها الذى سالت من أجله الدماء ، فـكيف يكون بالامكان والحالة هذه التوفيق بين عنصرين متنافرين قد تأصلت بينهـما الخصومة الدينية والسياسية وحملهـما على الاجتماع للعبادة حول جدار واحد

إن وضعية الستاتيسكو القائمة بين الطوائف المسيحية كانت من أقوى الحجج التى تدعم نظرية المسلمين وتدعو أعضاء اللجنة الى التفـكير العميق فى هذا الموضوع الدينى السياسى الخطير قبل أن يبرموا قرارا بصدده وقد علمت أن أحد أعضاء اللجنة صرّح لأحد رجالات العرب قبل سفره : « إن القضية خطيرة جدا أكثر مما كنا نتصوّر »

(س) ماهو الأثر الذى تركـته فى نفس معاليكم زيارتـكم الى القطر الفلسطينى ؟

(ج) لقد لفت نظرى أثناء وجودى فى فلسطين نقطتان : الأولى ملأت نفسى غبطة وحبورا ، والأخرى ملأتها كآبة وأسى . لقد أبهجنى منظر تلك الوحدة الجليلة التى تضم رجال العنصر الـكريم مسلمين ومسيحيين وتلك الوجوه المتلألئة بعاطفة الاخلاص والنفوس الممتلئة بروح الهمة والنشاط وانصراف القوم جميعهم الى الدفاع عن حقوقهم المقدسة والوقوف كـتلة واحدة فى وجه العدوّ الغاصب والصهيونى الدخيل ، والذى أحزننى

ان

أن أرى تلك التربة الطيبة والأراضى الخصبة التى تعد من أخصب بقاع العالم قد أخذت تنساب من أيدى العرب شيئا فشيئا وتنتقل الى يد الصهيونيين الذين تشد ازرهم الأموال الأجنبية الطائلة وتردهم المساعدات الكبرى من سائر أغنياء اليهود فى العالم . أما العرب فمع خصب أراضيهم وجودة تربتهم لا يستطيعون أن يستثمروا تلك الكنوز الدفينة بسبب فقرهم وسوء أحوالهم الاقتصادية وشدة احتياجهم الى المواد الأساسية للاستفادة من أراضيهم كما يجب

وفى اعتقادى أن السبيل الوحيد لانقاذ فلسطين من براثن الصهيونية وتقوية عزائم العرب فى هذا القطر الشقيق وانهاض هذه البلاد من الوجهة الاقتصادية والاجتماعية هو أن يتضافر أغنياء الشرق عموما ومصر خصوصا على استملاك الأرض فى تلك الأصقاع ، وقد علمت بعد البحث الوافى والاستقراء الدقيق أن ثمن دونم الأرض فى فلسطين وهو يعادل ربع فدان مصرى يتراوح بين جنيهين وعشرة جنيهات ، ويعطى موردا فى العام تبلغ نسبته بسهولة الى ٢٠ فى المئة ، وهذه عملية ناجحة ، وصفقة رابحة كما ترون

وأنا سأواصل جهودى فى هذا الموضوع ، وأدعو من أتوسم فيهم الخير من متمولى مصر الى الاشتراك فى هذا العمل الاقتصادى المضمون وتعضيد هذه الفكرة الرشيدة

(س) ماهى أقوى الوسائل التى تقترحونها معاليكم لتعزيز الروابط بين الأقطار العربية الشقيقة ؟

(ج) إن التعاون على تحقيق المشروع الآنف الذكر واخراجه الى حيز الوجود مما يقوى الأواصر بين هذه الأقطار الشقيقة ، لاجرم أن المشاريع الاقتصادية والعمرانية يجب أن تتقدم على كل مشروع سواها لأنها دعامة الاستقلال وأساسه

وهناك مسألة أخرى يجب أن يكون لها الاعتبار الأول فى هذا المضمار وهو أن نسعى سعيا حثيثا لانتزاع الفكرة الفرعونية من مصر لأنها فكرة عقيمة لا يمكن تحقيقها ، ومن المصلحة الأدبية والمادية لمصر (كما نوه الدكتور شهبندر فى إحدى خطبه) أن تهجر عبادة الأحجار الميتة وتستعطف القلوب الحية فى الشرق العربى التى جعلت قبلتها مصر لتنال الزعامة الحقة التى هى جديرة بها ، ومادامت شروط الزعامة متوافرة فيها بالنظر لما لها من الموقع الطبيعى والمكانة التاريخية والمقام الاجتماعى والاقتصادى والسياسى لجدير بها أن تسير فى طليعة الأمم العربية وتحمل لواء ثقافتها وتسعى الى توثيق الروابط مع هذه الأمم الشقيقة

ولا أكتم عنكم اننا الآن منحدرون فى انحدار خطر مجهول العواقب بسبب اختلاف اللهجات بين الأمم الناطقة بالضاد ، وأخشى كثيرا اذا استمرت هذه الحالة أن يؤدى ذلك فى النتيجة الى إيجاد لغات جديدة كما وقع فى اللغات اللاتينية ، وهذا من أقصى مطامع المستعمرين الذين يعملون جهدهم لافساد لغتنا وتقطيع أوصالها والاستعاضة عنها بلغات دخيلة كما هو الحال فى بلاد الجزائر حيث تشجع هناك اللغة البربرية وتعلم تعليما مدرسيا لاحلالها محل اللغة العربية

وعبثا تحاول الأمم العربية أن تتبوأ مكانها بين الأمم المتمدينة وتنال ماتصبو اليه من حياة استقلالية هنيئة مالم تعمل بادئ ذى بدء على تكوين ثقافة خاصة لها وتحتفظ بهذه الثقافة كميراث تاريخى خالد ، وأنا مازلت أعلق أكبر الآمال على الأزهر الشريف ، فهو باعتباره أكبر معهد دينى عربى فى العالم الاسلامى قوة لا يستهان بها ، فاذا أمكن إصلاحه وتنظيم شئونه عاد بالفوائد الجليلة على مصر والبلاد العربية جمعاء

وأرى أن يتكاتف العرب جميعا لوضع معجم عام باللغة العربية على شاكلة القواميس الانكليزية والفرنسية الكبرى لتوحيد المصطلحات العلمية والفنية وغيرها

(س) ما رأيكم فى عقد مؤتمر عربى للبحث فى هذه الشئون ؟

(ج) أنا لا أعتقد نجاح فكرة المؤتمر فى الوقت الحاضر ، وانما أستصوب تأليف لجنة عامة من كبار

مفكرى مصر والشرق تأخذ على عاتقها النظر فى انهاض البلاد العربية وترقية شئونها الاجتماعية والاقتصادية واتخاذ الوسائل المؤدية إلى إيجاد روابط مالية وأدبية بين هذه الأقطار وتوطيد دعائم الألفة والاتصال بينها وازالة جميع مايقام بين هذه الأقطار من الحوائل والفوارق التى يمكن التغلب عليها

فاذا توفقنا الى تأليف مثل هذه اللجنة وسعينا لأن تكون متجردة من جميع النزعات الحزبية والصبغات السياسية ونالت عطف أرباب الثراء فى الشرق وتأييدهم المالى أمكننا حينئذ أن نخطو خطوات واسعة نحو الهدف الأسمى

إن الأمم التى تظلم وتسلب حريتها لابد أن تستعيد هذه الحرية ان كانت جديرة بها ، فنحن كأمة عربية كبيرة يجب أن نسعى لاستكمال الخصائص والمزايا التى تؤهلنا لنيل الحرية والسعادة والاستقلال انتهى ما أردته من المجلة المذكورة

وهذا الحديث يدل دلالة واضحة كيف اجتمعت أمم العرب بل أمم الاسلام لهذه القضية ، وهذا كاف لما قصدناه فى الفصل الخامس

الفصل السادس

فى ذكر أمر عظيم اسلامى فى أيامنا هذه

وهو دفن فقيد الاسلام محمد على بفلسطين وهذا حادث يعز نظيره فى التاريخ

٢٠٠ ألف يشيعون الجنازة و١٠٠ ألف يشهدون الصلاة

حفلة التأبين فى المسجد الأقصى

جاء فى جريدة الاهرام يوم السبت ٢٤ يناير سنة ١٩٣١ م مانصه :

خرجت البلاد الفلسطينية الواقعة على خط السكة الحديدية من القنطرة الى القدس لتحية رفات الفقيد الكبير مولانا محمد على وتعزية شقيقه مولانا شوكت على ونجله مولاى زايد على وحرم الفقيد الكريم فكانت كل بلدة تقابل القطار بالتهليل والتكبير قبيل انبثاق الفجر بساعات برغم شدة البرد ، وكان مولانا شوكت على يشكر لهم تكبدهم هذه المشاق ويحيى عواطفهم النبيلة ، وفى منتصف الساعة السابعة صباحا وصل القطار الى البلد التى كانت محطتها غاصة بالجماهير من سائر الأنحاء ، واصطف طلبة وطالبات المدارس ورجال الجمعيات بأعلامهم وشاراتهم ، وكلهم مكبرون مهللون ، وكذلك فى الرملة وفى سائر المحطات حتى وصل القطار الى القدس التى احتشد فى محطتها ألوف من المشيعين بينهم قناصل الدول الاوروبية ورؤساء الدين المسيحى ، وبالرغم من شدة الزحام ابتدأ الموكب سيره فى الساعة العاشرة صباحا ووصل الى المسجد الأقصى فى منتصف الساعة الأولى بعد الظهر حيث أدى هؤلاء جميعا فريضة الجمعة فى حرم المسجد الأقصى الذى غص بالمصلين وبرغم اتساع جوانبه الفسيحة ضاق بهم ولم يتمكن الكثيرون من أداء الفريضة داخل الساحة العظمى فأدوها فى الشوارع المجاورة للحرم ، وبعد انتهاء الصلاة وقفت الالوف لشهود حفلة التأبين التى لم يمكن اقامتها فى الحرم وضاقت بها ساحته الرحبة ، وصعد رجال الوفود الاسلامية والمؤبنون على المنبر الأثرى المصنوع فى عهد المرحوم السلطان قايتباى سلطان مصر مدة حكمه فى فلسطين وسوريا ، وابتدأ سماحة السيد محمد أمين الحسينى مفتى القدس بافتتاح حفلة التأبين بكلمة قيمة أسالت العبرات أعرب فيها عن مبلغ الخسارة التى أصابت الشرق وعلى الخصوص الهند وفلسطين هذه النكبة الصادعة التى انتزعت بطلا نادرا من أبطال الاسلام ، وقام بعده الاستاذ الكبير السيد عبد العزيز الثعالبى نائبا عن شمال افريقيا ، وعلى الخصوص عن وطنه تونس ، وهو أقدم الحاضرين عهدا بصداقة الفقيد ، وأخذ يتدفق فى بلاغته تدفق السيل ، وأخيرا

بكى فأبكى ، وواصل رثاءه فكان ينقل الجهور من الحسرة المطلقة وأثر النكبة الصادعة الى الأمل والرجاء بأن تكون هذه الفاجعة مبدأ عهد جديد للمسلمين يقتدون فيه بالراحل الكريم فى حياته الحافلة بالجهود والتضحيات العظيمة

وقام خطباء مصريون وغيرهم ، ثم ابتدأت حفلة الدفن ، فسارت الالوف تلو الالوف الى القبر الذى أعدّ للفقيد فى خلف آل الخطيب الكرام بالمسجد الأقصى ، وجيء بالنعش وقد غطى بغطاء من القطن المنسوج فى الهند أعده هنود بورسعيد وفوقه غطاء من الحرير الأخضر الموشى بالقصب ، وقد نقشت عليه بعض آيات الكتاب الكريم صنعه سيدات القدس الشريف ، وفوقهما قطعة أثرية من الكسوة الشريفة النبوية أهداها سمو الأمير محمد على لتوضع فوق نعش الفقيد (انظر شكل ٨ وشكل ٩ فى الصفحات التالية)

وقد صلى عليه داخل حجرة الدفن فضيلة شيخ الهنود فى القدس ومولانا شوكت على ونجله زاهد على وحرم الفقيد الكريم وفضيلة الاستاذ التفتازانى ، ثم ورى التراب بين بكاء الباكين ودعاء الداعين

و بالجملة فقد شهدت فلسطين مشهداً فى جنازته لم يشهده من قبل المعاصرون كثرة واجلالا وعناية ، وكان مولانا شوكت على يجيب على تعزيات الوفود الاسلامية العديدة بعبارات بليغة بالانجليزية تترجم الى العربية ، وقد قال أخيرا لأهل فلسطين : « لقد استودعنا كم أثمن ما نملك ، وذلك دليل قيم على حبنا لكم ، واخلاصنا فى قضيتكم ، واهتمامنا بأمركم ، نحن معاشر الهنود المسلمين المدينين للعرب كافة باسلامهم ومدنيتهم » ، وكانت كلماته تقابل بما هى أهل له من الأثر الصالح فى النفوس

بعد يوم محمد على فى فلسطين

قال مراسل الاهرام فى يوم الأربعاء ٢٨ يناير سنة ١٩٣١ ما يأتى : « انقضى يوم مولانا محمد على ولكن أحاديث الناس عن هذا اليوم لا تنقضى قبل وقت طويل ، فلم تزل الألسنة تلهج بعظمة هذا اليوم وما لاقاه جثمان الفقيد من الاجلال فى الاستقبال والدفن . وقد هالنى ما رأيت من كثرة الناس المتوافدين لزيارة الضريح وقراءة الفاتحة والترحم على الضيف الثاوى فى هذا المكان ، ورأيت كثيرا من النساء البدويات فضلا عن السيدات والعقائل من أهل المدن يزرن محمد على راقدا فى ضريحه ، و بينما أنا خارج من هذا الجامع فاذا جماعة قادمون صوب الباب ، فبادرنى أحدهم سائلا : هل هذا قبر مولانا محمد على ؟ ثم دخلوا بكل لهفة ، وكذلك تتردّد الوفود الفلسطينية على مولانا شوكت على لتقدم عزاءها له ، فيجيب بأنه لن ينسى هذه الحفاوة الكبرى ، وأن ما شاهده من مشاطرة أهل هذه البلاد له فى هذا الخطب العظيم يدل على أن الشعور بالوحدة الشرقية أشدّ مما كان يتصوّر ، وقد قال لأحد الوفود : « إن هذا اليوم يوم دفن أخى محمد على فى بيت المقدس هو بالحقيقة فاتحة عهد جديد بين فلسطين والهند

و يتردّد على مولانا شوكت على مكاتبو الصحف الأجنبية و يطلبون مقابلته ، ولكن الوقت الى الآن لم يتسع له هذا ، وقد علمت أن المستر مارتن مكاتب الديلى تلغراف قابل مولانا شوكت وأخذ منه حديثا أعرب فيه مولانا شوكت عن الوقع الذى حصل فى نفسه من ليلة ٢٣ يناير الحالى الى ساعة المقابلة

وقد علمت أن مولانا شوكت على قد أبرق الى جمعية الخلافة فى بمباى برقية مسهبة ضمنها صفوة الأخبار التى تصف نقل الفقيد من بورسعيد الى القدس الشريف ودفنه بجوار المسجد الأقصى ، وقد جاء فى هذه البرقية العبارات التالية : « وضع النعش تجاه الصخرة الى جهة الجنوب ، وفى الساعة الثانية حتى الرابعة بعد الظهر كان عظماء المؤبنين يتبارون فى تأبين محمد على ، و بعد أن فرغوا وقفت وطلبت منهم باسم الاسلام و بحرمة الفقيد أن يقطعوا العهد على نفوسهم أن يكونوا من هذا اليوم عاملين لتكميل العمل الذى بدأ فيه محمد على وثابر عليه بكل توفيق من تجديد الحياة الاسلامية الشرقية »



(شكل ٨ — مولانا شوكت علي واقفا على المنبر وحوله عظماء الاسلام)



(شكل ٩ ـ نعش الزعيم الكبير مولانا محمد على محمولا على الأكتاف ، وخارجا للدفن بعد الصلاة عليه فى المسجد الأقصى الذى ضاق على سعته بعشرات الالوف من المصلين فاضطروا الى الصلاة فى الشوارع المجاورة له)

وقال فى هذه البرقية أيضا مانصه : « إن جثمان أخى محمد على كناية عن منحة مقرونة بروح التواضع تمنح الى معشر العرب الذين لم يزل العالم مدينا لهم بأعمالهم التى قاموا بها فيما مضى من نشر العرفان والعلوم والدين والحضارة فى جميع العالم »

ومن أقوال الاستاذ شوكت على أيضا مايأتى : « إن موت أخى فى ميدان التضحية للحظة الأخيرة وقد كان مشتغلا بخدمة الوطن والاسلام أثر تأثيرا عظيما فى الانكليز ، والموت على مثل هذه الحالة المقرونة بالجهاد يؤثر أكثر من الجهاد فى حالة الحياة ، ثم قال : إن موت شقيقى سيؤدّى الى حلّ مشاكل الهند ويوصل الى تحقيق رغبات البلاد . وسئل هل ستطرح قرارات مؤتمر لندن على هيئة عامة فى الهند ؟ نعم سيعقد مؤتمر من مسلمى الهند بعد وصولى ليسمعوا من المندوبين المسلمين فى مؤتمر لندن كل ماحدث هناك لتقرير مايرونه ملائما للوقوف على رأيهم فيما يشيرون به ، ثم يعقد بعد ذلك مؤتمر عام من المسلمين والهندوس . هل أنتم متفائلون ؟ نعم انى متفائل ، ومما يدل على ذلك أن المسلمين بحمد الله يد واحدة وقوّة متحدة »

ثم قال : « إنى مسرور لأن مؤتمر لندن أعطانى فرصة للتحقق من أن الانكليز يرغبون رغبة أكيدة فى انتهاج سياسة مبنية على حسن التفاهم واصلاح ذات البين بينهم وبين الهند ومصر ، واعطاء الشرقيين القسط الواجب من الاحترام » اهـ

***

لما رسمت هذه الصور واطلع عليها صديقى العالم . قال : إن لى اعتراضا على رسم هذه الصور فى التفسير . إن عادتك جرت فى هذا التفسير أن لاترسم إلا مايفيد فائدة طبيعية من صنع الخالق عزّ وجل . أما هنا فأراك خالفت عادتك . فقلت : نعم ، ألاترى رعاك الله أن هذه حادثة يعزّ نظيرها فى التاريخ ، ألم تر كيف أقدم الاستاذ شوكت على على دفن أخيه فى البلاد العربية المقدّسة ، وهذا حادث لم أجد له نظيرا من قبل ، بل انى لم أر رابطة بين المسلمين توطدت مثل هذه ، ان تاريخ المسيحيين شاهد أنهم كانوا أقوى اتحادا من المسلمين كما تقدم ، ولكن اليوم جاء دفن المولى محمد على ببلاد العرب دليلا على ارتباط مسلمى الهند وهم ٧٠ مليونا بمسلمى الأمم العربية . فاذا قالت انكلترا هذا وطن يهودى قال الهنود نحن مع اخواننا وقد دفنا أحد عظمائنا فيه ، وهل فى زماننا معجزة قرآنية أعظم من هذه ، وهل أنا رسمت النعش فى التفسير إلا لأنه أبرز لنا معجزة نبوية ، ألا ترى الى ما قاله الاستاذ المولى شوكت على : « إن جثمان أخى محمد على كناية عن منحة مقرونة بروح التواضع تمنح الى معشر العرب الذين لم يزل العالم مدينا لهم بأعمالهم التى قاموا بها فيما مضى من نشر العرفان والعلوم والدين والحضارة فى جميع العالم » اهـ

إن هذا القول لم يصدر من أمة من أمم الترك أو الفرس ، فالترك هدموا ممالك العرب هدما وأذلوهم وقدماء الفرس من قبلهم فتكوا فتكا سياسيا بالأمم العربية وهم مسلمون ، ولكن أهل الهند بهذا العمل المجيد قد أفهمونا معنى قوله تعالى هنا « وانه لذكر لك ولقومك »

أصبحت الهند وأبناء العرب اليوم صفا واحدا فى مقابلة من يعتدى على بيت المقدس أو بلاد فلسطين ، فهذا مصداق لهذه الآية ونور من أنوار النبوّة المحمدية والحمد لله رب العالمين . انتهى الفصل السادس

الفصل السابع

فى اتحاد المسلمين اليوم على فرنسا إذ أشيع انها تنصر البربر ، وتشجع النصرانية فى تونس ، وذلك فى مقالين : المقال الأوّل وهو ماجاء فى إحدى جرائدنا المصرية يوم ٢٨ أغسطس سنة ١٩٣٠ بعنوان « نداء الى ملوك الاسلام وشعوبه جميعها » . المقال الثانى وهو ماجاء فى جريدة « كوكب الشرق » تحت

عنوان « ظاهرة عجيبة » وهاك نصهما :

نداء الى ملوك الاسلام وشعوبه جميعا

والى علماء الحرمين الشريفين ، ورجال المعاهد الاسلامية من أعلام الأزهر وملحقاته فى المملكة الاسلامية ، وجامع الزيتونة فى تونس ، وجامع القرويين فى فاس ، ومعهد ديوبند فى الهند ، ومعهد النجف فى العراق ، والى الجمعيات الاسلامية فى أنحاء الأرض ، ولاسيما جمعيات الهند : جمعية الخلافة فى بومباى ، وجمعية العلماء فى دهلى ، وجمعية أهل الحديث فى دهلى . وجمعيات أندونسيا : اتحاد اسلام فى سومطره ، وشركة اسلام فى جاوه ، والجمعية المحمدية فى جكجا كرتا ، والى المسجد الاسلامى الأعلى فى القدس ، والمسجد الاسلامى الأعلى فى بيروت ، والى جمعية ترقى الاسلام فى الصين ، والى الصحف الشرقية على اختلاف لغاتها ولهجاتها

ان أمة البربر التى اهتدت بالاسلام منذ العصر الأول والتى طالما اعتمد عليها الاسلام فى فتوحه وانتشاره وطالما استند اليها مستنجدا أومدافعا فى خطوبه العظمى ، هذه الأمة التى سارت مع طارق الى اسبانيا ثم مع عبد الرحمن الغافقى ومع أسد بن الفرات الى صقلية ، هذه الأمة التى كانت منها دولتا المرابطين والموحدين فكانت لها فى تاريخ الاسلام أيام غراء مجيدة ، هذه الأمة التى ظهر منها العلماء الأعلام ، والقادة العظام ، والتى لرجالها فى المكتبة الاسلامية المؤلفات الخالدة الى يوم الدين ، هذه الأمة التى تبلغ فى المغرب الأقصى وحده أكثر من سبعة ملايين نسمة تريد دولة فرنسا الآن اخراجها برمتها من حظيرة الاسلام بنظام غريب تقوم به سلطة عسكرية قاهرة ممتهنة به حرية الوجدان ، ومعتدية على قدسية الايمان ، بما لم يعهد له نظير فى التاريخ

لقد وردت على مصر كتب من الثقات فى المغرب الأقصى تذكر أن فرنسا قديما استصدرت ظهيرا سلطانيا تاريخه ١٧ ذى الحجة سنة ١٣٤٨ هـ — ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ م ونشرته الجريدة الرسمية فى المغرب بعددها رقم ٩١٩ تنازل فيه سلطان المغرب لها عن الاشراف على الامور الدينية لأمة البربر ، وأن فرنسا قد بدأت بالفعل فى تنفيذ ذلك الظهير ، فقامت السلطة العسكرية فى المغرب الأقصى تحول بين ثلاثة أرباع السكان و بين القرآن الذى كانت به حياتهم مدة ثلاثة عشر قرنا ، فأبطلوا المدارس القرآنية ووضعوا قلوب أطفال هذه الملايين وعقولهم فى أيدى أكثر من ألف مبشر كاثوليكى بين رهبان وراهبات يديرون مدارس تبشيرية للبنين والبنات ، وأقفلوا جميع المحاكم الشرعية التى كانت فى تلك الديار ، وأجبروا هذه الملايين من المسلمين على أن يتحاكموا فى أنكحتهم ومواريثهم وسائر أحوالهم الشخصية الى قانون جديد سنوه لهم وأخذوه من عادات البربر التى كانت لهم فى جاهليتهم وهى عادات لاتتفق مع الحضارة ولاتلائم مستوى الانسانية ، وحسبنا مثالا على انحطاطها وقبحها انها تعتبر الزوجة متاعا يعار ويباع ، وتورث ولاترث ، وانها تجيز للرجل أن يتزوج ماشاء كيف شاء ولوأخته فمن عداها فى وقت واحد ، وان قانونا كهذا القانون يسن للمسلمين مخالفا للاسلام ، يعد من رضى به مرتدا عن الاسلام باجماع علماء المسلمين

إن فرنسا التى تبث الدعاية فى أمم الأرض بأنها أمة الحرية قد أجبرت رجال حكومة المغرب المسلمين على أن يتركوا دينهم بتنازلهم عما للسلطان من الحق فى إقامة أحكام الشرع الاسلامى بين رعاياه من قبائل البربر وجماهيرهم والاعتراف لحكومة الحماية الفرنسية بأنها صارت صاحبة التصرف فى دينهم وأمورهم التشريعية والتهذيبية وهو مالاتملك تلك الحكومة الحق فى التنازل عنه ، ومنذ استصدر الفرنسيون ظهيرا (مرسوما) من سلطان المغرب بهذا التنازل اعتبروا جميع المدارس القرآنية ملغاة ، وجميع العبادات الاسلامية معطلة ،

ووكلوا أمر تعليم أطفال المسلمين الى الرهبان توطئة لتنصير هذه الأمة عقيدة وعبادة وعملا ، وحالوا بين جميع مناطق البربر و بين علماء المسلمين ورؤسائهم فلايتصل بها أحد منهم

أيها المسلمون : قد أجمع علماؤكم من جميع المذاهب على أن من رضى بارتداد مسلم عن دينه يكون مرتدا برضاه عن ذلك ، فيجب على جماعات المسلمين وطوائفهم وجمعياتهم وأفرادهم أن يرفعوا أصواتهم بالاحتجاج على هذا العمل المنكر الفظيع بكل ما فى وسعهم كل بحسب مايليق به ، فاذا لم ينفع الاحتجاج فكر المسلمون فى الوسائل المجدية ، وان فى وسعكم أيها المسلمون أن تجبروا دولة فرنسا على احترام اسلام هذا الشعب الكبير وتركه يتمتع بحرّيته الدينية والوجدانية ، لأن حرّية الدين والوجدان حق من حقوق الانسان يجب على الانسانية حمايته من عبث العابثين واعتداء المعتدين

لقد سلكت دولة فرنسا مع اخواننا مسلمي المغرب سبيلا غير سبيل الرفق والنصح ، فجردتهم من وسائل النهوض وحالت بينهم و بين التعليم الصحيح ، وأنفقت أموال أوقافهم الاسلامية فى ضد ماوقفت له واختصتهم بشر التصيين فى كل ماتتصل به مصالح الوطنيين والأجانب ، وأن فى المسلمين من كان يعرف هذا و يتغاضى عنه الى حين رجاء أن يجعل الله لأهل المغرب فرجا من عنده ، ولكن امتداد يد السلطة القاهرة فى المغرب الى دين الاسلام واعتداؤها على حرية العقيدة والعبادة قد أوصل هذا العدوان الى الحد الذى ليس بعده حدّ ، فحقّ على كل مسلم أن يبادر الى انكار هذا المنكر بكل وسيلة يستطيعها

يجب أن تعلم فرنسا أن الاسلام لم يمت ، وأن المسلمين قد استيقظوا وصار بعضهم يشعر بما يصيب البعض الآخر من اضطهاد فى دينه ودنياه ، وأن بناء مسجد فى باريس تؤخذ باسمه ملايين الفرنكات من أوقاف الحرمين الشريفين وملايين أخرى من الاعانات الجبرية من جميع مسلمي افريقية مع اعانات أخرى من سائر العالم الاسلامى لايمكن لفرنسا أن تجعله حجة على حرّية الاسلام ومودة المسلمين فى مملكتها (التى تسميها أحيانا اسلامية) مع هذا الجرم الفظيع الذى شرعت فيه أخيرا وظنت أنها تتذرع به بضعة ملايين من حظيرة الاسلام بنظام تنفذه قوّة عسكرية قاهرة

إن فرنسا اذا لم ترجع عن هذه الجريمة فان العالم الاسلامى يعتبر ذلك مجاهرة منها بعداوته ، وسيعلن ذلك على منابر المساجد ، وعلى صفحات المجلات والجرائد ، وفى حلقات الدروس الدينية ، وفى نظم الجمعيات الاسلامية . لقد حان حين امتحان أحرار أوروبا فيما يدعونه من الانتصار لحرّية العقيدة والوجدان ، حتى لقد رضوا بكثير من المنكرات التى يعترفون أنها منكرات ، وذلك حرصا منهم على بقاء الحرّية طليقة من قيودها ، وان أقدس الحرّيات حرية الوجدان والاعتقاد ، وأسوأ ما أصيبت به هذه الحرّية فى هذا العصر محاولة فرنسا أن تحوّل المغرب الأقصى عن اسلامه الى النصرانية أوماشاءت أن تحوّله اليه

لقد سمعنا صوت أوروبا حكوماتها وشعوبها يرتفع عاليا باستنكار مافعلته روسيا البولشفية من اقفالها بعض المعابد مع ان يد البولشفيك الحديدية انما امتدت الى الحجارة والطوب ولم تمتد الى النفوس والقلوب فالعالم الاسلامى ينتظر من أوروبا التى احتجت على عمل السوفيت فى الكنائس أن تقول لفرنسا كلمتها الصريحة فى عدوانها على دين الاسلام فى المغرب الأقصى ومنعها سبعة ملايين من البشر منعا رسميا مؤيدا بالسياسة والجيش من أن يسكنوا الى دينهم وأن يتصلوا باخوانهم المسلمين اتصالا روحيا يطمئنون اليه و يرتاحون له

فيا أيها المسلمون : إن دينكم مهدّد بالزوال من الأرض ، فان فرنسا اذا أمكنها تنفيذ مشروعها هذا فى المغرب فستحذو حذوها جميع دول أوروبا فى المشرق ، وقد حكم عليكم فى هذه الحال بذل أنفسكم وأموالكم فى سبيل الدفاع عن دينكم ، فما الذى يمنعكم عن الدفاع عنه والله تعالى يقول : « فلاتخافوهم وخافون

ان

ان كنتم مؤمنين » ويقول : « ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهوكافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ويقول « يأيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » ويقول « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » ويلى ذلك الامضاءات

ظاهرة عجيبة

من ظواهر التبشير الدينى فى تونس

حديث اليوم . الشعور العام نحو المؤتمر الافخارستى . الاضراب عن العمل . مظاهرة الطلبة . عرائض من الشعب للباى والأعضاء المسلمين . نشاط البوليس واهتمام الحكومة اعتقال ٢٥ طالبا

جاء من مراسل كوكب الشرق فى تونس يوم ٢٩ مايو سنة ١٩٣٠ ما يأتى :

لعلّ القرّاء يعلمون أن المؤتمر الافخارستى الذى يعقد فى كل عامين لحج الرهبان والكاثوليك عامة ولأمور أخرى قد قرّر اجتماعه فى هذه الدورة بتونس ، وهذه أوّل بلاد اسلامية ينعقد فيها مؤتمر مسيحى ، وقد حاولت الحكومة التى أشرفت عليه إخفاء حقيقة صبغته والتمويه على الناس بأنه حج مسيحى لادخل فيه لجرح العواطف ومس المعتقدات ، غير أن أسقف قرطاجنة (منسنيورلوميتر) أعرب عن الصبغة الحقيقية للمؤتمر وقال فى إحدى خطبه : « إن هذا المؤتمر هو عبارة عن حملة صليبية جديدة نحو تحقيق فكرة سان لوى (لويس التاسع) والكردينال فيجرى »

وقد زادت الحكومة الفرنسية أن قرّرت أخذ مليونين من الميزانية التونسية (برغم أنف المجلس الكبير) وخمسة ملايين من ادارة الأشغال العامة التونسية ونصف مليون من البلدية التونسية وعشرات ألوف من ادارة أوقاف المسلمين ، كل ذلك لتصرفها على المؤتمر الذى هو حملة صليبية ، وقد قدّروا غضب الشعب واستياءه من هذا العمل المحرج ، ولكى يتخلصوا من ذلك الغضب وتكون الضربة متمكنة ، ولكى ينفذوا شيئا من برنامج سياستهم التى اتخذوها بهذه البلاد وهى إيجاد الشقاق بين الأمة والعرش أى بين الشعب وملكه قرّروا أن يكون المؤتمر تحت رئاسة الباى أحمد الثانى ، و بعضوية شيخ الاسلام ، والباش مفتى ، والوزراء المسلمين وشيخ المدينة الذى قدّم لهم خدمات جة فى الموضوع ، وشقيق رئيس الحجرة التجارية الأهلية ، وعضو المجلس الكبير ، ومحمد يس رمضان عضو المجلس الكبير وغيرهم من الذوات

واستاءت الأمة وقرّرت الاضراب عن العمل احتجاجا على وجود المؤتمر بصبغته هذه وعلى الملايين المقدّمة لقوم يريدون أن يقوموا بحملة ضد الدين الاسلامى الذى هو دين الأمة العزيز عليها ، وأصبح يوم السبت ٣ مايو يوم اضراب ، فاستعملت الحكومة القوّة لمنعه ، واتخذ البوليس كل طرق الشدة والصرامة فى ذلك ، وقام جميع طلبة المعاهد باضراب عام عن التعليم ، وفى الغد تظاهروا واشتدّ غيظ الحكومة وتدخل البوليس فانهال على المتظاهرين بالضرب حتى وقعت جروح للبعض وشاهدت البوليس يضرب الناس بالبسكليت من غير رحمة ولاشفقة إلا ان الطلبة أعادوا المظاهرة فى الغد (يوم الاثنين) وجابوا شوارع باب البحر والبوليس يعتقل ويفرّق ولم يرحم ، وظلّ الطلبة متظاهرين من الساعة الثالثة ونصف الى الساعة السادسة ينادون بحياة الاسلام وسقوط المؤتمر الافخارستى ، وقدّمت عرائض ممضاة من كافة الأمة الى الباى والذوات المسلمين الذين قبلوا عضوية المؤتمر تطلب منهم الانسحاب من المؤتمر واعتقل البوليس خمسة من الوطنيين و٢٥ من الطلبة ، والحكومة هنا متخوّفة من العواقب الوخيمة التى يفضى اليها هذا العمل الجارح الذى

أرادت أن تقوم به فى القرن العشرين . هذا وان الحزب الاشتراكى معاضد للأمة التونسية فى احتجاجها وقد سعى لدى المراجع العليا لاطلاق سراح المعتقلين كما سعى الطلبة فى ذلك مع زعماء الحزب الدستورى ، وقد أطلق سراح الكثير منهم بفضل مساعى الحزب الدستورى ورجاله ، والخواطر لاتزال مضطربة ولايزال مرأى الألف راهب يثير الحماس والغضب . والى هنا تمّ الكلام على الفصل السابع من اللطيفة الأولى والحمد لله رب العالمين

اللطيفة الثانية

فى قوله تعالى : والذى نزّل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون * والذى خلق الأزواج كلها ، مع آيات أخرى فى سور كثيرة كقوله تعالى : ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ، الى آخر ما فى سورة الزمر من شرح الصدر للاسلام إذ يقول تعالى : أفمن شرح الله صدره للاسلام الخ

جاء فى هذه الآيات انزال الماء ، واخراج الزرع ، ثم شرح الصدر للاسلام ، وأن القرآن أحسن الحديث فى ﴿ سورة الزمر ﴾ وهنا مجال لفهم زروع مختلف الألوان نابت بسبب الماء ، وانشراح صدر للاسلام ، وكون القرآن أحسن الحديث ، فلعمرى أى مناسبة بين الزرع والماء الذى يشربه و بين انشراح الصدر للاسلام ، ثم كون القرآن أحسن الحديث ، ولما كتبت هذا حضر العالم صديقى الذى اعتاد الحديث معى فى مثل هذا المقام ، فقال بعد أن قرأ ما ذكرته الآن : حقيقة إن المناسبة تكاد تكون بعيدة الشقة بين الأوّل والثانى ، أما بين الثانى والثالث فالمناسبة ظاهرة لأن الثالث سبب فى الثانى فهو من ذكر السبب بعد المسبب لأن من قرأ أحسن الحديث ينشرح صدره لما فيه من المعانى ، أما المناسبة بين الأوّل والثانى فهى التى تحتاج الى بيان . فقلت : لقد جاء الكلام على النبات فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب ، ولقد ظهرت عجائب فى ﴿ سورة النمل ﴾ فى آية « فأنبتنا به حدائق ذات بهجة » وفى غيرها ، مثل ان الجذور وتدية وليفية ودرنية ، وهناك مباحث أخرى ، هكذا فى ﴿ سورة السجدة ﴾ عجائب من النبات فى صوره الظاهرة وعجائب تركيبه من الداخل ، و بيان أن النخل له فى تركيبه صورة أخرى تخالف جميع الأشجار ، واذا رأينا الله عزّ وجل يكرّر ذلك الشىء الواحد فى مواضع كثيرة فى القرآن فهذا معناه أن تذكر الحكمة مفرّقة لامجتمعة ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ يستحسن أن تفرّق عجائب النبات على الآيات فان قراءة علم النبات بصفة علم لا يثمر فى النفس بهجة كالتى يثمرها ما يصنع فى أمثال هذا التفسير بحيث يصطفى من أصناف النبات ما يثير فى النفس بهجة وترسم أشكاله و يشرح شرحا يشرح الصدر و يبهج النفس ، فالقرآن ليس كتابا علميا بالمعنى المتعارف ، فالكتب العلمية قصد منها نفس العلوم شىء والعلوم شىء والوعظ والاستدلال والتأثير فى النفوس شىء آخر ، وفرق بين خزن الحب فى مخزن و بين إعداد الطعام للجائع ، فالعلوم فى حدّ ذاتها كالمخازن واقتطاف شىء منها فى مواضع متفرّقة من القرآن شىء آخر ، فليس المقصود من آيات القرآن أن تدرس العلوم المتعلقة بها دفعة واحدة فى تفسيرها بل تقتطف اقتطافا ، ولعمرى ان الناس يعرفون الفرق بين روضة ذات أزهار و بين باقة من الأزهار تهدى للزائرين ، إن الروضة لاتهدى ولكن الباقة تهدى وتشم وتأتى بالغرض المقصود من الاكرام ، هكذا يجب أن يهدى لقارئ الآيات المختلفات زهرات العلوم ، ويجب أن تنوّع تلك الأزهار على مختلف الآيات كما ينوّع المضيف لضيفه أنواع المأكول والمشروب والمشموم فى اختلاف الحالات ، إن النفس لتسأم من التمادى فى طعام واحد ، ومن التمادى فى حديث واحد ، لذلك نجد القرآن نوّع الحديث ، وجعل النبات الذى يحضرّ عليه مفرّقا على السور تعليما للمفسرين أن يفرّقوا عجائب النبات

على مختلف الآيات ويصوروا محاسن أشكاله لينشرح الصدر للاسلام بما يرى من الجمال البديع ، وذلك بما يؤثر فى نفسه من مختلف الأشكال فى الأحوال المختلفات ، وهنا استبان أمران : انشراح الصدر للاسلام بمباهج الصور ، وكيف كان القرآن أحسن الحديث ، لأنه حديث ذو شجون لا يسأم الانسان منه للتفنن فى ترتيب الآيات

فهاك مايبهج من علم النبات ومن صوره البديعة الحسنة ، اذا قلنا فى ﴿سورة النمل﴾ ان الجذور ثلاثة أقسام ، ورأيت رسمها وشرحها هناك فلنذكر هنا الجذور التى لاتنشأ من الجذر الأصلى بل من الساق وتسمى الجذور العرضية (انظر شكل ١٠) ومثلها الجذور التى تشاهد على الساق الزاحفة للشليك ، والجذور العرضية شائعة على الأكثر فى ذوات الفلقة الواحدة كالذرة والقمح فان الجذر الأصلى لهذه النباتات يموت بعد الانبات بقليل ، وتنشأ بدلا منه جذور عرضية على قاعدة الساق ، وتتكوّن الجذور العرضية فى بعض النباتات بمجرّد ملامسة الساق للماء أو التربة الرطبة ، ويستفاد من هذه الخاصة عمليا فى تطبيقات عديدة كترقيد النباتات وتقصيب القمح الخ ، ففى الترقيد يحنى فرع من ساق النبات (شكل ١١) ويدفن فى الأرض فلاتلبث الجذور العرضية أن تتكوّن على هذا الفرع فيصبح نباتا جديدا يمكن فصله من النبات الأصلى ، وتلك وسيلة لتكثير النباتات كما سترى فيما بعد ، وتقصيب القمح يكون بامرار محجلة اسطوانية على القمح وهوحديث فتميل السوق على الأرض وتنبت عليها جذور عرضية تزيد فى تغذية النبات فيترتب على ذلك وفرة الغلة



(شكل ١٠ — الجذور العرضية)


(شكل ١١)
ترقيد الكرمة

فلما قرأ صاحبى هذا القول واطلع على هذين الشكلين . قال : إن الجذور العرضية للشليك (شكل ١٠ المتقدم) وترقيد الكرمة (شكل ١١ المتقدم) لم يخرجا عن كونهما أمرين اعتياديين ، فكل من الجذور الوتدية فى القطن مثلا ، والجذور الليفية فى نحو القمح ، والجذور الدرنية فى نحو الجزر ، والجذور العرضية فى نحو الشليك ، والجذور الترقيدية فى نحو العنب ، كل هذه لم تخرج عن كونها مدفونة فى الأرض وقد وافقتها الرطوبة والمواد الأرضية ، غاية الأمر أن الساق امتدت منها الجذور فى الشكلين السابقين على خلاف المعتاد فى الجذور الأصلية ، ولكن الدفن فى التربة هو السبب فى ذلك ، فليس أمرا غريبا . فقلت : حياك الله ، إن الأرض والدفن فيها ليسا شرطا فى امتداد الجذور . فقال : « هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » . فقلت :

الجذور الهوائية

قد تنشأ الجذور على سوق بعض الأشجار كالفيكوس البنغالى (انظر شكل ١٢) فتنمو مدلاة فى الهواء حتى تصل الى الأرض فتنغرس فيها ، وتعرف هذه الجذور بالجذور الهوائية وتكون مغطاة بنسيج ضارب الى السمرة يحفظها من أن تجف فى الهواء ، ومن أهم وظائفها انها تكون بمثابة دعامة للغصون الأفقية


(شكل ١٢ الجذور الهوائية)

تتجه من أعلى الى أسفل ، وهذا أمر طبيعيّ عام ، والتجربة الآتية شاهدة بذلك

اتجاه الجذور

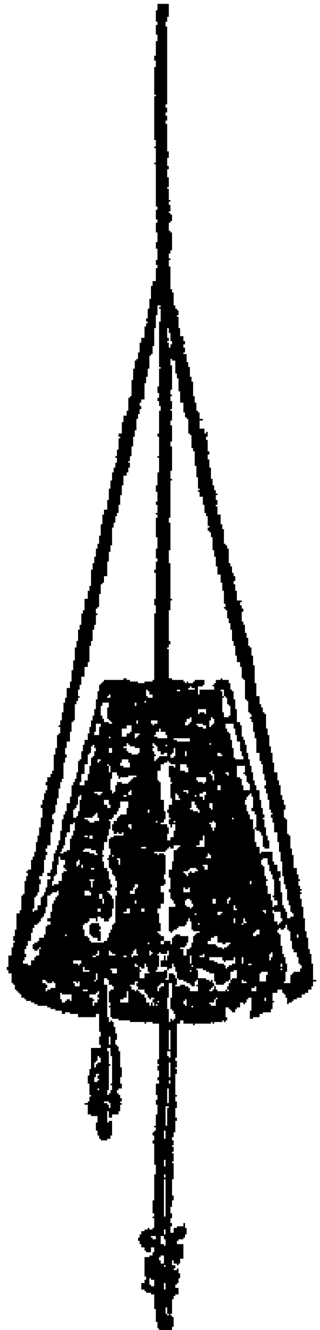


(شكل ١٤)
بادرة معكوسة

يتجه الجذر الأصلي على العموم اتجاها رأسيا من أعلى الى أسفل لاظهار ذلك تأخذ بادرة فى طور النمو وتضع الجذر وضعا أفقيا (شكل ١٣) فترى طرفه ينحني رأسيا الى أسفل ، واذا ثبتنا بادرة على قطعة من الفلين بحيث يكون الجذر الى أعلى والساق الى أسفل (شكل ١٤) نشاهد فى اليوم التالى أن الجذر ينثني الى أسفل والساق الى أعلى

(شكل ١٣)
جذر فى وضع أفقي

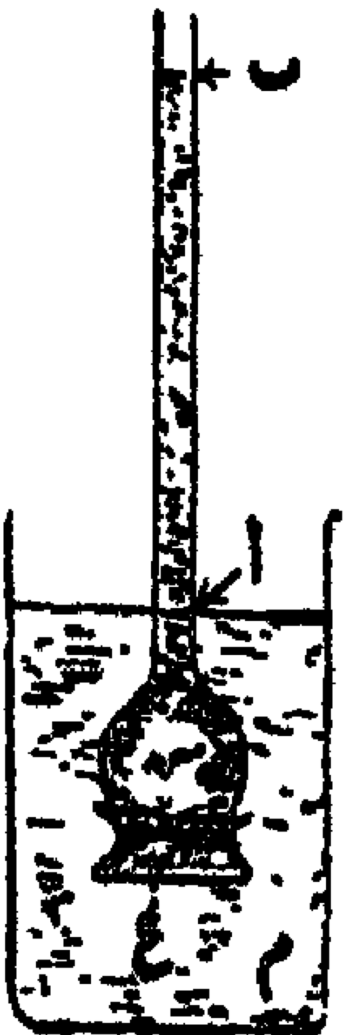
فقال صاحبي : هذا حسن فقد عرفنا اننا اذا وضعنا الجذر وضعا أفقيا كما فى (شكل ١٣) أو وضعا منكوسا معكوسا كما فى (شكل ١٤) فان الجذر يتجه الى أسفل دائما ، ولكن ربما يخطر لبعض الناس أن هذا الجذر انما يتجه الى أسفل دائما فرارا من النور أو طلبا لرطوبة الأرض . فقلت :


(شكل ١٥)
تجربة الأصيص المنكس

« اذا بذرنا بذورا فى أصيص ثم ينكس الأصيص (انظر شكل ١٥) بعد أن توضع على حافته شبكة سلكية تمنع سقوط التربة منه فيرى أن الجذر ينمو رأسيا من أعلى الى أسفل وهو فى هذه الحالة لا يجتنب الضوء ولا يتجه نحو البيئة الرطبة

فقال صاحبي : لقد استبان هذا الموضوع وظهر ظهورا واضحا ، ولكن بماذا يسمى العلماء هذا الميل . فقلت يسمونه (الانتحاء الأرضى) وقالوا إن هذه ليست من الجاذبية العامّة ، وماهذه التسمية إلا لمجرّد الاصطلاح . فقال صاحبي : هذا حسن وبه نعرف قول الله تعالى « والذى قدّر فهدى » وقوله « وان من شيء إلا عندنا خزائنه وماننزّله إلا بقدر معلوم »

فقال صاحبي : عرفنا أن النبات يتجه دائما جذره الى الأرض وان هذا أمر جديد لم يكن فى طبائع الأشياء ، ولكنى أرى أن امتصاص الجذور للمواد التى حولها يشبه كل المشابهة امتصاص المثانة (فى التجربة الآتية) للماء النقى حولها ، وذلك اننا نأتى بأنبوبة مسدودة فى أحد طرفيها بقطعة من مثانة ونصب فيها محلولا سكريا سميكا ثم نغمر الأنبوبة رأسية فى إناء يحتوى على ماء نقى (شكل ١٦) بحيث يكون المحلول السكرى على سمت الماء الخارجى وندعها كذلك زمنا مّا فنلاحظ أن سمت المحلول السكرى قد ارتفع فى الأنبوبة من (ا) الى (ب) كما نلاحظ أن ماء الاناء الخارجى يحتوى على قليل من السكر ، ويدل ذلك على أن مقدارا من الماء النقى قد نفذ من المثانة الى داخل الأنبوبة ، وأن بعضا من المحلول السكرى قد نفذ الى الاناء الخارجى ، غير أن تسرّب الماء الى داخل الأنبوبة كان أسرع من تسرّب المحلول الى الخارج

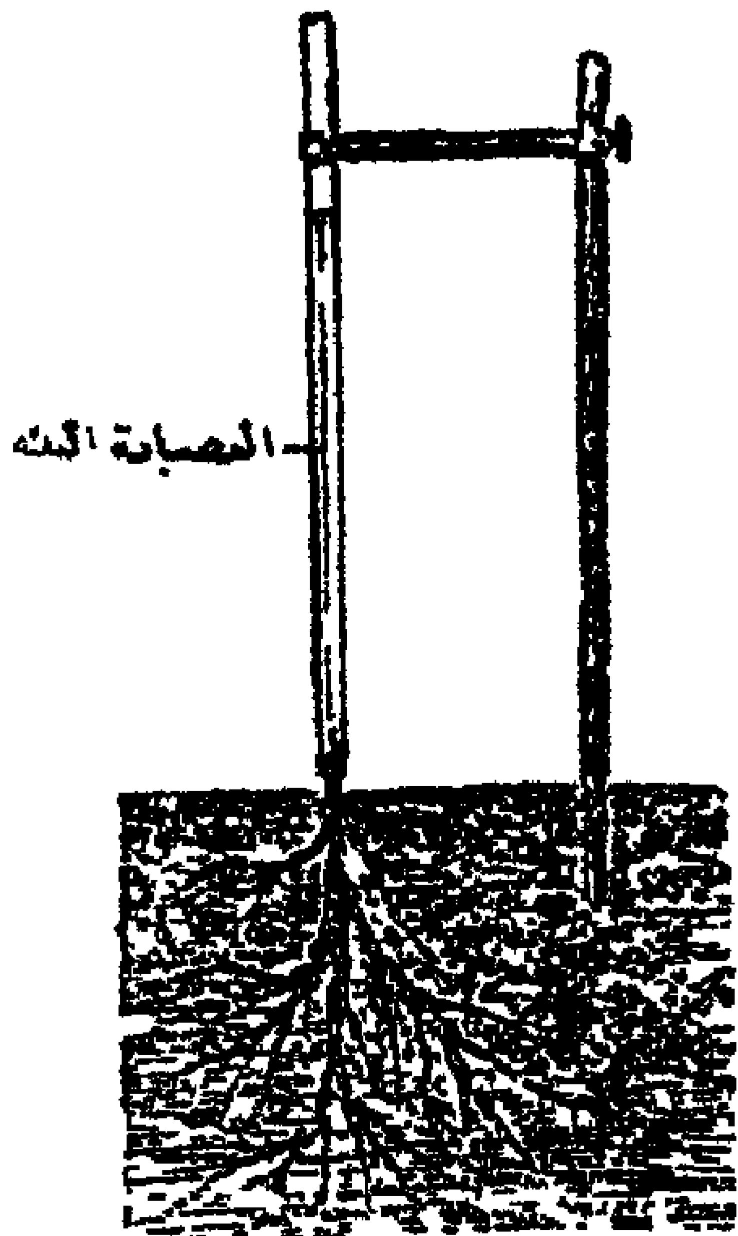


شكل ١٦ الانتشار الغشائى (م ماء نقى . غ غشاء . ش شراب)

فانتشار السوائل والمحاليل خلال الأغشية على هذه الصورة يعرف بالاسموز أو الانتشار الغشائى ، والضغط الذى حدث فى الأنبوبة فرفع سمت المحلول يعرف بالضغط الانتشارى

الانتشارى ، إذن ينفذ الماء والمواد الذائبة فيه من جدران الشعيرات الجذرية بالانتشار الغشائى ثم يندفع الى أعلى بالضغط الانتشارى

إذن الجذور فى النبات كهذه المثانة سواء بسواء ، فهى تمتص من الخارج الى الداخل وترسل من الداخل الى الخارج . إذن هذا أمر طبيعي معروف ، فاذا وضعنا قطعة من السكر فى ماء رأيناها امتصت الماء فعلا فيها أمام أعيننا ورأينا الماء حولها قد وصله شيء من حلاوة السكر ، ولكن الماء الداخل فى قطعة السكر أكثر مما فقده السكر فى أوّل الأمر ، ثم تنعكس الحال بعد ذلك . فقلت : إن الجذور ليست كذلك انها تأخذ ولا تعطى



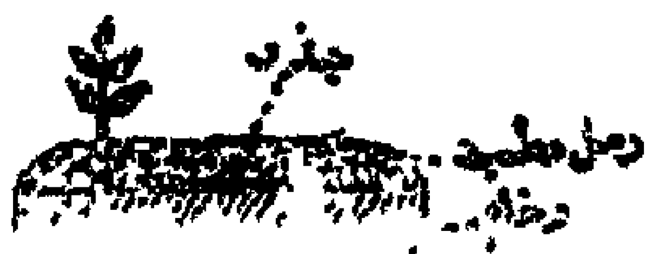
شكل ١٧ تجربة هلز

ان الانتشار الغشائى فى الأنسجة الحية يختلف عنه فى الأنسجة غير الحية ، لذلك لا تسمح الشعيرات الجذرية بمرور السكر وغيره من المواد التى فى داخل الخلايا الى الخارج ، ولاظهار أثر الضغط الانتشارى فى رفع العصارة النيئة الى أعلى تعمل التجربة المعروفة بتجربة (هلز) :

« تقطع ساق شجرة بمقربة من الأرض ويثبت على الجذع أنبوبة زجاجية تجعل رأسية (انظر شكل ١٧) فبعد مدة مّا يندفع فى الأنبوبة سائل رائق ضارب الى الصفرة إن هو إلا العصارة النيئة

وليست قدرة الشعيرات الجذرية مقصورة على امتصاص السوائل والمواد الغذائية الذائبة فيها بل انها قادرة أيضا على امتصاص المواد الصلبة

فاذا وضعنا رملا رطبا على قطعة ملساء من الرخام و بذرنا فيه بعض البزور (انظر شكل ١٨) نشاهد بعد الانبات أن المواضع من الرخام اللاصقة للشعيرات متآكلة ، ذلك لأنها تفرز فى مثل هذه الأحوال سائلا يذيب هذه المواد الصلبة ، ثم بعدئذ يحدث الامتصاص



(شكل ١٨)
امتصاص المواد الصلبة

و يقوم الجذر عدا وظيفة الامتصاص بوظائف أخرى ، فهو يثبت النبات فى الأرض ، وكلما كان الجذر أكثر تعمقا وتفرّعا كان النبات أكثر ثباتا وأشدّ مقاومة لفعل الرياح ، والمنطقة الخاصة بالتثبيت هى الأقرب الى الساق وهى خالية من الشعيرات و بشرتها غير ماصة

والجذر يتبادل الغازات مع الأرض لأنه يتنفس ككل الأجزاء الحية من النبات ، وربما مات النبات إذا لم يجد الجذر مددا كافيا من الاكسيجين ، لهذا كان من الضرورى تسهيل دخول الهواء الى الجذر ، و يتوصل الى ذلك بحرث الأرض وعزقها ، و يستخدم الجذر لادّخار الموادّ الغذائية التى يستهلكها النبات عند التزهير كما يشاهد فى جذور البنجر واللفت الخ

فقال صاحبي : هذا عجب ! فان افراز الشعيرات التى فى الجذر للسوائل واذابتها المواد الصلبة من أعجب العجب ، وهى فى هذا أشبهت الانسان والحيوان إذ لنا جميعا غدد لعابية فى أفواهنا ، ولنا سوائل أخرى مثل (البنكرياس) فى المعدة ، وكل هذه لهضم الطعام ، ولنا غدد تفرز لبن المرأة لولدها ، ولنا المرّة الصفراء التى بجانب الكبد تفرز تلك المادة فتكون سببا فى منافع صحية ، وهكذا هنا الكليتان ليتجه الماء اليهما فينزل فى الحالبين ، فاذن النبات عنده وظائف كالوظائف عند الحيوان ، و بافرازه سوائل خاصة يحدث تفتتا فى الحصوات ، وعلى ذلك تهدم الجذور المبانى العظيمة بنفس الافراز لا بالضغط الذى يفعله الثلج اذا جد فى باطن الكهوف فان الماء اذا برد فى باطن الجبال كسرها لأن الثلج أكبر حجما من الماء الذى صار ثلجا فيكسر

ذلك الثلج مافوقه من الأحجار فتظهر العيون ، فظهور العيون فى الجبال انما يكون بضغط الثلج على الأحجار أماذوبان الحجارة والحصوات وحبات الرمل ودخولها فى جسم النبات فلن يكون بالضغط والتكسير وانما يكون بأعمال كيمائية وهى التحليل والتركيب فتحلل الجذور تلك العناصر الصلبة فى الحال وتدخلها أجسامها ، وهناك تركب تركيبا جديدا ، وهذا هو الرقىّ ، هذا هو الرقىّ الذى وضعه الله فى أرضنا وجعله درسا لنا ، فهو يقول : الضغط الجسمى شأن الجماد ، فتعليم الناس العلم بالضغط والأذى ، وارغامهم على العمل لمصلحة الذين استعمروا بلادهم انما هو شأن الأمم الذين لم يخرجوا عن أعمال الجماد فلاحياة لهم إلا الحياة الخامدة ، وهل الرجل الذى يسخر غيره لمنفعته هو إلا كالثلج ضغط على الحجر فكسره ، فأما الأمم التى هى أرقى فنها تعلم الشعب تعليما نافعا وتنقله من حال الصلابة والهمجية الى حال العلم والحكمة ، فترجع سهلة القبول للرقىّ وتكون الأمم إذ ذاك أشبه بتلك المواد المفتتة من الحصى وقد حصلت فى جسم النبات فصارت زهرا باهرا ، وورقا ناضرا ، وثمرا نافعا لسائر الناس ، هذا هو صراط الله المستقيم أن يعلم الناس قاطبة فيكونون أشبه بأمة واحدة لا أن يساموا الخسف كما يفعل الثلج فى الجبال فيكسرها ، الماء فى حاله المعتادة كالأمم فى حال هدوئها. ولكنه اذا برد وصار ثلجا فى الجبل صار كالأمم الوحشية اذا اجتمعت لغزو أمة أخرى فتؤثر فيها بالقوّة ، أما جذور الأشجار فلا تؤثر بقوّة الجسم بل بقوّة العلم وهو علم الكيمياء ، ولسنا نقول ان الجذور علماء بالكيمياء بل نقول ان السلطة العليا المحيطة بهذه العوالم علمت هذه الجذور وهدتها أن تفتت الحصوات حولها كما هدت لعاب الحيوان أن يهضم الطعام ، ولقد أجتمع هذان المثلان أى مثل الثلج ومثل الجذور فى مضغ الاسنان والحيوان لطعامهما ، فنحن نمضغ بقوّة الأسنان ، ولكن هذا المضغ وحده لايسعد الحيوان لأنه وان فتت اللقمة فليس معنى هذا أن اللقمة بهذا التفتيت أصبحت صالحة للغذاء . كلا . بل هناك تتلقى اللقمة الغدد اللعابيــة فى الفم والبنكرياس فى المعدة ، وهناك يهضم الطعام ويتمثل بالجسم الانسانى ويصبح هو جسم الانسان ، فحال المضغ هى حال هــذا الانسان فى وحشيته الحاضرة والماضية ، وحال اللعاب وهضمه حال الأمم التى تأتى بعدنا التى تضع كل امرىء فيما استعد له من العمل ، وكل أمة فيما استعدت له من المنفعة العامّة لجميع الناس ، وهذا هو الذى ألفت له كتاب ﴿ أين الانسان ﴾

فقال صاحبى : هذا الموضوع كله قد بنيته أنت على الجذور وعملها ، وأنا أريد أن تختمه بالكلام على أجزاء بعض الشجرات الظاهرة . فقلت : لقد تقدم الكلام على ذلك فى مواطن كثيرة ، منها ماتقدم فى ﴿ سورة الحجر ﴾ عند آية « وأنبتنا فيها من كل شىء موزون » فانك ترى هناك الدوائر البديعة المنتظمة بها أوراق النبات بنظام هندسى بديع فاقرأه هناك ، وعند آية « وأرسلنا الرياح لواقح » فى نفس السورة فانك ترى هناك عجائب الأزهار ونومها ويقظتها وإلقاحها ، وترى فى ﴿ سورة الشعراء ﴾ نظيره ، وفى ﴿ سورة النمل ﴾ ترى الكلام على الأوراق ونظامها من جهة أخرى غير ماجاء فى ﴿ سورة الحجر ﴾ . فقال ولكنى أريد أن أشاهد نفس الزهرة عند نومها وعند يقظتها وما أشبه ذلك إيضاحا لما تقدم فى ﴿ سورة الحجر ﴾ فقلت : جاء فى كتاب ﴿ مبادىء التاريخ الطبيعى ﴾ مانصه :

« ويؤثر الضوء فى اتجاه الأوراق ، فاذا وضعنا نباتا فى غرفة أمام نافذة رأينا الأوراق تدير وجهها العلوى نحو النافذة حتى تلقى أكبر قدر ممكن من الضوء ، والأوراق بوجه عام تجعل نصلها عموديا على اتجاه الضوء »

حركات الأوراق

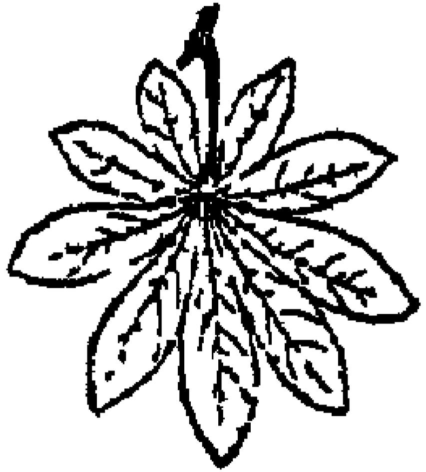
رأينا فيما تقدم أن أوراق البراعم تغير وضعها عند تفتحها وأن المحاليق تلتف حول الأشياء التى تصادفها وهذا التغير فى الوضع أوفى الاتجاه الذى يشاهد فى الأوراق الآخذة فى النمو يعتبر نوعا من الحركة ، على أن

الأوراق التامة النمو قد تتحرك بصورة واضحة عند بعض النباتات ، وقد تكون هذه الحركة مسببة عن الضوء أوعن الملامسة وقد تكون ذاتية ناشئة عن أسباب داخلية ، ونحن نسرد هنا بعض أمثلة من هذه الحركات :

نعاس الأوراق

وريقات الورقة المركبة من الترمس تكون أفقية أثناء النهار . ولكنها متى أقبل الليل تنسدل شيئاً فشيئاً حتى تضم أوجهها السفلى بعضها الى بعض (انظر شكل ١٩) ثم تعود فى الصباح سيرتها الأولى ، وتسمى الحركات التى من هذا القبيل بالحركات النعاسية وهى شائعة فى كثير من النباتات كالبرسيم والحميض الخ إنما يغلب أن تتجه الأوراق فى نعاسها الى أعلى ضامة أوجهها العليا بعضها الى بعض ، وفى قاعدة الوريقة المتحركة نجد انتفاخا يعرف بالانتفاخ المحرك (انظر شكل ٢٠) وهو متى امتلأ بالماء تضخم ودفع الورقة الى أعلى أو الى أسفل وفقا لشكله الذى يختلف باختلاف النباتات ، و بالضد اذا تسرب منه بعض الماء الى الساق رأيناه يهبط و يصير رخوا فتأخذ الوريقات وضعها الأفقى من جديد ، وترجع كثرة الماء وقلته فى الانتفاخ المحرك الى أن مقدار الماء الذى ينتجه النبات يتغير تبعا لشدة الضوء ، وكأنما الغرض من الحركات النعاسية انقاص السطح الورقى المعرض لبرودة الليل





(ب) نعاس (ا) يقظة

شكل ١٩ ـ أوراق الترمس



شكل ٢٠ ـ الانتفاخ المحرك

رسم وهمى

الحركات المسببة عن الملامسة

أوراق بعض النباتات كالمستحية والنباتات الآكلة الحشرات تتحرك بمجرد اللمس فتغير وضعها ثم تعود اليه بعد زمن ما ، هذه النباتات إذن قابلة للتهييج بصورة تشبه من بعض الوجوه قابلية التهييج عند الحيوانات لاسيما اننا نستطيع فى كلتا الحالتين إبطال هذه القابلية للتهييج وقتيا بتأثير بعض المواد المرقدة كالأثير والكلوروفرم والنباتات المستحية تقدمت مشروحة بصورة فى سورة الرعد عند آية ـ يسقى بماء واحد ـ

الحركات الذاتية

وهناك نباتات تتحرك أوراقها لغير سبب ظاهر و يطلق على مثل هذه الحركات اسم الحركات الذاتية ، وأحسن مثال لهذه النباتات نبات ينبت فى الهند اسمه هديزاروم جيرانس (شكل ٢١) تتكون ورقته من وريقة كبيرة ، وعند قاعدتها وريقتان صغيرتان (ب) و (بَ) فتى وضع النبات فى بيئة لاتقل درجة حرارتها عن ٢٢° مئوية نرى الوريقتين الصغيرتين تتحركان ببطء فتدور كل منهما حول قاعدتها بحيث تتم الدورة الكاملة فى زمن يتراوح بين دقيقتين وخمس دقائق ، وغالبا لاتكون هذه الحركات الدورية منتظمة بل تتركب من عدة رجات متتابعة ، وهنا أيضا نرى فى قاعدة الوريقة المتحركة انتفاخ هو الذى يدفعها الى الحركة بما يظهر على جوانبه من لارتفاع والهبوط المتبادلين ، على أن السبب الباعث لهذه الحركات لايزال غير مدرك حتى الآن



(شكل ٢١)

ورقة الهديزاروم جيرانس

سقوط الأوراق

فى غالب الأشجار والشجيرات التى تنمو فى المناطق الباردة والمعتدلة تكون الأوراق محدودة الأمد فانها

تتولد فى الربيع وتتم ومدة الصيف ، ولكن متى حل الخريف نراها تفقد خضرتها وتأخذ صبغة صفراء أوضاربة الى الحمرة ، ثم تنفصل قاعدتها عن الغصن الذى كان يحملها وتسقط على الأرض تاركة مكانها أثرا ظاهرا يعرف بندبة الورقة ، ويشاهد فوق سطح الندبة طبقة واقية من الفلين ، وهذه الطبقة تنشأ قبل سقوط الورقة بمدة مّا فتمنع وصول العصارة الى الورقة كما أنها تساعد على انفصالها من الغصن ، ويتكوّن فى إبط الورقة قبل سقوطها برعم إبطى يظل ساكنا مدة الشتاء ، ثم ينمو فى الربيع التالى ويكوّن غصنا جديدا ذا أوراق ، وتعرف مثل هذه الأوراق بالأوراق المتجدّدة ، ومثلها أوراق المشمش والتفاح والكرمة ، على أن بعض الأشجار والشجيرات تكون مكسوة بأوراق خضراء فى جميع أوقات السنة ، وتسمى هذه النباتات بدائمة الخضرة ، ومثلها الصنوبر واليوكالبتس (المعروف عند العامّة بالكافور) والفيكوس الخ ، فى هذه النباتات تبقى الأوراق على الأشجار أكثر من فصل ولا تسقط أوراقها فى وقت واحد

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : هذا حسن جداً ، فهل ترى هنا فكرة حكمية ؟ فقلت : لقد عجبت هنا من ﴿أمرين : أوّلهما﴾ أن الورقة قبل سقوطها يحدث فوق سطح الندبة طبقة واقية فتمنع وصول العصارة اليها ﴿ثانيهما﴾ انه يتكوّن فى إبط الورقة قبل السقوط برعم ابطى يظل ساكنا مدة الشتاء ثم ينمو فى الربيع وهذا عجبان ، فكأن هذه الطبقة أشبه بالسدود فى البحر تمنع جرى الماء لغرض خاص أوكما يصنع الفلاح فى سقيه الأرض إذ يحوّل الماء من الحوض الذى يجرى فيه الماء الى حوض آخر وذلك بسدّه بالطين الذى يجرفه بالفأس ، إذن فعل الله فى أبداننا مافعله فى حقولنا سواء بسواء ، وبدون دراسة هذه العلوم لايخطر لنا أن ذبول الأوراق تقدّمه سد العصارة عنه كما ان الانسان يموت ولايعرف الناس عن الموت إلا انه أمر طبيعى ويجهلون السبب ، لم يكن ليخطر لأحد من الناس قبل انتشار هذه العلوم أن الحمى والجدرى والاسهال والحمى التيفوذية ، والحمى التيفوسية وأمثالها والكوليرا كلها لم تكن إلا لحيوانات ميكروسكوبية أحدثتها وأنتجت تلك الأمراض (انظره فى سورة الروم) كما ان سقوط الأوراق لم يكن ليخطر للناس قبل ظهور هذه العلوم ، ان هناك سدا يوجب انحباس العصارة عنها ، إذن كل مافى أجسامنا ومافى هذه العوالم لا يكون إلا بأعمال دبرتها نفوس عالية منظمة مستمدّة نظامها من مبدع العالم كما نرى الضوء المنتشر فى الأرض مستمدا من قرص الشمس ، فههنا قوى عاقلة تحيط بنا كاملة العقل مهندسة حكيمة لها أفعال ذات نظام تحيط بنا احاطة الشمس بأجسامنا ، فههنا نورشمسى وكوكبى وههنا ضوء عقلى يتدخل فى كل شىء

هذا هو الأمر الأوّل ، أما الأمر الثانى فهو أن البرعم الابطى الذى ينمو فى الربيع أشبه بالأجنة فى بطون أمهاتها ليحلوا محل الآباء اذا ماتوا ، فبينما الهرم يحل بالآباء نرى الأ‍ ‍ـنة والأطفال ينمون ويكبرون ، هكذا البرعم الابطى ينمو أثناء منع العصارة عن تغـذية الورقة ليحل بها الفناء ، وهذا هو قوله تعالى « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت » فهذه العصارة حوّلت من الورقة الى البرعم الصغير كما تتزايد الحياة فى الأطفال وتتناقص فى الكبار ، والله هو الولى الحميد وهو حسبنا ونعم الوكيل . كتب فى يوم الأربعاء ١٥ يناير سنة ١٩٣٠ م

بهجة العلم فى اللطيفة الثانية

فى قوله تعالى : « والذى نزل من السماء ماء بقدر

يقول الله فى « سورة الواقعة » : أفرأيتم ماتحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ＊ لونشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون ، فالله هو الذى أنزل الماء من السماء ، وهو الذى سلكه ينابيع فى الأرض ، وهو نفسه الزارع ، وهذه الآيات يفهما الجاهل والعالم لأنها واضحة ، ولكن التحقق منها وادراك حقائقها لن يكون

ولن يتسنى إلا لقليل من نوع الانسان . ان الناس مغمورون فى النعم وهذه النعم تعمى وتصم لكثرتها عن ادراك الحقائق ، فالنعم لوفرتها من شمس تضىء وهواء يحيط ، وحبوب تزرع ، ونبات يظهر ، ولا عمل للانسان فيها ، كل هذه أنامت هذا النوع الانسانى قديما وحديثا ، فهل لامم أن أحدثت حديثا جيلا يكشف بعض النقاب عن هذا الجمال حتى يكون بابا تلج منه لادراك الحقائق وان كانت تلك الحقائق يعوزها صرف الحياة فى فهمها والبحث عنها ، ولن يحب الانسان صانع هذا العالم حبا مفرط لذاته غير ملاحظ خوفا من النار ولاطمعا فى الجنة ، ولاعقابا ولاثوابا إلا اذا درس هذه الدنيا وجمالها درسا فكريا بعد الاطلاع على علوم الحيوان والنبات والكواكب الخ وهذا الدارس هو السعيد حقا فى هذه الدنيا وبعد الموت لأنه لايرى من الله إلا الرحمة العامة ولا يكدّر صفوه مايرى من حوادث الدول والحروب ولا الموت ولاالحياة فان هذا الدارس المفكر وقفت نفسه على سرّ هذا كله وقنعت بالحقائق فانشرحت لها وتجلى لها الله فى الدنيا برحمته الحقيقية وهذا هو الذى لايحزنه الفزع الأكبر لأنه عارف والعارف موقن بالرحمة ، والذى يخاف من الفزع الأكبر هم أكثر هذا النوع الانسانى لأنهم يعيشون فى جلودهم ولايفهمون نظام الرحمة فى الوجود ويتقلبون فى أنواع اللذات والآلام ولايفهمون ماوراءها ، فهؤلاء قد جعل من بين أيديهم سدّ الشهوات ومن خلفهم سدّ الآلام فأغشى على عقولهم فهم لايبصرون الحقائق ، فأما أنت أيها الذكىّ فهاك نبذة من ذلك الجمال تفتح بها ما أغلق على أكثر نوع الانسان وان كانوا علماء فى جميع هذه العلوم ، فانظر الى الشمس انها ترسل الألوان السبعة المعروفة وهو الأحمر والبرتقالى والأصفر والأخضر والأزرق والنيلى والبنفسجى وهذه تتحد وتصير لونا واحدا هو الذى يغطى الأرض وجبالها وأنهارها وبحارها وآجامها وحجرها ومدرها ونبتها وشجرها ، وهذا الضوء هو الذى به يتم النبات ، ذلك انه يساعد المادة الملونة المخزونة فى الأوراق على اجتذاب الموادّ الفحمية من الهواء وهو الذى يقيم هيكل النبات ، وهذا النبات هو الذى توقف بناء هيكله على الشمس ، ترى فيه أمرا عجبا ! تراه مقسما على بقاع الارض وعلى الأزمنة وعلى حواس الأحياء وعلى ماينفعهم من غذاء وفاكهة ودواء . فههنا أربعة فصول فى تقسيم النبات على بقاع الأرض والأزمان والحواس ومنافع الحيوان . وهاك بيانها :

الفصل الأول

فى أن أنواع النبات تكون فى جميع الأماكن

إن منها ماينبت فى البرارى والقفار ، ومنها ماينبت على رءوس الجبال ، ومنها ماينبت على شطوط الأنهار وسواحل البحار ، ومنها ماينبت فى الآجام والغياض ، ومنها مايزرعه الناس ويغرسونه فى القرى والسوادات والبساتين ، ومنها ما يكون على وجه الأرض ، ومنها ماينبت تحت الماء ومن ذلك قصب السكر والارز والنيلوفر ، وأنواع العكرش ، ومنها ما ينبت على وجه الماء كالطحلب ، وما ينسج على الشجر والنبات (كالكشوثا) واللبلاب . ومنها ماينبت على وجه الصخور كخضراء الدمن ، ومنها مالاينبت إلا فى البلاد الحارة كالنخل . ومالا ينبت إلا فى البلاد الباردة . ومالاينبت إلا فى التربة الطيبة . ومالاينبت إلا فى الرمال وبين الحصا والحجارة والصخور والأرضين اليابسة . ومنها مالاينبت إلا فى الأرضين السبخة المشورجه

واعلم أن أرضكم هذه لما أتمت فى حضانة الشمس المدة الكافية لسنّ بلوغها قالت لها بلسان الحال أى بنيتى هاهوذا جاء زمن بلوغك فانهضى من مرقدك فى معهدك الذى تتربين فيه وهاأناذا أرسلك الى مدارك الذى تدورين فيه حولى كما أرسلت من قبلك أخواتك الكبريات مثل بناتى (أورانوس ونبتون والمشترى والمريخ وأمثالهن) فهاهوذا جاء الوقت الذى أرسلك لتكونى فى مدارخاص وهو منزل بعلك الذى

اطعيمنه وهو الضوء الذى يسير منى اليـك حين تبتـدئين فى الدوران ، وباجتماعه معك تلدين ذرّية صالحة إن شاء الله وهى أنواع النبات والحيوان ، ولـكن يابنيتى واسوءتاه ، إن أبناءك من ذرّية أحد أولادك المسمى آدم سيكونون خارجين عن سنن القوانين حين يطردون من الجنة التى كان أبوهم فيها ، فأنا يابنيتى أنصحك أن تأخذى معك كل مايجب لحفظ صحتهم اذا ضعفت لتطول حياتهـم أمدا مّا ، نخذى فى هيكلك من العناصر ماينفعهم ، فهاهو ذا المغنسيوم والـكبريت والفوسفور والحديد والـكلور وأمثالها فانها ستدخل فى مواد نباتية فيكون الأوّل نافعا فى العضلات ، والثانى فى الدم ، والثالث فى المخ ، والرابع فى احمرار الدم ، والخامس فى هضم طعامهم ، فهذا يابنيتى هو وأمثاله من الجهاز الذى تأخـذه بناتى معهنّ لأزواجهنّ حتى يلدن الذرّية الصالحة النافعة . واعلمى يابنيتى أن الله قد أعدّ لأبنائك من ذرّية آدم كل مايحتاجون اليه قبل اخراجك من جسمى لأنه علم أنهـم قوم لايحافظون على صحتهم فأمرنى أن أبلغك أمره إذ يقول : انه سينبت عليك مثلا الجزر ليكون نافعا للاجداد كما تقـدم ، وأمثال الخس ليـكون نافعا للأعصاب ، وأمثال البرتقال ليكون نافعا للشجاعة ، والبقدونس ليكون نافعا للـكاتبتين ، والطماطم لتـكون نافعة للـكبد

وهذه الذرّية ستخلق بعد مئات الملايين من السنين . فقالت الأرض : يا أماه . وكيف هذا ؟ فقالت لأن الله يعلم كل شىء قبل خلق السموات والأرض فهناك مناسبة عجيبة بين العناصر والنباتات و بين أعضاء الانسان عضوا عضوا ولـكنّ أكثر الناس لايعلمون

الفصل الثانى

فى تقسيم النبات على الفصول

النبات	مبدأ زرعه	زمان حصده
أكثر النبات	فى زمن الربيع	
الحنطة والشعير والباقلا والعدس وغيرها	فى زمن الخريف	الربيع
القثاء . الخيار . الباذنجان	فى الشتاء	»
الجزر . الشلغم . الـكرنب . القنبيط	الخريف	الشتاء
السمسم . الذرة . الارز	الصيف	الخريف
القطن . القنب	الربيع	»

الفصل الثالث

فى تقسيم النبات على حواس الحيوان ومنه الانسان

النبات	الحاسه
مناظر الأشجار والأزهار جميعها	لحاسه البصر
الأزهار وذوات الرائحة الطيبة كالورد	لحاسة الشم
حفيف الأشجار وغوير الأعشاب وهكذا	لحاسة الأذن
الحلو كالتمر والتفاح والعنب وأمثال ذلك	لحاسة الذوق
نعومة الزهر والقطن مثلا	لحاسة اللمس

الفصل الرابع

فى تقسيم النبات على منافع الانسان

فمن النبات ماهو للغذاء كالحبوب والفواكه ، ومنها ماهو للدواء ، وهذا مقسم على الأعضاء أوعام ، فأما ماهو عام فمثاله الكافور والصفصاف ، أما الكافور فهو نافع فى الأمراض العصبية كالصرع واختناق الرحم المسمى (هيستريا) وذلك بأن تهجم على المريض نوبات عصبية فيفقد الشعور تماما فلا يحس ولو كوى بالنار ويقع ولو كان أمامه بئر ويعض على لسانه ، ويقول له العامة (معفرت) وهذا يستعمل له التفريح وترك الكدر ، ويرش له مسحوق الكافور على فرشه فهو مضاد للتشنج وان كان قد اعتاد الاستمناء باليد يمنعه ذلك المسحوق على الفرش ، وأما الصفصاف فهو للحمى ، وذلك ان المصاب بالحمى يعالج بمغلى أوراق الصفصاف بأن يوضع (أوقيتان فى رطل ماء) ويغليان ويشربهما مع وجوب ترك المحل الذى أصيب فيه بالحمى حتى يتغير الهواء ، ويقتصر على الحمية ولا يأكل إلا قليل المرق واللبن ولا يشرب إلا ماء الشعير ليطفئ الماء الظمأ ، ويقوم مقام ورق الصفصاف مغلى قشر البلوط وورق الحور أو الزيتون . فهذان مثلان لما هو عام لمداواة الجسم كله ، أما مايختص ببعض الأعضاء دون بعض فمثاله :

(١) ان الجلد ينفعه أكل الجزر

(٢) والأعصاب ينفعها أكل الخس والسبانخ

(٣) ولترك الخوف وظهور الشجاعة ينفع أكل البرتقال والليمون

(٤) ولأجل شفاء الكليتين ينفع أكل البقدونس وكشك الماز والفجل

(٥) ولأجل شفاء الكبد ينفع أكل الطماطم والهندبا (جعضيض) والبصل

(٦) ولشفاء النزلة المعدية المعوية المزمنة وهى (القرفة) يأكل المريض السريس الأخضر وهو (الشكوريا البرية) مع الغذاء مدة اسبوع ، وهكذا حب الرشاد لأنه يحتوى على أصول مقوية جدا للهضم ومصلحة لتلك المعدة

(٧) ولشفاء الرأس من ضرر (بطحة الشمس) وهى المسماة ضربة الشمس يصب على الرأس ماء بارد مضاف اليه قليل من الخل ، ويترك الرأس عاريا

(٨) ولشفاء (داء الخناق) المسمى (دفتيريا) يؤتى للمريض بخرقة نظيفة تلف على قطعة خشب رقيقة ثم تغمس فى عصير الليمون المصفى ويمس بها حلق الطفل ، ويكرر ذلك كل ساعة مرة

(٩) ولاسهال الطفل الذى يسميه الفلاحون بمصر (التاويحه) يجب أولا منع سببه وهو أكل الطعام والثمار قبل استعداد الطفل للأكل بل يجب أن يطعم لبن البقر اذا لم يكن لأمه لبن ويضاف اليه مقدار درهم من مسحوق الطباشير الناعم النقى كل يوم أومثله من مسحوق الفحم النباتى (فحم الخشب النظيف) وقد يضاف اليه (بى كربونات الصودا)

(١٠) ويعالج وجع الشقة وهو (أمراض النخاع والمغص المعوى والمغص الكلوى) باستعمال مغلى بزر الخله يؤخذ قدر أوقية ويغلى فى رطل ماء ويصفى ويشرب منه قدر فنجال كل صباح ، فليواظب على ذلك فانه لايشكو مرة أخرى من وجع الشقة ، وليلاحظ نقاء ماء الشرب ، فالأحسن أن يغلى فى إناء ويؤخذ الصافى منه ويبرد فى أوان ويستعمل ، أما الترويق بنوى المشمش أو بالفول ففيهما ضرر كبير ، فالأول قتال والثانى يعفن ويأتى بجراثيم مضرة ، والأحسن وضع نصف أوقية من الفحم النباتى النظيف المغسول مرارا فى الزير ، ومتى فرغ الزير

يؤخذ الفحم ويغسل ثانيا ويفعل به مافعل أوّلا ، فهذا ربما يفيد فى إزالة وسخ الماء ، وينفع فى هذا المرض أيضا أكل الكبر وهو معروف فى حقول البرسيم فى مصر ، وينفع أيضا فنجال من مغلى بزرالحرمل عند تناول الأفطار مدة أسبوع

تلك عشرة كاملة بعد المثالين الأوّلين العامين . فقلت : هذا كله من كتابين : أحدهما كتاب «طب الركة» تأليف الدكتور عبد الرحمن اسماعيل المتخرّج من القصرالعينى بمصر ، وثانيهما كتاب فى الطب تأليف (السيرويليم ويلكوكس)

ولقد بذلت جهدى فى أن أجعل هذه الأمثلة مستوفاة بحيث يمكن الانتفاع بها فى المعالجة ولم أنقص من المعالجة المذكورة فيها شيئا مما ذكر فى المصدر الذى نقلت منه

هنالك اطلع على هذا أحد العلماء . فقال لى : هذه الفصول الأربعة طال الكلام فيها ، وهل هذا كتاب طب ؟ أم هو كتاب زراعة ؟ إن هذا تفسير للقرآن . وانما ذكرلك بهذا لئلا يستهويك جمال العلم فتنسى أصل الموضوع ، فيرى القارئ إنك تجاوزت الحد المقرّر للتمثيل فى التفسير . فقلت : كلا . ماغفلت وانما هذه الفصول جعلتها قواعد أربعة أبنى عليها قصور الحكمة وقلاع العلم ، إن القمح والقطن وأنواع الخضر والريحان والفاكهة يزرعها الناس وتمرّ عليهم الفصول والسنون ويأكلون ويتفكهون ويمرضون ويتداوون ثم يموتون وأكثرهم لايذكرون ، فهما ذكرنا هذه الامور ، وسأبين هنا كيف تمثل الروايات حول الناس صباحا ومساء وهم لايشعرون ولاهم يذكرون . غاية الأمر أن يقال فلان غنىّ ، وفلان فقير ، وفلان جاهل ، وفلان عالم ، أما هذه الفصول التى تمثل فى مشاهد الطبيعة فهم عنها معرضون ، وقلّ من يخلق فى هذه الأرض ثم هو يفكر فى أن الشمس خرجت منها أمواج الأشعة فسافرت حتى وصلت الى البحار فأثارتها وأثارت الهواء فكان سحاب فمطر فرزق وثمر ودواء الخ

إن أكثر الناس لايعلمون «قتل الانسان ما أكفره» «انه كان ظلوما جهولا» ضوء وهواء وحب يدفن فى الأرض وماء ينزل عليه ومواد خضراء بعضها فوق بعض ذات أوراق على ساق فأزهار فاتنة ، ثم إن كل ثمر أوحب له عضو من أعضاء جسم الانسان يداويه . فأىّ مناسبة بين الشمس التى بعدت عنا مسافة (١٢) سنة بسفرقلة المدفع وبين بذورتلقى فى الأرض وماء يخالطها ثم ينتج دواء أوغذاء لمخلوق بعيد عنهما لامناسبة بينهما البتة ، أى مناسبة بين بذور ومياه وأضواء وبين رجل فى الحقل حتى ان هذه الحبوب والأوراق المختلفات تقسم منافعها على أعضائه من قلب وكبد ومعدة وأمعاء الى آخر ماتقدم . يحار فكر العاقل فيقول : نور يسوق غازا وسائلا وهذان يجريان فى الجوّ بلانظام ، ثم هما يؤثران فى غيرهما وهكذا حتى ينتهى الأمر الى منفعة عامة لكل حىّ .

فقال صاحبى : لقد ذكرت أن هذه أشبه بالروايات والناس لايعقلونها . فقلت نعم ان فصول الروايات على قسمين : فصول يعقلها الحكماء ، وفصول يعقلها الجهلاء ، والعقلاء والجهلاء كل منهما فرح بما لديه ، فهذا بالخيال مغرور ، وهذا بالحقائق فى حبور ، فيابعد مابينهما ، إن بينهما بعد المشرقين والمغربين . فقال حدّثنى عن الخيال الذى للعوام والحقائق التى للخواص على شريطة أن يتحدا فى معنى واحد حتى أدرك الفرق بينهما ؟ فقلت : أذكر لك أوّلا قصة خيالية من قصص (ألف ليلة وليلة) قد قدّمت ذكرها فى ﴿ سورة الكهف ﴾ وهى قصة مدينة النحاس ، ذكرتها هناك من أنواع الزينة التى أبدعها الله فى عقول العلماء فأبهجت القلوب ، ذلك ان الكاتب تصوّر أن موسى بن نصير المعروف بأنه مع طارق بن زياد اللذين فتحا الأندلس كان معه رجل اسمه عبد الصمد قد كشفا عمودا من النحاس ففتحاه فخرج جنى كان معذبا من

ايام

أيام سليمان عليه السلام ، وحكى لهما تاريخ حبسه ، ثم ذهبا الى مدينة النحاس وهي كبيرة جدا طاف الرجال حولها على خيولهم يومين حتى رجعوا للمكان الذى خرجوا منه ، وأدهشهم سورها الذى لايمكن اقتحامه لعظمة ارتفاعه ، ثم عثروا على مفاتيحها فوجدوا جواهر من ذهب وفضة وألماس وياقوت مما لايحصيه إلا الله والناس صرعى كل فى مكان فى السوق والقصور والمنازل ، ومن أعجب العجب انهم رأوا فتاة جميلة وعيناها تنظران فسلما فلم ترد فعرفوا انها ميتة ولكن عينيها تتحرك بالحكمة فقرب واحد منها ليأخذ ماعليها من الحلى والحلل التى لانظير لها فى الدنيا ، فانقض عليه سيافان واقفان حولها بتصوير الحكمة فضرباه بالسيف فقتلاه فتركوها ، ثم وجدوا لوحا مكتوبا فيه قصة هذه المدينة والمجاعة التى حلت بها ، فاقرأ الملخص بتمامه فى ﴿ سورة الكهف ﴾ أوفارجع الى نفس ألف ليلة وليلة

فهذه الخرافة تلذ السامعين من الصغار والنساء والعامة الجهلاء ، لأن فيها مفاجآت عجيبة وأمورغريبة والخيال يصبوالى هذه الغرائب فانه اذا سمع أن هناك مدينة عظيمة جدا دهش لأنه لانظير لها ، واذا سمع انها مملوءة جواهر وأن فتاة جميلة تتحرك عيناها دهش جدا ، واذا سمع أن رجلا قتل بسيوف من تماثيل واقفة زاد دهشه ، فهذه الرواية جعلت لتعليم الناس الزهد فى الدنيا ولاسبيل لذلك إلابهذه الخرافات فهى حسنة جدا لصغار الأحلام ، وهكذا تجد رواية أخرى جاء فيها أن ابن ملك من ملوك مصر رأى فى خزائن أبيه خلعة بهجة فيها صورة فتاة جميلة وهو فى سن الرابعة عشرة فهام بحبها وأعطاه أبوه بعد اللتيا والتى ماطلبه من رجال الجند والذخائر والعدة وسافرالى أقصى الشرق ومات جميع رجاله غرقا تارة وقتلا أخرى بعد أن وقع فى الأسر مرارا ، ورماه القدر فى بلاد الفرس بعد رجوعه من الشرق الأقصى فعثر على ابنة ملك الجن فى حديقة وهى نفس الصورة التى كان يطلبها فتزوجها ورجع بها الى أبيه وكان يوما مشهودا

فهذه القصة تقرؤها فى نفس كتاب « ألف ليلة وليلة » وربما مرت الاشارة اليها فى غضون هذا التفسير . ولعمرى ماهذه القصة وأمثالها إلا رمز لمعرفة الحقائق التى نحن بصددها ، فاننا نعيش فى الأرض ولا نفقه من هذا الوجود شيئا ، ولن ننال تلك الحقيقة الناصعة التى هى السعادة الحقة إلا بأن نجعل أجسامنا وأموالنا قربانا لأجلها ونلقى بمهجنا فى سبيل العلم والحكمة أوفى ساحات الحرب ، فنكون أدينا ماوجب علينا . فهذه المهالك التى وقع فيها ابن ملك مصر وماصادفه من ذل وجوع وعرى وفقد الرجال والمال ثم الأسر والضرب والغرق ثم النجاة . كل هذا ضرب مثلا لطلاب المجد والعلا فهم لاينالونه إلا باستغنائهم عن هذه الحياة والوقوع فى المهالك والمهاوى والمشاق العظيمة فيكون الفوز

ولقد أردت أن أؤلف رواية خيالية تستبين بها سبيل هذه الفصول الأربعة فى ضوء الشمس والهواء والماء والنبات وتقسيمه على الفصول الأربعة وعلى أعضاء الانسان مع تباين مابينها فأعيتنى القريحة بعد الكد والنصب حتى اذا كنت يوم أمس بعد الظهر وهو يوم الأحد ١٠ رمضان سنة ١٣٤٩ هجرية وأنا سائر فى منيل الروضة وهناك جلست تحت شجرة فأخذتنى وأنا جالس سنة من النوم فخيل لى كأن أمامى رجلين يتحادثان . فقال أحدهما : هل أحدثك حديثا عجيبا فى غرائب هذه الدنيا . فقال أحب ذلك . فقال كنت الليلة نائما فأتانى خمسة رجال فأيقظونى فرأيت جسمى مطروحا على الأرض كأنه ميت فقلت أنا ميت قالوا أنت حى وهذه روحك ولها اتصال بهذا الجسم وسترجع اليه ، وساروا بى حتى ارتفعنا الى السماء ووصلنا الى الشمس :

(١) فرأيت حمامتين : إحداهما ذات طوق أحمر ، والأخرى ذات طوق أبيض . فقلت ماهاتان يرحمكم الله ؟ فقالوا اصبر قليلا

(٢) ثم نظرت فوجدت هاتين الحمامتين أسرعتا فى الجرى حتى وصلتا الى الهواء المحيط بالأرض . ثم أخذتا

ترفرفان كثيرا حتى رأيت عربات لاعدد لها تجرى فى الجوّ ولكن لاعجلات لها . فقلت : ماهذا ؟ فقالوا اصبر قليلا

(٣) ثم عمدت الحمامتان الى البحر فاخذتا تضربانه بأجنحتهما فخرجت قرب لطيفة الصنع مملوءة ماء وصارت تطير فى الجوّ هنا وهناك بغير نظام ، إذن هناك عربات وقرب ماء كلها طائرات شرقا وغربا وشمالا وجنوبا لانظام لها ولا ثبات

(٤) و بينما أنامتعجب من هذه المعركة المختلطة إذ رأيت هذه القرب قدحملت على تلك العربات واتحدت هذه مع هذه حتى صارت كأنها سفن تقترب من بعضها ، فعجبت كل العجب ! فقلت ماهذا يرحمكم الله ؟ أدركونى وأسعدونى حتى أفهم ، فقالوا اصبر

(٥) و بينما أنا كذلك إذ رأيت هاتين الحمامتين عمدتا الى تماثيل مصنوعة من الطين مجوّفة فأخذتا ترفرفان عليها ، فرأيت تلك الصور أخذت تنقلب من حالها الأولى الى حال أتمّ وأرقى وأخذ الطين يصفو شيئا فشيئا حتى صار لحما وعظما وفيه عيون وأسماع وأبصار : ثم أخذت التماثيل تتحرك وتمشى وتتكلم ، فأخذ منى العجب كل مأخذ ، وهذه الصور مختلفة الأشكال والألوان والأعمال من كبير وصغير

(٦) ثم رأيت صورة طينية أكبر من جبال هملايا بهيئة انسان ، وهذه الصورة أخذت الحمامتان ترفرفان عليها ، وانضمّ اليها ألوف مرفرفات حتى تحركت ونطقت ، وهناك أخذ منى الرعب كل مأخذ وقلت ان هذا الذى أمامى هو مايقال له الغول ولوانه خطى خطوتين نحوى لقتلنى . فقالوا لاتخف اصبر قليلا

(٧) ثم سارعت الحمامتان الى أرض قفر ، فأخذتا ترفرفان عليها وقد رأيت هناك نملا كثيرا تضع مايشبه الحصوات أوالرمل والحمامتان تضربان دائما على وجه الأرض فوق تلك الرمال ، فما أسرع أن رأيت تلك الحصوات والرمل قد ارتفعت فوقها أعمدة شيدت عليها قصور خضر وفيها مخازن عجيبة

(٨) وتلك المخازن فيها مايشبه تلك الحصوات والرمل التى جلبها النمل . فقلت ماهذا يرحمكم الله ، فقد والله رأيت عجبا لم أسمع ولم أر مثله . فقالوا اصبر

(٩) ثم سمعت من ذلك الانسان الكبير الجثة أصواتا من جميع جسمه ، وتلك الأصوات مختلفات من معدته ، ومن أمعائه ، ومن كبده ، ومن قلبه ، ومن رأسه ، ومن جنبه ، ومن نخاعه ، ومن رئته ، ومن طحاله ، ومن كليتيه

(١٠) فعند ذلك رأيت جماعات من النمل قد أسرعت حثيثا الى تلك المخازن فصارت تأخذ منها وتلقى على مواضع تلك الأصوات فلاتكاد النملة تضع بزرا من تلك البزور على الجنب أوالرأس أوالمعدة حتى يسكن الصوت حالا ، وتارة يتأخر قليلا ، فهنالك اعترانى أشدّ الدهش ، فقلت ماهذا يرحمكم الله ، فانى لاصبر لى على هذه العجائب ؟ فقالوا لى : أما الآن فنعم قد تمّ لك العلم

قال : فقلت وأىّ علم ؟ أنا لا أعلم شيئا . فقولوا لى يرحمكم الله ماهما هاتان الحمامتان . فقال أحدهم وهوالرئيس الآن أحدثك : إن الناس فى الأرض نيام ، وهذا الذى رأيته هو الذى يرونه بأعينهم ولكنهم لايفقهون وعلماؤهم وجهلاؤهم على حدّ سواء . قال فقلت ولم لايفقهون ؟ قال لأن هذه روايات خلقوا فيها وهم أنفسهم من الممثلين والممثل فى مرسح التمثيل غير النظارة ، فأنت الآن من المشاهدين وأهل الأرض هم المشهودون . فلما كنت فى جسمك كنت مشهودا ولكنك الآن شاهد والشاهد غير المشهود . فما أهل الأرض إلاصور متحركات يشهدهم فيها المقرّبون . فأما أنت الآن فلست منهم بل صرت روحا فصرت أشبه

بالشاهدين

بالشاهدين . قال فقلت ولم لا أكون من الشاهدين . قال يابنى ان الشاهدين ليسوا هم الذين تضرب لهم الأمثال فحسب مثل هذه الأمثال التى سأبينها لك بل هم الذين يدركون نفس الحقائق ، وورق بين الثريا والثرى ، ومدركوالحقائق هم المقربون الذين يقول الله فيهم « إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّا » والمودّة الحقيقية لاتكون إلا بمعرفة الحقائق فعلا لاتخيلا ، فهاأنا ذا أقصّ عليك مارأيته الليلة لتبلغه لأهل الأرض . فقلت : فما هاتان الحامتان إذن ؟ فقال : أما ذات الطوق الأحمر فهى الحرارة وأما ذات الطوق الأبيض فهو الضوء ، وأما العربات فهى الرياح ، وأما القرب المملوءة ماء فهى البخار الخارج من البحر بتسلط الحرارة عليه فيكون باجتماعهما سحاب ، وأما ضرب الحامتين بأجنحتهما على الأرض وعلى مايشبه الحصوات والرمل فذلك ان الحرارة والضوء لابد منهما فى ظهور النبات من الأرض ، وأما تلك الصور الطينية فهى جميع الحيوانات فهى من الطين مصوّرات ، ولولا الحرارة والضوء ما كانت لها حياة ، وأما القصور المصوّرات فوق لأعمدة وفيها المخازن فهى النباتات ، وأما ذلك الانسان العظيم الجثة كجبال همالايا فهو الأمم الأرضية صوّرت لك بهيئة انسان كبير الجثة ، وأما الأصوات الخارجات من أعضاء جسمه فهى الأمراض الموزّعات على الأعضاء الجسمية فى أفراده ، وأما طوائف النمل الحاملات لتلك الحبوب من المخازن فى تلك القصور فهم الأطباء يضعونها على مواضع الداء لتشفى . قال ثم قال هذا الطيف لى : فهذا هو تمثيل أحوال تحيط بكم ، فاذا رجعت روحك الى جسمك فقل لهم : يا أهل الأرض . إن حولكم عجائب وعجائب ولكنكم لاتعقلونها لأنكم أنتم صور تمثاون ولستم من النظار ، ولقد أقسم الله بالشاهد والمشهود وقدم الشاهد لأن الشاهد يعقل ويكون من المقرّبين وهو الذى عقل عن الله وادرك رحمته فعلا فلايهوله الفزع الأكبر لأنه اطلع على الأسرار وعرف الحقائق فلم ير من الله إلا الرحمة فان أماته أوأحياه أوأفقره أوأغناه فهو فى السعادة الأبدية سعيد فى الدنيا بالعلم ، وسعيد فى الآخرة بالعلم ، فأما أمثال هذه الخيالات فهى لفتح باب العشق والحب ومتى كان الحب وصل العبد لخالقه ، والعبيد على قسمين : عبيد عبدوا بالرغبة ، وعبيد عبدوا بالرهبة ، فأهل الخيال عبيد الرهبة ، وأهل الحقائق والحب والعشق عبيد بالحب ، والى الأوّل الاشارة بقوله تعالى « إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا » ، والى الثانى الاشارة بقوله « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا الخ » فلك الناس تارة يكون بالرهبة ، وتارة يكون بالحب والعشق ، وأفضلهما الثانى . قال : ثم قال لى الطائف وهو رئيس الجماعة الذين معه * وما كل مصقول الحديد يمانى * . قال ثم قلت لرئيس الجماعة المذكور : حياك الله . عرفت أن القصور الخضر تمثل المزارع ، وأن المخازن فيها تمثل الحبوب فعلمنى رعاك الله مما علمك الله بعض الحقائق بعد الخيال عسى أن أستيقظ فأخبر أهل الأرض فيصلوا الى الحقائق فقال أما الآن فنعم لأنك اشتقت الى العلم ، ولاعلم إلا بعد الشوق ، والشوق أعظم أبواب السعادة ، قد رأيت النبات فى الأرض ؟ قال نعم . قال وهو مقسم على الأزمنة والأمكنة والأعضاء والحواس . قال فقلت نعم وهذا أمر عجب ! لا أعرف سرّه . فقال : قد علم الله أنه سيخلق الانسان وان أنسب الأوقات للزرع فصل الربيع الذى فيه تظهر أكثر النباتات . قال فقلت نعم . قال : لو انه تعالى لم يجعل الزرع إلا فى ذلك الوقت لتعطل الانسان فى بقية السنة ، فدبر الأمر وجعل لبقية الفصول أنواعا من الزرع ليعمل الناس لأنهم اذا لم يعملوا كان ذلك تعطيلا لهم ومرضا لأجسامهم ، ولوأن النبات اختص بمكان دون مكان لاجتمع الناس فى مكان واحد هم والحيوان فهلكوا فلذلك وزعه على أمكنة كثيرة . قال فقلت هذا عجب ! والله ان أهل الأرض لايفكر أكثرهم فى ذلك . قال : لهذا أعلمك . ثم قال : وهل الحرارة والضوء والهواء والماء كانوا علماء بكل شىء حتى عرفوا أن بذورا مرماة فى الأرض فاجتمعوا عليها ثم حصل النمو فوزعت محصولاتها على الأعين والآذان والجلود والبطون والأكباد والقلوب الخ بحيث أصبحت تلك الامور المبعثرة التى يرى ظاهرها لانظام

لها وكأنها جاريات بغير حساب قد صارت مقصودة قصدا حقيقيا بحيث توزع ثمراتها على حاجات الحيوان والانسان عضوا عضوا وحاسة حاسة أى ان النباتات البالغات عندكم الآن (٢٥٠) ألف نوع كلها موزّعات على أعضائكم وحواسكم مع ان من يرى الضوء والحرارة والهواء والماء والأرض وهى تتفاعل لايخطرله أن النتائج تكون منظمة هذا التنظيم المدهش ، وأىّ نسبة بين الشمس التى تجرى و بينها و بينكم آمادا وآمادا وهى ترسل ضوءا لكم و بين الأعين والمعدات والجلود ، ثم ان أرضكم كما تقرءون أنتم فى العلوم كانت قطعة من الشمس ، وهذه القطعة فيها الجير والمغنسيوم والكبريت والفسفور والحديد والكلورين ، فهذه الموادّ مما يدخل فى النبات عندكم ، وكل هذا مرسل من الشمس فى أجزاء الأرض ، فلم تقف الشمس عند هذا الحد ، فأمرها الله بارسال ضوء وحرارة ينبعثان منها ليتمما ماقصده الله سبحانه كما خلق الله عقولكم يابنى آدم فهى كهذه العناصر ساكنة لاعمل لها ، ولكنه يرسل لكم أنبياء ، ويلهم من بينكم حكماء فيحركون أجسامكم وعقولكم كما أنكم ترون الضوء والحرارة ينبعثان من الشمس فيساعدان :

(١) الجير المذكور المفيد للعظم الشافى للجروح على أن يدخل فى نبات الكرنب وفى اللبن والجبنة التى لم يؤخذ زبدها وفى السبانخ والبصل والمشمش والتين والبرقوق والطماطم والكرفس والباميا والردّه

(٢) و يساعدان أيضا المغنسيوم الذى يكون قوّة فى العضلات ويمنع الفتق فيدخل بسببهما فى السبانخ والخسّ والخيار والطماطم والبرتقال والشعير والذرة والقمح والليمون والتين والباميا

(٣) ويساعدان أيضا الكبريت الذى هو المنظف للدم المانع للروماتيزم على أن يدخل فى السبانخ والقنبيط واللفت والفجل الأحمر والطماطم والقرلة وكشك الماز والجزر والكرنب والبصل والباميا

(٤) ويساعد الحرارة والضوء أيضا الفسفور الذى هو مغذ للمخ على أن يدخل فى الفجل والقنبيط والخيار والجوز والبسلة والعدس والقمح وفى الخس والسبانخ ، وهكذا فى صفار البيض وكشك الماز

(٥) ويساعدان أيضا الحديد وهو الذى يعطى الدم لونه الأحمر على أن يدخل فى تركيب الكرنب الأحمر والسبانخ والبصل والزبيب وصفار البيض النيء والبلح والبرقوق والبنجر وكشك الماز والطماطم

(٦) وهما أيضا يساعدان الكلورين وهو المساعد للهضم المنظف للمعدة على أن يدخل هيكل الكرنب وملح البحر والجزر والسبانخ واللبن وسمك البحر المالح والفجل والجبنة وجوز الهند والبنجر

ثم قال : هذه المواد الست مما يدخل فى تركيب النبات قد أرسلها الله مع الأرض يوم أن اقتطعها من الشمس ، ثم أرسل لها الضوء والحرارة فنزلت عليها فكانت سببا فى دخولها فى هذه النباتات المفرّقات على أعضاء بنى آدم وعلى حواسهم بحيث لا يكون هناك داء إلا وله دواء ، ولاحاسة إلا ولها ماتطلبه ، ولاحاجة من حوائجكم إلا كانت حاصلة موجودة قد أثيرت بذورها وأصولها من عوالم فوق شمسكم « وفى السماء رزقكم وماتوعدون »

ثم قال : فهذا هوماسألت عنه ، فهل فهمت ؟ قال فهمت . يقول مؤلف هذا الكتاب : كل هذا وأنا مصغ الى القائل وعندى أشدّ الدهش والبهجة ، وأقول فى نفسى : يارب كيف أكون فى حيرة وقد عجزت فعلا عن تمثيل مايحيط بنا من العجائب بحيث يكون أشبه بالروايات ، وكيف يئست والله يأسا حقيقيا من أن أصور ذلك بصور خيالية ، ثم كيف أسمع ذلك فى المحاورة بين هذين الرجلين ، فهل هذه الأرواح هى اخوان روحى ؟ أم أى شيء هذا ؟ ثم أردت أن أسأل هذا المتكلم ، لأسأله من أنت ؟ فاستيقظت وقدعجبت كل العجب وحمدت الله على انه علمنى مالم أكن أعلم ، وانى الآن يكاد قلبى يطير من بين جنبىّ إذ عرفت ما عجزت عنه والحمد لله رب العالمين . كتب ضحى يوم الاثنين ١١ رمضان سنة ١٣٤٨ هجرية

اللطيفة الثالثة

كشف النقاب عن بعض أسرار قوله تعالى : ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين،

حضر صديق العالم الذى اعتاد أن يحادثنى فى هذا التفسير . فقال : لقد أومأت الى تفسير آية « ومن يعش عن ذكر الرحمن الخ » عند الكلام على البسملة ، ولكن النفوس اليوم يعوزها الوقوف على الحقائق ، وكما أن علم الطبيعة لايورث اليقين اذا اشتففناه اشتفافا هكذا علم القرآن ، فاذا لم نصل الى النهايات فلسنا علماء ولسنا سعداء ، فهل هذه الحياة الدنيا شقاء والسعادة محصورة فى ذكر الله تعالى ؟ نحن نريد التحقيق فى هذا المقام بالعقل . فقلت : أيها الحبيب : اذا أردت الوقوف على حقيقة هذا الموضوع فلا مندوحة لك من الصبر على البحث معى والتنقيب . فقال سأصبر . فقلت : جاء فى كتابى « بهجة العلوم » فى الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم العصرية الذى ألفته وهو الآن تحت الطبع مايأتى من علم الحساب :

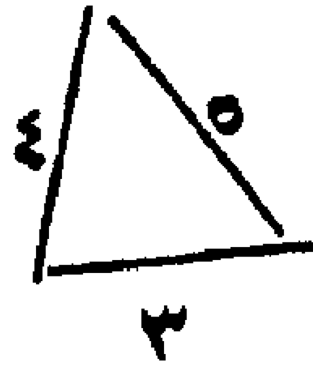
﴿ أولا ﴾ ان كل عدد قسم بقسمين ثم زيد عليه أحد القسمين يكون المجموع من ضرب جميع ذلك فى نفسه مساويا لضرب ذلك العدد قبل الزيادة فى تلك الزيادة أربع مرات والقسم الآخر فى نفسه ومثاله أن تربع (٧ + ٣ + ٣) فهذا يساوى ١٠ × ٣ × ٤ زائد ٧^{2}

﴿ ثانيا ﴾ كل عدد قسم بنصفين ثم زيد عليه زيادة ما يكون الحاصل من ضرب ذلك العدد مع الزيادة فى نفسه وضرب الزيادة فى نفسها مجموعا مثلى ما يكون من ضرب نصف العدد مع الزيادة فى نفسه وضرب نصف العدد فى نفسه ، مثال ذلك (١٠) قسمت نصفين ثم زيد عليها اثنان فأقول ان ضرب الاثنى عشر فى نفسه والاثنين فى نفسها مجموعا مثلاما يكون من ضرب ٧ فى نفسها و٥ فى نفسها مجموعا

﴿ ثالثا ﴾ كل عددين مجذورين على الولاء اذا ضرب جذر أحدهما فى جذر الآخر وزيد عليه ربع تكون الجملة عددا مجذورا ، فاذا ضربنا جذر ٤ فى جذر ٩ وزدنا ربعا فجذر المجموع ٢ر٥ فهذه ثلاثة مسائل من علم خواص الأعداد ، وهاك ثلاثة أخرى فى الهندسة وهى :

(١) زوايا المثلث الثلاث تساوى قائمتين

(٢) مربع وتر الزاوية القائمة فى المثلث يساوى مجموع مربعى الضلعين الآخرين ، فاذا كان أحد الضلعين ٣ والثانى ٤ فان الضلع المقابل للزاوية القائمة يكون ٥ ومربع ٣ = ٩ ومربع ٤ يساوى ١٦ ومجموعهما ٢٥ ومربع ٥ يساوى ٢٥ وهو المطلوب وهذه صورته :



(٣) الزاويتان الحادثتان من وقوع خط مستقيم على آخر مستقيم على جانب واحد منه هما قائمتان أوتعدلان قائمتين . فهل فهمت أيها الصديق هذه المسائل ؟ فقال انها فى غاية الوضوح ، إن مسألة الزوايا الثلاث فى المثلث تقدمها ٣٢ شكلا حتى أمكن البرهنة عليها ، ومسألة مربع الوتر تقدمها ٤٦ شكلا كذلك ، ومسألة الزاويتين تقدمها للبرهنة عليها ١٢ نظرية فى الهندسة . فقلت : حسن جدا . إذن هذه المسائل ليست من البديهيات بل هى نظريات ، ولاجرم أن النظريات ترجع الى البديهيات فى آخر الأمر كقولهم « الكل أعظم من الجزء » وهذه النظريات والأشكال التى تقدمت المسائل المتقدمة قد جعلت لتوصل هذه المسائل الى البديهيات . قال نعم . قلت فلنسر فى بحثنا على هذا النور العلمى لنصل لما نقصده فنقول : لنتخذ هذه المسائل الهندسية والحسابية الست مقدمات كما جعل الناس القضايا البديهية مقدمات

و بنوا عليها علومهم الجزئية كالحساب والهندسة والفلك والجبر وغيرها ، فلابن نحن علمنا الذى هو سيد العلوم وهو العلم الأعلى وهو أصل العلوم على تلك العلوم الجزئية ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ ان علماء الرياضيات والطبيعيات يتخذون المحسوسات والبديهيات أساسا و بنوا عليها علومهم الجزئية التى بها نظمت أمور الحياة فى الأرض فلنتخذ نحن نفس علومهم التى برهنوا عليها ونجعلها أساسا للعلم الأعلى وهو العلم الذى به السعادة والحكمة والجمال المطلق ، ذلك لأن الناس مع شيوع علومهم وكثرتها نراهم دائما فى قلق ، وآراؤهم فى حيرة واضطراب والناس فى حرب وضرب واختلاق واختلاف ، لا فرق بين عالمهم وجاهلهم وأرباب العلوم ورجال الصناعات سواء فى ذلك .

وكل يدّعى وصلا لليلى ✽ وليلى لا تقرّ لهم بذا كا

فنحن هنا نريد أن نتوصل الى العلم الذى يريح جميع الطوائف وهو فى اليقين كاليقين الذى يعرفونه فى العلوم الرياضية ، ومتى عرف الانسان اليقين سعد السعادة التى لانهاية لها . فقال صاحبى : انك لتحدث عن أمر عظيم ذى بال وهو شريف ، وأودّ أن يمنحك الله قوّة الفكر حتى تعرّفنا هذا العلم البديع الذى لو تحقق لأعطى النوع الانسانى اطمئنانا والاطمئنان هو النعيم الأكبر فى هذه الدنيا . قلت : أيها الصديق ستسمع مايسرّك ويكون عندك اليقين ، لننظر فى المسائل الحسابية الثلاث وأخواتها الهندسية التى قدمناها هل هى خاصة بالأعداد التى كتبناها وأشكال هندسية خاصة ؟ أم كل قاعدة منها تشمل أعدادا وأشكالا كثيرة . قال بل كل منها تشمل مسائل لاحصر لها هندسة وحسابا ، فالأرقام التى ذكرتها والزاويتان اللتان رسمتهما ماهما إلا مثالان لاغير ، فهناك من الزوايا ومن الأرقام مالايعدّ وكله مطبق على هذه القواعد . قلت : أصبت المرمى ، أترى هذه القواعد الكلية مشاهدة بأبصارنا . قال : كلا ، بل نحن نعقلها ببصائرنا والمشاهد بالابصار :

﴿ أوّلا ﴾ المعدودات الخارجة والمواد التى دخلتها الهندسة فى العالم المشاهد كالمنازل والقلاع

﴿ ثانيا ﴾ الألفاظ الدالة على تلك المعدودات والمواد الخارجة

﴿ ثالثا ﴾ أرقام الأعداد وأشكال الهندسة المرسومات فى الدفاتر والكتب ، فالألفاظ والأرقام تدل على مافى الخارج ، ومافى الخارج صورة لما فى الذهن ، أما الذى فى أذهاننا فهى القواعد الكلية التى لها صور كثيرة فى الخارج . فقلت الله أكبر ، وصلنا الى المقصود وأشرفنا على عالم الجمال والكمال والدوام ، قل لى أيها الحبيب ماذا تقول فى هذه القواعد الكلية التى فى ذهنك أنت فى الحساب والهندسة والمنطق والفلك والطبيعة والكيمياء هل اعتراها يوما ما تغير أو تبدّل من يوم أن عرفتها . قال كلا هى دائمة فى عقلى وهى أشبه بالمخازن ومنها أتصرف فى أعمالى اليومية . قلت حسن ، أيهما أكثر دواما ، خزائن الذهب والفضة ومخازن الحب ونحوها أم هذه ؟ قال بل هذه هى الدائمة . قلت : ولكن الناس لغفلة أكثرهم لايفرحون بهذه المخازن التى فى أنفسهم وانما يفرحون بالامور الجزئية الوقتية ، فتعال معى الى ماهو أرقى من هذا ، قل لى أيها الحبيب : ما الذى أدرك هذه الكليات العلمية . قال نفسى . قلت : فهل لهذا نظير فى العالم المحسوس ؟ قال نعم ، العين والصورة الواصلة اليها بضوء الشمس من شجرة الورد مثلا ، فالعين نظير نفسى وقواعد الحساب والهندسة كصورة شجرة الورد الواصلة الى عينى من ضوء الشمس . قلت حسن جدا ، فلنرق فى البحث الى درجة أخرى . فقال : إنى الى ذلك وامق . فقلت ما الذى كان السبب الظاهر باذن الخالق فى نموّ الشجرة ؟ قال الشمس . وما الذى كان السبب أيضا فى انك رأيتها ؟ قال الشمس أيضا . فقلت : إذن الشمس سبب لظهور شجرة الورد وسبب لرؤيتك إياها . قال نعم . قلت حياك الله و بياك ، فبين لى ذلك ؟ فقال الشمس تضىء ولها حرارة ، والحرارة سبب البخار ، وجرى الهواء ، والبخار يحمله السحاب ، فالبخار والهواء معا

سببهما الظاهرى الشمس ، والسحاب يكون مطرا ، و بالمطر (باذن الله) كان النبات ، وأيضا تقدم فى ﴿ سورة يس ﴾ أن الورق المرسوم هناك فى داخله موادّ ملونة عائمة فى سوائل هناك ، وهذه المواد الملونة تساعدها أضواء الشمس على تناول المواد الفحمية من الهواء فينمو النبات ، ومن النبات شجرة الورد المذكورة ، ثم ضوء الشمس كما انه ساعد على التغذية هونفسه الذى يرسم صورة شجرة الورد و يوصلها الى حدقتى فأنارها

قلت : أحمدالله انك تتذكر العلوم إجمالا وتفصيلا ، ولم تنس شيئا مما ذكرناه فى هذا التفسير . ثم قلت : إذن عندنا :

(١) شمس

(٢) وشجرة الورد

(٣) وصورتها المرسومة بالضوء

(٤) وعين الانسان

(٥) والقواعد العلمية (٦) ونفوسنا

فنفوسنا كالعين والقواعد العلمية كصورة شجرة الورد التى وصلها الضوء الى العين فيما تقدم فلم يبق إلا مثال الشمس ومثال نفس شجرة الورد ، فهانحن أولاء لدينا ست مقدّمات واضحة : أربعة محسوسة واثنتان معقولتان ، فلم يبق إلا الاثنتان الباقيتان ، فلنبحث عنهما كما يبحث علماء الجبر إذ يتوصلون بالمعلوم للمجهول فنقول : أيها الحبيب : هل تظن أن ضوء الشمس يوصل لأعيننا صورة شجرة الورد وهى ليست موجودة قال .كلا . فالضوء لايوصل إلا صورة ماهو موجود فعلا . قلت حسن . أفلست ترى أن الصورة الكلية التى فى أذهاننا فى سائر العلوم لها أصل وهى صورته . قال : إن كليات العلوم أصلها هوالذى نشاهده فى الخارج من المعدودات ومن المبانى فى الهندسة وهكذا . فقلت : هذه جزئيات وتلك كليات وما أبعد الفرق بينهما ، فصورة الكلى فى عقولنا منقولة عن معنى كلى ، كما أن صورة شجرة الورد الواصلة لعيوننا منقولة عن مادة جزئية ، وليس من المعقول أن الكلى يكون عن جزئى ، وما الجزئى إلامثال له ، فانظر لمثال شجرة الورد والشمس ، وقل لى ، ألست ترى أن القواعد التى نحس بها فى عقولنا صورلاموركلية معنوية ثابتة فى أنفسها وصانع العالم هو الموجدلها وهوالذى أظهرصورها لعقولنا بلارابطة كما ان شجرة الورد المذكورة صنعها بوساطة الشمس وأظهرها لعيوننا بوساطتها ، أولست ترى أيها الحبيب أن مثال الشمس جميل به أمكننا أن نعرف هذه المسألة العظيمة فنقول :

إن الله الذى هوثابت لايتغير قد خلق أمورا كلية معنوية وهى أمور روحانية ثابتة لاتتغير وهو نفسه أهداها لعقولنا فعرفتها وعشنا بها وضرب لها مثلا بالشمس و بالمخلوقات الأرضية ، فكماأن الشمس سبب فى حياة النبات والشجركانت هى أيضا سببا فى رؤيتنا لهماوالله تعالى سبب فى خلق المعانى الدائمة بدوامه ، الجميلة المستمدّة من جماله ، وحين تشاهد أعيننا صور العوالم المشاهدة يكون ذلك سببا فى استيقاظ عقولنا واستعدادها الى انكشاف تلك القضايا الكلية التى يفيضها الله على عقولنا ، وبهذا تنحل مشاكل لاحدّ لها فى عالمنا الأرضى وتظهر حقائق كانت مخبوءة

فهانحن أولاء قد وصلنا الى المقصود ، واستنتجنا نتائج باهرة ، وقسنا مالم نشاهده على ما شاهدناه وأدركنا أن المعانى الكلية التى نحس بها فى عقولنا والتى عليها مدارحياتنا هى أصل لكل مانشاهد فى هذه الأرض وهى صنع الله نفسه بلاواسطة وهى دائمة ، واذا ثبت هذا فى علومنا التى نرجع اليها فى جميع أحوالنا فليثبت نظيره فى كل أمر عام

فاذا رأينا الوجوه الجميلة ، واذا سمعنا بالعدل والكمال وما أشبه ذلك فلنقل ان كل جمال وكل عدل مشاهد لنا فهو فى هذا العالم ناقص كما قلنا ، إن المعلومات التى نراها جزئية والكلى هو العالم المعقول ، فالجمال المعنوى والعدل المعنوى والكمال ، كل ذلك له مثل (بالضم) عليا فى عوالم خارجة عن المادة كما ان للعلم مثلا (بالضم) عليا

وبالجملة فلاعلم ولاجمال ولا كمال ولاسعادة إلا فيما هو ثابت ، فأما مالاثبات له فانما هو مذكر بماله كمال.

أيها الحبيب : إن ماقلته الآن كله قد أذكرتنى به آية فى ﴿سورة النبأ﴾ وأنا أصلى وقت السحر ليلة الخميس (١٩) نوفمبر سنة ١٩٣٠ وهى قوله تعالى « وبنينا فوقكم سبعا شدادا ✽ وجعلنا سراجا وهاجا ✽ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ✽ لنخرج به حبا ونباتا ✽ وجنات ألفافا » فانى حينما كنت اقرؤها ذكرت بالسراج الوهاج وبالسحب والمطر والنبات المذكورات فى الآية مسألتنا بحذافيرها ، فالنبات أذكرنى بالمعلومات الجزئية التى تشبه المسائل الست المتقدمة فى الحساب والهندسة .والشمس ذكرتنى بصانع تلك الصور الجميلة المعنوية وهو الله تعالى ، والصور المعنوية الروحية توصلنا لها المعلومات الجزئيـة المشار لها بالنبات وهى مصنوعة لله الذى يرمز له بالشمس ، وهنالك تبدّى لى معان كثيرة ، فالجمال والعلم وكل معنى شريف إنما يكون فى العالم العقلى ، وما الحسّ إلا أثر من آثاره

أليست هذه مسألتنا التى نبرهن عليها الآن ، ومامثل الحرارة المرسلة من الشمس الى ماء البحر التى بها يكون البخار فالسحاب فالمطر إلا كما يفعل العقل الانسانى الذى يعرف الحقائق المخبوءة فى العالم العقلى فيتنزل الى العوالم الأرضية فيدرسها كما تنزلت الحرارة من الشمس فاستخرجت الماء الصافى فصار مطرا هكذا هذه العقول تستخرج بحرارة ذكائها المعارف وتنشرها بين أهل الأرض ، وهذه النظرية الآن بها نعرف أكثر آيات القرآن وأسرارها مثل « أفتمارونه على مايرى ✽ ولقد رآه نزلة أخرى » الى قوله « لقد رأى من آيات ربه الكبرى ✽ أفرأيتم اللات والعزى » ، فآيات الله الكبرى هى التى رآها فى عوالم غير عالمنا هـذا ، وذكر اللات والعزى ضرب مثل للعوالم المادية ، فان الناس اذا اكتفوا بالعالم المادى صاروا أشبه من بعض الوجوه بالذين يكتفون بالأصـنام فى العبادة ، ومثـل قوله تعالى هنا « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين » ، فذكر الرحمن انما يكون بالعلوم الثابتة المعنوية ، فأما عكوف الناس على الامور المادية فذلك هو البقاء فى مربط البهائم وشهواتها ، وهنالك تكون الشياطين إذ لاشيطان ولاوسوسة إلا حيث تكون العوالم المادّية والوقوف عنـدها ، وهكذا البيوت ذات السقف المزخرفـة والسرر كلها عالم مادّى ، ولكن الرحمة الحقيقية فى العوالم الحكمية العقلية وهكذا قوله تعالى « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » ، ففضـل الله ورحمته هنا هى العلوم والمعارف ومنها الدين والوحى والذى يجمعونه هو المال . هذا هو القرآن ، واعجب كيف تكون هـذه المعانى هى التى يحوم حولها سقراط ، ولقد أوضحت لك أيها الذكىّ الدلائل التى أجلها هو وفصلتها لك تفصيـلا تاما ، ثم لتعجب ولتعجب ألف مرة من دين الاسلام كيف تكون الآيات التى تعدّ بالمئات فى هـذه المعانى قد ذكرت فى جمهورية أفلاطون ، ألا فلأسمعك بعضها فى العلم وفى الجمال والعدالة وهكذا ، إذ ذكر فى الكتاب السادس منها أن الفلاسفة وحدهم هم الذين يقدرون أن يحكموا الأمم وأما الجهلاء فلا ، ومن هم الجهلاء إذن ؟ هم التائهون فى تعدّد الصور أى هم الذين لايفكرون بعقولهم : وكل مقصودهم هذه المخلوقات المشاهدة لا المعقولة كما قدّمنا

ولنشرع الآن فى إيراد ماجاء فى « جمهورية أفلاطون » من صحيفة ١٥٦ الى ١٥٨ وهاك نصها بالحرف الواحد :

قال

قال سقراط : لما كان الفلاسفة هم القادرين على ادراك الأبدىّ غير المتغير ، ولما كان العاجزون عن إدراكه تائهين فى بيداء التغير وتعدّد الصور ليسوا فلاسفة ، فأىّ الفريقين يجب أن يحكم ؟

غلوكون : بماذا أجيب اذا رمت أن أنصف القضية ؟

(س) سل نفسك ؟ أىّ الفريقين قادر على رعاية قوانين الدول وعاداتها ، وليكن هؤلاء الحاكمين

(غ) أنت مصيب

(س) أفيمكن أن نسأل : هل الأعمى أو البصير هو أهل للحكم ، ولحفظ كل شىء ؟

(غ) لامحل لهذا التساؤل

(س) أفتظن أن هنالك أقلّ فرق بين حال العميان ، وحال الذين تجرّدوا كل التجرّد من معرفة الأشياء على ماهى فى ذاتها ، وليس لهم فى نفوسهم مثل واضح ، وليسوا بقادرين أن يتفرّسوا فى الحقيقة الكاملة تفرّس المصوّرين فيتخذونها نموذجا دائما يتأملونه ويدرسونه بأتمّ عناية قبلما يتقدمون للعمل فى النظم الأرضية فيما هو جميل وصالح وعادل ، واضعين هذه الأشياء فى محلها اللازم ، ساهرين على حفظها حيث وجدت

(غ) كلا ليس بينهم كبير فرق

(س) أفهؤلاء نعين حكاما ونؤثرهم على العارفين كل شىء معرفة حقيقية وليسوا أقلّ من اخوانهم اختبارا ، ولاهم دونهم فى دوائر الفضل الأخرى

(غ) من الجنون تولية غيرهم ، إذ أنهم لاينقصون جدارة ، ولأن النقطة التى يتفوّقون فيها هى أهمّ كل شىء

(س) أفنتقدم الآن لتبيان كيفية امتلاكهم نوعى الجدارة ؟

(غ) من كل بد

(س) اذا كان الأمر كذلك وجب أوّل كل شىء أن ننظر نظرا ثاقبا فى سجيتهم الخاصة كما قلنا فى مستهل بحثنا ، وأظنّ أنا اذا اتفقنا فيها اتفاقا كافيا اتفقنا أيضا فى امكان اقتران الجدارتين فى الأشخاص أنفسهم ، وان أرباب هذه الصفات دون غيرها هم الذين يحكمون الدول

(غ) وكيف ذلك ؟

(س) دعنا نسلّم أن أرباب الفطرة الفلسفية هائمون بكل أنواع المعارف لتتجلى لهم حقيقة هذا الوجود الخالد الذى لايغيره الزمن ، ولاتسطو عليه عوادى المحن

(غ) فلنسلم

(س) ولنفرض أيضا انهم شغفون بحقيقة الوجود الخالد لايرضون منه بديلا ، ولا أن يحذف فرع من فروعه ، كبيرا كان ذلك الفرع أو صغيرا ، معتبرا أو مستصغرا ، كما أبنا ذلك سابقا فى كلامنا فى أرباب المطامع والحب

(غ) أنت مصيب

(س) والآن نتقدم لنرى هل فى الامكان أن نجد صفة ثالثة فى خلق الذين تنطبق أوصافنا عليهم

(غ) وأية صفة تعنى ؟

(س) أعنى صفة الصدق أى العزم على تجنب الكذب فى كل صوره ما أمكن ، ومقته مقتا كليا ، ومحبة الصدق محبة حقيقية

(غ) نعم والأرجح أننا سنجد فيهم هذه الصفة

(س) ليس الأرجح فقط ياصديق ، بل انها ضرورة لامندوحة عنها ، فان من كان فيه شغف فطرى بشيء سرّ بكل ما اقترن بذلك الشيء اقترانا وثيقا

(غ) يقينا

(س) أفتجد حليفا ألصق بالحكمة من الصدق ؟

(غ) مؤكد لا

(س) أفتستطيع فطرة واحدة أن تحب الحكمة ، وفى الوقت نفسه تحب الكذب ؟

(غ) لايمكن ذلك قطعا

(س) فالنتيجة هى أن عاشق المعرفة الحقيقية يصبوالىالصدق منذ الطفولية صبوا شديدا

(غ) نعم يصبو

(س) ولاارتاب فى أن من تنصبّ رغباته على شيء انصبابا شديدا يضعف ميلها الى سواه كالماء الذى يتحوّل عن مجراه

(غ) نعم ، لاشكّ فى ذلك

(س) فتى تحوّل التيار نحوالعلم بكل فروعه حامت رغبات المرء حول اللذات العقلية هاجرة اللذات التى محورها الجسد ، هذا اذا كانت محبته الحكمة حقيقية لامصنعة

(غ) لا يمكن أن يكون غير ذلك

(س) ثم ان انسانا كهذا يكون عفيفا لايسوده الطمع لأنه أبعد أهل الدنيا عن اعتبار الأشياء التى تحمل المرء على الاستماتة فى حب المال مهما يكلفه الأمر

(غ) يقينا

(س) وهنالك نقطة أخرى ينبغى لك اعتبارها فى تمييز السجية الفلسفية عما سواها

(غ) وما هى ؟

(س) انها تحذر التغاضى عن أية وصمة سافلة ، لأن الصغارة أعظم ضدّ للنفس المتصفة بالميل التام لامتلاك الحقيقة الإلهية والبشرية فى حالى وحدتها وتعميمها فى كل أين وآن

(غ) غاية فى التأكيد

(س) أفتظنّ أن النفس المملوءة بالأفكار السامية ، الممتازة بالتفكر ، يمكنها أن تعلق شأنا كبيرا على الحياة الحاضرة

(غ) كلا ، ذلك غير ممكن

(س) فانسان كهذا لايحسب الموت حادثا مروّعا

(غ) مؤكد أنه لايحسبه كذلك

(س) فلاحظ للفطرة الجبانة فى الفلسفة الصحيحة

(غ) لا أراها تتمكن منها

(س) أفيمكن عقلا متزنا حرا من الطمع والسفالة والعجرفة والجبانة أن يكون صعب المراس أومتعدّيا ؟

(غ) غير ممكن

(س) فحين تراقب ظاهرات الخلق الفلسفى والخلق غيرالفلسفى يجب أن تلاحظ أيضا منذ الصغرهل ذلك العقل لطيف عادل أوشرس ووحشى

(غ) تماما هكذا

(س) وهنالك نقطة أخرى لا أخالك تغفلها

(غ) وماهى ؟

(س) أبسرعة يتعلم ذلك العقل أم ببطء ؟ لأنك لاتستطيع أن تتوقع أن يحب أحد عملا ما محبة كاملة وهو يتعاطاه بصعوبة وانزعاج فيكون تعبه كثيرا ، ونجاحه قليلا

(غ) كلا ، ذلك مستحيل

(س) واذا كان حليف النسيان فلم يذكر شيئا مما حصله أفلاتفرغ جعبته من المعرفة ؟

(غ) تفرغ

(س) أفلاتظن أن جهوده العقيمة تنتهى به الى كرهه نفسه ووظيفته

(غ) دون شك

(س) فلاندرجن حليف النسيان فى عداد النفوس الفلسفية بل نطلب ذوى الذاكرة الحافظة . انتهى ما أردته من « جمهورية أفلاطون » والحمد لله رب العالمين

ولقد شرح قبل ذلك فى الكتاب الخامس أن الرجل ذا الفطرة السليمة يعلم أن من شغف بالحب فى شرخ الشباب يكون شديد الشغف بمحبوبه ، فيمدح فى الفتى قصرالأنف لأنه جذاب ، والأنف الأقنى أيضا أمره عجب ومظهره بديع ، والأنف المتوسط يجعل الوجه أكثر اتساقا وجمالا ، ويمدح الأسمر اللون بأنه ذو رجولة ، وشقرالألوان بأنهم أعلى الناس ، والعشاق يمدحون (الأصفرالزيتونى)

وذلك لأنه انتحل عذرا لما رأى صفرة فى وجنة الحبيب ، وبالاختصار يختلق العاشق جميع أنواع الأعذار لمدح جميع صفات محبوبه ، وهكذا المولعون بالخمر فانهم يختلقون جميع الأعذارلرشف أنواع الخمر كلها ، وهكذا عشاق المجد فانهم اذا لم ينالوا اكرام عظماء الرجال اكتفوا بمدح الأقلين ممن لاوزن لهم ، وهذا مجد على أية صورة ، هكذا فلنقل : محب الفلسفة يجب أن يكون عاشقا لها جميعها عشقا كليا لاجزئيا مولعا بجميع العلوم أما المغرمون بسماع القصص والحكايات والنوادر ، والذين يدخلون كل جوقة لسماع الطرب ، وكأنهم أجروا آذانهم للسماع ، فهؤلاء نسميهم فلاسفة زائفين ، والحقيقيون هم الذين ينظرون فيما هوثابت لاماهو متغير ، والثابت هى المعانى الكلية المتقدمة التى ترجع لها جميع العلوم

وهنا أخذ يبين أن هناك جمالا وقبحا ، وعدالة وتعديا ، فكل منها واحد فى نفسه عقلا ولكنه متعدد المظاهر . ثم قال ان الذين أغرموا بالعلوم كلها ، وأدركوا الحقائق ، وتعلقت نفوسهم بالصور المعنوية التى سبقت فهؤلاء قسم وهم الفلاسفة الحقيقيون ، أما عشاق النظر الظاهر والصناعة والفنون ورجال العمل ، فهؤلاء لانسميهم فلاسفة ، فعشاق الأصوات الجميلة والأشكال والألوان والصور ، وكل ما أنتجه الفن ليسوا فلاسفة لأنهم لم يعرفوا الجمال المطلق الذى أوضحناه ، وحياة هؤلاء حلم ومنام ، فليسوا أحياء لأنهم خلطوا الحقائق بالصور ، واذا أردنا أن نتلطف مع هؤلاء جميعا قلنا لهم : « أيها الأحباب إن عقولكم عقول متوسطة ، ذلك لأنها أدركت ماهو متردّد بين الوجود والعدم وهى هذه الصور والأشكال لأن وجودها ليس دائما ، فهؤلاء لانبخسهم حقهم ، ولانقول لهم انكم جهال كالذين يقولون ان المعدوم موجود كلا فالذين يحكمون بوجود المعدوم جهال ، والذين يعقلون الموجود الدائم هم الفلاسفة ، أما أنتم فلاأنتم فلاسفة ولا أنتم جهال ، بل أنتم ذوو عقول متوسطة بين الجهل والعلم ، لأنكم خلطتم فى حكمكم وفرحتم بالأشياء الأرضية من مال ومتاع وجمال وثروة ومنصب ، فلسنا نحكم على عقولكم بالجهل المطلق ولكنكم أشبه بالأطفال تفرحون بالألعاب»

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : الله أكبر ، إنى قرأت ذلك فى نفس الجمهورية ، ولكن القول هناك مطوّل ، وهنا ظهرت المعانى ظهورا واضحا ولم يخرج هذا عنها

الله أكبر : إن هـذه المعانى تنطبق على آى القرآن التى تزهـد فى الدنيا وتحبب فى الآخرة ، ولكن وصفك لها على هذا النهج يجعل المسلمين بعداليوم مغرمين بالعلوم مع شدة حرصهم على نفع الناس فيكون العالم فعلا زاهدا فى الدنيا لأنه عرف حقيقتها وهونفسه ينبوع يفيض الخير على أمته فترتقى بما تسمع من علمه ويكون أشبه بالشمس والناس أشبه بالمخلوقات على الأرض فهو كلى أنتج الجزئيات ، فأما أكثر كتب الصوفية ومن على شاكلتهم فى القرون المتأخرة فانهم تصدّوا الى احتقار الدنيا ولكنهم فى الوقت نفسه لم يعشقوا الناس فى ادراك العلوم وتنظيم المدن . كلا . فانحطت الأمم الاسلامية ، وأن هذا الشرح الذى أبنته الآن من أعظم النعم ، ولطالما أشكل علىّ ما كنت تقوله لى سابقا من أن القرآن يعوزه فى تفسيره علم جميع الحكماء ، فهاأنا ذا الآن أرى أكبرالعقول فى العالم الانسانى بعد الأنبياء (وهوعقل سقراط وأفلاطون اللذين قال فيهما الفيلسوف سبنسر الانجليزى وسنتلانه التليانى : « إن عقول فلاسفة أوروبا بالنسبة لهؤلاء كالبقة بالنسبة للفيـل » هو الذى يقوم بشرح هـذه الآيات وايضاح بعض حقائقها) وأن القصور والمعارج المزخرفة والسرر البديعة وحطام الدنيا ، كل هذا لاحظ للانسان فيه كامل ، والشياطين تلازم المادة ، ورحمة الرحمن تلازم العلوم والمعارف والمعانى التى لاتتغـير بتغير الزمن والنفوس تعقلها باشراق النورالالهى عليها . ولقد زاد تعجبي ودهشى إذ أرى سقراط يقول : « إن المعانى العقليـة التى هى صور وأساس لكل ماعلى الأرض وغيرها من عالم المادة صنعها الله بنفسه ، والشمس جعلت رمزا لله فصنع الله للمثل العقلية بلاواسطة مثله لنا وقرّبه لعقولنا كون الشمس سببا ظاهريا لوجود الحوادث التى تقابل تلك المثل ، وهـذا وان كان جيـلا فانى مرتقب ماستقولونه فى ﴿ سورة محمد ﴾ ﷺ ولكن اذا أشرت اليه هنا فانى أكون شاكرا أجلّ شكر . فقلت : إن حاسة اللمس تتصل بمحسوساتها وحاسة الشم كذلك ، وهكذا حاسة الذوق والسمع والبصر ، فكل واحد منها متصـل بالعالم الذى يحس به ، فلاريب أن يكون للعقل اتصال بعالم عقلى أوسع بما لاحصرله من العالم المشاهد ، وهذا البرهان الذى سأوضحه ان شاء الله هناك أقرب الى اليقين من برهان سقراط . فقال حسن والله لقد انشرح صدرى . فقلت الحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الخميس ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٣٠ م وبهذا تمّ الكلام على اللطيفة الثالثة

اللطيفة الرابعة

فى قوله تعالى : ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون الى قوله : منها تأكلون مع قوله تعالى : وهوالذى فى السماء إله الى قوله : وعنده علم الساعة واليه ترجعون مع ملاحظة نظائر هذه الآيات كقوله تعالى فى سورة الزمر : لكن الذين اتقوا ربهم الى قوله تعالى يخرج به زرعا مختلفا ألوانه الخ

ما أجل العلم ، وأبهج الحكمة ، وحى نزل ، ودنيا منتظمة ، تسمو بهما العقول ، وترقى بهما النفوس ، الدنيا عروس زينت للناظرين ، وجنة بهجة للمفكرين ، نحن نعيش فى جوّ من النور ، والكتاب المسطور والعلم المنشور ، فسبحان الله مسدى النعم ، مظهر الحكم ، بارئ النسم ، أليس من عجب أن نسمع فى القرآن وصف الجنة أنها غرف من فوقها غرف مبنية ، ثم نسمع عقبها الكلام على الماء النازل من السماء الذى جرى فى باطن الأرض فخرج ينابيع فوقها فكان النبات المختلف الألوان ، ثم أليس من أعجب العجب أن نرى فى ﴿ سورة الغاشية ﴾ مايشابه هذا إذ وصفت الجنة بأن فيها عينا جارية ، وسررا ، وأكوابا ، ونمارق ، وزرابىّ

ثم يعقب ذلك ذكر الابل كيف خلقت ، والسماء كيف رفعت ، والجبال كيف نصبت ، فهنا أتبع ذكر الجنة بالماء والنبات ، وهناك أتبعت بالحيوان والسماء والجبال ، فما هذا العجب ! جنة تذكر فى القرآن ويذكر عقبها هذه العوالم فيقال هناك : « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت الخ » ويقال فى آية الزمر : « ألم تر أنّ الله أنزل من السماء ماء على سبيل الاستفهام التقريرى وهو أبلغ بما لاحدّ له من جعل الكلام خبراً

أليس هذا من الأسرار المكنونة والجواهر الحسنة النظام ، نعم هنا سرّ وأىّ سرّ ، فاعلم أن الانسان يصبو للجمال والحب ، فالنوع الانسانى كله يطلب الجمال والجمال مطلوب للحب ، والحب هو المقصد الأسنى لهذا الانسان ، والأمة التى قلّ فيها الحبّ يقل فيها النابغون المفكرون ، والحب لا يكون إلا لجمال ، والجميل ما يناسبنا ويوافقنا ، والقبيح ما ينافرنا ، وكل ما يؤلمنا منافر لنا ، والموافق لنا هو الذى جلت صورته الظاهرة فى نظرنا أو صورته الباطنة بعلم أو بشجاعة أو احسان ، وبالاختصار كل جمال يرجع لأمرين : العلم والقدرة ، فالعالم محبوب ، والشجاع محبوب ، والمحسن محبوب ، والاحسان والشجاعة يرجعان للقدرة ، والجمال الظاهرى فيه نوع من القدرة ، فأما العلم فهو معروف ، ولاجرم أن من يسمعون شجاعة عنترة العبسى أو علم الشافعى وأفلاطون وأبى حنيفة ويرون ذوى الجمال يكون حبهم على مقدار الآثار الواصلة لقلوبهم من أولئك المحبوبين

ونرى الرجل فى حياته بين امرأتين : إحداهما ترضعه ، والأخرى يسكن اليها ، فالأولى أحبها من طريق الاحسان ، والثانية أحبها من طريق الشهوة والجمال ، فما أبدع القدرة ، وما أجل الحكمة ، يعيش الناس ويموتون وهم موزّعو القلوب بين عوامل لا يدرسونها ، وفى سبل لا يفهمونها ، فهم محمولون على أجنحة لم يروها ، يدارون بقوانين يجهلونها ، ويحكمون بسنن لم يسنوها

ولاجرم أن الاحسان المذكور والجمال من نوع القوّة والقدرة ، ثم ان الانسان فيما بين المرأتين يعلمه الاستاذون ، ويؤدّبه المؤدّبون ، وذلك من طريق العلم ويكون حبه للاستاذ على مقدار ما عرف من حكمته وما أدرك من فطنته ، وما استفاد من خبرته ، إذن الحب موزّع على إحسان الأم وجمال المرأة وعلم الاستاذ فههنا اجتمع عند أكثر الناس أصول الأسباب التى بها الجمال ، ولاجرم أن هذا تمرين على ادراك الجمال الأسنى ، واعلم أن الانسان مع هذا كله محبوس فى هذه الأرض ، محكوم عليه بالسجن فيها ، مبعد عن بدائع السموات وتخوم الأرضين ، بل لا قدرة له على معرفة نفس هذه الأرض التى يسكنها إذ يجهل بواطن جبالها وبحارها وأنهارها وجوّها بل يجهل خواص جسمه وعجائب روحه ، ومع ذلك له نفس توّاقة الى ادراك ذلك ، فهى تطوف به أعلى العلا ، وتسمو به فوق العرش وتحت الفرش ، نفس وثابة خطواتها تنتهب الفلوات وتقطع السموات مع انها محبوسة الجسم مكبلة الروح

نرى الرجل اذا أدخل السجن حنّ الى وطنه وأهله ، وكان ألمه على مقدار ما عرف من الأهل والأصحاب وما كسب من المال الذى حرمه ، والملك الذى صرف هو عنه ، هكذا نرى نفوسنا تودّ لو تطير الى أقاصى السموات أو تخترق تخوم الأرضين ، إذن هى كالمحبوس فى سجنه ، إذن هى كانت تمتع تمتعا مّا بتلك العوالم وحجزت عنها ، والا فلماذا هذا الحنين والغرام ، وما هذا التهافت على العوالم ، وما بالنا نراها مذ جاءت الى هذه الأرض تقرأ علم الفلك ، وتخترع المجاهر (المناظر المعظمة) وتدرس أقدار النجوم ، وتعدّها وتحسبها ، وتعدّ أبعادها وأقدارها وتفرح بذلك مع أنها لا طعام فيها ولا شراب ولا ملك ولا مال ، ونسمع أن نجمة من نجوم الجبار وهى الجوزاء قدر الشمس ٢٥ مليون مرة كما تقدم فى هذا التفسير ، فنفرح بذلك فرحا شديدا ، ثم نقرأ فى الكشف الحديث أن المجرّة التى تشتمل على آلاف الملايين من الكواكب وشمسنا كوكب واحد منها تدور حول نفسها مرة واحدة (كما تدور أرضنا فى اليوم والليلة) فى مدة (٣٠٠) مليون سنة فتدهش قلوبنا وتفرح ويكون ذلك لنا سعادة وذكرى ومسرّة وقد اشتركت جميع أمم الأرض فى هذه العلوم وكل

أمة تسابق أخرى فى هذا الكشف ، ولاريب أن ذلك كله حصل لما نظر العلماء كواكب السماء بمنظار قطره مائة بوصة ، وهاهم الآن فى أمريكا يصنعون (تلسكوبا) قطره مائتا بوصة ، وهذا سيأتى بما لم يحلم به أهل الأرض من العلم قريبا

ذلك هو طبع الانسان ، فالعلماء يتسابقون الى ازدياد العلم غراما وحبا أكثر من تسابق رجال الحرب فى إعداد المعدات الحربية وتدمير المدن ، وهاتان الطائفتان مشتركتان فى خلاص الناس من الجهل فالعالم بعلمه وصانع القنابل بالقتل يخرج الانسان من هذا الجسم فيرجع الى عالمه الروحى فيدرس على مقدار طاقته

إياك أيها الذكىّ أن تنكر علىّ هذه الجملة ، فنحن الآن فى مقام الجمال والحب والعجائب الالهية ، فهذا القتل بالحرب وان كان مذموما ومخرّبا للأمم ذكرناه من حيث انا ندرس نفس الوجود ، وصانع العالم حكيم يداوى الداء بالداء ، فالناس أشبه بمن أصابه القولنج فأصيب بالحى فكانت سببا فى شفاء القولنج ، فهذا خراب للأمم ، ولكن نفس الأشخاص خرجوا من عالم الأجسام الى عالم الأرواح ، نعم أكثرهم يخرجون ناقصين ولكن النظام نجهله « والله بكل شىء محيط »

اذا عرفت هذا أدركت تفسير هذه الآيات وأمثالها . علم الله تعالى حبس الناس فى الأرض وتشوّقهم الى الحرّية التامّة بانطلاق أرواحهم الى باحاتها فأبرز لهم علمين : علما مسموعا ، وعلما معقولا ، أما العلم المسموع فهو مايذكر فى نحو الآيات من الغرف التى من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار ومن السرر المرفوعة ، والأكواب الموضوعة ، والنمارق المصفوفة ، والزرابى المبثوثة . ومثل البناء بلبنات الفضة ولبنات الذهب فى الجنة ، وملاط ذلك البناء مسك ، والحصباء لؤلؤ وياقوت ، والتراب زعفران ، وانهم لايموتون ، ومثل ان الخيمة من لؤلؤة مجوّفة ، ومثل ان الجنة فيها مائة درجة ، والدرجة الواحدة تسع العالمين جميعا ، ومثل ان الشجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لايقطعه ، ومثل إن المرأة من أهل الجنة لوظهرت الى أهل الأرض لأضاءت الدنيا ولملأتها ريحا ، وخمارها خير من الدنيا ومافيها . ومثل ان هناك سوقا للصور يدخل فيه المؤمن فيرجع بالصورة التى يحبها ، فهذه العجائب المسموعة فى الكتاب تارة والسنة أخرى ترجع الى الجمال والى القدرة ، فالشجرة التى يسير فى ظلها الراكب مائة عام ترجع للعظمة والعظمة محبوبة ، فهى ترجع للقدرة كما رجعت شجاعة الشجاع اليها ، والغنىّ محبوب لأنه يملك مالا ، والملك قدرة . هكذا هذه الشجرة العظيمة ، والحوراء الجميلة ، والقصور البديعة ، فيها الجمال ، وفيها القدرة والعظمة مع الاحسان ، فههنا اجتمع الجمال والعظمة والاحسان ، وكل هذا محبوب ، فالمؤمن إما شهوانى فيكون حبه لنفس الجنة ، واما حكيم فينتقل هذا الحب لخالق الجمال ويحب الله نفسه ، واليه الاشارة بحديث الترمذى عن ابن عمر « وأكرمهم على الله من ينظر الى وجهه غدوة وعشيا » وأيضا حديث الترمذى ومسلم : « فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحبّ اليهم من النظر الى ربهم تبارك وتعالى » اه

لما وصلت الى هذا المقام واطلع عليه صاحبى الذى اعتاد أن يسألنى فى هذا التفسير . فقال حسن ماقلت وبديع ماوصفت ، ولكنى سائلك سؤالين : الأوّل ان هذه الأوصاف التى أسندتها للأحاديث فوق طور العقول ، فما هذه الشجرة التى لايقطعها الراكب فى مائة سنة . ان العقل لايقبلها قبولا حسنا . الثانى أنت ذكرت أوصاف الجنة من الأحاديث فأحب أن أسمعها لأعرف رواتها حتى تطمئن النفوس للرواية ، ومن أى الكتب ؟ ولاجرم أن هذا المقام كله فى الكلام على ماهو مسموع ، ومتى تمّ الكلام عليه نريد أن تشرح المعقول شرحا وافيا كما تشرح المسموع لأن هذا المقام جميل ، فاذا كان مستوفيا شرحه شرح الصدور . فقلت أما كون الشجرة المذكورة وأمثالها لايقبلها العقل فهذا ممنوع لأن الامكان لاحصر له . فقال نعم هو لاحصر له ولكن الامكان شىء وتصوّر الممكن وقبوله أمر آخر . فقلت : ألست تذكر الكوكب الذى ذكرت لك انه قدر

الشمس

الشمس (٢٥) مليون مرة . فقال : بماذا يفيدنى هذا ؟ فقلت : هو شمس . قال نعم . فقلت : اذا قسناها على شمسنا كان لها سيارات . قال نعم . قلت : وأرضنا حول شمسنا ليست أكبر كوكب . قال نعم . قلت : وشجرها نعرفه . ولاجرم أن السيار يكبر بنسبة شمسه ، فلو أن أرضنا كبرت بالنسبة لكبر الشمس (٢٥) مليون مرة لكانت أشجارها أكبر من حالها الآن (٢٥) مليون مرة ، وأكبر شجرة فى أرضنا اذا كبرت (٢٥) مليون مرة احتجنا فى قطعها الى عشرات السنين ، فاذا كبرنا كوكبا آخر حول الشمس كالمشترى زادت شجراته أضعافا مضاعفة ، ألاترى أن المشترى الذى هو أكبر السيارات حول الشمس حجمه قدر حجم الأولى (١٣٠٠) مرة ، فاذا جعلنا أكبر شجرة فيه أكبر من أكبر شجرة فى أرضنا (١٣٠٠) مرة ، وجرى الفارس تحت أكبر شجرة أرضية فى زمان ما ، وكبرت شجرة المريخ (١٣٠٠) مرة ثم ضربنا هذه فى ٢٥ مليونا فيكون سير الفارس تحتها فى سنين كثيرة

واذا وجدنا اليوم كوكبا أكبر من الشمس (٢٥) مليون مرة ، فنحن قريبا سنسمع عن كواكب أعظم وعليه تصبح الشجرة المذكورة فى الحديث من أصغر الأشجار ، بل اذا تذكرنا أن ذلك الكوكب الذى هو أكبر من الشمس (٢٥) مليون مرة فيه مواضع مسكونة كما أن أرضنا فيها مواضع مسكونة لا كلها كانت الشجرة التى فيها لايقطعها الفارس فى ألف سنة لافى مائة فقط . إذن العلم الحديث اليوم فتح بابا لتصوّر عقولنا عظمة الله وعظمة الملك ، واذا كانت العوالم المحسوسة التى ليست بجنة هذه عظمتها وقد وجدنا فيها هذه العظمة فما بالك بعوالم الجنة

هذا ما أقول لك أيها الذكىّ جوابا على سؤالك الأول وهو أنك تستبعد ما جاء فى وصف الجنات ، أما السؤال الثانى وهو أنك تريد أن تسمع نفس الأحاديث بأسانيدها ، فهاك ماجاء فى كتاب « تيسير الوصول لجامع الاصول » من المجلد الثالث فى صحيفة ٢٣٥ ومابعدها وهذا نصه :

ذكر الجنة والنار

فيه فصلان

الفصل الأول فى صفتهما

ذكر صفة الجنة

عن أبى هريرة رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ قال الله تعالى أعددت لعبادى الصالحين مالاعين رأت ، ولاأذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر . قال أبوهريرة : اقرءوا ان شئتم « فلاتعلم نفس ما أخفى لهم من قرّة أعين » أخرجه الشيخان والترمذى ، وزاد البخارى فى أخرى عن سهل بن سعد وذكر مثله ، ثم قال ، وقال محمد بن كعب : انهم أخفوا لله عملا فأخفى لهم ثوابا فلوقدموا عليه أقرّ تلك الأعين ، وعنه رضى الله عنه . قال قلت يارسول الله مِمَّ خلق الخلق ؟ قال من الماء . قلت الجنة مابناؤها ؟ قال لبنة فضة ولبنة ذهب وملاطها المسك الأذفر وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وترابها الزعفران من يدخلها ينعم ولايبأس ، ويخلد ولايموت ، ولاتبلى ثيابهم ، ولايفنى شبابهم . ثم قال : ثلاثة لاتردّ دعوتهم ، الامام العادل والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ، وتفتح لها أبواب السماء ، ويقول الله تعالى وعزّتى لأنصرنك ولو بعد حين ، أخرجه الترمذى (الملاط) الطين الذى يجعل فوق سافى البناء يملط به الحائط أى يصلح ، وبئس يبأس اذا افتقر واشتدّت حاجته

وعن أبى موسى رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ جنتان من فضة آنيتهما ومافيهما وجنتان

من ذهب آنيتهما ومافيهما ، ومابين القوم و بين أن ينظروا الى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن ، أخرجه الشيخان والترمذى ، وفى رواية لهم . قال رسول الله ﷺ « فى الجنة خيمة من لؤلؤة مجوّفة ، وفى رواية عرضها ستون ميلا ، فى كل زاوية منها أهل لايرون الآخرين يطوف عليهم المؤمن

وعن أبى هريرة رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ فى الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مائة عام ، (أخرجه الترمذى) ، وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ فى الجنة مائة درجة مابين كل درجة ودرجة كما بين السماء والأرض ، والفردوس أعلاها درجة ، ومنها تفجر أنهار الجنة الأربعة ، ومن فوقها عرش الرحمن ، فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، (أخرجه الترمذى) . وعن أبى سعيد رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ إن فى الجنة مائة درجة لو أن العالمين اجتمعوا فى إحداهن لوسعتهم (أخرجه الترمذى)

وعن أنس رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها ، اقرءوا ان شئتم « وظل ممدود » أخرجه الترمذى . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ مافى الجنة شجرة إلا وساقها من ذهب (أخرجه الترمذى)

وعنه رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : لقاب قوس فى الجنة خير مما طلعت عليه الشمس أوتغرب ، أخرجه الشيخان ، وزادالترمذى عن أنس فى أخرى : ولقاب قوس أحدكم أوموضع قده فى الجنة خير من الدنيا ومافيها ، ولوأن امرأة من أهل الجنة اطلعت الى أهل الأرض لأضاءت الدنيا وما فيها ولملأت مابينهما ريحا ولنصيفها يعنى الخمار خير من الدنيا ومافيها (قاب القوس ، وقده) قدره

وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ لوأن مايقلّ ظفر مما فى الجنة بدا لتزخرفت له خوافق السموات والأرض ، ولوأن رجلا من أهل الجنة اطلع فبدا سواره لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم (أخرجه الترمذى) قوله (الزخرفة) الزينة والزخوف (الذهب) وخوافق السماء جوانبها الأربعة وهى جهات الرياح الأربع

وعن أنس رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : رفعت الى سدرة المنتهى فاذا أربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان ، فأما الظاهران فالنيل والفرات ، وأما الباطنان فنهران فى الجنة (أخرجه البخارى)

وعن بريدة رضى الله عنه . قال : سأل رجل رسول الله ﷺ فقال : هل فى الجنة خيل ؟ قال إن الله أدخلك الجنة فلاتشاء أن تحمل فيها على فرس من ياقوتة حمراء تطير بك فى الجنة حيث شئت إلا كان ، فقال آخر : هل فى الجنة من إبل ؟ قال ان يدخلك الله الجنة يكن لك فيها ما اشتهت نفسك ، ولذت عينك (أخرجه الترمذى)

وعن علىّ رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : إن فى الجنة لمجتمعا للحور العين يغنين بأصوات لم يسمع الخلائق بمثلها ، يقلن : « نحن الخالدات فلانبيد ، ونحن الناعمات فلانبأس ، ونحن الراضيات فلا نسخط ، طوبى لمن كان لنا وكنا له » ، (أخرجه الترمذى) قوله (الحور) جمع حوراء وهى الشديدة بياض العين الشديدة سوادها (والعيناء) واحدة العين وهى الواسعة العين ، وقوله لا نبيد أى لانهلك ولاتتلف

وعن أنس رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : إن فى الجنة لسوقا يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثو فى ثيابهم ووجوههم فيزدادوا (١) حسنا وجمالا ، فيرجعون الى أهليهم وقد ازدادوا حسنا وجمالا ، فيقول أهلوهم : والله لقد ازددتم حسنا بعدنا وجمالا ، فيقولون : وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا (أخرجه مسلم)

---

(١) هكذا فى النسخ ، ولعله فيزدادون

وعن

وعن عليّ رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : إن فى الجنة لسوقا مافيها شراء ولابيع إلا الصور من الرجال والنساء ، فاذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها (أخرجه الترمذى) انتهى الفصل الأوّل

الفصل الثانى

فى ذكر أهل الجنة

عن سهل بن سعد رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف كما تتراءون الكوكب فى السماء (أخرجه الشيخان)

وعن أبى سعيد رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : ان أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف كما تتراءون الكوكب الدرّى الغابر فى الأفق من المشرق الى المغرب لتفاضل مابينهم ، قالوا يارسول الله : تلك منازل الأنبياء لايبلغها غيرهم . قال بلى : والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين (أخرجه الشيخان) . وعن أبى هريرة رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : إن أوّل زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشدّ كوكب درّى فى السماء إضاءة ، لايبولون ولايتغوّطون ولا يتفلون ولايمتخطون أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ، ومجامرهم الألوة [(١)] الألنجوج [(٢)] عود الطيب ، أزواجهم الحورالعين على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا فى السماء (أخرجه الشيخان والترمذى) قوله « الألوة ، والألنجوج » من أسماء العود الذى يتبخر به ، ومن أسمائه الكباء [(٣)]

وعن جابر رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : « إن أهل الجنة يأكلون فيها و يشربون ولايتفلون ولايبولون ولايتغوّطون ولايمتخطون ، قيل فما بال الطعام ؟ قال جشاء ورشح كرشح المسك ، يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس » (أخرجه مسلم وأبوداود)

وعن الخدرى رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : « من مات من أهل الجنة من صغيرأوكبير يدخلون الجنة بنى ثلاثين لايزيدون عليها أبدا ، وكذلك أهل النار (أخرجه الترمذى)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : « أهل الجنة جرد مرد كحل لايفنى شبابهم ، ولاتبلى ثيابهم » (أخرجه الترمذى)

وزاد فى رواية : « عليهم التيجان ، وان لؤلؤة منها لتضىء مابين المشرق والمغرب » . قوله الجرد جمع أجرد وهو الذى لاشعرعليه ، والكحيل هو الذى ترى أجفانه كأنها مكحولة من غيركحل

وعن أبى رزين رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : « لايكون لأهل الجنة ولد » (أخرجه الترمذى)

وزاد فى رواية عن الخدرى : « ان اشتهى الولد كان حمله ووضعه وسنه فى ساعة واحدة » . قال بعضهم ولكن لايشتهى

وعن أنس رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : « يعطى المؤمن فى الجنة قوّة كذا وكذا من الجماع ، قيل يارسول الله أو يطيق ذلك ؟ قال : يعطى قوّة مائة (أخرجه الترمذى)

وعن الخدرى رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : « تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفاها الجبار بيده كما يتكفى أحدكم خبزته فى السفر نزلا لأهل الجنة ، فأتى رجل من اليهود فقال : بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم ، ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة ، قال بلى ، قال : تكون الأرض خبزة واحدة كما قال رسول الله ﷺ ، فنظر النبىّ ﷺ الينا ثم ضحك حتى بدت نواجذه . ثم قال : ألا أخبرك بادامهم . قال بلى . قال بالام ونون . قالوا وماهذا ؟ قال ثور ونون يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفا (أخرجه الشيخان) . قوله يتكفاها أى يقلبها و يميلها ، والجبار من أسماء الله تعالى ، والنزل مايعدّ للضيف

---

(١) بفتح الهمزة (٢) بفتح النون (٣) ككتاب

من طعام وشراب ، والنواجذ الأنياب ، وبالام الثور كما فسره فى متن الحديث ، ولعل اللفظة عبرانية ، والنون الحوت وهو عربى

وعن الخدرى رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : أدنى أهل الجنة منزلة الذى له ثمانون ألف خادم ، واثنان وسبعون زوجة ، وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية الى صنعاء (أخرجه الترمذى) . وعن ابن عمر رضى الله عنهما . قال قال رسول الله ﷺ : إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر الى جنانه وأزواجه وخدمه ونعمه وسرره مسيرة ألف عام ، وأكرمهم على الله من ينظر الى وجهه غدوة وعشية ، ثم قرأ ﷺ « وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة » ، (أخرجه الترمذى)

وعن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : « سأل موسى عليه السلام ربه تعالى : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال هو رجل يجىء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة فيقول : أى رب وكيف ؟ وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم ، فيقال : أما ترضى أن يكون لك مثل ملك(١) ملك(٢) من ملوك الدنيا ، فيقول : رب رضيت ، فيقول : لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله ، فيقول فى الخامسة : رضيت رب ، فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتهت نفسك ، ولذت عينك ، فيقول : رب رضيت ، فقال : فأعلاهم منزلة ، قال أولئك الذين أردت ، غرست كرامتهم بيدى وختمت عليها فلم تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر (أخرجه مسلم والترمذى) وقوله أخذوا أخذاتهم أى نزلوا منازلهم المختصة بهم

وعن الخدرى رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : « يقول الله عز وجل لأهل الجنة : ياأهل الجنة ، فيقولون لبيك ربنا وسعديك ، والخير فى يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : ومالنا لانرضى يا ربنا ، وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك ، فيقول : ألاأعطيكم أفضل من ذلك ، فيقولون : وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلاأسخط عليكم بعده أبدا » (أخرجه الشيخان والترمذى)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : « عرض على أول ثلاثة يدخلون الجنة شهيد ، وعفيف متعفف ، وعبد أحسن عبادة الله ونصح لمواليه (أخرجه الترمذى)

وعن حارثة بن وهب رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بأهل الجنة ، قالوا بلى يارسول الله . قال : كل ضعيف متضعف لوأقسم على الله لأبره ، ألا أخبركم بأهل النار : كل عتل جواظ مستكبر » (أخرجه الشيخان)

ولأبى داود من رواية حارثة رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : « لايدخل الجنة الجواظ ولاالجعظرى » . قال والجواظ الغليظ الفظ . قلت : الجواظ المنوع ، وقيل السمين المختال فى مشيته ، وقيل القصير البطين ، والجعظرى الفظ الغليظ والله أعلم اه

رؤية الله تعالى

عن جرير بن عبدالله رضى الله عنه . قال : نظر رسول الله ﷺ الى القمر ليلة البدر . فقال انكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لاتضامون فى رؤيته ، فان استطعتم أن لاتغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ، ثم قرأ : « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب » أخرجه الخمسة إلا النسائى

وعن صهيب رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : « اذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى تريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ، ألم تدخلنا الجنة ، ألم تنجنا من النار . قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب اليهم من النظر الى ربهم تبارك وتعالى ، ثم تلا هذه الآية : « للذين أحسنوا

(١) بضم فسكون (٢) بفتح فكسر

الحسنى وزيادة » أخرجه مسلم والترمذى

وعن أبى ذر رضى الله عنه . قال : سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك تعالى قال نور أنى أراه (أخرجه مسلم والترمذى)

وعن مسروق . قال قلت لعائشة رضى الله عنها يا أمتاه : هل رأى محمد ﷺ ربه ؟ فقالت : لقد قف شعرى مما قلت . أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب : من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب ، ثم قرأت : « لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » ومن حدثك انه يعلم مافى غد فقد كذب ، ثم قرأت : « وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا » ، ومن حدثك أنه كتم شيئا من الوحى فقد كذب ، ثم قرأت « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك » الآية ولكنه رأى جبريل فى صورته مرتين (أخرجه الشيخان والترمذى) انتهى الفصل الثانى ، وبهذا تم الكلام على العلم المسموع من الكتاب والسنة

الكلام على العلم المعقول

لقد عرفت أيها الذكى العلوم المسموعة فى هذا المقام من الكتاب والسنة ، وأدركت أن العلوم التى ملأت الدنيا كلها إلا بلاد الاسلام قربت لنا تصور النبوة المحمدية وأصبحنا نشاهد نجوما أقدارها قربت لعقولنا تلك الصور الجميلة فى الجنة ، فهاك أحدثك حديثا عجبا فى القرآن نفسه وفى الدنيا : تقدم فى هذا المقال انى ذكرت لك أن آيات النبات والماء فى هذه السورة ذكرت عقب ذكر الجنة ، وآيات الإبل والسماء والجبال فى سورة الغاشية ذكرت بعد ذكر الجنة ، فما الحكمة فى ذلك ياترى ؟ الحكمة فى ذلك أوضحتها العلوم التى فى هذا التفسير ، اللهم إنى أحمدك حمدا كثيرا ، أحمدك على نعم العلم ونعم الحكمة ، وهل كان يدور بخلدى أيام شبابى وأنا جاهل جد جاهل ، أتلمس العلم فى النهر وفى الحقل وفى النجم ، اننا سنصل الآن الى أبدع الجمال فى هذا التفسير ، وانا ندرك جنة تمتع بها عقولنا ونحن أحياء فى الدنيا قبل أن نموت ونرى الجنة الموصوفة فى الأحاديث الشريفة ، بل هل كان يخطر لى أن السعادة الحقيقية فى جنات العلوم والمعارف التى ندركها فى هذه الحياة ، وانه لولا نكبات الحياة ومصائبها لكان حبنا الآن آخذا بقوانا وعقولنا ولعلمنا أن حب الولد لأمه ، وحب الشاب لمن أغرم بجمالها فتزوجها ليس شيئا مذكورا بالنسبة للحب الذى يترتب على الجمال العلمى والحب العظيم هوالذى يذهب الحزن والغم ويجعل النفس فى السعادة التى لاسعادة فوقها ، ولكن هذا الحب الآن مخبوء عند العلماء ويحسون به فى أوقات قليلة ثم تغلب عليهم أحوال هذه الأرض وعوارضها رحمة بهم ليزدادوا علما

أقول : فهل كان يخطر لى زمن الشباب أن عقولنا فيها حساب الجذر والتربيع ، وأن نفس الجذر والتربيع الجميلين عند عقولنا نراهما فى نفس المادة كما تراه فى ﴿سورة الرعد﴾ عند آية ـ وكل شىء عنده بمقدار ـ وفى مواضع أخرى هناك إذ تبين أن الضوء والجاذبية جرى حسابهما على الجذر والتربيع ، وترى الحجر اذا قذفناه فى البئر جرى بسرعة على تلك القاعدة فلاخطأ فيها ، وهذا أمر عجب أن تكون هذه الأحوال الطبيعية على هذا القانون العجيب ، أوكان عقلى يتصور أن للنمل حجرات منظمات كحجرات فى أعظم قلعة ، وأن لكل حجرة سكانا ، فمنهم الجند ، ومنهم الاظئار وهكذا (انظرذلك كله فى سورة طه وسورة النمل مرسوما)

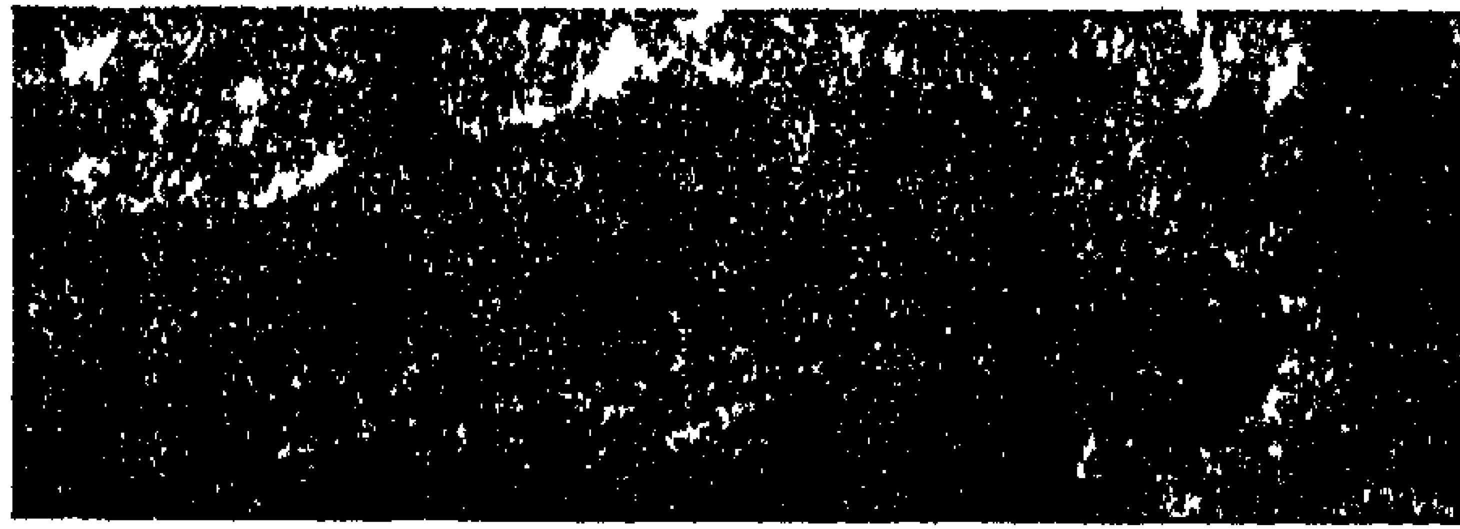
أم كان يخيل لى وأنا فى الشباب أن يلون بعض الطيورخياطا ، ومنها حائك ، و بعض الدود يغزل ، و بعض الزنابير يصنع الورق ، وأن الخلد يعرف أحوال الطقس ، وأن النحل مهندس ، وأن اللقلق يحكم بالمشاورة ، وأن الكلب يعرف تعاطى المسهلات فى الطب ، وأن الخنزير يحرث الأرض ، وأن العلق فى بطن

الأرض يبلغ فى الفدان الواحد آلافا وهو ينفع لتسميدها وحرثها قبل أن يحرثها الانسان ، وأن للسرطان درعا . أقول : هل كانت هـذه العجائب تدور بخلدى وأنا أطوف على شواطئ الأنهار وفى الحقول ألتمس الحقائق ، أم كان يختلج بفكرى أن فار الجبل يبنى بناء متقنا ، ويحفر أقنيـة ليجرى الماء فيها حتى قلده الانسان ، ان أكثر ماذكرته هنا ملخص مما تقـدم فى ﴿ سورة طه ﴾ وأزيد مسألة حفر الخنادق إيضاحا هنا مما جاء فى إحدى المجلات العلمية ، فقد جاء فيها تحت العنوان الآتى مانصه :

عجائب المخلوقات

الحيوانات التى تحتفر الخنادق

إن حفر الخنادق خاصة يشترك فيها كثير من الحيوانات على اختلاف درجاتها من أحط الأنواع الى أرقاها فبين ذوات الثدى منها عدّة أمثلة على ذلك ، وأشهر الأنواع من هذا القبيل (الخلد) وهذه صورته (انظر شكل ٢٢)



(شكل ٢٢ — خلد فى حفرته وعلى يمين الصورة هيكل يده التى يحفر بها خنادقه)

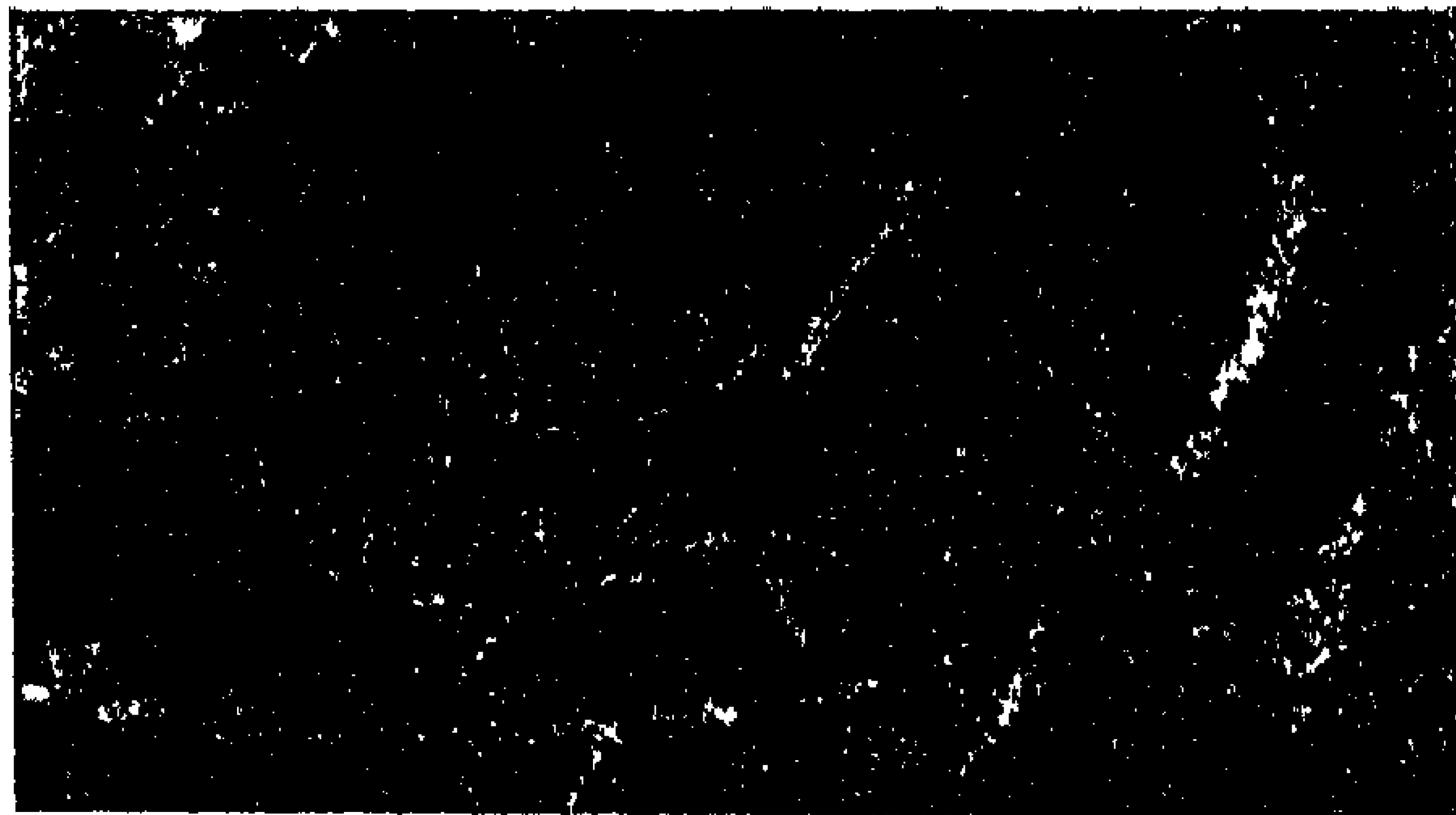
وقد منح الله هذا الحيوان يدين مسلحتين بأظافر قوية تمكنه من حفر الأرض بسرعة عظيمة جدا ، حتى انك لو أخرجت خلدا من حفرته ووضعته على سطح الأرض وجدت انه بعد هنيهة وجيزة جدا قد احتفر حفرة واختفى عن بصرك ، ولا يكتفى هذا الحيوان بحفر نفق بسيط تحت الأرض بل هو يتفنن فى عمله هذا ويشعب من نفقه الأصلى أنفاقا فى غاية البساطة ثم ان الخلد يحفر أخرى عديدة على شكل غريب تعد بجانبها صفوف الخنادق والأنفاق التى يحتفرها الجنود فى ساحات القتال فضلا عن هذه الأنفاق غرفة مستديرة يجعلها مركز اقامته العادى ، ويبلغ قطرها بين ثمانى وعشرة سنتيمترات ، ويحفر حول هذه الغرفة المستديرة نفقين بشكل دائرتين الواحدة على مستوى الغرفة والثانية فوقه ، والغرفة متصلة بهذين النفقين بواسطة عدّة ممارّ حتى يجد لنفسه منفذا من أى جهة يداهمه الخطر ، وفى داخل الغرفة شبه سرير من الأوراق والقش لينام عليه الخلد ، والثعلب أيضا يقضى جزءا من حياته داخل الأرض لاسيما فى النهار ، وهو فى الغالب يستولى على حفرة حيوان آخر بدلا من أن يحتفر حفرة خاصة له ، وحفرته عبارة عن ردهات عميقة تنتهى جميعها فى غرفة كبيرة لايقلّ عمقها عن ثلاثة أمتار ، وهذه الردهات متصلة بعضها مع بعض بممار عديدة

وأشدّ ذوات الثدى مهارة فى حفر الخنادق وأكثرها توسعا فيها حيوان بين ابن عرس والدب فاتح اللون فى الأعلى وقاتمه فى الأسفل يسمى عناق الأرض أو التعه وهو من الحيوانات الليلية ويصرف الشتاء نوما فان له براثن قوية يحفر بها الأرض بسرعة غريبة ، وكيفية ذلك انه ينبش الأرض بيديه القويتين ، فاذا تراكم التراب استعمل يديه الخلفيتين لدفعـه الى الوراء ، ثم يرجع الى خلف بين آن وآخر ، ويجر بجسمه التراب المتراكم الى خارج الحفرة ، ولنفق هذا الحيوان أبواب عديدة يبعد الواحد عن الآخر نحو ٣٠ قدما وكل نفق من أنفاقه يبلغ طوله بين السبعة والعشرة أمتار وتنتهى فى غرفـة كبيرة على عمق متر أومترين تحت الأرض يجعلها مقرّه العادى

هـذه بعض الأمثلة من الحيوانات الثديية التى تحتفر الأرض ، وهناك أمثلة أخرى كثيرة يضيق عن ذكرها المقام ، والأغرب من ذلك أن بعض الطيور (والطيور عشيقة الهواء الطلق عادة) تحفر مثل هذه الأنفاق والحفر ، فمن أنواع الطيور الخطاف نوع يحفر أنفاقا على شاطئ البحر ، يبلغ طولها مترا ونصف متر ، ويضع عشه فى داخلها ، ولاشك أن مثل هـذا الأمر من الغرابة بمكان ، لاسيا اذا أمعنا النظر فى تركيب هذا الطير ونحافة جسمه ، وهناك طائر آخر يسميه الأسبان (البناء الصغير) يضع وكره فى حفرة عميقة طولها متران أو أكثر ، ومثله طير أزرق صغير يسمى عنـد الفرنسيين (الخطاف الصياد) يصطادونه من البحيرات حيث يعيش فى وكر له منفذان

أما فى عالم الحشرات فان مهارة بعض العناكب فى حفر الأنفاق غريبة جدا يقف عندها المرء وقد أخذت منه الدهشة كل مأخذ ، وهى على أنواع تحفر أنفاقا ودهاليز مختلفة ، ومن أغرب أنواع العناكب نوع يبنى وكرا غريبا فى هندسته وهو عبارة عن حفرة عميقة مبطنة بنسيج حريرى خشية أن تهبط جدرانها ، وفوقها باب يقى من المطر ومن الضيوف الثقلاء ، وهذا النوع ينتخب عادة لحفرته مكانا محوطا بالحشائش حتى لا يظهر بيته للغادى والرائح ، أما الباب فانه جميـل الهندسة كامل الصورة يشبه الأبواب التى تقفل وحـدها بزنبلك لمرونة مفاصله ، ولهـذه العناكب مقدرة كبيرة للدفاع عن أوكارها ، فاذا سعى أحد فى فتح الباب تشبثت به العنكبوت من الداخل حتى انه يلزم قوة كبيرة لفتحه

وهناك حشرات أخرى كثيرة ، منها نوع من الجنادب نشرنا صورته هنا وهو يقطع جذور الشجر والنبات ويتغذى منها (انظر شكل ٢٣) ولا ينبغى أن يبرح من ذهننا مهارة النمل فى هذا الفن فانها أشهر من أن تحتاج الى التذكير



(شكل ٢٣ — نوع من الجنادب فى حفرته يقطع جذور الأشجار)

قوة الحشرات

اذا درسنا قوة الحيوانات بالنسبة الى حجم جسمها وجدنا أن الانسان من أضعفها وأنحفها ، فان الحمار أو البطلينوس مثلا يحمل ثقل ٣٧ رطلا ، ومن السرطان أنواع يحمل الواحد منها ٤٩٢ مرة وزنه وعلى هذا المعدل كان يجب أن يحمل الانسان المعتدل الجسم ٧٣٨٠٠ رطل

وفى مقدمة الذين درسوا مقدرة الحشرات على حمل الأثقال (فليكس فلاتو) العالم البلجيكى ، ومما قاله « إن حمل الذبابة لعود كبريت صغير بأرجلها يعادل رفع الانسان برجله لعمود خشب طوله ١٤ قدما ومساحته عند قطعه عموديا قدمان و ٦ بوصات مربعة »

ومن البق نوع يجر ست عيدان كبريت وهى تعادل للرجـل (٣٣٠) عمودا من الخشب بحجمه ، وطريقة العالم المتقدم فى درس قوة الحشرات انه يربطها الى ميزان دقيق ثم يخزها حالما تمشى تتحرك عقرب

متصلة بالميزان فتدل على قوّة تلك الحشرة . انتهى ما أردته من مجلة الهلال والحمد لله رب العالمين

هذه بعض العجائب التي عرفها عقل الانسان وملئ بها هذا التفسير، وهناك عجائب وعجائب فى سورة المؤمنين عند آية ــ وما كنا عن الخلق غافلين ــ من تلك الحشرات والحيوانات التى كان حفظها بسبب مشا كلتها لما حولها ، وهى مرسومة هناك مصوّرة ، وكذلك ترى فى سورة الفرقان كيف كان للعنكبوت جهاز لغزله ظاهر واضح ، وكيف كان لبعض الحشرات جهاز أشبه بجهاز الطبيب الذى به يضع الحقنة فى جسم المريض ، وهذا الجهاز يملأ سما بهيئة عجيبة ، وكيف كان للحشرات آلات للحرب وآلات لجلب المنفعة تراها موضحة هناك مرسومة ، وهكذا فى ﴿سورة النمل﴾ من عجائبه ومزارعه المنظمة المتقنة ، وكذلك دابة الأرض المصوّرة المرسومة فى ﴿سورة سبأ﴾ وهكذا ترى فى أوّل الروم عجائب الحشرات وألوانها التى خلقت لحفظها وحفظ ما ماثلها اقتصادا فى الخلقة وابداعا فى النظام ، وهكذا ترى فى سورة السجدة بعد سورة لقمان كيف كان نظام النخل من داخله غير نظام الأشجار وحكمة ذلك ، ثم ترى فى ﴿سورة يس﴾ عند آية « سبحان الذى خلق الأزواج كلها » تلك الأوراق المرسومة التى كوّنت من حجرات منظمات ذوات سوائل فيها المادة الخضراء ، وكيف كان ذلك سببا فى أن الأوراق تجتذب المادة الكربونية المغذية لها من الهواء ، وكيف كانت الورقة قد تتسع لآلاف وآلاف فى آلاف من هذه الحجرات الدقيقة الصنع . هذا من عجائب النبات وغيره من عجائب الحيوان يفهمنا لماذا يذكر الله فى ﴿سورة الغاشية﴾ الابل ونحوها بعد ذكر الجنة ، ولماذا يذكر الماء والنبات فى هذه السورة بعد ذكرها أيضا ليفتح لنا باب التفكر فى العجائب لنفرح بصانعها فى هذه الحياة ونرى حقائق الجمال ، وبهذا ندرك لماذا يقول الامام الغزالى فيما قلناه فى ﴿سورة فاطر﴾ : « ان السعادة فى معرفة العجائب وهؤلاء هم الذين يرون ربهم أكثر من غيرهم » ونفهم قول اخوان الصفاء فيما قدّمنا فى أوّل سورة الصافات : « ان معرفة العجائب جزاء المحسنين » اهـ

فلما كتبت ذلك . قال صاحبى : هذا جميل جد جميل ، ولكنى أريد أن تشرح لى جملة لم أفهمها ? فقلت: وماهى ? فقال : لقد ذكرت الجذر والتربيع المتقدم فى ﴿سورة الرعد﴾ وأنا الآن أريد مثالا واحدا تراه فطرنا بعلم الحساب ونرى له نظيرا فى علم النبات مثلا حتى يكون ذلك نبراسا نعرف به ملاءمة فطرنا لهذه العوالم من حيث الحساب وان تقدم من هذا كثير ولكنها ذكرى والذكرى تنفع المؤمنين

فقلت : انظر هذا العدد ٣٧ فهذا العدد اذا قسمنا عليه عدد ١١١ كان الخارج ٣ واذا قسمناه عليه ٢٢٢ كان الخارج ٦ أوقسمناه عليه ٣٣٣ يكون الخارج ٩ أوقسمناه عليه ٤٤٤ كان الباقى ١٢ أو قسمناه عليه ٥٥٥ كان الخارج ١٥ أوقسمناه عليه ٦٦٦ كان الخارج ١٨ أوقسمناه عليه ٧٧٧ كان الخارج ٢١

فقال صاحبى : هذا عجب حقا ! لأن ضرب ٢١ فى ٣٧ يساوى ٧٧٧ وهكذا البواقى . عجب ! إذن الخارج يكون مساويا لجمع المقسوم فهو ٣ فى الأولى و ٦ فى الثانية و ٩ فى الثالثة وهكذا . فقلت له : لقد فهمت ، فهذه الأعداد من واحد الى ٩ اذا قسمت على ٣٧ كانت بهذه المثابة ، فهذه المسألة فى عقولنا عجيبة يدهش العقل لها وتطرب النفس ، فاذا رأينا أن العناصر مرتبة ترتيبا أبدع وأجمل من هذا فانظره فى سورة العنكبوت ولها حساب مبنى على المتوالية الهندسية والنسبة العددية بحيث يكون العنصر مع مافوقه وماتحته جاريا على النسبة الهندسية ٢ - ٤ - ٨ - ١٦ ويكون مع ماقبله ومابعده جاريا على المتوالية العددية ٢-٤-٦ وهكذا اذا رأينا ماتركب من العناصر له أمثال هذا ونظائره فاننا ندخل إذ ذاك فى جنة العرفان التى لا احدّ لها ولعلك تتذكر ماتقدم فى ﴿سورة الحجر﴾ عند قوله تعالى « وأنبتنا فيها من كل شىء موزون » وتتذكر صور أنواع من النبات ونسبة عدد الدوائر الحلزونية الى عدد أوراق تلك الدوائر وملاحظة المناسبات المدهشة

بين النبات الواحد وماقبله ومابعده فى صفه الأفق وفى صفه الرأسى ، وأن الأوراق فى جميع الأشجار بينها نسب مدهشة يحار العقل فيها « فتبارك الله أحسن الخالقين »

هاأنت ذا أيها الذكىّ قرأت الجمال المسموع ، وأدركت المعقول ، ووازنت بينهما ، أفلا يكون ذلك حصنا لبصيرتك تلجأ اليه ، وملجأ يحفظك ، وملاذا وسعادة ، أولا تتذكر معى ماقلته فى أوّل هذا المقال من أن الرجل بين امرأتين إحداهما ترضعه ، والأخرى يسكن اليها ، ولاجرم أن الأم والزوجة كلاهما مخلوقتان مسخرتان لحياة تنقضى سريعا ، فالرحمة فى الأولى ، والشهوة فى الثانية وضعتا فيهما لغاية نافعة وهى المحافظة على حياة المولود وعلى نظام الأسرة ، ورباط الزوجية ، وحسن المعاشرة ، فهما إذن محدودتان ، والمحدود لا يصلح للدوام وانما يصلح للدوام ما كان من العناية الدائمة رأسا ، وهل ذلك غير العلم بالعجائب ، إذن ظهر لنا السرّ فى آية « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودّة ورحمة » فعبر بأنا نسكن اليها ، وقال فى سورة أخرى « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » فالانسان قد يسكن فى منزله وهو غير آمن ولامطمئن ونهاية السعادة السلامة من المخاوف ، ولذلك نسمع الله تعالى يقول « تحيتهم يوم يلقونه سلام » وجاء فى القرآن أيضا « الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن » إذن التعبير بالسكون الى الزوجة غير التعبير بالاطمئنان بذكر الله ، فالانسان يكدح ويجدّ فى حقله أوتجارته أوصناعته أوسياسته ويحتمل مايحتمل من النصب والتعب والألم ، فلابد له من وقت فيه يتخلى عن هذه الأعمال والهموم لتستجم قواه ، وهل هذا إلا الائتناس بالزوجة والراحة معها ، ولكن هذه الراحة غير تامة « ان من أزواجكم وأولادكم عدوّا لكم فاحذروهم »

وأيضا الانسان وان سكن الى زوجته من هموم الأعمال النهارية ، فليس ذلك السكون تاما من كل وجه ، فهل فى قدرتها أن تحل له مشكلات هذا الوجود والمسائل المشكلة ، كأن تحدّثه نفسه بأن الحياة شاقة ، والدنيا كلها هموم وأحزان ، فلم خلق هذا العالم ؟ ولم كثر الظلم فيه ؟ ولم كثر المرض والحرب ؟ ولم نر الحيوانات يأكل بعضها بعضا ؟ ولم يعذبنا الله وهو قادر على كل شئ ، بل أعمالنا كلها هو الذى قدّرها ؟ فهذه الشكوك والأوهام لاطاقة للمرأة بحلها . فهذا هو بعض السرّ فى التعبير بالسكون الى الزوجة دون الاطمئنان ، وفى التعبير بالاطمئنان بذكر الله وعدم الاقتصار على السكون ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ ان قراءة العلوم والعجائب مثل التى فى هذا التفسير تورث الاطمئنان وسكون النفس لا بمجرّد سكونها الى الزوجة بل تسكن الى الحقائق وتطمئن

فلما سمع صاحبى هذا . قال الحمد لله رب العالمين ، أنا الآن عرفت سرّ ذكر النبات والحيوان بعد ذكر الجنة ، وعرفت الجنة الحسية الجميلة ، والجنة العرفانية البديعة ، وأن هذه مقدمة للقاء الله ، وأن هذه الطائفة أعلى العالمين ، وهم المقرّبون ، فقلت الحمد لله رب العالمين ، انتهى صباح يوم الاثنين أوّل سبتمبر سنة ١٩٣٠ م

الأمم الاسلامية وأسماء هذه السور من غافر الى الحجرات

وحوادث الأيام

بسم الله الرحمن الرحيم

أكتب هذا قبيل الفجر ليلة عيد الأضحى فى عام ١٣٤٩ هجرية ، وأحمد الله عزّ وجل أن أرانى بفضله بعض الأسباب و بعض النتائج لما أصاب أمم الاسلام من المحن والرزايا ، وما أحاط بهم من النذر ، وما حلّ بساحاتهم من تعذيب أمم الفرنجة لهم وظلمهم وعسفهم ، وفتكهم بأجسامهم وأعراضهم ، واغتصابهم ديارهم وأموالهم وأرضا لم يطؤها

أكتب هذا وقد أصلى الطليان اخواننا الطرابلسيين منذ أيام نارا حامية ، وفتكوا بهم فتكا ذريعا وهم آمنون فى ديارهم ، وهتكوا أعراض (٧٠) أسرة وشتتوا شملهم وأخذوا (١٥) من قوّادهم فى طياراتهم فألقوهم من أعلى الجوّ ليتسلوا بذلك وليفرحوا بما يرون من تهشيم وتكسير وموت عاجل ، وأجلوا ثمانين ألفا من الجبل الأخضر وأنزلوهم فى أرض قفراء لا أنيس بها ولاجليس ، وأخذوا منهم أناسا وضعوهم فى سلاسل من حديد ورموا بهم فى البحر فالتقطهم جنود المصريين ودفنوهم ، وأذلوا آخرين فهاموا على وجوههم فى الصحراء ، كل ذلك ذكر فى الجرائد أمس وتلى فى جلسة علنية كنت حاضرها وأرسل به احتجاج لجميع العالم قاطبة

دعانى ذلك أن أفكر الليلة فى أمر الأمة المحمدية الحاضرة ، وماساقته الأقدار اليها ، وكيف نشطت المسيحية كرة أخرى لتقتيل المسلمين وذبحهم واهلاكهم واشهارهم حروبا صليبية أخرى ، ولقد شرح الله صدرى الليلة وهدانى ووفقنى أن أكتب ماجاش بخاطرى ليكون مما ينظر فيه حكماء الاسلام بفكر ثاقب عسى أن يهتدوا لاسعاد هذه الأمم الاسلامية فى أيام حياتى و بعد موتى وبالله التوفيق

كان العرب قبل الاسلام أمما متفرّقة جاهلة خاطئة فأسلمت :

(١) (فغفرت) لها ذنوبها السابقة واستأنفوا حياة جديدة

(٢) (ففصلت) لهم آيات القرآن تفصيلا وعرفوا الحقائق فصار أمرهم

(٣) (شورى) بينهم ، ثم انقلبت الشورى الى استبداد والخلافة الى ملك عضوض ومالوا الى

(٤) (زخرف) الحياة الدنيا . فهاهم أولاء أنذرهم الله البطشة الكبرى وأخذ ينتقم منهم وأرسل لهم

(٥) (الدخان) فى الجوّ لما جاءت الحرب الكبرى ، فان أوروبا كلها اصطدمت فيها بالقتال ، وازدادت العداوة والبغضاء ، ولكن كانت النتيجة تقسيم بلاد الاسلام فأصبحت أمة

(٦) (جاثية) لأمم الغرب ، ولما كان من عادة الله عزّوجل أن يجعل بعد الضعة رفعة ، و بعد الذّل عزا ، و بعد العناء راحة ، و بعد العسر يسرا ، أخذت أمم الشرق جميعها تستعدّ للوثبة ، وتجدّ لارجاع الوحدة ، فهاهم أولاء الأمراء الاسلاميون فى العراق وشرقى الأردن ونجد والحجاز واليمن قد اضمحلت بينهم العداوات القديمة وأخذوا يسترجعون لهم مجدا جديدا و يؤسسون هيكل الوحدة الاسلامية العربية ، ومثلهم أهل الهند والأفغان ومن نحا نحوهم ، فلابد من جهاد هذه الأمم كلها لاسترجاع مجدها ووحدتها ، فقد ظهر فيهم منذرون وهداة ، ذاكرون « أخا عاد إذ أنذر قومه

(٧) (بالأحقاف) وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه » ولابد من النصر والغلبة فى هذا

(٨) (القتال) الأدبى والحربى ، ثم

(٩) (الفتح) والنصر ، ثم يكون أمم الاسلام ، بل أمم الشرق بعد ذلك أمما متضامنة إجابة لقول ربهم فى سورة الحجرات « ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا »

الخلافة الاسلامية

وسينظر أمراء الاسلام فى هذه الحملات الصليبية التى تشنها أوروبا علينا ، ويفكرون فى أمر الخلافة الاسلامية فيجدونها فى العصور السالفة كانت على غير أساس ، فلذلك خرّ على المسلمين سقفها من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون ، فياليت شعرى أى خلافة كانت هذه الخلافة ، خلافة لفظية لامعنوية فأىّ خلافة صادقة بعد الخلفاء الراشدين ، إن هى بعدهم إلا ملك عضوض ، أخلافة الأمويين ، أم خلافة العباسيين بدمشق و بغداد ، أم خلافة الفاطميين بمصر ، أم خلافة الأمويين بالأندلس ، وكيف تتعدّد

الخلافة ، أم كيف يقوم مهدى وراء مهدى ، وكيف يرث الابن أباه فيها ، إن ارث الخلافة ارث خاطئ فكرة جاهلية ، لقد فرق المسلمين أحاديث موضوعة تفرّقوا بها شيعا وذاق بعض بأس بعض ، واقتفوا تلك الموضوعات بالتقليد ، ونسى كثير منهم كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون

لجنة الخلافة فى الهند

ومن أمارات اقتراب أيام السعادة أن مسلمى الهند شكلوا جماعة خاصة بالخلافة لارجاع مجدها ، إن المسلمين لابدّ لهم من الخلافة ليرجعوا لعصر النبوّة ، لكن على نهج أصحابه ﷺ لنترك نعرة الجاهلية ، وهل يكون الخليفة إلا بالانتخاب ، ليجتمع أمراء الاسلام فى زماننا أو بعده ، ولينتخبوا من بينهم أميرا هوالخليفة ، ولايجوز أن تتعدّى خلافته مدة حياته ثم بعد موته ينتخبون سواه ، بل أقول أكثر من ذلك لتكن خلافته الى مدة معينة ، و بعد تمامها يعاد الانتخاب ، ولا مانع من إعادة انتخابه مرّة أوأكثر ، فأما أن تبقى الخلافة فى أمة واحدة من أمم الاسلام ، أوأسرة واحدة ، فهذا هوأسّ الشقاق والنزاع والخلاف والعداوة والحقد . ويجب على كل من اطلع على هذا من أهل العلم فى بلاد الاسلام أن ينشره بين أمراء المسلمين ويبعثه الى لجنة الخلافة فى الهند متى كان قادرا على ذلك . وههنا يظهر معنى قوله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ويظهر معنى « كنتم خير أمة أخرجت للناس » ويظهر معنى « إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم » ويظهر معنى « وأمرهم شورى بينهم » ويظهر معنى « وشاورهم فى الأمر » . ويظهر معنى هذه الحكمة الاسلامية القديمة حكاية عن الله « اليوم أضع نسبكم وارفع نسبى » وتظهر نتائج « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » ونتائج « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » وتظهر آثار قوله تعالى « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله » وآثار « يأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أوالوالدين والأقربين » واذا كان المسلم محرّما عليه أن يشهد زورا لأجل منفعة أبيه أو أخيه ، فأولى ثم أولى أنه يحرم عليه أن يرشح لأجل الخلافة رجلا مسلما وهناك غيره أحقّ منه بالخلافة ، هذا هوالحق الصراح

أيتها الأمم الاسلامية : عار عليكم أن تشهدوا تلك المصارع والمخازى والمصائب والفضائح والجهالات المتراكمة بين العرب والعجم فى مدة ١٣ قرنا ، ثم لاتتوبون ولا أنتم تتذكرون

ألم تعلموا أيها المسلمون أن الفرنجة أيام الحروب الصليبية اتحدوا وأنتم متفرّقون ، لماذا ذلك ؟ لأنهم لهم (بابا) يجمعهم على الباطل ، فأما أنتم فقد كنتم متفرّقين ، فعبد المؤمن بالبلاد المغربية كان يرى انه خليفة (المهدى محمد بن تومرت) وهذا المهدى يجب اتباعه على جميع المسلمين ، فلما لم يعترف صلاح الدين الأيوبى فى خطابه لعبدالمؤمن بأنه أمير المؤمنين رفض مساعدته وحارب صلاح الدين بعصره هو ومن معه من المسلمين الفرنجة ، وأيضا أليس من العار الذى يخزى ويخجل أن نرى الفاطميين ببلاد الغرب و بمصرهم كانوا أوّل من مزق الأمم الاسلامية شرّ ممزّق ، وكان ذلك فتح باب لدخول الفرنجة فى بلاد الاسلام وهم لايشعرون

هذه المشاهد يجب أن يعرفها أمراء الاسلام ، ان الله عزّوجل جعل هذه دروسا لكم لتهتدوا بها ، ودعوا النعرات القديمة التى مزقت الجموع ، وشتت الشمل ، وأبانت الصدع ، وأعظمت الخطب ، وأذلت أمم الاسلام « أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لونشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لايسمعون »

يجب على جميع المسلمين أن يعتبروا بتاريخ الأمم الاسلامية ، دعوا أيها المسلمون تلك الشراهة والجهالة

والبلاهة ، بأىّ كتاب ، أم بأية سنة أيها المسلمون تكون الخلافة متجرا ، بأى حق تكون الخلافة التى تخلف النبوّة متاعا دنيويا ، الخليفة لايجوز أن يقوم بها إلا من أحيا أخلاق رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ ، ان لم يكن على منهاج هؤلاء فلتنبذوه ، أتكون الخلافة فى بجاب كحجاب العذارى كما حصل لبعض العثمانيين والعباسيين ، لا لا ، أيها المسلمون : كفى كفى ، الخلافة زهد فى الدنيا وحفظها وغرام بالأمم الاسلامية ، وحب لله ، وجمع للكلمة « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ومانزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون * اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون »

أليس مما يخجل له جبين الدهر ، وتخزى به الانسانية كلها ، وتكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخرّ له الجبال هدّا أن يتبوّأ البابا فى مكانته بروما ، وتزداد هيبته ، ويعظم نفوذه ، ويقوى جاهه ، ويشتدّ خطره ، وتقوم ايطاليا فتسبي الذرارى والنساء ، وتهتك الأعراض ، وتذل السنوسيين . كل ذلك يعلمه البابا وتحت سمعه و بصره ، والمسلمون على بكرة أبيهم لاخليفة لهم ولازعيم ، بل هم أشتات فى الأرض فوالله لم أجد أمة كهذه الأمة . كل ذلك لشرهنا وجشعنا وحبنا المال حبا جما

يقول كل جماعة من المسلمين : ليكن الخليفة فينا ، ولماذا هذا ؟ ليكون المال والسطوة لهم ويخضعون لهم سواهم كما فعل الأمويون والعباسيون والعثمانيون ، الأدهى والأمرّ أن الأقباط فى ديارنا لهم (بطريرك) والمسلمون خلو من رئيس لهم يضارعه على الأقل ، وما ذلك إلا لأن القوم يجعلون رئيسهم سواء أ كان بابا أو بطريرك منتخبا من بينهم ، أما المسلمون فانهم أبوا الشورى ، فلما أبوها أصبحت الخلافة تبع السيف ، فبنو أمية غلبوا فكانت فيهم ، و بنوالعباس غلبوا فكانت فيهم ، والعثمانيون غلبوا فكانت فيهم . لا لا . كلا . أيها المسلمون : الخليفة ينتخب ، والأمراء والمسلمون يكونون حوله ، والمواصلات اليوم متوفرة ، إن لم يجتمع المسلمون على خليفة ازداد ذلهم وخرّ عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون

أيها المسلمون : يكون ثلثمائة مليون أوأر بعمائة أقلّ من أمة القبط بين ظهرانينا التى لاتبلغ مليونا واحدا ورئيسها الدينى له السيادة على بلاد الحبشة ، أيحسن هذا بكم أيها المسلمون ؟

أيها المسلمون : أيليق بكم أن تكونوا أذل أمة فى الأرض بتفرّق كلمتكم وفيكم الجحاجيح الشجعان ، والصناديد الأقران ، والعلماء الأعلام ، والحكماء والبلغاء ، والخطباء الفصحاء

هاتوا لى أيها المسلمون أمة من الأمم محرومة من رئيس دينى ، لقد أدّبنا الله فأحسن تأديبنا ، وفعل فينا كما قال طرفة بن العبد :

لَعَمْرُكَ إِنَّ ٱلْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ ٱلْفَتَى * لَكَالطِّوَلِ ٱلْمُرْخَى وَثِنْيَاهُ بِٱلْيَدِ
مَتَى مَا يَشَأْ يَوْمًا يَقُدْهُ لِحَتْفِهِ * وَمَنْ يَكُ فِي أَسْرِ ٱلْمَنِيَّةِ يُنْقَدِ

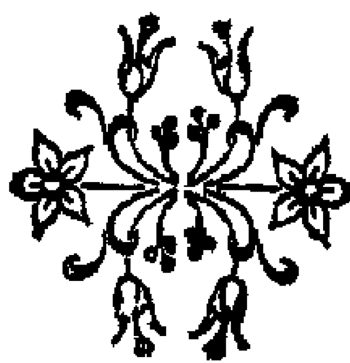
يقول : إن الانسان أشبه بدابة ربطها الموت فى حبل وتركها ترعى كما تشاء حتى اذا أراد انتزاع روحها قادها حالا لذلك ، فهكذا هنا العناية الالهية شاءت أن يكون لأمم الاسلام ١٣ قرنا يتخبطون فيها فى أمر الخلافة ، وتبقى تبع السيف ، وليس للعقل ولا للرأى ولاللشورى نصيب ، وقال فى القرآن مايفيد أنه عزوجل مامنعه أن يرسل بخوارق العادات إلا ان الأوّلين كذبوا بها ، لم يقول الله ذلك ؟ يقول الله أنا وأنا علام الغيوب ، عاملت الأمم معاملة المختبرين الذين يقيسون الامور بنظائرها ، وأنا لايخفى علىّ خافية ، فلما طغت الأمم الماضية ولم تؤمن لما رأت خوارق العادات أرسلت محمدا ﷺ وجعلت أهمّ معجزاته القرآن ، فاذا

كان

كان الله سبحانه وتعالى يخاطبنا بكلامه على قدر عقولنا ، وهوالعليم بكل شيء ، ويقول لنا : أنا لما وجدت أن الأمم السابقة لم تبال بخوارق العادات جعلت النبوّة اليوم راجعة للتفكر لالخوارق العادات ، أفليس هذا معناه أننا ننظر فى الامور ونزنها ، فاذا وجدنا أسلافنا اتخذ أغلبهم الخلافة بالسيف فكان ذلك باعثا على الشقاق والافتراق . أفليس يجدر بنا أن نقول الآن : إنك يا ربنا أدّبتنا وفعلت ،عنا مايفعله الموت مع الناس فنحن طغينا فى أمر الخلافة فأنت عاقبتنا ، وسلبت منا الملك ، وحكمت بتفريقنا جزاء تركنا الشورى ، وأريتنا أن أصغرأمم الأرض لها رئيس دينى ، ونحن (وان كنا خير أمة أخرجت للناس) لم نقم بالحق فى الخلافة ولم نعطها إلا للقاهرين ، فهانحن يا ألله رجعنا عن جهلنا السابق وامتثلنا أمرك ، فليكن الخليفة هو من يصطفيه الرؤساء والأمراء فى الاسلام ، هذا هوالذى يجب الآن

اللهم إنى أكتب للمسلمين ماشرحت له صدرى . اللهم إنى قد حذرت وأعلنت ، وعلى كل من قرأ هذا من ذوى الرأى فى أمم الاسلام أن ينشره ويفكر فيه المسلمون . وما ذكرنى به إلا مناسبات هذه السور لأنى عجبت كيف تكون سورة الزخرف بعد سورة الشورى وتكون بعدهما الدخان . وما المناسبة بين هذه السورمن حيث ترتيبها . وانى أحمدك اللهم على التوفيق والتعليم وماتوفيقى إلا بالله عليه توكلت وهو رب العرش العظيم . والى هنا تمّ الكلام على سورة الزخرف والحمد لله رب العالمين

(تمّ بحمد الله وحسن توفيقه الجزء العشرون من كتاب « الجواهر » فى تفسيرالقرآن الكريم . ويليه الجزء الحادى والعشرون وأوّله تفسير سورة الدخان)



(الخطأ والصواب)

غلبنا التصحيح ففاتنا سقط وأشياء أخرى يدركها القارئ بلاتنبيه . وهذا جدول مما عثرنا عليه من ذلك وهاهوذا :

صحيفة	سطر	خطأ	صواب	صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١٧	١٥	بعدتا	بعدنا	١٢٠	٢٩	أقاموا	أقاموا أقاموا
٣٣	١٢	المغنيين	المغنين	١٢٣	٩	منهم	فنهم
٥٢	٢٠	بسبب	سبب	١٢٥	١٨	فيعول	فيقول
٥٤	٢٣	بمادة والحياة	بمادة الحياة	١٢٦	٢٣	لانقل	لاتقل
٥٦	٩	مختلفين	مختلفتين	١٤١	٧	وهم	أهم
٦٢	١٨	صخور	الصخور	١٤١	٢٥	معنى	فى معنى
٦٢	٢٣	كالأعلام	. . . .	١٤٤	١٦	ما	من
٦٤	٢٠	عن الارض	عن الشمس	١٥٥	٣٢	يحجب	يحجبان
٦٤	٢١	وأبعادها عن	وأبعادها وأحجامها	١٦٣	٢٠	قبل	ذلك
		الشمس تقرب	تقرب مما	١٦٣	٢٤	رئيس الجمهورية	رئيس النصرانية
		من أبعاد الأرض	للأرض	١٦٥	٢	أصل	أصله
		عنها		١٧٣	٢٦	النوّاب	النوّاب
٦٤	٢٩	كيلومتر	مليون كيلومتر	١٧٤	٢٣	حق معتربا بهم	من يعتريهم
٦٤	٣٤	»	» »	١٩١	٢٥	تتحد	تتخذ
٦٨	١٢	وعده	وعد	١٩١	٢٧	الموازنة	الموارنة
٧٤	١٩	أمس	وأمس	٢١٧	٩	وأمور	وأمورا
٧٥	٨	الا	الاعلى	٢١٨	١٦	خطى	خطا
٧٧	١٨	وأما	وما	٢٢٠	٤	آمادا وآمادا	آماد وآماد
٧٧	٢٧	ببيانه	ببيانها	٢٢٠	٣٣	لأسأله	. . .
٧٧	٢٩	٣٠٥٦	٣٥٦	٢٢٣	٢٣	بلا رابطة	بلاواسطة
٧٧	٣٠	وادرانوس	وأورانوس	٢٢٦	١٤	مصنعه	مصطنعه
٧٨	٧	قدوه	قدره	٢٣١	٥	كبرنا	تذكرنا
٧٩	٤	العلوم	العلق	٢٣١	٨	المريخ	المشترى
٨٢	٩	٣٤٩	١٣٤٩	٢٣٥	١٨	تمنع	تمتع
٩١	١٢	الروائح	الروائع	٢٣٦	١٨	القتال	فى غاية البساطة ثم
٩٢	٢٥	أجزاء	إلا جزءا				ان الخلد يحفر
٩٣	١١	بالآلى	باللآلى	٢٣٦	٢٤	أوالتعه	أوالتفه
١١١	١٠	التداخل	التدخل	٢٣٨	٢٣و٢٤ و٢٥	قسمناه عليه	قسمنا عليه
١١٦	١٢	والروم	والروم فيه				

فهرست

فهرست

(الجزء العشرين)

من كتاب الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

صحيفة

صحيفة

تصيد العصفور الذى يصيد الجراد الذى يأكل الزنابير اللاتى تصيد النملة التى تصيد الذبابة التى تصيد البعوضة ؟ وهذا كله منفعة وصفاء للجو ، و بغير ذلك يكون الفناء العام

١٧ تناسل الحيوان واختلاف تغذيته ، المنى يصل لرحم الأنثى فى الانسان وكثير من الحيوان والهواء يفسده وقد يلقى المنى على نفس البيض كالسمك والسفاد إما فى وقت معين ، واما فى وقت غير معين ، والذكر قد يعلو الأنثى ، وقد يدابرها ، وقد يلصق جنبه بجنبها ، ويختلف فى تغذية صغاره ، فيكون بالارضاع أو بأن يزق أولاده كالحمام ، أو بأن يسعى بأولاده كالدجاج ، وقد يشترك الذكر والأنثى فى ذلك كالعصافير والانسان ، وقد تنفرد الأنثى بذلك كالحجل والدجاج

١٨ اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان ، وأن المؤلف فسرت هذه الآية له فى المنام واستنتج من تفسيرها دليلا على اليوم الآخر ، ذلك أن العالم كله موزون بموازين حقة كالكواكب وجريها وتركيب النبات والماء وكل شىء فكيف يعم الميزان كل شىء ويبقى هذا الانسان غير موزونة أعماله ، وكيف تكون موزونة إلا اذا كان كل عمل له جزاء ، والجزاء فى الدنيا لم يظهر جميعه ، فالأرض مملوءة ظلما ، إذن ذكر القيامة بعد ذكر الميزان تميم للميزان ولولاها لكان كل شىء موزونا إلا أعمال الانسان ، وهذا هو الذى نفهم به « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا » وغيرها من الآيات ، ويقرب من هذا أن جميع أهل الأرض يعتقدون فى خالق لهم ويعينونه بما يناسب عقولهم ، وانهم يزورون موتاهم وان اختلفت نحلهم ، فلو كانت أرواحهم معدومة ما اتفقت فطرهم على تلك الزيارة

٢٠ اللطيفة الخامسة فى قوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » وأن النبى ﷺ استشار أصحابه فى غزوة بدر ثلاث مرات ، وقال سعد بن أبى وقاص فى المرة الثالثة « فاظعن حيث شئت الخ » وقال المقداد لانقول كما قال قوم موسى الخ وحديث البخارى أعتق ﷺ سبى هوازن وكلم العرفاء ، ثم انه جعل أبا بكر وعمر ملازميه يستشيرهما ، وعين عمر لما طعن ستة رهط من قريش مستشارين فى الخليفة بعده

٢٢ جوهرة فى قوله تعالى : وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ، والكلام على أهل الهند الذين يرون أن الانسان بعد الموت يكون فى حال تشبه حاله فى الدنيا ، فالأشرار يتناسخون والأبرار يتنعمون . هم أهلوا الطبيعة فعددوا الآلهة ولكنهم لم يعتقدوا إلا إلها واحدا . وذلك سر عندهم . يقولون إن العالم من الله واليه يعود . والروح بعد الموت لها جسم نارى . الانسان نور من الله . للهنود نساك فى الغابات تعلم منهم (خريستا) سنة ٤٨٠٠ ق.م وهو يقول : « إن النفس سرمدية الخ » ولابد من طلب الوحدة . وفى باطن الانسان صديق وقل من يعرفه الخ وجاء (بوذا) سنة (٦٠٠ ق.م) وقال « لاتقتل لاتسرق الخ » وفائدة هذا فى الآية ما يأتى : إن التناسخ لم يظهر قبل خريستا بل ان الروح لها جسد نارى فهى أقرب الى تعاليم الاسلام . ولما جاء خريستا قال بالتناسخ . ووصايا خريستا روحانية معنوية . ووصايا بوذا ترجع الى الظواهر . وقول الهنود : « إن الله فى باطن كل امرىء » والله يقول « وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ماتكسبون » ويقول « وهو معكم أينما كنتم الخ » وبيان رأى علماء الاسلام ورأى المؤلف وأن الذنب لا يكون إلا من النقص والله يرقى النفوس بالألم كما يرقيها بالعلم . وأن النفس الشريرة تلاقى ألما والبارة تلاقى نعما

٢٥ الكلام على رأى الأرواح وأنها تعطى تعاليمها على حسب استعداد السامعين كما أن تعاليم الديانات تكون على حسب عقول الأمم . ثم ان اعتقاد قدماء المصريين مشتق من اعتقاد الهنود الذين اتبعوا خريستا

وقد

صحيفة

وقد جعلوا للانسان جسما فانيا وجسما روحيا وقلبا الخ وهى (٩) وقد ظهر للمؤلف أن تحنيط الجثث عند قدماء المصريين لم يظهر إلا بعد ظهوردين خريستا بنحو (٣٠٠ سنة) وجعلوا لهم ٤٢ قاضيا ولهم ميزان وهكذا ، والمصريون فهموا التناسخ محرّفا فوقفت عقولهم عند الجسم الانسانى الذى يعيش فيه الآن فخلطوه وحفظوه ، فترى الهنود يحرقونه والمصريون يحفظونه وكل يسير على مقتضى فهمه ، ومما ساعد على عقيدة التحنيط قصة خيالية عند المصريين : يزعمون أن أوزيريس أخذ معه توت وفتح الأرض فحسده سيت فوضعه فى صندوق ورماه فى النيل ، فأرجعت زوجته (ايزيس) الصندوق فعثر به (سيت) فقطعه (١٤) قطعة ودفنها مفرّقة فجمعتها زوجته وحنطتها ، وهذه هى السبب فى شيوع التحنيط عندهم

٢٨ اللطائف العامة للسورة كلها

خيل للمؤلف انسان جسمه من النور يقول له : خيالك تبع علمك ، واذا كانت مسرّتك الآن تكاد تكون فوق طاقتك فان روحك بعد الموت تزيد قوّتها على اللذات ، أنت الآن تتخيل أن العالم موسيقى وهذه المناظر المتجلية لك الآن بعض أسرار « حم عسق » . فقال المؤلف مادليل ذلك ؟ فسأله الطيف ست مسائل : ومتى أجاب المؤلف الطيف عنها تجلى له فعلا معنى البسملة ومعنى « حم عسق » فأجاب عن الموسيقى عند القدماء والعصريين وهما السؤال الأوّل والثانى بما يفيد أن الزير والمثنى والمثلث والبم ترجع الى ٢٧ طاقة من الحرير و٣٦ و٤٨ و٦٤ على الترتيب وهذه مناسبات للأرض والماء والهواء الخ ، هذا فى القديم ، أما فى الحديث فالموسيقى (١٠) دواوين (١٦) موجة فى الثانية و٣٢ و٦٤ وهكذا على طريق المتوالية الهندسية ، وقال فى جواب السؤال الثالث : إن أبعاد السيارات تكون على حسب الأرقام التالية (٣-٦-١٢-٢٤-٤٨-٩٦) وباضافة (٤) تظهر الحقيقة وهى هكذا : عطارد الزهرة الأرض الخ وهكذا قال فى الحجر النازل من أعلى يقطع (١٦) قدما انجليزيا فى الثانية الأولى ، واذا ربعنا الثوانى وضربنا المربع فى (١٦) يكون ذلك حاصل ماقطعه الحجر جميعه ، وهكذا أمر الصوت والنور والحرارة والجاذبية إذ تكون على عكس مربع البعد ، وعن السؤال الرابع والخامس والسادس بما يفيد أن هذه المجرّات والشموس والسيارات قد صارت حفلة بهجة ، وكأنّ نورها انقلب نغمات ، وهل يتم ذلك كله إلا بنفوس عالية دبرتها . والدليل على ذلك أن النبات لن يعيش إلا بغذاء من الأرض ، وهذا الغذاء لاينتفع به النبات إلا اذا حلله (الفطر والبكتريا) فهذه نباتات لاترى تخدم النباتات التى ترى ، واذا احتاج النبات الى فاعل يفتت غذاءه فمن باب أولى المجرات والسدم وكواكب السماء فهى فى حاجة الى نفوس تحفظها ، وهذه النفوس العالية لها مدبر وهوالله ، فهذا برهان من الطبيعة ، وهذه الكواكب من آثار رحمات ذلك المدبر الحكيم والرحمة لاتتم بلاعلم «حم» للرحمة والحمد ، الرحمة مبدأ والحمد نهاية ، وكلاهما لايتمّ إلا بعلم ، علم الله فرحم ، وعلمنا فحمدنا وفى العلم (ع) وفى العلىّ والعزيز والعظيم كذلك ، والرحمة فى البسملة ، والحمد فى « يسبحون بحمد ربهم » وهؤلاء الملائكة بسبب علمهم بربهم ونظم السموات يسبحون . السين فى التسبيح والسموات وبهذا نزل الوحى وهوالقرآن . (ق) فى القرآن وفى من قبلهم

٣٢ منافع الموسيقى العلمية وضرر الموسيقى العملية ، إن الأمم الاسلامية سرى فيها داء الشعر العربى والغزل ومعظمه يؤدّى الى الفجور . وقولهم : « انه يعرّف أسرار القرآن » لا يكفى العاقل وقدضاعت الأندلس وغيرها بسبب الخلاعة كما فى كتاب الأغانى وغيره . ولم يجز علماء الاسلام الموسيقى إلا اذا خلت من

صحيفة

التذكير بالشهوات . وهـذا نادر جدا . فالحق أن هذا اللهو أهمّ سبب فى ضياع هذه الأمة المسكينة . وقد أنحى سقراط على طائفة الشعراء بل على (هوميروس) نفسه ، ويقول : « هؤلاء لاحقيقة عندهم فهم كالرسام وهو الدرجة الثالثة فى المعرفة ، وهو اذا رسم اللجام فالصانع قبله وراكب الفرس قبلهما ، فهو راسم للمعقولات لامتعقل » إذن هو خيالى وآية « حق عسق » جاءت رمزا لنظام العالم العلوى والسفلى ، وهذه موسيقى علمية وهى المطاوبة ، أما الشعر والموسيقى فعلى الضد من ذلك

٣٤ ﴿ اشراق شمس هذه المقالة ﴾ : (حم) انبعاث النفس للعلوم (ع) اقتناس النفس بذلك إذ يتجلى للنفس العزّة والعلوّ والعظمة ، ثم يكون الاقتباس بالتسبيح والافاضة بالاستغفار ، وهنا تظهر صفات التنزيه وصفات الافاضة والخلق والرحمة

٣٦ ﴿ حم عسق ومغارة أفلاطون ﴾ ان الذين فى مغارة أفلاطون كانوا فى ظلام أمامهم نور آت من نار ، وهناك صور رسمت أمامهم فظنوها حقائق ، فخرج رجل عرف الحقائق فى الأرض فرجع اليهم فعلمهم فهنا فى المغارة صعود فعلم فتعليم ، وفى (حم عسق) صعود عن المادة فمعرفة بالله ثم تعليم للناس

٣٩ جوهرة فى آية : الله الذى نزل الكتاب الخ و بيان أن المتعلمين فى بلادنا أكثرهم نبذ الآخرة وكذبها ولكن هذا الكاتب ألقى محاضرة ملخصها أننا نولد فى بحر خضم تائهين من أين والى أين ولم خلقنا ، لو أننا أغمى علينا ونقلنا الى مستشفى ثم أفقنا لسألنا من حولنا ماهذا ؟ فاذا أجابونا استرحنا ، فأمر الحياة أولى بالسؤال من ذلك :

(١) أجبنا نعيش ٦٠ أو ٧٠ سنة ثم ننتهى

(٢) ليس عندنا تاريخ إلا لستة آلاف سنة وماقبله مجهول

(٣) مستقبل الانسانية مجهول

(٤) حياتى وحياتك عدم بالنسبة لهذا الوجود

(٥) بل هذه الأرض ستصير هباء منثورا

(٦) مصر وغير مصر جزء من الأمم الأرضية ، والأرض شظية من نظام الشمس وهو شيء يسير

(٧) اذا كان وجودنا على هذا المعنى وهو أن نعيش (٥٠) أو (٦٠) سنة فان الأحياء جميعا حمقى جهلاء فكان يجب عليهم الانتحار ، هذه السنين لاتساوى مصيبة واحدة أو مرضا أو حزنا واحدا

(٨) واذا قلنا ان المدار على حياة الانسانية كلها وهى مرتقية ، فمعنى هـذا أن تعذب آلاف الأجيال لأجل جيل واحد يسعد ثم يفنى ، وهذا أيضا جهل ، هذا كله ضلال

(٩) الانسان ارتقى فى البرّ والبحر ، وسخر المادة ، وارتفع ارتفاعا مدهشا ومع ذلك هو عرضة للموت بنسمة الهواء وجرعة الماء الخ ، هذه أحوال متناكرة ، فأين الحقيقة إذن ؟

(١٠) الحقيقة أننا قبس وشعاع من معلم أودع فينا الآلام واللذات ، وهما مهمازان يدفعان الانسان للرقىّ ، وهذا التلميذ يتعلم فى مدرسة الوجود ويرتقى تابعا معلمه والتجارب هى الدروس ، ولقد ارتقى الآن فأخذ يسمع الشرقىّ مايقوله الغربى ، وليس صغرنا وصمة بل فى قلب كل منا سرّ الوجود ، وهذا القبس الذى فى نفوسنا أعلى من الأرضين والسموات وميزان الحياة يكون بالمكارم والفضائل تقليدا للعلم الأكبر لابالدور والقصور ، فكل أعمال الحياة آلات مقصودة لغيرها ، الحياة مدرسة والتلاميذ درجات بعضها فوق بعض

صحيفة

وهنا موازنة بين هذه الخطبة وآراء أفلاطون : انه لايرى أحدا يصلح للحكم إلا الفيلسوف لأنه وقف على الحقائق ولا حقائق إلا ما كان ثابتا لاينعدم ، فالثابت يعلم ، والمتردد بين الوجود والعدم يتصور ، وإدراك المعدوم جهل ، وكل ما نسمعه أوننظره متردد بين الوجود والعدم ، فادراكه ليس بعلم ، وهو لاينبغى الفرح به ، إذن يجب جعل هذه المتغيرات وسيلة لمعرفة ماهو ثابت وتكون نفس الفيلسوف مغتبطة بذلك سعيدة ، أما النفوس الأخرى فهى مترددة بين السرور والألم بوجود مافرحت به و بعدمه فهذا قول أفلاطون ، فهو يعوّل على الدائم لاغير ، هكذا الخطيب يحقر الحياة التى لاتدوم وهو حق

٤٤ الفيلسوف الحقيقى غيرمدعى الفلسفة ، فالأول يدرك الموجود الحقيقى ، والثانى يكتفى بالظاهرى ، وهنا محاورة بين سقراط وغلاوكون إذ وصف الذين لاهمّ لهم إلا سماع الجوقات والأغانى والمعجبين بالجميل من الأصوات والأشكال والألوان والصور وكل ما أنتجه الفن فلاسفة زائفين ، ووصف من عرف الجمال المطلوب ، وأكبّ على دراسة كل علم ، وأحبّ جميع العلوم وعشقها بأنه فيلسوف ، وهنا جعل للعلم منطقة وهو كل ماهوثابت ، وللجهل منطقة وهو المعدوم ، وللتصور منطقة وهو المتردد بين الموجود والمعدوم ، وهنا أظهر الجمال المطلق والعدالة المطلقة بأن كلا منهما وحدة والظواهر كثيرة ، فالمفتون بالأشكال والأصوات مغرور ، ولكن المدرك للجمال المطلوب هو الفيلسوف السعيد : فالحقائق غير هذه الظواهر

٤٩ الجوهرة الثانية فى ذكر ماخطر بقلب المؤلف ليلة ٥ رمضان سنة ١٣٤٩ هجرية ، ينادى المؤلف أهل الأرض وقد رأى الدنيا قد ازّينت له بهيئة جميلة ، و يقول : ايه يا أهل الارض ، يظهر لى انكم كنتم فى عوالم جميلة فلم تصلحوا لها فطردتم منها ، ولعل أرواحنا أشبه بالموادّ التى لم تهضم فى المعدة فخرجت بهيئة قذرة فصلحت سمادا فعادت ثانيا فاكهة ، إذن نفوسنا شريفة عرض لها الدنس ولابد من رقيها ثانيا ، الانسان فى صباه لايحب إلا نفسه ، واذا كبر ودرس أخذ يتسع حبه للولد والأهل والعشيرة ، فالشحاذون و بعض رجال السياسة والمحتالون كلهم صبيان الأمم ، ومن عجب أن هذه النفوس مع انها لاتحب إلا لذاتها وحدها ، أحيطت بالجمال ليكون سببا فى ارتقائها ، ولقد عمت الرحمة قلوب الحيوان لصغاره ، وهذه كلها مظاهر رحمة وجمال إلهيين ، الله سلط بعض الناس على بعض بالحرب كل يحارب لمنفعة نفسه وهذا قد استخدم للنفع العام كما ان الحرب العظمى أعقبها الكلام فى السلام العام وفن الطيران ، وهذه المواد المستخرجات من نفس الآزوت فى الحرب جعلت فى السلم سمادا ، وملخص هذا أن هذه الأرواح أحيطت بالجمال والرحمة لتتذكر فترجع الى عالمها

٥١ هذا كله من أسرار (حاء و باء) أى (حب) وهذا الحب هوالمذكور فى آية ابراهيم « فلما جنّ عليه الليل الخ » فانه ذكر الكوكب والقمر والشمس و « قال لا أحبّ الآفلين » فلفظ الحب هو سرّ الأسرار لأن المقام مقام عبادة لامقام حب ، فلما ذكر الحب عرفنا المقصود لأن العبادة القائمة على الخوف ضعيفة ، أما المبنية على الحب فهى المقصودة وهى الملازمة لليقين ، واقتران الحب بعدم الافول موافق كل الموافقة لقول أفلاطون : « إن مالابقاء له لايتعلق به علم ولاحب ولارغبة الخ » وهنا تعجب المؤلف من تعبير القرآن بالحب هنا ، وأظهر أن هذه يعجز عنها كل فيلسوف فى الأرض فكيف تجتمع خلاصة الفلسفة فى الحاء والباء ، والحب على مقدار معرفة الحقائق قلة وكثرة

اللطيفة الثانيــة فى قوله تعالى : « وهوالذى ينزّل الغيث الخ » وذكر الأشجار التى يرجع تاريخها الى ماقبل ١٥ مليون سنة

صحيفة

وأيضا جثث الغرقى تطفو لظهور الغازات فيها بعد أيام

٦٧ الأوزان النوعية للاردواز والبلاتين والحديد الخ . الآيات على قسمين : آيات فى الرياح وقد تقدمت وآيات فى نفس السفن ، ولولا حفظ ذرات الماء لاختل سير السفن ، فهى محفوظة كما حفظت الكواكب فى مداراتها

٦٨ قطرة الماء اذا بلغ حجمها حجم الأرض فان الجزىء منها لايبلغ حجم رملة ، وهذا دليل على شدة صغر المادة ، فهل يجمعها إلا قوّة التماسك ، وكما أن الماء أساس الوزن النوعى هوكذلك أساس الوزن الصناعى ، والاناء الذى طوله وعرضه وعمقه متر اذا ملأناه ماء بلغ ٢٢ قنطارا و ٨ أقات وهوالطنولانه فالماء بثباته أرانا الوزن النوعى والصناعى ، وهل يفهم هذا كله إلا صبور على الدرس شكور على ماعلم

٦٩ جوهرة فى قوله تعالى : « ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام الخ » مع آية : « فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا الخ » وفى هذا المقام بيان عجائب البحر مثل (الكاشولات والروكال) البالغ طوله (١٢٠) قدما ، وعمق البحر (٢٧٥٠) قامة ، والنور لايبعد أكثر من (٢٠٠) قامة والسمك يخرج النور منه نفسه ، والمرجان له جزائر يبنيها كما تبنى الأرضة فى البرّ ، والماء سهل المسير (٧٠) مرة

٧٠ الانسان ومغالبة البحار : ملاحة الأنهار . علاقتها بالسكك الحديدية والقنوات . ملاحة البحار والمحيطات مراكب التجارة . والموانئ وأنواعها . وأشهر الموانئ التجارية . الموانئ المصرية . تأثير القنوات . الملاحية فى تجارة المحيطات . قناة السويس . قناة بناما . لقد كانت الأمم قديما تكتفى بأنهارها كمصر ومابين النهرين ، وكانت تكتفى بما فى بلادها ، والطرق البرّية بين الممالك كانت متأخرة وخاصة بالمواد الغالية ، وذلك لخوف اللصوص وصعوبة النقل بالدواب ، ثم انتقل الناس من الأنهار الى البحار ومن صنع الخشبة فوق الماء الى البوص المحزوم الى الكتل الخشبية المفرغة فالهيكل المحوط بالجلد فالقارب المصنوع من الخشب ، ثم ظهرت السكك الحديدية مع الأنهار ليتمّ الانتفاع ، مثلا حوض الأمازون تجرى المواصلات فيه وفى فروعه ، والشلالات الكثيرة فى الفروع تعيق الملاحة فتنقل البضائع برّا بالسكك الحديدية ، وحوض الكونغو من أمثلة اكتمال التجارة النهرية بالسكك الحديدية والشلالات من خواص الأنهر العظيمة الافريقية ، وهى أيضا كانت سببا فى تباطئ كشف افريقيا . النيل يمتدّ من الشلال الأوّل الى البحر الأبيض (٧٠٠) ميل ونهر النيل سكة الحديد بجانبه ثم تنقطع لضيق الوادى وتبتدئ عند حلفا فى حوضه الأعلى الى السودان ، والأنهار تسعف فى نقل الأحمال الثقال كالفحم ، وأنهار الملاحة فى أوروبا مشتبكات نافعات فى الملاحة مثل الرين والرون والألب وهكذا . والمسيسيبى وفروعه عماد للحركة التجارية فى أمريكا . مراكب التجارة عند الرومان أقصى محمولها ٥٠٠ طن فأخذت تزيد حتى صار محمول بعضها فى زماننا أكثر من ١٢٠٠٠ طن بل ١٥ ألف طن ، فضوعف المحمول ٣٠ مرة . ثم إن الموانئ التى على مصب النهر مثل لندن وليفربول وهمبرغ نافعات للتصدير الى الخارج والداخل معا . والموانئ الطبيعية مثل موانئ بلاد النروج نموذج للموانئ الصناعية فصنع الناس نظيرها فى الاسكندرية وميناء دوفر . إن ميناء ريغا على البلطيق . وميناء سان لورانس فى كندا تغلقان فوق ربع السنة لأجل الثلج فنظامها كنظام الليل والنهار سكون فحركة . ولقد وصل الناس البحر الابيض بالبحر الاحمر كما حفروا قناة بناما فاتصلت الأمم وزادت التجارة

٧٦ مباهج العلم ومناهج الحكمة فى ملخص سورة الشورى :

(١) القرآن العربى

صحيفة

(٢) ملك السموات والارض

(٣) نتائجهما

(٤) التوسط فى انزال الرزق لحكم

(٥) ذكر ما لدينا من الحيوان

(٦) والقرآن ينذر به الناس

(٧) وهذا الدين ليس بدعا

(٨) وهو ﷺ مأمور أن يستقيم كما أمر

(٩) وأن يعدل بين الناس

(١٠) والله أنزل الكتاب بالحق الخ

(١١) والله اتصف باللطف

ولأخص الكلام بأمرين : نظام السموات ، ونظام القرآن ، وأن نظام سير الشمس والقمر يتبعه المد والجذر ، إن البحر ينخفض ويرتفع كل يوم مرتين ، وأوقات المد والجذر تتأخر كل يوم (٥٠) دقيقة بحسب تأخير مرور القمر بمستوى الزوال ، وارتفاع المد يوجب انخفاض الجذر كثرة وقلة . وينسب الارتفاع والانخفاض الى ميل الشمس والقمر ، وكما أن البحار ومدها وجذرها مرتبطات بالشمس والقمر هكذا النباتات تتبع فى زرعها سير الشمس . فانظر زراعة القمح فى هاتور والحلبة فى كيهك وهكذا الباقى تقدم فى سورة الزمر . إذن عالمنا جسم واحد

٨٠ خطاب المؤلف ربه . وبيان فرحه بهذا الجمال

٨١ خطاب المؤلف للمسلمين : أما نظام القرآن ففيه فصلان : الفصل الأول فى أن القرآن عربى . الفصل الثانى فى ذكر أم القرى ومن حولها ﴿الفصل الأول﴾ تقدم فى سورة فصلت . وأما ﴿الثانى﴾ وهو تخصيص أم القرى فبيانه أن فارس والروم كانتا تحكمان أغلب بلاد العرب . ثم ظهر الاسلام فغلب الأمتين وحكم البلاد فعم الامن ، وحادثة العقبة شاهدة لذلك بالعهد الذى كتبه ﷺ لأهل ايلة ، وهكذا حادث قبائل البجه وهم من البربر وكانوا يسكنون البلاد من سواكن الى قوص ويؤذون المسلمين فحاربهم المأمون وغلبهم وكتب عهدا لهم بيد عبد الله بن الجهم ، وبهذا العهد حقنت الدماء وأمنت الطرق

٨٤ ذكر تعداد المسلمين فى بلاد الاسلام مثل ان فى بلاد الهند الصينى والعسين ٧٠ مليونا ، وفى بلاد الهند وماجاورها ٧٥ مليونا وهكذا حتى يبلغ مجموع بلاد الاسلام (٣٥٠) مليونا

٨٥ ويلى هذا كيف يتحد المسلمون ، وبيان انهم كالجسد الواحد فيجب أن يكونوا جماعة تكون أشبه بالرأس ولتكن لهم فروع يمتدون الى بقاع الأرض ، والفروع قسمان : قسم لنشر العلم ، وقسم يدرس أعمال أوروبا ، وهؤلاء يقاطعون كل دولة تعتدى على الاسلام فتجب مقاطعة تجارة كل دولة تؤذى المسلمين

٨٧ فصل فى أن الكعبة دارندوة وهذه نعمة على المسلمين بل معجزة كبرى لأنه ظهر أنها اليوم أعظم مرجع للمسلمين وهم معاقبون اذا لم يؤسسوا هذه الجمعية ، من ذا الذى كان يعلم الغيب وأن الكعبة ستكون مرجعا للمسلمين ، وبهذا تم الكلام على القسمين قسم السموات وقسم انزال القرآن الخ

٨٩ وههنا خطاب وجهه المؤلف لعموم المسلمين ، وشرح المجرة والسيارات ثم النبات وأوراقه وثمراته ، وقال ان هذه كلها كجسم واحد ثم شرح اتصال الأمم الاسلامية فى مكة وهذه أمة العرب جمعها الاسلام واللغة

صحيفة

٩٦ وتقارب الوطن ، فاذا لم تبادر بالاجتماع فان الله مهلكها لامحالة ، و بينها و بين الفرس والترك علاقة ، فلتكن العلاقة معهم أيضا ، وليعم التعليم فى هذه الأمم لاسيما التاريخ ، وهناك تكون السعادة المستقبلة ولاجرم أن الأنبياء أرقى فى السعادة من الدارسين من نوع الانسان ، والأب والأم ضربهما الله مثلا من حيث حب أطفالهما للأنبياء وأممهم ، واذا كان الأب يربى ولده رحمة وشفقة وحبا هكذا الأنبياء بل خلفاؤهم أيضا عندهم هذا الحب وان كانوا أقل من الأنبياء « قل لا أسألكم عليه أجرا » . ان أعظم سعادة فى الدنيا سعادة الحب ، واذا وجدنا كاتبا فى زماننا يضرب مثلا لسعادة المحب بما يبدو من محبوبه ويقول : « إن الكاتب الفكاهى يتلمس سعادته من السامعين والمتكلم سعادته بأن يسمع حديثه الناس ، والرجل يسعد بحب امرأته ، واذا أتى لها بالمشمش وأكلته فرح وسعد والعاشق يفرح بأكل محبوبه العنب ، وههنا أفاض الكاتب بذكر انبعاث الحياة فى الطبيعة وبذكر النسيم والعشب والكلأ وضوء الشمس والقمر ، فاذا كان هذا تصور كاتب لاعلاقة له بنظام الأمم فى هذا المقال ، وسعادة المجموع المرتبط كجسم واحد فكيف حال الحكماء والأنبياء الذين يجمعون الأمم ! ان سعادتهم لاحد لها

٩٧ اللطيفة الخامسة فى قوله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا » . إن هذه الآية يناسبها ماجاء عن الشيخ الدباغ ، و بيان أن هذا ليس وحيا لأنه ليس نبيا بل هذا مذكر للناس فقط ، فهم كالينابيع ، وعلى كل مسلم أن لايذر شجرا ولا حجرا ولا مدرا ولا حكمة إلا فكر فيها بعقله

٩٩ فهم الصحابة القرآن ونشروه فى الأرض فخلف من بعدهم خلف أضاعوا ماجمع آباؤهم واكتفوا بالقشور وأحرقوا الكتب فحرموا من العلم ، وقد كتبت ثمرات العلوم المحروم منها المسلمون فى هذا التفسير ، ففى أيام جهلهم قيض الله لهم معلمين أميين مثلهم ليعقلوا عنهم فليسوا أنبياء ، وقد جرى بينى و بين عالم من علماء مراكش هذا الحديث . فقال : « إن الشيخ الدباغ أتى فى تفسير الحروف فى أوائل السور بما يفوق طاقة الانسان فى المعارف فكيف هذا ؟ إذ يقول فى معنى (ص) : « أنها بمعنى الفراغ ، فكل امرئ له فى نفسه نعيمه أوجحيمه يلازمه فى فراغه ، وكل امرئ بنفسه مشغول فكأنهم واقفون بين يدى الله تعالى ، ولوعلموا الحقيقة ماخالف أحد منهم ربه الذى هو الآن واقف بين يديه » ويقول : « إن تكبيرة العيد سبعا وستا فى الركعة الأولى والثانية بها يشهد المصلى المكونات التى فى الأرض الأولى وفى السماء الأولى ويشاهد المكون سبحانه لأنها أفعاله وهكذا الى السابعة سماء وراء سماء ، وأرض وراء أرض ، وفى الركعة الثانية يشاهد ماخلق فى اليوم الأول وهو يوم الأحد فى التكبيرة الأولى ، وفى الثانية ماخلق فى اليوم الثانى وهكذا الى السادسة ، ولكن فى الركعة الأولى يشاهد أصول المخلوقات فى السموات والأرضين السبع ، وفى الركعة الثانية يشاهد المخلوقات اجمالا فيهما ، ومن فتح الله عليه فلا كلام فيه ، ومن لم يفتح عليه فليستحضر ذلك اجمالا وليفرح بربه فى كل عيد ، فالله لايخرجه من الأرض حتى يطلعه هذا الاطلاع » وقال أيضا : « إن التكبير ثلاثا عقب ١٥ فريضة من ظهر يوم النحر الى صبح اليوم الرابع يلاحظ العبد فيها :

(١) خلق الانسان من نطفة

(٢) ثم كمال خلقه

(٣) ثم فساد صورته

والصوفية يستعملونه قبل السلام فى كل صلاة » . فلما أتم سؤاله أجابه المؤلف بقوله : « إن المسلمين

صحيفة

لما كرهوا العلم والحقائق قال الله لهم : ياعباد أنا أعلمكم بقوم أميين مثلكم لأن الله رحيم بعباده ، ولا جرم أن الصالحين كثير فى بلاد الاسلام و بعض هؤلاء الصالحين و بعض علماء الدين وجميع الأمم المستعمرة أشبه بالعنكبوت يصطاد الذباب والله أنطق أمثال الدباغ بالحكمة ليصدق الجاهل بماسمع من قول فوق طاقة الناس وليكون هؤلاء أشبه بأوتاد لتمكين الاسلام و بقائه ، واذا قامت النصرانية بالتبشير فليقم الاسلام بنصر من الله وفيض على بعض عباده

١٠١ حكم أرباب القلوب وتفسير الجواهر كلاهما من مصداق قوله تعالى : « وما كان لبشر الخ » مع قوله أيضا « سنريهم آياتنا الخ » وذلك ان ما قاله من استحضار مافى السموات ومافى الأرض من العجائب عند التكبير فى عيد الأضحى هو عينه الذى يقال فى هذا التفسير ، إن هذه الأمة أمة واحدة فان عصر الصحابة كان مملوءا بذكر الله و بالعلم ، ثم تجافى المسلمون عن التفكر واكتفوا بالقشور جيلا فجيلا ، ثم حرموا علوم الحقائق فى السموات والأرض وناموا نوما عميقا فأرسل الله لهم نفوسا أمية رمزت لهم بما صرح به القرآن وعرفه الصحابة والتابعون ، وجاء تفسير الجواهر فأوسع المجال للنظر فى هذه الدنيا ، إذن الأمة الاسلامية اتصل آخرها بأولها فكأننا فى زمن النبوة فان عصر الصحابة المملوء بذكر الله أعقبه رموز الصالحين ، ثم جاء دور عصرنا ، فسترجع الأمة الى أن تعرف كل شيء بعقولها ، ومامثل المسلمين أيام جهلهم إلا كمثل الأرض أيام تركها بلاسقى ولازرع فانها تخرج حشائش ضارة تمتلئ حشرات ، ويقل فيها الشجر المثمر ، فهذه الأمة الاسلامية قل فيها أمثال الدباغ وكثر فيها الدجالون ، وفى الزمان المقبل سيفعل خلفنا فى الاسلام مايفعله الزارعون لأرض متروكة إذ يزرعونها ويبيدون حشائشها ، والمؤلف لايشك أن الأمم الاسلامية بعد أن تقرأ هذا التفسير تحقر التباعد المزرى لأجل خلاف فى عدد الركعات أوالتكبيرات لأن هذا خلاف بسيط لاضرر فيه ويجتمع المسلمون على مافى هذا التفسير حتى الصوفية لأنه يحض على معرفة جمال الله تفصيلا ، وهذا هوقول أمثال الدباغ وغير الدباغ اجمالا

١٠٥ جمال العلم وبهجة الحكمة ، وههنا سؤالان : أولا ان الدباغ يقول : « الجنة والنار يستدل عليهما بنفس المظاهر الطبيعية » والمؤلف يقول : « إن الذباب والطيور والأنعام تختلف أغذيتها باختلاف أنواعها فاستنتاج الجنة والنار من هذا عسير » — ﴿ ثانيا ﴾ ان العفونات ومايقابلها من الشهوات يعوزها الايضاح . فأجاب المؤلف عن السؤالين بأن فى العقل مناطق لتربية الآراء كما ان فى القناة الهضمية مناطق لهضم الغذاء . فاذا كان فى الفم (٦) أنهر لهضم المواد النشوية وأسفل منه البنكرياس وغدة الصفراء وعصارات المعدة والامعاء ، وكل هذه معامل لهضم بقية المواد الغذائية ، فهكذا فى المخ معامل مثل هذه ، ففيها مخازن للمعلومات ، ومنها ماهو للتحليل والتركيب ، ومنها ماهو للتذكر ، ومنها ماهو لابراز المعانى بالألفاظ . إذن تربية نفوسنا أشبه بتربية أجسامنا وهكذا تربية كل نبات وكل حيوان ، ولاجرم أن لكل نبات نتائج من ثمر وزهر وحب ، أفلا يكون كذلك تربية عقولنا وتكون نتائجها بحسب التربية الحاصلة فيها . فاذا كان الحنظل ينتج ثمرا مرا . والعنب ينتج ثمرا لذيذا ، فلماذا لاتكون هكذا عقولنا والجنة والنار كالعنب وكالحنظل . واذا كانت عقولنا مزروعة فى أدمغتنا وهذه تربيتها فكيف تكون تربية بلانتيجة . هذا ما لا يكون فاذا تجردت أرواحنا من أجسامنا فانها لاتكون إلا فى مراكزها التى تستحقها ، فهذا هو الدليل الطبيعى على الجنة والنار . الكلام على قوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم »

صحيفة

١٠٩ لم تظهر الشورى فى الأمم إلا بعد ظهور الاسلام . إن انكلترا التى هى من الجنس (السكانى) من (برطنيه) شمال غرب فرنسا جاءوا الى هذه الجزيرة وسموها (بريطانيا) وانتقلوا الى ايرلنده ثم دخلوا فى الامبراطورية الرومانية ، ثم خرجت الرومان منها فدخل الانجليز والسكسون والجوت وهم من شمالى ألمانيا فى القرن الخامس والسادس المسيحى ، وتغلب الفاتحون عليهم وسموها (انجلند) فأغار عليهم (دوق نرمنديه) وصار ملكا عليهم . وظهر ملوك انكلترا فى فرنسا . ثم كانت حرب المائة سنة ، وبه خرجت انكلترا من فرنسا فى القرن الخامس عشر المسيحى ، ولما حكمت أسرة استيوارت ثار البرلمان على شارل الأوّل وأعدموه سنة ١٦٤٩ وأصبحت انكلترا جمهورية ، ثم جعلوها ملوكية مقيدة إذ عينوا شارل الثانى سنة ١٦٦٠ الى سنة ١٦٨٥ فصارت ملوكية مقيدة ، ثم ظهر (فلتير) و(روسو) فى فرانسا ، وقد نشر الأخير العقد الاجتماعى ، وجاء بعده (منتسكيو) ففتح أذهان الشعب وعرفهم الحرّية التى يتمتع بها الانجليز ، وفصل القوى التشريعية والتنفيذية والقضائية ، وثارت الأمة وهدمت حصن الباستيل يوم ١٤ يوليو وازداد الجوع وساء ظنّ الفرنسيين بملكهم لويس وحكموا عليه بالقتل ونفذوه سنة ١٧٩٣ م ثم صارت جمهورية ولكن تولى نابليون العرش سنة ١٨٠٤

١١٢ خطاب المؤلف لله عزّ وجل يشكو ضعف هذا الانسان ، وخطابه لأمم الاسلام يقول لهم : « إن انكلترا فعلت مع شارل الأوّل ، وفرنسا فعلت مع لويس السادس عشر نص ما قاله عمر : من رأى منكم فىّ اعوجاجا فليقوّمني ، عمر الذى كان ثوبه مرقعا ١٤ رقعة ، ليصلح كل مسلم أهل قريته ، ويخاطب أمراء الاسلام يقول لهم : علموا الشعب كما فعل أمبراطور اليابان إذ علم الأمة وقد حفظت جيله . إن جهل الشعوب يضرّ الأمم ويضر الملوك

١١٥ موازنة بين سيرة عمر وجمهورية أفلاطون وتطبيق نظام الأمم العربية والشرقية والفرنجية عليها . تقسيم الحكومة الى خمسة أقسام : اروستقراطية ، وتيموكراسية ، واليغاركية ، وديموقراطية ، واستبدادية . فالاولى هم الفلاسفة ، والثانية الجند ، والثالثة أصحاب المال ، والرابعة لعموم الشعب ، والخامسة للمستبد الظالم . وقد أدهش المؤلف ما رأى من أن تعاليم الجمهورية جاء نظيرها على يد عمر وهو لم يعرفها ولم يقرأها ولكنه استنتجها من القرآن

١١٧ يحمد المؤلف ربه إذ عرّفه داء الاسلام ودواءه ، وقال : يجب أن يكون للأمة مجلس شورى والملك منفذ ، وبيت الملك أولى بالأمارة بشرط أن يكون مقيدا ، ومتى كان كذلك فلاضرر على الأمة منه ، فاذا لم يكن بيت ملك فليكن بالانتخاب ، وليكن خليفة الاسلام بالاقتراع بين أمراء الاسلام وتكون له مدة معينة ، ويجوز تجديدها ، وهنا حديث دار بين المؤلف وبين شيخ طريقة حكم أتباعه فى الصعيد ومنعهم من المعاصى بوهمهم انه مطلع على أسرارهم ، وهذا ضار ونافع لأنه لاينفع إلا عند جهل الأمة وهذه طرائق كعجل السامرى

١١٩ بيان العدل العام فى السموات والأرض وأن العدل والجمال يرجعان لشىء واحد ومقياس جسم الانسان والموسيقى يثبتان ذلك وكل هذه العوالم موزونة ولكن الانسان لم يقدر على مجاراة العدل والجمال فى هذه العوالم ولم يصل لعدل النحل والنمل والأرضة فى رعيتها فأمر رسوله بالشورى واستشار ﷺ أصحابه يوم أحد واتبع آراءهم فخرج وكان من رأيه هو أن لايخرج ولكنه اتبع الشورى :

(١) ولم يأخذ من بيت المال عمر درهما إلا باستشارة أصحابه

(٢) ومأأدال عمر بين بردين ، ولاجمع بين أدمين ، حتى لقى الله

صحيفة

١٢٠ (٣) ضرب رجلا بالدرة لما ألح عليه ثم طلبه وقال له اقتصّ منى واضربنى كماضربتك فسامحه الرجل

(٤) وقضية القبطى مع ابن عمرو بن العاص معلومة

(٥) كان شفيقا على أهل الذمة ، ورأى شيخا ذمّيا يسأل الناس فجعل له رزقا من بيت المال

(٦) أمر العمال أن لايمسكوا الجند أكثر من أربعة أشهر

(٧) شرط على العمال أن لايركبوا برذونا ، ولا يأكلوا نقيا ، ولا يلبسوا رقيقا ، ولا يغلقوا أبوابهم دون الناس

(٨) شاطر سعد بن أبى وقاص على ماله وأبا هريرة

(٩) كان يريد أن يأخذ فضل الأغنياء فيصرفه على الفقراء

(١٠) حرّم ضرب الأجسام

(١١) وشرط أن يكون العامل رقيق القلب

(١٢) حكاية عمر مع جبلة بن الأيهم ملك غسان إذ لم يفرق فى العدل بين الأمير والصعلوك

(١٣) عزل سعد بن أبى وقاص بمجرّد شكوى لم تثبت خيفة العاقبة

(١٤) أمر العمال أن لايفرقوا بين الضعفاء والأقوياء ، والعبيد والسادة

(١٥) أمر العمال أن تكون منازلهم قريبة ليسهل الوصول اليها

(١٦) حرّم فى خطبته الضرب

(١٧) لما حضر الموت سلمان الفارسى عامل عمر على المدائن (وكان يأكل خبز الشعير ويركب الحمار بغير إكاف) بكى وقال : إن النبىّ ﷺ قال : إن فى الآخرة عقبة لايقطعها إلا المخفون ، فنظروا فلم يجدوا إلا دواة وركوة ومطهرة

١٢٧ خاطب المؤلف المسلمين يقول لهم : « ارجعوا الى نفس النبوّة فادرسوها درسا مفصلا ، قد ضنّ عمر بالمسلمين أن يكونوا تحت امرة من يتولى الخلافة بحق النسب خيفة أن تترك الشورى سدى ، وقد حصل ما كان يخافه ﷺ فى خلافة بنى أمية و بنى العباس ، عرف المسلمون نعمة الشورى فى زمن النبوّة وخلافة أبى بكر وعمر فقتلوا عثمان بسبب ضئيل جدا لم يبلغ عشر معشار ما حلّ بالفرنسيين والانجليز والألمان لما قاوموا ملوكهم

١٢٨ جمال الحكمة والعلم فى آية الشورى وآية : « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودّة فى القربى » إن من تفسير القربى قولا يفسرها بالتقرّب الى الله تعالى كآية « إلا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا » ولقد تغالى الناس فى اعظام الصالحين و بعض أرباب النسب حتى أضاعوا الشورى ، وأنت يا ألله تقول « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، اللهم إن الأمارة لاتجوز إلا بالكفاءة ، وإكرام آل البيت لايختلف فيه اثنان ، ولكن ليس معناه أن نولى أحدهم الولاية وغيره أنفع للأمة منه ، أوننذر لهم النذور ، ولقد تطابقت آراء العلماء والصلحاء على ذلك ، وقد قالوا : إن أسباب الانقطاع عن الله :

(١) الهدية للصالحين دون وجه الله

(٢) التوسل الى الصالحين بالله

(٣) زيارة الصالحين وعليهم صلوات

(٤) خوفهم من الظالم على العمر وعلى الرزق

صحيفة

(٥) الطمع فى الظالم

(٦) النصرة للكافرين

(٧) عدم النصيحة للمسلمين

(٨) استحلاء التعب فى طلب الدنيا

(٩) طلب الدنيا بما هوأهون منها

(١٠) أن يعمل العبد بقصد رحته لابقصد الله الكريم

(١١) المعاصى فى نحو المساجد

(١٢) اللواط

(١٣) ضرب الرجل امرأته

(١٤) المنة على العيال

(١٥) الحسد

(١٦) الاقدام على المعصية مع معرفتها

(١٧) جمع الدنيا من الحرام

(١٨) عقوق الوالدين

(١٩) مخالطة المحجوبين

(٢٠) التفريق بين الخلفاء الأربعة

١٣٢ من فراسة عمر رضى الله عنه انه قال لابن عباس : إنى أخشى أن استعملك أن تستحلّ الفىء على التأويل « واعلموا أنما غنمتم من شىء » الآية ، وقد حصل ذلك فعلا أيام علىّ رضى الله عنه لما استعمله ، وقد منع ﷺ قرابته أن يعملوا له عملا فى حياته لئلا تحدثهم أنفسهم بالامارة ، وطلب العباس إمارة من النبىّ ﷺ فلم يرض بذلك ، والنبىّ ﷺ يقول : « لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى »

١٣٣ الحياة النيابية فى أفغانستان ، وخطاب الملك نادرشاه يقول : « إنما المؤمنون اخوة ، وشكر الله على أن أمته بعافية ، وذكر انتشارالاسلام والشورى فى أوّل الأمر وهناك لم يفرقوا بين المسلمين من حيث العشائر والقبائل والأمم ، والصفوف فى الصلاة مثال من أمثلة المساواة ، وتأسف لأن المسلمين لايعرفون المصلحين بل يقتلونهم ، ولابد من وجود أصل ثابت لأفغانستان وهو مجلس الشورى (البرلمان)

١٣٧ ﴿ تفسير سورة الزخرف ﴾ السورة مكتوبة مشكلة كلها

١٤٠ تفسير البسملة . الناس كلما اعتادوا شيئا جهلوا جله كالطعام وكالبسملة وكالشمس والقمر ، إن فى سورة الزخرف ذكر الرحمة ثمان مرات (٢) على هيئة المصدر و (٦) بهيئة الصفة المشبهة ، فليكن البحث أوّلا فى المآكل والمشارب ، وأن الاكسوجين جزء من الماء بل هوالجزء المهم وهو نصف الأحجار وثلاثة أرباع الحيوان ، إذن الماء حين يغسل به البلاط تقول الاكسوجين سائلا غسل الاكسوجين جامدا وهوأيضا فى الهواء نتنفس به ، إذن هوطعام وشراب ونفس (بالفتح) وغيرها والقناة الهضمية فرّقت على مناطقها المراد العضوية التى لازلال فيها كالنشاء والسكر وكالزيت والشحم فهذه دخلها الفحم ولازلال فيها ، والمواد العضوية التى فيها الزلال كالفول والعدس والبسلة والقمح

صحيفة

والذرة ، وهناك مواد غير عضوية مثل كربونات الجير وفوسفات الجير فى العظام ، فطعامنا مفرّق على البرّ والبحر والانسان يجمعها و ينزلها فى القناة الهضمية ، فيجد كل طعام منطقة لهضمه ، فالمناطق الأرضية تقابلها المناطق فى أجسامنا للهضم ، وهذا الفحم الذى يكون فى السكر والورق والريش والعظم واللحم والجلد والشمع والدهن والزيت له آثار وهى المادة السوداء ، وهو فى الحجرولبس يخلو منه إلا الملح ، والفحم أمير والاكسوجين وزير ، والاوزوت فى الهواء هونفس المواد الزلالية الداخلة فى اللحم والحبوب والبيض ، واذا كانت الرحمة ذكرت ثمان مرات فوق ماجاء بالبسملة و (٢) فى البسملة فلابد من فهم الرحمة . ولامعنى للرحمة إلا ماهوثابت ، أما المتغير فهومقدمة للرحمة ، وههنا شرح للحواس الخمس من اللمس والذوق والشم والسمع والبصر ، وذكر (٢٦) حكمة فى البصر

١٤٤ ومنها طبقات العين ، وانها هى التى أمكنها أن تنظرالشمس ، ثم ان هذه كلها نعم متغيرة كالذى جاء فى آية « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة » الآية ، وههنا يقال ان العين ليست هى الشمس كما ان الانسان ليس هوالله ، فالعين فينا بالنسبة للشمس كأرواحنا بالنسبة لله ، إذن الحلول والاتحاد خطأ فاحش ، فكل ما جاء فى كتب الصوفية ﴿كالفتوحات المكية﴾ مما يوهم خلاف ذلك يجب تأويله أوتركه ، وعلى الانسان أن يترقى من الأخص الى الأعم ، ومن المحسوسات الى المعقولات ، وهو عالم المثال ، وعالمنا متغير . وهذا كله كلام أفلاطون ، فردّ عليه أرسطاطاليس بقوله : « ليس هناك إلا المادة والصورة » ، وردّ عليه من بعده بأن فى كلامه تناقضا ، ثم تركوا هذه المباحث ، وههنا ذكر المؤلف ملخص المقام كله وهوأن الجمال موضح فى السجدة ، والطعام والشراب يظنّ الصبيان أنهم يعلمونهما ، ولكن الذى يفهم حقائقها هم العلماء ، والرحمة ذكرت (٨) مرات فى هذه السورة

١٥٠ ولما أخذنا فى تفصيل الرحمة وجدنا أن الحاسة كلما كانت أقرب الى محسوسها كانت أخسّ ، فاللمس أدناها والبصر أعلاها ، وهل بعد الضوء المبصر إلا عالم العقل وهوالدائم وهوالمشرف على جميع الوجود لأن الموجود كلما كان أبعد عن المادة كان أبقى وأدوم ، ثم جاء قوم وقالوا : « ليس هناك عالم مثال ، بل المدارعلى المادة » ، و بعد ذلك اعترض قوم على هذه الأقوال ، وملخص ذلك كله أن سعادة أهل الأرض لاتكون بالانغماس فى الشهوات ، وسنحقق هذا المقام فى ﴿سورة القتال﴾

١٥١ بعد هذا أمكن فهم الآيات مثل : « واذا بشر أحدهم الخ » ، وههنا محاورات فلسفية يونانية ، واثبات أن هذه السورة مفسرة قبل نزولها بالفلسفة

١٥٢ ﴿مقاصد السورة﴾ ــ ذكر هنا (١٨) مقصدا ولكل مقصد آية من السورة

١٥٣ التفسير اللفظى من أوّل السورة الى قوله « ويحسبون أنهم مهتدون »

١٥٦ الكلام على المقاصد من العاشر الى الثالث عشر من قوله « اذا جاءنا » الى قوله « ومثلا للآخرين »

١٥٨ ذكر المقاصد من ١٤ الى ١٨ وهى الأخيرة من قوله « ولما ضرب ابن مريم مثلا » الى آخر السورة

١٦٠ حيوان ذرىّ يدير دولابا

١٦١ فى هذه السورة سبع لطائف ، اللطيفة الأولى والثانية ، ماتشير اليه (حم) من الحمد يرجع فى نهايته الى العلوم الطبيعية والفلكية وكل ماهو دليل على جمال الصنع الإلهى

١٦٢ بيان أن أبناء العرب خصوصا اليوم مسؤلون عن القرآن ونشره ، ولن يتمّ لهم ذلك إلا بقراءة علوم الأمم كلها ودرس لغاتها ، ثم تفهيم الأمم دين الاسلام بالحسنى والمودّة عملا بقوله تعالى هنا « وسوف تسألون » . وقد قال اللورد هيدلى للمؤلف : « إن كثيرا من الانجليز يحبون أن يسلموا ، ولكن

لايجدون

صحيفة

لايجدون من يعتمدون عليهم من علماء الاسلام حتى يحتجوا بهم عند عشيرتهم » . إن أبناء العرب والمسلمين اليوم يحملون القرآن ، وأوروبا قد درست بعض العلوم ، فلكل عمل فى رقىّ الانسانيـة . وهذا وذلك فى الحقيقة متحدان ، وهذا يوافق آية « ليظهره على الدين كله » . ألم تر أن بابا رومه كان يستعبد ملوك أوروبا ، ويمسكون ركابه اذا ركب ، ويحرق بالنار مخالفيه ، وألزم أمبراطور ألمانيا أن يقف حافيا على بابه ثلاثة أيام ليغفر له ، ورفس مرة برجله ملك جرمانيا

١٦٤ اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى « إنا وجدنا آباءنا على أمة » وبيان أن هذا النوع الانسانى ابتلى بالتقليد والاتباع بلاعقل ، وهـذه الآية تلزم كل من له ذكاء فى الاسلام أن يفكر فى الدين وارتقاء الأمم الاسلامية

اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى « قالوا هذا سحر » الى قوله « فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب الخ »

١٦٥ اللطيفة الخامسة فى قوله تعالى « حتى اذا جاءنا » الى قوله « إلا المتقين » وبيان مامعنى الحب فى الله ، وكيف يكذب من يظنّ أن معنى الحب لله أن لا يكون له سبب بل سبب حب الله كل طاعة وما يقرب منها وبضدها تتميز الأشياء

١٦٧ اللطيفة السادسة فى قوله تعالى « وانه لعلم للساعة » وأن هذه الآية لاتدل على نزول المسيح إلا على وجه من ثلاثة وجوه ، فدلالتها غير قطعية ، وبيان الأحاديث المروية فى المهدى المطعون فيها والمسيح وآراء الصوفية فى ذلك وفى غـيره ، وكيف كانوا قديما لايتكلمون فى المهدى ، ثم اقتبس المتأخرون منهم القول بالحلول والوحدة من الامامية والرافضة القائلين بألوهية الأئمة وحلول الاله فيهم وقالوا بالقطب والابدال والنقباء ، وأشربوا أقوال الشيعة فقرءوا كتب الاسماعيلية وفيها الكلام على المهدى المنتظر وأن هذه كلها آراء وهمية كالذى ظهر فى كتب ابن العربى من تحديد زمنه فظهر خطؤه ، وههنا تأسف المؤلف على هذه الأمة المسكينة التى تطرق الوهم الى أكابرها وعظمائها وأجلائها الأعلام ، وبيان رأى ابن خلدون أن المهـدى لن يقوم إلا بعصبية وعصبية قريش قد ذهبت كأمس الدابر ، وانه اذا صحّ فانما يكون ذلك فيمن لهم اليوم عصبية كبنى الحسن الخ ، فأما قيام رجل يدّعى المهدوية ولاعصبية فذلك لابقاء له ، وبيان رأى المؤلف وهو أن المسلمين عليهم أمر واحد وهو أنهم يجدّون من الآن فى ترقية التعليم فى الأمم الاسلامية وتعليم كل ذكر وكل أنثى بالتـدريج ، فههنا تعم الهـداية وتعم الرحمة العيسوية ، فاذا نزل المسيح أو المهدى أو غيرهمـا وجد الأمم مستعدّة لفهم روحه ، إن المسيح أو المهدى لن يقلب طباع الأمم فى بضع سنين . كلا . فلنقلب نحن طباع الأمم ليعمّ السلام ، لأننا معاشر المسلمين خلقنا رحمة للعالمين تبع رسولنا ﷺ ولن تـكون رحمة عامة إلا بذلك ، وهـذا هو الحق الصراح ، فأما أن ننام نحن الآن لننتظر من يأتى بعـد آلاف السنين ويربى جيلا هناك فهذا خور فى العزائم وجهل بالدين والقرآن ، وهنا ذكر المؤلف أن الأمم الاسلامية يجب على قادتها أن يوجهوا هممهم الى التعليم العام ومعرفة هذا الوجود ، ومتى عرفوا الحقائق زال الاشكال ، وهذا هو الذى يوجب اتحاد المسلمين ، ومنع المؤلف الأمم الاسـلامية من المناقشات فى المذاهب المختلفة من سنية وشـيعة وزيدية ونحوها ، فليترك لكل امرئ ما اعتقده ، ولتوجه القلوب لغرض واحد عام

١٦٩ اللطيفة السابعة فى قوله تعالى : « فاختلف الأحزاب من بينهم » وبيان أن النصارى منهم ملـكانية يعتقدون بالتثليث ، ونسطورية يقولون باشراق الـكلمة على جسد عيسى الخ ، ويعقوبية يقولون : « انقلبت الـكلمة لحما ودما الخ » . الملـكانية هم الـكاثوليكية ، والقسمان الآخران ليسا فى أوروبا

صحيفة

ورئيس الكاثوليكية البابا الذى أذلّ ملوك أوروبا قديما وأنكره (البروتستانت) الذين يخالفون فيه كما يخالفون فى كيفية الصيام فلايمنعون إلا أكل اللحم وما تولد منه ، وهناك طائفة (الاورثودكس) بالروسيا ، وهناك فرقة اسمها (اللاتينية) ، وههنا ذكر تواريخ أمم أوروبا فى المسيحية الذى تقدم بأوضح من هذا فى ﴿آل عمران﴾

١٧١ اللطائف العامّة للسورة كلها : اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « إنا جعلناه قرآنا عربيا » مع آية « وانه لذكرلك ولقومك » ، وههنامقامان : الأوّل فى غريب القرآن ، والثانى فى الكلام على الأمم العربيــة ، والمقام الأوّل جاء فيه أحاديث وآثارللحض على معرفتــه ، وفيه ذكر ماتوقف فيه عمر رضى الله عنه وأكابر الصحابة ، واسهاب الكلام على ماروى عن ابن عباس من تفسير غرائب القرآن كلها . وقد جاء هنا منها كثير من قوله « يؤمنون » أى يصدّقون الى قوله « حمأ مسنون » طين رطب ، وقد أحال المؤلف من أراد الاطلاع على الباقى منه على كتاب « الاتقان » فى علوم القرآن وهكذا ذكر المؤلف الأشعار المروية عن ابن عباس شواهد على كلمات فى القرآن مثل تفسير الوسيلة بالحاجة وشاهدها قول عنترة * إن الرجال الخ * . وههنا ذكر (١٠) أبيات من نحو (١٥٠) بيت وأحال القارئ على كتاب الاتقان المذكور

١٧٥ الكلام على نفس الأمة العربية التى اختارها الله بما فيها من المزايا وصفات الشهامة لنشر دينه ، وكيف اضمحلت بعد ذلك ، وأصبحت متفرّقة ، فهى فى شرفها لاتضارعها أمة ، وفى ذلها كذلك لتفرّقها تفرّقا معيبا

١٧٦ محاورة بين المؤلف و بين المرحوم لطيف باشا سليم ، وقول الثانى : « ان الأمة المصرية لن ترتقى لأنها لم تقتبس من الأمم شيئا » ، وقول الأوّل : كلا . ان آراء مصطفى باشا كامل التى كانت تنشر فى جريدة اللواء غيرت آراء تلاميذ المدارس فعرفوا معنى الوطنية ، ونسبتهم الى تلك المعرفة تقرب بعض القرب من نسبة معرفة العرب الجاهلة للاجتماع إذ جاءهم الدين ، وهذا الشعب العربى كله مامنعه من الرقىّ إلا انه لم يتعلم وسيرتقى الآن ، وظهر صدق قول المؤلف بظهور أحزاب بمصر كالحزب الوطنى والوفد والأحرار الدستوريين : وهكذا جمعيات الشبان المسلمين ، وظهرت أيضا فى سوريا وفلسطين والعراق جمعيات ونابغون ، إذن صدقت فراسة المؤلف ، وههنا حكم المؤلف بأن رقىّ هذه الأمم اليوم ابتـدأ فعلا ، وعقد لذلك سبعة فصول : الفصل الأوّل فى المدنية العربية فى نهضة أوروبا ، وأن برتسلو العالم الفرنسى الكيماوى لفت أوروبا الى وجوب معرفة تاريخ العلوم وانه عقد مؤتمر فى هذه السنة بباريس حضره علماء الأمم حتم معرفة تاريخ الأمة العربية لهذا الغرض ، ولقد ألقى (سفريست) العلامة فى الطب محاضرة فى الحفلة التى أقيمت بألمانيا على مضىّ ألف سنة على الطب العربى ودهش من الجدّ وحب البحث المجرّد عن الغرض والتحمس للعلم

١٨١ أثرالطب العربى . وانه انما ظهر واتسع فى عهد الدولة العباسية لاسيما فى عهد المأمون ، وظهرنابغون فى القرن العاشر الميلادى فيه منهـم الرازى فى آسيا ، وابن الجزار فى افريقيا بالقيروان ، والزهراوى بالأندلس ، وللرازى مائة كتاب فى علوم مختلفة ، وههنا جاء ذكر ابن سينا واهتمام أوروبا بعلومه ، ونقلت كتبه الى اللاتينية

١٨٣ الفصل الثانى فى أسرار قوله تعالى : « وسوف تسألون » وأن هذه الأمة قد عوقبت بما أهملت ، وذلك ظاهر فيما كتبه الأمير شكيب أرسلان فى رحلة الأندلس ، وكيف رأى المآذن لاتزال كما هى

صحيفة

موضوع واحد يقصد به أن تنوّع العلوم بتنوّع تلك الآيات ، وذلك التنوّع هو الذى يثير فى النفوس الرغبة وانشراح الصدور

٢٠٧ تقدم الكلام على جذور الذات فى سورة النمل ورسم بعض أشكالها هناك ، فلنذكر هنا الجذور التى لم تنشأ من الجذر الأصلى بل من الساق وهى الجذور العرضية (شكل ١٠) للشليك وكالذرة والقمح لأنها عارضة ، ولذلك يستعمل ترقيد النبات لأجل أن يكثر المحصول (شكل ١١) وقد تكون الجذور هوائية (شكل ١٢) فى الفيكوس البنغالى

٢٠٨ إن اتجاه الجذر دائما يكون الى أسفل تجربة (شكل ١٣) بادرة معكوسة ، وتجربة الاصيص المنكس (شكل ١٥) وههنا بيان (شكل ١٦) للانتشار الغشائى ، وذلك ان أنبوبة مسدودة بمثانة فيها ماء محلول فيه سكر يحيط بها ماء نقى ، فهذه المثانة سمحت للماء الخارج أن يدخلها فيرتفع الى أعلى والماء الداخل فيها الذى ذاب فيه السكر أن يتسرّب الى ماحولها ، وهذه العملية بعينها هى التى تكون فى النبات فهو يسمح لما حوله أن يرتفع فيه كما ارتفع فى الأنبوبة ولكنه يأخذ ولا يعطى بعكس الأنبوبة والمثانة

٢٠٩ ههنا شكل ١٧ و ١٨ و ١٩ و ٢٠ و ٢١ لاثبات ارتفاع العصارة فى النبات الى أعلى ، ومن عجب أن الجذور تذيب المواد الصلبة (شكل ١٨) فقد حللت الرمل ، والجذر يثبت النبات فى الأرض بالمنطقة القريبة منها ويتنفس فى الأرض وحزمها يعين على ذلك ، وموازنة الجذر فى افرازه بما يفعله الانسان فى هضم الطعام . الجذور تهدم المنازل بافراز السوائل ، فأما الثلج فتكسيره الجبال يكون بالضغط ، وهذا درس للناس ، فالأمم الصاغطة على الأمم كالثلج تسخرها تسخيرا ماديا والأمم الراقية تعلمها كما هو شأن الجذور ، والماء كالأمم العاقلة والثلج كغيرها . والشكل الثالث وهو (١٩) لورقات الترمس لأنها تنام ليلا وتستيقظ نهارا . وفى (شكل ٢٠) هيئة الانتفاخ المحرّك للأوراق فيدفع الماء الورقة للحركة بنزوله فيها وتنقبض اذا قلّ اندفاعه ، وللضوء تأثير فى الماء شدة وضعفا ، والنباتات المستحية تهيجها الملامسة فهى كالحيوان ، وهناك حركات ذاتية (شكل ٢١) فيه ورقتا القاعدة تتحركان وتتمان الدورة فى مدة من دقيقتين الى خمس دقائق

٢١١ الورق فى زمن الخريف يصفر ، وذلك لأن هناك طبقة من الفلين تدخل قبل سقوط الورقة فى قاعدتها فتساعد على عدم وصول العصارة اليها وعلى سقوطها ، وقبل السقوط أيضا يتكوّن برعم يسكن مدة الشتاء وينمو فى الربيع وهذه أوراق متجدّدة كما فى المشمش ، وهناك دائمات الأوراق كالصنوبر واليوكاليتس

٢١٢ بهجة العلم فى آية : « والذى نزل من السماء ماء بقدر » وابه أربعة فصول : أوّلها ان النبات موزّع على الماء وعلى الصخر والبلاد الحارّة والباردة الخ وههنا خاطبت الشمس الأرض قائلة : اذهبى الى مدارك وأنا أرسل زوجك وهو الضوء اليك ، وستلدين ذرّية وهم أبناء آدم المطرودين من الجنة ، نغذى المغنسيوم والكبريت والفوسفور والحديد والكلور لاصلاح العضلات والدم والمخ واحمرار الدم وهضم الطعام . فهذا هو الجهاز أخذته الأرض لتتهيأ لزوجها . والفصل الثانى فى تقسيم النبات على الفصول فأكثر فى زمن الربيع والحنطة وماعطف عليها فى زمن الخريف وهكذا . والفصل الثالث فى تقسيمه على حواس الحيوان ، فالأزهار للنظر ، والروائح للشم ، وحركاته للأذن ، وطعومه للذوق ، ونعومة القطن مثلا للمس

٢١٥ الفصل الرابع فى تقسيمه على منافع الانسان ، فهو فاكهة ودواء ، إما عام كالصفصاف إذ هو يمنع الحمى

صحيفة

اذا غلى أوقيتان منه فى رطل ماء وشربا ، وكالكافور إذ يمنع الأمراض العصبية التى تجعله لايحس (وهو المعفرت) فيستعمل له التفريح و يسحق الكافور له ليرش على فرشه ليمنع التشنج ويمنع الاستمناء باليد ومغلى قشر البلوط وورق الحور أو الزيتون مثل الصفصاف ، ثم ان الجلد والأعصاب والخوف ومرض الكلية والكبد والنزلة المعوية ينفعها ما يأتى على الترتيب أكل الجزر والخس والبرتقال والبقدونس والطماطم والقرلة ، وهكذا الخل والماء اضربة الشمس ، وعصير الليمون للدفتريا ، ومسحوق الطباشير مع لبن البقر لمنع اسهال الطفل ، وبزر الخلة لوجع الشقة

٢١٦ بيان أن هذه الأمثلة مقدمات لما سأذكره من أن هذه العوالم حولنا أشبه بالروايات والقصص كقصة مدينة النحاس التى كان فيها صور مصنوعة بالحكمة ، وحولها السياف الذى يقتل من يقرب منها وكقصة فرعون ملك مصر الذى رأى صورة ابنة الجان فهام بها وساح لأجلها فى الشرق وعاين الموت ثم عثر عليها ونزوّجها ، هكذا نذكر هنا أن حمامتين حمراء و بيضاء ارتفعتا فوق الجوّ وهناك عجلات تجرى فيه وقرب خرجت من البحر فاتحدت مع العجلات ، وهناك فى الأرض تماثيل من الطين . و بسبب الحمامتين وضعت هذه الصور ونطقت ، وهناك نمل كثير وضعت مايشبه الحصى والرمل وقد ارتفع فوقهما مايشبه القصور الخضر فيها مخازن ، وهناك صورة لجبل هالايا تخرج أصوات من أعضائها وجاء النمل فأخذ من تلك المخازن ووضعه على مواضع الأصوات فى تلك الصورة الهائلة فتنقطع تلك الأصوات حالا أو بعد حين ، وتفسيره أن الحمامتين هما الحرارة والضوء والعربات الرياح وقرب الماء هى البخار وباجتماعهما يكون السحاب ، والحرارة والضوء بالحاحهما على التربة يكون ظهور النبات والهيكل عظيم الجثة هو نوع الانسان ، والأصوات دلائل الأمراض الموزّعات على الأجسام ، وطوائف النمل هم الأطباء ، وههنا ذكر أن النبات لواختص بزمان لتعطل الناس ، أو بمكان لتعطلت الأرض ، النبات (٢٥٠) ألف نوع موزّعات على حاجات الحيوان والانسان عضوا عضوا ، والحرارة والضوء يساعدان المغنسيوم على منع الفتق بدخوله فى الخيار ، والكبريت على منع الروماتيزم بدخوله فى نحو الفجل ، والجير على شفاء الجروح بدخوله فى نحو الكرنب والفسفور وعلى تغذية المخ بدخوله فى الخيار والجوز والحديد وعلى احرار الدم بدخوله فى نحو الكرنب ، والكلورين وعلى هضم الطعام بدخوله فى نحو الجزر الخ

٢٢١ اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : « ومن يعش عن ذكر الرحمن الخ » وذكر أن سعادة الجنات الحقيقية محصورة فى الوقوف على الحقائق العالية ، وهذه لها مقدمة بذكر ثلاث مسائل حسابية وأخرى هندسية وهى تقسيم العدد بقسمين وتقسيمه بنصفين ثم العددان المجذوران على الولاء ومساواة زوايا المثلث لقائمتين ، وذكر أن مربع الوتر المقابل للزوية القائمة يساوى مجموع مربعى الضلعين الآخرين ، وذكر الزاويتين المساويتين لقائمتين

٢٢٢ وعلى مقتضى هذه المسائل الست الجزئية الرياضية يمكننا أن نعرف الحقائق الكلية اليقينية ، إن هذه القواعد تشتمل على مالانهاية له من الأشكال والأعداد وهى معقولات بالبصائر والذى يحس هو المعدود والألفاظ وما الأعداد والأشكال إلا صور فى الذهن ، إن الذى فى الذهن لايتغير ومافى الخارج متغير والنفس هى المدركة لتلك الحقائق ، ولتوضيح ذلك نقول :

(١) الشمس (٢) وشجرة الورد (٣) وصورتها (٤) والعين (٥) والقواعد العلمية (٦) والنفس (٧) والله (٨) وعالم المثال

صحيفة

إن (٧) و (٨) فى نظير (١) و (٢) فكما صنع الله شجرة الورد بواسطة الشمس صنع هو نفسه بلا واسطة الكليات العقلية ، وكل هذا عرفته من آية « وجعلنا سراجا وهاجا » وأنا أصلى فى السحر ، وههنا موازنة للعقول فى استخراج المعقولات بحرارة الشمس تستخرج البخار ، وهذه النظرية نعرف بها أكثر أسرار القرآن مثل « أفتمارونه على مايرى » ومثل « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » ذلك لأنها من غير عالمنا ، وذكر اللات والعزى ضرب مثل للعالم المادّى ، وآية « ومن يعش عن ذكر الرحمن الخ » فالرحمن يشير للامور الثابتة والشيطان للامور التى لاثبات لها وقد ظهر ذلك كله بالبرهان

٢٢٥ يقول سقراط : « لايقدر على معرفة مالا يتغير إلا الفلاسفة ، وغيرهم تائهون بين الصور ، فهم ليسوا فلاسفة ، والفلاسفة أحقّ بحفظ الممالك ، وغيرهم أشبه بالعميان ، إن الفلاسفة يتفرّسون الحقيقة كالمصور يتفرّس الصورة ، ومن أوصاف الفلاسفة انهم يهيمون بسائر المعارف ليعرفوا حقيقة الوجود الخالد وهم لايتركون فرعا واحدا من العلم ، ومن صفاتهم الصدق من الصغر إذ لايجتمع الكذب والفلسفة فى عقل واحد ، والفيلسوف يحب اللذة العقلية لاغير ، ويكون عفيفا ، ويترك الصفات السافلة ، والوصمات الشائنة كالطمع والصغار ، ويكون شجاعا ، ولايبالى بالموت ، فهو ليس حادثا مروّعا ، ولا تكون فيه عجرفة ولاسفالة ولاجبن ، ولا يكون صعب المراس معتديا ، ويكون ذا عقل لطيف عادلا سريع الفهم فينجح فى العلم سريعا ، غير حليف للنسيان ، ويكون غرامه بالعلوم كغرام الشاب بمحبوبه فيقول فى قصير الأنف انه جذاب ، وفى الأنف الأقنى انه بديع ، وفى المتوسط انه يجعل الوجه واسعا ، وهكذا يمدح أنواع الخمر بأى حال ، وهكذا المولعون بالسماع فى جوقات الطرب ، وبالفنون الجميلة ، فهؤلاء كلهم فلاسفة زائفون ، وهم يعيشون فى أحلام ، فليسوا أحياء ، وعقولهم نسميها عند التلطف بهم متوسطة

٢٢٨ وهنا أجاب من سمع كلام المؤلف قائلا : « انه فهم بهذا الشرح مالم يفهمه من كلام أفلاطون »

٢٢٩ اللطيفة الرابعة فى آية « ادخلوا الجنة الخ » مع آيات أخرى وبيان الحكمة فى اتباع وصف الجنة بأن فيها غرفا بالكلام على انزال الماء من السماء والينابيع ، وفى ذكر الابل وخلقها والسماء ورفعها بعد السرر والأكواب والنمارق . الرجل بين امرأتين مرضع ومشتهاة ، وبيان الجمال والقدرة والعلم ، وأن الجمال والعشق فى الأرض تمرين ومقدمات لذلك الجمال الأعلى

٢٣٠ ملخص من الأحاديث الواردة فى صفة الجنة مثل اللبنات من الفضة والذهب والياقوت واللؤلؤ الخ .

٢٣١ كيف نعقل الشجرة التى يسير الراكب فى ظلها مائة عام فى الجنة ، وبيان أن ذلك سهل لأن المشترى أكبر من أرضنا (١٣٠٠) مرة . واذا فرضنا انه هو يسير حول كوكب الجوزاء الذى هو أكبر من شمسنا (٢٥) مليون مرة لم يكف مائتسنة لسير الفارس تحت تلك الشجرة فكيف بها اذا كانت فى نفس الجوزاء

٢٣٢ بيان أن فى الجنة مائة درجة مابين كل درجة ودرجة كما بين السماء والأرض ، وذكر الأنهار الأربعة فى الجنة ، وأن المرأة فيها لو ظهرت فى الدنيا لأضاءتها ، وساق الشجر من الذهب ، وسوار الرجل يطمس ضوء الشمس ، وأن الانسان لو اشتهى خيلا أو إبلا فى الجنة أعطيها فهو يعطى مايشاء ، وهنا بيان غناء الحور فى الجنة « نحن الخالدات الخ » وذكر سوق الجنة وأن داخلها يزداد حسنا لأنه يعطى الصورة التى يتمناها

٢٣٣ بيان أن غرفهم ترى كالكواكب فى السماء ، وانها ليست خاصة بالأنبياء ، وهم لايبولون ولايتغوّطون الخ

(تمت الفهرست)

٨٣٠٠٢

العـــــ ٢

مطبوعات جديدة تطلب من مكتبتنا

السيرة الحلبية

المسماة

إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون

للعلامة علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي

(طبعه جديده معتنى بتصحيحها بحرف جيل ونظام بديع على ورق جيد واقع في مجلدين كبار)

تقريب الاصول

لتسهيل الوصول

لمعرفة الله تعالى والرسول صلى الله عليه وسلم

تأليف

شيخ الاسلام ببلد الله الحرام . السيد أحمد زيني دحلان رحمه الله آمين

درة الناصحين

المحتوى على حكم بالغة في الوعظ والارشاد

جمع

العلامة الفاضل . الفهامة الكامل عثمان بن حسن بن أحمد الشاكر الخوبوى نفع الله به آمين

فتح القدير

الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير

لفخر اليمن بلاجدال ، نادرة زمانه ، مفحم أخصامه ، غزير المادّة قوى الحجة محي السنة ، قامع البدعة ، رافع لواء العلم بين الأنام ، العلامة القاضى الحافظ الضابط المحدث المفسر الشهير .

محمد بن على بن محمد الشوكانى اليمانى الصنعانى

صاحب (نيل الأوطار وغيره) المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ رحمه الله تعالى آمين

القائل فى خطبته ، وصفا لتفسيره [فهذا التفسير وان كبر حجمه ، فقد كثر علمه ، وتوفر من التحقيق قسمه ، وأصاب غرض الحق سهمه ، واشتمل على مافى كتب التفاسير من بدائع الفوائد ، مع زوائد فوائد ، وقواعد شوارد ، فان أحببت أن تعتبر صحة هـذا ، فهذه كتب التفسير على ظهر البسيطة ، انظر تفاسير المعتمدين على الرواية ، ثم ارجع إلى تفاسير المعتمدين على الدراية ، ثم انظر فى هذا التفسير بعد النظرين ، فعند ذلك يسفر الصبح لذى عينين ، ويتبين لك أن هـذا الكتاب ، هو لب اللباب وعجب العجاب ، وذخيرة الطلاب ، ونهاية مأرب أولى الألباب]

جار طبعه من النسخة الوحيدة المكتوبة بخط المؤلف ، المحفوظة كالدرة اليتيمة فى خزينة الدولة اليمانية المحمية ، نحو [القرن من الزمان] ولله الحمد لم تمتد إليها يد الحدثان .

وقد اعتنى بطبعه على ورق جيد ، بحرف جديد ، مع ضبط القرآن بالشكل التام ، مصححا بمعرفة لجنة من علماء الأزهر الشريف .

يحتوى على ٢٠٠٠ صحيفة تقريبا بقطع النصف مقسم على أربعة مجلدات وقريبا يظهر بمشيئة الله تعالى بشكل يسر الناظر ، ويبهج الخاطر والله ولى التوفيق

4641

518